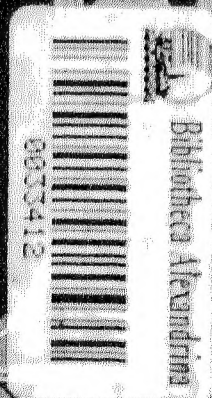


شرح البلغة

ابن أبي عمير

المجلد الأول

كتاب الجنب



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناسر
طبعة ثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة *

١ - نهج البوغة

اجتمع للإمام عليّ بن أبي طالب من صفات الكمال ، ومحمود الشامل والخلال ، وسناء الحسب وباذخ الشرف ؛ مع الفطرة النقية ، والنفس المرضية ، الملم يتهماً لغيره من أفضاذ الرجال .

(*) مصادر البحث والترجمة :

- ١ - البداية والنهاية ، لابن كثير - ١٣ : ١٩٨ - ١٩٩ ، (مطبعة السعادة) .
- ٢ - تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى - الجزء الرابع الورقة ٩ ، (مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) .
- ٣ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، لابن الفوطى ص ٣٣٦ ، (طبعة المكتبة العربية ببغداد)
- ٤ - درة الأسلاك في دولة الأتراك ؛ لابن حبيب الحلبي - وفيات سنة ٦٥٥ ، (مصورة دار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ ح) .
- ٥ - روضات الجنات لمحمد باقر الخوانساري ٤٠٦ - ٤٠٩ ، (طبع العجم ١٣٠٤ هـ) .
- ٦ - عقد الجمان للعيني - وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية ١٥٨٤ تاريخ) .
- ٧ - عيون التواريخ لابن شاكر - وفيات سنة ٦٥٥ ، (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ) .
- ٨ - فوات الوفيات ١ : ٥١٩ - ٥٢٢ (مطبعة السعادة) .
- ٩ - كشف الظنون ١٢٧٣ ، ١٢٩١ ، ١٥٧٦ ، ١٦١٥ ، ١٩٩١ ، (طبع إستانبول ١٩٤٣) .
- ١٠ - ماهو نهج البلاغة ، للسيد هبة الله الشهرستاني ، (مطبعة العرفان بصيدا) .
- ١١ - مجمع الآداب لابن الفوطى ، (في ذيل الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة - طبعة الحلبي) .
- ١٢ - لاسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر ، ليوسف بن يحيى الصنعاني ، الورقة ٢٦٠ - ٢٦٢ (مصورة دار الكتب المصرية ١٣٨٤٩ ح) .

تحدّر من أكرم المناسب ، وانتعى إلى أطيب الأعراق ؛ فأبوه أبو طالب عظيم المشيخة من قريش . وجدّه عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء ؛ ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم ؛ وبنو هاشم كانوا كما وصفهم الجاحظ : « ملج الأرض ، وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ؛ ولباب كلّ جوهر كريم ، وسرّ كلّ عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمقرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم . . . » (١) .

واختصّ بقرابته القريبة من الرسول عليه السلام ؛ فكان ابن عمّه ، وزوج ابنته ، وأحبّ عترته إليه ، كما كان كاتب وحيه ، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته ، وأحفظهم لقوله وجوامع كليمه ؛ أسلم على يديه صبيّاً قبل أن يمسّ قلبه عقيدة سابقة ، أو يخالط عقله شوبّ من شرك موروث ؛ ولازمه فتياً يافعا ؛ فى غدوّه ورواحه ، وسلمه وحر به ؛ حتى تخلق بأخلاقه ، واتّسم بصفاته ، وفقّه عنه الدين ، وثقف مانزل به الروح الأمين ؛ فكان من أفعه أصحابه وأقضاهم ، وأحفظهم وأوعاهم ؛ وأدقهم فى الفتيا ؛ وأقربهم إلى الصواب ؛ وحتى قال فيه عمر : لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن . وكانت حياته كلّها مفعمة بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور ؛ فعلى عهد الرسول عليه السلام ناضل المشركين واليهود ؛ فكان فارس الحلبة ومسعّر الميدان ، صليب النّيع جميع الفؤاد ؛ وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ؛ لقي فيها مالتى من تفرّق الكلمة واختلاف الجماعة ، وانفصام العروة ؛ ما طوى أضالعه على الهمّ والأسى ، ولاع قلبه بالحزن والشّجن ؛ وفى كل مالتى من أحداث وأمر ، وما صادف من محن وخطوب ، بلا الناس وخبرهم ، وتفتّن لمطاوى نفوسهم ، واستشف ما وراء مظاهرهم ؛ فكان العالم الجربّ الحكيم ، والناقد الصيرفىّ الخبير .

وكان لطيف الحسّ ، نقيّ الجوهر ، وضاء النفس ؛ سليم الذّوق ، مستقيم الرأى ،

(١) زهر الآداب ١ : ٥٩

حسن الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر الخاطر ؛ حوَّلاً قُلُوباً ؛ عارفاً بمهمّات الأمور إصداراً وإيراداً ؛ بل كان كما وصفه الحسن البصريّ : مهتماً صائباً من مراعى الله على عدوّه ، وربانيّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يكن بالثومة عن أمر الله ، ولا بالملومة في دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ؛ أعطى القرآن عزائمه ، ففاز منه برياض موفقة ، وأعلام مشرقة ، ذاك على بن أبي طالب .

كلّ هذه المزايا مجتمعة ، وتلك الصفات متآزرة متناصرة ؛ وما صاحبها من نَفَح إلهيّ ، وإلهام قدسيّ ، مكّنت للإمام علىّ من وجوه البيان ، وملّكت له أَعْنَةَ الكلام ، وألهمت له أسى المعاني وأكرمها ، وهيّات له أشرف المواقف وأعزّها ، فجرت على لسانه الخطب الرائعة ، والرسائل الجامعة ، والوصايا النافعة ، والكلمة يرسلها عفو الخاطر فتغدو حِكْمة ، والحديث يلقيه بلا تعمل ولا إعنات فيصبح مثلاً ؛ في أداء محكم ، ومعنى واضح ، ولفظ عذب سائغ ؛ وإذا هذا الكلام يملأ السهل والجبل ، ويتنقل في البدو والحضر ؛ يرويه على كثرتة الرواة ، ويحفظه العلماء والدارسون ؛ قال المسعوديّ : والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة وثيِّف وثمانون خطبة ؛ يوردها على البديهة ؛ تداول عنه الناس ذلك قولاً وعملاً^(١) .

ثم ظلّ هكذا محفوظاً في الصدور مروياً على الألسنة ، حتى كان عصر التدوين والتأليف ؛ فانتشرت خطبه ورسائله في كتب التاريخ والتبَيُّر والمغازي والمحاضرات والأدب

(١) تاريخ المسعوديّ ٢ : ٤٣١ .

على الخصوص ، كما انتُخبت كلماته ومأثور حكمه فيما وضعوه من أبواب المواعظ والدعاء ؛ وفي كتابي الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام وابن قتيبة منه الشيء الكثير .
وإذ كان الكلام الإمام عليّ طابع خاصّ يميزه عن غيره من الخطباء ، ونهج واضح يخالف غيره من البلغاء والمترسلين ؛ فقد حاول كثير من العلماء والأدباء على مرّ العصور أن يُفردوا الكلام كتباً خاصة ودواوين مستقلة ؛ بقي بعضها وذهب الكثير منها على الأيام ؛ منهم نصر بن مزاحم صاحب صفين ، وأبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ ، وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزديّ ، ومحمد بن عمر الواقديّ ، وأبو الحسن عليّ بن محمد المدائنيّ ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ ، وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعيّ ، وعبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد التميميّ ، ورشيد الدين محمد بن محمد المعروف بالوطواط ، وعزّ الدين عبد الحميد بن أبي الحديد ؛ وغيرهم كثيرون .

إلا أن أعظم هذه المحاولات خطراً ، وأعلاها شأنًا ، وأحسنها أبواباً ؛ وأبعدها صيتاً وشأوا ؛ هو مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسويّ ؛ في كتابه « نهج البلاغة » .

بناه على ما أفرده في كتاب « خصائص الأئمة » من « فصل يتضمّن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في الحكم والأمثال والآداب ، دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة ^(١) » ؛ ثم جعله كتاباً « يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ومتشعّبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب ؛ علماً أن ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواب الكلم الدينية والدينية مالا يوجد مجتمعا في كلام ، ولا مجموع الأطراف في كتاب » ^(٢) .

(١) مقدمة الرضيّ للنهج .

وأدار اختياره على ثلاثة أقطاب: أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ؛ وأسماء كتاب « نهج البلاغة » « إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليه طلابها، وفيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البايغ والزاهد »^(١). ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه سار في الناس ذكره، وتألق نجمه؛ أشام وأعرق، وأنجد وأنهم، وأعجب به الناس حيث كان، وتدارسوه في كل مكان. لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق؛ وما احتواه من جوامع الكلم، ونوابغ الحكم في أسلوب متساق الأغراض، بحكم السبك، يعد في الذروة العليا من النثر العربي الرائع.

ولم يذكر الشريف الرضى في صدر كتابه المصادر التي رجع إليها؛ أو الشيوخ الذين نقل عنهم؛ إلا أنه - كما يبدو من تضاعيف الكتاب - نقل في بعض ما نقل عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ، والمقتضب للعبرد، وكتاب المغازي لسعيد بن يحيى الأموي، وكتاب الجمل الواقدي، والمقامات في مناقب أمير المؤمنين لأبي جعفر الإسكافي، وتاريخ ابن جرير الطبري، وحكاية أبي جعفر محمد بن علي الباقر، ورواية اليماني عن أحمد ابن قتيبة؛ وما وجد بخط هشام بن السكبي وخبر ضرار بن حمزة الصدائي، ورواية أبي جحيفة، وحكاية ثعلب عن أبي الأعرابي^(٢)؛ ولعله في غير ما نقل عن هؤلاء، نقل من مصادر أخرى لم يصرح بها.

وعلى مرّ العصور والأزمان كانت نسبة ما في كتاب نهج البلاغة إلى الإمام عليّ مشاراً للشكّ عند العلماء والباحثين؛ المتقدمين والمتأخرين.

(١) مقدمة الرضى للنهج.

(٢) انظر نهج البلاغة ١: ٣٦، ٦٢، ٨٩ / ٢: ٥٩، ٢٦٦، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٩١.

وقد تناول ابن أبي الحديد هذه القضية بالبحث ، فقال :
كثيرٌ من أرباب الهوى يقولون : إن كثيراً من نهج البلاغة كلامٌ محدث صَنَعَهُ
قوم من فُصحاء الشيعة ، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضى أبي الحسن أو غيره ؛ وهؤلاء أعمت
العصبية أعْيَنَهُمْ فضَّلُوا عن النهج الواضح ، وَرَكِبُوا بُنْيَاتٍ^(١) الطريق ، ضلّالاً وقلة معرفة
بأساليب الكلام .

وأنا أوضح لك بكلام مختصر مافى هذا الخاطر من الغلط فأقول : لا يخلو إما أ
يكون كل نهج البلاغة مصنوعاً منحولاً ، أو بعضه .

والأول باطل بالضرورة ؛ لأننا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه
السلام ، وقد نقل المحدثون - كلهم أو جلهم - والمؤرخون كثيراً منه ، وليسوا من الشيعة
لينسبوا إلى غرض فى ذلك .

والثانى : يدل على ما قلناه ؛ لأن من قد أنس بالكلام والخطابة ، وشَدَّ أطراف من
البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب ؛ لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح ،
وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد . وإذا وقف على كراس واحد يتضح
كلاماً لجماعة من الخطباء أو لاثنتين منهم فقط ، فلا بد أن يفرق بين الكلامين ، ويتبين
بين الطريقتين ؛ ألا ترى أننا مع معرفتنا بالشعر ونقده ؛ لو تصفّحنا ديوان أبي تمام فوجد
قد كتب فى أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام نفسه
وطريقته ومذهبه فى القريض ؛ ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد
كثيرة منحولة إليه ، لمباينتها لمذهبه فى الشعر ؛ وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس كثيراً

(١) بنيات الطريق : هى الطرق الصغار تنسب من الجادة ؛ وهى الزهات .

لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره ، وكذلك غيرها من الشعراء ؛ ولم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصة .

وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً ، ونفساً واحداً ، وأسلوباً واحداً ؛ كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية ؛ وكالقرآن العزيز ، أوله كوسطه ، وأوسطه كآخره ؛ وكل سورة منه ، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور .

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً ، وبعضه صحيحاً ، لم يكن ذلك كذلك ؛ فقد ظهر لك بالبرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام .

واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه مالا قبيل له به ؛ لأننا متى فتحنا هذا الباب ، وسلطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو ، لم نثق بصحة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً ، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول : هذا الخبر منحول ؛ وهذا الكلام مصنوع ؛ وكذا ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواظ والآداب وغير ذلك ، وكل أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله والأئمة الراشدين والصحاب والتابعين والشعراء والمترسبين والخطباء ؛ فلنصرى أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره ؛ وهذا واضح ^(١) .

(١) شرح نهج البلاغة ١٠ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

٢ - شرح نهج البلاغة

وقد تصدر لشرح كتاب « نهج البلاغة » كثيرون من العلماء والفضلاء ؛ ذكر السيد هبة الله الشهرستاني^(١) أنها تنوف على الحسين شرحا ؛ ما بين مبسوط ومختصر ؛ منهم أبو الحسين البيهقي ، والإمام نجر الدين الرازي ، والقطب الرواندي ، وكل الدين محمد ميثم البحراني ؛ من المتقدمين ، وحبيب بن محمد بن هاشم الهاشمي والشيخ محمد عبدو محمد نائل الموصفي من المتأخرين .

ولكن أعظم هذه الشروح وأطولها ، وأشملها بالعلوم والآداب والمعارف وأملؤها هو شرح عزّ الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني ؛ صنفه برسم خزانة مؤيد الدين أبي طالب محمد بن أحمد العلقي ، وزير المستعصم بالله ، آخر ملوك العباسيين . « كان من فضلاء الشيعة وأعيانهم ببغداد ، مائلا للآداب مقربا للأدباء ، وكانت له خزانة كتب فيها عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب »^(٢) .

شرح في تأليفه في غرة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة ، وأتمه في سلخ سنة من سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ فقصي أربع سنين وثمانية أشهر ، وكانت كما يقول « مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام » ؛ وكسره على عشرين جزءا . ولما فرغ من تصنيفه أنفذه على يد أخيه موفق الدين أبي المعالي إلى ابن العلقي

فبعث إليه بمائة دينار وخلعة سنّية وفرس ؛ فكتب إلى الوزير :

أياربّ العباد رفعت ضيّعي وطُلت بمنكبي وبللت ريق
وزيغ الأشعري كشفت عني فلم أسلك بُذيات الطريق

(١) في كتابه ماهو نهج البلاغة ٨ - ١٠

(٢) الفخرى ٢٩٥ .

أحبُّ الإعْتَزالَ وناصره ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالنَّظَرَ الدَّقِيقَ
 فَأَهْلُ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ أَهْلِي وَنَعَمْ فَرِيقَهُمْ أَبَدًا فَرِيقِي
 وَشَرَحَ النَّهْجَ لَمْ أَذْرِكْهُ إِلَّا بِعَوْنِكَ بَعْدَ مُجْهِدَةٍ وَضِيقِ
 تَمَثُّلٍ إِذْ بَدَأَتْ بِهِ لِعَيْنِي هُنَاكَ كَذِرْوَةُ الطَّوْدِ السَّجِيقِ
 فَتَمَّ بِحُسْنِ عَوْنِكَ وَهُوَ أَنَا مِنْ الْعَيُّوقِ أَوْ بَيْضِ الْأَنْوِقِ
 بِأَلِ الْعَلَقَمِيِّ وَرَتْ زِنَادِي وَقَامَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْفَضْلِ سُوقِي
 فَكَمْ ثَوْبٍ أَرَبِقٍ نَلْتُ مِنْهُمْ وَنَلْتُ مِنْهُمْ وَكَمْ طَرَفٍ عَتِيقِ
 أَدَامَ اللَّهُ دَوْلَتَهُمْ وَأُخَى عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِاتَّخِيفِيقِ^(١)

وقد ذكر في صدر كتابه أنه لم يسبقه أحدٌ بشرح النهج سوى سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه، المعروف بالراوندي؛ وأنه قد تعرض لهذا الشرح فيما ناقضه فيه، في مواضع يسيرة، وأعرض عن كثير مما قاله. وقد التزم في شرحه أن يقسم الكلام فصولاً، فيشرح كلمات كل فصل شرحاً دقيقاً مشتملاً على «الغريب والمعاني وعلم البيان، وما عساه يشتهيه ويُشكل من الإعراب والتصريف»^(٢)، ثم يُورد «ما يطابقه من النظائر والأشباه نثراً ونظماً»^(٣)، ثم يستطرد إلى ذكر «ما يتضمنه من السير والوقائع والأحداث..»^(٤)، ويشير إلى ما ينطوي عليه هذا الفصل «من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفية»^(٥)، ويلوح «إلى ما استدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنسكت تلويحات لطيفة»^(٦)، ويرصعه بما يشاء «من المواعظ الزهيدة، والزواجر الدينية والحكم النفيسة، والآداب الخلقية، المناسبة لفقره، والمشاكلة لدرره»^(٧).

ثم ينتقل إلى الفصل الذي يليه؛ وهكذا.

(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

(١) الحنفريق : الداهية .

وهو بهذا المنهج الذى التزمه ، والطريق الذى سلكه ، قد نقل إلى هذا الكتاب
عُصاره ما فى كتب الأدب والنقد والتاريخ والنسب والمغازى والسير والفقه والجدل والمناظر؛
وعُلوم الكلام ، وخلاصة ما اشتملت عليه الرسائل والمتون والشروح والحواشى والتعليق ؛
وطرّزه بما اختاره من روائع الخطب ونوايغ الحكم ومصطفى الرسائل ؛ مما نطق به مصافح
الخطباء وبلغاء الكتاب وزعماء القول فى الجاهلية والإسلام ؛ ثم وشّاه بما انتخذه من
دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين ؛ من فاخر القول وحرّ
الكلام ؛ فى متنوّع فنون الشعر ومذاهبه ، ومختلف أغراضه ومراميه .

وقد ارتفع أسلوبه فى جميع مراحل الكتاب عن الخلل والتعقيد ، وتجاوَى عن الركاك
والتعسف والإيهام ، والتزم الأسلوب الرّصين ، والتعبير الفصيح ، واللفظ العربى الأصيل
سوى بعض الألفاظ التى تدسّت فيما نقله عن المتكلمين وأصحاب المقولات ؛ من نحو قولهم
« الحسوسات » ، و « السكلّ والبعض » ، وقولهم : « الصفات الذاتية والجسمانيات »
وقولهم : « أما أولاً فالحال كذا » ؛ ونحو ذلك مما يباه الفصيح من الألفاظ والسليم من
الأساليب ؛ وقد اعتذر عن ذلك المؤلف بقوله : « استهجنّا تبديل ألفاظهم وتغيير
عباراتهم ؛ فمن كلّم قوماً كلّمهم باصطلاحهم ، ومن دخل ظفّارٍ حَمَرٌ »^(١) .

وما أحسن ما اعتذر به !

وبتلك المزايا المتنوعة للكتاب ، خرج « كتاباً كاملاً فى فنّه ، واحداً بين أبنا
جنسه ، مُتمتّعاً بمحاسنه ، جليّة فوائده ، شريفة مقاصده ، عظيمة شأنه ، عالية منزله
ومكانه »^(٢) ؛ يردّ شرّعتّه العلماء ، وينهل من مورده الباحثون والأدباء .

(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٤ .

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠ : ٣٥٠ .

٣ - ابن أبي الحديد

ومؤلف هذا الشرح هو عزّ الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبي الحديد المدائنيّ ؛ أحد جهابذة العلماء ، وأثبتات المؤرخين ؛ ممن نجم في العصر العباسي الثاني ؛ أزهى العصور الإسلامية إنتاجاً وتأليفاً ؛ وأحفلها بالشعراء والكتاب والأدباء والمؤرخين واللغويين وأصحاب المعاجم والموسوعات .

كان فقيهاً أصولياً ؛ وله في ذلك مصنفات معروفة مشهورة ؛ وكان متكلماً جديلاً نظّاراً ؛ اصطنع مذهب الاعتزال ؛ وعلى أساسه جادل وناظر ، وحاجّ وناقش ؛ وفي شرح النهج وكثير من كتبه آراء منشورة مما ذهب إليه ، وله مع الأشعريّ والفزاليّ والرازيّ كتب ومواقف .

وكان أديباً ناقداً ، ثاقبَ النظر ، خبيراً بحاسن الكلام ومساوئه ، وكتابه " الفلك الدائر على المثل السائر " ؛ دليل على بعد غوره ، ورسوخ قَدَمه في نقد الشعر وفنون البيان .

ثم كان أديباً متضلّعا في فنون الأدب ، متقنا لعلوم اللسان ، عارفا بأخبار العرب ، مطالعا على لغاتها ، جامعا لخطبها ومنافراتها ، راويا لأشعارها وأمثالها ، حافظا لمُلحها وطُرفها ، قارئاً مستوعبا لكلّ ما حوته الكتب والأسفار في زمانه .

وكان وراء هذا شاعراً عَذْبَ المورد ، مشرق المعنى ، متصرّفاً مجيداً ؛ كما كان كاتباً بديع الإنشاء ، حسن الترسّل ، ناصع البيان .

ولد بالمداين في غرّة ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ؛ ونشأ بها ، وتلقّى عن

شيوخها ، ودرس المذاهب الكلامية فيها ، ثم مال إلى مذهب الاعتزال منها ؛ وكان
الغالب على أهل المدائن التشيع والتطرف والمغالاة ؛ فسار في دربهم ، وتقبل مذهبهم ،
ونظم القصائد المعروفة بالعلويات السبع على طريقتهم ، وفيها غالى وتشيع ؛ وذهب به
الإسراف في كثير من أبياتها كل مذهب ؛ يقول في إحداها (١) :

عَلِمُ الْغُيُوبِ إِلَيْهِ غَيْرُ مُدَافِعٍ	وَالصُّبْحُ أَبْيَضُ مُسْفِرٌ لَا يُدْفَعُ
وَالْيَمُّ فِي يَوْمِ الْمَعَادِ حِسَابُنَا	وَهُوَ الْمَلَأُ لَنَا غَدًا وَالْمَفْرَعُ
هَذَا أَعْتِقَادِي قَدْ كَشَفْتُ غِطَاءَهُ	سَيَصْرُ مُعْتَقِدًا لَهُ أَوْ يَنْفَعُ
يَا مَنْ لَهُ فِي أَرْضِ قَلْبِي مَنْزِلُ	نعم الْمَرَادُ الرَّحْبُ وَالْمُسْتَرْبُعُ
وَتَكَادُ نَفْسِي أَنْ تَذُوبَ صَبَابَةً	خَلْقًا وَطَبْعًا لَا كَمَنْ يَتَطَبَّعُ
وَرَأَيْتُ دِينَ الْإِعْتِزَالِ وَإِنِّي	أَهْوَى لِأَجْلِكَ كُلَّ مَنْ يَتَشَيَّعُ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ	مَهْدِيَّكُمْ وَلِيَوْمِهِ أَتَوَقَّعُ
تَحْمِيهِ مِنْ جُنْدِ الْإِلَهِ كِتَابُ	كَالِيمٍ أَقْبَلَ زَاخِرًا يُتَدَفَّعُ
فِيهَا لَالُ أَبِي الْحَدِيدِ صَوَارِمٌ	مَشْهُورَةٌ وَرِمَاحُ خَطِّ شَرْعُ
وَرِجَالُ مَوْتٍ مُقَدِّمُونَ كَأَنَّهُمْ	أُسْدُ الْعَرِينِ الرُّبْدُ لَا تَتَكَفَّمُ
تِلْكَ الْمَنَى إِمَّا أَغْبُ عَنْهَا فَلِي	نَفْسٌ تُنَازِعُنِي وَشَوْقٌ يَنْزِعُ
تَا اللَّهُ لَا أُنْسَى الْحُسَيْنَ وَشِلْوَهُ	تَحْتَ السَّنَابِكِ بِالْعَرَاءِ مُوزَعُ
مُتَلَفِّعًا حُمْرَ الثِّيَابِ وَفِي غَدٍ	بِالْخَضِرِ مِنْ فِرْدَوْسِهِ يَتَلَفَّعُ
نَاطًا السَّنَابِكُ صَدْرَهُ وَجَبِينَهُ	وَالْأَرْضُ تُرْجَفُ خَيْفَةً وَتَضَعُضُ
وَالشَّمْسُ نَاشِرَةُ الذُّوَبِ نَاكِلُ	وَالدَّهْرُ مَشْقُوقُ الرَّدَاءِ مُقَنَّعُ

(١) العلويات السبع ، ١٦ ، ١٧ .

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الدَّمَاءِ تُرَاقِي فِي أَبْدَى أُمِيَّةٍ عَنَوَةٌ وَتَضِيعُ
يَأْبَى أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ إِنَّهُ خَيْرُ الْوَرَى مِنْ أَنْ يُطْلَ وَيَمْنَعُ^(١)
فَهُوَ الْوَلِيُّ لِثَارِهَا وَهُوَ الْحَوُّ لَ لَعْبُهَا إِذْ كُلَّ عَوْدٍ يَضْلَعُ^(٢)
وَالدَّهْرُ طَوْنُ وَالشَّبِيبةُ غَضَّةٌ وَالسَّيْفُ عَضْبٌ وَالْفَوَادُ مُشِيعُ^(٣)

وحينما انقضت أيام صباه ، وطوى رداء شبابه ، خف إلى بغداد ؛ حاضرة الخلافة ،
وكعبة القصاد ، وعشّ العلماء ، وكانت خزائنها بالكتب معمورة ، ومجالسها بالعلم
والأدب مأهولة ، فقرأ الكتب واستزاد من العلم ، وأوغل في البحث ، ووعى المسائل ،
ومحّص الحقائق ، واختلط بالعلماء من أصحاب المذاهب ، ثم جنح إلى الاعتزال ؛ وأصبح
كما يقول صاحب " نسمة السحر " : معتزليًا جاحظيًا ، في أكثر شرحه للنهج ؛
بعد أن كان شيعيًا غالبًا .

وفي بغداد أيضًا نال الخطوة عند الخلفاء من العباسيين ومدحهم ، وأخذ جوائزهم ،
ونال عندهم سنىّ المراتب ورفيع المناصب ، فكان كاتبًا في دار التشريفات ؛ ثم في
الديوان ، ثم ناظرًا للبيمارستان ؛ وأخيرًا فوّض إليه أمر خزائن الكتّاب في بغداد ؛ وفي
كلّ هذا كان مرموق الجانب ، عزيز الحلّ ؛ كريم المنزلة ، إلى أن مات .

وكان مع اشتغاله بالمناصب ، ومعاراته للتأليف شاعرًا مجيدًا ؛ ذكره صاحب " نسمة
السحر في ذكر من تشيع وشعر " ؛ وله ديوان ، ذكر ابن شاکر أنه كان معروفًا مشهورًا .
وقد جال بشعره في شتى المعاني ومختلف الأغراض ، فقال في المدح والثناء ؛ والحكم والوصف

(١) هو الخليفة أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله المعروف بالناصر ، بويع بالخلافة سنة ٥٧٥ هـ ،
ومات سنة ٦٢٩ هـ ، وكان يرى رأى الإمامية . الفخرى ٢٨٠
(٢) يقال : دابة مضلع ، أى لا تقوى أضلاعها على الحمل . (٣) المشيع : الشجاع .

والغزل، إلا أن الغرض الذي غلب عليه واشتهر به هو المناجاة والمحاطة على مسلك أرباب الطريقة، أورد في النهج كثيراً منه، فمن ذلك قوله :

فَلَا وَاللَّهِ مَا وَصَّلَ ابْنُ سَيْنَا وَلَا أَغْنَى ذَكَاهُ أَبِي الْحُسَيْنِ^(١)
وَلَا رَجَعَا بِشَيْءٍ بَعْدَ بَحْثٍ وَتَدْقِيقِ سِوَى خُفَى حُنَيْنِ
لَقَدْ طَوَّفْتُ أَطْلُبُكُمْ وَالسَّكَنُ يَحُولُ الْوَقْتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنِي
فَهَلْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْوَقْتِ أَحْظَى بِوَصْلِكُمْ غَدًا وَنَقَرٍ عَيْنِي
مُنَى عِشْنَا بِهَا زَمَنًا وَكَأَنْتَ تُسَوِّفُنَا بِصِدْقٍ أَوْ بِمُنَى
فَإِنْ أَكْذَبَ فَذَلِكَ ضِيَاعَ دِينِي وَإِنْ أَجْذَبَ فَذَلِكَ حُلُولُ دِينِي
وقوله :

وَحَقٌّ إِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ قُلْتُ لِلَّذِينَ بِهَا قَدْ كُنْتُ مِنْ يُحِبُّهُ
وَأُفْنِيتُ عُمْرِي فِي عُلُومٍ دَقِيقَةٍ وَمَا بَغَيْتِي إِلَّا رِضَاهُ وَقُرْبُهُ
هَبُونِي مَسِينًا أَوْ نَسَخَ الْجَهْلُ قَلْبَهُ وَأَوْبَقَهُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ ذَنْبُهُ^(٢)
أَمَا يَفْتَضِي شَرْعُ التَّكْرُّمِ عِثْقَهُ أَيْحَسُنَ أَنْ يُنْسَى هَوَاهُ وَحُبُّهُ
أَمَا كَانَ يَنْوِي الْحَقَّ فِيمَا يَقُولُهُ أَلَمْ تَنْصُرِ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ كُتْبُهُ
أَمَا رَدَّ زَيْغَ ابْنِ الْخَطِيبِ وَشَكَّهُ وَالْحَادَهُ إِذْ حَلَّ فِي الدِّينِ خَطْبُهُ
أَمَا قُلْتُ: مَنْ كَانَ فِينَا مُجَاهِدًا سَيُكْرَمُ مَنَوَاهُ وَيُعَذَّبُ شَرْبُهُ
فَأَيَّ اجْتِهَادٍ فَوْقَ مَا كَانَ صَانِعًا وَقَدْ أَخْرَقَتْ زُرُقُ الشَّيَاطِينِ شُهُبُهُ
فَإِنْ تَصَفَّحُوا نَعْمَ وَإِنْ تَتَجَبَّرُوا فَتَعَذِّبُكُمْ حُلُولُ الْمَذَاقَةِ عَذْبُهُ
وَأَيَّةُ صِدْقِ الصَّبِّ أَنْ يُعَذَّبَ الْأَذَى إِذَا كَانَ مَنْ يَهْوَى عَلَيْهِ يَصْبُهُ

(٢) أوتغ : أهالك .

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ٧٩ - ٨٢ .

ونحو هذا من الشعر في شرح النهج كثير .

ومن طريف ما أورده صاحب نسمة السحر قوله :

لَوْ لَا ثَلَاثٌ لَمْ أَخَفْ صَرَغِي لَيْسَتْ كَمَا قَالَ فَتَى الْعَبْدِ^(١)
 أَنْ أَنْصُرَ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِإِذْلٍ جُهْدِي
 وَأَنْ أَنَاجِي اللَّهَ مُسْتَمْتِعًا بِخَلْقِهِ أَخْلَى مِنَ الشَّهْدِ
 وَأَنْ أَتِيَهُ الدَّهْرَ كَبِيرًا عَلَى كُلِّ لَسِيمٍ أَصْعَرَ الْخُلْدِ
 كَذَاكَ لَا أَهْوَى فِتْنَةً وَلَا خَيْرًا وَلَاذَا مَيْمَةً نَهْدِ

وقد اضطرب المؤرخون في تاريخ وفاته ؛ فذكر بعضهم أنه توفي في سنة ٦٥٥ ؛ ذهب إلى ذلك ابن شاكر في كتابيه : فوات الوفيات وعيون التواريخ ؛ وكذلك ابن كثير في التاريخ، والعيني في عقد الجمان ، وابن حبيب الحلبي في كتابه درة الأسلاك .

ونقل صاحب كتاب " نسمة السحر " عن الديار بكرى أنه توفي قبل دخول التتار بغداد بنحو سبعة عشر يوما . وكان دخولهم إليها في العشرين من الحرم سنة ٦٥٦ ؛ على ما ذكره المؤرخون . وقال الذهبي في سير النبلاء^(٢) : « إنه توفي في الخامس من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة » .

(١) يشير بهذا البيت إلى قول طرفة بن العبد في معانته :

وَلَوْ لَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَحَقَّكَ لَمْ أَخْفِلْ مَتَى قَامَ عُودِي
 فَمِنْهُمْ سَبَقُ الْعَاذِلَاتِ بِشَرِّبَةٍ كَمِيتٍ مَتَى مَا تَعَلَّ بِالْمَاءِ تَزْبِدِ
 وَكَرَّيْ إِذْ نَادَى الْمِضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الْغَضَا نَبَهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
 وَتَقْضِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنِ مُعْجِبُ بِهِ كَنَّةٍ نَحْتَ الْخَبَاءِ الْمُعَمِّدِ

(٢) المجلد الثالث عشر ، الورقة ٣١٦ (مصورة دار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ ح) .

وذكر ابن الفوطي في كتاب مجمع الألقاب أنه أدرك سقوط بغداد ، وأنه كان مخلص من القتل في دار الوزير مؤيد الدين العلقمي مع أخيه موفق الدين ؛ كما ذكر أياً في كتابه الحوادث الجامعة ؛ في وفيات سنة ٦٥٦ :

« توفي فيها الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي في جمادى الآخرة ببغداد . . . والقاضي موفق الدين أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد المدائني في جمادى الآخرة ، فرأى أخوه عز الدين عبد الحميد بقوله :

أبا المعالي هل سمعتَ تأوّهى فلقد عهدتُك في الحياة سميها
عيني بكتك ولو تطيقُ جوانحي وجوارحي أجرتُ عليك نجيمها
أنفاً غضبتَ على الزمان فلم تطع حبلاً لأسباب الوفاء قطوعاً
ووفيتَ للمولى الوزير فلم تعيش من بعده شهراً ولا أسبوعاً
وبقيتُ بعدكما فلو كان الردى بيدي لفارقنا الحياة جميعاً

فعاش عز الدين بعد أخيه أربعة عشر يوماً » .

وله من المصنفات :

- ١ - الاعتبار ؛ على كتاب الذريعة في أصول الشريعة ، ذكره ابن الفوطي وصاحبه .
روضات الجنات .
- ٢ - انتقاد المستصفي للغزالي ، ذكره ابن الفوطي .
- ٣ - الحواشي على كتاب المفصل في النحو ، ذكره ابن الفوطي .
- ٤ - شرح الحاصل للإمام نضر الدين الرازي ، وهو يجرى مجرى النقض له ؛ ذكره ابن الفوطي .

- ٥ - شرح مشكلات الفرر لأبي الحسين البصريّ في أصول الكلام ؛ ذكره ابن الفوطيّ وصاحب روضات الجنات .
- ٦ - ديوان شعره ، ذكره ابن شاكر السكتيّ .
- ٧ - زيادات النقصين ، ذكر المؤلف في الجزء الأول ص ٦١ .
- ٨ - شرح نهج البلاغة ، وهو هذا الكتاب .
- ٩ - شرح الياقوت لابن نوبخت في الكلام ، ذكره ابن الفوطيّ وصاحب روضات الجنات .
- ١٠ - العبقرى الحسان ، ذكره صاحب روضات الجنات ، وقال : وهو كتاب غريب الوضع قد اختار فيه قطعة وافرة من الكلام والتواريخ والأشعار ، وأودعه شيئاً من إنشائه وترسلاته ومنظوماته .
- ١١ - الفلك الدائر على الملك السائر^(١) ؛ ألفه برسم الخليفة المستنصر ؛ بدأ في تأليفه في أول ذي الحجة سنة ٦٣٣ ، وفرغ منه في خمسة عشر يوماً .
- ١٢ - القصائد السبع العلويّات^(٢) ، ذكر ابن الفوطيّ أنه نظمها في صباه وهو بالمداين سنة ٦١١ .
- ١٣ - المستنصريّات ؛ كتبها برسم الخليفة المستنصر ؛ ومنه نسخة بمكتبة السماويّ بالنجف .
- ١٤ - نظم فصيح ثعلب ؛ ذكره ابن شاكر وصاحب كشف الظنون .
- ١٥ - نقض المحصول في علم الأصول للإمام نجر الدين الرازيّ ؛ ذكره ابن الفوطيّ وصاحب روضات الجنات وصاحب كشف الظنون .
- ١٦ - الوشاح الذهبيّ في العلم الأبى ، ذكره ابن الفوطيّ .

(٢) طبع العجم سنة ١٣١٧

(١) طبع بالهند سنة ١٣٠٩ هـ .

٤ - تحقيق الكتاب

وحينما شرعت في تحقيق هذا الكتاب بذلت الجهد الممكن في الحصول على النسخ التي تعين على تحقيقه ، وقد وقع لى من ذلك ما يأتى :

١ - نسخة كاملة تقع فى عشرين جزءا بخطوط معتادة مختلفة ، مصورة عن الأصل

المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ ويبدو أنها كتبت جميعها فى القرن الحادى عشر والثانى عشر ؛ وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

٢ - نسخة كاملة مطبوعة على الحجر فى طهران سنة ١٢٧١ هـ ، ورمزت لها بالحرف (ب) .

٣ - نسخة مصورة عن أصلها المخطوطة بالمكتبة الظاهرية ، محفوظ ؛ ثم (٧٩٠٤ عام) ، تشتمل على عشرة أجزاء من الكتاب ، مكتوبة بخط دقيق ، مضبوطة بالشكل الكامل ، وعلى حواشيه شروح وتعليقات ؛ جاء فى آخرها : « وقد فرغ من تسويد هذا الكتاب بعون الملك الوهاب ، أ ل العباد ؛ محمد حسن الأبهري الأصفهاني يوم الخميس ، ثالث صفر ، ختم باد ر والظفر ، سنة اثنتين وثمانين بعد الألف ، من الهجرة النبوية المصطفوية » ، و د رمزت لها بالحرف (ج)^(١) .

٤ - نسخة مخطوطة محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٦٨ - أدب ، تشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول يشتمل على عشرة أجزاء فى ثلاثة مجلدات ؛ المجلد الأول يشتمل على الأجزاء : السادس والسابع والثامن . والمجلد الثانى يشتمل

(١) ذكرت فى مقدمة الجزء الثانى (من الطبعة الأولى) ، أنى رجعت إلى هذه النسخة من ص ١٥ ؛ وفى هذه الطبعة رجعت إليها من أول الكتاب .

على الجزأين : التاسع والعاشر ؛ وهذان المجلدان مكتوبان بخط فارسيّ ، بخط محمد مؤمن ، سنة إحدى وأربعين وألف ؛ أما المجلد الثالث فيشتمل على الأجزاء الخمسة الأخيرة ؛ من الجزء السادس عشر إلى الجزء العشرين ؛ تمت كتابتها سنة تسع وتسعين وألف ، بخط محمد مزيد . وقد رمزت لها بالحرف (د) (١) .

كما أني رجعت في تحقيق متن نهج البلاغة - فوق النسخ التي اعتمدت عليها في شرحه - إلى نسخة منه مخطوطة محفوظة بمكتبة طلعت بدار الكتب برقم ٤٨٤٠ - أدب ، وهي نسخة خزائنية كتبت بالقلم النسخ الجميل ، مضبوطة بالشكل الكامل ؛ ومحلاة بالذهب واللازورد ، كتبت برسم « خزانة غياث الحق والدين » ، سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، بخط الحسين بن محمد الحسني .

وقد اقتضاني أيضا تحقيق هذا الكتاب الجامع أن أرجع إلى ما أمكنني الاطلاع عليه من الكتب التي رجع إليها المؤلف ، كتاريخ الطبري ، والأغانى ومقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ، والحيوان والبيان والتبيين والعمانية للجاحظ ، والشافى للشريف المرتضى ، والمغنى للقاضي عبد الجبار ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وكتاب صفين للمنقري ، والكامل للمبرد ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، ونسب قريش للزبير بن بكار ، والمتنظم لابن الجوزي

(١) ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى أني حصلت على مصورات لأجزاء مختلفة من مكتبة المتحف البريطاني ومكتبة الفاتيكان ؛ وبالرجوع إليها تبين أنها مضطربة يشيع فيها الخطأ والتحريف ، فلم أر ما يدعو إلى الرجوع إليها ؛ كما أن بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة محفوظة برقم ٥٧٦ - أدب ، تمت كتابتها في صبيحة يوم الخميس التاسع من شهر شعبان سنة ١٢٩٢ ، لم أرجع إليها ، إذ ترجع عدى أنها منسوخة عن مطبوعة طهران ؛ أما النسخة المطبوعة في مصر سنة ١٣٢٩ ، فيبدو أنها طبعت عن مطبوعة طهران أيضا فلم أرجع إليها .

والصباح للجوهري، وغيرها من كتب الأدب واللغة والتاريخ؛ كما أنى رجعت فيما أورد من الشعر إلى دواوين الشعراء والمجموعات المختارة منها. وحاولت أن أضبط الأعلام والنصوص اللغوية والشعرية ضبطاً صحيحاً؛ وعلقت في الحواشي ما اقتضاه إيضاح النص تعليقاً وسطاً في غير إسراف ولا تقصير.

كما أنى فصلت موضوعاته بعناوين وضعتها بين علامتي الزيادة لتتضح معالم الكتاب وتسهل الإحاطة بما فيه.

وسيجري الكتاب - بما أرجو من الله المعونة والتأييد - في عشرين جزءاً وضعه مؤلفه؛ أما الفهارس العامة المتنوعة فسأفرد لها جزءاً خاصاً في آخر الكتاب والله الموفق للصواب ﴿ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير ﴾ (*) .

محمد أبو الفضل إبراهيم

القاهرة في { ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ
٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

(*) هذه مقدمة الطبعة الأولى مع تعديل في وصف النسخ .

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكند تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب لجميع أجزائه ؛ حتى أقبلت الجهرة من العلماء والمتأدبين على اقتنائه ، ومدارسة فصوله وأبوابه ، واستيعاب ماحواه من صنوف الآداب وضروب الفنون والمعارف ؛ حتى نفذت أجزاءه الأولى في زمن يسير .
وحيثما شرعت في إعداد الطبعة الثانية ، وجدت لها فرصة طيبة لأن أعيد النظر في تحقيقه ، وأجبل الفكر لزيادة شرحه وتصحيحه ، وأن أستدرك ما فاتني من التعليق ، أو جانبني فيه وجه الصواب ؛ وقد أعانني على ذلك أمور . .

منها أنه تسنى لي بعد الفراغ من تحقيقه الاطلاع على كثير من كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعر مما لم يتيسر لي الاطلاع عليه في الطبعة الأولى ؛ وقد كان على في تحقيق تاريخ الطبري وظهور معظم أجزائه ؛ مما حقق كثيرا من نصوصه ؛ إذ كان هذا التاريخ الكبير من أهم مراجع المؤلف ومصادره ؛ كما أن ماقت به من تحقيق متن نهج البلاغة ، مراجعا على نسخ خطية أصيلة وشرحه شرحا موجزا ؛ مما قوم الكثير من ألفاظه ، وحقق بعض رواياته .

ومنها أن فريقا من العلماء حين وقع إليهم هذا الكتاب قابله بالاهتمام الشديد ، وتناولوه بالنقد النافع النزيه ؛ وقد روا ما بذل فيه من جهد وعناء ؛ وكانت لهم ملاحظات قيمة كتبوا إلي بها ؛ أذكر منهم الأستاذ مكي السيد جاسم ؛ أحد علماء العراق وفضلائها ؛ فقد قرأ الكتاب جميعه ، وأرسل إلى ملاحظاته على كثير من أجزائه ؛ وقد انتفعت بهذا النقد الكريم ؛ وأثبت ملاحظاته في هذه الطبعة .

وأمر آخر ؛ هو أنى حينما أتممت تحقيق جميع أجزاء الكتاب ، وأخذت فى عمل فهرس
ومعاودة قراءته ، اتضح لى معاملته وطرائقه ، وأنست إلى مراجعته ومطالنه ، وعرف
مواطن الاستدراك والتعقيب ، وفطنت إلى مجالات أخرى للتصحيح والتعليق ، وتبينت
الأخطاء المطبعية ؛ وأمكن لى أن أعمل الجديد والمهام فى هذه الطبعة ..

هذا ، وقد كان عملى فى إنجاز الكتاب على هذا النحو ؛ ثم اشتغالى مرة أخرى
بإعادة تحقيقه . بعد أن خلت المكتبة العربية من أجزائه الأولى . معوقاً عن إنجاز الفهارس
العامية فى حينها ؛ ولكننى دائم العمل فيها ، مهتم بإتمامها وإخراجها على الوجه الكامل ؛
وستظهر إن شاء الله فى الجزء الحادى والعشرين للطبعتين الأولى والثانية .

ومن الله أطلب هداية وتيسيراً ، وعونا وتوفيقاً .

القاهرة فى { ١٢ جادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ
٨ سبتمبر سنة ١٩٦٥

محمد أبو الفضل إبراهيم

نماذج من المخطوطات



بسم الله الرحمن الرحيم

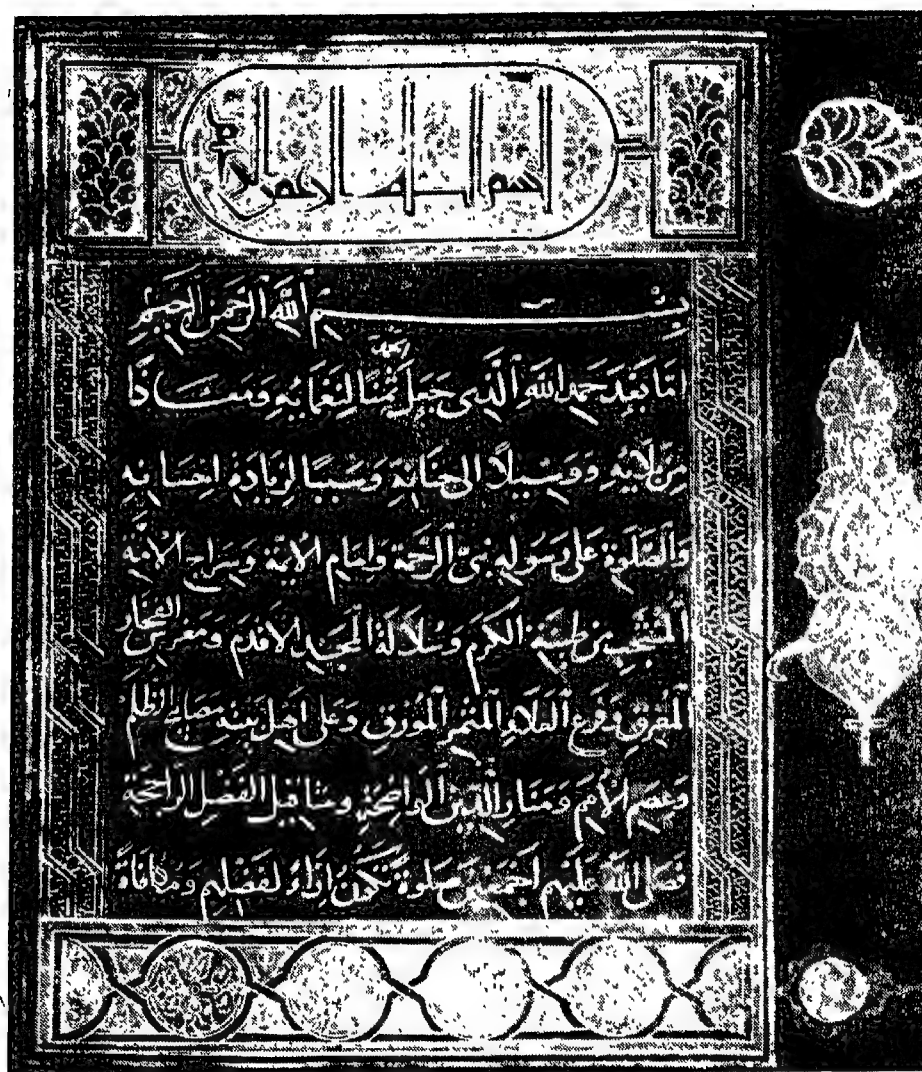
الحمد لله الذي جعل لكل شئ خلقه مقصودا واستوعب علوم الحوادث والمخارج فكل
 شئ يقوم بغيره مخصوص الذي يقع صفات له من حيث ان من علمه ما تضمنت
 حكمه من انفس الحوادث في حقه فاحتج به على من رزقوه من الدنيا عن العلم
 ثم انضما الشرائع بشرفه فلا يبقى له شيء وقد تم المقصود على الافضل فحصل به اقتضا
 التكليف واختصار الاصل من جلال الملائكة والبرهان لما خاضعوا للعلم عن النكته وكل من
 التكليف وصحة الله على برهانه الذي انكبه عن شعاع من نفسه ونحو من قربت له
 من قوى الله ومنسوب اليه نسبة الصالح الى الله والبرهان الى الله فاما الاصل في العلم
 قائم برساقه وسألت وناطق وحكي وحصل من العلم الذي هو انما هو من العلم
 عليهم لما احتج به من سماعه من آراء وشبهه في العلم فان برهان العلم في الوجود الاعظم
 القدر والبرهان في العلم العاقل والمظهر المنصور والمجاهد المظهر من جلاله الاسلام
 وزاد الشرف والعزب الى طالب الحق احمد بن محمد الطائي ليعلم المؤمنين انهم انما علموا
 من طائفة العلم انما هو من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 محبة واثرة ورغبة في العلم بالانعام بفتح الجاء على صاحب الفضل والصلوات وذكره الطيب
 التحيات بلور الى ذلك من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 شريعته من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 لا تزيه العلم الا بجماله فكل من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 العربي العاقل في علم البيان وما عاينته في شكل من الاعراب والتعريف ما جرد به كل من طائفة العلم
 ما عاينته من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 واثرة الى ما يطوي عليه من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 اشرع من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم من طائفة العلم
 فالحمد لله الذي جعل لكل شئ خلقه مقصودا واستوعب علوم الحوادث والمخارج فكل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأصل وقال عليه السلام لعزم على حرب الخوارج وقيل لما ان القوم قد عجزوا عن جبر النهر وان مصارعهم دوننا لنطفة والله لا يفتل منهم عشرة قال الرضى رحمه الله يعنى بالنطفة ماء النهر وهى انصبحت كناية عن الماء وكان كثرا بها الشرح هذا الخبر من الاخبار التى تكاد تكون متواترة لاشتهارها فغدا الناس كافة له وهو من معجزاته واخباره المفصلة عن الغيوب ولا جدر عن الغيوب على قسمين اهدى الاجل للمحله ولا عجزا بها اخوان يقول الرجل لا صاهبه انكم ستصرون على هذه الفتنة التى تلقونها غدا فان نصر جعل ذلك فتنة له عند اصحابه وتعلوا معجزة وان لم ينصر قال لم تغيرت نيائكم فتعكم الله فهو ونحو ذلك من القول ولا بد من جبر العادة ان الحرك والارضا تعدلها بهم بالظفر وعيونهم الذل فلا يدل وقوع ما يقع من ذلك على اخبار عن عيب يتضمن انجاز والقسم الثانى فى الاخبار المفصلة عن الغيوب جعل هذا الخبر لا يحمل التلبس للتفديد بالعدم المعين فى صاهبه وفى الخوارج ووقوع الامر بعد الحوب موجب من غير زيادة ولا نقصان وذلك الى عرف من جهة رسول الله صلى الله عليه واله وعنه رسول الله صلى الله عليه واله من جهة الله سبحانه والقوة البشرية تضعف عن ادراك مثل هذا ولقد كان له من هذا الباب ما لم يكن لغيره ومقتضى ما شاهد الناس من معجزاته وهو انه النافية لقول البشر غلاية غلاية نسب الى ان الجبر الى حلف بدنه كما قال النصرانى عيسى عليه السلام وقد اخبر النبي صلى الله عليه واله بذلك فقال يهلك فيك رجلان محب غلا وبغض غلا وقال انه اخبره والذي نفسى بيده لو ان تقول طوبى من ابقى منك ما قال النصرانى فى ابن ورم لفتك الميرم فيك مقلالا ثم يلا من الناس الا اخذوا التراب من تحت قدميك للبركة واقل من جهر بالخلوف ليام عبد الله بن سفيان اياه هو يجيب فقال انت انتانت وجعلك كراما فقال له وريك من انا فقال انت انت الله فامرا باخذ قوم كان على رايه وروى ابو العباس احمد بن عبد الله بن عثمان عن علي بن محمد بن سليمان التوفلى عن ابيه وعن غيره من ابيه ان عليا قال يهلك في رجلان محب مطر نصيغ عن غير موصى ويمدحنى مالم يسف وبغض مفرى منى ما نالته برى فلا ابو العباس وهذا تأويل الحديث للرعى عن النبي

الاساطير منها فان كان في روستا ولا في كلب سا الامشعة لسانه بالزبرسان قد بنا ذكره سنانا لا يلزمنا الى الزبرج من ولا يبر
وليس بعدنا من علم النكر وقد ضا على ان طريقا لولا الامشعة اذا كان القدر دوننا فكله لا نرجع منها مثل هذه
الطريقه جديدا من سنا يصحح الى اجابته وصلته في هذا الباب فاننا نؤيد ان قول الاسم له مرة لا نأكل من غيره فلا سني له
لان قول الاسم على لهنا يجب ان يكون له مرة من حيث كان محصورا لسنا سونا لباطن وعلى لهنا من اجابته ولا يبر با
كل بقية ولا يبر غيره من سنا في المؤمنين في رتبة هذا الباب ولو كان سنا ينقل من الزبرسان لم يكن سنا على عليه في رتبة هذا
الباب في كوننا قوي ما نؤيد غير صحيح على طلبة لاننا نؤيد ان ينقل اذا كان يقتضي سنا لغيره لا يبره من قبلنا فتؤيد على غيرهم فلا
لا وقتا كجب ان يتيسر على الوجود فيكون في هذه جملة ما اعترض بها الرضى في هذا العمل الفصل الاول من كلام تاليفنا
ثم نؤيد اننا نؤيد من طرح على ابله من بعد اننا ومنه
وصلنا على محمد وآله
تسبحو

آخر الجزء الثاني من نسخة (ج)



فاتحة مخطوطة نهج البلاغة

خاتمة مخطوطة نهج البلاغة

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

المحرر الأول

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله [الواحد العدل] ^(١). الحمد لله الذي تفرّد بالكمال؛ فكلُّ كمالٍ سواه منقوص، واستوعبَ عموم الحامد والمادح؛ فكلُّ ذى عمومٍ عداه مخصوص؛ الذى وزّع مُنْهَسَاتِ نِعَمِهِ بَيْنَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، واقتضتْ حِكْمَتُهُ أَنْ نَافِسَ الْحَازِقَ فِي حِذْقِهِ فَاحْتُسِبَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ رِزْقِهِ، وَزَوَى ^(٢) الدُّنْيَا عَنِ الْفَضْلَاءِ فَلَمْ يَأْخُذْهَا الشَّرِيفُ بِشَرَفِهِ، وَلَا السَّابِقُ بِسَبْقِهِ. وَقَدَّمَ الْمَفْضُولَ عَلَى الْأَفْضَلِ لِمَصْلَحَةِ اقْتِضَائِهَا التَّكْلِيفَ، وَاخْتَصَّ الْأَفْضَلَ مِنْ جَلَائِلِ الْمَآثِرِ وَنَفَائِسِ الْمَفَاخِرِ بِمَا يَعْظُمُ عَنِ التَّشْبِيهِ، وَيَجَلُّ عَنِ التَّكْيِيفِ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ؛ الَّذِي ^(٣) الْمَسْكَنَى عَنْهُ شُعَاعٌ مِنْ شَمْسِهِ، وَغَصْنٌ مِنْ غَرْسِهِ، وَقُوَّةٌ مِنْ قُوَى نَفْسِهِ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ نَسَبَةُ الْقَدْرِ إِلَى يَوْمِهِ وَالْيَوْمِ إِلَى أَمْسِهِ؛ فَمَا هِيَ إِلَّا سَابِقٌ وَلَا حَقٌّ، وَقَائِدٌ وَسَائِقٌ، وَسَاكِتٌ وَنَاطِقٌ، وَجَلَلٌ وَمُصَلِّلٌ؛ سَبَقًا لِحِمَّةِ الْبَارِقِ، وَأَنَارًا سُدُفَةَ الْفَاسِقِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا مَا اسْتَخْلَبَ ^(٤) خَبِيرٌ، وَتَنَاضَحَ حِرَاءٌ وَثَبِيرٌ ^(٥).

وبعد، فإنّ مراسم المولى الوزير الأعظم، صاحب ^(٦)، الصدر الكبير المعظم العالم العادل المظفر المنصور المجاهد، المرباط ^(٧)، مؤيد الدين عضد الإسلام، سيد وزراء الشرق والغرب، أبي طالب ^(٨)

(١) تسكّلة من ب . (٢) زوى الدنيا : نحاها وصرفها . (٣) ١ : « والذى » .
 (٤) استخلب ، بالبناء للمجهول : قطع . والخبير : النبات ، وورد في حديث طهفة : « ونستخلب الخبر » ، قال ابن الأثير : الخبر : النبات والعشب ، شبه بخبير الإبل ؛ وهو وبرها . النهاية ١ : ٢٨٠ .
 (٥) يقال : ما جبلان يتناوحان ؛ إذا كانا متقابلين ؛ وثبير : جبل شامخ بمكة يقابل حراء ؛ وهو أرفع من ثبير . ياقوت ٣ : ٢٤٠ . (٦) ب : « صاحب » . (٧) ١ : « والمرباط » .
 (٨) في الطبعة الأولى : « أبى محمد بن أحمد » ، وهو خطأ .

محمد بن أحمد بن محمد العلقي^(١)، نصير أمير المؤمنين - أسبغ الله عليه من ملابس النعم أدهاها، وأحلّه من مراقب السعادة ومراتب السيادة أشرفها وأعلاها - لما شرفت عبد الله، وريبت نعمته بالاهتمام بشرح "نهج البلاغة" - على صاحبه أفضل الصلوات، وكره أطيب التحيات - بادر إلى ذلك مبادرة من بعثه من قبل عزم، ثم حمّله^(٢) أمر بزم، وشرع فيه بإدري الرأي شروع مختصر، وعلى ذكر الغريب والمعنى مقتصر؛ ثم مقب الفكر، فرأى أن هذه النغمة^(٣) لا تشفى أوما، ولا تزيد الحائتم إلا حياما، فتفنگه ذلك المسلك، ورفض ذلك النهج، وبسط القول في شرحه بسطا شتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان، وما عساه يشتهه ويشكل من الإعراب والتصريف، وأورد في كل وضع ما يطابقه من النظائر والأشباه، نثرا ونظما، وذكر ما يتضمنه من السّير والوقائع والأحداث فصلا فصلا. وأشار إلى ما ينطوى عليه من دقائق علم التوحيد والعدل إشارة خفيفة. لوح إلى ما يستدعى الشرح ذكره من الأنساب والأمثال والنكت تلويحات لطيفة، وضعه من المواعظ الزهدية، والزواج الدينية، والحكم النفسية، والآداب الخلقية، المناسبة قرره، والمشكلة لدوره، والمنظمة مع معانيه في سبط، والمتسقة مع جواهره في لطف^(٤)، يهزأ بشنوف النضار، ويخجل قطع الروض غيب القطار. وأوضح ما يومي إليه من مسائل الفقهية، وبرهن على أن كثيرا من فصوله داخل في باب المعجزات الحمديّة؛ لاشتمال على

(١) هو مؤيد الدين أبوطالب محمد بن أحمد بن العلقي البغدادي، وزير المستعصم بالله، الخليفة العباسي. اشتغل في صباه بالأدب، ففاق فيه، وكتب خطا مليحا، وترسل ترسلا فصيحاً، وكان لبنا ريسا متمسكا بقوانين الرياسة، خبيرا بأدوات السياسة، محبا للأدب، مقربا لأهل العلم، اقتنى كتباً كثيرة نفيسة، وصنف الناس له؛ منهم الصفاني، صنف له العباب، وهذا المصنف الذي ألف في سنة ٢٩٥، وكان ممدحا، مدحه الشعراء، واتجهه الفضلاء، وأخباره الطيبة كثيرة وجلية. توفي سنة ٦٥٦ هـ. أخرى ٢٩٥، ٢٩٦. (٢) ب، ج: «حركة». (٣) النغمة في الأصل: الجرعة من الماء. في ١: «البغية»، والأجود ما أثبتته من ب. (٤) اللط، بالفتح: القلادة.

الأخبار الغيبية ، وخروجها عن وسع الطبيعة البشرية . وَبَيَّن من مقامات العارفين ؛ التي يرمز إليها في كلامه ما لا يعقله إلا العالمون ، ولا يُدركه إلا الروحانيون المقرَّبون . وكشف عن مقاصده عليه السلام في لفظة يرسلها ، ومعضلة^(١) يَكْنِي عنها ، وغامضة يعرض بها ، وخفائاً يُجَمِّع^(٢) بذكرها ، وهفتات تجيش في صدره فينفثُ بها نفثة المصدور ، ومُرِمِّضات مؤلمات يشكوها فيستريح بشكوها استراحة المكروب .

نفرج هذا الكتاب كتاباً كاملاً في فنّه ، واحداً بين أبناء جنسه ، مُتمِّعاً بحجاسنه ؛ جليلاً فوائده ، شريفة مقاصده ، عظيماً شأنه ، عالية منزلته ومكانه ؛ ولا عجب أن يُتَقَرَّب بسيد الكتب إلى سيد الملوك ، وبجامع الفضائل إلى جامع المناقب ، وبواحد العصر إلى أوجد الدهر ؛ فالأشياء بأمثالها أليق ، وإلى أشكلها أقرب ؛ وشبه الشيء إليه منجذب ، ونحوه دان ومقرب .

ولم يشرح هذا الكتاب قبلي - فيما أعلمه - إلا واحد ؛ وهو سعيد بن هبة الله بن الحسن الفقيه المعروف بالقُطْب الراوندي^(٣) ، وكان من فقهاء الإمامية ، ولم يكن من رجال هذا الكتاب ، لاقتصاره مدّة عمره على الاشتغال بعلم الفقه وحده ، وأتى للفقيه أن يشرح هذه الفنون المتنوعة ، ويخوض في هذه العلوم المتشعبة ؛ لا جرم أن شرحه لا يخفى حاله عن الذكيّ ، وجرّى الوادى فطمّ على القرى^(٤) . وقد تعرّضتُ في هذا الشرح لمناقضته

(١) كذا في ج ، وجعم بالسّلام : لم يبينه ، وفي ا ، ب : « يحجم »
 (٢) ا : « معضلة » ، بدون الواو . (٣) هو سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي ، أحد فقهاء الشيعة ؛ وتصابيغه كثيرة متنوعة ؛ أسمى كتابه في شرح النهج « منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة » ، وتوفى سنة ٥٧٣ هـ . لسان الميزان ٣ : ٤٨ ، روضات الجنّات ٣٠٢ . (٤) جرى الوادى فطم على القرى ، مثل ؛ قال الميداني في شرحه : أى جرى سبيل الوادى فطم ، أى دفن ؛ يقال : طم السيل الركبة ؛ أى دفنها . والقرى : بحرى الماء في الروضة ، والجمع أقرية وقرى ، و « على » من صلة المعنى ؛ أى أتى على القرى ؛ يعنى أهله ؛ بأن دفنه ؛ يضرب عند تجاوز الشيء حده . مجمع الأمثال ١ : ١٥٩ .

في مواضع يسيرة اقتضت الحال ذكرها ، وأعرضت عن كثير مما قاله ، [إذ] لم ر في ذكره ونقضه كبير فائدة .

وأنا قبل أن أشرع في الشرح أذكر أقوال أصحابنا رحمهم الله في الإمامة والت نيل والبغاة والخوارج . ومتبع ذلك بذكر نسب أمير المؤمنين عليه السلام ، ولمع ميرة من فضائله ، ثم أثلت بذكر نسب الرضى أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوى رحما الله ، وبعض خصائصه ومناقبه . ثم أشرع في شرح خطبة ” نهج البلاغة “ التي هي من كلام الرضى أبي الحسن رحمه الله ^(١) ؛ فإذا انتهيت من ذلك كله ابتدأت بعون الله وتوفه في شرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئا فشيئا .

ومن الله سبحانه أستمد المعونة ، وأستدر أسباب العزيمة ، وأستميح غنائم الرحمة ، وأمتري أخلاف البركة ، وأشيم بارق النماء والزيادة ، فما المرجو إلا فضله ، ولا الممول إلا طوئه ، ولا الوثوق إلا برحمته ، ولا السكون إلا إلى رأفته ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَدْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ ^(٢) .

...

القول فيما يذهب إليه أصحابنا المعترلة في الإمامة والتفضيل والبغاة والنجارح

اتفق شيوخنا كافة رحمهم الله ؛ المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون على أن بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نص ، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع ، وبغير الإجماع كونه طريقاً إلى الإمامة .

واختلفوا في التفضيل ، فقال قدماء البصرين كأبي عثمان عمرو بن عبّيد ، وأبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبي معن ثمامة بن أشرس ، وأبي محمد هشام بن عمرو الفوطي ، وأبي يعقوب يوسف بن عبد الله الشحام ، وجماعة غيرهم : إن أبا بكر أفضل من علي عليه السلام ؛ وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة .

وقال البغداديون قاطبة ؛ قدمائهم ومتأخروهم ، كأبي سهل بشر بن المعتز ، وأبي موسى عيسى بن صبيح ، وأبي عبد الله جعفر بن مبشر ، وأبي جعفر الإسكافي ، وأبي الحسين الخياط ، وأبي القاسم عبد الله بن محمود البائخي وتلامذته : إن علياً عليه السلام أفضل من أبي بكر .

وإلى هذا المذهب ذهب من البصريين أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي أخيراً ، وكان من قبل من المتوقفين ، كان يميل إلى التفضيل ولا يصرح به ، وإذا صنف ذهب إلى الوقف في مصنفاته . وقال في كثير من تصانيفه : إن صحّ خبر الطائر فعلى أفضل^(١) .

(١) يشير إلى ما رواه الترمذي في باب المناقب ١٣ : ١٧٠ ، بسنده عن أنس بن مالك ، ونظفه : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير ، فقال : « اللهم اثنني بأحب خلائك إليك يأكل معي هذا الطير » ، فجاء على فأكل معه . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا يعرف من حديث السدي إلا من هذا الوجه .

ثم إن قاضي القضاة رحمه الله ذكر في شرح "المقالات"، لأبي القاسم الباخي أن عليّ رحمه الله ما مات حتى قال بتفضيل عليّ عليه السلام، وقال: إنه نقل ذلك عنه سماعاً؛ ولم يوجد في شيء من مصنفاته. وقال أيضاً: إن أبا عليّ رحمه الله يوم مات استدعى ابنه أبا هاشم إليه، - وكان قد ضعف عن رفع الصوت - فألقى إليه أشياء، من جملتها قول بتفضيل عليّ عليه السلام.

ومن ذهب من البصريين إلى تفضيله عليه السلام الشيخ أبو عبد الله الحسين بن عليّ البصري رضي الله عنه، كان متحققاً بتفضيله، ومبالغاً في ذلك، وصفاً، فيه كتاباً مفرداً.

ومن ذهب إلى تفضيله عليه السلام من البصريين قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد رحمه الله؛ ذكر ابن متّويه عنه في كتاب "الكفاية"، علم الكلام أنه كان من المتوقفين بين عليّ عليه السلام وأبي بكر، ثم قطع على تفضيل عليّ عليه السلام بكامل المنزلة.

ومن البصريين الداهيين إلى تفضيله عليه السلام أبو محمد الحسن بن متّويه صاحب "التذكرة"، نصّ في كتاب "الكفاية"، على تفضيله عليه السلام على أبي بكر؛ واحتجّ لذلك، وأطال في الاحتجاج. فهذان المذهبان كما عرفت.

وذهب كثير من الشيوخ رحمهم الله إلى التوقّف فيهما؛ وهو قول أبي حذيفة أصل ابن عطاء، وأبي الهذيل محمد بن الهذيل العلاف؛ من المتقدمين. وما - وإن ذابا إلى التوقّف^(١) بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر - قاطعان على تفضيله على عمار.

(١) ب: «الوقف».

ومن الذاهبين إلى الوقف الشيخ أبو هاشم عبد السلام بن أبي عليّ رحمهما الله
والشيخ أبو الحسين محمد بن عليّ بن الطيّب البصريّ رحمه الله .

وأما نحن فنذهب إلى ما يذهب إليه شيوخنا البغداديون ؛ من تفضيله عليه السلام .
وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية ما معنى الأفضل ؛ وهل المراد به الأكثر ثواباً أو^(١)
الأجمع لمزايا الفضل والخلال الحميدة ، وبيننا أنه عليه السلام أفضل على التفسيرين معا .
وليس هذا الكتاب موضوعاً لذكر الحجاج في ذلك أو في غيره من المباحث الكلامية
لنذكره ، ولهذا موضع هو أمّلك به .

وأما^(٢) القول في البغاة عليه^(٣) والخوارج ، فهو على^(٤) ما أذكره لك :
أما أصحاب الجبل فهم عند أصحابنا هالكون كلّهم إلا عائشة وطلحة والزبير ؛
« رحمهم الله »^(٥) فإنهم تابوا ، ولولا التوبة لحكم لهم بالنار لإصرارهم على البغي .
وأما عسكر الشام بصيّف فإنهم هالكون كلّهم عند أصحابنا لا يحكم لأحد منهم
إلا بالنار ؛ لإصرارهم على البغي وموتهم عليه ؛ رؤساؤهم والأتباع جميعاً .
وأما الخوارج فإنهم مرّقوا عن الدين بالخبر النبويّ المجمّع عليه ؛ ولا يختلف أصحابنا
في أنهم من أهل النار .

وجملة الأمر أن أصحابنا يحكمون بالنار لكلّ فاسق مات على فسقه ؛ ولا ريب في
أنّ الباغي على الإمام الحقّ والخارج عليه بشبهة أو بغير شبهة فاسق ؛ وليس هذا مما
يخصّون به عليّاً عليه السلام ، فلو خرج قوم من المسلمين على غيره من أئمة الإسلام
العدل^(٦) لكان حكمهم حكم من خرج على عليّ صلوات الله عليه .

وقد برّى^(٧) كثير^(٨) من أصحابنا من قوم من الصحابة أحبطوا ثوابهم ؛ كالغيرة بن شعبة

(١) ب : « أم » . (٢) ب ، ج : « فأما » . (٣) ساقطة من أ .
(٤) أ : « فعلى ما ذكره » . (٥) ساقط من ب . (٦) ب ، ج : « من أئمة العدل » .
(٧) ب : « يرى » ، تصحيف . (٨) كذا في ب ، ح ، وفي أ : « قو » .

وكان شيخنا أبو القاسم البخاري إذا ذكر عنده عبد الله بن الزبير ، يقول : ! خيرَ فيه . وقال مرة : لا يعجبني صلاته وصومه ؛ وليس بنافعٍ له مع قول رسول الله ، إلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام : « لا يُبغضُك إلا منافق » . وقال أبو عبد الله امرئ رحمة الله لما سئل عنه : ما صحّ عندي أنه تاب من يوم الجمل ؛ ولكنه استتر بما كان عليه .

فهذه هي المذاهب والأقوال ؛ أمّا الاستدلال عليها فهو مذكور في الكتب الموضوعة لهذا الفن .

القول في نسب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

وذكر لُمع يسيرة من فضائله

هو أبو الحسن عليّ بن أبي طالب - واسمه عبد مناف - بن عبد المطلب - واسمه شيبه - ابن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف بن قصي . الغالب عليه من الكنية عليه السلام أبو الحسن . وكان أبوه الحسن عليه السلام يدعوه في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله الحسين ، ويدعوه الحسين عليه السلام أبا الحسن ، ويدعوان رسول الله صلى الله عليه وآله وأباهما ، فلما توفّي النبي صلى الله عليه وآله ^(١) دعوا به بأبيهما .

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وأباهما ، وجده نأما في تراب ، قد سقط عنه رداؤه ، وأصاب التراب جسده ، فجاء حتى جلس عند رأسه ، وأيقظه ، وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول له : اجلس ؛ إنما أنت أبو تراب ^(٢) . فكانت من أحبّ كنفاه إليه صلوات الله عليه ، وكان يفرح إذا دُعِيَ بها ، وكانت تُرغّب بنو أمية خطباءها ^(٣)

(١) ساقطة من ١ .

(٢) رواية الخبر كما في صحيح البخاري ، في كتاب فضائل الصحابة ٢ : ٣٠٠ ؛ بسنده عن عبد الله ابن مسleme : « أن رجلا جاء إلى سهل بن سعد ، فقال : هذا فلان - لأمير المدينة - يدعو عليا عند المنبر ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يقول له : أبو تراب . فضحك ، قال : والله ما سمعاه إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان له اسم أحب إليه . فاستطعمت الحديث سهلا ، وقلت : يا أبا عباس ، كيف ؟ قال : دخل على علي فاطمة ، ثم خرج فاضطجع في المسجد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين ابن عمك ؟ قالت : في المسجد ، فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره ، وخلص التراب إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره فيقول : اجلس يا أبا تراب ، مرتين . ولهذا الخبر رواية أخرى ذكرها صاحب الرياص النضرة في ٢ : ١٥٤ .

(٣) ب ، ج : « فدعت بنو أمية » ، وما أثبتته من .

أن يسبّوه بها على المنابر، وجعلوها نقيصة له ووضمة عليه؛ فكأنما كسوه بها الخلق والى؛
كما قال الحسن البصري رحمه الله .

وكان اسمه الأول الذي سمّته به أمه حَيْدَرَة ، باسم أبيها أسد بن هاشم - والحياة :
الأسد - فغيّر أبوه اسمه ، وسمّاه عليّاً .

وقيل : إن حيدرة اسمٌ كانت قريش تسمّيه به . والقول الأول أصحّ ؛ يدلّ عليه
خبره ^(١) يوم برز إليه مرّحب ، وارتجز عليه فقال :

* أنا الذي سمّيتني أمي مرّحباً ^(٢) *

فأجابه عليه السلام رجزاً :

* أنا الذي سمّيتني أمي حَيْدَرَة ^(٣) *

ورجزهما معا مشهور منقول لا حاجة لنا الآن إلى ذكره .

وتزعم الشيعة أنه خطب في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله : « أمير المؤمنين » ، خأبه
بذلك حيلة المهاجرين والأنصار ، ولم يثبت ذلك في أخبار الحديثين ؛ إلا أنهم قد روا
ما يعطى هذا المعنى ، وإن لم يكن اللفظ بعينه ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله :
« أنت يعسوب الدين والمال يعسوب الظّامة » ، وفي رواية أخرى : « هذا يعسوب المؤمن » ،

(١) الخبر رواه مسلم مفصلاً بسنده عن إياس بن سلمة عن أبيه ، في كتاب الجهاد والسير ص ٣٣ ١
- ١٤٤١ ، في غزوة خيبر .

(٢) رواية مسلم :

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرُ أُنَى مَرَّحَبُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلُ مُجَرَّبُ

* إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَدَلَّهَبُ *

(٣) بقيته ، كما رواه مسلم :

كَلَيْشٍ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَةِ أَوْفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلُ السَّنْدَرَةِ

والسندرة : مكبال واسع .

وقائد الفرّ المحجلين» ^(١) . واليعسوب : ذَكَرَ النَّحْلَ وأميرها . روى هاتين الروايتين أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني في "المسند" في كتابه "فضائل الصحابة" ، ورواهما أبو نُعَيْم الحافظ في "حلية الأولياء" ^(٢) .

ودُعي بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بوصى رسول الله ، لوصايته إليه بما أراد . وأصحابنا لا ينكرون ذلك ، ولكن يقولون : إنها لم تكن وصية بالخلافة ، بل بكثير من المتجددات بعده ، أفضى بها إليه عليه السلام . وسنذكر طرفاً من هذا المعنى فيما بعد . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، أول هاشمية وَلَدَتْ لها شمي ، كان عليّ عليه السلام أضغرَ بنيتها ، وجعفر أسنّ منه عشر سنين ، وعقيل أسنّ منه بعشر سنين ، وطالب أسنّ من عقيل بعشر سنين ؛ وفاطمة بنت أسد أمهم جميعاً .

. وأم فاطمة بنت أسد فاطمة ^(٣) بنت هرم بن رواحة بن حُجْر بن عبد بن مَعِيص [ابن عامر بن لؤي . وأما حديّة بنت] ^(٤) وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبيان ابن محارب بن فهر . [وأما فاطمة بنت عبيد بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي . وأما سلمى بنت عامر بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر] ^(٥) . وأما عاتكة بنت أبي هَمَهَمَة - واسم عمرو بن عبد العزّي - بن عامر بن عُثَيْرَة بن وداعة ^(٦) بن الحارث ابن فهر ، [وأما ثُمّاضر بنت عمرو بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي] ^(٧) ، وأما حبيبة ؛ وهي أمة الله بنت عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حُطَيْط بن جُشَم ابن قسي ؛ وهو ثقيف . وأما فلانة بنت مخزوم بن أسامة بن ضبيع ^(٨) بن وائلة بن نصر ابن صعصعة بن ثعلبة بن كنانة بن عمرو بن قَيْن بن فَهْم بن عمرو بن قيس بن عَيْلان

(١) ورواه أيضاً الطبراني في الكبير ، ونقله صاحب الرياض النضرة ٢ : ١٥٥ ؛ مع اختلاف في اللفظ .
(٢) حلية الأولياء ١٤ : ٦٣ ، بسنده عن أنس ، ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس ، أول من يدخل من هذا الباب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الفرّ المحجلين ، وخاتم الوصيين » .
(٣) في مقاتل الطالبين : « وتعرف بحبي بنت هرم » .
(٤) تسكئة من مقاتل الطالبين . (٥) مقاتل الطالبين : « ابن أبي وداعة » .
(٦) كذا في ب ، وفي أ : « ضبيع » ، وفي مقاتل الطالبين « صبيح » .

ابن مضر . وأمها رَيْطَةُ بنت يسار بن مالك بن حُطَيْط بن جُثَم بن ثَقِيف . وأمها ^(١) بنت حصين بن سعد بن بكر بن هوازن . وأمها حُجَي بنت الحارث بن النابغة بن ميمرة ابن عوف بن نصر بن بكر بن هوازن . ذكر هذا النسب أبو الفرج علي بن الحسن الأصفهاني في كتاب "مقاتل الطالبين" ، ^(٢) .

أسلمت فاطمة بنت أسد بعد عشرة من المسلمين ؛ وكانت الحادية عشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يكرمها ويعظمها ويدعوها : «أمي» ، وأوصت إليه حين حزن رثتها الوفاة ، فقَبِل وصيَّتها ، وصَلَّى عليها ، ونَزَلَ في لحدها ، واضطجع معها فيه بعد أن أسَّها قيصه ، فقال له أصحابه : إنا مارأيناك صنعتَ يا رسول الله بأحد ما صنعتَ بها ، قال : «لأنه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرَّ بي منها ، إنما ألبسْتُها قميصي لتُكسَى من حُلل الجنة ، واضطجعتُ معها ليهونَ عليها ضغطةُ القبر» .

وفاطمة أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله من النساء .

وأم أبي طالب بن عبد المطلب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم . هي أم عبد الله ، والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأم الزبير بن عبد المطلب ، وائل ولد عبد المطلب بعدُ لأمهات شتى .

واختلف في مولد علي عليه السلام أين كان ؟ فكثير من الشيعة يزعمون أن ولد في الكعبة ، والحدّثون لا يعترفون بذلك ، ويزعمون أن المولود في الكعبة حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي .

واختلف في سنه حين أظهر النبي صلى الله عليه وآله الدعوة ، إذ تكلم له صلوات الله عليه أربعون سنة ، فالأشهر من الروايات أنه كان ابن عشر . وكثير من أصحابنا المتكلمين يقولون : إنه كان ابن ثلاث عشرة سنة ؛ ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم الخي وغيره من شيوخنا .

(١) مقاتل الطالبين : «كلية بنت قصية» . (٢) في ترجمة جعفر بن أبي طالب ص ٧ .

والأولون يقولون : إنه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وهؤلاء يقولون : ابن ست وستين ، والروايات في ذلك مختلفة . ومن الناس من يزعم أن سنة كانت دون العشر ، والأكثر الأظهر خلاف ذلك .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذري وعلي بن الحسين الأصفهاني أن قريشاً أصابته أزمة وقحط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعُمَيَّة ؛ حمزة والعباس : « ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المَحَل ! » ، فجاؤا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دَعُوا لي عَقِيلاً وخذوا مني شتم - وكان شديد الحب لعَقِيل - فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرأ ، وأخذ محمد صلى الله عليه وآله علياً ، وقال لهم : « قد اخترت - من اختاره الله لي عليكم - علياً » ، قالوا : فكان علي عليه السلام في حِجْر رسول الله صلى الله عليه وآله ، منذ كان عمره ست سنين .

وكان ما يُسَدِّي إليه صلواتُ الله عليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحسن تربيته ؛ كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به ؛ حيث مات عبد المطلب وجعله في حِجْره . وهذا يطابق قوله عليه السلام : لقد عبدتُ الله قبل أن يعبدَه أحد من هذه الأمة سبع سنين ، وقوله : كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعة ؛ ورسول الله صلى الله عليه وآله حينئذ صامت ما أذن له في الإنذار والتبليغ ؛ وذلك لأنه إذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من أبيه وهو ابن ست ؛ فقد صحّ أنه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ست تصحّ منه العبادة إذا كان ذاتمميز ، على أن عبادة مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئاً من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثلُ هذا موجود في الصبيان .

وقُتِل عليه السلام ليلة الجمعة لثلاث عشرة بقين من شهر رمضان ، سنة أربعين في

رواية أبي عبد الرحمن السلمى^(١) - وهى الرواية المشهورة - وفى رواية أبى مخنف^(٢) أنها كانت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان ، وعليه الشيعة فى زماننا . والقول الأول أثبت عند الحديث ، والليلة السابعة عشرة من شهر رمضان هى ليلة بدر ، وقد كانت الروايات وردت أنه يقتل فى ليلة بدر ، عليه السلام . وقبره بالغري .

وما يدعيه أصحاب الحديث - من الاختلاف فى قبره ، وأنه حُمل إلى المدينة ، أو أنه دفن فى رحبة الجامع ، أو عند باب قصر الإمارة ، أو نَدَّ البعير الذى حُمل عليه فأُنته الأعراب - باطل كله ، لا حقيقة له ، وأولاده أعرف بقبره ؛ وأولاد كل الناس أعرف بقبور آبائهم من الأجانب ؛ وهذا القبر الذى زاره بنوه لما قَدِموا العراق ، منهم جعفر بن محمد عليه السلام وغيره من أكابرهم وأعيانهم .

وروى أبو الفرج فى " مقاتل الطالبين " ، بإسناد^(٣) ذكره هناك أن الحين عليه السلام لما سئل : أين دفنتم أمير المؤمنين ؟ فقال : خرجنا به ليلاً من منزله بالكوفة ، حتى مررنا^(٤) به على مسجد الأشعث ، حتى اتهمنا به إلى الظَّهر بنجب الغري . وسنذكر خبر مقتله عليه السلام فيما بعد .

فأما فضائله عليه السلام ؛ فإنها قد بلغت من العِظَم والجلالة والانتشار والاشتهار مبلغاً يسمُجُ معه التعرُّض لذكرها ، والتصدي لتفصيلها ؛ فصارت كما قال أبو العباس لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد : رأيتنى فيما أتعاطى من وصف فضلك ، كالخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذى لا يخفى على الناظر ؛ فأيقنت أنى حيث انتهى بى القول منسوب إلى العِزِّز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء لك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك .

وما أقول فى رجل أقرَّ له أعداؤه وخصومه بالفضل ، ولم يمكنهم جحدُ مناه ،

(١) نقلها أبو الفرج فى مقاتل الطالبين ٤٠ (٢) مقاتل الطالبين ص ٤٢ : « الحسن »

(٣) كذا فى الأصول ومقاتل الطالبين والأجود : « فررنا » .

ولا كتمان فضائله ، فقد علمت أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها ، واجتهدوا بكل حيلة في إطفاء نوره ، والتحريض عليه ، ووضع المعاييب والمثالب له ، ولعنوه على جميع المنابر ، وتوعدوا مادحيه ، بل حبسوه وقتلوه ، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة ، أو يرفع له ذكرا ، حتى حظروا أن يسمي أحد باسمه ؛ فما زاده ذلك إلا رفعةً وسُموًا ؛ وكان كالمسك كلما سُتر انتشر عَرفه ، وكلما كُتِم تَضَوَّع نَشْرُه ؛ وكالشمس لا تُستَر بالراح ، وكضوء النهار إن حُجِبَت عنه عين واحدة ، أدركته عيون كثيرة .

وما أقول في رجل تُعزَى إليه كل فضيلة ، وتنتهي إليه كل فرقة ، وتجتاذبه كل طائفة ، فهو رئيس الفضائل وينبوعها ، وأبو عُذْرِها ، وسابق مضارها ، ومجلى حلتها ؛ كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، وله اقتفى ، وعلى مثاله احتذى .

وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، لأن شرف العلم بشرف العلوم ، ومعلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرف العلوم . ومن كلامه عليه السلام اقتبس ، وعنه نقل ، وإليه انتهى ؛ ومنه ابتداء ، فإن المعتزلة^(١) - الذين هم أهل التوحيد والعدل ، وأرباب النظر ، ومنهم تعلم الناس هذا الفن - تلامذته وأصحابه ؛ لأن بَيرَهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية^(٢) ، وأبو هاشم تلميذ أبيه ، وأبوه تلميذه عليه السلام . وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن [إسماعيل بن]^(٣) أبي بشر الأشعري ، وهو تلميذ أبي علي الجبائي ، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة ؛ فالأشعرية ينتهون بأخرق إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم ، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام . وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .

(١) انظر أمالي المرتضى ١ : ١٤٨ وما بعدها ؛ في كلام اللؤلؤف عن سند المعتزلة إلى علي عليه السلام .

(٢) هو إمام الكيسانية ؛ وعنه انتقلت البيعة إلى بني العباس . تنقيح المقال ٢ : ٢١٢ .

(٣) من ابن خلكان ١ : ٣٢٦ .

ومن العلوم علم الفقه ، وهو عليه السلام أصله وأساسه ، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ، ومستفيد من فقهه ؛ أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأندوا عن أبي حنيفة ، وأما الشافعيّ فقرأ على محمد بن الحسن ، ف يرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعيّ ، ف يرجع فقهه أيضاً إلى أبي حنيفة ؛ وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام ، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام ، وينتهي الأمر إلى عليّ عليه السلام . وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، وقرأ ربيعة على عكرمة ، وقرأ عكرمة على عبدالله بن عباس ، وقرأ عبدالله بن عباس على عليّ بن أبي طالب ^(١) ؛ وإن شئت فرددت ^(٢) إليه فقه الشافعيّ بقراءته على مالك كان لك ذلك ؛ فإلى الفقهاء الأربعة .

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر . وأيضاً فإنّ فقهاء الصحابة كانوا : عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ؛ وكلّهما أخذ عن عليّ عليه السلام . أما ابن عباس فظاهر ، وأما عمر فقد عرّف كلّ أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشكلت عليه وعلى غيره من الصحابة ، وقوله غير مرّة : « لولا عليّ لهلك عمر » ، وقوله : « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » ، وقوله : « لا يُفيتين أحد في المسجد وعلى حاضر » ؛ فقد عرّف بهذا الوجه أيضاً انتهاء الفقهاء إليه . وقد روت العامة والخاصة قوله صلى الله عليه وآله : « أقضاكم عليّ » ^(٣) ، والقضاء هو الفقه ؛ فهو إذاً أفقهم . وروى الكلّ أيضاً أنّه عليه السلام قال له وقد بعثه إلى اليمن قاضياً : « اللهم اهده قلبه وثبّت لسانه » ، قال : فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين ^(٤) ،

(١) ب : « عن علي » . (٢) في الأصول : « رددت » .

(٣) نقله السيوطي في الجامع الصغير ١ : ٥٨ عن مسند أبي يعلى بلفظ : « أرأف أمّي بأمّي أبو ر ، وأشدّهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ... » وضعفه .

(٤) رواه أبو داود في كتاب الأنصبة ٣ : ٤٠٩ بسنده عن عليّ ، ولفظه : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضياً فقلت : يا رسول الله ، ترسلني وأنا حديث السن ، ولا علم لي بالقضاء ، قال : « إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك ، فإذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » ، قال : فإزالت قاضياً — أو ما شككت — في قضاء بعد .

وهو عليه السلام الذى أفتى فى المرأة التى وضعت لسته أشهر ، وهو الذى أفتى فى الحامل الزانية^(١) ؛ وهو الذى قال فى المنبرية^(٢) : صار تُمنّها تسعا . وهذه المسألة لو فكر الفرضيّ فيه فكرياً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنك بمن قاله بديهياً ، واقتضبه ارتجالاً !

ومن العلوم علم تفسير القرآن ، وعنه أخذ ، ومنه فُرع . وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك ؛ لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس ، وقد علم الناس حال ابن عباس فى ملازمته له ، وانقطاعه إليه ، وأنّه تلميذه وخريجيه . وقيل له : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط .

ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف ؛ وقد عرفت أنّ أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون ، وعنده يقفون ؛ وقد صرح بذلك الشُّبلى ، والجُنيد ، وسرى^(٣) ، وأبو يزيد البسطامى ، وأبو محفوظ معروف الكرخي ، وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك الخِزفة^(٤) التى هى شعارهم إلى اليوم ، وكونهم يُسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام .

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره ١٦ : ١٩٣ ؛ عند الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أن عثمان قد أتى بامرأة قد ولدت لسته أشهر ، فأراد أن يقضى عليها بالحد ، فقال له على رضى الله عنه : ليس ذلك عليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

(٢) سميت المنبرية ؛ لأنه سئل عنها وهو على المنبر ؛ فأفتى من غير رواية ؛ ويانها أنه سئل فى ابنتين وأبوين وامرأة ؛ فقال : صار تُمنّها تسعا ، قال أبو عبيد : أراد أن السهام عالت حتى صار للمرأة التسع ، ولها فى الأصل الثمن ؛ وذلك أن الفريضة لو لم تلّ كانت من أربعة وعشرين ، فلما عالت صارت من سبعة وعشرين ، فللابنتين الثلاثان : ستة عشر سهماً ، وللأبوين السدسان : ثمانية أسهم ، وللمرأة ثلاثة من سبعة وعشرين ؛ وهو التسع ، وكان لها قبل العول ثلاثة من أربعة وعشرين ؛ وهو الثمن . وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٣٩ ، واللسان ١٣ : ٥١٢ ، وحاشية البقرى على متن الرحبية ٣٤ .

(٣) هو سرى بن المغلس السقطي ؛ خال الجنيد وأستاذه ، وصاحب معروف الكرخي ؛ وأول من تسكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال . مات سنة ٢٥١ . (طبقات الصوفية للسلمى ص ٤٨)
(٤) فصل السهروردى فى الباب الثانى عشر من كتابه عوارف المعارف (٤ : ١٩١) وما بعدها - على هامش الإحياء (الكلام فى شرح خرقة المشايخ الصوفية ولبسها .

ومن العلوم علم النحو والعربية ؛ وقد علم الناس كافة أنه هو الذى ابتدعه وأباه ، وأُمِّلَى على أبى الأسود الدؤلى جوامعه وأصوله ، من جماتها : الكلام كله ثلاثة أ. باء : اسم وفعل وحرف ، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة ، وتقسيم وجوه الإ. اب إلى الرفع والنصب والجر والجزم ^(١) ، وهذا يكاد يُلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البرية لا تنفي بهذا الحصر ، ولا تنهض بهذا الاستنباط .
وإن رجعت إلى الخصائص الخلقية والفضائل النفسانية والدينية وجدته ابن . لاهـا وطلّاع ثنائياها ^(٢) .

وأما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر مَنْ كان قبله ، ومحا اسمَ من يأتى دة ، ومقاماته فى الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة ؛ وهو الشجاع الذى افرّ قطّ ، ولا ارتاع من كتيبة ، ولا بارز أحداً إلا قتله ؛ ولا ضرب ضربة قطّ فاحت مت الأولى إلى ثانية ؛ وفى الحديث : « كَأَنْتَ ضَرْبَاتُهُ تَرَأُ » . ولما دعا معاوية إلى المبارزة ليس يح الناس من الحرب بقتل أحدهما ، قال له عمرو : لقد أنصفك ، فقال معاوية : ما غشّ تنى منذ نصحتنى إلا اليوم ، أنا أمرنى بمبارزة أبى الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق ! الك طمعت فى إمارة الشام بعدى ! وكانت العرب تفتخر بوقوفها فى الحرب فى مقابله ، فأما قتلاه فافتخار رهيظهم بأنه عليه السلام قتلهم أظهر وأكثر ، قالت أخت روى ابن عبد ودّ ترثيه :

لو كان قاتلُ عمرو غيرَ قاتِلِهِ بكَيْتُهُ أَبْدَأُ مَا دُمْتُ فى الأبدِ ^(٣)

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٤٢ - ٥٠ (٢) اقتباس من قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَّلَاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تُعْرِفُونِ

وابن جلا ، أى الواضح الأمر ؛ وطلّاع الثنايا : كناية عن السمو إلى معالي الأمور ، والثنايا فى الأمه ، جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل . وانظر اللسان ١٨ : ١٦٥

(٣) من أبيات ذكرها صاحب اللسان ٨ : ٣٩٥ ، وروايته :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ بكَيْتُهُ مَا أَقَامَ الرُّوحُ فى جَسَدِي

لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ وَكَانَ يَدْعَى قَدِيمًا بِيضَةُ الْبَلَدِ

لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا نَظِيرَ لَهُ وَكَانَ يُدْعَى أَبُوهُ بَيْضَةُ الْبَلَدِ^(١)
والنتبه يوماً معاوية ، فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعده ،
فقال له عبد الله يداعبه : يا أمير المؤمنين ، لو شئت أن أفتك بك لفعلت ، فقال : لقد شجعت
بعدنا يا أبا بكر ! قال : وما الذي تنسكه من شجاعتى وقد وقفت في الصف إزاء علي بن
أبي طالب ! قال : لا جرم ، إنه قتلك وأباك ييسرى يديه ، وبقيت ابني فارغة ، يطلب
من يقتله بها .
وجملة الأمر أن كل شجاع في الدنيا إليه ينتهى ، وباسمه ينادى في مشارق
الأرض ومغاربها .

وأما القوة والأيد فبه يضرب المثل فيهما ؛ قال ابن قتيبة في " المعارف " : ماصارع
أحداً قط إلا صرعه^(٢) . وهو الذى قلع باب خيبر ، واجتمع عليه عصابة من الناس ليقلبوه فلم
يقلبوه ؛ وهو الذى اقتلع هبل من أعلى الكعبة ، وكان عظيماً جداً ، وألقاه^(٣) إلى الأرض .
وهو الذى اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها ،
وأنبط^(٤) الماء من تحتها .

وأما السخاء والجود فخاله فيه ظاهرة ؛ وكان يصوم ويطوى ويؤثر بزاده ؛ وفيه أنزل :
﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا^(٥) . وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم ؛
فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً ، وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية ؛ فأنزل فيه : ﴿ الَّذِينَ

(١) بيضة البلد ، يريد على بن أبي طالب ، أى أنه فرد ليس مثله في الشرف كالبيضة التى هى تريكة
وحدها ، ليس معها غيرها ، كذا فسرّه في اللسان .

(٢) المعارف ٢١٠ ، وبعبارة : « شديد الوثب قوى الضرب » .

(٣) ب : « فألقاه » . (٤) ب ج : « فأنبط » .

(٥) سورة الإنسان ٩ ، ١٠ .

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿١﴾ .

وروى عنه أنه كان يسقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة ، حتى تجلّت (٢) يده ، ويتصدق بالأجرة ، ويشدّ على بطنه حجرا .

وقال الشعبي وقد ذكره عليه السلام : كان أسخى الناس ؛ كان على الخلق الذي يحبه الله : السخاء والجود ، ما قال : « لا » لسائل قط .

وقال عدوه ومُبغضه الذي يجتهد في وُضْعه وعيبه معاوية بن أبي سفيان لمُحَقِّن (٣) بن أبي مُحَقِّن الضبي لما قال له : جئتكَ مِنْ عند أبخل الناس ، فقال : ويحك ! كيف تقول إنه أبخل الناس ، لو مَلَكَ بيتًا من تَبَرٍ وبيتًا من تَبَنٍ لأفد تَبَره قبل تَبَنيه .

وهو الذي كان يَكْنُس بيوت الأموال ويصلي فيها . وهو الذي قال : يا صفراء ، وبيا بيضاء ، غرّى غيّرى ، وهو الذي لم يخلف ميراثًا ، وكانت الدنيا كلها بيده إلا ما كان من الشام .

وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس عن ذنب ، وأصفحهم عن مسيء ؛ وقد ظهر صحّة ما قلناه يومَ الجمل ؛ حيث ظفر بمرّوان بن الحكم - وكان أعدى الناس له ، وأشدّهم بغضًا - فصفح عنه .

وكان عبد الله بن الزبير يشتمّه على رموس الأشهاد ، وخطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوغد (٤) اللئيم على بن أبي طالب . وكان علىّ عليه السلام يقول : مازال الزبير

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ، وللمفسرين في هذه الآية أسباب أخرى للنزول ، ذكرها القرطبي في التفسير ١٩ : ١٢٨ ، وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ٢٣١

(٢) مجلت يده ، أى ثخن جلده وتمجر وظهر فيه ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة ، ومنه حديث فاطمة : أنها شكّت إلى علىّ على يديها من الطحن . النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٠

(٣) أورده الذهبي في المصنف ص ٥٧٣ ، وقال : « وفد على معاوية » .

(٤) في ب : « الوغب » ، وهما بمعنى .

رجلاً منّا أهل البيت حتى شبّ عبد الله ، فظفر به يوم الجمل ، فأخذه أسيراً ، فصفحه عنه ، وقال : اذهب فلا أرى نك ؛ لم يزد على ذلك .

وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة - وكان له عدواً - فأعرض عنه ولم يقل له شيئاً .

وقد علمتم ما كان من عائشة في أمره ، فلما ظفر بها أكرمها ، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّهنّ بالمائم وقلّدهنّ بالسيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به ، وتأففت وقالت : هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلّهم بي . فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمّهنّ ، وقلن لها : إنما نحن نسوة .

وحاربه أهل البصرة ، وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ونادى مناديه في أقطار العسكر : ألا لا يتبع^(١) مولٍ ، ولا يُجهز على جريح ، ولا يُقتل مستأسر ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيّر إلى عسكر الإمام فهو آمن . ولم يأخذ أثقالهم ، ولا سبى ذراريهم ، ولا غنم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل ، ولكنه أبى إلا الصفح والعفو ؛ وتقبّل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تُنسى .

ولما ملك عسكر معاوية عليه المصاء ، وأحاطوا بشريعة الفرات ، وقالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً ، سألمهم على عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا^(٢) لهم شرب الماء ، فقالوا : لا والله ، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان ؛ فلما رأى عليه السلام أنه الموت لا محالة تقدّم بأصحابه ، وحمل على عساكر معاوية حملات كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع ؛ سقطت منه الرؤوس والأيدي ، وملكوا عليهم

(١) : « لا يتبع مول » . (٢) كذا في ١ ، وفي ب : « يسوغوا » .

الماء ، وصار أصحاب معاوية في الفلاة ، لا ماء لهم ، فقال له أصحابه وشيعته : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، ولا تسقيهم منه قطرة ، واقتلهم بسيوف العطش ، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك إلى الحرب ، فقال : لا والله لا أكفئهم بمثل فعلهم ، أفسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففي حدّ السيف ما يغني عن ذلك . فهذه إن نسبتهما إلى الحلم والصفح فتناهيك بها جمالا وحسنا ، وإن نسبتهما إلى الدين والورع فأخلق يمثلهما أن تصدر عن مثله عليه السلام !

وأما الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه وعدوه أنه سيّد المجاهدين ؛ وهل الجهاد لأحد من الناس إلا له ! وقد عرفت أنّ أعظم غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وأشدّها نكايّة في المشركين بدر الكبرى ؛ قُتل فيها سبعون من المشركين ، قُتل على نصفهم ، وقُتل المسلمون والملائكة النصف الآخر . وإذا رجعت إلى مغازي محمد بن عمر الواقدي وتاريخ الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري وغيرهما علمت صحة ذلك ؛ دغّ من قتله في غيرها كأحد والخندق وغيرها ؛ وهذا الفصل لامعنى للإطّباب فيه ؛ لأنه من المعلومات الضرورية ، كالعلم بوجود مكّة ومصر ونحوهما .

وأما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ؛ وفي كلامه^(١) قيل : دون كلام الخالق ، وفوق كلام الخلق . ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظت سبعين خطبة من خطب الأئمة ، ففاضت ثم فاضت . وقال ابن ثباته^(٢) : حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيد الإفاق إلا سعة وكثرة ، حفظت مائة فصل من مواضع على بن أبي طالب .

ولما قال مخنف بن أبي مخنف لمعاوية : جئتكم من عند أعيان الناس ، قال له : ويحك !

(١) ب : « وعن كلامه » . (٢) هو عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن إسماعيل الفارقي الجذامي .

كيف يكون أعيا الناس ! فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره . ويكنى هذا الكتاب الذى نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارى فى الفصاحة ، ولا يبارى فى البلاغة . وحسبك أنه لم يدون لأحد من فصحاء الصحابة العُشْر ولا نصف العُشْر ثمنا دُونَ له ، وكفاك فى هذا الباب ما يقوله أبو عَمَّان الجاحظ فى مدحه فى كتاب ” البيان والتبيين “ ، وفى غيره من كتبه .

وأما سجاجة الأخلاق ، وبشر الوجه ، وطلاقة الحياء والتيسم ، فهو المضروب به المثل فيه ؛ حتى عابه بذلك أعداؤه ؛ قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنه ذو دُعابة شديدة . وقال على عليه السلام فى ذلك : عجبا لأبى النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فى دُعابة ، وأتى امرؤ تلعباة ، أظفيس وأمارس^(١) . وعمرو بن العاص إنما أخذها عن عمر ابن الخطاب القولة له لما عزم على استخلافه : لله أبوك لولا دُعابة فيك ! إلا أن عمر اقتصر عليها ، وعمرو زاد فيها وسمّجها .

قال صعصعة بن صُوحان وغيره من شيعته وأصحابه : كان فينا كأحدنا ، لين جانب ، وشدة تواضع ، وسهولة قياد ، وكفنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه . وقال معاوية لقيس بن سعد : رحم الله أبا حسن ؛ فلقد كان هشا بشا ، ذا فُكاهة . قال قيس : نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ويتسم إلى أصحابه ، وأراك تُسرّ حسواً فى ارتفاء^(٢) ، وتعييه بذلك ! أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبنتين قد مسّه الطوى ؛ تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طغافُ أهل الشام .

(١) التلعباة ، بفتح التاء وكسرهما : الكثير اللعب والمرح . والمعافسة : الملاعبة أيضا . والممارسة : ملاعبة النساء . والخبر أورده ابن الأثير فى النهاية ١ : ١١٧ ، و ٣ : ٥٩ ، ١١٠ ، و ٤ : ٥٩ ، ٨٩ .
(٢) فى المثل : « هو يسر حسوا فى ارتفاء » ، يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره . اللسان ١٩ : ٤٦ .

وقد بقى هذا الخلق متوارثاً متنافلاً في محبته وأوليائه إلى الآن ، كما بقى الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر ، ومن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك .

وأما الزهد في الدنيا فهو سيد الزهاد ، وبذل الأبدال ، وإليه تشدُّ الرحال ، وعنده تُنفَضُ الأحلاس ؛ ما شيعَ من طعام قط . وكان أحسن الناس ما نكلاً وملبساً ؛ قال عبد الله بن أبي رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدم جراباً مختوماً ، فوجدنا فيه خبزاً شمير يابساً مرضوضاً ، فقدم فأكل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، فكيف تختّمه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلتآه بسمن أو زيت .

وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة وليف أخرى ، ونملاه من ايف . وكان يلبس الكرباس^(١) الغليظ ، فإذا وجد كمة طويلاً قطعته بشفرة ، ولم يخطه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سدى لا حمة له . وكان ياتدم إذا ائتم بخل أو بملح ، فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل . ولا يأكل اللحم إلا قليلاً ، ويقول : لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان . وكان مع ذلك أشد الناس قوة وأعظمهم أيداً ، لا يُنفَضُ^(٢) الجوع قوته ، ولا يُخَوَّن^(٣) الإقلال مُنته . وهو الذي طلق الدنيا ، وكانت الأموال تُجبي إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرقها ويمزقها ، ثم يقول :

هَذَا جَنَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلَّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ^(٤)

(١) الكرباس بالكسر : ثوب من القطن الأبيض ، معرب .

(٢) ب ، ج : « ينقص » .

(٣) يخون : ينقص ، وفي ب : « يخور » ، وما أثبتته عن أ ، ج .

(٤) البيت أنشده عمرو بن عدى حينما كان غلاماً ، وكان يخرج مع الخدم يجتنبون للملك (جذيمة الأبرش) الكهانة ، فسكانوا إذا وجدوا كهانة خياراً أكلوها وأتوا بالباقي إلى الملك ، وكان عمرو لا يأكل منه ، ويأتى به كما هو ، وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وحديث علي ورد مفصلاً في حلية الأولياء ١ : ٨١ .

وأما العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً ؛ ومنه تعلم الناس صلاة الليل ، وملازمة الأوراد وقيام النافلة ؛ وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يُبْسَطُ له نِطْعٌ بين الصَّغِيرِ ليلة الحرير ، فيصلى عليه ورده ، والسهم تقع بين يديه وتمرّ على صماخيه يميناً وشمالاً ، فلا يرتاع لذلك ، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثفينة البعير لطول سجوده !

وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته ، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله ، وما يتضمنه من الخضوع لهيبته ، والخشوع لعزته والاستخذاء له ، عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص ، وفهمت من أي قلب خرجت ، وعلى أي لسان جرت ! وقيل لعليّ بن الحسين عليه السلام - وكان الغاية في العبادة : أين عبادتك من عبادة جدك ؟ قال : عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله .

* * *

وأما قراءته القرآن واشتغاله به فهو المنظور إليه في هذا الباب ؛ اتفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أول من جمعه ؛ نقلوا كلهم أنه تأخر عن بيعة أبي بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة ؛ بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن ؛ فهذا يدلّ على أنه أول من جمع القرآن ؛ لأنه لو كان مجموعاً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لما احتاج إلى أن يتشاغل^(١) بجمعه بعد وفاته صلى الله عليه وآله . وإذا رجعت إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ؛ كأبي عمرو بن العلاء وعاصم ابن أبي النّجود وغيرها ؛ لأنهم يرجعون إلى أبي عبد الرحمن السُّلَميّ القاري ،

(١) ب : « تشاغل » .

وأبو عبد الرحمن كان تلميذه ، وعنه أخذ القرآن ؛ فقد صار هذا الفن من الفنون التي تنتهى إليه أيضاً ، مثل كثير مما سبق .

وأما الرأي والتدبير فكان من أسدّ الناس رأياً ، وأصحّهم تدبيراً ؛ وهو الذى أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أن يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرس بما أشار . وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، ولو قبلها لم يحدث عليه ما حدث . وإتما قال أعداؤه : لا رأى له ؛ لأنه كان متقيداً بالشريعة لا يرى خلافاً ، ولا يعمل بما يقتضى الدين تحريمه . وقد قال عليه السلام : لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب . وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويستوفقه ؛ سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم يكن ؛ ولا ريب أن من يعمل بما يؤدى إليه اجتهاده ، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمنع لأجلها عما يرى الصلاح فيه ، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب ، ومن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتثار أقرب .

وأما السياسة فإنه كان شديد السياسة ، خشناً في ذات الله ، لم يراقب ابن عمه في عمل كان ولأه إياه ، ولا راقب أخاه عقيلاً في كلام جبهه به . وأحرق قوماً بالنار ، ونقض دار مضقلة بن هبيرة ودار جرير بن عبد الله البجلي ، وقطع جماعة وصلب آخرين . ومن جملة سياسته في حروبه أيام خلافته بالجل وصيفين والنهروان ، وفي أقلّ القليل منها مقنّع ، فإن كلّ سائس في الدنيا لم يبلغ فتكه وبطشه وانتقامه مبلغ المشرّماً فعل عليه السلام في هذه الحروب بيده وأعوانه . فهذه هي خصائص البشر ومن أياهم قد أوضحنا أنه فيها الإمام المتبع فعله ، والرئيس المقتفى أثره .

وما أقول في رجل تحبّه أهل الدّمة على تكذيبهم بالنبوة ، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة ، وتصوّر ملوك الفرنج والروم صورته في بيوعها وبيوت عباداتها ،

حاملاً سيفه ، مشمراً لحربه ، وتصوّر ملوك الترك والدّينلم صورته على أسياها ! كان على سيفِ عَضُد الدولة بن بُويّه وسيف أبيه ركن الدولة صورته ، وكان على سيفِ إلب أرسلان وابنه ملكشاه صورته ، كأنهم يتفاءلون به النصر والظفر .

وما أقولُ في رجل أحبّ كلُّ واحدٍ أن يتكثّر به ، وودّ كلُّ أحدٍ أن يتجمل ويتحسنّ بالانتساب إليه ؛ حتى الفتوة التي أحسن ما قيل في حدّها ألا تستحسن من نفسك ما تستعجبه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، وصنّفوا في ذلك كتباً ، وجعلوا لذلك إسناداً أنهوّه إليه ، وقصّروه عليه ، وسّمّوه سيّدَ الفتيان ، وعضدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المروى ، أنه سُمِعَ من السماء يوم أُحُد :

لا سيفَ إلا ذو الفقارِ ولا فتى إلا علي

وما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيّد البطحاء ، وشيخ قريش ، ورئيس مكة ، قالوا : قلّ أن يسودّ فقير وساد أبو طالب وهو فقير لا مال له ، وكانت قريش تسمّيه الشيخ . وفي حديث عفيف الكنديّ ، لما رأى ^(١) النبيّ صلى الله عليه وآله يصلّى في مبدأ الدعوة ، ومعه غلام وامرأة ، قال : فقلت للعباس : أيّ شيء هذا ؟ قال : هذا ابن أخي ، يزعم أنه رسولٌ من الله إلى الناس ، ولم يتبعه على قوله إلا هذا الغلام - وهو ابن أخي أيضاً - وهذه المرأة ، وهي زوجته - قال : فقلت : ما الذي تقولونه أنتم ؟ قال : ننتظر ما يفعل الشيخ - يعني أبا طالب . وأبو طالب هو الذي كفّل رسولَ الله صلى الله عليه وآله صغيراً ، وحماه وحاطه كبيراً ، ومنعه من مشركي قريش ، ولقيَ لأجله عنتاً عظيماً ، وقاسى بلاء شديداً ، وصبرَ على نصره والقيام بأمره . وجاء في الخبر أنّه لما توفّي أبو طالب أوحى إليه عليه السلام وقيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك .

وله مع شرف هذه الأبوة أنّ ابن عمه محمد سيّدُ الأولين والآخرين وأخاه جعفر ذو الجناحين ، الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : «أشبهتَ خلقي وخلقي» ، فمرّ بجمل

(١) الخبر في أسد الغابة ٣ : ٢١٤ مع اختلاف في الرواية .

فرحاً ؛ وزوجته سيدة نساء العالمين ، وابنيه سيّدا شباب أهل الجنة ؛ فأبأوه آباء رسول الله ، وأمّهاته أمّهات رسول الله ، وهو مسوط بلحمه ودمه ، لم يفارقه منذ خلق الله آدم . إلى أن مات عبد المطلب بين الأخوين عبد الله وأبي طالب ؛ وأمّهما واحدة ، فكان منها سيّداً الناس ؛ هذا الأول وهذا التالى ، وهذا المنذر وهذا الهادى !

وما أقول فى رجل سَبَقَ الناس إلى الهدى ، وآمن بالله وعبدَه وكلّ من فى الأرض . يعبد الحجر ، ويحجد الخالق ؛ لم يسبقه أحد إلى التوحيد إلا السابق إلى كلّ خير . محمد رسول الله صلى الله عليه وآله .

ذهب أكثر أهل الحديث إلى أنه عليه السلام أوّل الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله إيماناً به ، ولم يخالف فى ذلك إلا الأقلّون . وقد قال هو عليه السلام : أنا الصّدّيق الأكبر ؛ وأنا الفاروق الأول ، أسلمت قبل إسلام الناس ، وصليت قبل صلاتهم ومن وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك وعلمه واضحاً . وإليه ذهب الواقدي وابن جرير الطبري ، وهو القول الذى رجّحه ونصره صاحب كتاب " الاستيعاب " ،^(١) ولأننا إنما نذكر فى مقدمة هذا الكتاب جملةً من فضائله عنّت بالعرض لا بالقصد وجب أن نختصر ونقتصر ، فلو أردنا شرح مناقبه وخصائصه لاحتجنا إلى كتاب مفرّ يماثل حجّج هذا بل يزيد عليه ، وبالله التوفيق^(٢) .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر النمرى القرطبي ٢ : ٤٥٧ .

(٢) وانظر ترجمته وأخباره أيضاً فى أسد الغابة ٤ : ١٦ - ٤٠ ، والاستيعاب ٣ : ١٠٨٩ - ١٣٣ . والإصابة ٤ : ٢٦٩ - ٢٧١ ، وإنباه الرواة ١ : ١٠ - ١٢ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩١ - ٢٠٧ ، وتاريخ بغداد ١ : ١٣٣ - ١٣٨ ، وتاريخ أبي الفدا ١ : ١٨١ - ١٨٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨٨ - ٩١ ، وتاريخ ابن كثير ٧ : ٣٣٢ - ٣٦١ ، و ٨ : ١ - ١٣ ، وتذكر الحفاظ ١ : ١٠ - ١٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ٣٤٤ - ٣٤٩ ، وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٤١ - ٣٣٩ ، وحلية الأولياء ١ : ٦١ - ٨٧ ، والرياض النضرة ٢ : ١٥٣ - ٢٤٩ ، وشذرات الذهب ١ : ٤٩ - ٥١ ، وصفوة الصفوة ٣ : ١١٩ - ١٤٤ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ٣٣٧ / ٣ : ١٩ - ١٢ : ٦ ، وطبقات القراء لابن الجزرى ١ : ٥٤٦ - ٥٤٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٥ - ٥٠ . والمعارف ٢٠٣ - ٢١٨ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ٤١ - ٥٠ ، ومعجم الشعراء ٢٧٩ - ٢٨٠ ، ومقاتل الطالبين ٢٤ - ٤٥ ، والنجوم الزاهرة ١ : ١١٩ - ١٢٠ .

القول في نسب الرضى أبى الحسن رحمه الله وذكر ظرف من خصائصه ومناقبه

هو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم
ابن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام . مولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليل القدر ، عظيم المنزلة في دولة بنى العباس ودولة
بنى بويه، ولقب بالطاهرذى المناقب، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطاهر الأوحى،
وولى نقابة الطالبيين خمس دفعات، ومات وهو متقلدا بعد أن حالفته الأمراض، وذهب
بصره ، وتوفى عن سبع وتسعين سنة ، فإن مولده كان في سنة أربع وثلثمائة ، وتوفى سنة
أربعمائة . وقد ذكر ابنه الرضى أبو الحسن كمية عمره في قصيدته التى رثاها بها ، وأولها :

وَسَمَّيْتُكَ حَالِيَةَ الرِّبْعِ الْمُرْهِمِ وَسَقَيْتُكَ سَاقِيَةَ الْغَمَامِ الْمُرْزِمِ ^(١)
سَمِعْتُ وَتَسْمَعُونَ اهْتِمَادًا لَكَ الْعِمَادَا حَتَّى مَضَوْا وَغَبَرَتْ غَيْرَ مَذْمُومٍ
لَمْ يَلْعَقُوا فِيهَا بِشَاوِكَ بَمَدِّ مَا أَمَلُوا فَعَاثَهُمْ اعْتِرَاضُ الْأَزْلَمِ ^(٢)
إِلَّا بَقَايَا مِنْ غُبَارِكَ أَصْبَحْتُ غُصَصًا وَأَقْدَاءَ لَعِينٍ أَوْ فَمٍ
إِنْ يَتَّبِعُوا عَقَبِيكَ فِي طَلَبِ الْعَمَلَا فَالذُّبُ يَعْسِلُ فِي طَرِيقِ الضَّيْفَمِ ^(٣)

ودفن النقيب أبو أحمد أولا في داره ، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام .
وهو الذى كان السفير بين الخلفاء وبين الملوك من بنى بويه والأمراء من بنى حمدان
وغيرهم وكان مبارك الفرّة ميمون النقيبة ، مهيّبا نبيلًا ؛ ماشرع في إصلاح أمر فاسد

(٢) الأزلم : الدهر .

(١) ديوانه ، لوحة ١٥٣ .

(٣) عسل الذب : مضى مسرعا واضطرب في عدوه .

إلا وصَلَحَ على يديه ، وانتظم بحسن سفارته ، وبركة هِمَّتِهِ ، وحسنِ تدبيره ووساطته . ولاستعظامِ عَضُدِ الدولة أَمْرِهِ ، وامتلأ صدره وعينه به حين قدم العراق ما^(١) قبض عليه وحَلَّه إلى القلعة بفارس ؛ فلم يزل بها إلى أن مات عضد الدولة ، فأطلقه شرفُ الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة ، واستصحبه في جملته حيث قدم إلى بغداد، وملك الحضرة . ولما توفّي عضد الدولة ببغداد كان عمرُ الرضّى أبي الحسن أربع عشرة سنة ، فكتب إلى أبيه وهو معتقل بالقلعة بشيراز :

أَبْلَغًا عَنِّي الْحُسَيْنُ أَلُوكَأَنَّ ذَا الطُّودِ بَعْدَ عَهْدِكَ سَاخَا^(٢)
وَالشَّهَابُ الَّذِي اصْطَلَيْتَ لُظَاهَ عَكَّسَتْ ضَوْؤُهُ الْخُطُوبُ فَبَاخًا^(٣)
وَالْفَنِيْقَ الَّذِي تَذَرَعُ طُولَ الْأَرْضِ خَوَّيَ بِهِ الرَّدَى وَأَنَاخًا^(٤)
إِنْ يَرِدُ مَوْرِدَ الْقُدَى وَهُوَ رَاضٍ فَبِمَا يَكْرِعُ الزَّلَالُ النَّقْصَا^(٥)
وَالْعُقَابُ الشَّغْوَاءُ أَهْبَطَهَا النَّيْقُ وَقَدْ أُرْعَتِ النُّجُومُ صِمَاخًا^(٦)
أَعْجَلَتْهَا الْمَنُونُ عَنَّا وَلَكِنْ خَلَفْتَ فِي دِيَارِنَا أَفْرَاخًا
وَعَلَى ذَاكَ فَالزَّمَانُ بِهِمْ عَا دَعْلَامًا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ شَاخَا

وأمّ الرضّى أبي الحسن فاطمة بنت الحسين [بن أحمد]^(٧) بن الحسن الناصر الأصمّ ، صاحب الدَّيْلَمِ ، وهو أبو محمد الحسن بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن عمر بن عليّ ابن أبي طالب عليهم السلام . شيخ الطالبين وعالمهم وزاهدهم ، وأديبهم وشاعرهم ،

(١) ما هنا مصدرية .

(٢) لوحة ١٨٢ ، والألوك : الرسالة .

(٣) باخ : سكن وفتر .

(٤) الفنيق في الأصل : الفعل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يرك .

(٥) النفاخ : البارء العذب الصافي .

(٦) الشغواء من وصف العقاب ؛ قيل لها ذلك لفضل في مقارها الأعلى على الأسفل . والنبيق : حرف

من حروف الجبل .

(٧) تكملة من أ ، ج .

ملك بلاد الديلم والجليل ، ويلقب بالناصر للحق ، جرت له حروب عظيمة مع السامانية ، وتوفى بطبرستان سنة أربع وثلاثمائة ، وسنة تسع وسبعون سنة . وانتصب في منصبه الحسن ابن القاسم بن الحسين الحسنى ؛ ويلقب بالداعى إلى الحق .
وهى أم أخيه أبى القاسم على المرتضى أيضاً .

وحفظ الرضى رحمه الله القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة في مدة يسيرة ، وعرف من الفقه والفرائض طرقاتاً قويتاً . وكان رحمه الله عالماً أديباً ، وشاعراً مقلماً ، فصيح النظم ، ضخم الألفاظ ، قادراً على القريض ، متصرفاً في فنونه ؛ إن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العجيب ، وإن أراك الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره^(١) أتى بما لا يشق فيه غباره ، وإن قصد في البرائى جاء سابقاً والشعراء منقطع أنفاسها على أثره . وكان مع هذا مترسلاً ذا كتابة قوية . وكان عفيفاً شريف النفس ، عالى الهمة ، ملتزماً^(٢) بالدين وقوانينه ، ولم يقبل من أحد صلة ولا جائزة ، حتى إنه ردّ صلات أبيه ؛ وناهيك بذلك شرف نفس ، وشدة ظلم^(٣) . فأما بنو بويه فإنهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل .
وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب . وكان الطائع^(٤) أكثر ميلاً إليه من القادر^(٥) ؛ وكان هو أشدّ حباً وأكثر ولاءً للطائع منه للقادر ؛ وهو القائل للقادر في قصيدته التى مدحه بها ، منها :

(١) ساقطة من أ

(٢) ب ، ج : « مستلزماً » وما أثبتته عن أ

(٣) الطائف ، من ظلف نفسه عن الشيء يطافها ظلفاً : منعها مما إليه تميل .

(٤) هو أبو بكر عبد الكريم الطائى لأمر الله ؛ بويغ الخلافة له سنة ٣٦٣ ؛ ثم خلع ، وقبض عليه الديلم سنة ٣٨١ ، وبويغ لأخيه القادر ؛ فحمل إليه الطائى ، وبقي عنده إلى أن توفى سنة ٣٩٣ . الفخرى :

٢٥٤ ، وابن الأثير حوادث ٣٨١ .

(٥) هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقدر ، المعروف بالقادر ؛ بويغ له بالخلافة بعد خلع أخيه ؛

وتوفى سنة ٤٢٢ . الفخرى ٢٥٤ .

(٣ - شرح نهج البلاغة ١)

عَظُفًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّمَا فِي دَوْحَةِ الْعُلَيَّاءِ لَا تَتَفَرَّقُ^(١)
 مَا يَدِينُنَا يَوْمَ الْفَخَارِ تَفَاوَتْ أَبْدًا كِلَانَا فِي الْمَعَالِي مُعْرِقُ
 إِلَّا اخْلَافَةَ شَرَفَتِكَ فَإِنِّي^(٢) أَنَا عَاطِلٌ مِنْهَا وَأَنْتَ مَطْوِقُ
 فَيَقَالُ : إِنَّ الْقَادِرَ قَالَ لَهُ : عَلَى رَغْمِ أَنْفِ الشَّرِيفِ !

وذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في التاريخ في وفاة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم
 ابن أحمد بن محمد الطبري الفقيه المالكي ، قال : كان شيخ الشهود المعدلين ببغداد
 ومقدمهم ، وسمع الحديث الكثير ، وكان كريماً مفضلاً على أهل العلم ، قال : وعليه قرأ
 الشريف الرضي رحمه الله القرآن وهو شاب حَدَّثَ [السن]^(٣) ، فقال له يوماً : أيها
 الشريف ، أين مقامك ؟ قال : في دار أبي بيبان مُحَوَّل^(٤) ، فقال : مثلك لا يُقيم بدار أبيه ،
 قد نَحَلْتُكَ دَارِي بالسَّكْرَنُخ ، المعروفة بدار البركة . فامتنع الرضي من قبولها وقال له : لم أقبل .
 من أبي قط شَيْئاً ، فقال : إن حقّي عليك أعظم من حقّ أبيك عليك ؛ لأنّي حفظتك
 كتاب الله تعالى . فقبلها^(٥) .

وكان الرضي لعلو همته تنازع نفسه^(٦) إلى أمورٍ عظيمةٍ يحبس بها خاطره ، وينظمها
 في شعره ، ولا يجد من الدهر^(٧) عليها مساعدة ، فيذوب كدّاً ، ويفنى وجداً ، حتى
 توفّي ولم يبلغ غَرَضاً .
 فمن ذلك قوله :

مَا أَنَا لِلْعُلَيَّاءِ إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِي مَا كَانَ مِنْ وَالِدِي^(٨)
 وَلَا مَشَتْ بِي الْخَيْلُ إِنَّمَا لَمْ أَطَأْ سَرِيرَ هَذَا الْأَصِيدِ الْمَاجِدِ^(٩)

(٢) الديوان : « ميزتك ولاني » .

(١) ديوانه ، لوحة ٤٠ .

(٣) تسكلة من ا

(٤) باب محول ، بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو ولام : محلة كبيرة من محال بغداد ؛ كانت متصلة بالسكرخ .

(٥) المنظم (حوادث سنة ٣٩٣) . (٦) ١ : « في » ، وما أثبتته عن ب .

(٧) ١ : « في الدهر » ؛ وما أثبتته عن ب . (٨) ديوانه ، لوحة ٨٩ .

(٩) ديوانه : « الأغاب الماجد » .

ومنه قوله :

مَتَى تَرَانِي مُشِيحًا فِي أَوَائِلِهِمْ يَطْفُو بِي النَّقْعُ أَحْيَانًا وَيُخَفِّينِي^(١)
[لَتَنْظُرُنِي مُشِيحًا فِي أَوَائِلِهَا يَغِيبُ بِي النَّقْعُ أَحْيَانًا وَيُبْدِينِي]^(٢)
لَا تَعْرِفُونِي إِلَّا بِالطَّعْمَانِ وَقَدْ أَضْحَى لِشَامِي مَعْصُوبًا بِعَرْنِي^(٣)

ومنه قوله يعني نفسه :

فَوَاعَجَبًا مِمَّا يَظُنُّ مُحَمَّدٌ وَلِلْظَنِّ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ غَسَدٌ^(٤)
يُؤْمَلُ أَنَّ الْمَلِكَ طَوَّعُ يَمِينِهِ^(٥) وَمِنْ دُونِ مَا يَرْجُو الْمَقْدَرُ أَقْدَارُ
لَنْ هُوَ أَغْنَى لِلْخِلَافَةِ لِمَّةً لَهَا طُرٌّ فَوْقَ الْجَبِينِ وَإِطْرَارُ
وَرَامَ الْعِلَا بِالشَّعْرِ وَالشَّعْرَ دَائِبًا فِي النَّاسِ شُعْرٌ خَامِلُونَ وَشُعَارُ^(٦)
وإني أرى زندياً تواتر قدْحُه وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ تَكُونَ لَهُ نَارُ

ومنه قوله^(٧)

لَا هَمَّ قَلْبِي بِرُكُوبِ الْعَلَا يَوْمًا وَلَا بُلْتُ يَدِي بِالسَّمَاحِ^(٨)

(١) ديوانه ص ٢٢٢ - (مطبعة نخبة الأخبار) ، من قصيدة يذكر فيها القبض على الطائع لله ، ويصف خروجه من الدار سليماً ، وأنه حين أحس بالأمر بادر ونزل دجلة ، وتلوم من تلوم من القضاة والأشراف والشهود ، فامتنهوا وأخذت ثيابهم . ومطلعها :

لَوَاعِجُ الشُّوقِ تُخْطِئُهُمْ وَتُضْمِيْنِي وَاللَّوْمُ فِي الْحُبِّ يَنْهَاهُمْ وَيُعْرِينِي
وَلَوْ لَقُوا بَعْضَ مَا أَلْقَى نِعْمَتُ بِهِمْ لَسَكَنَهُمْ سَلَمُوا مِمَّا يُعَيِّنِي

(٢) هذا البيت لم يذكر في الأصول ؛ وهو في المطبوعة المصرية والديوان .

(٣) الديوان : « إذا » .

(٤) ديوانه ، لوحة ٢١٤ ؛ وروايته : « غرار » ، وفي ١ : « بعض المواضع » .

(٥) الديوان : « يقدر أن الملك » . (٦) شعر : جمع أشعر ، وهو كثير الشعر طوله .

(٧) ديوانه ، لوحة ٨٤ ، من قصيدة أولها :

نَبَّهْتُهُمْ مِنْ شَلِّ عَوَالِي الرِّمَاحِ إِلَى الْوَعَى قَبْلَ نَوْمِ الصَّبَاحِ
فَوَارِسَ نَالُوا أَلْمَنِي بِالْقَنَاصِ وَصَافَحُوا أَغْرَاضَهُمْ بِالصَّفَاخِ

(٨) الديوان : « ولا بل يدي » .

إِنْ لَمْ أَنْلِهَا بِاشْتِرَاطٍ كَمَا شِئْتُ عَلَى بَيْضِ الظُّبَى وَأَقْتَرَا^(١)
أَفُوزُ مِنْهَا بِاللِّسَابِ الَّذِي يُعْجِي الْأَمَانِي تَنْيَلُهُ وَالضَّرَاحُ
فَمَا الَّذِي يَقْعِدُنِي عَنْ مَدَى مَا هُوَ بِالْبَسْلِ وَلَا بِاللَّقَا^(٢)
يَطْمَحُ مِنْ لَا يَجْدُ يَسْمُو بِهِ إِنِّي إِذَا أُعْذِرُ عِنْدَ الطَّمَا^(٣)
أَمَّا فَتَى نَالَ أَلْمَنَى فَاشْتَفَى أَوْ بَطَلَ ذَاقَ الرَّدَى فَاسْتَرَا^(٤) !
وفي هذه القصيدة ما هو أحسنُ مساً ، وأعظمُ نكابة ؛ ولَكِنَّا عدلنا عنه ونخطيناه ،
كراهية لذكره . وفي شعره الكثير الواسع من هذا النمط .

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي^(٢) الكاتب له صديقاً ، وبينهما لُحمة
الأدب ووشائجُ ، ومراسلات^(٣) ومكاتبات بالشعر ، فكتب الصابي إلى الرضى في
هذا النمط :

أَبَا حَسَنِ لِي فِي الرَّجَالِ فِرَاسَةٌ تَعَوَّدْتُ مِنْهَا أَنْ تَقُولَ فَتَصْدُقَا^(٤)
وَقَدْ خَبَّرْتَنِي عَنْكَ أَنَّكَ مَا جِدْتُ سَتَرْتَنِي إِلَى الْعَلِيَاءِ أَبْعَدَ مُرْتَقَى^(٥)
فَوْقَيْنُكَ التَّعْظِيمَ قَبْلَ أَوَانِهِ وَقُلْتُ : أَطَالَ اللَّهُ لِلْسَّيِّدِ الْبَقَا

(١) الظبي : جمع طبة ؛ وهو حد السيف .

(٢) هو أبو إسحاق الصابي ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن
عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي ؛ وكان صابئياً متشدداً في دينه ، وجهد عليه عز الدولة
أن يسلم فلم يفعل ؛ ولكنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ ،
ويستعمله في رسائله ؛ ولما مات رثاه الشريف بقصيدته الدالية المشهورة :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي

وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفاً يرثى صابئاً ؛ فقال : إنما رثيت فضله . نوفي سنة ٣٨٤ . (ابن
خلكان ١ : ١٢) .

(٤) ديوان الرضى ، لوحة ١٩٤ .

(٣) ب : « وبينهما مراسلات » .

(٥) الديوان : « من العلياء » .

وأَضْمَرْتُ مِنْهُ لَفْظَةً لَمْ أَبُحْ بِهَا إِلَى أَنْ أَرَى إِظْهَارَهَا لِي مَطْلَقًا
فَإِنْ مِتَّ أَوْ إِنْ عَشْتُ فَادْكُرْ بِشَارَتِي وَأَوْجِبْ بِهَا حَقًّا عَلَيْكَ مُحَقَّقًا
وَكُنْ لِي فِي الْأَوْلَادِ وَالْأَهْلِ حَافِظًا إِذَا مَا أَطْمَأَنَّ الْجَنْبُ فِي مَضْجَعِ الْبَقَا
فَكُتِبَ إِلَيْهِ الرِّضَى جَوَابًا عَنْ ذَلِكَ قَصِيدَةً ، أَوْهَا :

سَنَنْتَ لِهَذَا الرَّمَحِ غَرْبًا مُدْلَقًا وَأَجَرَيْتَ فِي ذَا الْهُدُوءَانِي رَوْنَقًا^(١)
وَسَوَّمْتَ ذَا الطَّرَفِ الْجَوَادَ وَإِنَّمَا^(٢) شَرَعْتَ لَهُ نَهْجًا فَخَبَّ وَأَعْنَقَا
وهي قصيدة طويلة ثابتة في ديوانه ، يَعِدُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَيَعِدُ الصَّابِيَّ أَيْضًا بِبُلُوغِ آمَالِهِ ،
إِنْ سَاعَدَ الدَّهْرُ وَتَمَّ الْمَرَامُ . وَهَذِهِ الْأَبْيَاتُ أَنْكَرَهَا الصَّابِيُّ لِمَا شَاعَتْ ، وَقَالَ : إِنِّي عَمَلْتُهَا
فِي أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ حَاجِبِ النِّعْمَانِ ، كَاتِبِ الطَّائِعِ ، وَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ادَّعَاهُ ؛
وَلَكِنَّهُ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ .

وَذَكَرَ أَبُو الْحَسَنِ الصَّابِيَّ^(٣) وَابْنَهُ غَرَسَ النِّعْمَةَ مُحَمَّدٌ فِي تَارِيخِهِمَا أَنَّ الْقَادِرَ بِاللَّهِ عَقَدَ
مَجْلِسًا أَحْضَرَ فِيهِ الطَّاهِرَ أَبَا أَحْمَدَ الْمَوْسَوِيَّ وَابْنَهُ أَبَا الْقَاسِمِ الْمُرْتَضَى وَجَمَاعَةً مِنَ الْقُضَاةِ
وَالشُّهُودِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَأَبْرَزَ إِلَيْهِمْ أَبْيَاتَ الرِّضَى أَبِي الْحَسَنِ الَّتِي أَوْهَا :

مَا مَقَامِي عَلَى الْهَوَانِ وَعِنْدِي مِقُولٌ صَارِمٌ وَأَنْفٌ حَمِيٌّ^(٤)
وَأَبَاءُ مُخَلَّقٌ بِي عَنِ الضَّيِّمِ كَمَا زَاغَ طَائِرٌ وَخَشِيٌّ
أَيُّ عُذْرٍ لَهُ إِلَى الْمَجْدِ إِنْ ذَلَّ غَلَامٌ فِي غَمٍّ مَشْرِفِي

(١) ديوانه ، لوحة ١٩٤ .
(٢) الطرف : الفرس الأصيل .
(٣) هو هلال بن الحسن بن إبراهيم الصابي ، حفيد أبي إسحاق الصابي ، ذكر صاحب كشف
الظنون ٢٩٠ أن ثابت بن قرّة الصابي كتب تاريخاً سنة ١٩٠ إلى سنة ٣٦٣ ؛ وذيله ابن أخته هلال
ابن محسن الصابي ، وَاثْمَى إِلَى سَنَةِ ٤٤٧ ، وَذِيلُهُ وَلَدَهُ غَرَسَ النِّعْمَةَ مُحَمَّدٌ بْنُ هَلَالٍ ، وَلَمْ يَمُتْ .
(٤) ديوانه ٥٤٦ (مطبعة نخبة الأختار) .

أَحْمِلُ الضَّيْمَ فِي بِلَادِ الْأَعَادَى ^(١) وَبِمِصْرَ الْخَلِيفَةِ الْعَلَوِيِّ
مَنْ أَبَوْهُ أَبِي وَمَوْلَاهُ مَوْلَايَ إِذَا ضَامَنِي الْبَعِيدُ الْقَصِيُّ
لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النَّاسِ جَمِيعًا : مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ

وقال القادر للنقيب أبي أحمد : قل لولدك محمد : أيُّ هوانٍ قد أقام عليه عندنا !
وأيُّ ضيْمٍ لَقِيَ من جهتنا ! وأيُّ ذلٍّ أصابه في مملكتنا ^(٢) ! وما الذي يعمل معه صاحبُ
مصر لو مضى إليه ؟ أكان يصنع إليه أكثر من صنيعنا ^(٣) ؟ ألم نولّه النّقابة ! ألم نولّه المظالم !
ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلناه أميرَ الحجّيج ! فهل كان يحصل له من صاحب
مصر أكثر من هذا ! ما نظّمه كان يكون - لو حصل عنده - إلا واحداً من أبناء الطالبين
بمصر . فقال النقيب أبو أحمد : أمّا هذا الشعر فما لم نسمعه منه ، ولا رأينا به خطّه ، ولا يبعد
أن يكون بعضُ أعدائه نحله إياه ؛ وعزّاه إليه ، فقال القادر : إن كان كذلك ؛ فلتكتب
الآن محضراً يتضمّن القَدَحَ في أنساب ولاية مصر ، ويكتب محمد خطّه فيه . فكتب ^(٤)
محضراً بذلك ، شهد فيه جميعُ مَنْ حضر المجلس ؛ منهم النقيب أبو أحمد ، وابنه المرتضى ،
وحمل المحضر إلى الرضى ليكتب خطّه فيه ، تحمله أبوه وأخوه ، فامتنع من سطر ^(٥)
خطّه ، وقال : لا أكتب ، وأخاف دعاة صاحب مصر ، وأنكر الشعر ، وكتب خطّه ،
وأقسم فيه أنه ليس بشعره ؛ وأنه لا يعرفه . فأجبره أبوه على أن يكتب ^(٦) خطّه في
المحضر ، فلم يفعل ، وقال : أخاف دعاة المصريين وغيلتهم لي ، فإنهم معروفون بذلك ،
فقال أبوه : يا عجبا ! أتخاف من بينك وبينه ستمائة فرسخ ، ولا تخاف من بينك وبينه
مائة ذراع ! وحلف ألا يكلمه ؛ وكذلك المرتضى ، فعلا ذلك تقيّة وخوفاً من القادر ،

(١) الديوان : « ألبس الذل في ديار الأعادي » .

(٢) ب : « في مملكتنا » . (٣) ب : « ضيعتنا » .

(٤) ب : « فكتب محضر » ، بالبناء للعجول .

(٥) ب : « تسطير » . (٦) ب : « يسطر » .

وتسكيناً له . ولما انتهى الأمر إلى القادر سكت على سوء أضره ، وبعد ذلك بأيام صرّفه عن النقابة ، وولاهها محمد بن عمر النهرسابسى^(١) .

وقرأت بخطّ محمد بن إدريس الحليّ الفقيه الإماميّ، قال : حكى أبو حامد أحمد بن محمد الإسفرائينيّ الفقيه الشافعيّ ، قال : كنتُ يوماً عند نضر الملك أبي غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة ، وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضىّ أبو الحسن ، فأعظمه وأجلّه ورفع من منزلته ، وخطّى ما كان بيده من الرّقاع والقصاص ، وأقبلَ عليه يحادثه إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلك المرتضىّ أبو القاسم رحمه الله ؛ فلم يعظمه ذلك التّعظيم ، ولا أكرمه ذلك الإكرام ، وتشاغّل عنه برقاع يقرؤها ، وتوقيعات يُوقّع بها، فجلس قليلاً، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف .

قال أبو حامد : فتقدّمتُ إليه وقلتُ له : أصلح الله الوزير ! هذا المرتضىّ هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون، وهو الأمثل والأفضل منهما؛ وإنما أبو الحسن شاعر. قال : فقال لي: إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة .

قال : وكنت مجمّعاً على الانصراف، فجاءني أمرٌ لم يكن في الحساب، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس إلى أن تقوّض الناس واحداً فواحداً ، فلمّا لم يبقَ إلا غلمانُه وحجّابُه، دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف عنه أكبرُ غلمانِه ، ولم يبقَ عنده غيري قال لخادم بهات الكتّابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام، وأمرتك أن تجعلهما في السّفط^(٢) الفلانيّ . فأحضرهما، فقال : هذا كتاب الرضىّ، اتصل بي أنه قد ولد له ولد ، فأنفذتُ إليه ألفَ دينار، وقلتُ له : هذه للقبالة ، فقد جرت العادة أن يحيل الأصدقاء

(١) النهرسابسى ممدوب إلى نهرسابس ، فوق واسط بنوم (ياقوت) .

(٢) السّفط بالتجريك ، كالجواني .

إلى أخلائهم وذوى مودتهم مثل هذا فى مثل هذه الحال ؛ فردّها وكتب إلى هذا الكتاب فاقراءه . قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الرد ، وفى جملته : : إِنَّا أَهْلَ بَيْتٍ لَا نَطْلَعُ عَلَى أَحْوَالِنَا قَابِلَةً غَرِيبَةً ؛ وَإِنَّمَا عَجَائِزُنَا يَتَوَلَّيْنَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ نَسَائِنَا ، وَلَسَنَ مِمَّنْ يَأْخُذْنَ أَجْرَةً ، وَلَا يَقْبَلْنَ صِلَةً ؛ قال : فهذا هذا .

وأما المرتضى فإننا كنا قد وزعنا وقسطنطين على الأملاك ببادوريا تقسيماً نصرفه فى حفر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى ، فأصاب من ذلك للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهماً ، ثمّنها دينار واحد ، قد كتب إلى منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب ، فاقراءه . فقرأته ؛ وهو أكثر من مائة سطر ، يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والهز والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه .

قال نضر الملك : فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل ؟ هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحى ونفسه هذه النفس ، أم ذلك الذى لم يُشهرْ إلا بالشعر خاصّة ، ونفسه تلك النفس ! فقلت : وفق الله تعالى سيدنا الوزير ، فما زال موقفاً ؛ والله ما وضع سيدنا الوزير الأمر إلا فى موضعه ، ولا أحله إلا فى محله . وقت فأنصرفت .

وتوفى الرضى رحمه الله فى الحرم من سنة أربع وأربعائة ، وحضر الوزير نضر الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازته والصلاة عليه ، ودفن فى داره بمسجد الأنبار بين الكرخ ، ومضى أخوه المرتضى من جزّعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام ؛ لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه ، وصلى عليه نضر الملك أبو غالب ، ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمي ، فألزمه بالعود إلى داه .

ومما رثاه به أخوه المرتضى الأبيات المشهورة التي من جملتها^(١) :

يا للرجال لِفَجَعَةٍ جَدَمْتُ يَدِي ووددت لو ذهبت على براشي^(٢)
مازلتُ آبَى وَرَدَّهَا حَتَّى أَتَتْ^(٣) فحسوتُها في بعض ما أنا حاسي
وَمَطَّلْتُهَا زَمَنًا فَلَمَّا صَمَّمْتُ لم يَثْنِهَا مَطْلِي وطولُ مِكاسي
لله عُمرُكَ من قصير طاهرٍ ولربَّ عُمرٍ طال بالأدناس !

وحدثني نزار بن معدّ العلويّ الموسويّ رحمه الله ، قال : رأى المفيد أبو عبد الله محمد ابن النعمان الفقيه الإمام في منامه كأنّ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت عليه وهو في مسجده بالسكّرخ ، ومعها ولداها : الحسن والحسين عليهما السلام ، صغيرين ، فسألتهما إياه ، وقالت له : علمهما الفقه . فانتبه متعجباً من ذلك ، فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر ، وحولها جواريتها ، وبين يديها ابناها : محمد الرضيّ وعليّ المرتضى صغيرين ، فقام إليها وسلم عليها ، فقالت له : أيها الشيخ ، هذان ولدآي قد أحضرتهما لتعلمهما الفقه ، فبكى أبو عبد الله وقصّ عليها المنام ، وتولّى تعليمهما الفقه^(٤) ، وأنعم الله عليهما ، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا ؛ وهو باقي ما بقى الدهر^(٥)

(١) ب : « التي من حملة مريته » ؛ وما أثبتته عن أ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣١ .

(٣) الديوان : « يازلت أحذر وردّها » .

(٤) ساقطة من ب .

(٥) وانظر ترجمة الشريف الرضيّ أيضا في أخبار الحمدين من الشعراء ٨٨ - ٨٩ ، وإنباه الرواة ٣ : ١١٤ - ١١٥ ، وتاريخ ابن الأثير ٧ : ٢٨٠ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ - ٢٤٧ ، وتاريخ أبي الفدا ٢ : ١٤٥ ، وتاريخ ابن كثير ١٢ : ٣ - ٤ ، وابن خلكان ٢ : ٢ - ٣ ، ودمية القصر ٧٣ - ٧٥ ، وروضات الجنات ٥٧٣ - ٥٧٩ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٨٢ - ١٨٤ ، وعيون التواريخ (وفيات ٤٠٦) ، ولسان الميزان ٥ : ١٤١ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٨ - ٢٠ ، والمنتظم لابن الجوزي (وفيات ٤٠٦) ، والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٤٠ ، والوافي بالوفيات ٢ : ٣٧٤ - ٣٧٩ ، وقيمة الدهر ٣ : ١١٦ - ١٣٥ . وله أيضا ترجمة في مقدمة كتابه الحجازات النبوية (طبع بغداد) منقولة عن كتاب « تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام » ، بتحقيق السيد حسن صدر الدين .

القول في شرح خطبة نهج البلاغة

قال الرضى رحمه الله :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد حمد^(١) الله الذى جعلَ الحمدَ ثمناً لنعمائه ، ومعاذاً من بلائه ، ووسیلاً إلى جنّاته ، وسبباً لزيادة إحسانه . والصلاةُ على رُسوله نبيّ الرّحمة ، وإمام الأئمة ، وسراج الأئمة ، المنعجب من طينة السّكرَم ، وسلالةِ الجندِ الأقدم ، ومنفّس الفخارِ المعزّق ، وفرعِ العلاءِ الثّمَرِ المورِق ؛ وعلى أهلِ بيته مصابيحِ الظّلم ، وعِصمِ الأئمّ ، ومنارِ الدّين الواضحة ، ومثاقيلِ الفضلِ الرَّاجحة . فصلّى الله عليهم أجمعين ، صلاةً تكونُ إزاءَ لِفَضْلِهِمْ ، ومُكَافَأَةً لِعَمَلِهِمْ ، وكِفَاءً لَطِيبِ أَصْلِهِمْ وفرّعِهِمْ ، ما أنار^(٢) فجراً طالعاً ، وخوى نجماً ساطعاً^(٣) .

الشرح :

اعلم أنى لا أنعرّضُ في هذا الشرح للكلام فيما قد فرغ منه أئمة العربية ، ولا لتفسير ما هو ظاهر مكشوف ؛ كما فعل القطب الراوندى ؛ فإنه شرّع أولاً في تفسير قوله : « أما بعد » ، ثم قال : هذا هو فصل الخطاب ، ثم ذكر ما معنى الفصل ، وأطال فيه ، وقسمه أقساماً ، يشرح ما قد قرع له منه ، ثم شرح الشرح . وكذلك أخذ يفسر قوله : « من بلائه » ، وقوله : « إلى جنّاته » ، وقوله : « وسبباً » ، وقوله : « الحمد » ، وقوله :

(١) : ١ « حمداً » .

(٢ - ٢) ب : « ما أنار فجر ساطع ، وخوى نجم طالع » . وكذا في مخطوطة النهج .

« الأقدم » ، وهذا كله إطالة وتضييع للزمان من غير فائدة ؛ ولو أخذنا بشرح^(١) مثل ذلك لوجب أن نشرح لفظة « أمّا » المفتوحة ، وأن نذكر الفصل بينها وبين « إمّا » المكسورة ، ونذكر : هل المكسورة من حروف العطف أولا ؟ ففيه خلاف ، ونذكر هل المفتوحة مركبة أو مفردة ؟ ومهملة أو عاملة ؟ ونفسر معنى قول الشاعر :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتَ ذَا نَفَرٍ فَإِنْ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضَّبْعُ^(٢)

بافتتح ؛ ونذكر « بعدُ » لم ضُمَّت إذا قطعت عن الإضافة ؟ ولم فتحت ها هنا حيث أضيفت ؟ ونخرج عن المعنى الذى قصدناه من موضوع الكتاب إلى فنون أخرى قد أحكمها أربابها .

ونبتدى^١ الآن فنقول : قال لى إمام من أئمة اللغة فى زماننا : هو الفخار ، بكسر الفاء ، قال : وهذا مما يغلط فيه الخاصة فيفتحنها ، وهو غير جائز ، لأنه مصدر « فاخر » ، وفاعل يحىء مصدره على « فِعال » بالكسر لا غير ، نحو : قاتلت قتالا ، ونازلت نزالا ، وخاصمت خصاماً ، وكأخت كِفاحاً ، وصارعت صِراعاً . وعندى أنه لا يبعد أن تكون الكلمة مفتوحة الفاء ، وتكون مصدر « فَخَرَ » لا مصدر « فاخر » ، فقد جاء مصدر الثلاثى - إذا كان بعينه أو لامة حرف حلق - على « فِعال » ، بالفتح ، نحو سَمَحَ سَمَاحاً ، وذهب ذهاباً ؛ اللهم إلا أن ينقل ذلك عن شيخ أو كتاب مونوق به نقلاً صريحاً ، فنزول الشهة . والعَصَم : جمع عَصْمَة ، وهو ما يعصم به . والمنار : الأعلام ، واحدها منارة ، بفتح الميم . والمثاقيل : جمع مِثْقَال ، وهو مقدار وزن الشيء ، تقول : مثقال حبة ، ومثقال قيراط ، ومثقال دينار ؛ وليس كما نظنه العامة أنه اسم للدينار خاصة ؛ فقوله : « مثاقيل الفضل » ، أى زينات الفضل ، وهذا من باب الاستعارة . وقوله : « تكون إزاء لفضلهم » ، أى مقابلة له . ومكافأة ، بالهمز ، من كافأته أى جازيته ، وكِفَاء ، بالهمز والمد ، أى نظيراً .

(١) كذا فى ج ، وهو الصوب ، وفى باقى الأصول : « لشرح » .

(٢) البيت لعباس بن مرداس السلمى ، وأبو خراشة كنية خفاف بن ندبة - (اللسان ٨ : ١٨٣) .

وخوى النجم ، أى سقط . وطينة السكرم ؛ أصله . وسلالة الجذ فرع . والوسيل : جمع وسيلة وهو ما يُتَقَرَّبُ به ، ولو قال : « وسبيلاً إلى جنانه » لكان حسناً ، وإتما قصد الإغراب ، على أنا قد قرأناه كذلك فى بعض النسخ . وقوله : « ومكافأة لعملهم » إن أراد أن يجعله قرينة « لفضلهم » كان مستقبلاً عند مَنْ يريد البديع ، لأن الأولى ساكنة الأوسط ، والأخرى متحركة الأوسط ، وأتما من لا يقصد البديع كالكلام القديم فليس بمستقب . وإن لم يُرَدَّ أن يجعلها قرينة بل جعلها من حشو السجعة الثانية ، وجعل القرينة « وأصلهم » ، فهو جائز ، إلا أن السجعة الثانية تطول حدًا . ولو قال عَوْضَ « لعملهم » ، « لفضلهم » لكان حسناً .

قال الرضى رحمه الله :

فإني كنتُ فى عُنفوان السنِّ ، وغضاضة الفُضنِّ ، ابتدأتُ تأليفَ كتابٍ فى خصائصِ الأئمة عليهم السلام ، يشتمل على محاسن أخبارهم ، وجواهر كلامهم ، حدّأتى عليه غرضٌ ذكرته فى صدر الكتاب ، وجعلته أَمَامَ الكلام . وفرغتُ من الخصائص التى تخصُّ أمير المؤمنين عليّاً ، صلواتُ الله عليه ، وعاقبتُ عن إتمام بقية الكتاب مُحاجراتِ الأيام ، ومُماطلاتِ الزَّمان . وكنتُ قد بَوَّيْتُ ما خرج من ذلك أبواباً ، وفصّلتُه فصولاً ، فجاء فى آخرها فصلٌ يتضمّن محاسن ما نُقِلَ عنه عليه السلام ؛ من الكلامِ القصير ، فى المواعظِ والحِكَمِ والأمثالِ والآدابِ ؛ دون الخطبِ الطويلة ، والكتبِ المبسوطة ؛ فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصلُ المقدمُ ذكره ، معجبين ببدايئه ، ومتعجبين من نواصيه ؛ وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتابٍ يحتوى على مختارِ كلامِ أمير المؤمنين عليه السلام فى جميع فنونه ، ومتشعّبات غُصونه ، من خطبٍ وكتبٍ ، ومواعظٍ وآدابٍ ؛ عاماً أن ذلك يتضمّن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثوابِ الكَلِمِ الدينية والذُنُويّة ؛ ما لا يوجد مجتمعاً فى كلامٍ ، ولا مجموع الأطراف

في كتاب ؛ إذ كَانَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلَامُ مَشْرَعَ الْفَصَاحَةِ وَمُورِدَهَا ، وَمَنْشَأَ الْبَلَاغَةِ وَمَوْلِدَهَا ؛ ومنه عليه السلام ظهرَ مَسْكُونُهَا ، وعنه أَخِذَتْ قَوَائِنُهَا ، وعلى أَمْلِيَّتِهِ حَدَا كُلُّ قَائِلٍ خُطِيبٍ ، وبِكَلَامِهِ اسْتَعَانَ كُلُّ وَاغْظٍ بَلِيغٍ ؛ ومع ذَلِكَ فقد سَبَقَ وَقَصَّرُوا ، وَتَقَدَّمَ وَتَأَخَّرُوا ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكَلَامُ الَّذِي عَلَيْهِ مَسْحَةُ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ ، وفيه عِبَقَةٌ مِنَ الْكَلَامِ النَّبَوِيِّ .

* * *

الشَّنَجُ :

عُنْفَوَانِ السَّنِ : أَوَّلُهَا . وَمُحَاجَزَاتِ الْأَيَّامِ : بِمَانَعَاتِهَا . وَمُمَاطَلَاتِ الزَّمَانِ : مَدَافِعَاتِهِ .
وقوله : «مَعْجَبِينَ» ثم قال : و «مَتَعَجَّبِينَ» ، فـ «مَعْجَبِينَ» من قولك : أَعْجَبَ فُلَانٌ بِرَأْيِهِ وَبِنَفْسِهِ فَهُوَ مَعْجَبٌ بِهِمَا ، وَالْأَسْمُ الْعُجْبُ بِالضَّمِّ ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْمُسْتَحْسَنِ ، وَ «مَتَعَجَّبِينَ» من قولك : تَعَجَّبْتُ مِنْ كَذَا ، وَالْأَسْمُ الْعَجَبُ . وَقَدْ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ يُسْتَحْسَنُ وَيُسْتَقْبَحُ وَيَتَهَوَّلُ مِنْهُ وَيَسْتَعْرَبُ ؛ وَمَرَادُهُ هُنَا التَّهَوُّلُ وَالِاسْتَعْرَابُ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ :

أَبْدَتْ أَسَى إِذْ رَأَيْتُنِي مُخْلِصَ الْقَصَبِ وَآلَ مَا كَانَ مِنْ عُجْبٍ إِلَى عَجَبٍ ^(١)
يريد أنها كانت معجبة به أيام الشبيبة لحسنه ؛ فلما شاب انقلب ذلك العُجْبُ عَجَبًا ؛
إِذَا اسْتَقْبَحَ لَهْ أَوْ تَهَوَّلَ مِنْهُ وَاسْتَعْرَابًا . وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : «مَعْجَبِينَ بِبِدَائِعِهِ» ،
أَيُّ أَنَّهُمْ يَعْجَبُونَ غَيْرَهُمْ . وَالنَّوَاصِعُ : الْخَالِصَةُ . وَثَوَاقِبُ الْكَلَمِ : مُضِئَاتُهَا ؛ وَمِنْهُ الشَّهَابُ الثَّاقِبُ . وَحَذَا كُلُّ قَائِلٍ : اقْتَنَى وَاتَّبَعَ . وَقَوْلُهُ : «مَسْحَةُ» يَقُولُونَ : عَلَى فُلَانٍ مَسْحَةٌ مِنْ جَمَالٍ ؛ مِثْلُ قَوْلِكَ : شَيْءٌ ، وَكَأَنَّهُ هَاهُنَا يَرِيدُ ضَوْءًا وَصِقَالًا . وَقَوْلُهُ : «عَبَقَةٌ» ، أَيُّ رَائِحَةٍ ،

(١) ديوانه ١ : ١١٥ ؛ مطلع قصيدة يمدح فيها الحسن بن سهل . المجلس ، من قولهم : أَخْلَسَ رَأْسَهُ إِذَا صَارَ فِيهِ بَيَاسٌ وَسَوَادٌ . وَالْقَصَبُ : جَمْعُ قَصَبَةٍ ؛ وَهِيَ خَصْلَةٌ مِنَ الشَّعْرِ تَجْعَلُ كَهَيْئَةِ الْقَصَبَةِ الدَّقِيقَةِ . (من شرح الديوان) .

ولو قال عوض « العلم الإلهي » : « الكتاب الإلهي » لكان أحسن .

قال الرضى رحمه الله :

فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى الْإِبْتِدَاءِ بِذَلِكَ ، عَالِمًا بِمَا فِيهِ مِنْ عَظِيمِ النِّفْعِ ، وَمَنْشُورِ الذِّكْرِ ،
وَمَذْخُورِ الْأَجْرِ . واعتمدتُ بِهِ أَنْ أَبَيِّنَ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي
هَذِهِ الْفَضِيلَةِ ، مُضَافَةً إِلَى الْحَاسَنِ الدَّيْرَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْجَمَّةِ ، وَأَنَّهُ انْفَرَدَ بِبُلُوغِ غَايَتِهَا عَنْ
جَمِيعِ السَّلَفِ الْأَوَّلِينَ ، الَّذِينَ إِنَّمَا يُؤَثِّرُ عَنْهُمْ مِنْهَا الْقَلِيلُ النَّادِرُ ، وَالشَّاذُّ الشَّارِدُ ؛
فَأَمَّا كَلَامُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي لَا يُسَاجِلُ ، وَالْجَمُّ الَّذِي لَا يُحَافَلُ ، وَأَرَدْتُ أَنْ
يَسُوِّغَ لِي التَّمَثُّلُ فِي الْإِفْتِخَارِ بِصَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

أُولَئِكَ آيَاتِي فَجِئْتَنِي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتَنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

النَّبْرُجُ :

الحاسن الدَّيْرَةُ : الكثيرة ، مَالٌ دَثِيرٌ ، أَيْ كَثِيرٌ ، وَالْجَمَّةُ مِثْلُهُ . وَيُؤَثِّرُ عَنْهُمْ ، أَيْ
يَحْكِي وَيَنْقُلُ ، قَلْتُهُ آثَرًا ، أَيْ حَاسِيًا . وَلَا يُسَاجِلُ ، أَيْ لَا يَكَاثِرُ ، أَصْلُهُ مِنَ الزَّنْعِ
بِالسَّجْلِ ، وَهُوَ الدَّلْوُ الْمَلِيَّةُ^(١) ، قَالَ :

مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلُ مَاجِدًا يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ^(٢)

وَيُرْوَى : « وَيَسَاحِلُ » ، بِالْحَاءِ ، مِنْ سَاحَلَ الْبَحْرِ وَهُوَ طَرَفُهُ ، أَيْ لَا يُشَابِهُ فِي
بُعْدِ سَاحِلِهِ . وَلَا يُحَافَلُ ، أَيْ لَا يُفَاخَرُ بِالْكَثَرَةِ ، أَصْلُهُ مِنَ الْخَفْلِ ، وَهُوَ الْإِمْتَلَاءُ ،
وَالْحَافِلَةُ : الْمَفَاخِرَةُ بِالْإِمْتَلَاءِ ، ضَرَعُ حَافِلٍ ، أَيْ مَمْتَلٍ .

(١) الدلو ، تذكر وتؤنث .

(٢) للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب ، اللسان ١٣ : ٣٤٦ ، ونقل عن ابن بري : « أصل
المساجلة ، أَنْ يَسْتَقِيَ سَافِيَانِ فَيُخْرِجُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي سَجَلِهِ مِثْلَ مَا يُخْرِجُ الْآخَرُ ؛ فَأَيُّهُمَا نَسَكَلَ فَقَدْ
غَلِبَ ؛ فَضَرَبَتْهُ الْعَرَبُ أَصْلًا لِلْمَفَاخِرَةِ » .

والفرزدق ، همام بن غالب بن صعصعة التميمي . ومن هذه الأبيات ^(١) :

ومنّا الذي اختيرَ الرجالَ سَمَاحَةً وجُوداً إذا هبَّ الرياحُ الزعازعُ ^(٢)

ومنّا الذي أحياَ الوئيدَ وغالبُ وعمرُو ؛ ومنّا حاجِبُ والأقارعُ ^(٣)

ومنّا الذي قادَ الجيادَ على الوجا ^(٤) بنجرانَ حتّى صَبَحَتِه الترائعُ

ومنّا الذي أعطى الرَّسُولُ عَطِيَّةً أسارى تميمٍ والعيونَ هوامعُ

الترائع : السكرام من الخليل . يعنى غزاة الأقارع بن حابس قبل الإسلام بنى تغلب بنجران ، وهو الذي أعطاه الرسولُ يوم حنين أسارى تميم -

ومنّا غداةَ الرّوعِ فرسانُ غارةٍ إذا منعتُ بعدَ الزّجاجِ الأشاجعُ ^(٥)

ومنّا خطيب لا يعاب وحامِلٌ أغرّ إذا التفتت عليه الجماعُ ^(٦)

- أى إذا مُدّت الأصابع بعد الزّجاج إتماماً لها ؛ لأنها رماح قصيرة . وحامل ، أى حاملٌ للدّيات -

(١) من نقيضته القصيدة جرير التي أوله :

ذَكَرْتُ وَصَالَ الْبَيْضَ وَالشَّيْبُ شَالِعُ وَدَارُ الصَّبَا مِنْ عَهْدِهِنَّ بَلَاقِعُ

وهما في النقائض ٦٨٥ - ٧٠٥ ؛ ويخلف ترتيب القصيدة هنا عن ترتيبها هناك .

(٢) رواية النقائض : « ما الذي اختير » ؛ بخذف الواو ؛ وهو ما يسمى بالجرم ؛ فتحذف الفاء من « فعولان » ؛ في أول البيت من القصيدة . وانظر خبر غالب بن صعصعة أبو الفرزدق ، مع عمير بن قيس الشيباني وطلبة بن قيس بن عاصم المنقري و الأغاني ١٩ : ٥ (طبعة الساسي) .

(٣) الذي أحيا الوئيد ؛ هو جده صعصعة بن ناحية بن عقال ، وغالب أبوه ، وعمرو بن عمرو بن عدس ، والأقارع : الأقارع وفراس ابنا حابس بن عقال ؛ وانظر أخبار هؤلاء جميعا في شرح النقائض .

(٤) الوجا : الحفا .

(٥) منعت ، يريد ارتفعت بالسيوف بعد الطعان بالرماح . والأشاجع : عصب ظاهر السكف . وفي الديوان « فتیان غارة » .

(٦) قوله : « خطيب » يعنى شبة بن عقال بن صعصعة . والحامل ، يعنى عبد الله بن الحكييم بن نافذ من بني حوى بن سفيان بن مجاشع ، الذي حمل الحملات يوم المريد حين قتل مسعود بن عمرو العتكي ، وكان يقال له القرن . والأغر من الرجال : المعروف ، كما يعرف الفرس بغرته في الخيل ؛ يقول : فهو معروف في السكرم والجود . (من شرح النقائض) .

أولئك آباءى فيحني بمثلهم إذا جمعتمنا ياجريير الجامع
٣٣ أعتلى ما حلتنيهِ دارم^(١) وأصرع أقرانى الذين أصرع
أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قراها والنجوم الطالع^(٢)
فواعجبا حتى كليب تسبى كان أباهاً نهشل أو مجاشع !

قال الرضى رحمه الله :

ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها الخطب والأوامر، وثانيها
الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ؛ فأجمعت بتوفيق الله سبحانه على الابتداء
باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب، مفرداً
لكل صنف من ذلك باباً، ومفصلاً فيه أوراقاً، ليكون مقدمة لاستدراك مآسائه
يشد عني عاجلاً، ويقع إلى آجلاً. وإذا جاء شيء من كلامه الخارج في أثناء حوار،
أو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها، وقررت
القاعدة عليها، نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدّها ملاحة لغرضه. وربما جاء فيما اختاره
من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن كليم غير منتظمة، لأني أورد التكت واللمع،
ولا أقصد التتالي والنسق.

الشرح :

قوله : « أجمعت على الابتداء » ، أى عزمت . وقال القطب الراوندى : تقديره :
أجمعت عازماً على الابتداء ، قال : لأنه لا يقال إلا أجمعت الأمر ، ولا يقال : أجمعت
على الأمر ، قال سبحانه : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ ﴾ ^(٣) .

(١) القائل : « ما حلتني مجاشع » .

(٢) قراها : الشمس والقمر ، فغاب المذكور مع حاجته إلى إقامة البيت .

(٣) سورة يونس ٧١ .

هذا الذى ذكره الرّواندى خلاف نصّ أهل اللغة ؛ قالوا : أجمعتُ الأمرَ ، وعلى الأمر ؛ كلّهُ جائز ، نصّ صاحب ” الصّحاح “ ،^(١) على ذلك .
والحاسن : جمع حسن ، على غير قياس ، كما قالوا : الملامح والمذاكر^(٢) ؛ ومثله المقابح . والحوار ، بكسر الحاء : مصدر حاورته ، أى خاطبته ، والأنحاء : الوجوه والمقاصد .
وأشدّها مُلاحة لغرضه ، أى أشدّها إبصاراً له ونظراً إليه ، من لحت الشيء ؛ وهذه استعارة . يقال : هذا الكلام يلمح الكلام الغلانى ، أى يُشابهه ؛ كأنّ ذلك الكلام يُلمح ويُبصر من هذا الكلام .

قال الرضى رحمه الله :

وَمِنْ عَجَائِبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا ، وَأَمِنَ الْمَشَارَكَةَ فِيهَا ؛ أَنَّ كَلَامَهُ الْوَاردَ فِي الزَّهْدِ وَالْمَوَاعِظِ ، وَالتَّذْكِيرِ وَالزَّوْاجِرِ ؛ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْمُتَأَمِّلُ ، وَفَكَّرَ فِيهِ الْفَكِّرُ^(٣) ، وَخَلَعَ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ كَلَامُ مِثْلِهِ ، مِمَّنْ عَظُمَ قَدْرُهُ وَنَفَذَ أَمْرُهُ ، وَأَحَاطَ بِالرَّقَابِ مُلْكُهُ ، لَمْ يَعْترِضْهُ الشَّكُّ فِي أَنَّهُ كَلَامُ مَنْ لَا حَظَّ لَهُ فِي غَيْرِ الزَّهَادَةِ ، وَلَا شُغْلَ لَهُ بِغَيْرِ الْعِبَادَةِ ، قَدْ قَبِعَ فِي كِسْرِ بَيْتٍ ، أَوْ انْقَطَعَ إِلَى^(٤) سَفْحِ جَبَلٍ ، لَا يَسْمَعُ إِلَّا حَسَّهُ ، وَلَا يَرَى إِلَّا نَفْسَهُ ؛ وَلَا يَكَادُ يَوْقِنُ بِأَنَّهُ كَلَامُ مَنْ يَنْفَعِمِسُ فِي الْحَرْبِ ، مُصْلِتًا سَيْفَهُ ، فَيَقُطُّ الرَّقَابَ ، وَيُجَدِّلُ الْأَبْطَالَ ، وَيَعُودُ بِهِ يَنْطَفُ دَمًا ، وَيَقْطُرُ مُهْجًا ؛ وَهُوَ مَعَ تِلْكَ الْحَالِ زَاهِدٌ الزَّهَادِ ، وَبَدَلُ الْأَبْدَالِ . وَهَذِهِ مِنْ فِضَائِلِهِ الْعَجِيبَةِ ، وَخَصَائِصِهِ اللَّطِيفَةِ ، الَّتِي جَمَعَ بِهَا بَيْنَ الْأَضْدَادِ ، وَأَلْفَ بَيْنِ الْأَشْتَاتِ ، وَكَثِيرًا مَا إِذَا كَرُّ الْإِخْوَانِ بِهَا ، وَأَسْتَخْرَجُ عَجَبَهُمْ مِنْهَا ؛ وَهِيَ مَوْضِعُ الْمِيزَةِ بِهَا^(٥) ، وَالْفِكْرَةِ فِيهَا .

(١) الصّحاح ٣ : ١١٩٨

(٢) ب : « المذاكير » ، وما أثبتته عن أ .

(٣) ب : « المتفكر » ، وما أثبتته عن أ

(٤) مخطوطة التهيج : « في سفح » .

(٥) كلمة « بها » ساقطة من ب ؛ وهى فى أ .

(٤ - شرح نهج البلاغة - أول)

السنخ :

قَبَعَ الْقَنْفَذُ يَقْبَعُ قُبُوعًا ، إِذَا أَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي جِلْدِهِ ، وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ إِذَا أَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي قَيْصِهِ ؛ وَكُلٌّ مَنِ انْزَوَى فِي جُحْرٍ أَوْ مَكَانٍ ضَيِّقٍ فَقَدْ قَبَعَ . وَكَسَرَ الْبَيْتَ : جَانِبَ الْجِبَاءِ . وَسَفَحَ الْجَبَلَ : أَسْفَلَهُ ، وَأَصْلُهُ حَيْثُ يَسْفَحُ فِيهِ الْمَاءُ . وَيَقُطُّ الرِّقَابَ : يَقْطَعُهَا عَرَضًا - لَا طَوِيلًا كَمَا قَالَه الرَّاءُونَدى - . وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْقَدَّ ، قَدَدَتْهُ طَوِيلًا ، وَقَطَطَتْهُ عَرَضًا . قَالَ ابْنُ فَارِسٍ صَاحِبُ " الْمَجْمَلِ " : قَالَ ابْنُ عَائِشَةَ : كَانَتْ ضَرِبَاتٌ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي الْحَرْبِ أَبْكَارًا ، إِنْ اعْتَلَى قَدَّ ، وَإِنْ اعْتَرَضَ قَطَّ . وَيُجَدِّلُ الْأَبْطَالُ : يُنْقِصُهُمْ عَلَى الْجِدَالَةِ ، وَهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ . وَيَنْطُفُ دِمَا : يَقْطُرُ . وَالْأَبْدَالُ : قَوْمٌ صَالِحُونَ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، إِذَا مَاتَ أَحَدُهُمْ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ آخَرَ ، قَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ .

كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَا أَخْلَاقٍ مُتَضَادَّةٍ :

فَمِنْهَا مَا قَدْ^(١) ذَكَرَهُ الرِّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَهُوَ مَوْضِعُ التَّعَجُّبِ ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ وَالْمَغَامَرَةِ وَالْجُرْأَةِ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي قُلُوبٍ قَاسِيَةٍ ، وَفَتْكٍ وَتَمَرُّدٍ وَجَبَرِيَّةٍ ، وَالْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ الزُّهْدِ وَرَفْضِ الدُّنْيَا وَهَجْرَانِ مَلَاذِهَا وَالِاسْتِغْثَالِ بِمَوَاعِظِ النَّاسِ وَتَحْوِيلِهِمْ الْمَادَّ وَتَذَكِيرِهِمُ الْمَوْتَ ، أَنْ يَكُونُوا ذَوِي رِقَّةٍ وَلِينٍ ، وَضَعْفِ قَلْبٍ ، وَخَوَرٍ طَبْعٍ ؛ وَهَاتَانِ حَالَتَانِ مُتَضَادَّتَانِ ، وَقَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى ذَوِي الشَّجَاعَةِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي أَخْلَاقٍ سَبْعِيَّةٍ ، وَطِبَاعٍ حَوْشِيَّةٍ ؛ وَغَرَاثُزٍ وَحَشِيَّةٍ ، وَكَذَلِكَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَأَرْبَابِ الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ وَرَفْضِ الدُّنْيَا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي انْقِبَاضٍ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَعُبُوسٍ فِي الْوُجُوهِ ، وَنِفَارٍ مِنَ النَّاسِ

(١) كَلِمَةُ « قَدْ » سَاقِطَةٌ مِنْ ب .

واستبحاش ؛ وأمير المؤمنين عايه السلام كان أشجع الناس وأعظمهم إراقة للدم ، وأزهد الناس وأبعدهم عن ملاذ الدنيا ، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأَيَّام الله ومثلاته ، وأشدَّهم اجتهداً في العبادة وآداباً لنفسه في المعاملة . وكان مع ذلك ألطف العالم أخلاقاً ، وأسفرهم وجهاً ، وأكثرهم بشراً ، وأوفاهم هشاشة ، وأبعدهم عن انقباض موحش ، أو خلُق نافر ، أو تجهّم مباعِد ، أو غِلظة وفظاظة تنفّر معهما نفس ، أو يتكدر معهما قلب . حتى عيب بالدُّعابة ؛ ولما لم يجدوا فيه مغمزا ولا مطعنا تعلّقوا بها ، واعتمدوا في التنفير عنه عليها .

﴿ وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارُهَا ﴾ (١) *

وهذا من عجائبه وغرائبه اللطيفة .

ومنها أنّ الغالب على شرفاء الناس ومن هو من أهل بيت السيادة والرياسة أن يكون ذا كِبَرٍ وتيمٍّ وتعظّمٍ وتفطُّرٍ ؛ خصوصاً إذا أضيف إلى شرفه من جهة النسب شرفه من جهات أخرى ؛ وكان أمير المؤمنين عليه السلام في مُصَاصِ الشرف ومعدنه ومعانيه ، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرفُ خلق الله نسباً بعد ابن عمّه صلوات الله عليه ، وقد حصّل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرةٌ متعددة ، قد ذكرنا بعضها ، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير ، وألينهم عريكة ، وأسمحهم خلُقاً ، وأبعدهم عن الكِبَر ، وأعرفهم بحق ، وكانت حاله هذه في كلّ زمانٍ وفي كلّ زمانٍ خلافته ،

(١) « الشكَاةُ توضيح . وضع العيب والذم ؛ وعير رجل عبد الله بن الزبير بأمه ؛ فقال ابن الزبير :

﴿ وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارُهَا ﴾ *

أراد أن تعييره لإياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعار . ومعنى قوله : « ظاهر عك عارها » ، أي ناب ، أراد أن هذا ليس عارا يلزق به ؛ وأنه يفتخر بذلك ؛ لأنها إنما سميت ذات النطاقين ، لأنه كان لها نطاقان تحمل في أحدهما الزاد إلى أبيها وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وكانت تنتطق بالنطاق الآخر ، وهى أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها . . اللسان : (١٩ : ١٧١) ، ودِيوان الهذليين (١ : ٢١) ، وهذا مجز بيت لأبي ذؤيب الهذلي ، وصدره :

﴿ وَعَيْرَهَا الْوَاشُونَ أُنَى أَحَبَّهَا ﴾ *

والزمان الذي قبله ، لم تغيّره الإمرة ، ولا أحالت خُلُقَه الرياسة ، وكيف تُحيل الرياسة خُلُقَه وما زال رئيسا ! وكيف تُغيّر الإمرة سَجِيَّتَه وما برح أميرا لم يستفد بالخلافة شرفا ، ولا اكتسب بها زينة ! بل هو كما قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل ؛ ذكر ذلك الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزيّ في تاريخه المعروف ” بالمنتظم “ : تذاكروا عند أحمد خلافة أبي بكر وعليّ وقالوا فأكثرُوا ، فرفع رأسه إليهم ، وقال : قد أكثرتم ! إنّ عليّاً لم تزنه الخلافة ؛ ولكنّه زانها . وهذا الكلام دالّ بفجواه ومفهومه على أنّ غيره ازدان بالخلافة وتممّت نقصه ، وأن عليّاً عليه السلام لم يكن فيه نقص يحتاج إلى أن يتمّ بالخلافة ؛ وكانت الخلافة ذات نقص في نفسها ، فتمّ نقصها بولايته إياها .

ومنها أنّ الغالب على ذوى الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أن يكونوا قليلي الصفح ، بعيدى العفو ؛ لأنّ أكبادهم واغرة ، وقلوبهم ملتهبة ، والقوة الغضبية عندهم شديدة ، وقد علمت حال أمير المؤمنين عليه السلام في كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح ، ومغالبة هوى النفس ، وقد رأيت فعله يوم الجمل ؛ ولقد أحسن مهيار في قوله ^(١) :

حَتَّى إِذَا دَارَتْ رَحَى بَفْيِهِمْ عَلَيْهِمْ وَسَبَقَ السِّيفُ الْعَذْلُ
عَاذُوا بِعَفْوٍ مَاجِدٍ مَعُودٍ لِلْعَفْوِ حَمَّالٍ لَهُمْ عَلَى الْعِلَلِ
فَنَجَّتِ الْبُقْيَا عَلَيْهِمْ مِنْ نَجَا وَأَكَلَ الْحَدِيدُ مِنْهُمْ مَنْ أَكَلَ
أَطَّتْ بِهِمْ أَرْحَامُهُمْ فَلَمْ يُطْعَ نَائِرَةُ الْعَيْظِ وَلَمْ يَشْفِ الْغُلُّ

ومنها أنا ما رأينا شجاعاً جواداً قط ؛ كان عبد الله بن الزبير شجاعاً وكان أبجلّ الناس ، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً ؛ قال له عمر : لو وُلِّيتَها لظَلَمْتَ تَلَاظِمُ الناس

(١) من قصيدة في ديوانه ٣ : ١٠٩ - ١١٦ . يذكر فيها ، نقيب الإمام على وما منى به من أعدائه .

في البطحاء على الصنّاع والمُدّ . وأراد علىّ عليه السلام أن يحجّر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال لنفسه ، فشارك الزبير في أمواله وتجاراته ؛ فقال عليه السلام : أما إنّه قد لاذ بملاذ ؛ ولم يحجّر عليه . وكان طلحة شجاعاً وكان شحيحاً ، أمسك عن الإنفاق حتى خلف من الأموال مالا يأتي عليه الحضر . وكان عبدُ الملك شجاعاً وكان شحيحاً ، يُضرب به المثل في الشحّ ، وسمي رشح الحجر لبحله . وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام في الشجاعة والسخاء كيف هي ؛ وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام .

قال الرضى رحمه الله :

وربّما جاء^(١) في أثناء هذا الاختيار اللفظ المرّد ، والمعنى المكرّر ؛ والمذّر في ذلك أن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً ؛ فربّما اتفق الكلام المختار في رواية فنقل على وجهه ، ثم وُجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعاً غير وضّعه الأول ؛ إما بزيادة مختارة ، أو بلفظ أحسن عبارة ؛ فتقتضى الحال أن يُعاد ؛ استظهاراً للاختيار ، وغيره على عقائل الكلام . وربّما بعدّ العهد أيضاً بما اختير أولاً ؛ فأعيد بعضه سهواً ونسياناً ، لا قصداً أو اعتماداً . ولا أدعى مع ذلك أنني أحيطُ بأقطار جميع كلامه عليه السلام ؛ حتى لا يشذّ عني منه شاذّ ، ولا ينفذ نادّ ، بل لا أبعد أن يكون القاصرُ عني فوق الواقع إلى ، والحاصل في ربّقتي دون الخارج من يدي ؛ وما علىّ إلا بذلُ الجهد ، وبلاغة الوسع ، وعلى الله سبحانه نهج السبيل ، وإرشاد الدليل .

ورأيتُ من بعدُ تسمية هذا الكتاب بـ " نهج البلاغة " ؛ إذ كان يفتح للناظر فيه أبوابها ، ويقرّب عليه طلابها ، وفيه حاجة العالم والمُتعلّم ، وبُغية المُلِمِّغ والزاهد ، ويمضي في أثناؤه من عجيب الكلام في التوحيد والعدل ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن شبه الخلق ، ماهو بلال كل غلّة ، وشفاء كل علة ، وجلاء كل شبهة . ومن الله أسئمتُ التوفيق والعصمة ، وأنجّزُ التّسديد والمعونة ، وأسئتيه من خطأ الجنان قبل خطأ

(١) ب : « كان » .

اللسان، ومن زَلَّة السكِّيم قبل زَلَّة القَدَم، وهو حَسْبِي وَنَعَم أَلُو كَيْلٌ.

الشَّرْحُ :

في أثناء هذا الاختيار : تضاعيفه ، واحدها ثُنَى كَعِذْقٍ وَأَعْذَاقٍ . والغَيِّرة ، بالفتح والكسر خطأ . وعقائل الكلام : كرائمه ، وعَقِيْلَةٌ الحَيِّ : كرمته ، وكذلك عقيلة الذَّوْد . والأقطار : الجوانب ، واحدها قُطْر . والذَّاد : المنفرد ؛ ندَّة البعير يَنْدُو . الرُّبْعَةُ : عُرْوَةُ الحبل يجعل فيها رأس البهيمة . وقوله : « وعلى الله نهج السبيل » ، أى إبانته وإيضاحه ، نهجت له نهجاً . وأما اسم الكتاب فـ « نهج البلاغة » ، والنهج هنا ليس بمصدر ، بل هو اسم للطريق الواضح نفسه . والطلَّاب ، بكسر الطاء : الطلب . والبُعْيَةُ : ما يُبْتَغَى . وبلال كلَّ غُلَّة ، بكسر الباء : ما يُبَيْلُ به الصدى ، ومنه قوله : انضحوا الرِّحْمَ بِلَالِهَا ، أى صلّوها بصلتها وندّوها^(١) ، قال أوس :

كَأَنِّي حَلَوْتُ الشَّعْرَ حِينَ مَدَحْتُهُ صَفَا صَخْرَةً صَمَاءَ يَبْسُ بِلَالِهَا^(٢)

وإنما استعاض من خطأ الجنان قبل خطأ اللسان ؛ لأنَّ خطأ الجنان أعظم وأخشى من خطأ اللسان ، ألا ترى أنَّ اعتقاد الكُفْر بالقلب أعظم عقاباً من أن يكفر الإنسان بلسانه وهو غير معتمد للكفر بقلبه ؛ وإنما استعاض من زَلَّة السكِّيم قبل زَلَّة القَدَم ؛ لأنه أراد زَلَّة القدم الحقيقية ؛ ولا ريب أنَّ زَلَّة القدم أهونُ وأسهل ؛ لأن العائر يستقيل من عثرته ، وذَا الزَّلَّة تجذُّه ينهض من صِرْعته ؛ وأما الزَّلَّة باللسان فقد لا تستقال عَثْرَتُهَا ، ولا ينهض صريعُهَا ، وطالما كانت لا شَوَى^(٣) لها ، قال أبو تمام :

بِأَزَلَّةٍ مَا وَفَّقْتُمْ شَرَّ مَضْرَعِهَا وَزَلَّةَ الرَّأْيِ تُنْسِي زَلَّةَ الْقَدَمِ^(٤)

(١) اللسان - بل ، وفي الطبعة الأولى « أنضحوا » ، تحريف .

(٢) يهجو الحسك بن مروان بن زباج ، ديوانه ١٠٠ ، واللسان ١٣ : ٦٧ ، ١٨ : ٢١٠ ، وحلا الرجل الشيء يجلوه ، أعطاه إياه ، أى جعل الشعر حلوانا له مثل العطاء .

(٣) لا شوى لها ، أى لا براء لها ، قال الكمي :

أَجِيبُوا رُقَى الْأَسَى الْمُطَاسِيَّ واحذروا - مطفئة الرِّضْفِ الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

(٤) ديوانه ٣ : ١٩٤ ، وروايته : « ياعثرة ما وقيتم » .

باب الخطب والأوامر

قال الرضى رحمه الله :

بَابُ الْمُخْتَارِ مِنْ خُطْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَوَامِرُهُ

ويدخل في ذلك المختار من كلامه الجارى مجرى الخطب ، فى المقامات المحصورة
والمواقف المذكورة ، والخطوب الواردة

الشيخ :

المقامات : جمع مقامة ، وقد تكون المقامة المجلس والنادى الذى يجتمع إليه الناس ،
وقد يكون اسماً للجاعة ، والأول أليق هاهنا بقوله : «المحصورة» ، أى التى قد حضرها الناس .
ومنذ الآن نبتدى بشرح كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ونجعل ترجمة الفصل الذى
نروم شرحه «الأصل» فإذا أنهيناها قلنا : «الشرح» ، فذكرنا ما عندنا فيه ، وبالله التوفيق .

(١)

الأصل :

فمن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ ، وَلَا يُحْصَى نِعْمَاهُ الْعَادُّونَ ،
وَلَا يُؤَدَّى حَقُّهُ الْمُجْتَهِدُونَ ؛ الَّذِى لَا يُذَرِّكُهُ بَعْدَ الْهِمَمِ ، وَلَا يَنْسَاهُ غَوْصُ
الْفِطَنِ . الَّذِى لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ ، وَلَا نَعْتُ مَوْجُودٌ ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ .
وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ ؛ فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَنَشَرَ الرِّيحَ بِرَحْمَتِهِ ، وَوَدَّ
بِالصُّخُورِ مَيْدَانَ أَرْضِهِ .

الشُّنْخُ :

الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَدْبَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّ الْحَمْدَ وَالْمَدْحَ أَخَوَانٌ ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا ،
تَقُولُ : تَحَدَّثُ زَيْدًا عَلَى إِنْعَامِهِ ، وَمَدَحْتَهُ عَلَى إِنْعَامِهِ ، وَحَمِدْتَهُ عَلَى شَجَاعَتِهِ ، وَمَدَحْتَهُ عَلَى
شَجَاعَتِهِ ؛ فَهُمَا سَوَاءٌ ، يَدْخُلَانِ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْإِنْسَانِ ، وَفِيمَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ
مِنَ الْمَثَالَيْنِ ، فَأَمَّا الشُّكْرُ فَأَخْصٌ مِنَ الْمَدْحِ ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى النِّعْمَةِ خَاصَّةً ؛
وَلَا يَكُونُ إِلَّا صَادِرًا مِنْ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ ، فَلَا يَجُوزُ عَنْهُمْ أَنْ يُقَالَ : شَكَرَ زَيْدٌ عَمْرًا لِنِعْمَةٍ
أَنْعَمَهَا عَمْرُو عَلَى إِنْسَانٍ غَيْرِ زَيْدٍ .

إِنْ قِيلَ : الِاسْتِعْمَالُ خِلَافُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : حَضَرْنَا عِنْدَ فُلَانٍ فَوَجَدْنَاهُ يَشْكُرُ
الْأَمِيرَ عَلَى مَعْرُوفِهِ عِنْدَ زَيْدٍ ، قِيلَ : ذَلِكَ إِنَّمَا يَصِحُّ إِذَا كَانَ إِنْعَامُ الْأَمِيرِ عَلَى زَيْدٍ أَوْ جَبَّ
سُرُورُ فُلَانٍ ، فَيَكُونُ شُكْرُ إِنْعَامِ الْأَمِيرِ عَلَى زَيْدٍ شُكْرًا عَلَى السُّرُورِ الدَّاخِلِ عَلَى قَلْبِهِ
بِالْإِنْعَامِ عَلَى زَيْدٍ ، وَتَكُونُ لَفْظَةُ « زَيْدٍ » الَّتِي اسْتَعِيرَتْ ظَاهِرًا لَاسْتِنَادِ الشُّكْرِ إِلَى
مَسْمَاها كُنَايَةً لَا حَقِيقَةً ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الشُّكْرُ شُكْرًا بِاعْتِبَارِ السُّرُورِ الْمَذْكُورِ ، وَمَسَدِّحًا
بِاعْتِبَارِ آخَرٍ ، وَهُوَ الْمُنَادَاةُ عَلَى ذَلِكَ الْجَمِيلِ وَالْثَنَاءِ الْوَاقِعِ بِجَنْسِهِ .

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ حَكَمْنَا قَوْلَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَمْدَ وَالْمَدْحَ وَالشُّكْرَ
لَا يَكُونُ إِلَّا بِاللِّسَانِ مَعَ انْطِبَاطِ الْقَلْبِ عَلَى الثَّنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ ، فَإِنْ اسْتَعْمِلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي
الْأَفْعَالِ بِالْجَوَارِحِ كَانَ مَجَازًا . وَبَقِيَ الْبَحْثُ عَنْ اشْتِرَاطِهِمْ مِطَابَقَةَ الْقَلْبِ لِلِّسَانِ ؛ فَإِنَّ
الِاسْتِعْمَالَ لَا يَسَاعِدُهُمْ ، لِأَنَّ أَهْلَ الْإِصْطِلَاحِ يَقُولُونَ لِمَنْ مَدَحَ غَيْرَهُ ، أَوْ شَكَرَهُ رِيَاءً وَسَمْعَةً :
إِنَّهُ قَدْ مَدَحَهُ وَشَكَرَهُ وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا عَنْهُمْ . وَنَظِيرُ هَذَا الْمَوْضِعِ الْإِيمَانُ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ
الْمُتَكَلِّمِينَ لَا يُطْلِقُونَهُ عَلَى مَجْرَدِ النُّطْقِ اللَّسَانِيِّ ، بَلْ يَشْتَرِطُونَ فِيهِ الْإِعْتِقَادَ الْقَلْبِيَّ ، فَأَمَّا

أن يقصروا به عليه كما هو مذهب الأشعرية^(١) والإمامية^(٢)، أو تؤخذه أمور أخرى وهي فعل الواجب وتجنب القبيح كما هو مذهب المعتزلة^(٣)، ولا يخالف جمهور المتكلمين في هذه المسألة إلا الكرامية^(٤) فإن المنافق عندهم يسمى مؤمناً، ونظروا إلى مجرد الظاهر، فجعلوا النطق اللساني وحده إيماناً.

والمدحة: هيئة المدح، كالركبة، هيئة الركوب، والجلوس هيئة الجلوس^(٥)؛ والمعنى مطروق جداً، ومنه في الكتاب العزيز كثير، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٦) وفي الأثر النبوي: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وقال الكتاب^(٧) من ذلك ما يطول ذكره، فن جدد ذلك قول بعضهم: الحمد لله على نعمه التي منها إقدارنا على الاجتهاد في حمدها، وإن عجزنا عن إحصائها وعدّها. وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ أَمْرِي مُتَقَاوِلٍ بِهَا الْحَمْدَ إِلَّا وَالَّذِي نِلْتُ أَطْوَلَ^(٨)

(١) الأشعرية: هم أصحاب أبي الحسن على بن إسماعيل الأشعري، المنسوب إلى أبي موسى الأشعري، وهي جماعة الصفائية، الذين يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية، كالعلم والقدرة والحياة وغيرها. وانظر الكلام عليهم في الملل والنحل للشهرستاني ١: ٨٥ - ٩٤.
(٢) الإمامية: هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي عليه السلام، وهم فرق متعددة ذكرهم الشهرستاني في الملل والنحل ١: ١٤٤ - ١٥٤.
(٣) المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، انظر أيضاً الكلام عليهم، وتعداد فرقهم في المصدر السابق ١: ٤٩ - ٧٨.

(٤) الكرامية: هم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام؛ عددهم الشهرستاني من جماعة الصفائية؛ لأنهم كانوا ممن يثبتون الصفات؛ إلا أنهم اتهموا فيها إلى التجسيم والتشبيه، الملل والنحل ١: ٩٩ - ١٠٤.

(٥) ١: «كالركبة والجلوس هيئة الركوب والجلوس»

(٦) سورة إبراهيم ٣٤، النحل ١٨

(٧) ب: «في الكتاب»؛ وكلمة «في» مقحمة.

(٨) ديوانها ١٨٤؛ والرواية هناك:

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ أَمْرِي مُتَقَاوِلٍ بِهَا الْمَجْدَ إِلَّا حَيْثُ مَا نِلْتُ أَطْوَلَ
وَمَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ فِي الْقَوْلِ مِدْحَةً وَلَا صِفَةً إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

ولا حَبَّرَ الْمُتَنُونَ فِي الْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا وَمَا فِيكَ أَفْضَلُ

ومن مستحسن ما وقفت عليه من تعظيم الباري عزّ جلاله بلفظ^(١) « الحمد » قولُ بعض الفضلاء في خطبة أرجوزة علمية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ بِقَدْرِ اللَّهِ لَا قَدْرَ وَسِعَ الْعَبْدُ ذِي التَّعَالَى
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَرَاهَهُ أَنْ لَيْسَ شَأْنٌ لَيْسَ فِيهِ شَأْنُهُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنْ يُنْكِرُهُ فَإِنَّمَا يُنْكِرُ مَنْ يُصَوِّرُهُ

وأما قوله: « الذي لا يدركه »، فيريد أنْ هَمَّ النَّظَارُ وأصحاب الفكر وإن عُلَّتْ وَبَعُدَتْ فَإِنَّهَا لَا تَدْرِكُ تَعَالَى، وَلَا تَحِيطُ بِهِ. وهذا حقّ، لأنّ كلّ متصوّر فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُحَسَّسًا، أَوْ مُتَخَيَّلًا، أَوْ مُوجُودًا مِنْ فِطْرَةِ النَّفْسِ، وَالِاسْتِقْرَاءُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ. مثال الحسوس السّواد والحموضة؛ مثال التّخيّل إنسان يطير، أَوْ بَحْرٌ مِنْ دَمٍ. مثال الموجود من فِطْرَةِ النَّفْسِ تصوّر الألم واللذة. ولَمَّا كَانَ الْبَارِئُ سَبْحَانَهُ خَارِجًا عَنْ هَذَا أَجْمَعِ^(٢) لَمْ يَكُنْ مُتَصَوِّرًا.

فأما قوله: « الذي ليس لصفته حدّ محدود »، فإنه يعني بصفته هاهنا كنهه وحقيقته، يقول: ليس لـكنهه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة؛ لأنه ليس بمركّب، وكلّ محدود مركّب.

ثم قال: « ولا نعت موجود » أى ولا يدرك^(٣) بالرسم؛ كما تُدْرِكُ الْأَشْيَاءُ بِرِسُومِهَا؛ وَهُوَ أَنْ تَعْرِفَ بِالْإِزْمِ مِنْ لَوَازِمِهَا، وَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا.

ثم قال: « ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود »، فيه، إشارة إلى الردّ على من قال: إنّنا

(٢) ب: « جميعا ».

(١) أ: « بالفظلة ».

(٣) ب: « لا يدرك »، من غير واو.

نعلم كنهه الباري سبحانه لا في هذه الدنيا بل في الآخرة ؛ فإن القائلين برؤيته في الآخرة يقولون : إنا نعرف حينئذ كنهه ، فهو عليه السلام ردّ قولهم ، وقال : إنه لا وقت أبداً على الإطلاق تُعرف فيه حقيقته وكنهه ، لا الآن ولا بعد الآن ؛ وهو الحق ، لأننا لو رأيناه في الآخرة وعرفنا كنهه لتشخص شخصاً يمنع من حمله على كثيرين ، ولا يتصور أن يتشخص هذا الشخص إلا ما يُشار إلى جهته ، ولا جهة له سبحانه . وقد شرحت هذا الموضوع في كتابي المعروف بـ « زيادات النقيضين »^(١) ، وبينت أن الرؤية المنزهة عن الكيفية التي يزعمها أصحاب الأشعري لا بدّ فيها من إثبات الجهة ، وأنها لا تجري مجرى العلم ؛ لأن العلم لا يُشخص المعلوم ، والرؤية تشخص المرئي ، والتشخيص لا يمكن إلا مع كون المتشخص ذا جهة .

واعلم أن نفي الإحاطة مذكور في الكتاب العزيز في مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾^(٢) ، ومنها قوله : ﴿ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾^(٣) ، وقال بعض الصحابة : العجز عن درك الإدراك إدراك ؛ وقد غلا محمد بن هاني فقال في ممدوحه المعزّ أبي تميم معد بن المنصور العلوي :

أَتَبَعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصَوُّبٍ وَتَضَعِيدٍ^(٤)
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يُلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدٍ^(٥)

وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ، ولا يليق بالخلق .

فأما قوله : « فطر الخلائق ... » إلى آخر الفصل ؛ فهو تقسيم مشتق من الكتاب العزيز ، فقوله : « فطر الخلائق بقدرته » من قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ

(١) كذا في ح ، وفي ب : « النقيضين » وفي أ : « زيادات التفسير » ، ولم أعثر له على ذكر له في كتب التراجم والفهارس .
(٢) سورة طه ١١٠
(٣) سورة الملك ٢
(٤) ديوانه ٢١٠ .
(٥) الديوان : « برهان يبين » .

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا»^(١) ، وقوله : « وَنَشَرَ الرِّيحَ بِرَحْمَتِهِ » من قوله : ﴿ يُرْسِلُ
الرِّيحَ نَشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾^(٢) .

وقوله : « وَوَتَدَّ بِالصَّخُورِ مِيدَانِ أَرْضِهِ » ، من قوله : ﴿ وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ﴾^(٣) .
وَالْمِيدَانِ : التَّحْرُكُ وَالتَّمُوجُ .

فأما القطب الراوندى رحمه الله فإنه قال إنه عليه السلام أخبر عن نفسه بأول هذا
الفصل أنه يحمّد الله ، وذلك من ظاهر كلامه ، ثم أمر غيره من فحوى كلامه أن يحمّد
الله ، وأخبر عليه السلام أنه ثابت على ذلك مدة حياته ، وأنه يجب على المكلفين ثبوتهم عليه
ما بقوا ؛ ولو قال : « أحمّد الله » لم يعلم منه جميع ذلك . ثم قال : والحمد أعمّ من الشكر ؛
والله أخصّ من الإله . قال : فأما قوله : « الذى لا يبلغ مدحته القائلون » ؛ فإنه أظهر
العجز عن القيام بواجب مدائحه ، فكيف بمحامده ! والمعنى أن الحمد كل الحمد ثابت
للمعبود الذى حقت العبادة له فى الأزل ، واستحقّها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول
النعيم التى يستحق بها العبادة .

ولقائل أن يقول : إنه ليس فى فحوى كلامه أنه أمر غيره أن يحمّد الله ، وليس
يفهم من قول بعض رعية الملك لغيره منهم : العظمة والجلال لهذا الملك أنه قد أمرهم
بتمظيمه وإجلاله . ولا أيضاً فى الكلام ما يدلّ على أنه ثابت على ذلك مدة حياته ،
وأنه يجب على المكلفين ثبوتهم عليه ما بقوا .

ولا أعلم كيف قد وقع ذلك للراوندى ! فإن زعم أن العقل يقتضى ذلك فحق ؛ ولكن

(١) سورة الشعراء ٢٤ . (٢) سورة الأعراف ٥٧ ، وهى قراءة أهل
الحرمين وابن عمرو (الجامع لأحكام القرآن ٧ : ٢٢٩) . (٣) سورة النبأ ٧

ليس مستفاداً من الكلام ، وهو أنه ^(١) قال : إن ذلك موجود في الكلام .
 فأما قوله : لو كان قال : أحمدُ الله لم يعلم منه جميع ذلك ؛ فإنه لا فرق في انتفاء دلالة
 « أحمد الله » على ذلك ودلالة « الحمد لله » ، وهما سواء في أنهما لا يدلان على شيء من
 أحوال غير القائل ، فضلاً عن دلالتهما على ثبوت ذلك ودوامه في حق غير القائل .
 وأما قوله : الله أخص من الإله ، فإن أراد في أصل اللغة ؛ فلا فرق ؛ بل الله هو الإله
 وفُخِّم بعد حذف الهمزة ، هذا قول كافة البصريين ، وإن أراد أن أهل الجاهلية كانوا
 يُطلقون على الأصنام لفظة « الآلهة » ، ولا يسمونها « الله » فحق ، وذلك عائد إلى عرفهم
 واصطلاحهم ، لا إلى أصل ^(٢) اللغة والاشتقاق ؛ ألا ترى أن الدابة في العرف لا تطلق
 على القملة ، وإن كانت في أصل اللغة دابة !

فأما قوله : قد أظهر العجز عن القيام بواجب مدائح فكيف بمحامده ! فكلام
 يقتضي أن المدح غير الحمد ، ونحن لا نعرف فرقاً بينهما . وأيضاً فإن الكلام لا يقتضي
 العجز عن القيام بالواجب ، لا من المادح ولا من المحامد ؛ ولا فيه تعرض لذكر الوجوب ،
 وإنما نفى أن يبلغ القائلون مدحته ، لم يقل غير ذلك .

وأما قوله : الذي حقت العبادة له في الأزل واستحقها حين خلق الخلق ، وأنعم بأصول
 النعم ؛ فكلام ظاهره متناقض ، لأنه إذا كان إنما استحقها حين خلق الخلق ، فكيف
 يقال : إنه استحقها في الأزل ! وهل يكون في الأزل مخلوق يستحق عليه العبادة !

واعلم أن المتكلمين لا يطلقون على الباري سبحانه أنه معبود في الأزل أو مستحق للعبادة
 في الأزل إلا بالقوة لا بالفعل ^(٣) ، لأنه ليس في الأزل مكلف يعبدته تعالى ، ولا أنعم
 على أحد في الأزل بنعمة يستحق بها العبادة ، حتى إنهم قالوا في الأثر الوارد : « يا قديم

(٢) ساقطة من ب .

(١) ب : « وهو إنما » .

(٣) ا : « ولا بالفعل » .

الإحسان » : إن معناه أن إحسانه متقادِم العهد، لا أنه قديم حقيقة ، كما جاء في الكتا ،
العزير : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾^(١) ، أى الذى قد توالى عليه الأزمنة المتطاوا .

ثم^(٢) قال الراوندى : والحمد والمدح يكونان بالقول والفعل ، والألف واللام ،
« القائلون » لتعريف الجنس ، كمثلهما فى الحمد . والبلوغ : المشارفة ، يقال : بلغت مكة ،
إذا أشرفت عليه ؛ وإذا لم تشرف على حمده تعالى بالقول فكيف توصل إليه بالفعل له
والإله : مصدر بمعنى المألوه .

ولقائل أن يقول : الذى سمعناه أن التعظيم يكون بالقول والفعل وبترك القول والفعل ،
قالوا : فمن قال لغيره : يا عالم فقد عظمه ومن قام لغيره فقد عظمه ، ومن ترك مدّ رجله بحضرة
غيره فقد عظمه ، ومن كفت غرّب لسانه عن غيره فقد عظمه . وكذلك الاستخفاف والإهانة
تسكون بالقول والفعل وبتركهما حسب ما قدمنا ذكره فى التعظيم .

فأما الحمد والمدح فلا وجه لكونهما بالفعل ، وأما قوله : إن اللام فى « القائلون »
لتعريف الجنس ؛ كما أنها فى الحمد كذلك فموجب ؛ لأنها للاستغراق فى « القائلون »
لا شبهة فى ذلك كالمتؤمنين والمشرّكين ، ولا يتمّ المعنى إلا به ؛ لأنه للمبالغة ، بل الحق الحمد
أنه لا يبالغ مدحته كلّ القائلين بأسرهم . وجعل اللام للجنس ينقص عن هذا المعنى إن أراد
بالجنس المعهود ، وإن أراد الجنسية العامة ، فلا نزاع بيننا وبينه ، إلا أن قوله : « كما أبا
فى الحمد كذلك » يمنع من أن يحمل كلامه على الحمل الصحيح ؛ لأنها ليست فى الاستغراق ،
للاستغراق ، يبيّن ذلك أنها لو كانت للاستغراق لما جاز أن يُحمد رسول الله صلى الله عليه
 وآله ولا غيره من الناس ، وهذا باطل .

(١) سورة يس ٣٩

(٢) كلمة « ثم » سابقة من ا .

وأيضاً فإنها لفظ واحد مفرد معرف بلام الجنس ، والأصل في مثل ذلك أن يفيد الجنسية المطلقة ، ولا يفيد الاستغراق ، فإن جاء منه شيء للاستغراق ، كقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ كُنِيَ خُسْرٍ﴾^(١) ، وأهلك الناس الدرهم والدينار ، فجاز ، والحقيقة ما ذكرناه . فأما قوله : البلوغ المشارفة ؛ يقال : بلغتُ المسكان إذا أشرفت عليه . فالأجود أن يقول : قالوا : بلغتُ المسكان ؛ إذا شارفته ؛ وبين قولنا : « شارفته » ، و « أشرفت عليه » فرق . وأما قوله : « وإذا لم يشرف على حمده بالقول فكيف يوصل إليه بالفعل ! » ، فكلام مبني على أن الحمد قد يكون بالفعل ، وهو خلاف ما يقوله أرباب هذه الصناعة . وقوله : والإله مصدر بمعنى المألوه كلام طريف ؛ أمّا أولاً ، فإنه ليس بمصدر ؛ بل هو اسم ، كوجار للضيع وسرار للشهر^(٢) ؛ وهو اسم جنس كالرجل والفرس ، يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بالحق ، كالنجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا ، والسنة : اسم لكل عام ثم غلب على عام القحط . وأظنه رحمه الله لما رآه « فعلا » ظن أنه مصدر كاللصا والجداذ وغيرها . وأما ثانياً ؛ فلأن المألوه صيغة « مفعول » وليست صيغة مصدر إلا في ألفاظ نادرة ، كقولهم : « ليس له مفعول ولا مجلود » ، ولم يسمع « مألوه » في اللغة ، لأنه قد جاء : أله الرجل إذا دهش وتحرر ؛ وهو فعل لازم لا يبنى منه « مفعول » .

ثم قال الرواندي : وفي قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ ، بلفظ الإفراد ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يحصى نعماء العادون » بلفظ الجمع سر عجيب ، لأنه تعالى أراد أن نعمة واحدة من نعمة لا يمكن العباد عدّ وجوه كونها نعمة ، وأراد أمير المؤمنين عليه السلام أن أصول نعمة لا تحصى لكثرتها ، فكيف تعدّ

(٢) السرار : بالفتح والكسر : آخر ليلة من الشهر

(١) سورة العصر ١

وجوه فروغ نعمائه ! وكذلك في كون الآية واردة بلفظة « إِنْ » الشرطية ، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام على صيغة الخبر ، تحته لطيفة عجبية ؛ لأنه سبحانه يريد أنكم إن أردتم أن تعدوا نعمه لم تقدرُوا على حصرها ، وعلى عليه السلام أخبر أنه قد أنعم النظر ، فعلم أن أحداً لا يمكنه حصرُ نعمه تعالى .

ولقائل أن يقول : الصحيح أن المفهوم من قوله : ﴿ وَإِنْ تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الْجَنَسُ ۚ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : أَنَا لَا أَجِدُ إِحْسَانَكَ إِلَى ، وَامْتِنَانِكَ عَلَيَّ ، وَلَا يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِحْسَانًا وَاحِدًا ، بَلْ جِنْسُ الْإِحْسَانِ .

وما ذكره من الفرق بين كلام الباري وكلام أمير المؤمنين عليه السلام غيرُ بيِّن ، فإنه لو قال تعالى : وإن تعدوا نعم الله ، وقال عليه السلام : ولا يحصى نعمته العادون ، لكان كل واحد منهما ساداً مسدداً الآخر .

أما اللطيفة الثانية فغير ظاهرة أيضاً ولا مليحة ؛ لأنه لو انعكس الأمر ؛ فكان القرآن بصيغة الخبر وكلام على عليه السلام بصيغة الشرط ، لكان مناسباً أيضاً ، حسب مناسبته ، والحالُ بعكس ذلك ، اللهم إلا أن تكون قرينة السجعة من كلام على عليه السلام تنبؤ عن لفظة الشرط ، وإلا فتى حذفت القرينة السجعية عن وهمك لم تجد فرقاً ؛ ونحن نعوذ بالله من التعسف والتعجرف ^(١) الداعي إلى ارتكاب هذه الدعاوى المنكرة .

ثم قال الراوندي : إنه لو قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الذي لا يعدّ نعمه الحاسبون » لم تحصل المبالغة التي أرادها بعبارته ؛ لأن اشتقاق الحساب من الحسبان ؛ وهو الظن . قال : وأما اشتقاق العدد فن العِد ؛ وهو الماء الذي له مادة ، والإحصاء : الإطاقة ؛ أحصيته ، أي أطقته ؛ فتقدير الكلام : لا يطيق عدّ نعمائه العادون ؛ ومعنى ذلك

(١) التعجرف : ركوب الأمر من غير ترو .

أَنَّ مَدَائِحَهُ تَعَالَى لَا يُشْرِفُ عَلَى ذِكْرِهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ ؛ لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَعُدَّهَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَالْكَرَامُ الْكَاتِبُونَ .

وَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ : أَمَّا الْحِسَابُ فَلَيْسَ مُشْتَقًّا مِنَ الْحِسْبَانِ بِمَعْنَى الظَّنِّ ؛ كَمَا تَوَهَّمَهُ ، بَلْ هُوَ أَصْلُ بَرَأْسِهِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ أَحَدَهُمَا حَسِبْتُ أَحْسَبَ ، وَالْآخَرُ حَسِبْتُ أَحْسَبْتُ وَأَحْسَبَ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ؛ وَهُوَ مِنْ الْأَلْفَاظِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي جَاءَتْ شَاذَةً . وَأَيْضًا فَإِنَّ « حَسِبْتُ » بِمَعْنَى ظَنَنْتُ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَا يَجُوزُ الْاِقْتِصَارُ عَلَى أَحَدِهِمَا ، وَ« حَسِبْتُ » مِنَ الْعَدَدِ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ . ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : وَهَبْ أَنْ « الْحَاسِبِينَ » لَوْ قَالَهَا مُشْتَقَّةً مِنَ الظَّنِّ لَمْ تَحْصُلِ الْمِبَالِغَةُ ، بَلِ الْمِبَالِغَةُ كَادَتْ تَكُونُ أَكْثَرُ ؛ لِأَنَّ النِّعَمَ الَّتِي لَا يَحْصُرُهَا الظَّانُّ بِظَنُونِهِ أَكْثَرُ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَعُدُّهَا الْعَالَمُ بِعِلْمِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : الْعَدَدُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعِدِّ ؛ وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي لَهُ مَادَّةٌ ، فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُمَا أَصْلَانِ . وَأَيْضًا لَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا مُشْتَقًّا مِنَ الْآخَرِ لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ الْعِدُّ مُشْتَقًّا مِنَ الْعَدَدِ ؛ لِأَنَّ الْمَصَادِرَ هِيَ الْأَصُولُ الَّتِي يَقَعُ الْأَشْتِقَاقُ مِنْهَا ؛ سِوَاهُ أَنْ كَانَ الْمَشْتَقُّ فِعْلًا أَوْ اسْمًا^(١) ، أَلَا تَرَاهُمْ قَالُوا فِي كِتَابِ الْأَشْتِقَاقِ : إِنَّ الضَّرْبَ : الرَّجُلُ الْخَفِيفُ ؛ مُشْتَقٌّ مِنَ الضَّرْبِ ، أَيْ السَّيْرِ^(٢) فِي الْأَرْضِ لِلِابْتِغَاءِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) ، فَجُعِلَ الْأِسْمُ مَفْعُولًا وَمُشْتَقًّا مِنَ الْمَصْدَرِ .

وَأَمَّا الْإِحْصَاءُ فَهُوَ الْحَصْرُ وَالْعَدُّ وَلَيْسَ هُوَ الْإِطَاقَةُ كَمَا ذَكَرَ ؛ لَا يُقَالُ : أَحْصَيْتُ الْحَجَرَ ، أَيْ أَطَقْتُ حَمْلَهُ .

وَأَمَّا مَا قَالُوا إِنَّهُ مَعْنَى السَّكْمَةِ فَطَرِيفٌ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَذْكُرِ الْأَنْبِيَاءَ وَلَا

(١) كَذَا عَطَفَ بِأَوْ بَعْدَ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ ؛ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَقَدْ أَوْلَعَ الْفُقَهَاءُ وَغَيْرُهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا : سِوَاهُ أَنْ كَانَ كَذَا أَوْ كَذَا ، وَالصَّوَابُ الْعَطْفُ بِأَمْ . الْمَغْنَى ١ : ٣٩ .

(٢) كَذَا فِي ج . (٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٢٧٣ .

الملائكة ، لا مطابقة ولا تضمناً ولا التزاماً ، وأى حاجة إلى هذا التقدير الطريف الذى لا يشعر الكلام به ! ومراده عليه السلام ؛ وهو أن نعمه جلّت لكثرةها أن يُخصّصها عاداً ما ، هو نفى لطلاق العادّين من غير تعرض لعادّ مخصوص .

قال الراوندى : فأما قوله : « لا يدركه بُعد الهمم » ؛ فالإدراك هو الرؤية والنيل والإصابة ، ومعنى الكلام : الحمد لله الذى ليس بجسم ولا عرض ؛ إذ لو كان أحدهما لراه الرايون إذا أصابوه ؛ وإنما خصّ « بُعد الهمم » بإسناد نفى الإدراك « وغوص الفطن » بإسناد نفى النيل لغرض صحيح ؛ وذلك أن الثنوية^(١) يقولون بقدّم النور والظلمة ، ويثبتون النور جهة العلوّ والظلمة جهة السفّل ، ويقولون : إنّ العالم متمزج منهما ، فردّ عليه السلام عليهم بما معناه : إنّ النور والظلمة جسمان ، والأجسام محدّثة ، والبارئ تعالى قديم .

ولقائل أن يقول : إنه لم يجزّ للرؤية ذكر فى الكلام ؛ لأنه عليه السلام لم يقل : الذى لا تدركه العيون ولا الحواسّ ، وإنما قال : « لا يدركه بُعد الهمم » ، وهذا يدلّ على أنه إنما أراد أن العقول لا تحيط بكنهه وحقيقته .

وأيضاً فلو سلمنا أنه إنما نفى الرؤية ، لكان لحاج أن يحاجّه فيقول له : هبّ أن الأمر كما تزعم ، ألسنت تريدُ بيانَ الأمر الذى لأجله خصّصّ بُعد الهمم بنفى الإدراك ، وخصّص غوصَ الفطن بنفى النيل ! وقلت : إنما قُسمَ هذا التقسيم لغرض صحيح ، وما رأيّناك أوضحت هذا الغرض ؛ وإنما حكيت مذهب الثنوية ، وليس يدلّ مذهبهم على وجوب تخصيص بُعد الهمم بنفى الإدراك دون نفى النيل ، ولا يوجب تخصيص غوصَ الفطن

(١) الثنوية : هم أصحاب الاثنين الأزليين ؛ يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . الشهرستاني

بنفى النَّيْل دون نفى الإدراك، وأكثر ما فى حكاية مذهبهم أنهم يزعمون أن إلهى العالم :
النور والظلمة ، وهما جسمان ؛ وأمير المؤمنين عليه السلام يقول : لو كان صانع العالم جسما
لَرُئِيَ ، وحيث لم ير لم يكن جسما ؛ أى شىء فى هذا مما يدل على وجوب ذلك التقسيم
والتخصيص الذى زعمت أئمتنا خصصه وقسمه افترض صحيح !

ثم ^(١) قال الراوندى : ويجوز أن يقال : البعد والغوص مصدران هاهنا بمعنى الفاعل ،
كقولهم : فلان عدل ، أى عادل ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ ^(٢) ،
أى غائرا ، فيكون المعنى : لا يدركه العالم البعيد لهم فكيف الجاهل ! ويكون المقصد
بذلك الرد على من قال : إن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربه ليلة الإسراء ؛ وإن يونس
عليه السلام رأى ربه ليلة هبوطه إلى قعر البحر .

ولقائل أن يقول : إن المصدر الذى جاء بمعنى الفاعل ألفاظ معدودة ، لا يجوز القياس
عليها ، ولو جاز لما كان المصدر هاهنا بمعنى الفاعل ؛ لأنه مصدر مضاف ، والمصدر المضاف
لا يكون بمعنى الفاعل . ولو جاز أن يكون المصدر المضاف بمعنى الفاعل لم يجز أن يُحمَل كلامه
عليه السلام على الرد على من أثبت أن البارئ سبحانه مرئى ؛ لأنه ليس فى الكلام نفى
الرؤية أصلا ، وإنما غرض الكلام نفى معقوليته سبحانه ، وإن الأفكار والأنظار لا تحيط
بكمه ، ولا تتعقل خصوصية ذاته ، جلّت عظمتة !

ثم قال الراوندى : فأما قوله : « الذى ليس لصفته حدّ محدود ، ولا نعمت موجود ،
ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود » ، فالوقت : تحرك الفلك ودوران على وجهه ، والأجل :

(١) كلمة « ثم » ساقطة من ١ .

(٢) سورة الملك ٣٠ .

مدّة الشيء ؛ ومعنى الكلام أنّ شكرى لله تعالى متجدّد عند تجديد كلّ ساعة ، ولهذا أبدل هذه الجملة من الجملة التى قبلها وهى الثانية ، كما أبدل الثانية من الأولى .

ولقائل أن يقول : الوقت عند أهل النظر مقدار حركة الفلّك ، لا نفس حركته ، والأجل ليس مطلق الوقت ، ألا تراهم يقولون : جئتك وقت العصر ، ولا يقولون : أجلّ العصر ! والأجل عندهم هو الوقت الذى يعلم الله تعالى أن حياة الحيوان تبطل فيه ، مأخوذ من أجلّ الدّين ، وهو الوقت الذى يحلّ قضاؤه فيه .

فأما قوله : ومعنى الكلام أنّ شكرى متجدّد لله تعالى فى كلّ وقت ، ففساد ، ولا ذِكرَ فى هذه الألفاظ للشكر ، ولا أعلم من أين خطر هذا للراوندى ! وظنّه أن هذه الجمل من باب البدل غلط ، لأنها صفات ، كلّ واحدة منها صفة بعد أخرى ، كما تقول : مررت بزيد العالم ، الظريف ، الشاعر ^(١) .

قال الراوندى : فأما قوله : « الذى ليس لصفته حدّ » ، فظاهره إثبات الصفة له سبحانه ، وأصحابنا لا يثبتون لله سبحانه صفة ، كما يشبه الأشرية ؛ لكنهم يجعلونه على حال ، أو يجعلونه متميزاً بذاته ؛ فأما المؤمنون عليه السلام بظاهر كلامه — وإن أثبت له صفة — إلا أن من له أنسّ بكلام العرب يعلم أنه ليس بإثبات على الحقيقة . وقد سألتى سائل فقال : ها هنا كلمتان ؛ إحداهما كفر ، والأخرى ليست بكفر ؛ وهما : لله تعالى شريك غير بصير . ليس شريك الله تعالى بصيراً ، فأيهما كلمة الكفر ؟ فقلت له : القضية الثانية ؛ وهى « ليس شريك الله تعالى بصيراً » كُفّر ؛ لأنها تتضمن إثبات الشريك ، وأمّا الكلمة الأخرى ، فيكون معناها لله شريك غير بصير ؟ بهمزة الاستفهام المقدّرة المحذوفة .

(١) من نسخة بحاشية ج : « الفاضل » .

ثم أخذ في كلام طويل يبحث فيه عن الصفة والمعنى ، ويُبطل مذهب الأشعرية بما يقوله المتكلمون من أصحابنا ، وأخذ في توحيد الصفة : لم جاء وكيف يدلّ نفي الصفة الواحدة على نفي مطاق الصفات ؟ وانتقل من ذلك إلى الكلام في الصفة الخامسة التي أثبتّها أبو هاشم^(١) ؛ ثم خرج إلى مذهب أبي الحسين^(٢) ، وأطال جدّاً فيما لا حاجة إليه^(٣) . ولقائل أن يقول : الأمر أسهل مما تظنّ ، فإننا قد بيّنا أنّ مراده نفي الإحاطة بكنهه ، وأيضاً يمكن أن يجعل الصفة هاهنا قول الواصف ، فيكون المعنى : لا ينتهي الواصف إلى حدٍّ إلّا وهو قاصر عن النعت ، لجلالته وعظمته ، جلّت قدرته .

فأما القضيتان اللتان سأله السائل عنهما فالصواب غير ما أجاب به فيهما ، وهو أن القضية الأولى كفر ، لأنها صريحة في إثبات الشريك ، والثانية لا تقتضي ذلك ، لأنه قد ينفي قول الشريك بصيراً على أحد وجهين ؛ إما لأن هناك شريكاً لكنه غير بصير ؛ لأن الشريك غير موجود ، وإذا لم يكن موجوداً لم يكن بصيراً ؛ فإذا كان هذا الاعتبار الثاني مراداً لم يكن كفراً ، وصار كالأثر المنقول : « كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لا تؤثر هفواته » ؛ أى لم يكن فيه هفوات فتؤثر وتحكى ،^(٤) وليس أنه كان^(٥) المراد في مجلسه هفوات إلّا أنّها لم تؤثر .

قال الراوندى : فإن قيل : تركيب هذه الجملة يدلّ على أنه تعالى فطر الخليفة قبل خلق السموات والأرض .

(١) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء

(٢) هو أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري ؛ وانظر ص ٩ من هذا الجزء

(٣) ب : « فيه » (٤ - ٤) ب : « وليس المراد أنه قد كانت » .

قلنا : قد اختلف في ذلك فقيل : أول ما يحسن منه تعالى خلقه ذاتا حيّة ، يخلق فيها شهوةً لمدرّك تدركه فتلتذّ به ، ولهذا قيل : تقديم خلق الجماد على خلق الحيوان عبث وقبيح . وقيل : لا مانع من تقديم خلق الجماد إذا علم أنّ علم بعض المكلفين فيما بعد بخلقه قبله لطف له .

ولقائل أن يقول : أمّا إلى حيث انتهى به الشرح فليس في الكلام تركيب يدلّ على أنّه تعالى فطر خلقه قبل خلق السموات والأرض . وإنما قد يؤمّر تأمل كلامه عليه السلام فيما بعد شيئاً من ذلك ، لما قال : « ثم أنشأ سبحانه فتقّ الأجواء » ؛ على أنا إذا تأملنا لم نجد في كلامه عليه السلام ما يدلّ على تقديم خلق الحيوان ؛ لأنه قبل أن يذكر خلق السماء لم يذكر إلا أنه فطر الخلائق . وتارة قال : « أنشأ الخلق » ، ودلّ كلامه أيضاً على أنه نشر الرياح ، وأنه خلق الأرض وهي مضطربة فأرساها بالجبال ؛ كلّ هذا يدلّ على كلامه ، وهو مقدّم في كلامه على فتقّ الهواء والفضاء وخلق السماء ، فأما تقديم خلق الحيوان أو تأخيرها فلم يتعرض كلامه عليه السلام له ، فلا معنى لجواب الراونديّ وذوكره ما يذكره المتكلمون من أنه هل يحسن تقديم خلق الجماد على الحيوان أم لا ؟

الأصل :

أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ ، وَكُلُّ مَعْرِفَةٍ تَهْدِي إِلَى التَّصَدِّيقِ بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصَدِّيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ ، وَكُلُّ تَوْحِيدِهِ إِخْلَاصُ لَهُ ، وَكُلُّ إِخْلَاصٍ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ ؛ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ . فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ ، وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ سَجَّاهُ .

وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّثَهُ ، وَمَنْ حَدَّثَهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ قَالَ : « فِيمَ » فَقَدْ ضَمَّنَّهُ ، وَمَنْ قَالَ : « عَلَامَ » فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ .

التبريح :

إنما قال عليه السلام : « أول الدين معرفته » ، لأنَّ التقليد باطل ، وأول الواجبات الدينية المعرفة . ويمكن أن يقول قائل : أستمُّ تقولون في علم الكلام : أول الواجبات النظر في طريق معرفة الله تعالى ؛ وتارة تقولون : القصد إلى النظر ؟ فهل يمكن الجمع بين هذا وبين كلامه عليه السلام ؟ !

وجوابه أن النظر والقصد إلى النظر إنما وجبا بالعرض لا بالذات ؛ لأنهما وُصِّلتا إلى المعرفة ، والمعرفة هي المقصود بالوجوب ، وأمير المؤمنين عليه السلام أراد : أول واجب مقصود بذاته من الدين معرفة الباري سبحانه ؛ فلا تناقض بين كلامه وبين آراء المتكلمين .

وأما قوله : « وكل معرفة التصديق به » ؛ فلأنَّ معرفته قد تكون ناقصة ، وقد تكون غير ناقصة ، فالمعرفة الناقصة هي المعرفة بأن للعالم صانعاً غير العالم ؛ وذلك باعتبار أن الممكن لا بدَّ له من مؤثر ، فمن علم هذا فقط عِلِمَ الله تعالى ولكنَّ علماً ناقصاً ، وأما المعرفة التي ليست ناقصة فإنَّ تعلم أن ذلك المؤثر خارج عن سلسلة الممكنات ، والخارج عن كلِّ الممكنات ليس بممكن ، وما ليس بممكن فهو واجب الوجود ؛ فمن عِلِمَ أن للعالم مؤثراً واجب الوجود فقد عرفه عرفاناً أكمل من عرفان أن للعالم مؤثراً فقط ؛ وهذا الأمر الزائد هو المكفى عنه بالتصديق به ؛ لأنَّ أخص ما يمتاز به الباري عن مخلوقاته هو وجوب الوجود .

وأما^(١) قوله عليه السلام : « وكال التصديق به توحيدُهُ » ، فلأن مَنْ علم أنه تعالى واجبُ الوجود مصدّق بالبارئ سبحانه ، لكن ذلك التصديق قد يكون ناقصاً ، وقد يكون غير ناقص ؛ فالتصديق الناقص أن يقتصر على أن يعلم أنه واجبُ الوجود فقط ، والتصديق الذي هو أكمل من ذلك وأتمّ هو العلمُ بتوحيده سبحانه ، باعتبار أن وجوب الوجود لا يمكن أن يكون لذاتين ؛ لأن فرض واجبي الوجود يُفْضِي إلى عموم وجوب الوجود لهما وامتياز كل واحد منهما بأمر غير الوجوب المشترك ؛ وذلك يُفْضِي إلى تركيبهما وإخراجهما عن كونهما واجبي الوجود ؛ فمن علم البارئ سبحانه واحداً ، أى لا واجب الوجود إلا هو يكون أكمل تصديقاً ممن لم يعلم ذلك ؛ وإنما اقتصر على أن صانع العالم واجب الوجود فقط .

وأما قوله : « وكال توحيدِهِ الإخلاصُ له » ؛ فالمراد بالإخلاص له هاهنا هو نَفْيُ الجسْمِيَّةِ والعَرَضِيَّةِ ولوازمهما عنه ؛ لأن الجسم مركب ، وكل مركب ممكن ، وواجب الوجود ليس بممكن . وأيضاً فكل عَرَضٍ مفتقر ، وواجب الوجود غير مفتقر ؛ فواجب الوجود ليس بعَرَضٍ . وأيضاً فكل جِرْمٌ محدث ، وواجب الوجود ليس بمحدث ، فواجب^(٢) الوجود ليس بجرم . وأيضاً فكل حاصل في الجهة ، إما جِرْمٌ أو عَرَضٌ ، وواجب الوجود ليس بجِرْمٍ ولا عَرَضٍ ، فلا يكون حاصلًا في جهة ؛ فمن عرف وحدانية البارئ ولم يعرف هذه الأمور كان توحيدِهِ ناقصاً ، ومن عرف هذه الأمور بعد العلم بوحدانيته تعالى فهو الخالص في عرفانه جلّ اسمه ، ومعرفة تَكُونُ أتمّ وأكمل .

وأما قوله : « وكالُ الإخلاص له نَفْيُ الصفات عنه » ، فهو تصريحٌ بالتوحيد الذي تذهب إليه المعتزلة ، وهو نَفْيُ المعاني القديمة^(٣) التي تُنْزِلُهَا الْأَشْعَرِيَّةُ وَغَيْرُهَا ، قال عليه السلام :

(٢) ب : « وواجب » .

(١) ب : « فأما » .

(٣) ا : « التقديمية » .

« لشهادة كلِّ صفة أنَّها غير الموصوف ، وشهادة كلِّ موصوف أنه غير الصفة » ؛ وهذا هو دليل المعتزلة بعينه ، قالوا : لو كان عالماً بمعنى قديم ؛ لكان ذلك المعنى إما هو أو غيره ، أو ليس هو ولا غيره . والأوّل باطل ؛ لأننا نعقل ذاته قبل أن نعقل أو نتصوّر له علماً ؛ والمتصوّر مُغاير لما ليس بتصوّر . والثالث باطل أيضاً ، لأنّ إثبات شيئين : أحدهما ليس هو الآخر ولا غيره ، معلوم فسادُه ببديهة العقل ، فتعَيّن القسم الثاني وهو مُحال ، أما أوّلًا فبإجماع أهلِ المِلَّة ، وأما ثانياً فلما سبق من أنّ وجوب الوجود لا يجوز أن يكون لشيئين ؛ فإذا عرفت هذا فاعرف أنّ الإخلاص له تعالى قد يكون ناقصاً وقد لا يكون ، فالإخلاص الناقص هو العلم بوجوب وجوده ، وأنه واحد ليس بجسم ولا عَرَض ، ولا ^(١) يصحّ عليه ما يصحّ على الأجسام والأعراض . والإخلاص التامّ هو العلم بأنّه لا تقوم به المعاني القديمة ، مضافاً إلى تلك العلوم السابقة ؛ وحينئذ تتمّ المعرفة وتكمل .

ثم أكرّد أمير المؤمنين عليه السلام هذه الإشارات الإلهية بقوله : « فمنّ وصف الله سبحانه فقد قرّنه » ، وهذا حقّ ؛ لأنّ الموصوف يقارن الصفة ، والصفة تقارنه . قال : « ومن قرّنه فقد ثنّاه » ، وهذا حقّ ، لأنه قد أثبت قديمين ، وذلك محض التثنية .

قال : « ومن ثنّاه فقد جزّأه » ؛ وهذا حقّ ، لأنه إذا أطلق لفظة الله تعالى على الذات والعلم القديم فقد جعل مسمّى هذا اللفظ وفائدته متجزّئة ، كإطلاق لفظ « الأسود » على الذات التي حلّها سواد .

قال : « ومن جزّأه فقد جهله » ؛ وهذا حقّ ، لأنّ الجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ماهو به .

قال : « ومن أشار إليه فقد حدّته » ؛ وهذا حقّ ، لأنّ كلّ ما أشار إليه فهو محدود ؛

(١) ب : « فلا يصح » .

لأنّ المشار إليه لابدّ أن يكون في جهة مخصوصة ، وكلّ ماهو في جهة فله حدّ وحدود ؛
أى أقطار وأطراف .

قال : « ومنّ حدّه فقد عدّه » ، أى جعله من الأشياء الحديثة ، وهذا حقّ ، لأنّ
كلّ محدود معدود في الذوات الحديثة .

قال : « ومن قال : فيمّ ؟ فقد ضمّنه » ، وهذا حقّ ، لأنّ من تصوّر أنه في شيء فقد
جعله إما جسمًا مستترًا في مكان ، أو عرضًا ساريًا في محلّ ، والمكان متضمّن للتّمكن ،
والحلّ متضمّن للعرض .

قال : « ومن قال : علام ؟ فقد أخلى منه » ، وهذا حقّ ، لأنّ من تصوّر أنه تعالى
على العرش ، أو على الكرسيّ ، فقد أخلى منه غير ذلك الموضع . وأصحاب تلك المقالة يمتنعون
من ذلك ؛ ومرادّه عليه السلام إظهار تناقض أقوالهم ؛ وإلا فلو قالوا ^(١) : هب أنا قد أخلّينا
منه غير ذلك الموضع ؛ أى محذور يلزمنا ؟ فإذا قيل لهم : لو خلا منه موضع دون موضع لكان
جسمًا ، ولزم حدوثه ، قالوا : لزوم الحدوث والجسمية إنّما هو من حصوله في الجهة لا من خلوّ
بعض الجهات عنه ؛ وأنتم إنّما احتججتم علينا بمجرّد خلوّ بعض الجهات منه ، فظهر أنّ توجيهه
الكلام عليهم إنّما هو إزام لهم ، لا استدلال على فساد قولهم .

فأمّا القطب الراوندى فإنه قال في معنى قوله : « نفى الصفات عنه » : أى صفات
الخالقين ، قال : لأنه تعالى عالم قادر ، وله بذلك صفات ، فكيف يجوز أن يقال : لا صفة له !
وأيضًا فإنه عليه السلام قد أثبت لله تعالى صفةً أوّلا ، حيث قال : « الذى ليس لصفته
حدّ محدود » ، فوجب أن يُحمّل كلامه على ما ينزّه عن المناقضة .

(١) ب : « قال » .

وأيضاً فإنه قد قال فيما بعدُ في صفة الملائكة : « إنهم لا يَصِفُونَ الله تعالى بصفات المصنوعين » ، فوجب أن يحمل قوله الآن : « وكأل توحيدِه نفى الصفات عنه » على صفات المخلوقين ، حملاً للمطلق على المقيّد .

واقائل أن يقول : لو أراد نفى صفات المخلوقين عنه لم يستدلّ على ذلك بدلائل الغيرية ، وهو قوله : « لشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف » ، لأن هذا الاستدلال لا ينطبق على دَعْوَى أنه غير موصوف بصفات المخلوقين ، بل كان ينبغى أن يستدلّ بأن صفات المخلوقين من لوازم الجسميّة والعَرَضِيّة ، والبارئ ليس بجسم ولا عَرَض ، ونحن قد بينا أن مراده عليه السلام إبطال القول بالمعاني القديمة ، وهى المسماة بالصفات فى الاصطلاح القديم^(١) ، ولهذا يسمّى أصحاب المعاني بالصفاتيّة . فأما كونه قادراً وعالماً فأصحابها أصحاب الأحوال ، وقد بينا أن مراده عليه السلام بقوله : « ليس لصفته حدّ محدود » ، أى لـكـنه وحقيقته ، وأما كون الملائكة لا تصف البارئ بصفات المصنوعين فلا يقتضى أن يُحمَل كل موضوع فيه ذكر الصفات على صفات المصنوعين ، لأجل تقييد ذلك فى ذكر الملائكة ، وأين هذا من باب حمل المطلق على المقيّد ! لا سيما وقد ثبت أن التعليل والاستدلال يقضى ألا يكون المراد صفات المخلوقين .

وقد تكلف الراوندى لتطبيق تعليله عليه السلام نفى الصفات عنه بقوله : « لشهادة كل صفة أنها غيرُ الموصوف » ، بكلام عجيب ؛ وأنا أحكى ألفاظه لتعلم ؛ قال : معنى هذا التعليل أن الفعل فى الشاهد لا يشابه الفاعل ، والفاعل غيرُ الفعل ؛ لأن ما يوصف به الغير إنما هو الفعل أو معنى الفعل ، كالضارب والفهم ؛ فإن الفهم والضرب كلاهما فعل ، والموصوف بهما فاعل ، والدليل لا يختلف شاهداً وغائباً ؛ فإذا كان تعالى قديماً وهذه الأجسام محدثة كانت معدومة ثم وجدت ، يدلّ على أنها غيرُ الموصوف بأنه خالقها ومدبرها .

(١) ساقطة من ج .

انقضى كلامه . وحكايته تُغني عن الرد عليه .

نم قال : « الأول » على وزن « أفعل » يستوى فيه المذكر والمؤنث ، إذا لم يكن فيه الألف واللام ، فإذا كانا فيه قيل للمؤنث « الأولى » .

وهذا غير صحيح ، لأنه يقال : كلمت فضلاًهنّ ، وليس فيه ^(١) ألف ولا م ، وكان ينبغي أن يقول إذا كان منكراً مصحوباً بمن استوى المذكر والمؤنث في لفظ « أفعل » ، تقول : زيد أفضل من عمرو ، وهند أحسن من دعد .

الأصل :

كائنٌ لا عن حدثٍ ، موجودٌ لا عن عدمٍ ، مع كل شيء لا بمقارنةٍ ، وغير كل شيء لا بمزابلةٍ ، فاعلٌ لا بمعنى الحركات والآلة ، بصيرٌ ؛ إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحدٌ ؛ إذ لا سكن يستأنس به ، ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاءً ، وأبتدأه ابتداءً ، بلا روية أجالها ، ولا تجريرة استفادها ، ولا حركة أخذتها ، ولا هامة نفس اضطرب فيها . أحوال الأشياء لأوقاتها ، ولآدم بين مختلفاتها ، وغرز غرائزها ، وألزمها أشباحها ؛ عالمها قبل ابتدائها ، محيطاً بحدودها وأنشائها ، عارفاً بقرائنها وأحنائها .

الشرح :

قوله عليه السلام : « كائن » ، وإن كان في الاصطلاح العرفي مقولاً على ما ينزهه الباري عنه ؛ فإفراده ^(٢) به المفهوم اللغوي ؛ وهو اسم فاعل من « كان » ، بمعنى وجد ، كأنه قال : موجود غير محدث .

(٢) ١ : « فراد » .

(١) ب : « فيهن » .

فإن قيل : فقد قال بعده : « موجود لا عن عدم » فلا يبقى بين الكلمتين فرق .
 قيل : بينهما فرق ، ومراده بالموجود لا عن عدم هاهنا وجوب وجوده ونفى إمكانه ،
 لأنّ مَنْ أثبت قديماً ممكناً ؛ فإنه وإن نفي حدوثه الزماني فلم ينفِ حدوثه الذاتي ،
 وأمير المؤمنين عليه السلام نفي عن الباري تعالى في الكلمة الأولى الحدوث الزماني ، ونفي
 عنه في الكلمة الثانية الذاتي . وقولنا في الممكن : إنه موجود من عدم ، صحيح عند
 التأمل ، لا بمعنى أنّ عدمه سابق له زماناً ، بل سابق لوجوده ذاتاً ، لأن الممكن يستحق
 من ذاته أنه لا يستحق الوجود من ذاته .

وأما قوله : « مع كلّ شيء لا بمقارنة » ، فراده بذلك أنه يعلم الجزئيات والكلّيات ،
 كما قال سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِمُهُمْ ﴾ (١) .

وأما (٢) قوله : « وغير كلّ شيء لا بمزايلة » ، فحق ، لأنّ المتغيرين في الشاهد هما مازايل
 أحدهما الآخر وبانيه بمكان أو زمان ، والباري سبحانه يباين الموجودات مباينة منزّهة
 عن المكان والزمان ، فصدق عليه أنه غير كلّ شيء لا بمزايلة .

وأما قوله : « فاعل لا بمعنى الحركات والآلة » ، فحق ؛ لأن فعله اختراع ، والحكام
 يقولون : إبداع ، ومعنى الكلمتين واحد ؛ وهو أنه يفعل لا بالحركة والآلة كما يفعل
 الواحد منّا ، ولا يوجد شيئاً من شيء .

وأما قوله : « بصير ؛ إذ لا منظور إليه من خلقه » ، فهو حقيقة مذهب أبي هاشم
 رحمه الله وأصحابه ، لأنهم يُطلقون عليه في الأزل أنه سميع بصير ، وليس هناك مسموع
 ولا مبصر ، ومعنى ذلك كونه بحالٍ يصحّ منه إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت ؛

(١) سورة المجادلة ٧

(٢) ١ : « فأما » .

وذلك يرجع إلى كونه حياً لا آفة به ، ولا يُطلقون عليه أنه سامع مبصر في الأزل ، لأنّ السامع المبصر هو المدرك بالفعل لا بالقوّة .

وأما قوله : « متوحد ، إذ لا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ ، ويستوحش لفقده » ، فـ « إذ » هاهنا ظرف ، ومعنى الكلام أنّ العادة والعرف إطلاق « متوحد » على من قد كان له من يستأنس بقربه ويستوحش بهذه فأنفرد عنه ، والبارئ سبحانه يطلق عليه أنه متوحد في الأزل ولا موجود سواه : وإذا صدق سلب الموجودات كلها في الأزل صدق سلب ما يؤنس أو يوحش : فتوحد سبحانه بخلاف توحد غيره .

وأما قوله عليه السلام : « أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأ ابتداء » ، فكلمتان مترادفتان على طريقة الفصحاء والبلغاء ؛ كقوله سبحانه : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾^(١) . وقوله : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(٢) .

وقوله : « بلا رويّة أجالها » ، فالرويّة الفكرة ، وأجالها : ردّها ؛ ومن رواه : « أحالها » بالخاء ، أراد صرفها . وقوله : « ولا تجربة استفادها » ، أى لم يكن قد خلق من قبل أجساماً فخصّت له التجربة التي أعانته على خلق هذه الأجسام .

وقوله : « ولا حركة أحدثها » ، فيه ردّ على الكراميّة الذين يقولون : إنّه إذا أراد أن يخلق شيئاً مهابتاً عنه أحدث في ذاته حادثاً ، يسمّى الإحداث ، فوق ذلك الشئ المبين عن ذلك المعنى المتجدّد المسمّى إحداثاً .

وقوله : « ولا هامة نفس اضطرب فيها » ، فيه ردّ على المجوس والثنويّة القائلين بالهامة ، ولهم فيها خبط طويل يذكره أصحاب المقالات ، وهذا يدل على صحّة ما يقال : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين ، ويعلم العلوم كلها ، وليس ذلك ببعيد من فضائله ومناقبه عليه السلام

وأما قوله : « أحال الأشياء لأوقاتها » ، فمن رواها : « أحل الأشياء لأوقاتها » ، فعناه جعل محل كل شيء ووقته كمحل الدين . ومن رواها : « أحال » فهو من قولك : حال في متن فرسه ، أى وثب ، وأحاله غيره ، أى أوثبه على متن الفرس ؛ عداه بالهمزة ، وكأنه لما أقر الأشياء في أحيائها وأوقاتها صار كمن أحال غيره على فرسه .

وقوله . « ولأهم بين مختلفاتها » ، أى جعل المختلفات ملتزمات^(١) ، كما قرّن النفس الروحانية بالجسد الترابي ، جلّت عظمتُهُ !

وقوله : « وغرّز غرائزها » ، المروى بالتشديد ، والغريزة : الطبيعة ، وجمعها غرائز ، وقوله : « غرّزها » ، أى جعلها غرائز ، كما قيل : سبحان من ضوءاً الأضواء ! ويجوز أن يكون من غرّز الإبرة بمعنى غرست . وقد رأينا في بعض النسخ بالتخفيف .

وقوله : « وألزمها أشباحها » ، الضمير المنصوب في « ألزمها » عائد إلى الغرائز ، أى ألزم الغرائز أشباحها ، أى أشخاصها ، جمع شَبَح ، وهذا حق ؛ لأن كلاً مطبوع على غريزة لازمة ، فالشجاع لا يكون جباناً ، والبخيل لا يكون جواداً ؛ وكذلك كل الغرائز لازمة لا تنتقل .

وقوله : « عالمًا بها قبل ابتدائها » ، إشارة إلى أنه عالم بالأشياء فيما لم يزل .

وقوله : « محيطاً بحدودها وانتهائها » أى بأطرافها ونهاياتها .

وقوله : « عارفاً بقرائنها وأحنائها » ، القرائن : جمع قَرُونَة^(٢) ، وهى النفس . والأحناء :

الجوانب ، جمع حَنُو ، يقول : إنه سبحانه عارف بنفوس هذه الغرائز التى ألزمها أشباحها ، عارف بجهاتها وسائر أحوالها المتعلقة بها والصادرة عنها .

(١) ب : « ملثمة » ، وما أثبتته عن أ . (٢) ومنه قول أوس بن حجر :

فَلَا قَىْ امْرَأً مِنْ مَيِّدَعَانَ وَأَسْمَحَتِ قَرُونَتُهُ بِالْيَاسِ مِنْهَا فَمَعَجَلًا

أى طابت نفسه بتركها .

(٦ - شرح نهج البلاغة - أول)

فأما القطب الراوندى فإنه قال : معنى قوله عليه السلام : « كائن لآعن حدث ، موجود لا عن عدم » ، أنه لم يزل موجوداً ، ولا يزال موجوداً ، فهو باقٍ أبداً كما كان موجوداً أولاً ؛ وهذا ليس بجيد ، لأن اللفظ لا يدل على ذلك ولا فيه تعرض بالبقاء فيما لا يزال .

وقال أيضاً : قوله عليه السلام : « لا يستوحش » ، كلام مستأنف . ولقائل أن يقول : كيف يكون كلاماً مستأنفاً ، والهاء « فى فقهه » ترجع إلى « السكن » المذكور أولاً ! وقال أيضاً : يُقال : ماله فى الأمر همة ولا همة ؛ أى لا يهتم به ، والهمامة : التردد ، كالعزم . ولقائل أن يقول : العزم هو إرادة جازمة حصلت بعد التردد ، فبطل قوله : إن الهمامة هى نفس التردد كالعزم . وأيضاً فقد بينا مراده عليه السلام بالهمامة ؛ حكى زُرْقَان^(١) فى كتاب « المقالات » ، وأبو عيسى الوراق^(٢) ، والحسن بن موسى^(٣) ، وذكره شيخنا أبو القاسم البلخى^(٤) فى كتابه فى « المقالات » ، أيضاً عن الثنوية : أن النور الأعظم اضطربت عزائم وإرادته فى غزو الظلمة والإغارة عليها ، فخرجت من ذاته قطعة - وهى الهمامة المضطربة فى نفسه - فخالطت الظلمة غازية لها ، فاقتطعتها الظلمة عن النور الأعظم ، وحالت بينها وبينه ، وخرجت هامة الظلمة غازية للنور الأعظم ، فاقتطعتها النور الأعظم عن الظلمة ، ومزجها بأجزائه ، وامتزجت هامة النور بأجزاء الظلمة أيضاً ، ثم ما زالت الهمامتان تتقاربان

(١) هو زُرْقَان المتكلم ؛ تلميذ إبراهيم بن سيار النظام ؛ وقد حكى زُرْقَان عن النظام أقوالاً فى الفرق بين الفرق ٥٠ - ٥١ ، وذكره المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٤٢ .

(٢) هو أبو عيسى محمد بن هارون الوراق ؛ كان من نظارى المعتزلة ؛ وله تصانيف على مذهبهم . توفى سنة ٢٤٧ . لسان الميزان ٥ : ٤١٢ .

(٣) هو أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى ؛ من متكلمي الإمامية ؛ وذكره الطوسى فى طبقاتهم ؛ عاش فى القرن الثالث . لسان الميزان ٢ : ٢٥٨ ، روضات الجنات ٣١ ، تنقيح المقال ١ : ٣١٢ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخى السكبي ؛ شيخ المعتزلة ، وكان على رأس طائفة منهم يقال لهم السكبية ؛ توفى سنة ٣١٩ . ابن خلكان ١ : ٢٥٢

وتتدانيان وهما متمزجتان ، بأجزاء هذا وهذا ؛ حتى انبني منهما هذا العالم المحسوس . ولهم في
الهمامة كلام مشهور ؛ وهي لفظة اصطلاحوا عليها ، واللغة العربية ماعرفنا فيها استعمال الهمامة
بمعنى الهمّة ، والذي عرفناه الهمّة والهمّة بالكسر والفتح - والهمّة ، وتقول : لا همّ لي
بهذا الأمر ، مبنى على الكسر كقطّام ، ولكنّها لفظة اصطلاحية مشهورة عند أهلها .

الأصل :

ثُمَّ أُنشَأُ سُبْحَانَهُ فَتَنَى الْأَجْوَاءَ ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ ؛ وَسَكَتِ الْهَوَاءُ ، فَأَجْرَى ^(١)
فِيهَا مَاءٌ مُتَلَطِّمًا تَيَّارُهُ ، مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ ، وَالزَّعْزَعِ
الْفَاصِفَةِ ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ ، وَسُلْطَهَا عَلَى شِدِّهِ ، وَقَرَّبَهَا إِلَى حَدِّهِ ؛ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا
فَتِيقٌ ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ . ثُمَّ أُنشَأُ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبُهَا ، وَأَدَامَ مُرَبَّهَا ،
وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا ، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا ؛ فَأَمَرَهَا بِتَضْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبَحَارِ ،
فَمَخْضَتِهِ خُضَّ السَّقَاءِ ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ ؛ تَرَدُّ أَوَّلُهُ عَلَى آخِرِهِ ، وَسَاجِيَهُ
عَلَى مَآثِرِهِ ، حَتَّى عَبَّ عُبابُهُ ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ ،
وَجَوٍّ مُنْفَتِقٍ ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَمَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا ؛ وَعُلْيَاهُنَّ
سَقْفًا مَحْفُوفًا ، وَتَمَكَّنَ مَرْفُوعًا ؛ بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا ، وَلَا دِسَارٍ يَنْتِظِمُهَا ^(٢) . ثُمَّ زَيَّنَهَا
بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَضِيَاءِ الثُّوَاقِبِ ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا ، وَقَمَرًا مُنِيرًا ،
فِي فَلَكَ دَائِرٍ ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ .

(١) : ١ : « فأجاز » ، وكذلك في مخطوطة النهج .

(٢) : ١ ، ج : « إلى » ، وكذلك في مخطوطة النهج .

(٣) : ج : « ينظمها » .

الشَّيْخُ :

لسائل أن يسأل فيقول : ظاهرُ هذا الكلام أنه سبحانه خلق الفضاء والسموات بعد خلق كل شيء ؛ لأنه قد قال قبل : « فَطَرَ الْخَلَائِقَ ، ونشر الرياح ، ووتد الأرض بالجبال » ، ثم عاد فقال : أنشأ الخلق إنشاءً ، وابتدأه ابتداءً ، وهو الآن يقول : « ثم أنشأ سبحانه فتتق الأجواء » ، ولفظة « ثم » للتراخي !

فالجواب أن قوله ^(١) : « ثم » هو تعقيب وتراخي ، لا في مخلوقات الباري سبحانه ، بل في كلامه عليه السلام ؛ كأنه يقول : ثم أقول الآن بعد قولي المتقدم : إنه تعالى أنشأ فتتق الأجواء . ويمكن أن يقال : إن لفظة « ثم » هاهنا تُعطى معنى الجمع المطلق كالواو ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ ^(٢) .

واعلم أن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل يشتمل على مباحث : منها : أن ظاهرَ لفظة أن الفضاء الذي هو الفراغ الذي يحصل فيه الأجسام خلقه الله تعالى ولم يكن من قبل ؛ وهذا يقتضى كونَ الفضاء شيئاً ؛ لأن المخلوق لا يكون عدماً محضاً . وليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، وجعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام . ومنهم من جعله مجرداً .

فإن قيل : هذا الكلام يُشعر بأن خلق الأجسام في العدم المحض قبل خلق الفضاء ليس بممكن ، وهذا يناقض العقل !

قيل : بل هذا هو محض مذهب الحكماء ، فإنهم يقولون : إنه لا يمكن وجود جسم

(١) كنزاً ١ ، ج ، وفي ب : « فالجواب قوله » .

(٢) سورة طه ٨٢ .

ولا حركةُ جسمٍ خارجِ الفلكِ الأقصى؛ وليس ذلك إلا لاستحالة وجود الأجسام وحركتها،
إلا في الفضاء .

ومنها : أن الباري — سبحانه — خلق في الفضاء الذي أوجده ماء جعله على متن الريح،
فاستقلّ عليها، وثبت وصارت مكاناً له ، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحاً أخرى سلّطها عليه ،
فموجّهته تمويجاً شديداً حتى ارتفع ، فخلق منه السموات . وهذا أيضاً قد قاله قوم من
الحكماء ؛ ومن جملة من تاليس الإسكندرانيّ ؛ وزعم أنّ الماء أصل كلّ^(١) العناصر ؛
لأنّه إذا انجمد صار أرضاً ، وإذا لَطَف صار هواء ، والهواء يستحيل ناراً ؛ لأنّ النار
صفوة الهواء .

ويقال : إن في التوراة في أول السّفر الأول كلاماً يناسب هذا ؛ وهو أنّ الله تعالى
خلق جوهرأ ، فنظر إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ارتفع من ذلك الماء
بخارٌ كال دخان،^(٢) فخلق منه السموات؛ وظهر على وجه ذلك الماء زَبَدٌ^(٣)، فخلق منه الأرض،
ثم أرساها بالجبال .

ومنها : أنّ السماء الدّنيا مَوْج مكفوف، بخلاف السموات الفوقانية. وهذا أيضاً قول
قد ذهب إليه قوم، واستدلّوا عليه بما نُشاهد^(٤) من حركة الكواكب المتحرّية وارتعادهما
في مرأى^(٥) العين واضطرابها؛ قالوا : لأنّ المتحرّية متحركة في أفلاكها ؛ ونحن نشاهدها
بالحسن البصريّ ، وبيننا وبينها أجرام الأفلاك الشفّافة ، ونشاهدها مرتعدة حسب ارتعاد
الجسم السائر في الماء ؛ وما ذاك إلا لأنّ السماء الدنيا ماء ممتوّج ، فارتعاد الكواكب

(٢ - ٢) ساقط من أ .

(٤) أ : « مرأى » .

(١) كلمة « كل » ساقطة من أ .

(٣) ب : « شاهده » .

المشاهدة حساً إنما هو بحسب ارتعاد أجزاء الفلك الأدنى. قالوا: فأما الكواكب الثابتة فإننا^(١) لم نشاهدها كذلك؛ لأنها ليست بمتحركة، وأما القمر وإن كان في السماء الدنيا؛ إلا أن فلك تدويره من جنس الأجرام الفوقانية؛ وليس بماء متموج كالفلك الممثل التحتاني. وكذلك القول في الشمس.

ومنها: أن الكواكب في قوله: «ثم زينها بزينة الكواكب» أين هي؟ فإن اللفظ محتمل، وينبغي أن يتقدم على ذلك بحث في أصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾^(٢)!

فنقول: إن ظاهر هذا اللفظ أن الكواكب في السماء الدنيا، وأنها جعلت فيها حراسة للشياطين من استراق السمع؛ فمن دنا منهم لذلك رُجم بشهاب؛ وهذا هو الذي يقتضيه ظاهر اللفظ. ومذهب الحكماء أن السماء الدنيا ليس فيها إلا القمر وحده؛ وعندهم أن الشهب المنقضة هي آثار تظهر في الفلك الأثيري الناري الذي تحت فلك القمر، والكواكب لا ينقض منها شيء، والواجب التصديق بما في ظاهر لفظ الكتاب العزيز، وأن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على مطابقته، فيكون الضمير في قوله: «زينها» راجعاً إلى «سفلاهن»؛ التي قال: «إنها موج مكفوف»، ويكون^(٣) الضمير في قوله: «وأجرى فيها» راجعاً إلى جملة السموات؛ إذا وافقنا الحكماء في أن الشمس في السماء الرابعة.

ومنها: أن ظاهر الكلام يقتضي أن خلق السموات بعد خلق الأرض؛ ألا تراه كيف لم يتعرض فيه لكيفية خلق الأرض أصلاً. وهذا قول قد ذهب إليه جماعة من أهل الملّة،

(٢) سورة الصافات ٦، ٧.

(١) ب ١: «فإنما».

(٣) ١: «فيكون».

واستدلّوا^(١) عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(٣).

ومنها: أن الهاء في قوله: «فرفعه في هواء منفثق» والهاء في قوله: «فسوى منه سبع سموات» إلى ماذا ترجع؟ فإن آخر المذكورات قبلها «الزبد». وهل يجوز أن تكون السموات مخلوقة من زبد الماء؟ الحق أن الضمائر ترجع إلى الماء الذي عبّ عبابه؛ لا إلى الزبد؛ فإن أحداً لم يذهب إلى أن السماء مخلوقة من زبد الماء؛ وإنما قالوا: إنها مخلوقة من بخاره.

ومنها: أن يقال إن الباري سبحانه قادر على خلق الأشياء إبداعاً واختراعاً؛ فما الذي اقتضى أنه خلق المخلوقات على هذا الترتيب؟ وهلاً أوجدها إيجاد الماء الذي ابتدعه أولاً من غير شيء!

فيقال في جواب ذلك على طريق أصحابنا: لعل إخباره للمكفّين بذلك على هذا الترتيب يكون لطفاً بهم^(٤)، ولا يجوز الإخبار منه تعالى إلا والخبر عنه مطابق للإخبار. فهذا حظ المباحث المعنوية من هذا الفصل.

ثم نشرع في تفسير ألفاظه:
أما الأجواء فجمع جَوٍّ، والجوّ هنا الفضاء العالى بين السماء والأرض. والأرجاء:

(١) ١: «استدلوا».

(٣) سورة فصات ١٠.

(٢) سورة فصات ٩.

(٤) كذا في ج، وفي أ، ب: «لهم».

الجوانب ، واحدها رجا مثل عصا . والسكائلك : جمع سُكَاكَة ؛ وهى أعلى الفضاء ، كما قالوا : ذُوَابَة وذوائب . والقيّار : الموج . والمتراكم : الذى بعضه فوق بعض . والزّخار : الذى يزّخر ، أى يمتدّ ويرتفع .. والريح الزعزع : الشديدة المبوب ، وكذلك القاصفة ؛ كأنها تهلك الناس بشدة هبوبها . ومعنى قوله : « فأمرها برده » ، أى بمنعه عن الهبوط ؛ لأنّ الماء ثقيل ، ومن شأن الثقل الهوى . ومعنى قوله : « وسلّطها على شدة » أى على وثاقه ؛ كأنه سبحانه لما سلّط الريح على منعه من الهبوط ؛ فكأنه قد شدّه بها وأوثقه ومنعه من الحركة . ومعنى قوله : « وقرنها إلى حدّه » ، أى جعلها مكاناً له ؛ أى جعل حدّ الماء المذكور — وهو سطحه الأسفل — مماسطح الريح التى تحمله وتقلّه . والفتيق : المفتوق المنبسط . والدفيق : المدفوق . واعتقم مهبّها ، أى جعل هبوبها عقيماً ، والريح العقيم : التى لا تُلقحُ سحاباً ولا شجراً ؛ وكذلك كانت تلك الريح المشار إليها ؛ لأنّه سبحانه إنما خلقها لتوزيع الماء فقط . وأدام مُربّها ، أى ملازمها ، أربّ بالمكان مثل ألبّ به ، أى لازمه .

ومعنى قوله : « وعصفت به عصفها بالفضاء » ، فيه ^(١) معنى لطيف ؛ يقول : إنّه الريح إذا عصفت بالفضاء الذى لا أجسام فيه كان عصفها شديداً لعدم المانع ؛ وهذه الريح عصفت بذلك الماء العظيم عصفاً شديداً ؛ كأنها تعصفُ فى فضاء لا ممانع لها فيه من الأجسام . والساجى : الساكن . والمائر : الذى يذهب ويحى . وعبّ عبّابه : أى ارتفع أعلاه . ورُكّامه : تَبَجّه وهَضْبُهُ ^(٢) . والجوّ المنفوق : المفتوح الواسع . والموج المكفوف : المنوع من السّيلان . وعمدّ يدّعُمها : يكون لها دِعامَة . والدّسار : واحد الدُّسُر وهى المسامير . والثواقب النّيّرة : المشرقة . وسراجاً مستطيراً ، أى منتشر الضوء ؛ يقال : قد استطار

(٢) ب : « هضبته » .

(١) كلمة « فيه » ساقطة من ب .

الفجر ، أى انتشر ضوءه. ورقم مائر ، أى لوح متحرك ؛ سُمى الفلك رقيا تشبيهاً بالوح ، لأنه مسطح .

* * *

فَأَمَّا الْقُطْبُ الرَّائِدِي فَقَالَ : إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ قَبْلَ هَذِهِ السَّكَلَاتِ أَنَّهُ أَنْشَأَ حَيَوَانًا لَهُ أَعْضَاءٌ وَأَحْنَاءُ ، ثُمَّ ذَكَرَ هَاهُنَا أَنَّهُ فَتَقَ السَّمَاءَ ، وَمَيَّزَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ مَسِيرَةٌ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَهِيَ سَبْعُ سَمَوَاتٍ ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَأَرْضٍ ، وَهِيَ سَبْعٌ أَيْضًا . وَرَوَى حَدِيثَ الْبَقَرَةِ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَلَكَ الْحَامِلَ لِلْعَرْشِ ، وَالصَّخْرَةَ الَّتِي تَحْمِلُ الْبَقَرَةَ ، وَالْحَوْتَ الَّذِي يَحْمِلُ الصَّخْرَةَ .

ولقائل أن يقول : إنه عليه السلام لم يذكر فيما تقدم أن الله تعالى خلق حيوانا ذا أعضاء ، ولا قوله الآن : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ ۝ (١) ، ألا تراه كيف صرح عليه السلام بأن البارئ سبحانه خلق الهواء الذي هو الفضاء ، وعبر عن ذلك بقوله : « ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء » ، وليس فتق الأجواء هو فتق السماء !

فإن قلت : فكيف يمكن التطبيق بين كلامه عليه السلام وبين الآية ؟

قلتُ : إنه تعالى لما سلط الريح على الماء فعمصتْ به ، حتى جعلته بخاراً وزبْداً ، وخلق من أحدهما السماء ومن الآخر الأرض ؛ كان فائتقاً لهما من شيء واحد ، وهو الماء .

فَأَمَّا حَدِيثُ الْبَعْدِ بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَكَوْنِهِ مَسِيرَةَ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ ، فَقَدْ وَرَدَ وَرُودًا لَمْ يُوثَّقْ بِهِ ؛ وَأَكْثَرُ^(٢) النَّاسِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ. وَكَوْنُ الْأَرْضِ سَبْعًا أَيْضًا

(۱) مسوؤلیت الایندیان ۳۰

(۲) ۱ : « فَاكْثِرْ » ، وَمَا أَتَيْتَهُ عَنْ ۱ ، ب

خلاف مايقوله جمهور العقلاء ، وليس في القرآن العزيز مايدل على تعدد الأرض إلاقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ^(١) ، وقد أولوه على الأقاليم السبعة . وحديث الصخرة والحوت والبقرة من الخرافات في غالب الظن ، والصحيح أن الله تعالى يُبسِّك السَّكَل بغير واسطة جسم آخر .

ثم قال الراوندي : السَّكَاك : جمع سُكَاك ، وهذا ^(٢) غير جائز ، لأن «فعلا» لا يجمع على « فعاثل » ؛ وإنما هو جمع سُكَاكَة ، ذكر ذلك الجوهري ^(٣) .
ثم قال : « وسلطها على شدّه » ، الشدّ : العدو . ولا يجوز حمل الشدّ هاهنا على العدو ؛ لأنه لا معنى له ، والصحيح ما ذكرناه .

وقال في تفسير قوله عليه السلام : « جعل سُفْلَاهنَّ موجاً مكفوفا » ، أراد تشبيهها بالموج لصفاتها واعتلائها . فيقال له : إنَّ الموج ليس بعالٍ ليُشَبَّه به الجسم العالى ، وأما صفاءه فإنَّ كلَّ السموات صافية ، فلماذا خصَّ سُفْلَاهنَّ بذلك !

ثم قال : ويمكن أن تكون السماء السُّفلى قد كانت أول ما وجدت موجاً ثم عَقَّدها . يقال له : والسموات الأخر كذلك كانت ، فلماذا خصَّ السُّفلى بذلك !

ثم قال : الريح الأولى غير الريح الثانية ، لأنَّ إحداها معرفة والأخرى نكرة ؛ وهذا مثل قوله : صم اليوم ، صم بوما ، فإنه يقتضى يومين .

يقال له : ليست المفارقة بينهما مستفادة من مجرد التعريف والتنكير ، لأنه لو كان قال

(١) سورة الطلاق ١٢

(٢) ب : « وهو » وما أثبتته عن ا

(٣) الصحاح ص ١٥٩١ ، والذي فيه : « والسكك والسكاكة : الهواء الذى يلاق أعنان السماء » .

عليه السلام : « وحمله على متن ربح عاصفة وزعزع قاصفة » لكنت الريحان : الأولى والثانية منكرتين معاً ، وهما متغايرتان ، وإنما علمنا تغايرهما ، لأنَّ إحداهما تحت الماء والأخرى فوقه ، والجسم الواحد لا يكون في جهتين .

الأصل :

ثُمَّ فَتَقَّ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا ، فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَاراً مِنْ مَلَائِكَتِهِ ؛ مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَضِبُونَ ، وَصَافُونَ لَا يَتَزَايِلُونَ ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ ، لَا يَفْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ ، وَلَا سَهُوُ الْعُقُولِ ، وَلَا فِتْنَةُ الْأَبْدَانِ ، وَلَا غَفْلَةُ النَّسِيَانِ .

وَمِنْهُمْ أَمَنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ ، وَالسَّيْنَةُ إِلَى رُسُلِهِ ، وَخُتَلَفُونَ بِقَضَائِهِ ^(١) وَأَمْرِهِ . وَمِنْهُمْ الْخَفِظَةُ لِعِبَادِهِ ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ . وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِ وَالسَّفَلَى أَقْدَامُهُمْ ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ ، وَالْمُخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَائُهُمْ ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ ، نَاكِسَةُ دُونِهِ أَبْصَارُهُمْ ، مُتَلَفِعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَأَسْتَارُ الْقُدْرَةِ ؛ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ ، وَلَا يُحْدِثُونَ بِالْأَمَّاكِنِ ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ .

[القول في الملائكة وأقسامهم]

الشرح :

الملك عند المعتزلة حيوان نوري ؛ فمنه شفاف عادم اللون كالهواء ، ومنه ملون بلون الشمس . والملائكة عندهم قادرون عالمون أحياء بعلوم وقدر وحياة ؛ كالواحد منا ، ومكلفون كالواحد منا ، إلا أنهم معصومون . ولهم في كيفية تكليفهم كلام ؛ لأنَّ التكليف

(١) مخطوطة النهج : « لقضائه » .

مبنىّ على الشهوة .

وفي كيفية خَلْق الشهوة فيهم نظر ، وليس هذا الكتاب موضوعاً للبحث في ذلك .
وقد جعلهم عليه السلام في هذا الفصل أربعة أقسام :

القسم الأول : أرباب العبادة ؛ فمنهم مَنْ هو ساجد أبداً لم يقم من سجوده ليركع ،
ومنهم من هو راكع أبداً لم ينتصب قطّ ، ومنهم الصافّون في الصلاة بين يدي خالقهم
لأنّ يتزايون ، ومنهم المسبّحون الذين لا يملّون التسبيح والتحميد له سبحانه .

والقسم الثاني : السُّقراء بيده تعالى وبين المكلفين من البشر بتحمّل الوحي الإلهيّ
إلى الرسل ، والمختلفون بقضائه وأمره إلى أهل الأرض .

والقسم الثالث ضربان : أحدهما حَفَظَةُ العباد كالكرام الكاتبين ، وكالملائكة
الذين يحفظون البشر من المهالك والورطات ؛ ولولا ذلك لكان العطب أكثر من
السلامة ، وثانيهما سَدَنَةُ الجنان .

القسم الرابع : حَمَلَةُ العرش .

ويجب أن يكون الضمير في « دونه » - وهو الهاء - راجعاً إلى العرش لا إلى
البارئ سبحانه . وكذلك الهاء في قوله : « تحته » . ويجب أن تكون الإشارة بقوله :
« وبين مَنْ دونهم » إلى الملائكة الذين دون هؤلاء في الرتبة .

فأما ألفاظ الفصل فكلمها غنيّة عن التفسير إلا يسيراً ، كالسَدَنَةُ جمع سادِن وهو
الخادم ، والمارق : الخارج . وتلفّعت بالثوب ، أى التحفّت به .

وأما^(١) القطب الراونديّ لجعل الأئمّة على الوحي وحَفَظَةُ العباد وسَدَنَةُ الجنان

قسماً واحداً ، فأعاد الأقسام الأربعة إلى ثلاثة . وليس بجيد ، لأنه قال : « ومنهم الحفظة » ، فلفظة « ومنهم » تقتضى كون الأقسام أربعة ؛ لأنه بها فصل بين الأقسام . وقال أيضاً : معنى قوله عليه السلام : « لا يغشاهم نوم العيون » يقتضى أن لهم نوما قليلا لا يغفلهم عن ذكر الله سبحانه ، فأما الباري سبحانه فإنه لا تأخذه سنة ولا نوم أصلا ، مع أنه حيٌّ ، وهذه هي المدحة العظمى .

ولقائل أن يقول : لو ناموا قليلا لسكانوا زمان ذلك النوم - وإن قلَّ - غافلين عن ذكر الله سبحانه ؛ لأنَّ الجمع بين النوم وبين الذكر مستحيل . والصحيح أن الملك لا يجوز عليه النوم ، كما لا يجوز عليه الأكل والشرب ؛ لأنَّ النوم من توابع المزاج ، والملك لا مزاج له . وأما مدحُ الباري بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم فنخرج عن هذا الباب ، لأنه تعالى يستحيل عليه النوم استحالة ذاتية ، لا يجوز تبدلها ، والملك يجوز أن يخرج عن كونه ملكا ، بأن يُخلق في أجزاء جسمه رطوبة ويبوسة ، وحرارة وبرودة ، يحصل من اجتماعها مزاج ، ويتبع ذلك المزاج النوم . فاستحالة النوم عليه إنما هي ما دام ملكا ، فهو كقولك : الماء بارد ، أى ما دام ماء ؛ لأنه يمكن أن يستحيل هواء ثم نارا ، فلا يكون باردا ، لأنه ليس حينئذ ماء . والباري جلَّ عظمتُه يستحيل على ذاته أن يتغيَّر ، فاستحال عليه النوم استحالة مطلقة ، مع أنه حيٌّ ، ومن هذا إنشاء التمدح . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنَّ الله خلق الخلق أربعة أصناف : الملائكة ، والشیاطين ، والجنّ ، والإنس . ثم جعل الأصناف الأربعة عشرة أجزاء ، فتسعة منها الملائكة وجزء واحد الشیاطين والجنّ والإنس ، ثم جعل هؤلاء الثلاثة عشرة أجزاء ، فتسعة منها الشیاطين وجزء واحد الجنّ والإنس ، ثم جعل الجنّ والإنس عشرة أجزاء ، فتسعة منها الجنّ وجزء واحد الإنس » .

وفي الحديث الصحيح : إن الملائكة كانت تصافح عمران بن الحصين وتزوره ، ثم افتقدها ، فقال : يا رسول الله ، إن رجالا كانوا يأتونني لم أر أحسن وجوهاً ، ولا أطيّب أرواحاً منهم ، ثم انقطعوا . فقال عليه السلام : « أصابك جرح فكننت تسكتمه » ؟ فقال : أجل ، قال : « ثم أظهرته » ؟ قال : أجل ، قال : « أمّا لو أقمت على كتمانك لزارتك الملائكة إلى أن تموت » ؛ وكان هذا الجرح أصابه في سبيل الله .

وقال سعيد بن المسيّب وغيره : للملائكة ليسوا بذكور ولا إناث ، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون ، والجنّ يتوالدون وفيهم ذكور وإناث ويموتون ، والشياطين ذكور وإناث ويتوالدون ، ولا يموتون حتى يموت إبليس .

وقال النبي صلى الله عليه وآله في رواية أبي ذرّ : « إني أرى ملائكة ترون ، وأسمع ملائكة تسمعون ، أظنّ السماء وحقّ لها أن تنطق ^(١) فما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد واضع جبهته لله . والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، وما تلذّتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الفلوات تجأرون إلى الله . والله لوددت أني كنت شجرة تُعَصَّد » ^(٢) .

قلت : ويوشك هذه الكلمة الأخيرة أن تكون قول أبي ذرّ .
وانتفى أهل الكتب على أن رؤساء الملائكة وأعيانهم أربعة : جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ وهو ملك الموت . وقالوا : إن إسرافيل صاحب الصور وإليه النفخة ، وإن ميكائيل صاحب النبات والمطر ، وإن عزرائيل على أرواح الحيوانات ، وإن جبرائيل على جنود السموات والأرض كلّها ، وإليه تدبير الرياح ، وهو ينزل إليهم كلّهم بما يؤمرون به .

(١) ذكره ابن الأثير في النهاية ١ : ٣٥ ، وقال : « الأظيط : صوت الأفتاب ، وأظيط الإبل : أصواتها وحينئذ ؛ أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أنقلها حتى أظط ؛ وهذا مثل وإبذان بكثرة الملائكة ؛ وإن لم يكن ثم أظيط ؛ وإنما هو كلام تقريب ، أريد به تقرير عظمة الله تعالى .

(٢) تعصّد : تقطع ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ١٠٤ .

وروى أنس بن مالك أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ماهؤلاء الذين استثنى بهم في قوله تعالى : ﴿ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾؟^(١) فقال : « جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ؛ فيقول الله عز وجل لعزرائيل : ياملك الموت ، مَنْ بَقِيَ ؟ وهو سبحانه أعلم - فيقول : سبحانه ربّي ذا الجلال والإكرام ! بَقِيَ جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ؛ فيقول : ياملك الموت ، خذ نفس إسرافيل ، فيقع في صورته التي خلق عليها كأعظم ما يكون من الأطوار ، ثم يقول : - وهو أعلم - مَنْ بَقِيَ ياملك الموت ؟ فيقول : سبحانه ربّي إذا الجلال والإكرام ! جبرائيل وميكائيل وملك الموت ، فيقول : خذ نفس ميكائيل ، فيقع في صورته التي خلق عليها ، وهي أعظم ما يكون من خلق إسرافيل بأضعاف مضاعفة . ثم يقول سبحانه : ياملك الموت ، مَنْ بَقِيَ ؟ فيقول : سبحانه ربّي ذا الجلال والإكرام : جبرائيل ، وملك الموت ، فيقول تعالى : ياملك الموت ، مت فيموت ، ويبقى جبرائيل - وهو من الله تعالى بالمكان الذي ذكر لكم - فيقول الله : يا جبرائيل ، إنه لا بدّ من أن يموت أحدنا ، فيقع جبرائيل ساجدا يخفق بجناحيه ، يقول : سبحانه ربّي وبحمدك ! أنت الدائم القائم الذي لا يموت ؛ وجبرائيل الهالك الميّت الفاني ، فيقبض الله روحه ، فيقع على ميكائيل وإسرافيل ، وإنّ فضل خلقه على خلقهما كفضل الطّود العظيم على الطّراب^(٢) من الطّراب . وفي الأحاديث الصحيحة أنّ جبرائيل كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله على صورة دحية الكلبيّ ، وأنّه كان يوم بدر على فرس اسمه حيزوم ، وإنّه سُمِعَ ذلك اليوم صوته : أَقْدِمُ حَيْزُومَ^(٣) .

(١) سورة الزمر ٦٨

(٢) الطرب ككتف : الجبل الصغير .

(٣) الخبر في اللسان (حزم) ؛ وفيه : « أراد أقدم يا حيزوم ؛ لحذف حرف النداء ، والياء فيه

« زائدة » .

والكروبيون^(١) عند أهل الملة سادة الملائكة ، كجبرائيل وميكائيل . وعند الفلاسفة أن سادة الملائكة هم الروحانيون - يعنون العقول الفعالة وهي المفارقة للعالم الجسماني المسلوقة التعلق به ، لا بالحواس ولا بالتدبير . وأما الكروبيون فدون الروحانيين في المرتبة وهي أنفس الأفلاك المدبرة لها ، الجارية منها مجرى نفوسنا مع أجسامنا .

ثم هي على قسمين : قسم أشرف وأعلى من القسم الآخر ، فالقسم الأشرف ما كان نفساً ناطقة غير حالة في جرم الفلك ، كأنفسنا بالنسبة إلى أبداننا . والقسم الثاني ما كان حالاً في جرم الفلك ، ويجرى ذلك مجرى القوى التي في أبداننا ، كالحواس المشتركة والقوة الباصرة .

الأفضل :

منها في صفة خلق آدم عليه السلام :

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزَنِ الْأَرْضِ وَسَهْلِهَا ، وَعَظْمِهَا وَسَبَخِهَا ، تُرْبَةً سَنَهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ ، وَلَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ ذَاتِ أَخْفَاءٍ ، وَوُضُوءٍ وَأَعْضَاءٍ ، وَفُضُولٍ أَجْهَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَصَلَتْ ، لَوْقَتٍ مَعْدُودٍ ، وَأَجَلٍ مَعْلُومٍ .

ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثَلَتْ^(٢) إِنْسَانًا ذَا أَذْهَانٍ يُحِيلُهَا ، وَفِكْرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا ، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا ، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ، وَمَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِ ، وَالْأَلْوَانِ وَالْأَجْنَاسِ ، مَعْجُونًا بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ،

(١) الكروبيون ، مخففة الراء - على ما قاله صاحب القاموس - : هم أقرب الملائكة إلى حمة العرش ؛ وأصله من الكرب وهو القرب ؛ قال أمية :

ملائكة لا يفترون عبادة كروبية منهم ركوع وسجود

(٢) غطولة النهج : « فثلت » .

«وَالْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ»^(١)، وَالْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْخُرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ، وَالْمَسَاءَةِ وَالشَّرُورِ.

وَأَسْتَأْدَى اللَّهُ سُجَّانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِيَّاهُمْ، فِي الْإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَسْكِرِ مَتْنِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾^(٢) وَقَبِيلَهُ؛ أَعْتَرَتْهُمْ الْحُمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقْوَةُ، وَتَعَزَّزُوا بِخَلْقَةِ النَّارِ، وَأَسْتَوْهَنُوا خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظْرَةَ اسْتِحْقَاقًا لِلْسَّخْطَةِ، وَاسْتِمَاتًا لِلْيَمِينَةِ، وَاجْزَأًا لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ^(٣).

الْمَشْرِخُ :

الْحَزْنُ : مَا غُلُظَ مِنَ الْأَرْضِ. وَسَبَخَهَا : مَامَلَحَ مِنْهَا. وَسَنَهَا بِالْمَاءِ، أَيْ مَلَسَهَا، قَالَ:
ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَفْ رَاءَ تَمَشُّي فِي مَرَمَرٍ مَسْنُونٍ^(٤)
أَيْ مَلَسَ. وَلَا طَاهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَطُتُ الْخَوْضَ بِالطَّيْنِ، أَيْ مَلَطْتُهُ وَطَيَّنْتُهُ بِهِ. وَالْبَلَّةُ
بِفَتْحِ الْبَاءِ، مِنَ الْبَلَالِ. وَلَزَبَتْ، بِفَتْحِ الزَّيْ، أَيْ التَّصَقَّتْ وَثَبَّتْ. فَجَبِلَ مِنْهَا،
أَيْ خَلَقَ. وَالْأَحْنَاءُ: الْجَوَانِبُ، جَمْعُ حِنُو. وَأَصْلُهَا: جَعَلَهَا صَلْدًا، أَيْ صَلْبًا مَتِينًا.
وَصَلَصَلَتْ: يَبَسَتْ، وَهُوَ الصَّلْصَالُ. وَيَخْتَدِمُهَا: يَجْعَلُهَا فِي مَآرِبِهِ وَأَوْطَارِهِ كَالْخَدَمِ الَّذِينَ
تَسْتَعْمَلُهُمْ وَتُسْتَعْدَى الْمَلَائِكَةُ وَدِيعَتُهُ: طَلَبُ مِنْهُمْ أَدَاءَهَا. وَالْخُنُوعُ:
الْخُضُوعُ. وَالشَّقْوَةُ، بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَفِي السِّكِّتَابِ الْعَزِيزِ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

(١ - ١) تكملة من مخطوطة النهج.

(٢) سورة البقرة ٣٤. (٣) سورة س ٨٠، ٨١.

(٤) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، من أبيات يشب فيها برملة بنت معاوية؛ كذا نسبة صاحب اللسان ١٧: ٨٨؛ ونقل عن ابن بري أنها تروى لأبي دهل.

(٧ - شرح نهج البلاغة - أول)

شَقَوْتُنَا^(١) . واستوهنوا : عدّوه واهنا ضعيفا . والنظرة ، بفتح النون وكسر الظاء : الإهمال والتأخير .

فأما معاني الفصل فظاهرة ، وفيه مع ذلك مباحث :

منها أن يقال : اللام في قوله : « لوقت معدود » بماذا تتعلق ؟

والجواب ، أنها تتعلق بمحذوف تقديره : « حتى صلصلت كائنة لوقت » ، فيكون الجار والمجرور في موضع الحال ، ويكون معنى الكلام أنه أصلدها حتى يبست وجفت معدة لوقت معلوم ، فنفتح حينئذ روحه فيها . ويمكن أن تكون اللام متعلقة بقوله : « فجبل » أي جَبَل وخلق من الأرض هذه الجنة لوقت ، أي لأجل وقت معلوم ، وهو يوم القيامة .

ومنها أن يقال : لماذا قال : « مِنْ حَزَنِ الْأَرْضِ وَسَهْلَهَا ، وَعَذْبَهَا وَسَبَخَهَا » ؟
والجواب ، أن المراد من ذلك أن يكون الإنسان مركّبا من طباع مختلفة ، وفيه استعداد للخير والشر ، والحسن والقبح .

ومنها أن يقال : لماذا أخر نفخ الروح في جثة آدم مدة طويلة ، فقد قيل : إنه بقي طينا تشاهده الملائكة أربعين سنة ، ولا يعلمون ما المراد به ؟

والجواب ، يجوز أن يكون في ذلك^(٢) لطف للملائكة ، لأنهم تذهب ظنونهم في ذلك^(٣) كلّ مذهب ، فصار كإزالة التشابهات الذي تحصل به رياضة الأذهان وتخريجها ، وفي ضمن ذلك يكون اللطف . ويجوز أن يكون في إخبار ذرّية آدم بذلك فيما بعد لطف بهم^(٤) ، ولا يجوز إخبارهم بذلك إلا إذا كان الخبر عنه حقاً .

(٢ - ٢) ساقط من ١ .

(١) سورة « المؤمنون » ١٠٦ .

(٣) ب : « لهم » .

ومنها أن يقال : ما المعنى بقوله : « ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ » ؟
الجواب ، أن النفس لما كانت جوهرًا مجردًا ، لا متجيزة ولا حالة في التخيّر حسن
لذلك نسبتها إلى الباري ، لأنها أقرب إلى الانساب إليه من الجمانيات ^(١) . ويمكن أيضًا
أن تكون لشرفها مضافة إليه ، كما يقال : بيت الله ، للكعبة وأما النفخ فعبارة عن إفاضة
النفس على الجسد ، ولما كان نفخ الريح في الوعاء عبارة عن إدخال الريح إلى جوفه ، وكان
الإحياء عبارة عن إفاضة النفس على الجسد ، ويستلزم ذلك حلول القوى والأرواح في الجثة
باطنا وظاهراً ، سُمّي ذلك نفخاً مجازاً .

ومنها أن يقال : ما معنى قوله : « معجونا بطينة الألوان المختلفة » ؟
الجواب ، أنه عليه السلام قد فسّر ذلك بقوله : « من الحرّ والبرد ، والبلّة والجود » ،
يعنى الرطوبة واليبوسة ؛ ومراده بذلك المزاج الذى هو كيفية واحدة حاصلة من كيفيات
مختلفة ، قد انكسر بعضها ببعض . وقوله : « معجوناً » صفة « إنساناً » . والألوان المختلفة ،
يعنى الضروب والفنون ، كما تقول ^(٢) : فى الدار ألوان من الفاكهة .

ومنها أن يقال : ما المعنى بقوله : « واستأدى الملائكة ودبعته لديهم » ؟ وكيف كان
هذا العهد والوصية بينه وبينهم ؟
الجواب ، أن العهد والوصية هو قوله تعالى لهم : ﴿ إِنِّي خَالِقُ بَشَرٍ مِنْ طِينٍ * فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) يقال : جثان الرجل وجسمانه ، أى جسده .

(٢) ١ : « كما يقال » .

(٣) سورة ص ٧١ ، ٧٢ .

ومنها أن يقال : كيف كانت شبهة إبليس وأصحابه في التعرّز بخلقه النار ؟
الجواب ، لما كانت النار مشرقة بالذات والأرض مظلمة ، وكانت النار أشبه بالنور ،
والنور أشبه بالمجردات ، جعل إبليس ذلك حجة احتجّ بها في شرف عنصره على عنصر
آدم عليه السلام ، ولأنّ النار أقرب إلى الفلك من الأرض ، وكلّ شيء كان أقرب
إلى الفلك من غيره كان أشرف ، والبارئ تعالى لم يعتبر ذلك ، وفعل سبحانه ما يعلم
أنه المصلحة والصواب .

ومنها أن يقال : كيف يجوز السجود لغير الله تعالى ؟
والجواب ، أنه قيل : إنّ السجود لم يكن إلا لله تعالى ، وإنما كان آدم عليه السلام قبلة .
ويمكن أن يقال : إنّ السجود لله على وجه العبادة ، ولغيره على وجه التّكريم ؛ كما سجد
أبو يوسف وإخوته له . ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات في حسن ذلك وقبحه .

ومنها أن يقال : كيف جاز على ما تعتقدونه من حكمة البارئ أن يسلط إبليس على
المكلفين ؛ أليس هذا هو الاستفساد الذي تأبونه وتمنعونه !
والجواب ، أما الشيخ أبو عليّ رحمه الله فيقول : جدّ المفسدة ما وقع عند الفساد ،
ولولاه لم يقع مع تمكّن المكلف من الفعل في الحالين ، ومن فسد بدعاء إبليس لم يتحقق فيه
هذا الحدّ ، لأن الله تعالى علم أن كلّ من فسد عند دعائه ، فإنه يفسد ، ولو لم يدعه .
وأما أبو هاشم رحمه الله ، فيجدّ المفسدة^(١) بهذا الحدّ أيضا ، ويقول : إنّ في الإتيان
بالطاعة مع دعاء إبليس إلى القبيح مشقة زائدة على مشقة الإتيان بها ، ولو لم يدع إبليس إلى

(١) ج : « الفساد » .

القيبيح ، فصار الإتيان بها مع اعتبار دعاء إبليس إلى خلافه خارجاً عن الحدة المذكور ، وداخلا في حيز التمكن الذي لو فرضنا ارتفاعه لما صح من المكلف الإتيان بالفعل ، ونحن قلنا في الحدة مع تمكّن المكلف من الإتيان بالفعل في الحالتين .

ومنها أن يقال : كيف جاز للحكيم سبحانه أن يقول لإبليس : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ إلى يوم القيامة ! وهذا إغراء بالقيبيح ، وأنتم تمنعون أن يقول الحكيم لزيد : أنت لاتموت إلى سنة ، بل إلى شهر أو يوم واحد ، لما فيه من الإغراء بالقيبيح ، والعزم على التوبة قبل انقضاء الأمد .

والجواب ، أن أصحابنا قالوا : إن الباري تعالى لم يقل لإبليس : إني مُنْظَرُكَ إلى يوم القيامة ؛ وإنما قال : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ، وهو عبارة عن وقت موته واخترامه ، وكل مكلف من الإنس والجن مُنْظَرٌ إلى يوم الوقت المعلوم على هذا التفسير ، وإذا^(١) كان كذلك لم يكن إبليس عالماً أنه يبقى لا محالة ، فلم يكن في ذلك إغراء له^(٢) بالقيبيح . فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « وإِنْجَازاً لِلْعِدَّةِ » ؟ أليس معنى ذلك أنه قد كان وعده أن يُبْقِيَهُ إلى يوم القيامة !

قلت : إنما وعده الإنظار ، ويمكن أن يكون إلى يوم القيامة وإلى غيره من الأوقات ، ولم يبين له ، فهو تعالى أنجز له وعده في الإنظار المطلق ، وما من وقت إلا ويجوز فيه أن يُخْتَرَمَ إبليس^(٣) فلا يحصل الإغراء بالقيبيح . وهذا الكلام عفدنا ضعيف ، ولنا فيه نظر مذكور في كتبنا الكلامية .

(٢) كلمة « له » ساقطة من أ .

(١) أ : « فإذا » .

(٣) كلمة « إبليس » ساقطة من ب .

الأصل :

ثُمَّ أَسْكَنَ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عِيشَتَهُ ، وَأَمَّنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ ، وَحَذَرَهُ
إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ ، فَأَغْرَهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمَقَامِ ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ ، فَبَاعَ
الْيَقِينَ بِشَكِّهِ ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ ، وَأَسْتَبَدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًّا ، وَبِالْاعْتِزَالِ نَدَمًا .
ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةً رَحْمَتِهِ وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى
جَنَّتِهِ ؛ فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ ، وَتَنَاسَلَ الذُّرِّيَّةِ .

الشَّيْخُ :

أما الألفاظ فظاهرة ، والمعاني أظهر ، وفيها ما يُسأل عنه .

فمنها أن يقال : الفاء في قوله عليه السلام : « فَأَهْبَطَهُ » ، تقتضي أن تكون التوبة على
آدم قبل هبوطه من الجنة .

والجواب ، أن ذلك أحد قولَي المفسرين ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ
فَفَقَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا ﴾ ^(١) ، فجعل الهبوط بعد
قبول التوبة .

ومنها أن يقال : إذا كان تعالى قد طَرَدَ إِبْلِيسَ مِنْ ^(٢) الجنة لما أبى السجود ،
فكيف توصل إلى آدم وهو في الجنة حتى استنزله عنها بتحسين أكل الشجرة له !
الجواب ، أنه يجوز أن يكون إنما مُنِعَ من دخول الجنة على وجه التقريب والإكرام ،

(١) سورة طه ١٢١ - ١٢٣

(٢) كنّا في ج ، وفي ا ، ب : « عن الجنة » .

كدخول الملائكة ، ولم يمنع من دخولها على غير ذلك الوجه . وقيل : إنه دخل في جوف الحية ، كما ورد في التفسير .

ومنها أن يقال : كيف اشتبه على آدم الحال في الشجرة المنهى عنها بخالف النهى ! الجواب ، أنه قيل له : لا تقربا هذه الشجرة ؛ وأريد بذلك نوع الشجرة ، فحمل آدم النهى على الشخص ، وأكل من شجرة أخرى من نوعها .

ومنها أن يقال : هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام تصريح بوقوع المعصية من آدم عليه السلام ؛ وهو قوله : « فباع اليقين بشكك ، والعزيمة بوهنه » ، فما قولكم في ذلك ؟

. الجواب ، أما أصحابنا فإنهم لا يمتنعون من إطلاق العصيان عليه ، ويقولون : إنها كانت صغيرة ، وعندهم أن الصفائر جائزة على الأنبياء عليهم السلام . وأما الإمامية فيقولون : إن النهى كان نهى تنزيه لانهى تحريم ، لأنهم لا يميزون على الأنبياء الفلط والخطأ ، لا كبيرا ولا صغيرا ، وظواهر هذه الألفاظ تشهد بخلاف قولهم .

[اختلاف الأقوال في ابتداء خلق البشر]

واعلم أن الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان ، فذهب أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى إلى أن مبدأ البشر هو آدم ، الأب الأول عليه السلام . وأكثر ما في القرآن العزيز من قصة آدم مطابق لما في التوراة .

وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك :

أما الفلاسفة ، فإنهم زعموا أنه لا أول لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع . وأما الهند ، فمن كان منهم على رأى الفلاسفة فقولهم ما ذكرناه . ومن لم يكن منهم

على رأى الفلاسفة ويقول بحدوث الأجسام لا يُثبت آدم ، ويقول : إن الله تعالى خلق الأفلاك وخلق فيها طباعا محرّكة لها بذاتها ، فلما تحرّكت - وحشوها أجسام لاستحالة الخلاء - كانت تلك الأجسام على طبيعة واحدة ، فاختلفت طبائعها بالحركة الفلكية ، فكان القريب من الفلك المتحرّك أسخن وأطف ، والبعيد أبرد وأكثف . ثم اختلطت العناصر ، وتكوّنت منها المركّبات ، ومنها تسكوّن نوع البشر كما يتكوّن الدود فى الفاكهة واللحم ، والبق فى البطّانح والمواضع العفنة ، ثم تسكوّن بعض البشر من بعض التوالد ، وصار ذلك قانونا مستمرا ، ونُسِيَ التخليق الأول الذى كان بالتولّد^(١) . ومن الممكن أن يكون بعض البشر فى بعض الأراضى القاصية مخلوقا بالتولّد^(٢) ، وإنما انقطع التولّد ، لأن الطبيعة إذا وجدت للتسكوّن طريقا استغفت به عن طريق ثان .

وأما المجوس فلا يعرفون آدم ، ولا نوحا ، ولا ساما ، ولا حاما ، ولا يافث . وأوّل متكوّن عندهم من البشر البشرى^(٣) المسمى « كيومرث » ، ولقبه « كوشاه » ، أى ملك الجبل ، لأن « كو » هو الجبل بالفهلوية ، وكان هذا البشر فى الجبال . ومنهم من يسميه « كشاه » أى ملك الطين ، و « كل » اسم الطين ؛ لأنه لم يكن حينئذ بشر ليمسكهم . وقيل : تفسير « كيومرث » : حى ناطق ميت . قالوا : وكان قدرزق من الحسن ما لا يقع عليه بصر حيوان إلا وبهت وأُغمى عليه ، ويزعمون أن مبدأ تسكوّنه وحدوثه أن يزدان - وهو الصانع الأوّل عندهم - أفكر^(٤) فى أمر أهرمن ، - وهو الشيطان عندهم - فكرة أوجبت أن عرق جيئنه ، فمسح العرق ورعى به ، فصار منه كيومرث . ولهم خبط طويل فى كيفية تسكوّن « أهرمن » من فكرة « يزدان » أو من إعجابه بنفسه ، أو من توحشه ، وبينهم خلاف فى قِدَم « أهرمن » ، وحدوثه لا يلبق شرحه بهذا الموضع^(٥) .

(١) كذا فى ج ، وفى باقى الأصول : « التوالد » .

(٢) ب : « البشر » .

(٣) أفكر وفكر بالتشديد ، بمعنى .

(٤) انظر الشاهنامه ١٤ .

ثم اختلفوا في مدة بقاء كيومرث في الوجود ، فقال الآكثرون : ثلاثون سنة . وقال الأقلون : أربعون سنة . وقال قوم منهم : إن كيومرث مكث في الجنة التي في السماء ثلاثة آلاف سنة ، وهي : ألف الحمل ، وألف الثور ، وألف الجوزاء . ثم أهبط إلى الأرض فكان بها آمناً مطمئناً ثلاثة آلاف سنة أخرى ، وهي : ألف السرطان ، وألف الأسد ، وألف السنبلة .

ثم مكث بعد ذلك ثلاثين أو أربعين سنة في حرب وخصام بينه وبين أهرمن حتى هلك ^(١) .

واختلفوا في كيفية هلاكه ، مع اتفاقهم على أنه هلك قتلاً ، فالآكثرون قالوا : إنه قتل ابناً لأهرمن يُسمّى خزورة ، فاستغاث أهرمن منه إلى يزدان ، فلم يجد بداً من أن يقاصه به حفظاً لليهود التي بينه وبين أهرمن ، فقتله بابل أهرمن . وقال قوم : بل قتله أهرمن في صراع كان بينهما ، قهره فيه أهرمن ، وعلاه وأكله ^(٢) .

وذكروا في كيفية ذلك الصراع أن كيومرث كان هو القاهر لأهرمن في بادئ الحال ، وأنه ركبه وجعل يطوف به في العالم إلى أن سأله أهرمن : أى الأشياء أخوف له وأهولها عنده ؟ فقال له : باب جهنم ، فلما بلغ به أهرمن إليها جمح به حتى سقط من فوقه ، ولم يستمسك ، فعلاه وسأله عن أى الجهات يبتدىء به في الأكل ، فقال : من جهة الرجل لأنكون ناظراً إلى حسن العالم مدة ما ، فابتدأه أهرمن فأكله من عند رأسه ، فبلغ إلى موضع الخصى وأوعية المنى من الصلب ، فقطر من كيومرث قطراتاً نطقت على الأرض ، فنبتت منهما ريباستان ^(٣) في جبل بإصطخر يعرف بجبسل دام داذ ؛ ثم ظهرت على تينك الريباستين الأعضاء البشرية في أول الشهر التاسع ، وتمت في آخره ، فتصور منهما بشران : ذكر وأنثى ، وهما « ميشى » ، « وميشانه » ، وهما بمنزلة آدم وحواء عند الملائكة . ويقال لهما أيضاً : « ملهى » و « ملهيهانه » ، ويسميهما بجوس خوارزم : « مرد » و « مردانه » ،

(١) انظر الشاهنامة ١٤ .

(٢) الريباس ، بالكسر : نبت له عساليج غضة خضراء ، عراض الورق ، طعمها حامض مع قبض ، يعبث في الجبال ذات الثلوج والبلاد الباردة من غير زرع . العتمد ١٢٣

وزعموا أنهم مكثا خمسين سنة مستغنيين عن الطعام والشراب ، متعمين غير متأذين بشيء إلى أن ظهر لها أهرمن في صورة شيخ كبير ، فحملهما على التناول من فواكه الأشجار وأكل منها ، وهما يبصرانه شيخا ، فعاد شابا ، فأكلا منها حينئذ ، فوقعا في البلايا والشور ، وظهر فيهما الحرص حتى تزوجا ، وولد لهما ولد فأكلاه حرصا ، ثم ألقى الله تعالى في قلوبهما رافة ، فولد لهما بعد ذلك ستة أبطن ؛ كل بطن ذكر وأنثى ، وأسموهم في كتاب أبستا - وهو الكتاب الذى جاء به زرادشت - معروفة ، ثم كان في البطن السابع « سيامك » و « فرواك » ، فتزوجا ، فولد لهما الملك المشهور الذى لم يعرف قبله ملك وهو « أوشهنج » ، وهو الذى خلف جدّه كيومرث ، وعقد له التاج ، وجلس على السرير ، وبني مدينتي بابل والسوس .
فهذا ما يذكره الجوس في مبدأ الخلق .

[تصويب الزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم]

وكان في المساهين - ممن يرمى بالزندقة - من يذهب إلى تصويب إبليس في الامتناع من السجود ، ويفضّله على آدم ، وهو بشار بن برد المرعّث ^(١) ، ومن الشعر المنسوب إليه :

النَّارُ مُشْرِقَةٌ وَالْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذْكَاتِ النَّارِ ^(٢)

(١) في اللسان : « سمي بذلك لرعات كانت له في صغره في أذنه » . والرعات جمع رعشة ، وهى ماعلق في الأذن من قرط ونحوه . وروى صاحب الأغاني : وإنما سمي المرعّث بقوله :

قُلْتُ رِيمٌ مُرْعَثٌ سَاحِرُ الطَّرْفِ وَالنَّظَرِ
لَسْتُ وَاللَّهِ نَائِلِي قُلْتُ أَوْ يَغْلِبُ الْقَدَرُ
أَنْتَ إِنْ رُمْتَ وَصَلْنَا فَانْجُ ، هَلْ تُدْرِكُ الْقَمَرَ !

(٢) الأغاني ٣ :

وكان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ^(١)، أخو أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي، قاصاً لطيفاً وواعظاً مفوّهًا، وهو من خراسان من مدينة طوس، وقدم إلى بغداد، ووعظ بها، وسلك في وعظه مسلكاً منكراً، لأنه كان يتعصب لإبليس، ويقول: إنه سيّد الموحدين، وقال يوماً على المنبر: من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أمر أن يسجد لغير سيّده فأبى:

وَلَسْتُ بِضَارِعٍ إِلَّا إِلَيْكُمْ وَأَمَّا غَيْرُكُمْ حَاشَا وَكَلَّا

وقال مرة أخرى: لما قال له موسى: «أرني» فقال: «لن»^(٢) قال: هذا شغللك^(٣)، تصطفى آدم ثم تسود وجهه، وتخرجه من الجنة، وتدعوني إلى الطّور، ثم تُشمت بي الأعداء! هذا عملك بالأحباب^(٤)، فكيف تصنع بالأعداء^(٥)!

وقال مرة أخرى وقد ذكر إبليس على المنبر: لم يدرك ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حكّت أدمت، وأن قسيّ القدر إذا رمّت أصمت: ثم قال: لسان حال آدم ينشد في قصته وقصة إبليس:

وَكُنْتُ وَلِيْلِي فِي صُعُودٍ مِنَ الْهَوَى فَمَا تَوَافَيْنَا ثَبَتٌ وَزَلَّتْ

وقال مرة أخرى: التقى موسى وإبليس عند عقبة الطور، فقال موسى: يا إبليس، لِمَ لم تسجد لأدم؟ فقال: كَلَّا، ما كنت لأسجد لبشر، كيف أوحده ثم ألتفت إلى غيره! ولكنك أنت يا موسى سألت رؤيته ثم نظرت إلى الجبل، فأنا أصدق منك في التوحيد.

(١) ذكره ابن الحوزي في الجزء التاسع من المنتظم ص ٢٦٠؛ ضمن وفيات سنة ٥٢٠، وقال عنه: «الغالب على كلامه التخليط ورواية الأحاديث الموضوعة والحسكيات الفارغة والمعاني الفاسدة؛ وقد علق عنه كثير من ذلك». وذكره أيضاً ابن حجر في لسان الميزان ١: ٢٩٣.

(٢) يشير إلى قوله تعالى في قصة موسى من سورة الأعراف ١٤٣: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ آلِكَ قَالَ لَنْ تَرَآنِي فِي سَبِيلِكَ﴾.

(٣) المنتظم: «شأنك».

(٤) المنتظم: «الأخبار».

(٥) المنتظم ٩: ٢٦١.

وكان هذا النمط في كلامه ينفق على أهل بغداد ، وصار له بينهم صيت مشهور واسم كبير . وحكى عنه أبو الفرج بن الجوزي في " التاريخ " ، أنه قال على المنبر : معاشر الناس ، إني كنت دائماً أدعوكم إلى الله ، وأنا اليوم أحذركم منه ، والله ما شدت الزنا نير إلا في حبه ، ولا أدبت الجزية إلا في عشقه .

وقال أيضاً : إن رجلاً يهودياً أدخل عليه ليُسلم على يده ، فقال له : لا تسلم ، فقال له الناس : كيف تمنعه من الإسلام ! فقال : أحملوه إلى أبي حامد - يعني أخاه - ليعلمه « لا » ^(١) : لا المنافقين . ثم قال : ويحكم أظنن أن قوله : « لا إله إلا الله » منشور ولايته إذا منشور عزله ^(٢) . وهذا نوع تعرفه الصوفية بالغلو والشطخ . ويروى عن أبي يزيد البسطامي ^(٣) منه كثير .

ومما يتعلق بما نحن فيه ما رووه عنه من قوله :

فمن آدم في البين ومن إبليس لولا كذا !
فتنت الكل والكل مع الفتنة بهوا كذا

ويقال : أول من قاس إبليس ، فأخطأ في القياس وهلك بخطئه . ويقال : إن أول حمية وعصبية ظهرت عصبية إبليس وحميته .

[اختلاف الأقوال في خلق الجنة والنار]

فإن قيل : فما قول شيوخكم في الجنة والنار ؟ فإن المشهور عنهم أنهم لم يخلقوا سيخلاقان

(١) في المنتظم : « يعني : لا إله إلا الله » .

(٢) عبارة المنتظم : « أفنسوا عزله » . قال ابن الجوزي بعد أن أورد هذه الحكايات : « لقد أدهشني نفاق هذا الهذيان في بغداد وهي دار العلم ، ولقد حضر مجلسه يوسف الهمداني ، فقال : مدد كلام هذا شيطاناً لارباني ، ذهب دينه والدنيا لا تبقى له » .

(٣) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى ؛ توفي سنة ٢٦١ - طبقات الصوفية للسلمي ٦٧ .

عند قيام الأجسام ، وقد دلّ القرآن العزيز ، ونطق كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل بأنّ آدم كان في الجنة وأخرج منها .

قيل : قد اختلف شيوخنا رحمهم الله في هذه المسألة ، فمن ذهب منهم إلى أنهما غير مخلوقتين الآن يقول : قد ثبتَ بدليل السمع أن سائر الأجسام تُعَدَم ولا يبقى في الوجود إلا ذات الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ ^(٢) ، فلما كان « أولا » بمعنى أنه لا جسم في الوجود معه في الأزَل وجب أن يكون « آخرا » ، بمعنى أنه لا يبقى في الوجود جسم من الأجسام معه فيما لا يزال ، وبآيات كثيرة أخرى . وإذا كان لا بدّ من عدم سائر الأجسام لم يكن في خَلْق الجنة والنار قبل أوقات الجزاء فائدة ؛ لأنه لا بدّ أن يُقْنِيهما مع الأجسام التي تَقْنِي يوم القيامة ، فلا يبقى مع خلقهما من قبل معنى . ويَحْمِلُون الآيات التي دلت على كون آدم عليه السلام كان في الجنة وأخرج منها ، على بستان من بساتين الدنيا . قالوا : والهبوط لا يدلّ على كونهما في السماء لجواز أن يكون في الأرض ؛ إلا أنهما في موضع مرتفع عن سائر الأرض .

وأما غير هؤلاء من شيوخنا فقالوا : إنهما مخلوقتان الآن ، وأُعتَرَفَوا بأنّ آدم كان في جنة الجزاء والثواب ، وقالوا : لا يبعد أن يكون في إخبار المكلفين بوجود الجنة والنار لطف لهم في التكليف ، وإنما يحسن الإخبار بذلك إذا كان صدقا ، وإنما يكون صدقا إذا كان خَبَرَهُ على ما هو عليه .

[القول في آدم والملائكة أيهما أفضل]

فإن قيل : فما الذي يقوله شيوخكم في آدم والملائكة : أيهما أفضل ؟
قيل : لا خلاف بين شيوخنا رحمهم الله أنّ الملائكة أفضل من آدم ومن جميع الأنبياء .

(٢) سورة الحديد ٣ .

(١) سورة القصص ٨٨ .

عليهم السلام ، ولو لم يدل على ذلك إلا قوله تعالى في هذه القصة : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾^(١) ، لكفى .

وقد احتج أصحابنا أيضا بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾^(٢) ، وهذا كما تقول : لا يستنكف الوزير أن يعظمى ويرفع من منزلتي ولا الملك أيضا . فإن هذا يقتضى كون الملك أرفع منزلة من الوزير . وكذلك قوله : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، يقتضى كونهم أرفع منزلة من عيسى . وما احتجوا به قولهم : إنه تعالى لما ذكر جبريل ومحمد عليهما السلام في معرض المدح ، مدح جبريل عليه السلام بأعظم مما مدح به محمد عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ نَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ بِضَئِينٍ ﴾^(٣) . فالمديح الأول لجبريل والثاني لمحمد عليهما السلام ، ولا يخفى تفاوت ما بين المدحين .

فإن قيل : فهل كان إبليس من الملائكة أم من نوع آخر ؟ قيل : قد اختلف في ذلك فمن قال : إنه من الملائكة احتج بالاستثناء في قوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَتْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾^(٤) ، وقال : إن الاستثناء من غير الجنس خلاف الأصل . ومن قال : إنه لم يكن منهم احتج بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾^(٥) .

وأجاب الأولون عن هذا فقالوا : إن الملائكة يطلق عليهم لفظ الجن لاجتماعهم واستنارهم عن الأعين . وقالوا : قد ورد ذلك في القرآن أيضا في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ

(١) سورة الأعراف ٢٠ .

(٢) سورة النساء ١٧٢ .

(٣) سورة التكاوير ١٩ - ٢٤ .

(٤) سورة الحجر ٢٩ ، ٣٠ .

(٥) سورة الكهف ٥٠ .

وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا^(١) ، والجنة هاهنا هم الملائكة ، لأهم قالوا : إن الملائكة بنات الله ،
بدليل قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾^(٢) ، وكتب
التفسير تشتمل من هذا على مالا نرى الإطالة بذكره .

فأما القطب الراوندى فقال فى هذين الفصلين فى تفسير ألفاظهما اللغوية : العذب من
الأرض ما ينبت ، والسبخ : مالا ينبت ؛ وهذا غير صحيح ، لأن السبخ يُنبت الفحل ،
فيلزم أن يكون عذبا على تفسيره !

وقال : فجبل منها صورة ، أى خلق خلقا عظيما . ولفظة « جبل » فى اللغة تدل على
« خلق » سواء كان المخلوق عظيما أو غير عظيم .

وقال : الوصول : جمع وصل ، وهو العضو ، وكلّ شىء اتصل بشىء فما بينهما وصلة .
والفصول : جمع فصل وهو الشىء المنفصل ، وما عرفنا فى كتب اللغة أنّ الوصل هو العضو ،
ولا قيل هذا .

وقوله بعد ذلك : وكلّ شىء اتصل بشىء فما بينهما وصلة لا معنى لذكره بعد ذلك
التفسير . والصحيح أن مراده عليه السلام أظهر من أن يتكلف له هذا التكلف ، ومراده
عليه السلام أنّ تلك الصورة ذات أعضاء متصلة كعظم الساق أو عظم الساعد ، وذات
أعضاء منفصلة فى الحقيقة ، وإن كانت متصلة بروابط خارجة عن ذواتها كاتصال الساعد
بالمرفق واتصال الساق بالخذ .

ثم قال : يقال : استخدمته لنفسى ولنفرى ، واخدمته لنفسى خاصة ، وهذا مما لم
أعرفه ، ولعله نقله من كتاب .

ثم قال : والإذعان : الانقياد ، والخنوع : الخضوع ؛ وإنما كرّر الخنوع بعد الإذعان ، لأن الأول يُفيد أنهم أمروا بالخضوع له في السجود ، والثاني يفيد ثباتهم على الخضوع لتسكرمته أبداً .

ولقائل أن يقول : إنه لم يكرر لفظة « الخنوع » ، وإنما ذكر أولاً الإذعان ، وهو الانقياد والطاعة ، ومعناه أنهم سجدوا ، ثم ذكر الخنوع الذي معناه الخضوع ، وهو يعطى معنى غير المعنى الأول ،^(١) لأنه ليس كلّ ساجدٍ خاضعاً بقلبه ، فقد يكون ساجداً بظاهره دون باطنه . وقول الروانديّ : أفاد بالثاني ثباتهم على الخضوع له لتسكرمته أبداً تفسير لا يدلّ عليه اللفظ ، ولا معنى الكلام .

ثم قال : قبيلُ إبليس نسله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾^(٢) ، وكلّ جيل من الإنس والجنّ قبيل . والصحيح أن قبيلة نوعه ، كما أن البشر قبيل كل بشريّ ، سواء كانوا من ولده أو لم يكونوا . وقد قيل أيضاً : كلّ جماعة قبيل وإن اختلفوا ، نحو أن يكون بعضهم رؤوماً وبعضهم زنجاً ، وبعضهم عرباً ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ لا يدلّ على أنهم نسله .

وقوله بعد : « وكلّ جيل من الإنس والجنّ قبيل » ينقضُ دعواه أن قبيلة لا يكون إلا نسله .

ثم تكلم في المعاني فقال : إن القياس الذي قاسه إبليس كان باطلاً ، لأنه ادّعى أن النارَ أشرفُ من الأرض ، والأمر بالعكس ؛ لأنّ كلّ ما يدخل إلى النار ينقص ، وكلّ ما يدخل التراب يزيد . وهذا عجيب ! فإنا نرى الحيوانات الميتة إذا دُفنت في الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة في الأرض ؛ على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار والبالي بالتراب لم تعدم أجزاؤه ولا بعضها ، وإنما استحالت إلى صور أخرى .

(٢) سورة الأعراف ٢٧ .

(١) ١ : « فإنه » .

ثم قال : ولما علمنا أن تقديم المفضول على الغاضل قبيح ، علمنا أن آدم كان أفضل من الملائكة في ذلك الوقت وفيما بعده .

ولقائل أن يقول : أليس قد سجد يعقوب ليوسف عليه السلام ! أفيدل ذلك على أن يوسف أفضل من يعقوب ! ولا يقال : إن قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ ^(١) : لا يدل على سجود الوالدين ؛ فلعل الضمير يرجع إلى الإخوة خاصة ، لأننا نقول : هذا الاحتمال مدفوع بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ ^(٢) ، وهو كفاية عن الوالدين .

وأيضاً قد بينا أن السجود إما كان لله سبحانه ، وأن آدم كان قبله ، والقبلة لا تكون أفضل من الساجد إليها ، ألا ترى أن الكعبة ليست أفضل من النبي عليه السلام !

الأضل :

وأصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحى ميثاقهم ، وعلى التبليغ الرسالة أما تنهم ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَافْتَقَطَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ ^(٣) رَسُولَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ ، لِيَسْتَأْذِنُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِي نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمُ دِفَائِنَ الْعُقُولِ ، وَيُزَكِّوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدَرَةِ ؛ مِنْ سَقْفِ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ، وَمَعَالِشَ تُحْيِيهِمْ ، وَأَجَالَ تَفْنِيهِمْ ، وَأَوْصَابَ تُهْرِمُهُمْ ، وَأَحْدَاثٍ تَتَّبَعُ عَلَيْهِمْ .

وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ ،

(٢) سورة يوسف ٤ .

(١) سورة يوسف ١٠٠ .

(٣) مخطوطة النهج : « إليهم » .

أَوْ حَاجَةً قَائِمَةً ؛ رُسُلٌ لَا تَقْصُرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ ، مِنْ سَابِقِ سُمِّي لَهُ مَنْ بَعْدَهُ ، أَوْ غَابِرِ عَرَفَهُ مَنْ قَبْلَهُ .

الشرح :

اجتالهم الشياطين : أدارتهم ؛ تقول : اجتال فلان فلانا ، واجتاله عن كذا وعلى كذا ، أى أداره عليه ، كأنه يصرفه تارة هكذا وتارة هكذا ، يُحَسِّنُ له فعله ، ويُغْرِيه به .

وقال الراوندى : اجتالهم : عدلت بهم ؛ وليس بشيء .
وقوله عليه السلام : « واتر إليهم أنبياءه » ، أى بعثهم وبين كل نبين فترة ، وهذا مما تغلظ فيه العامة فتظنّه كما ظنّ الراوندى أنّ المراد به المرافقة والمتابعة . والأوصاب : الأمراض . والغابر : الباقي .

ويسأل فى هذا الفصل عن أشياء :
منها ، عن قوله عليه السلام : « أخذ على الوحى ميثاقهم » .
والجواب ، أنّ المراد أخذ على أداء الوحى ميثاقهم ، وذلك أنّ كلّ رسول أرسل فآخوذٌ عليه أداء الرسالة ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

ومنها أن يقال : مامعنى قوله عليه السلام : « ليستأدوهم ميثاقَ فِطْرَتِهِ » ؟ هل هذا

إشارة إلى ما يقوله أهل الحديث في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ^(١) ؟
والجواب ، أنه لا حاجة في تفسير هذه اللفظة إلى تصحيح ذلك الخبر ، ومراده عليه السلام بهذا اللفظ أنه لما كانت المعرفة به تعالى وأدلة التوحيد والعدل مركوزة في العقول ، أرسل سبحانه الأنبياء أو بعضهم ، ليؤكدوا ^(٢) ذلك المركوز في العقول . وهذه هي الفطرة المشار إليها بقوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة » .

ومنها أن يقال : إلى ماذا يشير بقوله : « أو حجة لازمة » ؟ هل هو إشارة إلى ما يقوله الإمامية ، من أنه لا بد في كل زمان من وجود إمام معصوم ؟

الجواب ، أنهم يفسرون هذه اللفظة بذلك . ويمكن أن يكون المراد بها حجة العقل .
وأما القطب الراوندي ، فقال في قوله عليه السلام : « واصطفى سبحانه من ولده أنبياء » :
الولد يقال على الواحد والجمع ، لأنه مصدر في الأصل ، وليس بصحيح ، لأن الماضي « فعل »
بالفتح ، والمفتوح لا يأتي مصدره بالفتح ، ولكن « فعلاً » مصدر « فعل » بالكسر ،
كقولك : ولّيت عليه ولها ، وولّمت المرأة وحمّا .

ثم قال : إن الله تعالى بعث يونس قبل نوح ، وهذا خلاف إجماع المفسرين وأصحاب السير .

ثم قال : وكل واحد من الرسل والأئمة كان يقوم بالأمر ، ولا يردعه عن ذلك قلة عدد أوليائه ، ولا كثرة عدد أعدائه ؛ فيقال له : هذا خلاف قولك في الأئمة المعصومين ، فإنك تميز عليهم التقية وترك القيام بالأمر إذا كثرت أعداؤهم .

وقال في تفسير قوله عليه السلام : « من سبق سُمي له من بعده ، أو غاب عرّفه

(٢) ٢ : « ليؤكد ذلك المركوز » .

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

مَنْ قَبْلَهُ : كان من أُلُوف الأنبياء المتقدمين وأوصيائهم ، أن يعرفوا الأنبياء المتأخرين وأوصيائهم ، فعرّفهم الله تعالى ذلك ، وكان من اللطف بالتأخرين وأوصيائهم أن يعرفوا أحوال المتقدمين من الأنبياء والأوصياء ، فعرّفهم الله تعالى ذلك أيضاً ، فتمّ اللطف للجميع .
ولقائل أن يقول : لو كان عليه السلام قال : « أو غابر عرّف من قبله » لكان هذا التفسير مطابقاً ، ولكنه عليه السلام لم يقل ذلك ، وإنما قال : « عرّفه مَنْ قبله » وليس هذا التفسير مطابقاً لقوله : « عرّفه » . والصحيح أن المراد به : من نبيّ سابق عرّف مَنْ يأتي بعده من الأنبياء ، أي عرّفه الله تعالى ذلك ، أو نبيّ غابر نصّ عليه مَنْ قبله ، وبشّر به كبشارة الأنبياء بمحمد عليه السلام .

الأصل :

عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ ، وَمَضَتِ الْأُهُورُ ، وَسَلَفَتِ الْآبَاءُ ، وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ ؛
إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ ، وَإِتْمَامِ (١)
نُبُوتِهِ ، مَأْخُودًا عَلَى النَّبِيِّينَ مِيقَاتُهُ ، مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ ، كَرِيماً مِيلَادُهُ ؛ وَأَهْلُ الْأَرْضِ
يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ ، وَأَهْوَالٌ مُنْتَشِرَةٌ ، وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ ، بَيْنَ مُشَبِّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ ،
أَوْ مُلْجِدٍ فِي أَسْمِهِ ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ ؛ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ
مِنَ الْجَهَالَةِ .

ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِقَاءَهُ ، وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ،
وَأَكْرَمَهُ (٢) عَنْ دَارِ الدُّنْيَا ، وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى ؛ فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً ، وَخَلَفَ
فِيكُمْ مَا خَلَفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا - إِذْ لَمْ يَبْرُكُوهُمْ هَمَلًا بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ ،

(٢) مخطوطة النهج : « فأكرمه » .

(١) مخطوطة النهج : « وتام » .

وَلَا عِلْمَ قَائِمٍ - كِتَابَ رَبِّكُمْ ، مُبَيِّنًا ^(١) حَالَهُ وَحَرَامَهُ ، وَفَرَائِضَهُ وَفَضَائِلَهُ ،
وَنَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ ، وَرُخْصَهُ وَعَزَائِمَهُ ، وَخَاصَّهُ وَعَامَّهُ ، وَعِبْرَهُ وَأَمْثَالَهُ ،
وَمُرْسَلَهُ وَمَحْدُودَهُ ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ ؛ مُفَسِّرًا جَمَلَهُ ، وَمُبَيِّنًا غَوَامِضَهُ ؛ بَيْنَ
مَأْخُودٍ مِثَاقٍ عَلَيْهِ ، وَمَوْسَعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ ، وَبَيْنَ مُثَبَّتٍ فِي الْكِتَابِ
فَرَضُهُ ، وَمَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ ، وَوَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ ، وَمُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ
تَرْكُهُ ، وَبَيْنَ وَاجِبٍ لَوْفَتِهِ ، وَزَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ . وَمُبَايِنَ بَيْنَ مُحَارِمِهِ ، مِنْ كَبِيرٍ
أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ ، أَوْ صَغِيرٍ أَرَصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ . وَبَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَذْنَاهُ ، وَمَوْسَعٍ
فِي أَفْصَاهُ .

الشرح :

قوله عليه السلام : « نَسَلَتِ الْقُرُونُ » ، ولدت . والهاء في قوله : « لِإِنْجَازِ عِدَّتِهِ »
راجعة إلى الباري سبحانه . والهاء في قوله : « وَإِتِّمَامِ نَبَوَّتِهِ » ، راجعة إلى محمد صلى الله
عليه وآله . وقوله : « أَخُوذُ عَلَى النَّبِيِّينَ مِثَاقَهُ » ، قيل : لم يكن نبي قط إلا وبُشِّرَ
بمبعث محمد صلى الله عليه وآله ، وأُخِذَ عليه تعظيمه ؛ وإن كان بعد لم يوجد .
فأما قوله : « وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ » ، فإن العلماء يذكرون أَنَّ النَّبِيَّ
صلى الله عليه وآله بُعِثَ والناس أصناف شتى في أديانهم : يهود ، ونصارى ، ومجوس ،
وصائبون ، وعَبَدَةُ أَصْنَامٍ ، وفلاسفة ، وزنادقة .

[القول في أديان العرب في الجاهلية]

فأما الأمة التي بُعِثَ محمد صلى الله عليه وآله فيها فهم العرب ؛ وكانوا أصنافاً شتى ،

(١) ب : « فيكم » .

فمنهم معطلة ، ومنهم غير معطلة .

فأما المعطلة منهم ، فبعضهم أنكر الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (١) ، فجعلوا الجامع لهم الطبع ، والمهلك لهم الدهر . وبعضهم اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث ، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٢) . ومنهم من أقر بالخالق ونوع من الإعادة ، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام ، وزعموا أنها شفعاء عند الله في الآخرة ، وحججوا لها ، ونحروا لها الهدى ، وقرَّبوا لها القرَّبان ، وحلَّلوا وحَرَّموا ، وهم جمهور العرب ، وهم الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا مَا إِلَهَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (٣) .

فمن نطق شعره بإنكار البعث بعضهم يرى قتلى بدر (٤) :

فَمَاذَا بِالْقَلْبِ قَلِيبٍ بَدْرٍ مِنْ الْفَتَيَانِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ (٥)
وَمَاذَا بِالْقَلْبِ قَلِيبٍ بَدْرٍ مِنَ الشَّيْزَى تُكَلَّلُ بِالسَّامِ (٦)
أَيُخْبِرُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامِ !
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَالَ بِمَنْكَبِيهِ فَقَدْ شَبَعَ الْأَيْسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيَقْتُلُنِي إِذَا مَا كُنْتُ حَيًّا وَيُحْيِيْنِي إِذَا رَمَتْ عِظَامِي !

- (١) سورة الجاثية ٢٤ . (٢) سورة يس ٧٨ . (٣) سورة الفرقان ٧
(٤) سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠٠ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات وعددها ، ونسبها إلى شداد ابن الأسود .
(٥) ابن هشام :

* مِنَ الْقَيِّنَاتِ وَالشَّرْبِ الْكِرَامِ *

والقالب : البئر .

(٦) البيت في المسان ٧ : ٢٣٠ ، ورواه : « يزير بالسنام » ، وقال في شرحه : الشيزى : شجر يتخذ منه الجفان ؛ وأراد بالجفان أربابها الذين كانوا يطعمون فيها ، وقتلوا بيدروا وألقوا في القليب ، فهو يرثيهم ، وسمى الجفان شيزى باسم أصلها .

وكان من العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد ، ومن هؤلاء
أربابُ الهامة ، التي قال عليه السلام عنهم : « لا عَذْوَى ولا هامة ولا صَمَر » ^(١) . وقال
ذو الأصبع :

يَا عَمْرُو ! لَا تَدْعُ شَتِيَّ وَمُنْقَصِي أَضْرِبَكَ حَيْثُ تَقُولُ أَلْهَامَةُ اسْتَقُونِي ^(٢)
وقالوا : إن ليلى الأخيلى لما سلمت على قبر توبة بن الحُمير خرج إليها هامة من القبر
صائحة ، أفرغت ناقها ، فوقصت ^(٣) بها فماتت ، وكان ذلك تصديق قوله :
وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَى وَدُونِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ ^(٤)
اسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ
وكان توبة وليلى في أيام بنى أمية .

وكانوا في عبادة الأصنام مختلفين ، فمنهم من يجعلها مشاركة للبارئ تعالى ، ويُطلق
عليها لفظة الشريك ، ومن ذلك قولهم في التلبية : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لا شريك لك ،
إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك ، ويعملها
وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه ، وهم الذين قالوا : لِمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى
اللَّهِ زُلْفَى ﴿ ^(٥) .

وكان في العرب مشبهة ومجسمة ، منهم أمية بن أبي الصلت ، وهو القائل :
مِنْ فَوْقِ عَرْشِ جَالِسٍ قَدْ حَطَّرِجَ لَنِيهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ الْمَنْصُوبِ
وكان جمهورهم عبدة الأصنام ، فكان وَدَّ لَكَلْبٍ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ ، وَسُوعٌ لِهَذِيلِ ،

(١) كانت العرب تزعم أن في البطن حية يقال لها الصفر ، تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه . نهاية
ابن الأثير ٢ : ٢٢٦ .

(٢) من قصيدة مفضلية ، المفضليات ١٦٣ .

(٣) وقصت بها ، أي سقطت عنها فماتت .

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام — بشرح التتريزي ٣ : ٢٦٧ . والصفائح : الحجارة العراش تكون
على القبور .

(٥) سورة الزمر ٣ .

وَنَسْرَ لِحْمِيرَ ، وَيَعُوْثَ لِهَمْدَانَ ، وَاللَّاتَ لَشَقِيْفَ بِالطَّائِفِ ، وَالْعَزَى لِسِكْنَانَةَ وَقُرَيْشَ .
وبعض بنى سُلَيْمٍ ، وَمَنَاةَ لَعَسَّانَ وَالْأَوْسَ وَالخَزْرَجَ ، وَكَانَ هُبَيْلٌ لِقُرَيْشٍ خَاصَّةً عَلَى ظَهْرِ
الْكَعْبَةِ ، وَأَسَافُ^(١) وَنَائِلَةٌ عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ . وَكَانَ فِي الْعَرَبِ مَنْ يَمِيلُ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ ، مِنْهُمْ
جَمَاعَةٌ مِنَ التَّبَاعَةِ وَمُلُوكُ الْيَمَنِ ، وَمِنْهُمْ نَصَارَى كَبَنَى تَغْلِبَ وَالْعَبَادِيْنَ رَهْطَ عَدَى بْنِ
زَيْدٍ ، وَنَصَارَى تَجْرَانَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَمِيلُ إِلَى الصَّابِئَةِ وَيَقُولُ بِالنُّجُومِ وَالْأَنْوَاءِ .
فَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا بِمَعْطَّلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ فَالْقَلِيلُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ الْمُتَنَاهِدُونَ أَصْحَابُ
الْوَرَعِ^(٢) وَالتَّحَرُّجِ عَنِ الْقُبَاخِ ، كَعَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ الْمَطْلَبِ وَابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَزَيْدُ بْنُ عَمْرٍو
ابْنُ نُفَيْلٍ ، وَقُسَّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيِّ ، وَعَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ الْعَدَوَانِيُّ ، وَجَمَاعَةٌ غَيْرُ هَؤُلَاءِ .
وَعَرَضْنَا مِنْ هَذَا الْفَصْلِ بَيَانَ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « بَيْنَ مَشَبَّهِ اللَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْجِدِي فِي اسْمِهِ »
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، وَقَدْ ظَهَرَ بِمَا شَرَحْنَاهُ .

ثُمَّ ذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَلَفَ فِي الْأُمَّةِ بَعْدَهُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى
طَرِيقًا وَاضِحًا ، وَعَلَمًا قَائِمًا ، وَالْعِلْمَ الْمُنَارَ يُهْتَدَى بِهِ .
ثُمَّ قَسَمَ مَا بَيْنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْكِتَابِ أَقْسَامًا :
فَمِنْهَا حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ ؛ فَالْحَلَالُ كَالنَّسْكَاحِ ، وَالْحَرَامُ كَالزَّانَا .
وَمِنْهَا فَضَائِلُهُ وَفَرَائِضُهُ ، فَالْفَضَائِلُ النَّوَافِلُ ؛ أَيُّ هِيَ فَضْلَةٌ غَيْرُ وَاجِبَةٍ كَرَكْعَتِي الصُّبْحِ
وغيرهما ، وَالفَرَائِضُ كَفَرِيضَةِ الصُّبْحِ .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : الْفَضَائِلُ هَاهُنَا : جَمْعُ فَضِيلَةٍ ، وَهِيَ الدَّرَجَةُ الرَّفِيعَةُ ؛ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ،
أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ جَعَلَ الْفَرَائِضَ فِي مَقَابِلَتِهَا وَقَسَمًا لَهَا ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ النَّوَافِلَ !

(١) أَسَافُ وَإِسَافُ ، كَسَعَابِ وَكِتَابِ .

(٢) ١ : « التَّوَرَعُ » .

ومنها ناسخه ومنسوخه ، فالناسخ كقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١) ، والمنسوخ كقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ^(٢) .

ومنها رخصه وعرائمه ، فالرخص كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ ^(٣) والعزائم كقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٤) .

ومنها خاصه وعامه ، فالخاص كقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسُ النَّبِيِّ ﴾ ^(٥) ، والعام كالألفاظ الدالة على الأحكام العامة لسائر المكلفين كقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ^(٦) . ويمكن أن يراد بالخاص العمومات التي يراد بها الخصوص كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٧) ، وبالعام ما ليس مخصوصا ، بل هو على عموم كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(٨) .

ومنها عبره وأمثاله ، فالعبر كقصة أصحاب الفيل ، وكالآيات التي تتضمن النكال والعذاب النازل بأهم الأنبياء من قبل ، والأمثال كقوله : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ ^(٩) .

ومنها مرسله ومحدوده ، وهو عبارة عن المطلق والمقيّد ، وسمى المقيّد محدوداً وهي لفظة فصيحة جداً ، كقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ^(١٠) ، وقال في موضع آخر : ﴿ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ ^(١١) .

ومنها محكمه ومتشابهه ، فمحكمه كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(١٢) ، والمتشابه كقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(١٣) .

ثم قسم عليه السلام الكتاب قسمة ثانية ، فقال : إن منه ما لا يسمع أحداً جهله

- | | |
|----------------------|----------------------|
| (١) سورة التوبة ٥ | (٢) سورة البقرة ٢٥٦ |
| (٣) سورة المائدة ٣ | (٤) سورة محمد ١٩ |
| (٥) سورة الأحزاب ٥٠ | (٦) سورة البقرة ١١٠ |
| (٧) سورة النمل ٢٣ | (٨) سورة البقرة ٢٨٢ |
| (٩) سورة البقرة ١٧ | (١٠) سورة المجادلة ٣ |
| (١١) سورة النساء ٩٢ | (١٢) سورة الإخلاص ١ |
| (١٣) سورة القيامة ٢٣ | |

ومنه ما يسع الناس جهله ؛ مثال الأول قوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ^(١) ،
ومثال الثانى : ﴿ كَيْفَ يُعْصَى ﴾ ﴿ حَمْدُكَ ﴾ .

ثم قال : ومنه ما حكمه مذكور فى الكتاب منسوخ بالسنة ، وما حكمه مذكور فى
السنة منسوخ بالكتاب ؛ مثال الأول قوله تعالى : ﴿ قَامَسِكُوهُمْ فِي الْبَيْوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُمْ
الْمَوْتُ ﴾ ^(٢) ؛ نسخ بما سنة عليه السلام من رجم الزانى المحصن . ومثال الثانى صوم
يوم عاشوراء ، كان واجبا بالسنة ثم نسخه صوم شهر رمضان الواجب بنص الكتاب .
ثم قال : « وبين واجب بوقته ، وزائل فى مستقبله » ، يريد الواجبات
الموقته كصلاة الجمعة ، فإنها تجب فى وقت مخصوص ، ويسقط وجوبها فى مستقبل
ذلك الوقت .

ثم قال عليه السلام : « ومباين بين محارمه » ، الواجب أن يكون « ومباين »
بالرفع لا بالجر ، فإنه ليس معطوفا على ما قبله ، ألا ترى أن جميع ما قبله يستدعى الشيء
وضده ، أو الشيء ونقيضه ؛ وقوله : « ومباين بين محارمه » لا نقيض ولا ضده ، لأنه
ليس القرآن العزيز على قسمين : أحدهما مباين بين محارمه والآخر غير مباين ، فإن ذلك
لا يجوز ، فوجب رفع « مباين » ، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . ثم فسّر ما معنى المباينة
بين محارمه ، فقال : إن محارمه تنقسم إلى كبيرة وصغيرة ، فالكبيرة أوعد سبحانه عليها
بالعقاب ، والصغيرة مغفورة ؛ وهذا نصّ مذهب المعتزلة فى الوعيد .

ثم عدل عليه السلام عن تقسيم المحارم المتباينة ، ورجع إلى تقسيم الكتاب فقال :
« وبين مقبول فى أدناه ، وموسع فى أفصاه » ، كقوله : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ ^(٣)
فإن القليل من القرآن مقبول ، والكثير منه موسّع مرخص فى تركه .

الأضل :

وَفَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ، يَرِدُونَهُ وَرُودَ الْأَنَامِ، وَيَوَلُّوهُنَ إِلَيْهِ وَلَهُ الْحَمَامُ. وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عِلَامَةً لِقَوَاعِدِهِمْ لِعَظَمَتِهِ، وَإِذْ عَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ. وَأَخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَاعًا أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَوَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ، وَتَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ، يُخْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتَجَرِّ عِبَادَتِهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ. جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلإِسْلَامِ عِلَامًا، وَلِلْعَالَمِينَ حَرَمًا، وَفَرَضَ حَقَّهُ، وَأَوْجَبَ حَجَّهُ^(١)، وَكَتَبَ عَلَيْكُمْ وَفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الشرح :

الوله : شدة الوجد ؛ حتى يكاد العقل يذهب ، وله الرجل يوله ولها . ومن روى : « يألهون إليه ولوه الحمام » فسرته بشيء آخر ، وهو : يعكفون عليه عكوف الحمام . وأصل « أله » عبد ، ومنه الإله ، أى المعبود . ولما كان العكوف على الشيء كالعبادة له لملازمته والاحتياط إليه قيل : أله فلان إلى كذا ، أى عكف عليه كأنه يعبد . ولا يجوز أن يقال : « يألهون إليه » فى هذا الموضع بمعنى « يولّون » ، وأن أصل الهمزة الواو كما فسره الراوندى ؛ لأن « فعولا » لا يجوز أن يكون مصدرا من فعلت بالكسر ، ولو كان « يألهون » هو « يولّون » ، كان أصله « أله » بالكسر ، فلم يجوز أن يقول : « ولوه الحمام » ، وأما على ما فسرناه نحن فلا يمتنع أن يكون الولوه مصدرا ، لأن « أله » مفتوح ، فصار كقولك : دخل دخولا . وباقى الفصل غنى عن التفسير .

(١) مخطوطة النهج : « فرس حجه ، وأوجب حقه » .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

[فصل في فضل البيت والكعبة]

جاء في الخبر الصحيح أنَّ في السماء بيتاً يطوف به الملائكة طواف البشر بهذا البيت اسمه الضُّراح ، وأنَّ هذا البيت تحته على خط مستقيم ، وأنه المراد بقوله تعالى ﴿وَأَلْبَيْتَ الْمَعْمُورِ﴾^(١) ، أقسم سبحانه به لشرفه ومنزلته عنده ، وفي الحديث : إنَّ آدم لما قضى مناسكه ، وطاف بالبيت لقيته الملائكة ، فقالت : يا آدم ؛ لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام .

قال مجاهد : إنَّ الحاجَّ إذا قدموا مكة استقبلتهم الملائكة ، فسأموا على ركبنا الإبل ، وصالحوا ركبنا الحمار ، واعتنقوا المشاة اعتناقاً .

من سنة السلف أن يستقبلوا الحاجَّ ، ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالذنوب والآثام .

وفي الحديث : « إنَّ الله تعالى قد وعد هذا البيت أن يحجّه في كلِّ سنة ستمائة ألف ، فإنَّ^(٢) نقصوا أتمهم الله بالملائكة ، وإنَّ الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة ، وكلَّ مَنْ حجّها متعلّق بأستارها يسعون حولها ، حتى تدخل الجنة فيدخلون معها » .

وفي الحديث : « إنَّ من الذنوب ذنوباً لا يكفرّها إلا الوقوف بعرفة » . وفيه : « أعظم الناس ذنباً مَنْ وقف بعرفة فظنَّ أنَّ الله لا يغفر له » .

عمر بن ذرَّ الهمداني : لما قضى مناسكه أسند ظهره إلى الكعبة وقال مودّعاً للبيت : ما زلنا نحلّ إليك عُروة ، ونشدّ إليك أخرى ، ونصعد لك أكمة ، وهبط أخرى ، ونخفضنا أرض ، وترفعنا أخرى ، حتى أتيناك . فليت شعري بم يكون مُنصرَفُنَا ؟ أأبذنب مغفور ، فأعظم بها من نعمة ! أم بعمل مردود فأعظم بها من مصيبة ! فيا مَنْ له خرجنا ، وإليه

(٢) ١ : « وإن »

(١) سورة الطور ٤

قصدا ، وبجرمه أنحننا ، ارحم . يامعطي الوفد بفنائك ، فقد أتيناك بها معرّة جُنودها ،
ذابلة أسنمتها ، نَقِيبَةً^(١) أخفافها . وإن أعظم الرزية أن ترجع وقد اكتنفقتنا الخيبة . اللهم
وإن للزأرين حقاً فاجعل حقنا عليك غفران ذنوبنا ، فإنك جواد كريم ، ماجد لا ينقصك
نائل ، ولا يبخلك سائل .

ابن جريج : ما ظننت أن الله ينفع أحداً بشعر عمر بن أبي ربيعة ، حتى كنت باليمن ،
فسمعتُ مُنشدًا يُنشدُ قوله :

بِاللهِ قَوْلًا لَهُ فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ مَاذَا أَرَدْتَ بِطُولِ الْمَكْثِ فِي الْيَمَنِ^(٢)
إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْ ظَفِرْتَ مَهًا^(٣) فَمَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ الْحَيِّجِّ مِنْ يَمَنِ !

فخرّ كنى ذلك على ترك اليمن ، والخروج إلى مكة ، فخرجت فحججت .
سمع أبو حازم امرأة حاجة ترفث^(٤) في كلامها ، فقال : يا أمة الله ، ألت حاجّة ! ألا
تتقين الله ! فسفرت عن وجه صبيح ، ثم قالت له : أنا من اللواتي قال فيهنّ العرجي^(٥) :
أَمَاطَتْ كِسَاءً أُخْزَتْ عَنْ حُرٍّ وَجْهَهَا وَرَدَّتْ عَلَى الْخُدَيْنِ بُرْدًا مَهْلَهَا
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجُبْجُنْ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلَنَّ الْبَرَى الْمَغْفَلَا
فقال أبو حازم : فأنا أسأل الله ألاّ يعذب هذا الوجه بالنار ، فبلغ ذلك سعيد بن
المسيّب ، فقال : رحم الله أبا حازم ! لو كان من عبّاد^(٦) العراق ، لقال لها : اعزّبي يا عدوّ
الله ! ولكنه ظرّف نسائك الحجاز^(٧) .

(١) نقبة ، من نقب البعير ، إذا رقت أخفافه .

(٢) ديوانه ٢٨٤ ، والمعتبة : العتاب . (٣) الديوان : « أو نعمت بها » .

(٤) الرث : العجش في القول . (٥) في جميع الأصول عمر بن أبي ربيعة ، والصواب أنهما للعرجي ؛
وهما من قصيدة في ديوانه ٧١ - ٧٥ ، مطامها :

رَأَيْتُنِي خَضِيبَ الرَّأْسِ شَمَرْتُ مُنْزَرِي وَقَدْ عَهْدْتُنِي أَسْوَدَ الرَّأْسِ مُسْبِلَا

ونسبهما إليه أبو الفرج في الأغاني ١ : ٤٠٤ (طبعة دار الكتب) .

(٦) الأغاني : « من بعض بفضاء » . (٧) الأغاني : « ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز » .

[فصل في الكلام على السجع]

واعلم أن قوماً من أرباب علم البيان عابوا السَّجْعَ ، وأدخلوا خطب أمير المؤمنين عليه السلام في جملة ما عابوه ؛ لأنه يقصد فيها السجع ، وقالوا : إن الخطب الخالية من السَّجْع والقرائن والفواصل ، هي خطبُ العرب ، وهي المستحسنة الخالية من التكلف ، كخطبة النبي صلى الله عليه وآله في حِجَّة^(١) الوداع ، وهي :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضِلِّ الله فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ؛ وأحذِّثكم على العمل بطاعته ، وأستفتح الله بالذي هو خير . أما بعدُ ، أيها الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لأدري ، لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في موقفي هذا .

أيها الناس ؛ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا أهلُّ بِلَغْتِ؟ اللهم اشهد . من كانتْ عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع^(٢) ، وأوَّلُ رِباً أبداً به ربا العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأوَّلُ دم أبداً به دم آدم^(٣) بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير

(١) اللسان : « والحجة : المرة الواحدة ؛ وهو من الشواذ ؛ لأن القياس بالفتح » .

(٢) الخطبة في سيرة ابن هشام ٢ : ٣٥٠ ، والبيان والتبيين ٢ : ٣١ ، والطبري ٣ : ١٦٨ ، وإعجاز القرآن للباقلاني ١٩٨ ، والعقد ٤ : ٥٧ ، وابن الأثير ٢ : ٢٠٥ .

(٣) يقال : وضعت الدين والجزية عنه ونحوهما ، لذا أسقطته .

(٤) كذا في ب ، وهو يوافق ما ذكره السهيلي ، قال : اسمه آدم ، وكان مسترضعاً في هذيل ، وقيل : اسمه تمام ؛ وكان سبب قتله حرب كانت بين قبائل هذيل ، تفاذفوا فيها بالحجارة ، فأصاب الطفل حجر وهو يحبو بين البيوت ، وفي « عامر » ، وهو يوافق ما في البيان والتبيين والعقد ؛ وفي الطبري والباقلاني : دم ابن ربيعة بن الحارث .

السَّدَانَةُ وَالسَّقَايَةُ^(١) . وَالْعَمْدُ^(٢) قَوْدٌ ، وَشِبْهُ الْعَمْدِ مَا قُتِلَ بِالْعَصَاوِ وَالْحَجَرِ ، فِيهِ مِائَةٌ بَعِيرٌ ، فَنِ
ازْدَادَ فَهُوَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَسَّ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَصِيَ أَنْ
يُطَاعَ فِيهَا سِوَى ذَلِكَ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا النَّسِيُّ^(٣) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يَحْيِلُونَهُ عَامًا ،
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ، وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَإِنْ
عِدَّةُ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدٌ قَرْدٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَمَحَرَّمٌ وَرَجَبٌ ، الَّذِي بَيْنَ
مُجَمَادَى وَشَعْبَانَ ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا ، فَعَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوْطِئْنَ
فَرْشَكُمْ غَيْرَكُمْ ، وَلَا يَدْخُلْنَ بَيْتَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ ، وَلَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ ؛
فَإِنْ فَعَلْنَ فَقَدْ أَذِنَ^(٤) لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ وَأَطَعَكُمْ
فَعَلَيْكُمْ كَسْوَتُهُنَّ وَرِزْقُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنَّمَا النِّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ^(٥) لَا يَمْلِكْنَ لَأَنْفُسِهِنَّ
شَيْئًا ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ
وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا .

(١) السَّدَانَةُ : خِدْمَةُ الْكَعْبَةِ ، يَفْتَحُ السِّينَ وَكُسْرَهَا . وَالسَّقَايَةُ : مَا كَانَتْ قَرِيشُ تَسْقِيهِ الْحِجَابَ مِنْ
الزَّبِيبِ الْمُنْبُذِ فِي الْمَاءِ .

(٢) الْقَوْدُ : الْقِصَاصُ ، أَيْ مِنْ قَتْلِ مُتَعَمِّدٍ يَقْتُلُ .

(٣) النَّسِيُّ : تَأْخِيرُ حَرَمَةِ شَهْرٍ إِلَى آخَرٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا جَاءَ شَهْرٌ حَرَامٌ وَهُمْ
مُحَارِبُونَ أَحْلَوْهُ وَحَرَمُوا مَكَانَهُ شَهْرًا آخَرَ ، فَيَحْلُونَ الْحَرَمَ وَيُحَرِّمُونَ صَفْرًا ، فَإِنْ احْتِاجُوا أَحْلَوْهُ وَحَرَمُوا
رَبِيعًا أَوَّلًا ، وَهَكَذَا حَتَّى اسْتَدَارَ التَّحْرِيمُ عَلَى شُهُورِ السَّنَةِ كُلِّهَا ، وَكَانُوا يَعْتَبِرُونَ فِي التَّحْرِيمِ بَجَرْدِ الْعِدَدِ
لَا خُصُوصِيَّةَ الْأَشْهُرِ الْمَعْلُومَةِ ؛ وَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ ذَلِكَ جَنَادَةُ بْنُ عَوْفٍ الْكِنَانِيُّ . وَانْظُرْ تَفْسِيرَ الْأَلُوسِيِّ
٣ : ٣٠٥ .

(٤) أَذِنَ ، بِالْفَتْحِ : أَبَاحَ .

(٥) عَوَانٌ : أَسِيرَاتٌ .

أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئٍ مال أخيه إلا على طيب نفس .
ألا هل بلغت اللهم اشهد !

ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تزلوا ؛ كتاب الله ربكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلكم لآدم وآدم من تراب ؛
إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا فليبلغ
الشاهد الغائب .

أيها الناس ، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز وصية في أكثر
من الثلث ، والولد للفراس وللعاشر الحجر . من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فهو
ملعون ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ^(١) . والسلام عليكم ورحمة الله عليكم .

واعلم أن السجع لو كان عيباً لكان كلام الله سبحانه معيباً لأنه مسجوع ، كله
ذو فواصل وقرائن ؛ وبكفي هذا القدر وحده مبطلاً لمذهب هؤلاء . فأما خطبة رسول الله
صلى الله عليه وآله هذه فإنها وإن لم تكن ذات سجع ؛ فإن أكثر خطبه مسجوع ،
كقوله : إن مع العز ذلاً ، وإن مع الحياة موتاً ، وإن مع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء حساباً ،
ولكل حسنة ثواباً ، ولكل سيئة عقاباً ، وإن على كل شيء رقيباً ، وأنه لا بد لك
من قرين يُدفن معك هو حي وأنت ميت ؛ فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لثيماً
أسلمك ، ثم لا يحشر إلا معك ، ولا تبعث إلا معه ، ولا تسأل إلا عنه ، فلا تجعله إلا صالحاً
فإنه إن صلح أنست به ، وإن فسد لم تستوحش إلا منه ، وهو عمك .

فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه ، وكذلك خطبه الطوال كلها . وأما كلامه

(١) أي لا يقبل منهم شيء ، وأصل العدل أن يقتل الرجل الرجل ، والعرف : أن ينصرف عن الدم
لأن أخذ الدية .

القصير ، فإنه غير مسجوع ، لأنه لا يحتمل السجع ، وكذلك القصير من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

فأما قولهم : إن السجع يدل على التكلف ، فإن المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ؛ فأما التكلف المستحسن ، فأى عيب فيه ! ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن ؛ وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك !

واحتج عابو السجع بقوله عليه السلام لبعضهم منكراً عليه : « أسجعاً كسجع الكهان ! » ، ولولا أن السجع منكراً أنكر عليه السلام سجع الكهان وأمثاله . فيقال لهم : إنما أنكر عليه السلام السجع الذى يسجع الكهان أمثاله ، لا السجع على الإطلاق ، وصورة الواقعة أنه عليه السلام أمر فى الجنين بغربة ^(١) ، فقال قائل : أأدى من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ؛ ومثل هذا يُطل ^(٢) ! فأنكر عليه السلام ذلك ، لأن الكهان كانوا يحكمون فى الجاهلية بألفاظ مسجوعة كقولهم : حبة بُر ، فى إحليل مُهر . وقولهم : عبد المسيح ، على جمل مُشيع ^(٣) ، لرؤيا المؤمنان ، وارتجاس الإيوان ؛ ونحو ذلك من كلامهم . وكان عليه السلام قد أبطل الكهانة والتنجيم والسحر ، ونهى عنها ، فلما سمع كلام ذلك القائل أعاد الإنكار ؛ ومراده به تأكيد تحريم العمل على أقوال الكهنة . ولو كان عليه السلام قد أنكر السجع لما قاله ، وقد بينا أن كثيراً من كلامه مسجوع ، وذكرنا خطبته .

ومن كلامه عليه السلام المسجوع خبر ابن مسعود رحمه الله تعالى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استحيوا من الله حق الحياء » ، فقلنا : إننا لنستحيى بإرسال الله من الله تعالى ، فقال : « ليس ذلك ما أمرتكم به ، وإنما الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس

(١) الغرة : ما بلغ ثمنه نصف عشر الدية من العبيد والإماء . انظر النهاية لابن الأثير (٣ : ١٥٥) .

(٢) جل مشيع : جاد مسرع .

(٣) الطل : هدر الدم .

(٩ - شرح نهج البلاغة - أول)

وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا .

ومن ذلك كلامه المشهور لما قدم المدينة عليه السلام أول قدومه إليها : « أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلّوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وعوّذ الحسن عليهما السلام ، فقال : « أعيذك من الهامة ، والسامة ، وكل عين لامة » ؛ وإنما أراد « ملّة » ، فقال : « لامة » لأجل السجع .

وكذلك قوله : « ارجعن مأزورات ، غير مأجورات » ؛ وإنما هو « موزورات » ، بالواو .

— ١٣١ —

— ٢ —

ومن خطبة له عايه السلام بعد انصرافه من صفين :

صِفِّين : اسم الأرض التي كانت فيها الحرب ، والنون فيها أصلية ، ذكرَ ذلك صاحب ” الصحاح “ ،^(١)؛ فوزُّها على هذا « فِعِيل » كفَسِّيق ، وَحْمِير ، وَصِرِّيع ، وَظَلِيم ، وَظَلِيل .

فإن قيل : فاشتقاقه مما ذا يكون ؟

قيل : لو كان اسما لحيوان لأمكن أن يكونَ من صَفَنَ الفرسُ - إذا قام على ثلاث وأقام الرابعة على طرف الحافر - يَصْفِنُ بالكسر ، صُفُونَا . أو من صَفَنَ القوم ، إذا صَفُّوا أقدامهم لا يخرج بعضها من بعض^(٢) .

فإن قيل : أيمكنُ أن يُشتَقَّ من ذلك وهو اسم أرض ؟

قيل : يمكن على تعسف ، وهو أن تكونَ تلك الأرض لما كانت مما تَصْفِنُ فيها الخيل ، أو تصطفَّ فيها الأقدام ؛ سميت صِفِّين .

فإن قيل : أيمكن أن تكونَ النونُ زائدةً مع الياء ، كما هي في « غِسْلِينَ » و « عِفْرِينَ » ؟

قيل : لو جاء في الأصل « صِف » ، بكسر الصاد لأمكن أن تُتَوَهَّم الزيادة ، كالزيادة

(١) الصحاح ، ٢١٥ ؛ أى أنه ذكرها في مادة « صفن » .

(٢) ١ : « عن بعض » .

فِي غَسْلٍ ، وَهُوَ مَا يُغْتَسَلُ بِهِ ، نَحْوُ الْخِطْمِ وَغَيْرِهِ ، فَقِيلَ : غَسْلَيْنِ ، لَمَّا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ
أَهْلِ النَّارِ وَدِمَائِهِمْ ، وَكَالْزِيَادَةِ فِي عَفْرِ وَهُوَ الْخَبِيثُ الدَّاهِي^(١) ، فَقِيلَ : عَفْرَيْنِ ، لِمَأْسَدَةِ
بَعِيْنِهَا . وَقِيلَ : عَفْرِيَتٌ لِلدَّاهِيَةِ ، هَكَذَا ذَكَرُوهُ .

وَلَقَائِلُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : أَلَيْسَ قَدْ قَالُوا لِلْمَأْسَدِ : عَفْرَتِي ، بِفَتْحِ الْعَيْنِ ، وَأَصْلُهُ الْعَفْرُ ،
بِالْكَسْرِ ، فَقَدْ بَانَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَاعُوا فِي اشْتِقَاقِهِمْ وَتَصْرِيفِ كَلَامِهِمْ الْحَرَكَةَ الْخُصُوصَةَ ،
وَأَتَمَّا يَرَاعُونَ الْحَرْفَ ، وَلَا كُلَّ الْحُرُوفِ ، بَلِ الْأَصْلَى مِنْهَا ؛ فَغَيْرُ مَمْتَنِعٍ عَلَى هَذَا عِنْدَنَا
أَنْ تَسْكُونَ الْإِيَاءَ وَالنُّونَ زَائِدَتَيْنِ فِي « صِفَيْنِ » .

وَصِفَيْنِ : اسْمٌ غَيْرُ مَنْصَرَفٍ لِلتَّأْنِيثِ وَالتَّعْرِيفِ ، قَالَ^(٢) :

إِنِّي أُدِينُ بِمَا دَانَ الْوَصِيُّ بِهِ يَوْمَ الْحَرْبِ بِنَةِ مَنِ قَتَلَ الْمُجَلِّيْنَ^(٣)
وَبَالَّذِي دَانَ يَوْمَ التَّهْرِ دِنْتُ بِهِ وَشَارَكْتُ كَفَّهُ كَفِّي بِصَفِيْنَا
تِلْكَ الدِّمَاءُ مَعًا يَا رَبِّ فِي عُنُقِي ثُمَّ اسْقِنِي مِنْهَا آمِينَ آمِينَ

الْأَصْلُ :

أَحْمَدُهُ أُسْتَيْمَامًا لِيَعْمَتِهِ ، وَأُسْتَيْسَلَامًا لِعِزَّتِهِ ، وَأُسْتَيْعْصَامًا مِنْ مَعْصِيَتِهِ . وَأُسْتَعِينُهُ
فَاقَةً إِلَى كِفَايَتِهِ ؛ إِنَّهُ لَا يَضِلُّ مَنْ هَدَاهُ ، وَلَا يَشِلُّ مَنْ عَادَاهُ ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَنْ
كَفَاهُ ؛ فَإِنَّهُ أَرْجَحُ مَا وُزِنَ ، وَأَفْضَلُ مَا خُزِنَ . وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٤) وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ ، شَهَادَةً مُتَحَدِّثًا بِإِخْلَاصِهَا ، مُعْتَقِدًا مُصَاصَهَا ، نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَدًا

(١) يُقَالُ : رَجُلٌ دَاهٍ وَدَاهِيَةٌ ؛ بِمَعْنَى .

(٢) هُوَ السَّيِّدُ الْحَمِيرِيُّ ؛ وَالْأَبْيَاتُ بِنِسْبَتِهَا إِلَيْهِ فِي السَّكَامِلِ ٧ : ١٧٧ - بِإِشْرَاحِ الرَّصَنِ .

(٣) الْحَرْبِيَّةُ : مَوْضِعٌ بِالْبَصْرَةِ ؛ كَانَتْ عِنْدَهُ وَقْعَةُ الْجَلِّ ؛ ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ ؛ وَاسْتَشْهَدَ بِالْبَيْتِ ، وَفِي
الْأَصُولِ : « الْحَرْبِيَّةُ » ، بِالْهَاءِ ؛ تَصْغِيفٌ . وَفِي السَّكَامِلِ : « يَوْمَ النُّخِيلَةِ » .

(٤) - ٤ - ، سَاقِطٌ مِنْ أ ، وَمُخْطُوعَةٌ مِنَ الْهَجِّ .

مَا أَبْقَانَا ، وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا ؛ فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ ، وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ ،
وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ ، وَمَذْخَرَةُ الشَّيْطَانِ .

الْبَيْزُخ :

وَأَل ، أَى نَجَا ، يَيْثُل . وَالْمُصَاص : خَالِص الشَّيْء . وَالْفَاقَةُ : الْحَاجَةُ وَالْفَقْر .
الْأَهَاوِيل : جَمْعُ أَهْوَال ، وَالْأَهْوَال : جَمْعُ هَوَل ، فَهُوَ جَمْعُ الْجَمْع ، كَمَا قَالُوا : أَنْعَام وَأَنْعَامِمْ .
وَقِيلَ : أَهَاوِيل أَصْلُهُ تَهَاوِيل ، وَهِيَ مَا يَهْوُلُكَ مِنْ شَيْء ، أَى يَرُوعُكَ ، وَإِنْ جَازَ هَذَا فَهُوَ
بَعِيد ، لِأَنَّ التَّاءَ قَدْ لَمْ تَبْدَلْ هَمْزَةً . وَالْعَزِيمَةُ : النِّيَّةُ الْمَقْطُوعُ عَلَيْهَا ، وَمَذْخَرَةُ الشَّيْطَانِ ،
أَى تَذْخَرُهُ ، أَى تَبْعِدُهُ وَتُطَارِدُهُ .

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «اسْتِمَامًا» ، وَ«اسْتِسْلَامًا» ، وَ«اسْتِعْصَامًا» ؛ مِنْ لَطِيفِ الْكُنْيَاةِ
وَبَدِيعِهَا ، فَسَبَّحَانَ مَنْ خَصَّهُ بِالْفَضَائِلِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي أَلْسِنَةُ الْفَصَحَاءِ إِلَى وَصْفِهَا ، وَجَمَلُهُ
إِمَامٌ كُلُّ ذِي عِلْمٍ ، وَقُدُوةٌ كُلِّ صَاحِبِ خِصِيصَةٍ !
وَقَوْلُهُ : « فَإِنَّهُ أَرْجَحُ » ، الْهَاءُ عَائِدَةٌ إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : « أَحْمَدُهُ » ، يَعْنِي الْحَمْدَ ،
وَالْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى الْمَصْدَرِ ، وَتَرْجِعُ الضَّمَاثِرُ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ ﴾ ^(١) وَهُوَ
ضَمِيرُ الْبَيْزُلِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ يَبْخُلُونَ ﴾ ^(١) .

[باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه]

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَزَيْنٌ وَخُزَيْنٌ » ، بِلِزُومِ الزَّاي ، مِنْ الْبَابِ الْمُسَمَّى لِزُومِ مَا لَا
يَلْزَمُ ، وَهُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ ، وَذَلِكَ أَنَّ تَكُونِ الْحُرُوفِ الَّتِي قَبْلَ الْفَاصِلَةِ حَرْفًا وَاحِدًا ؛ هَذَا
(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ١٨٠ ، وَالآيَةُ بِتَامِهَا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ .

في المنشور ، وأما في المنظوم فإن تتساوى الحروف التي قبل الروى مع كونها ليست بواجبة التساوى ، مثال ذلك قول بعض شعراء الحماسة^(١) :

بِيَضَاءِ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا بِلَبَاقَةٍ فَأَذَقَهَا وَأَجَبَهَا^(٢)
حَجَبَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لَصَاحِبِي مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا
وَإِذَا وَجَدْتُهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَسَلَّهَا^(٣)

ألا تراه كيف قد لزم اللام الأولى من اللامين اللذين صاروا حرفا مشددا ! فالثاني منهما هو الروى ، واللام الأول الذى قبله التزام مالا يلزم ؛ فلو قال فى القصيدة : وصلها ، وقبلها ، وفعلها ، لجاز .

واحترزنا نحن بقولنا : « مع كونها ليست بواجبة التساوى » عن قول الراجز ، وهو من شعراء الحماسة أيضا :

وَفَيْشَةٍ لَيْسَتْ كَهَذِي الْفَيْشِ قَدْ مَلِئْتُ مِنْ نَزَقٍ وَطَيْشِ^(٤)
إِذَا بَدَتْ قُلْتُ أَمِيرُ الْجَيْشِ مَنْ ذَاقَهَا يَعْرِفَ طَعْمَ الْعَيْشِ

فإن لزوم الياء قبل حرف الروى ليس من هذا الباب ، لأنه لزوم واجب ، ألا ترى أنه لو قال فى هذا الرجز : البطش والقرش والعرش لم يجز ، لأن الرّدْف^(٥) لا يجوز أن يكون حرفا خارجا عن حروف العلة . وقد جاء من اللزوم فى الكتاب العزيز مواضع

(١) من أبيات أربعة ؛ أولها :

إِنَّ أَلْسِنِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَهَا خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا

وهى فى الحماسة - بشرح المرزوق ١٢٣٥ ، وأمالى القالى (١ : ١٥٦) من غ-ير نسبة ، ونقل التبريزى عن أبى رياش أنها لعروة بن أذينة .

(٢) أدقها وأجلها ، أى أنى بها دققة العين والأنف والثغر والخصر ، جليلة الساق والفخذ والصدر .

(٣) الحماسة : * شَفَعَ الضَّمِيرُ لَهَا إِلَى فَسَلَّهَا *

(٤) ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ٤ : ٣٤٠ .

(٥) الرّدْف عند العروضيين ، هو حرف لين أو مد قبل الروى يتصلان به .

ليست بكثيرة ، فمنها قوله سبحانه : ﴿ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ
 آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَذَنْهُ لَأَرْجُحَنَّكَ وَاهْجُرَنِي مَلِيًّا ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ
 كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ^(٢) ،
 وقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ^(٣) ، وقوله :
 ﴿ وَالطُّورِ ﴾ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ^(٤) ، وقوله : ﴿ بِسْكَهَيْنِ وَلَا تَجْنُونِ ﴾ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
 نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ^(٥) ، وقوله : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ ^(٦) ، وقوله :
 ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ
 نِعَمَ الْمَوَلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ^(٧) ، والظاهر أن ذلك غير مقصود قصده .

ومما ورد منه في كلام العرب أن لقيط بن زُرارة تزوج ابنة قيس بن خالد الشيباني
 فأحبته ، فلما قُتِلَ عنها تزوجت غيره ، فكانت تذكر لقيطا ، فسأها عن حبها له ، فقالت :
 أذكره وقد خرج تارة في يوم دَجَن ، وقد تطيب وشرب الخمر ، وطرد بقرأ ، فصرع
 بعضها ، ثم جاءني وبه نَضْحٌ ديم وعبير ، فضمني ضمة ، وشمني شمة ، فليتنى كنت ميتة شمة .
 وقد صنع أبو العلاء المعري كتابا في الزوم من نظمه ، فأتى فيه بالجيد والردى ،
 وأكثره متكلف ، ومن جيده قوله :

لَا تَطْلُبَنَّ بَالَةً لَكَ حَالَةً قَلِمُ الْبَايِعِ بِغَيْرِ حَظٍّ مَغْزَلٍ ^(٨)
 سَكَنَ السَّمَاءِ كَلَاهِمَا هَذَا لَهُ رَمَحٌ وَهَذَا أَعْزَلُ

الأضل :

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَاهُ بِالْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِ ، وَالْعِلْمِ الْمَأْثُورِ ،

- | | |
|--------------------------|--|
| (١) سورة مريم ٤٤ ، ٤٥ | (٢) سورة ق ٢٧ ، ٢٨ |
| (٣) سورة العلق ١ ، ٢ | (٤) سورة الطور ١ ، ٢ |
| (٥) سورة الطور ٢٩ ، ٣٠ | (٦) سورة الواقعة ٢٨ ، ٢٩ |
| (٧) سورة الأنفال ٣٩ ، ٤٠ | (٨) لم يرد البيتان في نسخ الزوميات ، ونسبها إليه ابن |
- خليل (١ : ٣٣) ، وابن الوردى ، وصاحب مرآة الجنان ، وابن كثير (حوادث ٤٤٩) ،
 وشذرات الذهب ٣ : ٢٨١ ، وتقديم أبي بكر لابن حجة ٤٣٥ ، وفي ابن خلكان : « لك رتبة » .

وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ ؛ إِزَاحَةً
لِلشُّبُهَاتِ ، وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ ، وَتَحْوَيفًا بِالْمَثَلَاتِ ، وَالنَّاسُ
فِي فِتْنٍ أَنْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ ، وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ ،
وَتَشَدَّتْ الْأُمُورُ ، وَضَاقَ الْمَخْرَجُ ، وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ ؛ فَأَلْهَدَى خَامِلٌ ، وَالْبَعْمَى شَامِلٌ .
عُصِيَ الرَّحْمَنُ ، وَهَوِيَ الشَّيْطَانُ ، وَخُذِلَ الْإِيمَانُ ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ ، وَتَنَكَّرَتْ
مَعَالِمُهُ ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ ، وَعَقَتْ شُرُكُهُ . أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ ،
وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ ؛ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ ، وَقَامَ لِيَاوُذُهُ . فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا ،
وَوَطَّنَتْهُمْ بِأُظْلَافِهَا ، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا ، فَهَمَّ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ ، جَاهِلُونَ
مَفْتُونُونَ ، فِي خَيْرٍ دَارٍ وَشَرٍّ جِيرَانٍ ؛ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ ، وَكَلْمُهُمْ دُمُوعٌ ؛ بَارِضٍ
عَالِمُهَا مُلْجَمٌ ، وَجَاهِلُهَا مُسْكَرَمٌ .

الشَّرْحُ :

قوله عليه السلام : « والعلم الماثور » ، يجوز أن يكون عني به القرآن ؛ لأن الماثور
الحسنى ، والعلم ما يهتدى به ، والمتكلمون يسمون للمعجزات أعلاماً . ويجوز أن يريد
به أحد معجزاته غير القرآن ؛ فإنها كثيرة وماثورة ، ويؤكد هذا قوله بعد :
« والكتاب المسطور » ، فدل على تغايرها ، ومن يذهب إلى الأول يقول : المراد بهما
واحد ، والثانية تؤكد الأولى على قاعدة الخطابة والكتابة .

والصادع : الظاهر الجلى ، قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾^(١) ، أى أظهره ولا تخفه .
والمثلات ؛ بفتح الميم وضم الثاء : العقوبات ، جمع مثلة ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَمْعِلُونَكَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ﴾^(٢) .

وانجذم : انقطع . والسواري : جمع سارية ، وهى الدَّعامةُ يدعم بها السَّقْفُ . والنَّجْرُ :

الأصل ، ومثله النجار . وانهارت : تساقطت . والشرك : الطرائق ، جمع شرك . والأخفاف للإبل ، والأظلاف للبقر والمعز .

وقال الراوندي في تفسير قوله : « خير دار ، وشرّ جيران » : خير دار : الكوفة . وقيل : الشام ؛ لأنها الأرض المقدسة ، وأهلها شرّ جيران ، يعني أصحاب معاوية . وعلى التفسير الأول يعني أصحابه عليه السلام .

قال : وقوله : « نومهم سهود » ، يعني أصحاب معاوية لا ينامون طول الليل ، بل يرتّبون أمره . وإن كان وصفا لأصحابه عليه السلام بالكوفة — وهو الأقرب — فالعنى أنهم خائفون يسهرون ويكون لقلة موافقتهم إياه ؛ وهذا شكاية منه عليه السلام لهم . وكحلهم دموع ، أى نفاقا ، فإنه إذا تمّ نفاق المرء ملك عينيه .

ولقائل أن يقول : لم يجر فيما تقدم ذكر أصحابه عليه السلام ولا أصحاب معاوية ، والكلام كلّهم في وصف أهل الجاهلية قبل مبعث محمد صلى الله عليه وآله . ثم لا يخفى ما في هذا التفسير من الركاكة والفجاجة ، وهو أن يريد بقوله : « نومهم سهود » ، أنهم طوال الليل يرتّبون أمر معاوية ، لا ينامون ، وأن يريد بذلك أن أصحابه يكون من خوف معاوية وعساكره ، أو أنهم يكون نفاقا ؛ والأمر أقرب من أن يتمحل له مثل هذا .

ونحن نقول : إنه عليه السلام لم يخرج من صفة أهل الجاهلية ، وقوله : « في خير دار » يعني مكة ، و « شرّ جيران » ، معنى قرى ، وهذا لفظ النبي صلى الله عليه وآله حين حكي بالمدينة حالة كانت في مبدأ البعثة ، فقال : « كنت في خير دار » و « شرّ جيران » . ثم حكي عليه السلام ماجرى له مع عتبة بن أبي مُعَيْط ، والحديث مشهور .

وقوله : « نومهم سهود ، وكحلهم دموع » مثل أن يقول : جودهم بخل ، وأمنهم خوف ، أى لو استباحهم محمد عليه السلام الفوم لجادوا عليه بالسهود عوضا عنه ، ولو استجداهم الكحل لكان كحلهم الذى يصلونه به الدموع .

ثم قال : « بأرض عالمها مُلَجَم » ، أى من عرف صدق محمد صلى الله عليه وآله وآمن به فى تقية وخوف . « وجاهلها مكرم » ، أى من جحد نبوته وكذّبه فى عز ومنعة . وهذا ظاهر .

الأصل :

ومنها - ويعنى آل النبي صلى الله عليه :

هُمْ مَوْضِعُ سِرِّهِ ، وَجَلَأَ أَمْرِهِ ، وَعَيْبَةُ عَلَيْهِ ، وَمَوْتِلُ حُكْمِهِ ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ ، وَجِبَالُ دِينِهِ . سِيَمِ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِهِ .

الشرح :

الجبأ : ماتلتجىء إليه ، كالوزر ماتعتصم به . والموتل : ماترجع إليه ؛ يقول : إن أمر النبي صلى الله عليه وآله - أى شأنه - ملتجىء إليهم ، وعلمه مودع عندهم ؛ كالثوب يودع العيبة . وحكمه - أى شرعه - يرجع ويؤول إليهم . وكتبه - يعنى القرآن والسنة - عندهم ، فهم كالكهوف له ، لاحتوائهم عليه . وهم جبال دينه لا يتحللون عن الدين ؛ أو أن الدين ثابت بوجودهم ؛ كما أن الأرض ثابتة بالجبال ، ولولا الجبال لمادت بأهلها .

والهاء فى « ظهره » ترجع إلى الدين ، وكذلك الهاء فى « فرائصه » والفرائص : جمع فريصة ، وهى اللحمية بين الجنب والكتف لا تزال تُرْعَد من الدابة .

الأصل :

ومنها فى المنافقين :

زَرَعُوا الْفُجُورَ ، وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ ، وَحَصَدُوا الثُّبُورَ ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا . هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ ، إِلَيْهِمْ يَفِي الْعَالِي ، وَبِهِمْ يُلْحَقُ

التَّالِي ، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ . الْآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ ، وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ .

الشَّيْخُ :

جمل ما فعلوه من القبيح بمنزلة زرع زرعوه ، ثم سقوه ، فالذى زرعوه الفجور ، ثم سقوه بالغرور ؛ والاستعارة واقعة موقعها ، لأن تماذيههم وما سكنت إليه نفوسهم من الإمهال ، هو الذى أوجب استمرارهم على القبائح التى واقعوها ، فكان ذلك كما يسقى الزرع ، ويربى بالماء ويستحفظ .

ثم قال : « وحصدوا الثبور » ، أى كانت نتيجة ذلك الزرع والسقى حصاداً ماهو الهلاك والعطب .

وإشارته هذه ليست إلى المنافقين كما ذكر الرضى رحمه الله ، وإنما هى إشارة إلى مَنْ تغلب عليه ، وجحد حقه كمعاوية وغيره . ولعل الرضى رحمه الله تعالى عرف ذلك وكفى عنه .

ثم عاد إلى الثناء على آل محمد صلى الله عليه وآله ، فقال : « هم أصول الدين ، إليهم بقاء الغالى ، وبهم يلحق التالى » ؛ جعلهم كقنبر يسير فى فلاة ، فالغالى منه أى الفارط للمتقدم ، الذى قد غلا فى سيره يرجع إلى ذلك المِقْنَب إذا خاف عدواً ، ومن قد تخلف عن ذلك المِقْنَب فصار تالياً له يلتحق به إذا أشفق من أن يُتَخَطَّفَ .

ثم ذكر خصائص حق الولاية ، والولاية : الإمرة ؛ فأما الإمامية فيقولون : أراد نصّ النبى صلى الله عليه وآله عليه وعلى أولاده . ونحن نقول : لهم خصائص حق ولاية الرسول صلى الله عليه وآله على الخلق .

ثم قال عليه السلام : « وفيهم الوصية والوراثة » ، أما الوصية فلا ريب عندنا أنّ علياً عليه السلام كان وصى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن خالف فى ذلك مَنْ هو منسوب

غندنا إلى العناد ، ولسنا نعني بالوصية النصّ والخلافة ، ولسكن أموراً أخرى لعلّها - إذا لمحت - أشرف وأجلّ .

وأما الوراثة فالإمامية يحملونها على ميراث المسال والخلافة ، ونحن نحملها على وراثة العلم .

ثم ذكر عليه السلام أنّ الحق رجع الآن إلى أهله ؛ وهذا يقتضى أن يكون فيما قبل في غير أهله ، ونحن نتأوّل ذلك على غير ما تذكره الإماميّة ، ونقول : إنّ عليه السلام كان أولى بالأمر وأحقّ ، لا على وجه النصّ ، بل على وجه الأفضليّة ، فإنه أفضل البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأحقّ بالخلافة من جميع المسلمين ؛ لكنه ترك حقّه لما علمه من المصلحة ، وما تفرّس فيه هو والمسلمون من اضطراب الإسلام ، وانتشار الكلمة ، لحسد العرب له ، وضمّهم عليه . وجائز لمن كان أولى بشيء فتركه ثم استرجعه أن يقول : « قد رجع الأمر إلى أهله » .

وأما قوله : « وانتقل إلى منتقله » ، ففيه مضاف محذوف ، تقديره : « إلى موضع منتقله » ، والمنتقل بفتح القاف : مصدر بمعنى الانتقال ، كقولك : لي في هذا الأمر مضطرب ، أى اضطراب ، قال :

قَدْ كَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ^(١)
وتقول : مامعتك ؟ أى ما اعتقادك . قد رجع الأمر إلى نصابه ، وإلى الموضع الذى هو على الحقيقة للموضع الذى يجب أن يكون انتقله إليه .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً » ؟

قيل : لا شبهة أن المنعم أعلى وأشرف من المزمع عليه ، ولا ريب أن محمداً صلى الله

(١) ديوان الحماسة ١ : ٢٨٧ - بشرح الرزوقي ، من أبيات نسبها إلى خطاب بن العلى ، واسمه في التبريزي : « حطان بن العلى » .

عليه وآله وأهله الأذنين من بنى هاشم - لا سيما علياً عليه السلام - أنعموا على الخلق كافة بنعمة لا يقدر قدرها، وهي الدعاء إلى الإسلام والهداية إليه، فحمد صلى الله عليه وآله وإن كان هدى الخلق بالدعوة التي قام بها بلسانه ويده؛ ونصرة الله تعالى له بملائكته وتأييده، وهو السيد المتبوع، والمصطفى المنتجب الواجب الطاعة، إلا أن لعل عليه السلام من الهداية أيضاً - وإن كان ثانياً لأوّل، ومصلحاً على إثر سابق - مالا يُجحد، ولولم يكن إلا جهاده بالسيف أولاً وثانياً، وما كان بين الجهادين من نشر العلوم وتفسير القرآن وإرشاد العرب إلى مالم تكن له فاهمة ولا متصورة، لكفى في وجوب حقه، وشبوغ نعمته عليه السلام.

فإن قيل: لا ريب في أن كلامه هذا تعريض بمن تقدم عليه، فأى نعمة له عليهم؟ قيل: نعمتان: الأولى منهما الجهاد عنهم وهم قاعدون، فإن من أنصف علم أنه لولا سيف علي عليه السلام لاصطلم المشركون؛ من أشار إليه وغيرهم من المسلمين، وقد علمت آثاره في بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، وحنين؛ وأن الشرك فيها فخر فاه، فلو أن سده بسيفه لآلهم المسلمين كافة - والثانية علومه التي لولاها لحكم بغير الصواب في كثير من الأحكام، وقد اعترف عمر له بذلك، والخبر مشهور: «لولا علي لهلك عمر».

ويمكن أن يخرج كلامه على وجه آخر؛ وذلك أن العرب تفضل القبيلة التي^(١) منها الرئيس الأعظم على سائر القبائل، وتفضل الأدنى منه نسباً، فالأدنى على سائر آحاد تلك القبيلة؛ فإن بنى دارم يفتخرون بحاجب وإخوته، وبزُرارة أبيهم على سائر بنى تميم، ويسوغ الواحد من أبناء بنى دارم أن يقول: لا يقاسُ ببني دارم أحد من بنى تميم، ولا يستوى بهم من جرت رياستهم عليه أبداً؛ ويعنى بذلك أن واحداً من بنى دارم قد رأس على بنى تميم؛ فكذلك لما كان رسول الله صلى الله عليه وآله رئيس الكل،

(١) : «فيها» .

والنعمَ على الكلّ ، جاز لواحد من بنى هاشم ؛ لا سيما مثل عليّ عليه السلام أن يقول هذه الكلمات .

واعلم أنّ عليا عليه السلام كان يدعى التقدّم على الكلّ ، والشرف على الكلّ ، والنعمة على الكلّ ، وابن عمه صلى الله عليه وآله ، وبني نفسه ، وبأبيه أبي طالب ، فإنّ من قرأ علوم السّير عرف أنّ الإسلام لولا أبو طالب لم يكن شيئا مذكورا .
وليس لقائل أن يقول : كيف يقال هذا في دينٍ تكفل الله تعالى بإظهاره ، سواء كان أبو طالب موجودا أو معدوما ! لأننا نقول : فينبغي على هذا ألاّ يمدح رسول الله صلى الله عليه وآله . ولا يقال : إنه هدى الناس من الضلالة ، وأنقذهم من الجهالة ، وإنّ له حقا على المسلمين . وإنّ لولاه لما عبّد الله تعالى في الأرض ، وألا يمدح أبو بكر ، ولا يقال : إن له أثرا في الإسلام ، وإن عبد الرحمن وسعدا وطلحة وعثمان وغيرهم من الأولين في الدين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وآله لا تتابعه له ، وإنّ له يدا غير مجحودة في الإنفاق واشتراء المعدّين وإعتاقهم ، وإنّ لولاه لاستمرت الرّدة بعد الوفاة ، وظهرت دعوة مُسيلمة وظُليخة ؛ وإنّ لولاه لما كانت الفتوح ، ولا جُهِزت الجيوش ، ولا قوّى أمر الدين بعد ضعفه ، ولا انتشرت الدعوة بعد خولها .

فإن قلتم في كل ذلك : إنّ هؤلاء يُحمدون ويُبَنّى عليهم ؛ لأن الله تعالى أجرى هذه الأمور على أيديهم ، ووفّقهم لها ، والفاعل بذلك بالحقيقة هو الله تعالى ؛ وهؤلاء آلة مستعملة ، ووسائل تجرى الأفعال على أيديها ، فحمدُهم والثناء عليهم ، والاعتراف لهم إنّما هو باعتبار ذلك .

قيل : لكم في شأن أبي طالب مثله ^(١) .

(١) : ١ : « قيل لهم » .

واعلم أن هذه الكلمات؛ وهى قوله عليه السلام: «الآن إذ رجع الحق إلى أهله...»، إلى آخرها يبعدُ عندى أن تكون مقولة عقيب انصرافه عليه السلام من صفين، لأنه انصرف عنها وقتئذ مضطرب الأمر، منتشر الحبل؛ بواقعة التحكيم، ومكيدة ابن العاص، وماتمّ لمعاوية عليه من الاستظهار، وما شاهد في عسكره من الخذلان. وهذه الكلمات لا تقال في مثل هذه الحال، وأخلق بها أن تكون قيلت في ابتداء بيعته، قبل أن يخرج من المدينة إلى البصرة، وأن الرضى رحمه الله تعالى نقل ما وجد، وحكى باسم، والغلط من غيره والوهم سابق له. وما ذكرناه واضح.

[ماورد في الوصاية من الشعر]

ومارويناه من الشعر المقول في صدر الإسلام المتضمن كونه عليه السلام وصى رسول الله قول عبدالله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَمِمَّا عَلَى ذَاكَ صَاحِبُ خَيْبَرٍ وَصَاحِبُ بَدْرٍ يَوْمَ سَالَتْ كَتَائِبُهُ
وَصَى النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ فَمَنْ ذَا يَدَايْنِهِ وَمَنْ ذَا يُقَارِبُهُ !
وقال عبد الرحمن بن جُمَيْل :

لَعَمْرِي لَقَدْ بَايَعْتُمُ ذَا حَفِيظَةٍ عَلَى الدِّينِ، مَعْرُوفَ الْعَفَافِ مُوَفَّقًا
عَلِيًّا وَصَى الْمُصْطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ وَأَوَّلَ مَنْ صَلَّى أَخَا الدِّينِ وَالتَّقَى
وقال أبو الهيثم بن التَّيَّهَانِ - وكان بدريًّا :

قُلْ لِلزَّيْرِ وَقُلْ لَطَلْحَةَ إِنَّا نَحْنُ الَّذِينَ شَعَارُنَا الْأَنْصَارُ
نَحْنُ الَّذِينَ رَأَتْ قَرِيشٌ فَعَلَنَّا يَوْمَ الْقَلِيبِ أَوْلَئِكَ الْكَفَارُ
كُنَّا شَعَارَ نَبِينَا وَدَنَارِهِ يَفْدِيهِ مِنْ الرُّوحِ وَالْأَبْصَارُ

إنَّ الوصىَ إمامنا ووليَّنا برَّحَ الخفاءِ وباحتِ الأسرار^(١)
وقال عمر بن حارثة الأنصارى ، وكان مع محمد بن الحنفية يوم الجمل ، وقد لأمه
أبوه عليه السلام لما أمره بالحملة فتقاعس :

أبا حسن أنت فصل الأمورِ يبيِّن بكِ الحِلُّ والمَحَرَّمُ
جمعتَ الرجالَ على رَايةٍ بها ابْنُكَ يومَ الوغى مُتَحَمِّمُ
ولم ينكصِ المرءُ من خيفةٍ ولكن توالى له أسهم
فقال رويدا ولا تَعَجَّلُوا فإني إذا رشقوا مُقْسِـدِمُ
فأعجلتْهُ والفتى مَجْمَعُ بما يكره الوَجَلُ المحجِّمُ
سمى النَّبِيَّ وشبهه الوصى ورايته لونها العَنَدَمُ
وقال رجل من الأزد يوم الجمل :

هذا على وهو الوصى آخاه يومَ النَّجْوَةِ النَّبِيُّ
وقال هذا بعدى الوليَّ وعاهُ وابع ونسى الشَّقِيَّ
وخرج يوم الجمل غلام من بنى ضَبَّةَ شاب مُعَلِّم^(٢) من عسكر عائشة ، وهو يقول :
نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أعداءِ عَلِيٍّ ذَاكَ الَّذِي يُعْرِفُ قَدَمًا بِالْوَصِيِّ
وفارس الخيل على عهد النبي ما أنا عن فضلِ عَلِيٍّ بِالْعَمِيِّ
لكننى أنعى ابنَ عَفَّانَ التَّقِيَّ إنَّ الولىَّ طالبٌ ثَارَ الوَلِيِّ
وقال سعيد بن قيس الهمداني يوم الجمل - وكان فى عسكر على عليه السلام :
أَيُّ حَرْبٍ أَضْرِمَتْ نيرانَها وَكَسِرَتْ يَوْمَ الوغَى مُرَائِها^(٣)

(١) برح الخفاء ، أى ظهر ما كان خافياً وانكشف ، مأخوذ من براح ؛ وهو البارز الظاهر .
(٢) المعلم ، بكسر اللام : الذى علم مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها .
(٣) المران : الرماح الصلبة اللدنة ، واحده مرانة .

قُلْ لِلْوَصِيِّ أَقْبَلْتُ فَخَطَانُهَا فَادْعُ بِهَا تَكْفِيكَهَا هَمْدَانُهَا
* هُمْ بَنُوهَا وَهُمْ إِخْوَانُهَا *

وقال زياد بن لبيد الأنصاري يوم الجمل - وكان من أصحاب علي عليه السلام :
كَيْفَ تَرَى الْأَنْصَارَ فِي يَوْمِ الْكَأَبِ إِنَّا أَنَاسٌ لَا نُبَالِي مَنْ عَطِبَ
وَلَا نُبَالِي فِي الْوَصِيِّ مَنْ غَضِبَ وَإِنَّمَا الْأَنْصَارُ جِدٌّ لَا لَعِبَ
هَذَا عَلِيٌّ وَابْنُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ نَصْرُهُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ قَدْ كَذَبَ
* مَنْ يَكْسِبُ الْبَغْيَ فَبُئْسَمَا اكْتَسَبَ *

وقال حُجْر بن عدي السكندى في ذلك اليوم أيضاً :

يَا رَبَّنَا سَلِّمْ لَنَا عَلِيًّا سَلِّمْ لَنَا الْمُبَارَكَ الْمُضِيًّا
الْمُؤْمِنَ الْمُوَحِّدَ الْقَيِّمَ لَا خَطِلَ الرَّأْيِ وَلَا غَوِيًّا
بَلْ هَادِيًّا مُوَفِّقًا مَهْدِيًّا وَاحْفَظْهُ رَبِّي وَاحْفَظِ النَّبِيَّا
فِيهِ فَقَدْ كَانَ لَهُ وَلِيًّا ثُمَّ ارْتَضَاهُ بَعْدَهُ وَصِيًّا

وقال خزيمة بن ثابت الأنصاري، ذو الشهادتين - وكان بدريًّا - في يوم الجمل أيضاً :

ليس بين الأنصار في جَحْمَةِ الْحَرِّ ب وبين الْمُدَادَةِ إِلَّا الطَّعَانُ
وَقِرَاعُ السُّكَّامِ بِالْمُضْبِ الْبِي ضِ إِذَا مَا تَحَطَّمَ الْمُرَانُ
فَادْعَاهَا تَسْتَجِبُ فَلَيْسَ مِنَ الْخِزِ رَجِرِ وَالْأَوْسُ يَاعْلَى جَبَانُ
يَا وَصِيَّ النَّبِيِّ قَدْ أَجَلَتِ الْحَرِّ بُ الْأَعَادِي وَسَارَتِ الْأَطْعَانُ
وَاسْتَقَامَتْ لَكَ الْأُمُورُ سِوَى اللَّهِ ام وَفِي الشَّامِ يَظْهَرُ الْإِذْعَانُ
حَسْبُهُمْ مَا رَأَوْا وَحَسْبُكَ مِنَّا هَكَذَا نَحْنُ حَيْثُ كُنَّا وَكَانُوا

وقال خزيمه أيضاً في يوم الجمل :

أعاشَ خَلِيٌّ عَنْ عَلِيٍّ وَعَيْبِهِ بما ليس فيه إنما أنتِ والدّه
وصى رسول الله من دون أهله وأنتِ على ما كان من ذلك شاهده
وحسبك منه بعض ما علمته وبكفيك لو لم تعلمي غير واحد
إذا قيل ماذا عبت منه رميته بخذل ابن عفاً وما تلك آبدّه
وليس سماه الله قاطرة دما لذاك وما الأرض الفضا بمائده

وقال ابن بديل بن ورقاء الخزاعي يوم الجمل أيضاً :

يا قوم للخطبة العظمى التي حدثت حرب الوصي وما للحرب من آبي
الفاصل الحسبم بالتقوى إذا ضربت تلك القبائل أخساً لأسداس^(١)

وقال عمرو بن أحيحة يوم الجمل في خطبة الحسن بن علي عليه السلام بعد خطبة عبدالله
ابن الزبير :

حسن الخبير بأشبهه أبيه قمت فينا مقام خير خطيب
قمت بالخطبة التي صدع الله بها عن أبيك أهل العيوب
وكشفت القناع فأتضح الأمر وأصلحت فاسدات القلوب
لست كابن الزبير بلجج في القو ل وطأطا عنان فسلي مريب
وأبى الله أن يقوم بما قا م به ابن الوصي وابن النجيب
إن شخصاً بين النبي - لك الخبير - وبين الوصي غير مشوب

(١) يقال لمن يظهر شيئاً ويريد غيره : ضرب أخساً لأسداس . والخس والسدس : من أظلمه الإبل ، والأصل فيه أن الرجل إذا أراد سفراً بعيداً عود إليه أن تشرب خساً ، ثم سدساً ، حتى إذا أخذت في السير صبرت عن الماء . (بجم الأمثال ١ : ٤١٨) .

وقال زحر بن قيس الجعفي يوم الجمل أيضاً :
 أَضْرِبُكُمْ حَتَّى تُقْرُوا لِعَلِيٍّ خَيْرَ قُرَيْشٍ كُلِّهَا بَعْدَ النَّبِيِّ
 مَنْ زَاتَهُ اللَّهُ وَسَمَّاهُ الْوَصِيَّ إِنَّ الْوَلِيَّ حَافِظٌ ظَهَرَ الْوَلِيَّ
 * كما الغوى تابع أمر الغوى *

ذكر هذه الأشعار والأراجيز بأجمعها أبو مخنف لوط بن يحيى ^(١) في كتاب وقعة
 الجمل . وأبو مخنف من المحدثين ، ومن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة
 ولا معدوداً من رجالها .

ومما رويناه من أشعار صفين التي تتضمن تسميته عليه السلام بالوصي ما ذكره نصر
 ابن مزاحم ^(٢) بن يسار المنقري في كتاب صفين ، وهو من رجال الحديث . قال نصر
 ابن مزاحم : قال زحر ^(٣) بن قيس الجعفي :

فَصَلَّى الْإِلَهُ عَلَى أَحْمَدٍ رَسُولِ الْمَلِكِ تَمَامَ النَّعَمِ
 رَسُولِ الْمَلِكِ وَمِنْ بَعْدِهِ خَلِيفَتُهُ الْقَائِمُ الْمَدْعَمُ
 عَلِيًّا عَنَيْتُ وَصِيَّ النَّبِيِّ نُجَالِدُهُ عَنْهُ غَوَاةَ الْأُمَمِ

قال نصر : ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث بن قيس ^(٤) :

أَتَانَا الرَّسُولُ رَسُولُ الْإِمَامِ ^(٥) فَسُرَّ بِمَقْدَمِهِ الْمُسْلِمُونَ
 رَسُولُ الْوَصِيِّ وَصِيَّ النَّبِيِّ لَهُ السَّبْقُ وَالْفَضْلُ فِي الْمُؤْمِنِينَ

(١) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي ؛ كان راوية أخبار وصاحب تصانيف في
 الفتوح وحروب الإسلام ، توفي سنة ١٥٧ . معجم الأدباء ١٧ : ٤١ ، الفهرست ٩٣ .
 (٢) ذكره ابن حجر في لسان الميزان ٦ : ١٥٧ ؛ وقال : إنه توفي سنة ٢١٢ .
 (٣) زحر ، ضبطه صاحب القاموس بفتح الزاي وسكون الحاء المهملة ؛ والذي في كتاب صفين ص ٢٢ ،
 أنها لجرير بن عبد الله البجلي ، ضمن عشرة أبيات .
 (٤) كتاب صفين ٢٧ . (٥) صفين : « رسول علي » .

ومن الشعر المنسوب إلى الأشعث أيضاً :

أَتَانَا الرَّسُولُ رَسُولُ الْوَصِيِّ عَلَى الْمَهْدِ مِنْ هَاشِمٍ ^(١)
 وَزِيرُ النَّبِيِّ وَذُو صِهْرِهِ وَخَيْرُ الْبَرِيَّةِ وَالْعَالَمِ ^(٢)
 قَالَ نَصْرُ بْنُ مُزَاحِمٍ : مِنْ شَعْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صَفِينٍ :
 يَاعَجَبَا لَقَدْ سَمِعْتُ مُنْكَرًا كَذِبًا عَلَى اللَّهِ يُشِيبُ الشَّعْرَ ^(٣)
 مَا كَانَ يَرْضَى أَحَدٌ لَوْ أَخْبَرَا أَنْ يَقْرِنُوا وَصِيَّهُ وَالْأَبْتَرَا
 شَانِي الرَّسُولِ وَاللَّعِينِ الْأَخْزَرَا ^(٤) إِنِّي إِذَا الْمَوْتُ دَنَا وَحَضَرَا ^(٥)
 تَمَرَّتْ نَوْبِي وَدَعَوْتُ قَنْبَرَا : قَدَّمْ لِي لَوْ أَيْ لَا تُؤَخِّرْ حَذَرَا
 لَا يَدْفَعُ الْحِذَارُ مَا قَدْ قُدِّرَا ^(٦) لَوْ أَنَّ عِنْدِي يَابْنَ حَرْبٍ جَعَفَرَا
 أَوْ حِزَّةَ الْقَرَمِ الْهُمَامِ الْأَزْهَرَا رَأَتْ قَرِيشَ نَجْمَ لَيْلٍ ظَهَرَا

(١) كتاب صفين ٢٨

(٢) كتاب صفين : « وخير البرية في العالم » . (٣) كتاب صفين ٤٨ ؛ وبعد هذا البيت :

* يَسْتَرِقُ السَّمْعَ وَيَفْشَى الْبَصَرَ *

(٤) كذا في ١ ، وفي كتاب صفين ، وفي ب « الأخورا » ، وبعده هناك :

كِلَاهُمَا فِي جُنْدِهِ قَدْ عَسَكَرَا قَدْ بَاعَ هَذَا دِينَهُ فَأَفْجَرَا
 مَنْ ذَا بِدُنْيَا بَيْعِهِ قَدْ خَسِرَا بِمَلِكٍ مِصْرٍ أَنْ أَصَابَ الظَّفَرَ

(٥) ١ : « وأحضرا » .

(٦) كتاب صفين : « لن يدفع » وبعده :

لَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ مَوْتًا أَحْمَرَا عَبَّاتُ هَمْدَانَ وَعَبَّوْا خَيْرَا
 حَتَّى يَمَانٍ يُعْظَمُونَ أَلْطَفَرَا قِرْنُ إِذَا نَاطَحَ قِرْنًا كَسَرَا
 قُلْ لَابْنِ حَرْبٍ لَا تَدَبُّ أَلْخَمَرَا أُرُوذُ قَلِيلًا أَبَدٍ مِنْكَ الضَّجَرَا
 لَا تَحْسَبْنِي يَابْنَ حَرْبٍ تَعْمَرَا وَسَلَّ بِنَا بَدْرًا مَعًا وَخَيْرَا
 كَانَتْ قَرِيشُ يَوْمَ بَدْرِ جَزَرَا إِذْ وَرَدُوا الْأَمْرَ فَذَمُّوا الصَّدَرَا

وقال جرير بن عبد الله البجليّ : كتب بهذا الشعر إلى شرّ حبيل بن السمط
الكندى ، رئيس اليمانية من أصحاب معاوية :

نَصَحْتُكَ يَا بْنَ السَّمْطِ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَمَالِكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الدِّينِ مِنْ بَدَلٍ^(١)
وَلَا تَكُ كَالْمُجْرِمِ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ فَقَدْ خُرِقَ السَّرْبَالُ وَاسْتَنَوَقَ الْجَمَلُ
مِثَالُ ابْنِ هُنْدٍ فِي عَلَى عَضِيهَةٍ وَلِلَّهِ فِي صَدْرِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَجَلٌ^(٢)
وَمَا كَانَ إِلَّا لَازِمًا قَعَرَ بَيْتَهُ إِنْ أَنْ آتَى عُمَانَ فِي بَيْتِهِ الْأَجَلُ
وَصَى رَسُولَ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ وَفَارِسَهُ الْحَامِي بِهِ يُضْرَبُ الْمِثْلُ^(٣)
وقال النعمان بن عجلان الأنصاري^(٤) :

كَيْفَ التَّفَرُّقُ وَالْوَصَى إِمَامُنَا لَا كَيْفَ إِلَّا حَايِرَةٌ وَتَحَاذُلَا
لَا تَفِينُنَّ عَقُولَكُمْ ، لَا خَيْرَ فِي مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْبَلَابِلِ عَاقِلَا
وَذَرُّوا مَعَاوِيَةَ الْغَوِيَّ وَتَابِعُوا دِينَ الْوَصَى لِتَحْمَدُوهُ آجِلَا^(٥)
وقال عبد الرحمن بن ذؤيب الأسلمي :

أَلَا أُبْلِغُ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ فَمَا لَكَ لَا تَهَشُّ إِلَى الضَّرَابِ^(٦) !
فَإِنْ تَسَلَّمَ وَتَبَقَّ الدَّهْرَ يَوْمًا نَزْرُكَ بِجَحْفَلٍ عَدَدَ التَّرَابِ
يَقُودُهُمُ الْوَصَى إِلَيْكَ حَتَّى يَرُدَّكَ عَنْ ضَلَالٍ وَارْتِيَابِ

وقال المفيرة بن الحارث بن عبد المطلب :

يَا عُصْبَةَ الْمَوْتِ صَبْرًا لَا يَهْوُلُكُمْ جَيْشُ ابْنِ حَرْبٍ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ^(٧)
وَأَقِمْوْا أَنْ مَنْ أَضْحَى يُخَالِفُكُمْ أَضْحَى شَقِيًّا وَأَمْسَى نَفْسَهُ خَسِيرَا

(١) كتاب صفين ص ٥٣ ، ٥٤ ، وروايته هناك : « شرحبيل يابن السمط » .

(٢) صفين : « وقال ابن هند » . (٣) صفين : « وفارسه الأولى به » .

(٤) صفين ص ٢١٥ ، وفيه : « النضر بن عجلان » .

(٥) صفين : « تصادفوه عاجلا » . (٦) صفين ٤٣٤

(٧) صفين ٤٣٧ ، وفيه : « ياشرطة الخير » .

فِيكُمْ وَصِيَّ رَسُولِ اللَّهِ قَائِدُكُمْ وَصَهْرُهُ وَكِتَابُ اللَّهِ قَدْ نُشِرَا
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ ^(١) :

وَصِيَّ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ وَفَارِسُهُ إِنْ قِيلَ هَلْ مِنْ مُنَازِلٍ !
فَدُونَكُمْ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي مَهَاجِرًا أَشَمَّ كَفَضْلِ السَّيْفِ عَيْرَ حَلَّاحِلٍ ^(٢)
وَالْأَشْمَارُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ كَثِيرَةٌ جَدًّا ، وَلَكِنَّا ذَكَرْنَا مِنْهَا هَاهُنَا بَعْضَ
مَا قِيلَ فِي هَذَيْنِ الْجُزْأَيْنِ ، فَأَمَّا مَا عَدَاهُمَا فَإِنَّهُ يَجَلُّ عَنِ الْحَصْرِ ، وَيَعْظُمُ عَنِ الْإِحْصَاءِ
وَالْعَدِّ ، وَلَوْلَا خَوْفُ الْمَلَالَةِ وَالْإِضْجَارِ ، لَذَكَرْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا يَمْلَأُ أَوْرَاقًا كَثِيرَةً .



(١) صفين : ٤٧٤ ، ونسبها إلى الفضل بن عباس .

(٢) غير القوم : سيدهم ؛ والحلاحل بالفتح : جمع حلاحل ، بالضم ، وهو الشجاع .

ومن خطبة له وهى المعروفة بالشقشقية^(١) :

الأبضل :

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّقَهَا ابْنُ أَبِي قُحَّافَةَ^(٢) ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ
الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا ؛ يَنْجَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ ، وَلَا يَرْقَى إِلَى الطَّيْرِ . فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا ،
وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا ، وَطَفِقْتُ أُرْتَضِّي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بَيْدِ جَذَاءٍ ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ
عَمِيَاءٍ ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ^(٣) حَتَّى
يَلْقَى رَبَّهُ ؛ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَبُّ ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى ، وَفِي الْخَلْقِ
شَجَا . أَرَى تَرَأَى نَهَبًا .

الشَّنْخ :

سَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا ، أَى أَرَخَيْتُ ، يَقُولُ : ضَرَبْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا حِجَابًا ؛ فِعَلَ الزَّاهِدِ
فِيهَا ، الرَّاغِبِ عَنْهَا . وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا ، أَى قَطَعْتُهَا وَصَرَمْتُهَا ؛ وَهُوَ مِثْلُ ، قَالُوا :
لَأَنْ مَنْ كَانَ إِلَى جَانِبِكَ الْإِيْمَنُ مِثْلًا فَطَوَيْتُ كَشْحَكَ الْإِيْسِرَ فَقَدْ مِلْتَ عَنْهُ ، وَالْكَشْحُ :
مَا بَيْنَ الْخَاصِرَةِ وَالْجَنْبِ . وَعِنْدِي أَنَّهُمْ أَرَادُوا غَيْرَ ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ أَجَاعَ نَفْسَهُ فَقَدْ
طَوَى كَشْحَهُ ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَكَلَ وَشَبِعَ فَقَدْ مَلَأَ كَشْحَهُ ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنِّي أَجَعْتُ
نَفْسِي عَنْهَا ، وَلَمْ أَلْقَمَهَا . وَالْيَدِ الْجَذَاءُ بِالْدَالِ الْمَهْمَلَةِ ، وَبِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ ، وَالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ مَعَ
الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ ، كُلُّهُ بِمَعْنَى الْمَقْطُوعَةِ . وَالطَّخِيَةُ : قِطْعَةٌ مِنَ الْغَيْمِ وَالسَّحَابِ . وَقَوْلُهُ :
« عَمِيَاءَ » ، تَأْكِيدٌ لظُلَامِ الْحَالِ وَاسْوَادِهَا ؛ يَقُولُونَ : مَفَازَةٌ عَمِيَاءَ ، أَى يَعْمَى فِيهَا الدَّلِيلُ .

(١) مخطوطة التهج : « الشقشقية والمقصصة » . (٢) مخطوطة التهج : « فلان » .

(٣) مخطوطة التهج : « المؤمن » .

ويكده : يسعى ويكدّ مع مشقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ ^(١) . وهاتا ، بمعنى هذه ، « ها » للتنبيه ، و « تا » للإشارة ، ومعنى « تا » ذى ، وهذا أحجى من كذا أى أليق بالحجا ، وهو العقل .

وفى هذا الفصل من باب البدیع فى علم البیان عشرة ألفاظ :
أولها : قوله : « لقد تمصّها » ، أى جعلها كالقميص مشتملة عليه ، والضمير للخلافة ، ولم يذكرها للعلم بها ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(٢) ، وكقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ^(٣) ، وكقول حاتم :
أماوى ما يغنى السـُـرّاء عن الفقى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر ^(٤)
وهذه اللفظة مأخوذة من كتاب الله تعالى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ الْقُوَى ﴾ ^(٥)
وقول النابغة ^(٦) :

تسرّبل سربالاً من النّصر وأرتدى عليه بعصبي في الكريهة قاصيل
الثانية : قوله : « ينحدر عنى السيل » ، يعنى رفعة منزلته عليه السلام ، كأنه فى ذروة جبل أو يقاع مشرف ، ينحدر السيل عنه إلى الوهاد والغيطان ، قال الهذلى :
وعيطاء بسكتر فيها الزليل وينحدر السيل عنها انحداراً ^(٧)
الثالثة : قوله عليه السلام : « ولا يرقى إلى الطير » ، هذه أعظم فى الرفعة والعلو من التى قبلها ، لأن السيل ينحدر عن الرابية والهضبة ، وأما تعذر رقى الطير فربما يكون للقلال الشاهقة جدّاً ، بل ما هو أعلى من قلال الجبال ، كأنه يقول : إني لعلو منزلتى كمن فى السماء التى يستحيل أن يرقى الطير إليها ، قال أبو الطيب :
فوق السماء وفوق ما طلبوا فإذا أرادوا غاية نزّلوا ^(٨)

- | | |
|----------------------|---|
| (١) سورة الانشقاق ٦ | (٢) سورة ص ٣٢ |
| (٣) سورة الرحمن ٢٦ | (٤) ديوانه ١١٨ |
| (٥) سورة الأعراف ٢٦ | (٦) كذا فى الأصول ، والصواب أنه لأبى تمام ، |
| كما فى ديوانه ٣ : ٨٢ | (٧) عيطاء : مرتفعة . والزليل : الزلل . |
| (٨) ديوانه ٣ : ٣١٠ | |

وقال حبيب :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلوٍّ كَأَنَّمَا تَحَاوِلُ ثَاراً عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ^(١)

الرابعة : قوله : « سَدَّاتِ دُونَهَا ثُوبَا » ، قد ذكرناه .

الخامسة : قوله « وَطَوَيْتِ عَاكِشِجَا » قد ذكرناه أيضاً .

السادسة : قوله : « أَصُولُ بِيَدٍ جَدَّاءَ » ، قد ذكرناه .

السابعة : قوله : « أَصْبِرْ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءَ » قد ذكرناه أيضاً .

الثامنة : قوله : « وَفِي الْعَيْنِ قَذَى » ، أى صبرت على مضض كما يصبر الأرمـد .

التاسعة : قوله : « وَفِي الْخَلْقِ شَجَا » وهو ما يعترض في الخلق . أى كما يصبر من

غَبَصَ بِأَمْرِ فَهُوَ يَكَابِدُ الْخَلْقَ .

العاشرة : قوله : « أَرَى تُرَائِي نَهْبَاً » ، كنى عن الخلافة بالتراث ، وهو الموروث

من المال .

فأما قوله عليه السلام : « إِنْ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا » ، فليس من هذا النمط

الذى نحن فيه ، ولكنه تشبيه محض ، خارج من باب الاستعارة والتوسع ؛ يقول : كما أنَّ

الرحا لا تدور إلا على القطب ، ودورانها بغير قطب لا ثمرة له ولا فائدة فيه ، كذلك نسبتى

إلى الخلافة ، فإنها لا تقوم إلا بى ، ولا يدور أمرها إلا على .

هكذا فسروه . وعندى أنه أراد أمرا آخر ، وهو أنى من الخلافة فى الصميم ، وفى

وَسَطِهَا وَتُحِبُّوْحَتَهَا ، كما أن القطب وسط دائرة الرحا ، قال الراجز^(٢) :

(١) ديوانه ١ : ٢١٧

(٢) هو جرير بن عطية ، ديوانه ٥٢٠ ؛ والأبيات أيضا فى الكامل ٢ : ١١٢ ، ٣ : ١٩١ ،
يقولها فى الحسك بن أيوب بن أبى عقيل الثقفى ؛ ابن عم الحجاج ، وكان عامله على البصرة .

على قِلاصٍ مثل خيطان السلم^(١) إذا قَطَعْنَ علماً بدأ عَلم^(٢)
حتى أُنْخِئَهَا إلى بابِ الْحَكْمِ^(٣) خليفة الحجاج غير التهم
* في سُرَّةِ المجد وَبُحْبُوحِ الْكَرَمِ^(٤) *

وقال أمية بن أبى الصلت لعبد الله بن جُدعان :

فخلتَ منها بالبطا حَـ وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالظَّوَاهِرِ^(٥)
وأما قوله : « يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ » فيمكن أن يكونَ من
باب الحقائق ، ويمكن أن يكونَ من باب المجازات والاستعارات ؛ أما الأول فإنه يعنى به
طولَ مدة ولاية المتقدمين عليه ، فإنها مدة يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير .
وأما الثانى فإنه يعنى بذلك صعوبة تلك الأيام ؛ حتى إن الكبير من الناس يكاد يَهْرَمُ
لصعوبتها ، والصغير يشيب من أهوالها ، كقولهم : هذا أمر يشيب له الوليد ؛ وإن لم يشب
على الحقيقة .

(١) القلاص : جمع قلوبس ؛ وهى الناقة الفتية . والخيطان : جمع خوط ؛ وهو الفصن الناعم . والسلم :
شجر ، وأحدثه سلمة .
وبعده فى رواية الديوان :

قَدْ طَوَّيْتُ بِطَوْنِهَا عَلَى الْأَدَمِ بَعْدَ انْفِصَاحِ الْبُذْنِ وَاللَّحْمِ الزَّيِّمِ
(٢) بعده فى رواية الديوان :

* فَهِنَّ بَحْنًا كَمْضِلَاتٍ انْخَلَدَمَ *

(٣) رواية الديوان :

* حَتَّى تَنْأَهَيْنِ إِلَى بَابِ الْحَكْمِ *

(٤) رواية الديوان :

* فِي ضَيْضِ الْمَجْدِ وَبُؤْبُؤِ الْكَرَمِ *

(٥) البطاح : بطن مكة ، والظواهر أعلاما ؛ والبيت فى اللسان ٦ : ١٩٧ منسوب للكعب بن زهير الرواية :

فَحَلَلْتُ مُغْتَلَجَ الْبَطَا حَـ وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالظَّوَاهِرِ

واعلم أن في الكلام تقدماً وتأخيراً ، وتقديره : ولا يرق إلى الطير ، فطفقت أرثى
بين كذا وكذا ، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى فسدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها
كشحا ، ثم « فصبرت وفي العين قذى » ؛ إلى آخر القصة ، لأنه لا يجوز أن يسدل دونها ثوبا
ويطوى عنها كشحا ، ثم يطفق يرتى بين أن يناديهم أو يصبر ؛ ألا ترى أنه إذا سدّل
دونها ثوبا ، وطوى عنها كشحا فقد تركها وصرمها ، ومن يترك ويصرم لا يرتى
في المناظرة والتقديم والتأخير طريق لا حب ، وسبيل مهيم في لغة العرب ، قال سبحانه :
﴿ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ ^(١) ، أي أنزل على
عبدك الكتاب قَيِّمًا ، ولم يجعل له عوجا ، وهذا كثير .
وقوله عليه السلام : « حتى يلتقي ربه » بالوقف والإسكان ، كما جاءت به الرواية في
قوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ^(٢) بالوقف أيضا .

[نسب أبي بكر ونبذة من أخبار أبيه]

ابن أبي قحافة المشار إليه ، هو أبو بكر ، واسمه القديم عبد الكعبة ، فسماه رسول الله
صلى الله عليه وآله عبد الله . واختلفوا في « عتيق » ، فقيل : كان اسمه في الجاهلية ، وقيل :
بل سماه به رسول الله صلى الله عليه وآله . واسم أبي قحافة عثمان ، وهو عثمان بن عامر بن
عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب . وأمه ابنة عم أبيه ،
وهي أم الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد . أسلم أبو قحافة يوم الفتح ، جاد به
ابنه أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة ^(٣) البيضاء ،
فأسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « غَيَّرُوا شَيْبَتَهُ » .

(٢) سورة البينة ٨

(١) سورة الكهف ١ ، ٢

(٣) أورد الخبر ابن الأثير في النهاية (١ : ١٢٩) : « أتى بأبي قحافة يوم الفتح وكان رأسه ثغامة » .
وقال : « هو نبت أبيض الزهر والتمر ، يشبه به الشيب . وقيل : هي شجرة تبيض كأنها الثلج » .

وولى ابنه الخلافة وهو حىّ منقطع فى بيته ، مكفوف عاجز عن الحركة ، فسمع ضوضاء الناس ، فقال ، ما الخبر ؟ فقالوا : ولى ابنك الخلافة ، فقال : رضيت بنو عبد مناف بذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت . ولم يل الخلافة من أبوه حىّ إلا أبو بكر وأبو بكر عبد الكريم ^(١) الطائع لله ، ولى الأمر وأبوه المطيع حىّ ، خلع نفسه من الخلافة ، وعهد بها إلى ابنه . وكان المنصور يسمى عبد الله بن الحسن بن الحسن ^(٢) أبا قحافة تهكمًا به ، لأن ابنته ^(٣) محمدا ادعى الخلافة وأبوه حىّ .

ومات أبو بكر وأبو قحافة حىّ ، فسمع الأصوات فسأل ، فقيل : مات ابنك ، فقال : رزء جليل . وتوفى أبو قحافة فى أيام عمر فى سنة أربع عشرة للهجرة ، وعمره سبع وتسعون سنة ، وهى السنة التى توفى فيها نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم ^(٤) .

إن قيل : يئنوننا ما عندكم فى هذا الكلام ؟ أليس صريحه دالًا على تظلم القوم ونسبتهم إلى اغتصاب الأمر ! فما قولكم فى ذلك ؟ إن حكمت عليهم بذلك فقد طعنتم فيهم ، وإن لم تحكموا عليهم بذلك فقد طعنتم فى المتظلم المتكلم عليهم ! قيل : أما الإمامية من الشيعة فتجبرى هذه الألفاظ على ظواهرها ، وتذهب إلى أن النبى صلى الله عليه وآله نص على أمير المؤمنين عليه السلام ، وأنه غضب حقه .

(١) أصيب المطيع لله بالعاج ، ولما قوى عليه وثقل لسانه ، خلع نفسه . وبويج لولده الضائع ؛ وكان ذلك فى سنة ٣٦٤ . الفخرى ص ٢٥٣ . (٢) كان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، شيعى بنى هاشم فى وقته ، والمقدم فيهم . وانظر أخباره فى مقاتل الطالبين ص ١٧٩-١٨٥ . (٣) كان علماء آل أبى طالب يرون فى محمد بن عبد الله بن الحسن أنه النفس الزكية ؛ وكان أفضل أهل بيته فى علمه بكتاب الله وحفظه له ، مع فقهه فى الدين وشجاعته وجوده وبأسه وكل أمر يحمل بمثله . وانظر ترجمته وأخباره فى مقاتل الطالبين ص ٢٣٢ - ٢٩٩ . (٤) هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ له صحبة ؛ ، وكان أسن من أسلم من بنى هاشم ؛ حتى من عميه حمزة والعباس . الإصابة ٦ : ٢٥٨ .

وأما أصحابنا رحمهم الله ؛ فلهم أن يقولوا : إنه لما كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الأفضل والأحقّ، وعُدِلَ عنه إلى مَنْ لا يساويه في فضل ، ولا يوازيه في جهاد وعِلْم ؛ ولا يمثله في سُؤدد وشرف - ساغَ إطلاقُ هذه الألفاظ ، وإن كان من وُسْم بالخلافة قبله عدلاً تقيماً ، وكانت بيعتهُ بيعةً صحيحةً ؛ ألا ترى أن البلد قد يكون فيه فقيهان ؛ أحدهما أعلم من الآخر بطبقاتٍ كثيرة ، فيجعل السلطان الأنقصَ علماً منهما قاضياً ، فيتوجد الأعلَمُ^(١) ويتألم ، وينفُثُ أحياناً بالشَّكوى ، ولا يكون ذلك طعناً في القاضي ولا نفيّاً له ، ولا حُكماً منه بأنه غير صالح ، بل للعدول عن الأحقّ والأولى ؛ وهذا أمر مركوز في طباع البشر ، ومجبول في أصل الغريزة والفطرة ؛ فأصحابنا رحمهم الله ، لما أحسنوا الظنّ بالصحابّة - وحملوا ما وقع منهم على وجه الصواب ، وأنهم نظروا إلى مصلحة الإسلام ، وخافوا فتنةً لا تقتصر على ذهاب الخلافة فقط ، بل وتفضي إلى ذهاب النبوة والملة ، فعادوا عن الأفضل الأشرف الأحقّ ، إلى فاضلٍ آخر دونه ، فعقدوا له - احتجاجاً إلى تأويل هذه الألفاظ الصادرة عن معتقدونه في الجلالة والرفعة قريباً من منزلة النبوة ، فتأولوها بهذا التأويل ، وحملوها على التألم للعدول عن الأولى .

وليس هذا بأبعد من تأويل الإمامية قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾^(٢) ، وقولهم : معنى « عصى » أنه عدل عن الأولى ، لأنّ الأمر بترك أكل الشجرة كان أمراً على سبيل الندب ، فلما تركه آدم ، كان تاركاً للأفضل والأولى ، فسمى عاصياً باعتبار مخالفة الأولى ، وحلوا « غَوَى » على « خاب » لاعلى الغواية بمعنى الضلال . ومعلوم أن تأويل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحمله على أنه شكاً من تركهم الأولى أحسن من تحلّ قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ ﴾ على أنه ترك الأولى .

(١) ب : « الأعظم » ، والأجود ما أثبتته من أ

(٢) سورة طه ١٢١

إن قيل : لا تخلو الصحابة إِمَّا أن تكون عدلت عن الأفضل لعلّة ومانع في الأفضل
أولا لمانع ؛ فإن كان لا لمانع كان ذلك عقداً للمفضول بالهوى ، فيكون باطلاً ، وإن
كان لمانع - وهو ما تذكرونه من خوف الفتنة ، وكون الناس كانوا يبغضون علياً عليه
السلام ويحسدونه - فقد كان يجب أن يعذّرهم أمير المؤمنين عليه السلام في العدول
عنه ، ويعلم أن العقد لغيره هو المصلحة للإسلام ، فكيف حسن منه أن يشكّوهم بعد ذلك ؛
ويتوجّد عليهم !

وأيضاً ، فما معنى قوله : « فطفقت أرثى بين أن أصول بيد جدّاء » ، على ما تأوّلتم به
كلامه ؛ فإن تارك الأوّل لا يُصال عليه بالحرب !

قيل : يجوز أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام لم يغلب على ظنه ما غلب على ظنون
الصحابة من الشغب وثوران الفتنة ، والظنون تختلف باختلاف الأمارات ، فربّ إنسان
يغلب على ظنه أمر يغلب على ظن غيره خلافاً . وأما قوله : « أرثى بين أن أصول » ، فيجوز
أن يكون لم يعن به صيالة الحرب ، بل صيالة الجدال والمناظرة ؛ يبيّن ذلك أنه لو كان جادلهم
وأظهر ما في نفسه لهم ، فربّما خصّموه بأن يقولوا له : قد غلب على ظنوننا أن الفساد
يعظم ويتفاقم إن وليت الأمر ، ولا يجوز مع غلبة ظنوننا لذلك أن نسلم الأمر إليك ، فهو
عليه السلام قال : طفقت أرثى بين أن أذكر لهم فضائلهم ، وأحاجّهم بها ، فيجيبوني
بهذا الضرب من الجواب - الذي نصير حُجَّتِي به جدّاء^(١) مقطوعة ، ولا قدرة لي على تشييدها
ونصرتها - وبين أن أصبر على ما مُنيت به ، ودُفِعت إليّه .

إن قيل : إذا كان عليه السلام لم يغلب على ظنه وجود العلة والمانع فيه ، وقد استراب
الصحابة وشكّاهم لعدوهم عن الأفضل الذي لا علة فيه عنده فقد سمّتهم أنه ظلم الصحابة ،
ونسبهم إلى غصب حقّه ، فما الفرق بين ذلك وبين أن يستظلمهم لخالفه النص ؟ وكيف

(١) : « جدّاء » .

هربتم من نسبته لهم إلى الظلم لدفع النصّ ، ووقعتم في نسبته لهم إلى الظلم لخلاف الأولى من غير علة في الأولى ، ومعلوم أن مخالفة الأولى من غير علة في الأولى كتارك النصّ ، لأنّ العقد في كلا الموضعين يكون فاسدا !

قيل : الفرق بين الأمرين ظاهر ، لأنه عليه السلام لو نسبهم إلى مخالفة النصّ لوجب وجود النصّ ، ولو كان النصّ موجودا لسكانوا فساقا أو كفارا لمخالفته ، وأمّا إذا نسبهم إلى ترك الأولى من غير علة في الأولى ، فقد نسبهم إلى أمر يدعون فيه خلاف ما يدعى عليه السلام ، وأحد الأمرين لازم ؛ وهو إما أن يكون ظنهم صحيحا أو غير صحيح ، فإن كان ظنهم هو الصحيح فلا كلام في المسألة ، وإن لم يكن ظنهم صحيحا كانوا كالمجتهد إذا ظن وأخطأ فإنه معذور ، ومخالفة النصّ [أمر] خارج عن هذا الباب ؛ لأنّ مخالفته غير معذور بحال ، فافترق الحملان .

* * *

[مرض رسول الله وإمرة أسامة بن زيد على الجيش]

لما مرض رسول الله صلى الله عليه وآله مرض الموت ، دعا أسامة بن زيد بن حارثة ، فقال : سرّ إلى مقتل أبيك^(١) ، فأوطنيهم الخيل ، فقد وليتكم على هذا الجيش ، وإن أظفرك الله بالعدوّ ، فأقلل اللبث ، وبثّ العيون ، وقدمّ الطلائع . فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا كان في ذلك الجيش ؛ منهم أبو بكر وعمر ، فتسكّم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلام على جيلة المهاجرين والأنصار ! فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك ، وخرج عاصبا رأسه ، فصعد المنبر وعليه قطيفة^(٢) فقال : « أيها الناس ، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة ! لئن طعنتم في تأميري أسامة ، فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وأيم الله إن كان خليقا بالإمارة ، وابنه من^(٣) بعده خليق بها ،

(١) قتل زيد بن حارثة بمؤنة ؛ لإحدى قرى البلقاء ؛ وتفصيل الخبر في الطبري ، (حوادث السنة

الثامنة) . (٢) القطيفة : كساء له أهداب (٣) ١ : « وإن ابنه من بعده الخليق بها » .

وإنهما لمن أحبّ الناس إلى ؛ فاستوصوا به خيراً ، فإنه من خياركم » . ثم نزل ودخل بيته ، وجاء المسلمون يودّعون رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويمضون إلى عسكر أسامة بالجرف^(١) . وثقل^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتدّ ما يجده ، فأرسل بعض نساؤه إلى أسامة وبعض من كان معه ، يُعلمونهم ذلك ، فدخل أسامة من معسكره - والنبي صلى الله عليه وآله مغمور ، وهو اليوم الذي لدّوه^(٣) فيه - فتطأطأ أسامة عليه فقَبَّله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد أسكت فهو لا يتكلّم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ؛ كالداعى له ، ثم أشار إليه بالرجوع إلى عسكره ، والتوجه لما بعثه فيه ، فرجع أسامة إلى عسكره . ثم أرسل نساء رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسامة يأمرنه بالدخول ، ويقولن إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أصبح بارئاً ، فدخل أسامة من معسكره يوم الاثنين ، الثاني عشر من شهر ربيع الأول فوجد رسول الله صلى الله عليه وآله مُفِيقاً ، فأمره بالخروج وتعجيل النفوذ ، وقال : اغدُ على بركة الله ، وجعل يقول : « أنفذوا بعث أسامة » ، ويكرّر ذلك ، فودّع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج ومعه أبو بكر وعمر ، فلما ركب جاءه رسول أمّ أيمن ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله يموت ، فأقبل ومعه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فأنهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين زالت الشمس من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين ، وقد مات واللواء مع بُرَيْدة بن الحَصِيب ، فدخل باللواء فركّزه عند باب رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مُغْلَق ، وعلى عليه السلام وبعض بنى هاشم مشتملون بإعداد جهازه وغَسَّله ، فقال العباس لعلى - وهما في الدار : امددْ يدك أبايكم فيقول الناس : عمّ رسول الله بايع ابن عمّ رسول الله ؛ فلا يختلف عليك

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) ثقل ، بالكسر : اشتدّ مرضه .

(٣) يقال : لدّ المريض ، بالبناء المعجول أى دووى باللدود ؛ بالفتح ؛ وهو من الأدوية ما يسقاه المريض في أحد شقي الفم ؛ وانظر النهاية لابن الأثير ٣ : ٥٥ ، واللسان ٤ : ٣٩٣ .

اثنان ، فقال له : أَوْ يَطْمَعُ يَاعْمَ فِيهَا طَامِعٌ غَيْرِي ! قال : ستعلم ؛ فلم يلبث أن جاءتهما الأخبار بأنّ الأنصار أقمعدت سعداً لتبأيعه ، وأنّ عمر جاء بأبي بكر فبأيعه ، وسبق الأنصار بالبيعة ، فندم علىّ عليه السلام على تفریطه في أمر البيعة وتقاعدته عنها ، وأنشده العباس قول دُرَيْد :

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرَجِ اللَّوْىِ فَلَمْ يَسْتَبِينُوا النَّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ^(١)

وتزعم الشيعة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعلم موته ، وأنه سَيرَ أبا بكر وعمر في بعث أسامة لتخول دار الهجرة منهما ، فيصفو الأمرُ لعليّ عليه السلام ، ويبأيعه من تخلف من المسلمين بالمدينة على سكونٍ وطمأنينة ، فإذا جاءها الخبر بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وبيعة الناس لعليّ عليه السلام بعده كانا عن المنازعة والخلاف أبعَدَ ، لأنّ العرب كانت تلتزم بإتمام تلك البيعة ، ويحتاجُ في نقضها إلى حروب شديدة ، فلم يتمّ له ماقدّر ، وتناقل أسامة بالجيش أياما ، مع شدّة حثّ رسول الله صلى الله عليه وآله على نفوذه وخروجه بالجيش ، حتى مات صلى الله عليه وآله وهما بالمدينة ، فسبقا عليّاً إلى البيعة وجرى ماجرى .

وهذا عندي غير منقّح ، لأنه إن كان صلى الله عليه وآله يعلم موته ، فهو أيضاً يعلم أنّ أبا بكر سيُلى الخلافة ، وما يعلمه لا يحترس منه ؛ وإنما يتمّ هذا ويصحّ إذا فرضنا أنه عليه السلام كان يظنّ موته ولا يعلمه حقيقة ، ويظنّ أن أبا بكر وعمر يمالآن على ابن عمه ، ويخاف وقوع ذلك منهما ولا يعلمه حقيقة ، فيجوز إن كانت الحال هكذا أن يتمدح هذا التوهم ، ويتطرق هذا الظنّ ، كالواحد منا له ولدان ؛ يخاف من أحدهما

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقي ٢ : ٨١٤ ، وروايته : « فلم يستبينوا الرشيد » .
(١١ — نهج البلاغة — أول)

أن يتغلب بعد موته على جميع ماله ، ولا يوصل أخاه إلى شيء من حقه ؛ فإنه قد يخطر له عند مرضه الذي يتخوف أن يموت فيه أن يأمر الولد المخوف جانبه بالسفر إلى بلد بعيد في تجارة يسلمها إليه ، يجعل ذلك طريقا إلى دفع تغلبه على الولد الآخر .

الأفضل :

حَتَّى مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَذَلَّ بِهَا إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ بَعْدَهُ ^(١)
شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كَوْرَهَا وَيَوْمُ حَيَّانِ أَخِي جَابِرٍ
فَيَا عَجَبًا ! بَيْنَاهُمَا يَسْتَقِيلُهَا فِي حَيَاتِهِ ، إِذْ عَقَدَهَا لآخرَ بَعْدَ وفاته ! لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا
ضَرْعِيهَا ! فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةِ خَشْنَاءٍ يَغْلُظُ كَلَمُهَا ، وَيَخْشُنُ مَسْهَا ، وَيَكْثُرُ الْعِمَارُ فِيهَا ،
وَالْأَعْتَادُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ ، إِنْ أَشَقَّ لَهَا حَرَمٌ ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا
تَقَحَّمٌ ، فَمِنَى الْبَاسُ لَعَمْرُ اللَّهِ بِخَبْطِ شِمَاسٍ ، وَتَلَوْنٍ وَاعْتِرَاضٍ ، فَصَبَّرْتُ عَلَى طَوْلِ
الْمُدَّةِ ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ .

الشيخ :

مضى لسبيله : مات ، والسبيل الطريق ، وتقديره : مضى على سبيله ، ونجىء اللام بمعنى « على » كقوله ^(٢) :

* فَخَرَّ صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ *

وقوله : « فأذلى بها » من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾

(١) في مخطوطة التهج : « ثم تمثل بقول الأعشى » . وكذلك في حواشي ب .

(٢) لجابر بن حني التغلبي ، وصدره :

* تَنَاوَلَهُ بِالرُّمَحِ ثُمَّ اتَّخَذَ لَهُ *

من قصيدة له مفضلية ٢٠٨-٢١٢ ، والبيت من شواهد المعنى ١ : ٢١٢ ، على وضع اللام موضع « على » .

وَتُذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴿١﴾ أَى تَدْفَعُوها إِلَيْهِمْ رِشْوَةً ، وَأَصْلُهُ مِنْ أَدْلَيْتِ الدَّلُو فِي الْبُئْرِ ، أَرْسَلَتْهَا .

فَإِنْ قُلْتُ : فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِنَّمَا دَفَعَهَا إِلَى عُمَرَ حِينَ مَاتَ ، وَلَا مَعْنَى لِلرِّشْوَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ !
قُلْتُ : لَمَّا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَى أَنَّ الْعَدُولَ بِهَا عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ إِخْرَاجَ لَهَا إِلَى غَيْرِ
جِهَةِ الْاسْتِحْقَاقِ شَبَّهَ ذَلِكَ بِإِدْلَاءِ الْإِنْسَانِ بِمَالِهِ إِلَى الْحَاكِمِ ، فَإِنَّهُ إِخْرَاجَ الْمَالِ إِلَى غَيْرِ
وَجْهِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْاسْتِعَارَةِ .

[عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب]

وَابْنُ الْخَطَّابِ هُوَ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ الْفَارُوقُ ، وَأَبُوهُ الْخَطَّابُ بْنُ نَفِيلٍ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى
ابْنِ رِيَّاحٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطَبٍ بْنِ رَزَّاحٍ بْنُ عَدَى بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ . وَأُمُّ عُمَرَ
حَنْتَمَةُ بِنْتُ هَاشِمٍ بْنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ .

لَمَّا احْتَضَرَ أَبُو بَكْرٍ ، قَالَ لِلْسَّكَاتِبِ اكْتُبْ : هَذَا مَا عَهْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ ^(٢) ،
آخِرَ عَهْدِهِ بِالْدُّنْيَا وَأَوَّلَ عَهْدِهِ بِالْآخِرَةِ ، فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَبْرُفُ فِيهَا الْفَاجِرُ ، وَيُسَلِّمُ فِيهَا السَّكَافِرُ .
ثُمَّ أَغْمَى عَلَيْهِ فَكَتَبَ السَّكَاتِبُ : عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ أَفَاقَ أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : اقْرَأْ
مَا كَتَبْتُ ، فَقَرَأَ وَذَكَرَ اسْمَ عُمَرَ ، فَقَالَ : أُنِىَّ لَكَ هَذَا ! قَالَ : مَا كُنْتُ لَتَعْدُوهُ ، فَقَالَ :
أَصَبْتُ ، ثُمَّ قَالَ : أَتَمَّ كِتَابُكَ ، قَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ : وَذَلِكَ حَيْثُ أَجَالَ رَأْيَهُ
وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ ، فَرَأَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ ^(٣) لَا يَصْلُحُ آخِرُهُ إِلَّا بِمَا يَصْلُحُ بِهِ أَوَّلُهُ ^(٤) ، وَلَا يَحْتَمِلُهُ
إِلَّا أَفْضَلُ الْعَرَبِ مَقْدَرَةً ، وَأَمْلَكُهُمْ لِنَفْسِهِ ، وَأَشَدَّهُمْ فِي حَالِ الشَّدَةِ ، وَأَسْلَسَهُمْ فِي حَالِ
اللَّيْنِ ، وَأَعْلَمَهُمْ بِرَأْيِ ذَوِي الرَّأْيِ ، لَا يَتَشَاغَلُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ ، وَلَا يَحْزَنُ لِمَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ ،

(١) سورة البقرة ١٨٨ .

(٢) عثمان اسم أبي قحافة .

(٣ - ٣) كَذَا فِي ب ، ج ، هـ : « لَا يَصْلُحُ آخِرُهُ إِلَّا بِمَا أَوَّلُهُ بِهِ صُلِحَ » .

ولا يستحي من التعلم ، ولا يتحير عند البديهة . قوى على الأمور ، لا يجوز بشيء منها حده عدوانا ولا تقصيرا ، يرصد لما هوات عتاده من الخدر .

فلما فرغ من الكتاب ، دخل عليه قوم من الصحابة ؛ منهم طلحة ، فقال له ^(١) : ما أنت قائل لربك غدا ، وقد وليت علينا فظاً غليظاً ، تفرق منه النفوس ؛ وتنهض عنه القلوب !

فقال أبو بكر : أسندوني - وكان مستلقيا - فأسندوه ، فقال لطلحة : أبا لله تخوفني ! إذا قال لي ذلك غدا قلت له : وليت عليهم خيراً أهلك .

ويقال ^(٢) : أصدق الناس فِراسة ثلاثة : العزيز في قوله لامرأته عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ^(٣) ، وابنة شعيب حيث قالت لأبيها في موسى : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ^(٤) ، وأبو بكر في عمر .

وروى كثير من الناس أن أبا بكر لما نزل به الموت ^(٥) دعا عبد الرحمن بن عوف ، فقال : أخبرني عن عمر ، فقال : إنه أفضل من رأيك [فيه] ^(٦) إلا أن فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذاك لأنه يراني رقيقاً ، ولو قد أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، وقد رفقته إذا أنا غضبت على رجل أراي الرضا عنه ، وإذا لنت له أراي الشدة عليه . ثم دعا عثمان بن عفان ، فقال : أخبرني عن عمر ، فقال : سريرته خير من علانيته ^(٧) ، وليس فينا مثله . فقال لها : لا تذكر ما قلت لك شيئاً ، ولو تركت عمر لما عدوتك يا عثمان ، والخيرة لك ألا تلي من أمورهم شيئاً ، ولوددت أني كنت من أموركم خلواً ، وكنت فيمن مضى من سلفكم . ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر ، فقال : إنه بلغني أنك يا خليفة

(١) كلمة « له » ساقطة من ب ، (٢) ١ : « ويقال إنه »

(٣) سورة يوسف ٢١ (٤) سورة القصص ٢٦

(٥) ساقطة من ب (٦) نكحلة من تاريخ الطبري ٣ : ٤٢٨ ، وفي ج : « أفضل من رأيك » .

(٧) ١ : « تقصر عن علانيته »

رسول الله استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت ما يلقي الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ، وأنت غداً لاقى ربك ، فيسألك عن رعيته ! فقال أبو بكر : أجلسوني ، ثم قال : أبالله تخوفني ! إذا لقيت ربى فسألتني ، قلت : استخلفت عليهم خير أهلك . فقال طلحة : أعر خير الناس يا خليفة رسول الله ! فاشتد غضبه ، وقال : إى والله ، هو خيرهم وأنت شرهم : أما والله لو وليت لك لجمعت أنفك في قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها ، حتى يكون الله هو الذى يضعها ! أتيتنى وقد دأست عينك ، تريد أن تفتننى عن ديني ، وتزيلنى عن رأيي ! قم لا أقام الله رجلك ! أما والله لئن عشت فوق ناقه ، وبلغنى أنك غصته فيها ، أو ذكرته بسوء ، لألحقنك بمحمضات قنة^(١) ، حيث كتمتم أسقون ولا ترؤون ، وترعون ولا تشبعون ، وأنتم بذلك بجحون^(٢) راضون ! فقام طلحة فخرج .

أحضر أبو بكر عثمان — وهو يجود بنفسه — فأمره أن يكتب عهداً ، وقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعهد عبد الله بن عثمان^(٣) إلى المسلمين . أما بعد ، ثم أغشى عليه ؛ وكتب عثمان : قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب . وأفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ فقرأه ، فكبر أبو بكر ، وسر ، وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن مت في غشيتي ! قال : نعم ، قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله . ثم أتم العهد ، وأمر أن يقرأ على الناس فقرئ عليهم . ثم أوصى عمر ، فقال له : إن الله حقاً بالليل لا يقبله في النهار ، وحقاً في النهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة ما لم تؤد الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من اتبع الحق مع ثقله عليه ، وإنما خفت موازين من اتبع الباطل لخفته عليه ، وإنما أنزلت آية الرخاء مع آية الشدة ، لئلا يرغب المؤمن رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ، ولئلا

(١) الموضع الذى ترعى فيه الإبل الحضر . وقنة : موضع بعينه .
(٢) البجح : الفرح والسرور .
(٣) الطبرى ٣ : ٤٢٩ : « أبو بكر من أبى قحافة » .

يرهب رهبة يلقي فيها بيده، فإن حفظت وصيتي ، فلا يكن غائباً أحب إليك من الموت
ولست معجزه .
ثم توفي أبو بكر .

دعا أبو بكر عمر يوم موته بعد عهده إليه ، فقال: إني لأرجو أن أموت في يومى هذا
فلا تُمسّين حتى تندب الناس مع المثنى بن حارثة ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن
حتى تندب الناس معه، ولا تشغلنكم مصيبة عن دينكم ، وقد رأيته متوفى رسول الله صلى
الله عليه وآله كيف صنعت .
وتوفى أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة .

وأما البيت الذى تمثل به عليه السلام ، فإنه للأعشى الكبير ، أعشى قيس . وهو
أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل ، من القصيدة التى قالها فى منافرة علقمة بن علاثة
وعامر بن الطفيل ، وأولها :

عَلِمْتُ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِرِ النّاقِضِ الْاَوْتَارِ وَالْوَاتِرِ^(١)
يقول فيها :

وَقَدْ أَسْلَى الْهَمَّ إِذْ يَعْتَرِي بِجَسَرَةٍ دَوْسَرَةٍ عَاقِرٍ^(٢)
زَيْفَافَةٍ بِالرَّحْلِ خَطَّارَةٍ تُلَوِّى بِشَرِّخَى مَيْسَةٍ قَاتِرٍ^(٣)

— شرخا الرحل : مقدمه ومؤخره ، والميس : شجر يتخذ منه الرحال ، ورحل قاتر :
جيد الوقوع على ظهر البعير —

(١) ديوانه ١٠٤ - ١٠٨ ؛ ويقم هذا البيت الخامس عشر منها ، وأولها :

شَاقَتَكَ مِنْ قَتْلَةِ أَطْلَالِهَا بِالشَّطِّ فَالْوَتْرِ إِلَى حَاجِرِ

(٢) الجسرة : الناقة السريعة ، والدوسرة : الضخمة . والعاقر : التى لم تحمل ، وفى الديوان : « حين
اعترى » .

(٣) الزيفاف : المختالة فى سيرها . والخطارة : التى تخطر بذهنها نشاطا .

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرٍ
أَرْمِي بِهَا الْبَيْدَاءَ إِذْ هَجَّرْتُ وَأَنْتَ بَيْنَ الْقَرَوِ وَالْعَاصِرِ^(١)
فِي مَجْدَلٍ شَيْدٍ بُنْيَانُهُ يَزِلُّ عَنْهُ ظَفَرُ الطَّائِرِ

تقول : شَتَّانَ ما هما ، وشَتَّانَ هما ، ولا يجوز : شَتَّانَ ما بينهما ، إلا على قول ضعيف .
وشَتَّانَ : أصله شَتَّ ، كوشَكَانَ ذا خروجاً ، من وَشَكَ . وحَيَّانَ وجابر ابنا السمين
الحنفيَّانَ ، وكان حَيَّانَ صاحبَ شرابٍ ومعاقرة خمر ، وكان نديم الأعشى ، وكان أخوه
جابر أصغر سنّاً منه ، فيقال : إن حَيَّانَ قال للأعشى : نسبني إلى أخى ؛ وهو أصغرُ
سِنّاً مِنِّي ا فقال : إن الروى اضطرنى إلى ذلك ، فقال : والله لا نازعتك كُأْساً أبداً
ماعشت . يقول : شتان يومى وأنا فى الهاجرة والرمضاء ، أسيرُ على كور هذه الناقة ويوم
حَيَّانَ وهو فى سَكْرَةِ الشراب ، ناعم البال ، مرفّه من الأكدار والمشاق . والقَرَوُ : شبه
حوض ، يتخذ من جذع أو من شجر يُنبذ فيه ، والعَاصِرُ : الذى يعتصر العنب .
والمَجْدَلُ : الحصن المنيع .

وشبيه بهذا المعنى قول الفضل بن الربيع فى أيام فتنة الأمين يذكر حاله وحال أخيه
المؤمنون : إِنَّمَا نَحْنُ^(٢) شَعْبٌ مِنْ أَصْلٍ ، إِن قَوَى قَوْبُنَا ، وَإِنْ ضَعُفَ ضَعْفُنَا ؛ وَإِنَّ هَذَا
الرَّجُلَ قَدْ أَلْقَى بِيَدِهِ لِقَاءَ الْأُمَةِ الْوَكُءَاءِ ، يَشَاوِرُ النِّسَاءَ ، وَيُقَدِّمُ عَلَى الرُّؤْيَا ، قَدْ أَمَكْنَ
أَهْلَ الْخُسَارَةِ وَاللَّهْوِ مِنْ سَمْعِهِ ، فَهَمَّ يَمْثُلُونَهُ الظُّفْرَ ، وَيَعْدُونَهُ عُقْبَ الْأَيَّامِ ؛ وَالْهَلَاكُ أَسْرَعُ
إِلَيْهِ مِنَ السَّيْلِ إِلَى قِيَعَانِ الرَّمْلِ ، يَنَامُ نَوْمَ الظَّرْبَانِ ، وَيَنْتَبِهُ انْتِبَاهَ الذُّئْبِ ، هَمَّهُ بَطْنُهُ
وَفَرْجُهُ ، لَا يَفْكُرُ فِي زَوَالِ نِعْمَةٍ ، وَلَا يُرَوِّى فِي إِمْضَاءِ رَأْيٍ وَلَا مَكِيدَةٍ ، قَدْ شَمَّرَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وهو فى اللسان ٢٠ : ٣٤ ، وروايته :

* أَرْمِي بِهَا الْبَيْدَاءَ إِذْ أَعْرَضْتُ *

(٢) الخبر بالتفصيل فى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٩٦) .

عن ساقه ، وفوّق إليه أسدّ سِهامه ، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ ، وللموت القاصد ، قد عبّأ له المنايا على متون الخيل ، وناط له البلايا بأسنة الرماح وشِفَار السيوف ، فهو كما قال الشاعر^(١) :

لشّتَان ما بيني وبين ابن خالدي أميّة في الرزق الذي الله يقسيم^(٢)
يقارع أترارك ابن خاقانَ ليله^(٣) إلى أن يرى الإصباح لا يتلعم^(٤)
وأخذها حمراء كالسك ريحها لها أرج من دنّها يُنفسم^(٥)
فيصُبّح من طول الطراد وجسمه نحيل وأضحى في النسيم أصم^(٦)
وأمية المذكور في هذا الشعر ، هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص ابن أمية بن عبد شمس ، كان والى خراسان ، وحارب الترك . والشعر للبيهقي .

يقول أمير المؤمنين عليه السلام : شتّان بين يومى في الخلافة مع ما انتقض على من الأمر ومُنيت به من انتشار الحبل واضطراب أركان الخلافة ، وبين يوم عمر حيث وليها على قاعدة ممهّدة ، وأركان ثابتة ، وسكون شامل ، فانتظم أمره ، واطرد حاله ، وسكنت أيامه .

قوله عليه السلام : « فياعجبا » أصله « فياعجبي » ، كقولك : يا غلامى ، ثم قلبوا الياء ألفا ، فقالوا : يا عجبا ، كقولهم : يا غلاما ، فإن وقفت ووقفت على هاء السكت ، فقلت : يا عجباه ! ويا غلاماه ! قال : العجب منه وهو يستقيل المسامين من الخلافة أيام حياته ، فيقول : أقيلوني ثم يعقدها عند وفاته لآخر ، وهذا يناقض الزهد فيها والاستقالة منها . وقال شاعر من شعراء الشيعة :

حَمَلُهَا يَوْمَ السَّقْفَةِ أَوْزَا رَأً تَخَفُ الْجِبَالُ وَهَى ثِقَالُ

(١) الطبرى : « وتمثل بشعر البيهقي » .

(٢) الشعر والخبر في تاريخ الطبرى وابن الأثير (حوادث سنة ١٩٦) مع اختلاف في الرواية وعدد

الآيات وترتيبها . (٣) كذا في الأصول والطبرى ، والوجه ما أثبتته من ابن الأثير .

(٤) ابن الأثير : « لها أرج في دنّها حين برسم » وهنا البيت سقط من تاريخ الطبرى .

ثم جاءوا من بعدهم يستقيلو ن ، وهيهات عثرة لاتقال !

وقد اختلف الرواة في هذه اللفظة ، فكثير من الناس رواها : « أقيلوني فلست بخيركم » ، ومن الناس من أنكر هذه اللفظة ولم يروها ، وإنما روى قوله : « وليتكم ولست بخيركم » . واحتج بذلك من لم يشترط الأفضلية في الإمامة . ومن رواها أعذر لأبي بكر فقال : إنما قال : أقيلوني ، ليثور^(١) ما في نفوس^(٢) الناس من بيعته ، ويخبر ما عندهم من ولايته ، فيعلم مريدهم وكارههم ، ومحبيه ومبغضهم ؛ فلما رأى النفوس إليه ساكنة ، والقلوب لبيعته مدعنة ، استمر على إمارته ، وحكم حكم الخلفاء في رعيته ، ولم يكن منكراً منه أن يعهد إلى من استصلحه لخلافته .

قالوا : وقد جرى مثل ذلك لعلي عليه السلام ، فإنه قال للناس بعد قتل عثمان : دعوني والتسوا غيري ، فأنا لكم وزيراً خيراً مني لكم أميراً . وقال لهم : اتركوني ، فأنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم . فأبوا عليه وبايعوه ، فكرهها أولاً ، ثم عهد بها إلى الحسن عليه السلام عند موته .

قالت الإمامية : هذا غير لازم ، والفرق بين الموضعين ظاهر ، لأن علياً عليه السلام لم يقل : إنني لا أصالح ، ولكنه كره الفتنة ، وأبو بكر قال كلاماً معناه : إنني لا أصالح لها ، لقوله : « لست بخيركم » ، ومن نفى عن نفسه صلاحية للإمامة ، لا يجوز أن يعهد بها إلى غيره .

واعلم أن الكلام في هذا الموضع مبني على أن الأفضلية هل هي شرط في الإمامة أم لا ؟ وقد تكلمنا في شرح "الغرر" ، لشيخنا أبي الحسين^(٣) رحمه الله تعالى في هذا البحث بما لا يحتمله هذا الكتاب .

(٢) ١ : « قلوب » .

(١) يثور : يبحث .

(٣) هو أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب المتكلم المعتزلي ؛ توفي سنة ٤٣٦ هـ ، وكتابه « غرر الأذلة » . ذكره ابن خلكان ١ : ٤٨٢ .

وقوله عليه السلام : « لشدّ ما تشطّرا ضرعيها » ، شدّ ، أصله « شدّد » ، كقولك : حبّ في « حبّدا » أصله حبّب ، ومعنى « شدّ » صار شديداً جدّاً ، ومعنى « حبّ » صار حبيباً ، قال البحتري :

شدّ ما أغريت ظلومٌ بهجرى بعدَ وجدي بها وغلّة صدري^(١)
واللناقة أربعة أخلاف : خيلان قادمان وخيلان آخران ، وكلّ اثنين منهما شطر .
وتشطّرا ضرعيها اقسما فائدتهم ونفعهما . والضمير للخلافة ، وسّى القادمين معا ضرّعا ،
وسّى الآخرين معا ضرّعا لما كانا - لتجاورهما ، ولكونهما لا يُحلبان إلا معا -
كشيء واحد .

قوله عليه السلام : « فجعلها في حوزة خشناء » ، أى فى جهة صعبة المرام ، شديدة
الشكيمة . والكلم : الجرح .

وقوله : « يغلظ » ، من الناس من قال : كيف قال : « يغلظ كلمها » ، والكلم
لا يوصف بالغلظ ! وهذا قلة فهم بالفصاحة ، ألا ترى كيف قد وصف الله سبحانه العذاب
بالغلظ ، فقال : ﴿ وَنَجِّنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾^(٢) أى متضاعف ، لأن الغليظ من الأجسام
هو ما كثف وجسم ، فكان أجزاؤه وجواهره متضاعفة ، فلما كان العذاب - أعادنا الله
مفه - متضاعفا ، سُمّي غليظا ؛ وكذلك الجرح إذا أعمق وعمق ، فكأنه قد تضاعف
وصار جروحا ، فسمى غليظا .

إن قيل : قد قال عليه السلام « فى حوزة خشناء » فوصفها بالخشونة ، فكيف
أعاد ذكر الخشونة ثانية فقال : « يَخْشَنُ مَسْهَا » !

قيل : الاعتبار مختلف ؛ لأن مراده بقوله : « فى حوزة خشناء » أى لا يُنال ما عندها
ولا يرام ، يقال : إن فلانا لخشن الجانب ووعر الجانب ، ومراده بقوله : « يَخْشَنُ »

(١) ديوانه ٢ : ٩٧٠ (طبعة المعارف) . (٢) سورة هود ٥٨

مَسْمُومًا ، أى تؤذى وتضرّ وتنكس من يمسّها ؛ يصف جفاء أخلاق النوالى المذكور ونفور طبعه وشدة بادرته .

قوله عليه السلام : « ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها » ، يقول : ليست هذه الجهة جَدَدًا مَهْمِيَعًا ، بل هى كطريق كثير الحجارة ، لا يزال الماشى فيه عاثرا .

وأما « منها » فى قوله عليه السلام : « والاعتذار منها » ، فيمكن أن تكون « مِنْ » على أصلها ، يعنى أن عمر كان كثيرا ما يحكم بالأمر ثم ينقضه ، ويفتى بالفُتْيَا ثم يرجع عنها ، ويمتذر مما أفتى به أولا . ويمكن أن تكون « مِنْ » هاهنا للتعليل والسببية ، أى ويكثر اعتذار الناس عن أفعالهم وحركاتهم لأجلها ، قال :

أَمِنْ رَسْمٍ دَارٍ مَرَبَعٍ وَمَصِيفٍ لِعَيْنَيْكَ مِنْ مَاءِ الشُّوْنِ وَكَيْفُ (١)

أى لأجل أن رسم المربع والمصيف هذه الدار وكف دمع عينيك !

والصَّعْبَةُ مِنَ النُّوقِ : مالم تُرْكَبْ ولم تُرَضْ ، إن أشتق لها راكبها بالزمام خرم أنفسها ، وإن أسلس زمامها تقصم فى المهالك فألقته فى مَهْوَاةٍ أو ماءٍ أو نارٍ ، أو نَدَّتْ فلم تقف حتى تُرْدِيَهُ عنها فهلك .

وأشتق الرَّجُلُ نَاقَتَهُ ، إذا كفّها بالزمام ، وهو راكبها ، واللغة المشهورة شتق ، ثلاثية . وفى الحديث : إن طلحة أنشد قصيدةً فما زال شائقاً راحلته ، حتى كتبت له (٢) . وأشتق البعير نفسه ، إذا رفع رأسه ؛ يتعدى ولا يتعدى ، وأصله من الشَّنَاقِ ، وهو خيط يُشَدُّ بِهِ قَمُّ الْقِرْبَةِ .

وقال الرضى أبو الحسن رحمه الله تعالى : إنما قال عليه السلام : أشتق لها ، ولم يقل : « أشتقها » ، لأنه جعل ذلك فى مقابلة قوله : « أسلس لها » وهذا حسن ، فإنهم إذا

(١) وكيف الدمع : سيلانه .

(٢) الخبر فى الفائق ١ : ٦٧٧ ، وقال فى شرحه : « هو أن يجذب رأسها بزمامها ، حتى يدانى قفاها فادامة الرجل ؛ وقد شتقها وأشتقها » .

قصّدا الازدواج في الخطابة فعلوا مثل هذا ، قالوا : الغدايا والعشايا ، والأصل الغدوات جمع غُدوة . وقال صلى الله عليه وآله : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » ، وأصله « موزورات » بالواو ، لأنه من الوزر .

وقال الرضى رحمه الله تعالى : وما يشهد على أن أشنق بمعنى « شنق » قول عدى ابن زيد العبادى :

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي الْأَيْدِي وَإِشْنَأُهَا إِلَى الْأَعْنَاقِ

قلت : « تبين » في هذا البيت فعل ماض ، تبين يتبين تبيّنا ، واللام في « لها » تتعلق بـ « تبين » . يقول : ظهر لها ما في أيدينا فساءها .
وهذا البيت من قصيدة أولها :

لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَبَاقٍ غَيْرَ وَجْهِ الْمَسِيحِ الْخَلَاقِ^(١)

وقد كان زارته بنية له صغيرة اسمها هند ، وهو في الحبس - حبس النعمان - ويدها مغلولتان إلى عنقه ، فأنكرت ذلك ، وقالت : ما هذا الذى فى يدك وعنقك يا أبت ! وبكت ، فقال هذا الشعر . وقبل هذا البيت :

وَلَقَدْ غَمَّيْنِي زِيَارَةُ ذِي قُرْ بَى صَغِيرٍ لِقُرْ بِنَا مُشْتَأَقِ

سَاءَهَا مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي الْأَيْدِي وَإِشْنَأُهَا إِلَى الْأَعْنَاقِ^(٢)

أى ساءها ما ظهر لها من ذلك . ويروى : « ساءها ما بنا تبين » أى ما بان وظهر ، ويروى « ما بنا تبين » بالرفع على أنه مضارع .
ويروى « إشنأها » بالرفع عطفًا على « ما » ، التى هى بمعنى الذى ، وهى فاعلة .
ويروى بالجرّ عطفًا على « الأيدي » .

(١) الأغاني ٢ : ١١٦ ، اللسان (شنق) . (٢) بعده فى رواية الأغاني :

فَاذْهَبِي يَا أُمِّمٌ غَيْرَ بَعِيدٍ لَا يُوَاتِي الْعِنَاقُ مَنْ فِي الْوَنَاقِ
وَإِذْهَبِي يَا أُمِّمٌ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُنْفَسُ مِنْ أَرْزَمِ هَذَا الْخِنَاقِ

وقال الرضى رحمه الله تعالى أيضا : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس وهو على ناقه قد شَنَق لها وهي تَقْصَعُ بِجِرَّتِهَا .

قلت : الجِرَّة : ما يعلو من الجوفِ وتجتزّه الإبل ، والدَّرَّة : ما يسفل . وتَقْصَعُ بها : تدفع ، وقد كان الرضى رحمه الله تعالى إذا كانت الرواية قد وردت هكذا أن يحتج بها على جواز « أشنق لها » ، فإن الفعل في الخبر قد عُدِيَ باللام لا بنفسه .

قوله عليه السلام : « فَمِنِي النَّاسُ » أى يُبَلَى الناس ، قال :

* مُنِيْتُ بِزَمْرَدَةٍ كَالْعَصَا * ^(١)

والخَطْبُ : السَّيْر على غير جادة ، والشَّمْس : النِّفَار . والتَّلَوْن : التبدُّل . والاعتراض : السَّيْرُ لا على خط مستقيم ، كأنه يسير عَرْضاً في غضون سيره طولا ، وإنما يفعل ذلك البعير الجامح الخابط . وبعيرٌ عَرْضِيّ : يعترض في مسيره ؛ لأنه لم يتم رياضته ، وفي فلان عَرْضِيَّة ، أى عَجْرَفَة وصُعوبَة .

[طرف من أخبار عمر بن الخطاب]

وكان عمر بن الخطاب صعبا ، عظيم الهيبة شديد السياسة ، لا يُجَاهِي أحدا ، ولا يراقب شريفا ولا مشروفا . وكان أكبر الصحابة يتحامون ويتفادون من لقائه ؛ كان أبو سفيان ابن حرب في مجلس عمر ، وهناك زياد ابن سُمَيَّة وكثير من الصحابة ، فتكلم زياد فأحسن - وهو يومئذ غلام - فقال على عليه السلام - وكان حاضرا - لأبي سفيان وهو إلى جانبه : الله هذا الغلام ، لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه ! فقال له أبو سفيان : أما والله لو عرفت أباه لعرفت أنه من خير أهلك ، قال : ومن أبوه ؟ قال : أنا وضعتُه والله في رَحِمِ أمِّه ، فقال على عليه السلام : فما يمتنعك من استلحاقه ؟ قال : أخاف هذا العير ^(٢) الجالس أن يخرجني على إهابي !

(١) لأبي الفطرس الحنفي ؛ ذكره أبو تمام في الحاسة ١٨٨١ - بشرح المروزقي ، ورواه : « بِزَمْرَدَةٍ » ،

وقال : هو حَجَزٌ يَمْلَأُ الكَف ، وبعده :

* أَلَصَّ وَأَخْبَثَ مِنْ كِنْدِشٍ *

(٢) عير القوم : سيدهم .

وقيل لابن عباس لما أظهر قوله في العَوَّل^(١) بعد موت عمر - ولم يكن قبل يظهره : هَلَّا قَلْتُ هَذَا وَعَمْرُ حَيٌّ ؟ قَالَ : هَيْبَتُهُ ، وَكَانَ امْرَأً مَهَاباً^(٢) .

وَاسْتَدْعَى عَمْرُ امْرَأَةً لِيَسْأَلَهَا عَنْ أَمْرِ - وَكَانَتْ حَامِلاً - فَلَشِدَّةُ هَيْبَتِهِ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا ، فَأَجْهَضَتْ بِهِ بَجِينًا مَيْتًا ، فَاسْتَفْتَى عَمْرُ أَكْبَرَ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ ، فَقَالُوا : لَا شَيْءَ عَلَيْكَ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُؤَدِّبٌ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ كَانُوا رَاقِبُونَكَ فَقَدْ غَشُّوكَ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا جُهُدَ رَأْيِهِمْ فَقَدْ أَخْطَأُوا ؛ عَلَيْكَ غُرَّةٌ - يَعْنِي عَتَقَ رَقَبَةً - فَرَجَعَ عَمْرُ وَالصَّحَابَةُ إِلَى قَوْلِهِ . وَعَمْرُ هُوَ الَّذِي شَدَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ وَوَقَعَ^(٣) الْخُلَافِينَ فِيهَا فَكَسَرَ سَيْفَ الزَّبِيرِ لَمَّا جَرَّدَهُ ، وَدَفَعَ فِي صَدْرِ الْمُقَدَّادِ ، وَوُطِئَ فِي السَّقِيْفَةِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَقَالَ : اقْتُلُوا سَعْدًا ، قَتَلَ اللَّهُ سَعْدًا ! وَحَطَّمَتْ أَنْفُ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذَرِ الَّذِي قَالَ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ : أَنَا جَذِيْلُهُ^(٤) الْحَكَّكَ ، وَغَدَّيْقُهَا الْمَرْجَسُ . وَتَوَعَّدَ مَنْ جَاءَ إِلَى دَارِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مِنَ الْهَاشِمِيِّينَ ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا . وَلَوْلَاهُ لَمْ يَثْبُتْ لِأَبِي بَكْرٍ أَمْرٌ ، وَلَا قَامَتْ لَهُ قَائِمَةٌ .

وَهُوَ الَّذِي سَاسَ الْعَمَالَ وَأَخَذَ أُمُورَهُمْ فِي خِلَافَتِهِ ، وَذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ السِّيَاسَاتِ . وَرَوَى الزَّبِيرُ بْنُ بَكْرٍ ، قَالَ : لَمَّا قَلَّدَ عَمْرُ عَمْرُوبَ بْنَ الْعَاصِ مِصْرَ ، بَلَغَهُ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ مَالٌ عَظِيمٌ مِنْ نَاطِقٍ وَصَامَتٍ^(٥) ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ ، أَمَا بَعْدُ : فَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ مَالِكَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي رِزْقِكَ ، وَلَا كَانَ لَكَ مَالٌ قَبْلَ أَنْ أَسْتَعْمِلَكَ ، فَأَتَى لَكَ هَذَا ! فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَهْمَنِي فِي ذَاتِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ اخْتِنَانٍ فِي مَالِ اللَّهِ ، لَكُنْتُ هَمِّي ، وَانْتَهَى أَمْرِي ، وَلَقَدْ كَانَ عِنْدِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، وَلَكِنِّي قَلَّدْتُكَ رَجَاءً غِنَاكَ ؛ فَكَتَبَ إِلَيَّ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْمَالُ ، وَعَجَلٌ .

(١) عَوَّلَ الْفَرِيضَةُ ، وَهُوَ أَنْ تَزِيدَ سَهَامَهَا ، فَيَدْخُلُ النِّقْصَانُ عَلَى أَهْلِ الْفَرَائِضِ .

(٢) كَذَا فِي ١ ، وَفِي ب : « وَكَانَ امْرَأً مَهِيْبًا » . (٣) وَقَعَ الْبَعِيرُ : كَوَاهُ ؛ وَالْمُرَادُ أَذْلَهُ .

(٤) الْفَائِقُ ١ : ١٨٠ ، وَبَقِيَّةُ الْخَبَرِ فِيهِ : « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » . الْجَذِيلُ : تَصْغِيرُ الْجَسَدِ ، بِالْكَسْرِ ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ عَوْدُ يَنْصَبُ لِلْجَرِيِّ تَحْتَهُ بِهِ فَتَسْتَشْفِي . وَالْحَكَّكَ : الَّذِي كَثُرَ بِهِ الْإِحْتِكَاكُ حَتَّى صَارَ مَمْلَسًا . وَالْمَرْجَسُ : الْمَدْعُومُ بِالرَّجَبَةِ ، وَهِيَ خُشْبَةٌ ذَاتُ شَعْبَتَيْنِ ؛ قَالَ الْجَنْجَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : « لَمَّا ذُو رَأْيٍ يَشْفِي بِالْإِسْتِضَاءَةِ بِهِ كَثِيرًا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ ، وَأَنَا فِي كَثْرَةِ التَّجَارِبِ وَالْعِلْمِ بِمَوَارِدِ الْأَحْوَالِ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا وَمَصَادِرِهَا كَالْبُخْلَةِ الْكَثِيرَةِ الْحُلِ » .

(٥) قَوْلُهُمْ : مَالُهُ صَامَتٌ وَلَا نَاطِقٌ . فَالْنَاطِقُ : الْحَيَوَانُ وَالصَّامَتُ : مَا سِوَاهُ .

فكتب إليه عمرو : أما بعد، فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين، فأما ما ظهر لي من مال، فإننا قد منّا بلاداً رخيصة الأسعار، كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول التي اتحل بأمر المؤمنين نبؤها، والله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك؛ وقد ائتمنتني، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك. وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني، فإذا كان ذلك فوالله ما دققت لك يا أمير المؤمنين باباً، ولا فتحت لك قفلاً.

فكتب إليه عمر : أما بعد، فإنني لست من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام في شيء؛ ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال، ولن تعدوا عذراً، وإنما تأكلون النار، وتعجلون العار، وقد وجهت إليك محمد بن مسامة، فسلم إليه شعر مالك.

فلما قدم محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل، وقال: هذه مقدمة الشر، ولو جئتني بطعام الضيف لأكلت، ففتح عني طعامك، وأحضر لي مالك، فأحضره، فأخذ شطره. فلما رأى عمرو كثرة ما أخذ منه، قال: لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر، والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحد منهما عبادة قطوانية^(١) لا تجاوز ما يرض^(٢) ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطب، والعاص بن وائل في مزررات الديباج. فقال محمد: إيهما عنك ياعمر! فعمرو والله خير منك، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار، ولولا الإسلام لألقيت معتلقاً شاة، يسرك غزرها، ويسوءك بسكوها^(٣). قال: صدقت فاكتم علي، قال: أفعل.

قال الربيع بن زياد الحارثي: كنت^(٤) عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين

(١) قطوانية: منسوبة إلى قطوان، موضع بالكوفة، تنسب إليه الأكسية.

(٢) المأبض: باطن الركبة.

(٣) يقال: بسكأت الناقة بكوءاً؛ إذا قل لبنها.

(٤) الخبر في الكامل ١: ١٥٢، ١٥٣.

فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعملاه ، وأن يستخلفوا جميعا . فلما قدمنا المدينة أتيت
يرفأ حاجب عمر ، فقلت : يا يرفأ ، مسترشد وابن سبيل ! أى الهيات أحب إلى أمير المؤمنين
أن يرى فيها عماله ؟ فأوما إلى بالخشونة ، فاتخذت خفين مطارقين ^(١) ، ولبست جبة
صوف ، ولثت عمامتي على رأسي ، ثم دخلنا على عمر فصقمنا بين يديه ، فصعد بصره فينا
وصوب ، فلم تأخذ عينه أحدا غيري ، فدعاني ، فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد
الحرثي ، قال : وماتتولي من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترزق ؟ قلت : ألفا ، قال :
كثير ، فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئا ، وأعود بباقيه على أقارب لي ، فما فضل
منهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : لا بأس ، ارجع إلى موضعك . فرجعت إلى موضعي من
الصف ، فصعد فينا وصوب ، فلم تقع عينه إلا على فدعاني ، فقال : كم سنك ؟ قلت :
خمس وأربعون ، فقال : الآن حيث استحكمت ! ثم دعا بالطعام ، وأصحابي حديث عهدم
بلين العيش ، وقد تجوعت له ، فأتى بخبز يابس وأكسار ^(٢) بعير ، فجعل أصحابي يعافون
ذلك ، وجعلت آكل فأجيد ، وأنا أنظر إليه ، وهو يلحظني من بينهم ، ثم سبقت مني
كلمة تمنيت لها أني سبحت في الأرض ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى
صلاحك ، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا فزجرتني ، ثم قال : كيف قلت ؟ فقلت :
يا أمير المؤمنين ، أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز قبل إرادتك إياه بيوم ، ويطبخ
لك اللحم كذلك ، فتؤتى بالخبز ليئا ، وباللحم غريضا . فسكن من غربه ، وقال : أهاهنا
غرث ^(٣) اقلت : نعم ، فقال : يا ربيع ، إننا لو نشاء للملأنا هذه الرحاب من صلاتك ^(٤) وسبائك ^(٥)
وصناب ^(٦) ، ولكني رأيت الله نعي على قوم شهواتهم ، فقال : ^(٧) أذهبت طيباتكم

(١) لبس خفين مطارقين ، أى ملحقين ، واحدا فوق الآخر .

(٢) أكسار الإبل : أعضاؤها ، واحدا كسر ؛ بالفتح والكسر .

(٣) غرت : ذهبت ، وفي الأصول : « غرب » تحريف .

(٤) الصلات : ماعمل بالنار طبخا وشيا .

(٥) السبائك : ما سبك من الدقيق ونخل فأخذ خالصه ؛ يعنى الحواري ؛ وكانوا يسمون الرقاق

السبائك .

(٦) الصناب : صباغ يؤتدم به .

فِي حَيَاتِكُمْ أَلَدُنِيَا ^(١) ، ثم أمر أبا موسى بإقرارى ، وأن يستبدل بأصحابى .

أسلم عمر بعد جماعة من الناس ، وكان سبب إسلامه أن أخته وبعلها أسلما سرّاً من عمر ، فدخل إليهما خَبَاب بن الأَرْت ، يعلمهما الدّين خفية ، فوشى بهما واش إلى عمر ، فجاء دار أخته ، فتوارى خَبَاب منه داخل البيت ، فقال عمر : ما هذه الهينةُ عندكم ؟ قالت أخته : ماعدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : أراك قد صَبَوْتما ! قال خَتْنُهُ : أ رأيت إن كان هو الحق ! فوثب عليه عمر فوضّعه وطناً شديداً ، فجاءت أخته فدفعته عنه ، فنفعها بيده ، فدَمَى وجهها ، ثم نَدِم ورق ، وجلس واجماً ، فخرج إليه خَبَاب فقال : أبشِر يا عمر ، فأبى أن أرجو أن تكون دعوة رسول الله لك الليلة ، فإنه لم يزل يدعُو منذ الليلة : « اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام » .

قال : فانطلق عمرُ متقلداً سَيْفَهُ حتى أتى إلى الدار التي فيها رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ ، وهى الدار التي فى أصل الصفا ، وعلى الباب حمزة وطلحة وناس من المسلمين ، فوجأ بالقوم من عمر إلا حمزة فإنه قال : قد جاءنا عمر ، فإن يُرد الله به خيراً يَهْدِهِ ، وإن يُرَد غير ذلك كان قتله علينا هَيْئاً والنبي صلى الله عليه وآله داخل الدار يوحى إليه - فسمع كلامهم ، فخرج حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه ، وقال : « ما أنت بمنته يا عمر حتى يُنزل الله بك من الخزى والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة . اللهم هذا عمر ، اللهم أعزّ الإسلام بعمر » ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

مرّ يوماً عمر فى بعض شوارع المدينة فناداه إنسان : ما أراك إلا تستعملُ عمالك ، وتعهّد إليهم العهود ، وترى أن ذلك قد أجزأك . كلاً والله ، إنك المأخوذ بهم إن لم تتمهّد لهم ،

(١) سورة الأحقاف ٢٠ .

قال : ماذا ك ؟ قال : عياض بن غنم يلبس اللين ، ويأكل الطيب ، ويفعل كذا وكذا .
 قال : أساع^(١) ؟ قال : بل مؤد ما عليه ، فقال لحمد بن مسلمة : الحق بعياض بن غنم
 فأتني به كما تجده ؛ فمضى محمد بن مسلمة حتى أتى باب عياض - وهو أمير على حص -
 وإذا عليه بواب ، فقال له : قل لعياض : على بابك رجل يريد أن يلقاك ، قال : ماتقول ؟
 قال : قل له ما أقول لك ؛ فقام كالمعجب فأخبره ، فعرف عياض أنه أمر حدث ، فخرج
 فإذا محمد بن مسلمة ، فأدخله ، فرأى على عياض قميصا رقيقا ، ورداء لينا ، فقال : إن
 أمير المؤمنين أمرني ألا أفارقك حتى آتيه بك كما أجذك . فأقدمه على عمر وأخبره أنه
 وجدته في عيش ناعم . فأمر له بعضا وكساء ، وقال : اذهب بهذه الغنم ، فأحسن رعيها ،
 فقال : الموت أهون من ذلك ، فقال : كذبت ، ولقد كان ترك ما كنت عليه أهون
 عليك من ذلك . فساق الغنم بعصاه ، والكساء في عنقه ، فلما بُد رده ، وقال : أرأيت
 إن رددتلك إلى عملاك أتصنع خيرا ؟ قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، لا يبلُك مني بعدها
 ما تكره . فردّه إلى عمله ، فلم يبلغه عنه بعدها ما ينقمه عليه .

كان الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون الشجرة التي كانت بيعة
 الرضوان تحتها فيصلّون عندها ، فقال عمر : أراكم أيها الناس رجعتُم إلى العزى !
 ألا لا أوتى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلته بالسيف كما يُقتل المرتد ، ثم أمر بها فقطعت .

لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشاع بين الناس موته ، طاف عمر على الناس
 قائلا : إنه لم يمت ، ولكنه غاب عنا كما غاب موسى عن قومه ، وليرجعن فليطعن
 أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات . فجعل لا يمر بأحد يقول إنه مات إلا ويخطئه
 ويتوعدده ، حتى جاء أبو بكر ، فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ،

(١) الساعى هنا : الواشى .

ومن كان يعبد ربَّ محمد فإنه حيٌّ لم يمِت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ ^(١) ، قالوا : فو الله لكانَّ الناس ماسمعوا هذه الآية حتى تلاها
أبو بكر . وقال عمر : لما سمعته يتلوها هَوَيْتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أن رسولَ الله قد مات .

لما قتل خالد مالك بن نويرة ونكح امرأته ، كان في عسكره أبو قتادة الأنصاري ،
فركب فرسه ، والتحق بأبي بكر ، وحلف ألا يسيرَ في جيش تحت لواء خالد أبداً ،
فقصَّ على أبي بكر القصة ، فقال أبو بكر : لقد فتنَتِ الغنائمُ العرب ، وترك خالد
ما أمر به ، فقال عمر : إنَّ عليك أن تُقيده بمالك ، فسكت أبو بكر ، وقدم خالد فدخل
المسجد وعليه ثياب قد صدئت من الحديد ، وفي عمامته ثلاثة أسهم ، فلما رآه عمر قال :
أرئاء ياعدو الله ! عدوتَ على رجل من المسلمين فقتلته ونكحت امرأته ؛ أما والله
إن أمكنني الله منك لأرجمتك ، ثم تناول الأسهم من عمامته فكسرها - وخالد ساكت
لا يردَّ عليه ، ظناً أنَّ ذلك عن أمر أبي بكر ورأيه - فلما دخل إلى أبي بكر وحده ،
صدقته فيما حكاه وقبِلَ عذره . فكان عمر يحرضُ أبا بكر على خالد ويُشير عليه أن
يقصصَ منه بدم مالك ، فقال أبو بكر : إيهي ياعمر ! ما هو بأوَّل مَنْ أخطأ ، فارفع لسانك
عنه . ثم ودَّى مالكا من بيت مال المسلمين .

لما صالح خالد أهلَ اليمامة وكتب يده وبينهم كتاب الصلح ، وتزوج ابنة حُجاعة
ابن مُرارة الحنفي ، وصل إليه كتاب أبي بكر : لعمري يابن أمَّ خالد ، إنَّك لغارغ حتى
تزوج النساء ، وحول حجرتك دماء المسلمين لم تجفَّ بعد ... في كلام أغلظ له فيه ،
فقال خالد : هذا الكتاب ليس من عمل أبي بكر ، هذا عمل الأعيسر - يعني عمر .

عزل عمر خالدًا عن إمارةِ حِمْص في سنة سبع عشرة ، وأقامه للناس ، وعقله بهامته ، ونزع قلنسوته عن رأسه وقال : أعلمني ، من أين لك هذا المال ؟ وذلك أنه أجاز الأشعث ابن قيس بعشرة آلاف درهم ، فقال : من الأنفال والسُّهُمان ، فقال : لا والله ، لا تعمل لي عملا بعد اليوم ، وشاطره ماله ، وكتب إلى الأمصار بعزله ، وقال : إنَّ الناس فُتِنُوا به ، فخفت أن يُوكَلُوا إليهِ ، وأحببت أن يعملوا أنَّ الله هو الصانع .

لما أُسِرَ الهرمزان مُجِل إلى عمر منْ تُسْتَر إلى المدينة ، ومعه رجال من المسلمين ، منهم الأحنف بن قيس ، وأنس بن مالك ، فأدخلوه المدينة في هيئته وتاجه وكِسوته ، فوجدوا عمر نائمًا في جانب المسجد ، فجلسوا عنده ينتظرون انتباهه ، فقال الهرمزان : وأين عمر ؟ قالوا : هاهو ذا ؛ قال : أين حرسُه ؟ قالوا : لا حاجبَ له ولا حارس . قال : فينبغي أن يكون هذا نبيًّا ، قالوا : إنه يعمل بعمل الأنبياء . واستيقظ عمر ، فقال : الهرمزان ؟ فقالوا : نعم ؛ قال : لا أكله أولاً يبقى عليه من حِلْمِيته شيء ، فرموا ماعليه ، وألبسوه ثوبا صفيقا ، فلما كله عمر ، أمر أبا طلحة أن ينتضي سيفه ويقوم على رأسه ، ففعل . ثم قال له : ماعذرك في نقض الصلح ونكث العهد ؟ - وقد كان الهرمزان صالحاً أولاً ، ثم نقض وغدر - فقال : أخبرك ، قال : قل ، قال : وأنا شديد العطش ! فاسقني ثم أخبرك . فأحضِر له ماء ، فلما تناوله جعلت يده تُرْعَد ، قال : ماشأنك ؟ قال : أخاف أن أمدَّ عنقي وأنا أشرب فيقتلني سيفك . قال : لا بأس عليك حتى تشرب ، فألقى الإناء عن يده ، فقال : ما بالاك ؟ أعيديوا عليه الماء ، ولا تجمعوا عليه بين القتل والعطش ، قال : إنك قد أمنتني ، قال : كذبت ! قال : لم أكذب ، قال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أوَمَن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك ! والله لتأتيني بالخروج أو لأعاقبك ؛ قال : أنت يا أمير المؤمنين قلت : لا بأس عليك حتى تشرب . وقال له ناس من المسلمين

مثل قول أنس ، فقال للهرمزان : ويحك ! أتدعني أو الله لأقتلنك إلا أن تسلم ، ثم أوماً إلى أبي طلحة ، فقال للهرمزان : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فأمنه وأنزله المدينة .

سأل عمر عمرو بن معد يكرب عن السلاح فقال له : ماتقول في الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك ، قال فالنبل ؟ قال : رسل المنايا ؛ تخطيء وأصيب ، قال فالدرع ؟ قال : مشغلة للفارس ، متعبة للراجل ، وإيها مع ذلك الحصن حصين ، قال فالنرس ؟ قال : هو المجن ، وعليه تدور الدوائر ، قال : فالسيف ؟ قال : هناك قارعت أمك الهبل ، قال : بل أمك ، قال : والحمى أضرتني لك ^(١) .

وأول من ضرب عمر بالدرة أم فروة بنت أبي قحافة ، مات أبو بكر ففاح النساء عليه ، وفيهن أخته أم فروة ، فمهاهن عمر مرارا ، وهن يعاودن ، فأخرج أم فروة من بينهن ، وعلاها بالدرة ، فمهربن وتفرقن .

كان يقال : ديرة عمر أهيب من سيف الحجاج . وفي الصحيح : إن نسوة كن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كثر لغطهن ، فجاء عمر فمهربن هيبه له ، فقال لهن : يا عدييات أنفسهن ، أتهبذن ولا تهبن رسول الله ! قلن : نعم ، أنت أغلظ وأفظ .

وكان عمر يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ، ويفتي بضده وخلافه ؛ قضى في الجلد مع الإخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال : من أراد أن يتقحم جراثيم جهنم فليقل في الجلد برأيه .

(١) الحمى أضرتني لك ؛ مثل يضرب في الدل عند الحاجة تنزل ؛ وورد المثل محرفاً في الأصول ، والتصويب من الميداني ١ : ٢٠٥ ، وعيون الأخبار ١ : ١٣٠ ، والعقد ١ : ٢١٠ .

وقال مرة : لا يبلغني أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها ، فقالت له امرأة : ما جعل الله لك ذلك ، إنه تعالى قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْئَتِنَا وَإِنَّمَا مِيزَانٌ ﴾ ^(١) ، فقال : كل الناس أفقه من عمر ، حتى ربّات الحجال ! ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت ، فاضلت إمامكم ففضلته !

ومرّ يوماً بشاب من فتيان الأنصار وهو ظمآن ، فاستسقاءه ، فجدّح ^(٢) له ماء بعسل فلم يشربه ، وقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ فقال له الفتى : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست لك ولا لأحد من هذه القبيلة ، اقرأ ما قبلها : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ^(٣) ، فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر !

وقيل : إن عمر كان يعسّ بالليل ، فسمع صوت رجل وامرأة في بيت ، فارتاب ففسّر الحائط ، فوجد امرأة ورجلا ، وعندهما زقّ خمر ، فقال : يا عدوّ الله ، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على معصيته ! قال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت أخطأت في واحدة فقد أخطأت في ثلاث ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ^(٤) ، وقد تجسّست . وقال : ﴿ وَأَتُوا الْبَيْتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ ^(٥) وقد تسوّرت ، وقال : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا ﴾ ^(٦) ، وما سلّمت !

وقال : مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَنَا مُحَرَّمُهُمَا ، وَمَعَايِبُ عَلَيْهِمَا : مَتْعَةُ النِّسَاءِ وَمَتْعَةُ الْحَيْضِ . وَهَذَا الْكَلَامُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ مُنْكَرًا فَلَهُ عِنْدَنَا نَخْرَجُ وَتَأْوِيلُ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ أَصْحَابُنَا الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِهِمْ .

(٢) جدّح : خلط
(٤) سورة الحجرات ١٢
(٦) سورة النور ٦١

(١) سورة النساء ٢٠
(٣) سورة الأحقاف ٢٠
(٥) سورة البقرة ١٨٩

وكان في أخلاق عمر والفاظه جفاءً وعُجْهُية ظاهرة، يحسبه السامع لها أنه أراد بها ما لم يكن قد أراد، ويتوهم من تُحسكى له أنه قصد بها ظاهراً ما لم يقصده، فمها الكلمة التي قالها في مرض رسول الله صلى الله عليه وآله. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها ! ولسكنه أرسلها على مقتضى خشونة غريزته ، ولم يتحفظ منها . وكان الأحسن أن يقول : « مغبور » أو « مغلوب بالمرض » ، وحاشاه أن يعنى بها غير ذلك !

ولجفاء الأعراب من هذا الفن كثير ، سمع سليمان بن عبد الملك أعرابيا يقول في سنة قَحَط :

رَبِّ الْعِبَادِ مَا لَنَا وَمَا لَكَ قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا فَمَا بَدَا لَكَ
* أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْقَطْرَ لَا أَبَا لَكَ *

فقال سليمان : أشهد أنه لا أب له ولا صاحبة ولا ولد ، فأخرجه أحسن مخرج ^(١) . وعلى نحو هذا يُحتمل كلامه في صلح الحديبية لما قال للنبي صلى الله عليه وآله : ألم تقل لنا : ستدخلونها في ألفاظ نذكره حكايتها، حتى شكاه النبي صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر ، وحتى قال له أبو بكر : الزم بقرزه ^(٢) ، فوالله إنه لرسول الله .

وعمر هو الذي أغلظ على جَبَلَة بن الأيهم حتى اضطره إلى مفارقة دار الهجرة ، بل مفارقة دار الإسلام كلها ، وعاد مرتدًا داخلًا في دين النصرانية ، لأجل لطمة لطمها. وقال جَبَلَة بعد ارتداده متفدماً على ما فعل :

تَنَصَّرْتُ الْأَشْرَافُ مِنْ أَجْلِ لَطْمَةٍ وَمَا كَانَ فِيهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرًا !
فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي رَجَعْتُ إِلَى الْقَوْلِ الَّذِي قَالَ عُمَرُ

(١) الخبر في الكامل ٧ : ١٤٥ - بشرح المصنف
(٢) الفرز في الأصل : ركاب الرحل ، وفي الكلام استعارة ، والمراد هنا : اتبع قوله . وفي اللسان والتهامة : « استملك بقرزه » ، ورواية ابن هشام : « الزم عرزه » .

الأفضل :

حَتَّى إِذَا مَضَىٰ لِسَيْدِيهِ ، جَعَلَهَا فِي سِتَّةٍ زَعَمَ أَنَّ أَحَدَهُمْ ؛ فَيَا لَللَّهِ وَلِلشُّورَى !
مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِي مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أَقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ ! لَسَكَنِي
أُسْفَقْتُ إِذْ أَسْفَوَا ، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا ، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ ، وَمَالَ الْآخَرُ لِصِهْرِهِ ،
مَعَ هَنٍ وَهَنٍ .

الشَّيْخُ :

اللام في « يالله » مفتوحة ، واللام في « ولِلشُّورَى » مكسورة ؛ لأن الأولى المدعو ،
والثانية المدعو إليه ، قال :

بِاللَّهِ جَالٍ لِيَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ أَمَا يَنْفَكُ يُحَدِّثُ لِي بَعْدَ النَّهْيِ طَرَبًا^(١) !
اللام في « للرجال » مفتوحة ، وفي « ليوم » مكسورة . وأسف الرجل ، إذا دخل في
الأمر الذي ، أصله من « أسف الطائر » إذا دنا من الأرض في طيرانه . والضغن : الحقد .
وقوله « مع هَنٍ وَهَنٍ » ، أي مع أمور يكنى عنها ولا يصريح بذكرها ، وأكثر
ما يستعمل ذلك في الشر ، قال (٢) :

* عَلَى هَنَوَاتٍ شَرُّهَا مُتَتَابِعٌ *

يقول عليه السلام : إن عمر لما طعن جعل الخلافة في ستة ، هو عليه السلام أحدهم ،
ثم تعجب من ذلك ، فقال : متى اعترض الشك في مع أبي بكر ، حتى أقرن بسعد بن أبي
وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأمثالهما ! لَسَكَنِي طالبت الأمر وهو موسوم بالأصاغر منهم ،
كما طلبته أولا وهو موسوم بأكبرهم ؛ أي هو حق فلا أستنكف من طلبه ، إن كان المفاضع
فيه جليل القدر أو صغير المنزلة .

وصفا الرجل بمعنى مال ، الصَّفْو : الميل ، بالفتح والكسر .

(١) لعبد الله بن مسلم بن جندب و الكامل ٣ : ٢٧٠ من غير نسبة ، وهو أيضا من أبيات له
رواها ثعلب في المجالس ٤٧٤ ، وهي في معجم البلدان ١ : ١٣٦ .
(٢) البيت في اللسان (٢٠ : ٢٤٣) من غير نسبة ، وأوله :

* أَرَى ابْنَ نَزَارٍ قَدْ جَفَانِي وَمَلَّنِي *

[قصة الشورى]

وصورة هذه الواقعة أنّ عمر لما طعنه أبو لؤلؤة ، وعلم أنّه ميت ، استشار فيمن يوليّه الأمر بعده ، فأشير عليه بابنه عبدالله ، فقال : لاها الله إذا ! لا يليها رجلان من ولد الخطاب ! حسب عمر ما تحمّل ! حسب عمر ما احتقّب ، لاها الله ! لا أتحمّلها حيا وميتا ! ثم قال : إنّ رسول الله مات وهو راض عن هذه الستة من قريش : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ وقد رأيتُ أن أجعلهم اشورى بينهم ليختاروا لأنفسهم . ثم قال : إنّ أستخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله - ثم قال : ادعؤهم لي ، فدعؤهم ، فدخلوا عليه وهو ملقّى على فراشه يجود بنفسه .

فنظر إليهم ، فقال : أكلكم يطعمُ في الخلافة بعدى ! فوجّها ، فقال لهم ثانية ، فأجابه الزبير وقال : وما الذي يُبعدنا منها ! وليتها أنت قمتَ بها ، ولستنا دونك في قريش ولا في السابقة ولا في القرابة .

- قال الشيخ أبو عثمان الجاحظ : والله لولا علمه أن عمر يموت في مجلسه ذلك لم يُقدم على أن يفوه من هذا الكلام بكلمة ، ولا إن يَنبَس منه بلفظة -

فقال عمر : أفلا أخبركم عن أنفسكم ! قال : قل ، فإننا لو استعفيداك لم تُعفنا ، فقال : أما أنت يازبير فَوَعَى آقِس^(١) ، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، يوما إنسان ، ويوما شيطان ، وأعلمها لو أفضت إليك ظلمت يومك تلاطم بالبطحاء على مدّ من شعير ! أفرأيت إن أفضت إليك ! فليت شعري ، من يكون للناس يوم تسكون شيطانا ، ومن يكون يوم تغضب ! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة ، وأنت على هذه الصفة .

ثم أقبل على طلحة - وكان له مبيضاً منذ قال لأبي بكر يوم وفاته ماقال في عمر - فقال له : أقول أم أسكت ؟ قال : قل ، فإنك لاتقول من الخير شيئاً ، قال : أما إني أعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد والباء^(٢) الذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الوعى : الضجر المتبرم ، واللفس : من لا يستقيم على وجه .

(٢) البأو : الكبر والفخر . ونقل صاحب اللسان عن الفقهاء : « في طلحة بأواء » .

ساخطا عليك بالكلمة التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب .
قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله تعالى : الكلمة المذكورة أن طلحة لما أنزلت آية الحجاب قال بمحضر ممن نقل عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الذي يغنيه حجابهن اليوم ! وسيموت غدا فننكحهن . قال أبو عثمان أيضا : لو قال لعمر قائل : أنت قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وهوراض عن الستة ، فكيف تقول الآن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطا عليك للكلمة التي قلتها ! لكان قد رماه بمشاقصه^(١) ، ولكن من الذي كان يحسر على عمر أن يقول له مادون هذا ، فكيف هذا !

قال : ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص فقال : إنما أنت صاحب مقنّب^(٢) من هذه المقنّب ، تقاثل به ، وصاحب قنص وقوس وأسهم ، ومازهره^(٣) والخلافة وأمور الناس ! ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف ، فقال : وأما أنت يا عبد الرحمن ، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به ، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك ، وما زهرة وهذا الأمر !

ثم أقبل على علي عليه السلام ، فقال : لله أنت لولا دُعابة فيك أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح ، والمحجة البيضاء .

ثم أقبل على عثمان ، فقال : هيباً إليك ! كأني بك قد قلدتكَ قريش هذا الأمر لحبها إياك ، حملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالنبي ، فسارت إليك عصا به من ذؤبان العرب ، فذبحك على فراشك ذبحاً . والله لئن فعلوا لتفعلن ، ولئن فعلت ليفعلن . ثم أخذ بناصيته ، فقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولي ؛ فإنه كائن .

ذكر هذا الخبر كله شيخنا أبو عثمان في كتاب " السفينانية " ،^(٤) وذكره جماعة غيره في باب فراسة عمر . وذكر أبو عثمان في هذا الكتاب عقيب رواية هذا الخبر قال : وروى

(١) المشاقص : جمع مشقمس ؛ وهو نصل السهم إذا كان طويلاً

(٢) المقنّب : جماعة الخيل . (٣) زهرة : قبيلة سعد بن أبي وقاص .

(٤) في السعدوي ٣ : ٢٥٣ أن الجاحظ ألف كتاباً في نصره معاوية بن أبي سفيان .

معمّر بن سليمان التيميّ عن أبيه عن سعيد بن المسيّب عن ابن عباس ، قال : سمعت عمرَ ابن الخطاب يقول لأهل الشورى : إنكم إن تعاونتم وتوازرتم وتناصحتم أكلتموها وأولادكم ، وإن تحاسدتم وتقاعدتم وتدابرتم وتباغضتم ، غلبكم على هذا الأمر معاوية بن أبي سفيان . وكان معاوية حينئذ أمير الشام .

ثم رجع بنا الكلام إلى تمام قصة الشورى . ثم قال : ادعوا إلى أبا طلحة الأنصاريّ ، فدعوه له فقال : انظر يا أبا طلحة ، إذاعدتم من خُفرتي ، فكُن في خمسين رجلاً من الأنصار حاملي سيوفكم ، فخذ هؤلاء نفر بامضاء الأمر وتعيّله ، واجمعهم في بيت ، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم ، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فاضرب عنقه ، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب أعناقهما ، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة ، فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن ، فارجم إلى ما قد اتفقت عليه ، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فاضرب أعناقها ، وإن مضت ثلاثة أيام ولم يتفقوا على أمرٍ ، فاضرب أعناق السّنة ، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم .

فلما دُفِن عمر ، جَمَعهم أبو طلحة ، ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار ، حاملي سيوفهم ، ثم تكلم القوم وتنازعوا ، فأول ما عمل طلحةُ أنه أشهدهم على نفسه أنه قد وهب حقه من الشورى لعثمان ، وذلك لعلمه أن الناس لا يعدلون به عليّاً وعثمان ، وأن الخلافة لا تخص له وهذان موجودان ، فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب عليّ عليه السلام ، بهبة أمر لا انتفاع له به ، ولا تمكّن له منه .

فقال الزبيرُ في معارضته : وأنا أشهدكم على نفسي أنني قد وهبتُ حقي من الشورى لعليّ ؛ وإنما فعل ذلك لأنه لما رأى عليّاً قد ضُغف وانخزل بهبة طلحة حقه لعثمان ، دخلته حمية النسب ، لأنه ابن عمّة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهي صفية بنت عبد المطلب ، وأبو طالب خاله . وإنما مال طلحةُ إلى عثمان لانحرافه عن عليّ عليه السلام ، باعتبار أنه

تَيْمِيٍّ ، وابنُ عَمِّ أَبِي بكر الصديق ، وقد كان حصلَ في نفوسِ بني هاشمٍ من بني تَيْمٍ حَقِّقٌ شديدٌ لأجلِ الخلافةِ ، وكذلك صارَ في صدورِ تَيْمٍ على بني هاشمٍ ؛ وهذا أمرٌ مركوزٌ في طبيعةِ البشرِ ، وخصوصاً طينةِ العربِ وطباعها ، والتجربةُ إلى الآنِ تحققُ ذلكَ ؛ فبقى من الستةِ أربعةٌ .

فقال سعدُ بنُ أَبِي وقَّاصٍ : وأنا قد وهبتُ حَقِّي من الشورى لابنِ عَمِّي عبدالرحمن - وذلكَ لأنَّهما من بني زُهْرَةَ ، ولعلمِ سعدٍ أنَّ الأمرَ لا يَتِمُّ له - فلما لم يبقَ إِلَّا الثلاثةُ . قال عبدالرحمنُ لعليٍّ وعثمانُ : أَيُّكما يُخرجُ نفسه من الخلافةِ ، ويكونُ إليه الاختيارُ في الاثنينِ الباقيينِ ؟ فلم يَتَكَلَّمْ منهما أحدٌ ، فقال عبدُ الرحمنِ : أشهدُكم أنَّني قد أخرجتُ نفسي من الخلافةِ على أنْ أختارَ أحدهما ، فأمسكاً . فبدأ بعليٍّ عليه السلامُ ، وقال له : أبايعك على كتابِ الله ، وسنةِ رسولِ الله ، وسيرةِ الشيخينِ : أَبِي بكرٍ وعمر . فقال : بل على كتابِ الله وسنةِ رسوله واجتهادِ رأيي . فعدلَ عنه إلى عثمانَ ، فعرضَ ذلكَ عليه ، فقال : نعم ، فعاد إلى عليٍّ عليه السلامُ ، فأعاد قوله ؛ فعملَ ذلكَ عبدُ الرحمنِ ثلاثاً ، فلما رأى أنَّ عليًّا غيرُ راجعٍ عمَّا قاله ، وأنَّ عثمانَ يُنْعِمُ له ^(١) بالإجابة ، صفَّقَ ^(٢) على يدِ عثمانَ ، وقال : السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ، فيقال : إن عليًّا عليه السلامُ قال له : والله ما فعلتَها إِلَّا لأنَّكَ رجوتَ منه مارجاً صاحبُكما من صاحبه ، دَقَّ اللهَ بينكما عِطْرَ مَنْشَمٍ ^(٣) .

قيل : ففسدَ بعد ذلكَ بينَ عثمانَ وعبدِ الرحمنِ ، فلم يسكِّمَ أحدهما صاحبه حتى مات عبدُ الرحمنِ .

(١) أنعم له ؛ إذا قال مجيباً « نعم » .

(٢) يقال : صفَّقَ يده بالبيعة وعلى يده صففاً ، أي ضرب يده على يده .

(٣) قال الأصمعي : منشَمٌ ، بكسر الشين : اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرمَ إذا أرادوا القتالَ تطيَّبوا من طيبها ، وكانوا إذا فعلوا ذلكَ كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال : أشأمُ من عطر منشَمٍ ؛ فصار مثلاً . صحاح الجوهري : ٢٠٤١ .

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل :

أما قوله عليه السلام : « قصنا رجل منهم لضغنه » ، فإنه يعنى طلحة . وقال القطب الراوندى : يعنى سعد بن أبي وقاص ؛ لأنّ علياً عليه السلام قتل أباه يوم بدر . وهذا خطأ فإن أباه أبو وقاص ، واسمه مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ؛ مات في الجاهلية حتف أنفه .

وأما قوله : « ومال الآخر لصهره » يعنى عبد الرحمن مال إلى عثمان ، لأنّ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت تحتّه ، وأمّ كلثوم هذه هى أخت عثمان من أمّه أروى بنت كرز .

وروى القطب الراوندى أنّ عمر لما قال : كونوا مع الثلاثة التى عبد الرحمن فيها ، قال ابن عباس لعلى عليه السلام : ذهب الأمر منّا ، الرجل يريد أن يكون الأمر في عثمان . فقال على عليه السلام : وأنا أعلم ذلك ، ولكنى أدخل معهم في الشورى ، لأنّ عمر قد أهملنى الآن للخلافة ، وكان قبل ذلك ^(١) يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن النبوة والإمامة لا يجتمعان في بيت ، فأنا ^(٢) أدخل في ذلك لأظهر للناس مناقضة فعله لروايته .

الذى ذكره ^(٣) الراوندى غير معروف ، ولم ينقل عمر هذا عن رسول الله صلى الله عليه ، ولكنه قال لعبد الله بن عباس يوماً : يا عبد الله ، مات قول منع قومكم منكم ^(٤) ؟ قال : لا أعلم يا أمير المؤمنين ، قال : اللهم غفر ! إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة ، فتذهبون في السماء بذخاً وشمخاً ، لعلكم تقولون : إن أبا بكر أراد الإمرة عليكم وهضمكم ! كلاً ، لكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم مما فعل ، ولولا رأى أبى بكر

(١) كلمة « ذلك » ساقطة من ب .

(٢) ب « رواه » .

(٣) ١ : « وأنا » .

(٤) كذا في الأصول ، وربما كانت كلمة « تقول » مقحمة ، أو تكون بمعنى الظن . وفي تاريخ

الطبرى : « أتدرى ما منع قومكم منكم » .

فيّ بعد موته لأعاد أمرَكم إليكم ، ولو فعل ما هنا كم مع قومكم ، إنهم لينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره .

فأما الرواية التي جاءت بأن طلحة لم يكن حاضرا يوم الشورى ، فإن صحّت فذو الضغن هو سعد بن أبي وقاص ، لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس ، والضعيفة التي عنده على عليّ عليه السلام من قبل أخواله الذين قتل صناديدهم ، وتقلّد دماءهم ؛ ولم يُعرف أن عليّاً عليه السلام قتل أحداً من بني زهرة لينسب الضغن إليه .

وهذه الرواية هي التي اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب " التاريخ " ، قال : لما طعن عمر ^(١) قيل له : لو استخلفت . [يا أمير المؤمنين !] ^(٢) فقال : [من استخلف ؟] ^(٣) لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ^(٤) وقلت لربي لو سألتني : سمعتُ نبيك يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ^(٥) ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته ، وقلت لربي إن سألتني : سمعتُ نبيك عليه السلام يقول : « إن سالما شديد الحب لله » ، فقال له رجل : ولّ ^(٦) عبد الله بن عمر ، فقال : قاتلك الله ! والله ما الله أردت بهذا الأمر ! [ويحك !] ^(٧) كيف استخلف رجلاً يحجز عن طلاق امرأته إلا أربّ لعمر في خلافتكم ^(٨) ، ما حيدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ؛ إن تلك خيراً فقد أصبنا منه ، وإن تلك شراً يُصرف عنا ^(٩) . حسب آل عمر أن يحاسب منهم [رجل] ^(١٠) واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد .

فخرج الناس من عنده ، ثم راحوا إليه فقالوا له : لو عهدت عهداً ! قال : قد كنتُ أجمعُ بعد مقاتلي [لكم] ^(١١) أن أولي أمرَكم رجلاً هو أحرأكم أن يحملكم على الحق .

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٢٧ وما بعدها (طبع دار المعارف) مع تصرف واختصار

(٢) تكملة من تاريخ الطبري

(٣) الطبري : « استخلفته »

(٤) الطبري : « أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر » . (٥) الطبري : « فإن سألتني ربي قلت . . . »

(٦) الطبري : « لأنه أمين هذه الأمة » (٧) الطبري : « أموركم » .

(٨) في الطبري : « ففسرنا آل عمر » .

وأشار إلى عليّ عليه السلام - فرهَقَتْنِي غَشِيَةٌ ، فرأيت رجلاً يدخل جَنَّةً [قد غرسها] ^(١) فجعل يقطف كلَّ غُضَّةٍ ويأنعة ؛ فيضمُّها إليه ، ويصيرها تحته ، بخِفَتِ أَنْ أتحملَها حيًّا وميتًا ، وعلمت أن الله غالب أمره عليكم بالرهط الذي قال رسول الله عنهم : إنهم من أهل الجنة ، ثم ذكر خمسة : عليًّا ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وسعدا .

- قال : ولم يذكر في هذا المجلس طلحة ، ولا كان طلحة يومئذ بالمدينة -

ثم قال لهم : انهضُوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها ، ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فقال العباس لعليّ عليه السلام : لا تدخل معهم ، وارفع نفسك عنهم ، قال : إنِّي أكره الخلاف ، قال : إذن ترى ما تكره ، فدخلوا الحجرة فتناجوا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال عبد الله بن عمر : إنَّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد ، فقيم هذا اللَّفْظ ! وانتهى عمر ، وسمع الأصوات ، فقال : ليُصلِّ بالناس صُهيب ، ولا يأتينَّ اليوم الرابع من يوم موتي إلا وعاليكم أمير ، وليحضر عبدُ الله بن عمر مشيرًا وليس له شيء من الأمر ، وطلحة بن عبيد الله شريككم في الأمر ، فإن قدم إلى ثلاثة أيام فأحضروه أمرَكم ، وإلا فأرضوه ، ومن لي برضا طلحة ! فقال سعد : أنا لك به ، ولن يخالف إن شاء الله تعالى .

ثم ذكر وصيَّته لأبي طلحة الأنصاري وما خصَّ به عبد الرحمن بن عوف من كَوْن الحق في الفئنة التي هوَ فيها وأمره بقتل من يخالف ، ثم خرج الناسُ فقال عليّ عليه السلام لقوم معه من بنى هاشم : إنَّ أَطِيعَ فيكم قومُكم من قریش لم تؤمُّروا أبدا .

وقال للعباس : عدِّل بالأمر عني يا عم . قال : وما علمك ؟ قال : قُرْن بِي عثمان . وقال عمر : كونوا مع الأكثر ، فإن رضى رجلان رجلاً ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ، فسعد لا يخالف ابن عمه ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان ، فيوليها أحدهما الآخر ، فلو كان الآخران مَعِي لم يُغْنِيَا شيئًا . فقال العباس : لم أدفعك إلى شيء إلا رجعت إلى

مستأخراً بما أكره ، أشرت عليك عند مرض رسول الله صلى الله عليه أن تسأله عن هذا الأمر فيمن هو فأبيت ، وأشرت عليك عند وفاته أن تعاجل البيعة^(١) فأبيت ، وقد أشرت عليك حين سمالك عمر في الشورى اليوم أن ترفع نفسك عنها ، ولا تدخل معهم فيها فأبيت ، فاحفظ عني واحدة ؛ كلما عرض عليك القوم الأمر فقل : لا ، إلا أن يوتوك . واعلم أن هؤلاء لا يبرحون يدفعونك عن هذا الأمر حتى يقوم لك به غيرك ، وإيم الله لا تناله إلا بشر لا ينفع معه خير . فقال عليه السلام : أما إني أعلم أنهم سيوتون عمان ، وليحدثن البدع والإحداث ، وإن بقي لأذكرك ، وإن قتل أو مات ليعداؤنهن بنو أمية بينهم ، وإن كنت حيّاً لتجدني حيث تكرهون ، ثم تمثل :

حَلَقْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ عَشِيَّةً غَدَوْنَ خِفافاً يَبْتَدِرْنَ الْحَصْبَا^(٢)

لِيَجْتَلِينَ رَهْطُ ابْنِ بَعْرٍ غَدَوَةً^(٣) نَجِيعاً بَنُو الشَّدَاخِ وَرِداً مُصْلِباً

قال : ثم التفت فرأى أبا طلحة الأنصاري ، فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لا ترع أبا حسن . فلما مات عمر ودفن وخلوا بأنفسهم للمشاورة في الأمر ، وقام أبو طلحة يحجبهم بباب البيت ، جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، فجلسا بالباب ، فخصبهما سعد وأقامهما ، وقال : إنما تريدان أن تقولاً حَضَرْنَا وكُنَّا في أصحاب الشورى . فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام ، فقال أبو طلحة : أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني عليكم أن تنافسوها ! أما والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي وقفت لكم ، فاصنعوا ما بدا لكم !

قال : ثم إن عبد الرحمن قال لابن عمه سعد بن أبي وقاص : إني قد كرهتها ، وسأخلع نفسي منها ، لأنني رأيت الليلة روضة خضراء كثيرة العشب ، فدخل فخل مارأيت

(٢) الطبري : « فابتدرن » .

(١) الطبري : « الأمر » .

(٣) الطبري : ليجتلين رهط ابن بعر مارثا ، وابن الأثير ٣ : ٣٦ : « ليجتلين رهط ابن بعر

فارسا » .

أكرم منه ، فركّنه سهم لم يلتفت إلى شيء منها حتى قطعها ، لم يعرج ، ودخل بعير يتلوه تابع أثره ، حتى خرج منها . ثم دخل فحلّ عبقرى يجرّ خطامه ، ومضى قصد الأولين ، ثم دخل بعير رابع ، فوقع في الروضة يرتع ويخضم . ولا والله لا أكون الرابع ؛ وإن أحدا لا يقوم مقام أبي بكر وعمر فيرضى الناس عنه .

ثم ذكر خلّع عبد الرحمن نفسه من الأمر ، على أن يوليها أفضلهم في نفسه ، وأن عثمان أجاب إلى ذلك ، وأن عليا عليه السلام سكت ، فلما روجع رضى على موثقي أعطاه عبد الرحمن ؛ أن يؤثر الحق ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخصّ ذا رحم ، ولا يألو الأمة نصحا ، وأن عبد الرحمن ردّد القول بين عليّ وعثمان متلوّما ، وأنه خلا بسعد تارة ، وبالمسور بن مخرمة الزهرى تارة أخرى ، وأجال فكره ، وأعمل نظره ، ووقف موقف الحائر بينهما . قال : قال عليّ عليه السلام لسعد بن أبي وقاص : يا سعد ، اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، أسألك برحمتى هذا من رسول الله صلى الله عليه وبرحمته عسى حمزة منك ، ألا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا .

— قلت : رحيم حمزة من سعد ، هى أن أم حمزة هالة بنت أهيب بن عبد مناف ابن زهرة ؛ وهى أيضاً أم المقوم وحجفل — واسمه المغيرة — والغيداق أبناء عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ هؤلاء الأربعة بنو عبد المطلب من هالة ، وهالة هذه هذه هى عمة سعد بن أبي وقاص ؛ فحمزة إذن ابن عمة سعد ؛ وسعد ابن خال حمزة —

قال أبو جعفر : فلما أتى اليوم الثالث جمّعهم عبد الرحمن ، واجتمع الناس كافة ، فقال عبد الرحمن : أيّها الناس ، أشيروا علىّ في هذين الرجلين . فقال عمار بن ياسر : إن أردت ألا يختلف الناس ، فبايع عليّا عليه السلام ، فقال المقداد : صدق عمار ، وإن بايعت عليا سمعنا وأطعنا . فقال عبد الله بن أبي سرح : إن أردت ألا تختلف قریش ،

(١٣ - شرح نهج البلاغة - أول)

فبايع عثمان . وقال عبد الله بن أبي ربيعة الخزوعي : صدق ، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا .
 فشمَّ عَمَارُ بْنُ أَبِي سَرْحٍ ، وقال له : متى كنت تنصح الإسلام^(١) !
 فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، وقام عمار ، فقال : أيها الناس ، إن الله أكرمكم بنبيّه ،
 وأعزكم بدينه ، فإلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم ! فقال رجل من
 بني مخزوم : لقد عدّوتَ طورَكَ يا بنَ سَمِيّةٍ ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ! فقال
 سعد : يا عبدَ الرحمن ، افرُغ من أمرك قبل أن يفتتنَ الناس . فحينئذ عرّض عبد الرحمن
 على عليّ عليه السلام العملَ بسيرة الشيخين ، فقال : بل أجهد برأيي . فبايع عثمان بعد
 أن عرض عليه فقال : نعم . فقال عليّ عليه السلام : ليس هذا بأول يوم تظاهروا فيه
 علينا ، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون ؛ والله ما وليّته الأمرَ إلا ليردّه إليك ،
 والله كلّ يوم في شأن .

فقال عبد الرحمن : لا تجعلنّ على نفسك سبيلا يا عليّ . — يعني أمرَ عمرَ أبا طلحة
 أن يضرب عُقْبَ الخالف — فقام عليّ عليه السلام فخرج ، وقال : سيبلغ الكتابُ أجله ،
 فقال عَمَارُ : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركته ، وإنّه من الذين يقضون بالحق وبه
 كانوا يعدلون . فقال المقدادُ : تالله ما رأيتُ مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم ،
 وأعجبا لقريش ! لقد تركتُ رجلاً ما أقولُ ولا أعلمُ أن أحداً أقضى بالعدل ولا أعلمُ ولا
 أتقِ منه ! أما والله لو أجد أعوانا ! فقال عبد الرحمن : اتقِ الله يا مقداد ، فإنّي خائف عليك الفتنة .
 وقال عليّ عليه السلام : إني لأعلمُ ما في أنفسهم ؛ إن الناس ينظرون إلى قريش ،
 وقريش تنظر في صلاح شأنها ، فتقول : إن وَلِيَّ الأمرِ بنو هاشم لم يخرج منهم أبداً ،
 وما كان في غيرهم فهو متداول في بطون قريش .
 قال : وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان فتلكاً ساعة ، ثم بايع .

(١) الطبري : « المسلمين » .

وروى أبو جعفر رواية أخرى أطالها ، وذكر خطب أهل الشورى وما قاله كل منهم ،
وذكر كلاما قاله على عليه السلام في ذلك اليوم ، وهو :

الحمد لله الذي اختار محمداً منا نبياً ، وابتعثه إلينا رسولا ، فنجنُ أهل بيت النبوة
ومعدن الحكمة ؛ أماناً لأهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ؛ إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه ،
وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى ، لو عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه
وآله عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولاً لجالدنا عليه حتى نموت . لن يسرع أحد قبلى
إلى دعوة حقٍّ وصلة رحيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اسمعوا كلامي ، وعُوا
منطقي ، عسى أن تروا هذا الأمر بعد هذا الجمع تُنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه
العهود ؛ حتى لا يكون لَكُمْ جماعة ، وحتى يكون بعضكم أئمةً لأهل الضلالة وشيعة
لأهل الجهالة .

قلت : وقد ذكر الهروي^(١) في كتاب ” الجمع بين الفريقين “ ، قوله : « وإن نمنعه
نركب أعجاز الإبل » ، وفسره على وجهين :

أحدهما : أن من ركب عَجَزَ البعير يعاني مشقة ، ويقاسى جهداً ، فكأنه قال :
وإن نمنعه نصبر على المشقة ؛ كما يصبر عليها راكبٌ عجَزَ البعير .
والوجه الثاني أنه أراد : نتبع غيرنا ، كما أن راكبَ عجَزَ البعير يكون ردِّفالمَن هو
أمامه ، فكأنه قال : وإن نمنعه نتأخر ونتبع غيرنا كما يتأخر راكب البعير .

(١) هو أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي ، صنف كتابه في الجمع بين غريب القرآن والحديث .

وقال أبو هلال العسكري في كتاب "الأوائل" : استجيب دعوة علي عليه السلام في عثمان وعبد الرحمن ، فما ماتا إلا متهاجرين متعادين . أرسل عبد الرحمن إلى عثمان يعاتبه وقال لرسوله : قل له : لقد وليتُك ما وليتُك من أمر الناس ، وإن لي لأمورا ماهي لك : شهدتُ بدرا وما شهدتها ، وشهدتُ بيعة الرضوان وما شهدتها ، وفرت يوم أحد وصبرتُ ؛ فقال عثمان لرسوله : قل له : أمّا يوم بدر فإن رسول الله صلى الله عليه رَدّني إلى ابنته لما بهما من المرض ، وقد كنتُ خرجتُ للذي خرجتَ له ، ولقيتهُ عند منصرفه ، فبشّرني بأجرٍ مثل أجوركم ، وأعطاني سهما مثل سهامكم . وأما بيعة الرضوان فإنه صلى الله عليه بعثني أستاذن قريشا دخوله إلى مكة ، فلما قيل له : إني قُتلت ، بايع المسلمين على الموت لما سمعه عني ، وقال : إن كان حيّا فأنا أبايع عنه ، وصَفَّق بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : يساري خير من يمين عثمان ، فيدُك أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه ! وأما صبرُك يوم أحد وِفْراي ، فلقد كان ذلك ، فأنزل الله تعالى العفو عني في كتابه ، فعفرتني بذنب غفره الله لي ، ونسيت من ذنوبك ما لا تَدْرِي أغفر لك أم لم يغفر !

لما بنى عثمان قصره طمار^(١) بالزوراء ، وصنع طعاما كثيرا ، ودعا الناس إليه ، كان فيهم عبد الرحمن ، فلما نظر للبناء والطعام قال : يا بن عفان ، لقد صدّقنا عليك ما كنا نكذب فيك ، وإني أستهيذ بالله من بيعتك . فغضب عثمان ، وقال : أخرج عني يا غلام ، فأخرجوه ، وأمر الناس ألا يحالسه ، فلم يكن يأتيه أحد إلا ابن عباس ، كان يأتيه فيتعلم منه القرآن والفرائض . ومرض عبد الرحمن فعاده عثمان وكله فلم يكلمه حتى مات .

* * *

(١) طمار : موضع عند سوق المدينة ، ذكره ياقوت .

الأضل :

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنِيهِ ، بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ
يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضَمَ الْإِبِلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ ؛ إِلَى أَنْ انْتَسَكَثَ قَتْلُهُ ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ
عَمَلُهُ ، وَكَبَّتْ بِهِ بَطْنَتُهُ ..

الشنخ :

ناجنا حِضْنِيهِ : رافعا لهما ، والحِضْنُ : ما بين الإبط والكشح ، يقال للمتكبر : جاء ناججاً
حِضْنِيهِ ، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاما : جاء ناججا حِضْنِيهِ ، ومراده عليه السلام هذا الثاني .
والنَّثِيلُ : الروث . والمُعْتَلِفُ : موضع العلف ؛ يريد أن همه الأكل والرجيع ، وهذا من
مِصِّ الذم ، وأشدُّ من قول الحطيئة الذي قيل : إنه أجهى بيت للعرب :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلَ لُبْعِيَّتَهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي^(١)
والخَضَمُ : أكلٌ بكلِّ الفم ، وضدّه القَضْمُ ، وهو الأكل بأطراف الأسنان . وقيل :
الخَضَمُ أكلُ الشيء الرُّطْبَ ، والقَضْمُ أكلُ الشيء اليابس ؛ والمراد على التفسيرين
لا يختلف ، وهو أنهم على قَدَمٍ عظيمة من النَّهَمِ وشدة الأكل وامتلاء الأفواه . وقال
أبو ذرٍّ رحمه الله تعالى عن أبي أمية : يَخْضَمُونَ وَنَقَضَ ، والموعِدُ الله . والماضِ « خَضِمْتُ »
بالكسر ، ومثله قَضِمْتُ .

والنَّبْتَةُ ، بكسر النون كالنبات ، تقول : نَبَتَ الرُّطْبُ نباتا وَنَبْتَةً . وانتسكَثَ قَتْلُهُ :
انتقض ؛ وهذه استعارة . وأجهز عليه عمله : تم قتلُه . يقال : أجهزتُ على الجريح ، مثل
ذَقَقْتُ ، إِذَا أْتَمَمْتَ قَتْلَهُ وَكَبَّتْ بِهِ بَطْنَتُهُ ، كبا الجواد ، إِذَا سَقَطَ لُوجُهُ . والبِطْنَةُ : الإسراف
في الشَّيْءِ .

[نَتَفَّ مِنْ أَخْبَارِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ]

وثالث القوم هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف،
كُنِيَّتُهُ أَبُو عَمْرٍو، وأمه أَرْوَى بنت كَرْيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس .

بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقرار الأمر له، وصحَّتْ فِيهِ فِرَاسَةُ عَمْرٍو، فإنه أوطأ
بني أمية رَقَابَ الناس، وولَّاهم الْوِلَايَاتِ وأَقْطَعَهُمُ الْقَطَائِعَ، وَافْتَتَحَتْ لِإِفْرِيقِيَّةٍ فِي أَيَّامِهِ،
فَأَخَذَ الْخُمْسَ كُلَّهُ فَوَهَبَهُ لِمُرَوَّانَ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَنْبَلٍ الْجَلْحِيُّ :

أَخْلَفُ بِاللَّهِ رَبِّ الْأَنَا مَآ تَرَكَ اللَّهُ شَيْئًا سُدَى
وَلَكِنْ خَلَقْتَ لَنَا فِتْنَةً لَكِي نَبْتَلى بِكَ أَوْ تَبْتَلى
فَإِنَّ الْأَمِيَنَيْنِ قَدْ بَيَّنَّا مَقَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدَى
فَمَا أَخَذَا دِرْهَمًا غِيْلَةً وَلَا جَعَلَا دِرْهَمًا فِي هَوَى
وَأَعْطَيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ الْبِلَادِ فَهَيْهَاتَ سَعْيِكَ مِمَّنْ سَعَى !
الأميينان : أبو بكر وعمر .

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صِلَّةً، فأعطاه أربعمائة ألف درهم .
وأعاد الحكم بن أبي العاص، بعد أن كان ^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله قد سَيَّرَهُ ثُمَّ
لم يرده أبو بكر ولا عمر؛ وأعطاه مائة ألف درهم .

وتصدق رسول الله صلى الله عليه وآله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على
المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم .
وأقطع مروان فذلك ^(٢)، وقد كانت فاطمة عايتها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله

(١) كلمة « كان » ساقطة من ب

(٢) فذلك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومئذ ؛ أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحا ، وذلك
أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل خيبر ، وفتح حصونها ، ولم يبق إلا ثلث ، واشتد بهم الحصار ،
راسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يتركهم على الجلاء ، وفعل ، وبلغ ذلك أهل فذلك ،
فأرسلوا إلى رسول الله أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك ؛ فهي مما لم يوجب
عليه بخيل ولا ركاب ، فسكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . معجم البلدان ٦ : ٣٤٣ .

عليه ، تارة بالميراث ، وتارة بالنحلة فدُفِعَتْ عنها .

وحسبى المراعى حول المدينة كلها من مواشى المسلمين كلهم إلا عن بنى أمية .

وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب - وهى من طرابلس الغرب إلى طنجة - من غير أن يشرّكه فيه أحد من المسلمين .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتى ألف من بيت المال ، فى اليوم الذى أمر فيه مروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال ، وقد كان زوجته ابنته أم أبان ، نجاة زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمقاتيح ، فوضعها بين يدى عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكي أن وصلتُ رحى ! قال : لا ، ولكن أبكى لأنى أظنك أنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيرا ، فقال : ألقى المقاتيح يا بن أرقم ؛ فإننا سنجد غيرك .

وأناه أبو موسى بأموال من العراق جليلة ، فقسّمها كلها فى بنى أمية . وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة ، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه .

وانضم إلى هذه الأمور أمور أخرى نعمها عليه المسلمون ، كتسيير أبى ذرّ رحمه الله تعالى إلى الرّبذة ؛ وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلاعه ، وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر فى إقامة الحدود وردّ المظالم ، وكفّ الأيدى العادية ، والانتصاب لسياسة الرعية ، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية^(١) يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين ، واجتمع عليه كثير من أهل المدينة مع القوم الذين وصلوا من مصر لتعديدها أحداثه عليه فقتلوه . وقد أجاب أصحابنا عن المطاعن فى عثمان بأجوبة مشهورة مذكورة فى كتبهم . والذى نقول نحن : إنها وإن كانت أحداثا ، إلا أنها لم تبلغ المبلغ الذى يستباح به دمه ،

(١) كذا فى جميع الأصول ؛ ويرى الأستاذ مكى السيد جاسم أن الصحيح أن الكتاب الذى وجدوه معه موجه إلى عبد الله بن أبي سرح لا إلى معاوية .

وقد كان الواجب عليهم أن يخلعوه من الخلافة حيث لم يستصاحوه لها ، ولا يعجلوا بقتله ،
وأما المومنين عليه السلام أبرأ الناس من دمه ، وقد صرح بذلك في كثير من كلامه ؛
من ذلك قوله عليه السلام : والله ما قتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله .
وصدق صلوات الله عليه .

الأفضل :

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا وَالنَّاسُ إِلَى كَعْرِفِ الضَّيْعِ ، يَنْشَأُونَ عَلَى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ،
حَتَّى لَقَدْ وَطِئَ أَحْسَنَانِ ، وَشَقَّ عِطْفَايَ ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْفَنَمِ . فَلَمَّا
نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَّتْ طَائِفَةً ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى ، وَفَسَقَ آخَرُونَ ؛ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا
كَلَامَ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ؛ بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَعَوَّهَهَا ، وَاسْكَنَهُمْ
حَلِيَّتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَرَاقَهُمْ زَبْرُجُهَا .

الشرح :

عُرِفَ الضَّيْعُ ثَمِينٌ ، وَيَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْإِزْدِحَامِ . وَيَنْتَالُونَ : يَتَتَابَعُونَ مُزْدَحِمِينَ .
وَأَحْسَنَانِ : الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَالْعِطْفَانِ : الْجَانِبَانِ مِنَ الْمُنْسَكَبِ إِلَى الْوَرِكِ ؛
وَيُرْوَى « عِطْفَانِي » ، وَالْعِطْفَانُ : الرِّدَاءُ وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْحَالِ ؛ إِلَّا أَنَّ الرِّوَايَةَ الْأُولَى أَشْهَرُ ؛
وَالْمَعْنَى خُدْشُ جَانِبَيْ لِسِدَّةِ الْأَصْطِكَالِكِ مِنْهُمْ وَالزَّحَامِ .

وَقَالَ الْقُطْبُ الرَّوَنْدِيُّ : الْحَسَنَانِ : لِإِبْهَامَا الرَّجُلِ ؛ وَهَذَا لَا أَعْرِفُهُ .

وقوله : « كَرِيضَةُ الْغَنَمِ » أى كَالْقِطْعَةِ الرَّابِضَةِ مِنَ الْغَنَمِ ، يَصِفُ شِدَّةَ اَزْدِحَامِهِمْ حَوْلَهُ ، وَجُثُومَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وقال القطب الراوندى : يَصِفُ بِلَادَتَهُمْ وَنَقْصَانَ عَقُولِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْغَنَمَ تُوصَفُ بِقُلَّةِ الْفُتْنَةِ . وَهَذَا التَّفْسِيرُ بَعِيدٌ وَغَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْحَالِ .

فَأَمَّا الطَّائِفَةُ الْفَاسِقَةُ ، فَهِيَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ ، وَأَمَّا الطَّائِفَةُ الْفَاسِقَةُ فَأَصْحَابُ صِفِّينَ . وَسَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْقَاسِطِينَ . وَأَمَّا الطَّائِفَةُ الْمَارِقَةُ فَأَصْحَابُ السَّهْرَوَانِ ؛ وَأَشْرَنَا نَحْنُ بِقَوْلِنَا : سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَاسِطِينَ إِلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « سَتَقَاتِلُ بَعْدِي الْفَاكِثِينَ ، وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ » . وَهَذَا الْخَبَرُ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، لِإِنَّهُ إِخْبَارٌ صَرِيحٌ بِالْغَيْبِ ، لَا يَحْتَمِلُ التَّمْوِيَةَ وَالتَّوَدُّيسَ كَمَا تَحْتَمِلُهُ الْأَخْبَارُ الْجَمَلَةُ ، وَصَدَّقَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَالْمَارِقِينَ » ، قَوْلُهُ أُولَا فِي الْخَوَارِجِ : « يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » ، وَصَدَّقَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ « الْفَاكِثِينَ » كَوْنِهِمْ نَكَثُوا الْبَيْعَةَ بَادِئُ بَدْءٍ ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ وَقْتُ مَبَايَعَتِهِمْ لَهُ : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ^(١) .

وَأَمَّا أَصْحَابُ صِفِّينَ ، فَإِنَّهُمْ عِنْدَ أَصْحَابِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ لِنَفْسَتِهِمْ ، فَصَحَّ فِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ^(٢) . وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « حَلِيتُ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ » تَقُولُ : حَلَا الشَّيْءُ فِي فِئِ يَحْلُو ، وَحَلَى لَعْنِي يَحْلَى . وَالزَّبْرَجُ : الزَّيْنَةُ مِنْ وَشْيٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَيُقَالُ : الزَّبْرَجُ : الزَّهَبُ . فَأَمَّا الْآيَةُ فَنَحْنُ نَذْكُرُ بَعْضَ مَا فِيهَا ، فَنَقُولُ : إِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَمْلِكِ الْوَعْدَ بِتَرْكِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَالْفُسَادِ ، وَلَكِنْ بِتَرْكِ إِرَادَتِهِمَا ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَرْكُوكُوا إِلَى الَّذِينَ

ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴿١﴾ ؛ علق الوعيد بالركوب إليهم والميل معهم ، وهذا شديد في الوعيد .

ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : إن الرجل ليمعجه أن يكون شريك نعله أحسن من شريك نعل صاحبه فيدخل تحت هذه الآية . ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان يردّها حتى قبض .

الأضل :

أَمَّا الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ ، وَتِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارَؤْا عَلَى كِتَابَةِ ظَالِمٍ ، وَلَا سَفَبٍ مَظْلُومٍ ، لَا لَقِيَتْ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ، وَلَسَقِيَتْ آخِرَهَا بِكَأْسِ أُولِهَا ، وَلَا لَنَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنَزٍ .

الشَّنْح :

فَلَقَ الحبة ، من قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ (٢) . والنَّسَمَةُ : كل ذى رُوح من البشر خاصة .

قوله : « لولا حضور الحاضر » ، يمكن أن يريد به لولا حضور البيعة ؛ فإنها بعد عقدتها تتعين المحاماة عنها ، ويمكن أن يريد بالحاضر مَنْ حَضَرَهُ من الجيش الذين يستمعين بهم على الحرب . والكِتَابَةُ بكسر الكاف : ما يعترى الإنسان من الثقل والكُرب عند الامتلاء من الطعام . والسَفَب : الجوع . وقولهم : قد ألقى فلان حبل فلان على غاربه ،

أى تركه هَمَلًا يسرح حيث يشاء من غير وازع ولا مانع ؛ والفقهاء يذكرون هذه اللفظة فى كُنَايَاتِ الطَّلَاق . وَعَقْطَةُ عَنَز : ماتنثره من أنفها ، عَقَطْتَ تَعَفِطُ بِالسَّكْسَرِ ؛ وأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فى النَّمَجَةِ ، فَأَمَّا الْعَنَزُ فَالْمُسْتَعْمَلُ الْأَشْهَرُ فِيهَا « النَّمَجَةُ » بالنون ، ويقولون : مَالُهُ عَافِطٌ وَلَا نَافِطٌ ، أى نَمَجَةٌ وَلَا عَنَزٌ . فَإِنْ قِيلَ : أَيْجُوزُ أَنْ يُقَالَ الْعَقْطَةُ هَاهُنَا الْحَبْقَةُ ؟ فَإِنْ ذَلِكَ يُقَالُ فى الْعَنَزِ خَاصَّةً ، عَقَطْتَ تَعَفِطُ . قِيلَ : ذَلِكَ جَائِزٌ ، إِلَّا أَنَّ الْأَحْسَنَ وَالْأَلْيَقَ بِكَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ ؛ فَإِنْ جَلَّالَتُهُ وَسُودَدَتْ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَرَادَ لَا الثَّانِي . فَإِنْ صَحَّ أَنَّهُ لَا يُقَالُ فى الْعَطْسَةِ عَقْطَةُ إِلَّا لِلنَّمَجَةِ . قُلْنَا : إِنَّهُ اسْتَعْمَلَهُ فى الْعَنَزِ بِجَازَا .

يقول عليه السلام : لولا وجود مَنْ ينصرنى - لا كما كانت الحال عليها أولاً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنى لم أكن حينئذ واجداً للناصر مع كونى مكلفاً ألا أتمكن الظالم من ظلمه - لتركت الخلافة ، ولرفضتها الآن كما رفضتها قبل ، ولوجدتم هذه الدنيا عندى أهون من عطسة عنز ؛ وهذا إشارة إلى ما يقوله أصحابنا من وجوب النهى عن المنكر عند التمكن .

الأصل :

قَالُوا : وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ عِنْدَ بُلُوغِهِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ خُطْبَتِهِ ، فَنَاقَلَهُ كِتَابًا فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ فِيهِ ؛ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَائَتِهِ قَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ اطَّرَدْتَ مَقَالَتَكَ مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتَ فَقَالَ : هِيَآتِ يَابْنَ عَبَّاسٍ ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرْتُ ثُمَّ قَرَّتْ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَوَاللَّهِ مَا أَسِفْتُ عَلَى كَلَامٍ قَطُّ كَأَنِّى عَلَى هَذَا الْكَلَامِ أَلَا يَكُونُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَلَغَ مِنْهُ حَيْثُ أَرَادَ .

قوله عليه السلام في هذه الخطبة: «كَرَّا كِبِ الصَّعْبَةِ إِنَّ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ
وَأَنَّ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّم» يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا شَدَّ عَلَيْهَا فِي جَذْبِ الزَّامِ وَهِيَ تُفَارِغُهُ
رَأْسَهَا خَرَمَ أَنْفَهَا ، وَإِنْ أَرَخَى لَهَا شَيْئًا مَعَ صُعُوبَتِهَا تَقَحَّمَتْ بِهِ فَلَمْ يَمْلِكْهَا .
يُقَالُ: أَشْنَقَ النَّاقَةَ إِذَا جَذَبَ رَأْسَهَا بِالزَّامِ فَرَفَعَهُ ، وَشَنَقَهَا أَيضًا ، ذَكَرَ ذَلِكَ
أَبْنُ أَسْكَيْتٍ فِي "إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" ، وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَشْنَقَ لَهَا»
وَلَمْ يَقُلْ «أَشْنَقَهَا» لِأَنَّهُ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: «أَسْلَسَ لَهَا» ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ
رَفَعَ لَهَا رَأْسَهَا بِالزَّامِ يَعْنِي أَمْسَكَهُ عَلَيْهَا . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ عَلَى نَاقَةٍ وَقَدْ شَنَقَ لَهَا فَهِيَ تَقْصَعُ بِجَرَّتِهَا .

وَمِنَ الشَّاهِدِ عَلَى أَنَّ «أَشْنَقَ» بِمَعْنَى شَنَقَ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ الْعَبَادِيِّ:
سَاءَ مَا لَهَا تَبَيَّنَ فِي الْأَيِّ دِي وَإِشْنَأُهَا إِلَى الْأَعْنَاقِ

الْيَنْخُ:

سَمِيَ السَّوَادُ سَوَادًا لِحَضْرَتِهِ بِالزَّرْوَعِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّخْلِ ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الْأَخْضَرَ أَسْوَدًا ،
قَالَ سَبْجَانَهُ: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾^(١) يُرِيدُ الْحَضْرَةَ . وَقَوْلُهُ: «لَوْ اطَّردَتْ مَقَالَتُكَ» ، أَيْ أَتَبِعْتُ
الْأَوَّلَ قَوْلًا ثَانِيًا ! مِنْ قَوْلِهِمْ اطَّردَ النُّهْرُ ، إِذَا تَتَابَعَ جَرِيُّهُ .

وقوله: «مِنْ حَيْثُ أَفْضَيْتُ» أَصْلُ أَفْضَى خَرَجَ إِلَى الْفَضَاءِ ، فَكَأَنَّهُ شَبَّهَ
عَالِيَهُ السَّلَامَ حَيْثُ سَكَتَ عَمَّا كَانَ يَقُولُهُ ، بِمَنْ خَرَجَ مِنْ خَبَاءٍ أَوْ جِدَارٍ إِلَى فَضَاءٍ مِنْ
الْأَرْضِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ وَالْقُوَى وَالْهَمَةَ عِنْدَ ارْتِجَالِ الْخُطْبِ وَالْأَشْعَارِ تَجْتَمِعُ
إِلَى الْقَلْبِ ، فَإِذَا قُطِعَ الْإِنْسَانُ وَفَرِغَ ، تَفَرَّقَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ حَجَرِ الْاجْتِمَاعِ وَاسْتَرَاخَتْ .

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

والشَّقْشَقَةُ ، بالكسر فيهما : شيء يُخْرِجُه البعير من فيه إذا هاج ، وإذا قالوا للخطيب : ذو شَقْشَقَةٍ فَإِنَّمَا شَبَّهوه بالفعل . والهدير : صوتها .

وأما قول ابن عباس : « ما أَسِفْتُ على كلام . . » إلى آخره ، فحدثني شيخى أبو الخير مصدّق بن شبيب الواسطى^(١) في سنة ثلاث وستمائة ، قال : قرأتُ على الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب هذه الخطبة ، فلما انتهيتُ إلى هذا الموضع ، قال لى : لو سمعتُ ابن عباس يقول هذا لقلت له : وهل بَقِيَ في نفس ابن عمك أمرٌ لم يبلغه في هذه الخطبة لتتأسف ألا يكون بلغ من كلامه ما أراد ! والله ما رجعت عن الأولين ولا عن الآخرين ، ولا بَقِيَ في نفسه أحد لم يذكره إلا رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال مصدّق : وكان ابن الخشاب صاحبَ دُعابة وهزل . قال : فقلت له : أتقول إنها منحولة ! فقال : لا والله ، وإنى لأعلم أنها كلامه ، كما أعلم أنك مصدّق . قال : فقلت له : إن كثيراً من الناس يقولون إنها من كلام الرضى رحمه الله تعالى . فقال : أئنى للرضى ولغير الرضى هذا النفس وهذا الأسلوب ! قد وقفنا على رسائل الرضى ، وعرفنا طريقتَه وفنّه في الكلام المنثور ، وما يقع مع هذا الكلام في خَلٍّ ولا سَخَر . ثم قال : والله لقد وقفتُ على هذه الخطبة في كتب صُنِّفَتْ قبل أن يخلق الرضى بمائتي سنة ، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفها ، وأعرف خطوط مَنْ هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمد والد الرضى .

قلت : وقد وجدت أنا كثيراً من هذه الخطبة في تصانيف شيخنا أبي القاسم البلخى^(٢)

(١) مصدق بن شبيب بن الحسين الصلحي الواسطي ؛ ذكره القفطي في إنباه الرواة (٣ : ٢٧٤) ، وقال لأنه قدم بغداد ، وقرأ بها على ابن الخشاب وحشى بن محمد الضرير ، وعبد الرحمن بن الألبارى وغيرهم ؛ وتوفى ببغداد سنة ٦٠٥ .

(٢) أبو القاسم البلخى ، ذكره ابن النديم وقال : « كان من أهل بلخ ، يطوف البلاد ويجول الأرض ؛ حسن المعرفة بالفلسفة . والعلوم القديمة . . . ورأيت بخطه شيئا كثيراً في علوم كثيرة مسودات ودايات لم يخرج منها إلى الناس كتاب تام » . الفهرست ٢٩٩ . وابن خلكان ١ : ٢٥٢ .

إمام البغدادي من المعتزلة ، وكان في دولة المقتدر قبل أن يُخلق الرضى بمدة طويلة .
 ووجدت أيضاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر بن قبة أحد متكلمي الإمامية^(١) وهو
 الكتاب المشهور المعروف بكتاب " الإنصاف " . وكان أبو جعفر هذا من تلامذة
 الشيخ أبي القاسم البلخي رحمه الله تعالى ، ومات في ذلك العصر قبل أن يكون الرضى
 رحمه الله تعالى موجودا .

(١) هو أبو جعفر بن محمد بن قبة ؛ من متكلمي الشيعة وحذاقهم ، وله من الكتب كتاب الإنصاف
 في الإمامة . الفهرست ١٧٦

(٤)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بِنَا أَهْتَدَيْتُمْ فِي الظَّلَامَاءِ ، وَتَسَنَّمْتُمُ الْعُلِيَاءَ ^(١) . وَبِنَا أَنْفَجَرْتُمْ عَنِ السَّرَارِ .
وَقَرَّ سَمْعٌ لَمْ يَفْقَهُ الْوَاعِيَةَ ؛ وَكَيْفَ يُرَاعِي النُّبَاةَ مَنْ أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ !
رُيِّطَ جَنَانٌ لَمْ يُفَارِقْهُ الْخُلْفَقَانُ .

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْقَدْرِ ، وَأَتَوَسَّعُ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ ؛ سَتَرَنِي
عَنْكُمْ جِلْبَابُ الدِّينِ ، وَبَصَّرَنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ .
أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ فِي جَوَادِّ الْمَضَلَّةِ ؛ حَيْثُ تَلْتَقُونَ وَلَا دَلِيلَ ،
وَتُخَفِّرُونَ وَلَا مُبْهِمُونَ .

الْيَوْمَ أَنْطِقُ لَكُمْ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ .
عَزَبَ رَأْيُ أَمْرِي تَخَلَّفَ عَنِّي ، مَا شَسَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذَارِيَّتُهُ .
لَمْ يُوجِسْ مُوسَى خَيْفَةً عَلَى نَفْسِهِ ؛ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَالِ وَدُورِ الضَّلَالِ .
الْيَوْمَ تَوَاقَفْنَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ . مَنْ وَثِقَ بِمَاءٍ لَمْ يَظْمَأْ .

(١) في « وتسنمت ذروة العلياء » .

الشَّيْخُ :

هذه الكلمات والأمثال ملتبطة من خطبة طويلة منسوبة إليه عليه السلام ، قد زاد^(١) فيها قوم أشياء حملتهم عليها أهواؤهم ، لا توافق ألفاظها طريقته عليه السلام في الخطب ، ولا تناسب فصاحتها فصاحته ، ولا حاجة إلى ذكرها فهي شهيرة . ونحن نشرح هذه الألفاظ ، لأنها كلامه عليه السلام ، لا يشك في ذلك مَنْ له ذوق ونقد ومعرفة بمذاهب الخطباء والفصحاء في خطبهم ورسائلهم ، ولأن الرواية لها كثرة ، ولأن الرضى رحمة الله تعالى عليه قد التقطها ونسبها إليه عليه السلام ، وصححها وحذف ما عداها .
وأما قوله عليه السلام : « بنا اهتديتم في الظلمات » ، فيعنى بالظلمات الجهالة ، وتسنمت العلياء : ركبتم سنامها ؛ وهذه استعارة .

قوله : « وبنا انفجرت من السرار » ، أى دخلتم في الفجر ، والسرار : الليلة والليلتان يستمر فيهما القمر في آخر الشهر فلا يظهر . وروى « أفرتم » ، وهو أفصح وأصح ، لأن « انفل » لا يكون إلا مطاوع « فعل » ، نحو كسرتة فانكسر ، وحطمتة فأنحط ، إلا ما شد من قولهم : أغلق الباب فانلق وأزعجتة فازعج . وأيضاً فإنه لا يقع إلا حيث يكون علاج وتأثير ، نحو انكسر وأنحط ؛ ولهذا قالوا : إن قولهم : انعدم خطأ ، وأما « أفل » فيجىء لصيرورة الشيء على حال وأمر ، نحو أغدَّ البعير ، أى صار ذا غدة ، وأجرب الرجل ، إذا صار ذا إبل جربى ، وغير ذلك . فأفجرتهم : أى صرتم ذوى فجر . وأما « عن » في قوله : « عن السرار » فهي له مجاوزة على حقيقة معناها الأصلي ، أى منتقلين عن السرار ومتجاوزين له .

وقوله عليه السلام : « وقر سمع » هذا دعاء على السمع الذى لم يفقه الواعية بالتَّغَلُّ والصَّمَمَ ، وقُرَّتْ أُذُنُ زيد ، بضم الواو فهي موقورة ، والوَقْرُ : بالفتح : النَّقْلُ فى الأذن ،

(١) ب : « رأى » .

وَقَرَّتْ أُذُنُهُ - بفتح الواو وكسر القاف - تَوَقَّرَ وَقَرَّ أَى صَمَّتْ ، والمصدر في هذا الموضع جاء بالتسكون ، وهو شاذٌ ، وقياسه التحريك بالفتح ، نحو وِرمَ وَرَمًا . والوَاعِيَةُ : الصارخة ، من الوُعَاء ، وهو الْجَلْبَةُ والأصوات ، والمراد العبر والمواظ .

قوله : « كيف يُرَاعِي النبأ » ، هذا مثل آخر ، يقول : كيف يلاحظ ويراعي الْعَبْرَ الضعيفة مَنْ لم ينتفع بِالْعَبْرِ الجَلِيَّةِ الظاهرة ، بل فسد عندها ، وشبه ذلك بمن أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ القوية ؛ فإنه محال أن يراعي بعد ذلك الصوت الضعيف . والنبأ : هي الصوت الخفي .

فإن قيل : هذا يخالف قولكم : إنَّ الاستفساد لا يجوز على الحكيم سبحانه ، فإنَّ كلامه عليه السلام صريح في أنَّ بعض المكلفين يفسد عند العبر والمواظ .

قيل : إن لفظة « أفعَل » قد تأتي لوجود الشيء على صفة ، نحو أحمده ، إذا أصبته محموداً . وقالوا : أَحْيَيْتُ الأرض ، إذا وجدتها حية النبات ^(١) ، فقوله : « أَصَمَّتْهُ الصَّيْحَةُ » ، ليس معناه أنَّ الصَّيْحَةَ كانت علّة لصممه ، بل معناه صادفته أصمٌ ، وبهذا تأول أصحابنا قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ ^(٢) .

قوله : « رُبَطَ جَنَانٌ لم يفارقه الْخَفَقَان » ، هذا مثل آخر ، وهو دعاء لقلب لا يزال خائفاً من الله يخفُّق بالثبوت والاستمسك .

قوله : « ما زلت أنتظر بكم » ، يقول : كنت متربِّحاً غدركم متفرِّساً فيكم الْفَرَر ، وهو الغفلة .

وقيل : إنَّ هذه الخطبة خُطِّبَها بعد مقتل طلحة والزبير ، مخاطباً بها ، لها ولغيرها من أمثالها ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله يوم بدر ، بعد قتل مَنْ قتل من قريش : « يا عِثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ،

(٢) سورة المجاثية ٢٣

(١) : « ذات النبات »

(١٤ - شرح نهج البلاغة - أول)

ياشبية بن ربيعة ، ياعمر بن هشام » ، وهم جِيَفٌ منقنة قد جُرِّوا إلى القَلِيبِ .

قوله : « سَتَرَنِي عَنْكُمْ » ، هذا يحتمل وجوها ؛ أوضحها أن إظهاركم شعار الإسلام عصمكم مني مع علمي بنفاقكم ، وإنما أبصرت نفاقكم وبواطنكم الخبيثة بِصِدْقِ نِيَّتِي . كما يقال : المؤمن يُبْصِرُ بنور الله . ويحتمل أن يريد : سَتَرَنِي عَنْكُمْ جلبابُ ديني ، ومنعني أن أعرفكم نفسي وما أقدر عليه من عَسْفِكُمْ ، كما تقول لمن استهان بِحَقِّكَ : أنت لا تعرفني ولو شئت لعرفتُكَ نفسي .

وفسر القُطْبُ الراونديّ قوله عليه السلام : « وَبَصَّرْنِيكُمْ صِدْقُ النِّيَّةِ » ، قال : معناه أنكم إذا صدقتم نياتكم ، ونظرتُم بأعين لم تطرَفُ بالحسد والنسب وأنصفتموني ، أبصرتُم عظيمَ منزلتي .

وهذا ليس بجديد ، لأنه لو كان هو المراد لقال : وبصركم إِيَّاي صِدْقُ النِّيَّةِ ، ولم يقل ذلك ، وإنما قال : « بَصَّرْنِيكُمْ » ، فجعل صِدْقَ النِّيَّةِ مبصِّراً له لاهم . وأيضاً فإنه حكم بأنَّ صِدْقَ النِّيَّةِ هو عِلَّةُ التبصير ، وأعداؤه لم يكن فيهم صادق النية ، وظاهر الكلام الحكم والقطع ؛ لا التعليق بالشرط .

قوله : « أَقَمْتُ لَكُمْ عَلَى سَنَنِ الْحَقِّ » ، يقال : تنحَّ عن سَنَنِ الطريق وسُنَنِ الطريق بفتح السين وضمها ، فالأول مفرد والثاني جمع سُنَّة ، وهي جادّة الطريق والواضح منها . وأرض مَضَلَّةٌ وَمَضِلَّةٌ ، بفتح الضاد وكسرهما : يضلّ سالِكها . وأما المحتفِر يميّه ؛ أنبط الماء . يقول : فعلتُ من إرشادكم وأمرِكُم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ما يجب على مثلي ، فوقفت لَكُمْ على جادّة الحق ومنهجه ؛ حيث طرُق الضلال كثيرة مختلفة من سائر جهاتي ، وأنتم تائهون فيها تلتقون ، ولا دليل لَكُمْ ، وتحفرون لتجدوا ماء تنعمون به غُلَّتْكُمْ فلا تظفرون بالماء ، وهذه كلها استعارات .

قوله : « اليوم أنطق » ، هذا مثل آخر . والعجماء : التي لا نطق لها ، وهذا إشارة إلى الرموز التي تتضمنها هذه الخطبة ، يقول : هي خفية غامضة ، وهي مع غموضها جليلة لأولى الألباب ، فكأنها تنطق كما ينطق ذوو الألسنة ، كما قيل : ما الأمور الصامتة الناطقة ؟ فقيـل : الدلائل المخبرة والعبر الواعظة . وفي الأثر : بسـل الأرض : من شق أنهارك ، وأخرج ثمارك ؟ فإن لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا .

قوله : « عزب رأي امرئ تخلف عني » هذا كلام آخر ، عزب ، أى بعد ، والعازب : البعيد . ويحتمل أن يكون هذا الكلام إخباراً وأن يكون دعاء ، كما أن قوله تعالى : ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ ^(١) يحتمل الأمرين .

قوله : « ماشككت في الحق مذرأيته » ، هذا كلام آخر ، يقول : معارفى ثابتة لا يتطرق إليها الشك والشبهة .

قوله : « لم يوجس موسى » ، هذا كلام شريف جداً ، يقول : إن موسى لما أوجس الخيفة ، بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ ^(٢) ، لم يكن ذلك الخوف على نفسه ، وإنما خاف من الفتنة والشبهة الداخلة على المكلفين عند إلقاء السحرة عصيهم ، نخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وكذلك أنا لا أخاف على نفسى من الأعداء الذين نصّبوا إلى الحبائل ، وأرصدوا إلى المكائد ، وسعروا على نيران الحرب ؛ وإنما أخاف أن يفتتن المكلفون بشبههم وتمويهاتهم ، فتقوى دولة الضلال ، وتغلب كلمة الجهال .

قوله : « اليوم تواقفنا » ، القاف قبل الفاء ، تواقف القوم على الطريق ، أى وقفوا كلهم عليها ؛ يقول : اليوم اتّضح الحق والباطل ، وعرفنا نحن وأنتم .

قوله : « من وثق بما لم يظما » ، الظما الذى يكون عند عدم الثقة بالماء ، وليس

(٢) سورة طه ٦٧ .

(١) سورة النساء ٩٠ .

يريد النفي المطلق ؛ لأنّ الواثق بالماء قد يظلم ، ولكن لا يكون عطشه على حدّ العطش الكائن عند عدم الماء ، وعدم الوثوق بوجوده ، وهذا كقول أبي الطيب :

وما صَبَابَةُ مُشْتَاكِ عَلَى أَمَلٍ مِنْ اللِّقَاءِ كَمُشْتَاكِ بِلَا أَمَلٍ^(١)

والصائم في شهر رمضان يُصبح جائعاً تنازعه نفسه إلى الغداء ، وفي أيام الفِطْرِ لا يجد تلك المنازعة في مثل ذلك الوقت ؛ لأنّ الصائم ممنوع ، والنفس تحرّصُ على طلب ما مُنعت منه ؛ يقول : إن وثقمت بي وسكنتم إلى قولي كنتم أبعدَ عن الضلال وأقربَ إلى اليقين وثلج النفس ؛ كمن وثق بأنّ الماء في إداوته ، يكون عن الظلم وخوف الهلاك من العطش أبعدَ ممّن لم يثق بذلك .

(٥)

الأفضل :

ومن كلام له ^(١) عليه السلام لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن ^(٢) يبایعا له بالخلافة :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ ، وَعَرَّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ ،
وَضَعُوا تَبِيجَانَ الْمَفَاخِرَةِ . أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحِ ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ ^(٣) فَأَرَّاحَ . مَا آجِنٌ ،
وَلَقَمَةٌ يَغْصُ بِهَا آكِلُهَا . وَتُجْتَنِّي الثَّمَرَةُ لِغَيْرِ وَقْتٍ إِبْقَاعِهَا كَلْزَارِعٍ بِغَيْرِ أَرْضِهِ ،
فَإِنْ أَقْلَ يَقُولُوا : حَرَّصَ عَلَى الْمُلْكِ ، وَإِنْ أَسْكُتَ يَقُولُوا : جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ .
هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَمَا وَالَّتِي ! وَاللَّهِ لَا بَنُ أَبِي طَالِبٍ آتَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الْطُفْلِ
بِثَدْيِ أُمِّهِ ، بَلِ انْدَجَجْتُ عَلَى مَكْنُونٍ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَأَضْطَرَبْتُمْ أَضْطِرَابَ
الْأَرْضِيَّةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ ^(٤) .

الشَّيْخُ :

المفاخرة : أن يذكر كل واحد من الرجلين مفاخره وفضائله وقديمه ، ثم يتحاكما
إلى ثالث . والماء الآجن : المتغير الفاسد ، أجَنَ الماء ، بفتح الجيم ، يأجن ويأجن ،
بالكسر والضم . والإيناع : إدراك الثمرة . واللَّتَمَا ^(٥) : تصغير التي ، كما أن اللذيا تصغير
الذي . واندججت : انطويت . والطوي : البئر المطوية بالحجارة . يقول : تخلصوا عن
الفتنة وانجّوا منها بالمشاركة والمسالمة والعدول عن المنافرة والمفاخرة .

(٢) : ١ : « أن يبایعا » .

(١) : ١ : « خطبة » .

(٤) : ١ : « واستسلم » .

(٣) : ١ : « واستسلم » .

(٥) : ١ : « واستسلم » .

(٤) : ١ : « واستسلم » .

(٣) : ١ : « واستسلم » .

(٥) : ١ : « واستسلم » .

أفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِخَنَاحٍ، أَى مَاتَ؛ شَبَّهَ الْمَيِّتَ الْمَفَارِقَ لِلدُّنْيَا بِطَائِرٍ نَهَضَ عَنِ الْأَرْضِ بِخَنَاحِهِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِذَلِكَ : أَفْلَحَ مَنْ اعْتَزَلَ هَذَا الْعَالَمَ ، وَسَاحَ فِي الْأَرْضِ مَنْقَطَعًا عَنِ تَسْكَالِيفِ الدُّنْيَا . وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَرِيدَ : أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ بِنَاصِرٍ يَنْصُرُهُ ، وَأَعْوَانَ يَجَاهِدُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَعَلَى التَّقَادِيرِ كُلِّهَا تَنْطَبِقُ اللَّفْظَةُ الثَّانِيَةُ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : « أَوْ اسْتَسْلَمَ فَأَرَّاحَ »^(١) ، أَى أَرَّاحَ نَفْسَهُ بِاسْتِسْلَامِهِ .

ثُمَّ قَالَ : الْإِمْرَةُ عَلَى النَّاسِ وَخِيَمَةُ الْعَاقِبَةِ ، ذَاتُ مَشَقَّةٍ فِي الْعَاجِلَةِ ، فَهِيَ فِي عَاجِلِهَا كَالْمَاءِ الْآجِنِ يَجْدُ شَارِبَهُ مَشَقَّةً ، وَفِي آجِلِهَا كَاللَّقِمَةِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْ أَكْلِهَا الْفُصَّةَ . وَيَقْصُصُ مَفْتُوحَ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ وَمَفْتُوحَ الْغِنَى ، أَصْلُهُ : « غَصِصْتُ » بِالْكَسْرِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرَانِ مَعَالِلَ الْعَاجِلَةِ ؛ لِأَنَّ الْغَصَصَ فِي أَوَّلِ الْبَلْعِ ، كَمَا أَنَّ أَلَمَ شَرْبِ الْمَاءِ الْآجِنِ يَحْدُثُ فِي أَوَّلِ الشَّرْبِ . وَيَجُوزُ أَلَّا يَكُونَ عَنَى الْإِمْرَةِ الْمَطْلُوقَةِ ؛ بَلْ هِيَ^(٢) الْإِمْرَةُ الْخُصُوصَةُ ، يَعْنِي بَيْعَةَ السَّقِيْفَةِ .

ثُمَّ أَخَذَ فِي الْإِعْتِذَارِ عَنِ الْإِمْسَاكِ وَتَرْكِ الْمُنَازَعَةِ ، فَقَالَ : مَجْتَنِي الثَّمَرَةَ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَ لَا يَنْتَفِعُ بِمَا اجْتَنَاهُ ، كَمَنْ زَرَعَ فِي غَيْرِ أَرْضِهِ ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِذَلِكَ الزَّرْعِ ؛ يَرِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَسُوغُ لِي فِيهِ طَلَبُ الْأَمْرِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْنِ بَعْدَ .

ثُمَّ قَالَ : قَدْ حَصَلَتْ بَيْنَ حَالَيْنِ ؛ إِنْ قُلْتُ ، قَالَ النَّاسُ : حَرَّصَ عَلَى الْمُلْكِ ، وَإِنْ لَمْ أَقُلْ ، قَالُوا : جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ .

قَالَ : هِيَئَاتِ ، اسْتَبْعَادًا لظَنِّهِمْ فِيهِ^(٣) الْجَزْعَ . ثُمَّ قَالَ : « اللَّتْيَا وَالَّتِي » ، أَى : أَبْعَدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي أَجْزَعُ ! أَبْعَدُ أَنْ قَاسَيْتُ الْأَهْوَالَ الْكِبَارَ وَالصَّغِيرَ ، وَمُنَيْتُ بِكُلِّ دَاهِيَةٍ عَظِيمَةٍ وَصَغِيرَةٍ ! فَالَّتْيَا لِلصَّغِيرَةِ وَالَّتِي لِلْكَبِيرَةِ .

(٢) ١ : « هَذِهِ » .

(١) ١ : « وَاسْتَسْلَمَ » .

(٣) سَاقِطَةٌ مِنْ أ .

ذكر أن أنسه بالموت كأنسِ الطفل بشدى أمه ، وأنه انطوى على علم هو ممتنع لموجهه من المنازعة ، وأن ذلك العلم لا يُباح به ^(١) ، ولو باح به لاضطرب سامعوه كاضطراب الأرضية - وهى الحبال - فى البئر البعيدة القعر ، وهذا إشارة إلى الوصية التى خُصَّ بها عليه السلام . إنه قد كان من حملتها الأمر بترك النزاع فى مبدأ الاختلاف عليه .

[استطراد بذكر طائفة من الاستعارات]

واعلم أن أحسن الاستعارات ما تضمن مناسبة بين المستعار والمستعار منه ، كهذه الاستعارات ، فإن قوله عليه السلام : « شُقُوا أمواجَ الفتنِ بسفنِ النجاة » من هذا النوع ؛ وذلك لأنَّ الفتن قد تتضاعف وتترادف ، فحُسُنَ تشبيهها بأمواج البحر المضطربة . ولما كانت السفن الحقيقية تنجى من أمواج البحر ، حُسُنَ أن يستعار لفظُ السفن لما ينجى من الفتن . وكذلك قوله : « وضعوا تيجانَ المفاخرة » ، لأنَّ التاج لما كان مما يعظم به قَدْرُ الإنسان استعاره لما يتعظم به الإنسان من الافتخار وذكر القديم وكذلك استعارة النهوض بالجنح لمن اعتزل الناس ، كأنه لما نفى يديه عنهم صار كالطائر الذى ينهض من الأرض بجناحيه .

وفى الاستعارات ما هو خارج عن هذا النوع ، وهو مستقيم ؛ وذلك كقول أبي نواس :

بُحِّصَ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَبْكِي وَيَبْنُوحُ ^(٢)

وكذلك قوله :

مَا لِرَجُلٍ الْمَالُ أَضَحَّتْ تَشْتَكِي مِنْكَ الْكَالَالَا ^(٣)

(٢) ديوانه ٧٠ ، وفيه : « يصيح » .

(١) ساقطة من ب .

(٣) ديوانه ١١٩ .

وقول أبي تمام :

وَكَمْ أَخْرَزَتْ مِنْكُمْ عَلَى قُبْحِ قَدِّهَا صُرُوفُ النَّوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ (١)
وكقوله :-

بَلَوْنَاكَ ، أَمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْعَالَا فَعَالٍ ، وَلَكِنْ خَدَّ مَالِكَ أَسْفَلُ (٢)
فإنه لا مناسبة بين الرجل والمال ، ولا بين الصوت والمال ، ولا معنى لتصويره
للنوى قدًا ، ولا للعِرْض كعبًا ، ولا للمال خدًا .
وقريب منه أيضًا قوله :

لَا تَسْقِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنِّي صَبَّ قَدٍ أَسْتَعْدَبْتُ مَاءَ بَكَائِي (٣)
ويقال : إنَّ مُحَمَّدًا الموصلي (٤) بعث إليه بقارورة يسأله أن يبعث له فيها قليلًا من
ماء الملام ، فقال لصاحبه : قل له يبعث إلى بريشة من جناح الذل لأستخرج بها من
القارورة ما أبعثه إليه .

وهذا ظلم من أبي تمام لمحمد ، وما الأمران سواء ، لأنَّ الطائر إذا أعيا وتعب ذلَّ
وخفض جناحيه ، وكذلك الإنسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلًا ، ويده جناحه ، فذاك
هو الذي حسن قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ (٥) ألا ترى أنه لو قال :
واخفِضْ لهما ساق الذلِّ ، أو بطن الذلِّ لم يكن مستحسنًا !

ومن الاستعارة المستحسنة في الكلام المنثور ، ما اختاره قدامة بن جعفر في كتاب
” الخراج ” نحو قول أبي الحسين جعفر بن محمد بن ثوبة في جوابه لأبي الجيث خمارويه

(٢) ديوانه ٣ : ٧٣ .

(١) ديوانه ٢ : ١١٠ .

(٣) ديوانه ١ : ٢٥ .

(٤) هو محمد بن بكر الموصلي ، وله مع أبي تمام أخبار ومساجلات ، ذكرها الصولي في كتابه أخبار
أبي تمام ٢٣٤ - ٢٤٣ .

(٥) سورة الإسراء ٢٤ .

ابن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله، لما كتب بإنفاذ ابنته قَطْر الندى التي تزوجها المعتضد، وذلك قول ابن ثوابه هذا: وأما الوديعَةُ فهي بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك، عنايةً بها وحياطة لها، ورعاية لمودتك فيها .

وقال ابنُ ثوابه لما كتب هذا الكتاب لأبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد : والله إن تسميتي إياها بالوديعَة نصفُ البلاغة .

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب رجلاً خلا بالمأمون، فقال : مازال يفتله في الذرّوة والغارب حتى لفته عن رأيه .

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلي : النبذ قيّد الحديث .

وذكر بعضهم رجلاً فذمه ، فقال : هو أملس ^(١) ليس فيه مستقرٌ لخير ولا شر .

ورضى بعض الرؤساء عن رجل من موحدة، ثم أقبل يوبّخه عليها، فقال : إن رأيت ألاّ تحدش وجهَ رضاك بالتوبيخ فافعل .

وقال بعض الأعراب : خرجنا في ليلةٍ حُندس ^(٢)، قد ألقّت على الأرض أكارِعها، فمحت صورة الأبدان ؛ فما كنّا نتعارف إلا بالأذان .

وغزت حنيفةٌ نُميراً، فأتبعتهُم نُمير فأتوا عليهم، فقيل لرجل منهم : كيف صنع قومك؟ قال : اتبعوهم والله ، وقد أحقّبوا كلُّ بُجاليّةٍ خيفانةً ^(٣)، فما زالوا يخصِفُون آثارَ المطىِّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم ، فجعلوا المُرّان ^(٤) أرشمة الموت ، فاستقوا بها أرواحهم .

ومن كلام عبد الله بن المعتز ، يصف القلم : يخدمُ الإرادة ، ولا يملّ الاستزادة ،

(١) : « إبليس » تحريف . (٢) ليلة حندس : شديدة الظلمة .

(٣) أحقّب البعير : وضع له الحقب ؛ وهو جبل يشد به الرجل في بطن البعير ، والجمالية : الناقة الوثيقة، تشبه بالجل في خلقها وشدها وعظمتها . والخيفانة : السريعة ، شبهت بالجرادة السريعة .

(٤) حاشية ب : « المران : الرماح . . . »

وبسكت واقفا ، وينطق سائرا ، على أرضٍ بياضها مظلم ، وسوادها مضى .

فأما القطب الراوندى فقال : قوله عليه السلام : « شُقُوا أمواج الفتن بسفن النجاة »
معناه : كونوا مع أهل البيت لأنهم سفن النجاة ، لقوله عليه السلام : « مثلُ أهل بيتي
كسفينة نوح : مَنْ ركبها نجا ، وَمَنْ تخلف عنها غرق » .

ولقائل أن يقول : لا شبهة أن أهل البيت سفنُ النجاة ، ولكنهم لم يُرادوا هاهنا
بهذه اللفظة ؛ لأنه لو كان ذلك هو المراد ، لكان قد أمر أبا سفيان والعباس بالسكون مع
أهل البيت ، ومراده الآن ينقض ذلك ، لأنه يأمر بالتقية وإظهار اتباع الذين عُقد
لهم الأمر ، ويرى أن الاستسلام هو المتعين ، فالذى ظنه الراوندى لا يحتمله الكلامُ
ولا يناسبه .

وقال أيضاً : التعريجُ على الشيء : الإقامة عليه ، يقال : عرج فلان على المنزل ، إذا
حبس نفسه عليه ، فالتقدير : عرجوا على الاستقامة منصرفين عن المنافرة .

ولقائل أن يقول : التعريجُ يُعدى تارة بـ « عن » وتارة بـ « على » ، فإذا عدّيته بمن أردت
التجنب والرفض ، وإذا عدّيته بـ « على » أردت المقام والوقوف ؛ وكلامه عليه السلام معدى
بـ « عن » . قال : « وعرجوا عن طريق المنافرة » .

وقال أيضاً : « آنس بالموت » أى أسرَّ به ، وليس بتفسير صحيح ؛ بل هو من
الأنس ضدَّ الوحشة .

[اختلاف الرأى فى الخلافة بعد وفاة رسول الله]

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، واشتغل على عليه السلام بنفسه ودفنه ،
ويُؤيد أبو بكر ؛ خلا الزبير وأبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعبّاس وعلى عليه

السلام لإزالة الرأى ، وتسكّموا بكلام يقتضى الاستنهاض والتهبيج ، فقال العباس رضى الله عنه : قد سمعنا قولكم فلا لِقلة نستعين بكم ، ولا لِظنة نترك آراءكم ، فأمهلونا تراجع الفكر ؛ فإن يَكُنْ لنا من الإثم مخرج يصّر بنا وبهم الحقّ صرير الجُدْجُد^(١) ، ونبسّط إلى المجد أ كَفّاً لا نقبضها أو نبلغ المدى ، وإن تسكن الأخرى ، فلا لِقلة فى العدد ولا لو هَنّ فى الأيدى ، والله لولا أن الإسلام قيّد الفتك ، لتدكّدت جنادل صخر بسمع اصعاعها كما كها من الحل العلى .

فحلّ على عليه السلام حبّوته ، وقال : الصّبر حلم ، والتقوى دين ، والحجّة محمد ، والطريق الصراط . أيها الناس شقّوا أمواج الفن ... الخطبة . ثم نهض فدخل إلى منزله وافترق القوم .

وقال البراء بن عازب : لم أزل لبني هاشم محبّاً ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خِفْتُ أن تمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم ، فأخذنى ما يأخذ الواهية العجول ، مع مافى نفسى من الحزن لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكنت أتردّد إلى بني هاشم وهم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحجرة ، وأتفقّد وجوه قريش ، فإنّنى كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر ، وإذا قائل يقول : القوم فى سقيفة بنى ساعدة ، وإذا قائل آخر يقول : قد بُويع أبو بكر ، فلم ألبث ؛ وإذا أنا بأبى بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة ، وهم محتجزون بالأزرر الصنعائى لا يمرّون بأحد إلا خبطوه ، وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبى بكر يبايعه ؛ شاء ذلك أو أبى ؛ فأنسكرت عطفى ، وخرجت أشدّ حتى انتهيت إلى بنى هاشم ، والباب مغلق ، فضربت عليهم الباب ضرباً عنيفاً ، وقلت : قد بايع الناس لأبى بكر بن أبى قحافة . فقال العباس : ترّبت أيدىكم إلى آخر الدهر ؛ أما إنى قد أمرتكم فعصيتُمونى : فسكنت أ كابد مافى نفسى ، ورأيت

(١) الجدجد : دوبة كالجنّدب .

فى الليل المَقْدَاد وسلمان وأبا ذَرَّ وعبادة بن الصامت وأبا الهيثم بن التَّيَّهَان وَحُذَيْفَةَ وَعَمَّاراً، وهم يريدون أن يُعِيدُوا الأَمْرَ شورى بين المهاجرين .

وبلغ ذلك أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبى عبيدة وإلى المغيرة بن شعبة ، فسألاهما عن الرأى ، فقال المغيرة : الرأى أن تلقوا العباسَ فتجعلوا له ولولده فى هذه الإمرة نصيبا ، ليقطعوا بذلك ناحية على بن أبى طالب .

فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة ؛ حتى دَخَلُوا على العباس ، وذلك فى الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ، وقال :
إِنَّ اللَّهَ ابْتَعَثَ لَكُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا ، وَلِأَكْثَرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيًّا ؛ فَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكَوْنِهِ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ ؛ حَتَّى اخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ ؛ نَخَلَى عَلَى النَّاسِ أُمُورَهُمْ لِيُخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّفَقِينَ غَيْرِ مُخْتَلَفِينَ ، فَاخْتَارُونِي عَلَيْهِمْ وَالْيَا ، وَلَأُمُورَهُمْ رَاعِيًّا ، فَتَوَلَّيْتُ ذَلِكَ ، وَمَا أَخَافُ بَعْوَنَ اللَّهِ وَتَسْدِيدَهُ وَهَمًّا وَلَا حَيْرَةً وَلَا جَبْنَأً ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . وَمَا أَنْفَكُ يُبَلِّغُنِي عَنْ طَاعَنِ يَقُولُ بِخِلَافِ قَوْلِ عَامَّةِ الْمُسَاهِمِينَ ، يَتَّخِذُكُمْ لُجَأً فَتُكُونُونَ حَصْنَهُ الْمُنِيعَ ، وَخُطْبَةَ الْبَدِيعِ ، فَإِمَّا دَخَلْتُمْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، أَوْ صَرَفْتُمُوهُمْ عَمَّا مَالُوا إِلَيْهِ . فَقَدْ جِئْنَاكَ ، وَنَحْنُ نُرِيدُ أَنْ نَجْعَلَ لَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ نَصِيبًا ، وَلَمَّا بَعْدَكَ مِنْ عَقِبِكَ ، إِذْ كُنْتَ عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ رَأَوْا مَكَانَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَكَانَ أَهْلِكَ ، ثُمَّ عَدَلُوا بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْكُمْ . وَعَلَى رِسَالِكُمْ بَنِي هَاشِمٍ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ .

فاعترض كلامه عمر ، وخرج إلى مذهبه فى الخشونة والوعيد وإتيان الأمر من أصعب جهاته ، فقال : إى والله . وأخرى : إِنَّا لَمْ نَأْتِكُمْ حَاجَةً إِلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ كَرِهْنَا أَنْ يَكُونَ الطَّعْنُ فِيمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْكُمْ ، فَيَتَفَاقَمَ الْخُطْبُ بِكُمْ وَبِهِمْ . فَانْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَلِمَا مَتَّعْتُمْ . ثُمَّ سَكَتَ .

فتكلم العباس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنَّ الله ابتعث محمدًا نبيًّا كما وصفت ،
 ووليًّا للمؤمنين ، فمنَّ الله به على أمته حتى اختار له ماعنده ، فخلَّى الناس على أمرهم
 ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين للحقِّ ، مائلين عن زَيْغِ الهوى ؛ فإن كنت برسول الله
 طلبت فحقنا أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ؛ ماتقدُّمنا في أمركم فرطًا ،
 ولا حللنا وسطًا ، ولا نرحنا شحطًا ؛ فإن كان هذا الأمرُ يُجبُّ لك بالمؤمنين فما وجب
 إذ كنَّا كارهين . وما أبعد قولك : إنَّهم طعنوا من قولك إنهم مالوا إليك ! وأما ما بذلت
 لنا ، فإن يكنْ حَقُّكَ أعطيتناه فأمسِكْه عليك ، وإن يكن حقُّ المؤمنين فليس لك أن
 تحكم فيه ، وإن يكن حقنا لم نرض لك ببعضه دون بعض . وما أقول هذا أرومُ صرفك
 عما دخلت فيه ، ولكن للحجَّة نصيبها من البيان . وأما قولك : إن رسول الله صلى الله
 عليه وآله منَّا ومنكم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله من شجرة نحن أغصانها ، وأنتم
 جيرانها . وأما قولك يا عمر : إنَّك تخاف الناس علينا ، فهذا الذي قدمتموه أوَّل ذلك ،
 وبالله المستعان .

لما اجتمع المهاجرون على بيعة أبي بكر ، أقبل أبو سفيان وهو يقول : أما والله
 إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ؛ يالعبد مناف ، فيم أبو بكر من أمركم !
 أين المستضعفان ؟ أين الأذَّان ؟ يعنى عليا والعباس . مبالُ هذا الأمر في أقلِّ حَيٍّ من قريش .
 ثم قال لعلي : ابسط يدك أبايكم ، فوالله إن شئت لأملأُها على أبي فضيل — يعنى أبا بكر —
 خيلا ورجلا . فامتنع عليه على عليه السلام ؛ فلما يئس منه قام عنه وهو ينشد
 شعر الميمس :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ، عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَيْدُ^(١)
 هذا على الخسفِ مربوط برُمَّتِهِ وَذَا يُشْجُ فَلَا يَرْنِي لَهُ أَحَدُ^(٢)

قيل لأبي قحافة يوم ولى الأمر ابنه : قد ولى ابنك الخلافة ، فقرأ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ
 مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾^(٣) ، ثم قال : لم ولوه ؟
 قالوا : لسنته ، قال : أنا أسن منه .

نازع أبو سفيان أبا بكر في أمر فأغلظ له أبو بكر ، فقال له أبو قحافة : يا بني ، أتقول
 هذا لأبي سفيان شيخ البطحاء ! قال : إن الله تعالى رفع بالإسلام بيوتا ، ووضع بيوتاه
 فكان مما رفع بيتك يا أبت ، ومما وضع بيت أبي سفيان .

(١) معاهد التنصيص ٢ : ٣٠٦ . والعير هنا : الحمار .

(٢) الخسف : النقيصة . والرمة : القطعة من الحبل .

(٣) سورة آل عمران ٢٦ .

(٦)

الأصل :

ومن كلام له لما أشير عليه ألا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لها القتال :
وَاللّٰهُ لَا أَكُونُ كَالضَّبْعِ تَنَامُ عَلَى طُولِ الدِّمِ ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَائِلُهَا ، وَيَخْتَلِمَهَا
رَاصِدُهَا ؛ وَلَسَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ ، وَبِالسَّامِعِ الْمَطْمِيعِ
الْعَاصِيَ الْمُرِيبِ أَبَدًا ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى يَوْمِي ؛ فَوَاللّٰهِ مَا زِلْتُ مُدْفُوعًا عَنْ حَقِّي ، مُسْتَأْثَرًا
عَلَيَّ^(١) مُنْذُ قَبَضَ اللّٰهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا .

* * *

الْبَيِّنُ :

يقال : أرصد له بشرّ ، أى أعدّ له وهماً ؛ وفي الحديث : « إِنْ أَرَصُدَهُ لِدَيْنِ
عَلِيٍّ^(٢) . وَاللّٰمُ : صوت الحجر أو العصا أو غيرها ، تضرب به الأرض ضرباً شديداً .
ولما شرح الراوندى هذه اللفظات ، قال : وفي الحديث : « وَاللّٰهُ لَا أَكُونُ مِثْلَ الضَّبْعِ
تَسْمَعُ الدِّمَ حَتَّى تَخْرُجَ فَتُصَاد » ، وقد كان - سبحانه الله - وقت تصنيفه الشرح ينظر
في " صحاح الجوهري " ،^(٣) وينقل منها ، فنقل هذا الحديث ظناً منه أنه حديث عن رسول
الله صلى الله عليه وآله ، وليس كما ظنّ ، بل الحديث الذى أشار إليه الجوهريّ هو حديث
عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهِ .

ويختلها راصدها : يخدعها مترقبها ، خلت فلانا : خدعته . ورصدته : ترقبته .
ومستأثراً عَلَى ، أى مستبداً دوني بالأمر ، والاسم الأثرية ، وفي الحديث : إِنَّهُ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ،

(١) مخطوطة النهج : « مُسْتَأْثَرًا عَلَى غَيْرِي » .

(٢) نقله ابن الأثير في النهاية (٢ : ٨٢) عن أبي ذر : قال له عليه الصلاة والسلام : « مَا أَحَبُّ
عِنْدِي مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فَأَفْقَهُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَتَمْسَى نَالِثَةً وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ؛ إِلَّا دِينَارًا أَرَصَدَهُ لِدَيْنِ »

(٣) صحاح الجوهري ٥ : ٢٠٢٩

قال للأنصار: «ستلقون بمدى أثره، فإذا كان ذلك فاصبروا حتى تردوا على الخوض»^(١).
والعرب تقول في رموزها وأمثالها: أحق من الضبع^(٢)؛ ويزعمون أن الصائد يدخل عليها
وجارها، فيقول لها: أطرق أم طريقي، خامري أم عامر، ويكرر ذلك عليها مراراً. معنى
أطرق أم طريقي طأطئي رأسك، وكنها أم طريقي لكثرة إطراقها، على «فُعِيل»
كالتقبيط للناطف، والعليق للنبت. ومعنى «خامري» الزمي وجارك واستترى فيه، خامر
الرجل منزله إذا لزمه. قالوا: فتلجأ إلى أقصى مغارها وتقبض، فيقول: أم عامر ليست
في وجارها، أم عامر نائمة، فتمتد يديها ورجليها وتستلقي، فيدخل عليها فيوثقها، وهو
يقول لها: أبشري أم عامر بكم^(٣) الرجال، أبشري أم عامر بشاء هزلي، وجرا عظمي^(٤)،
أي يركب بعضه بعضاً، فتشده عراقيها فلا تتحرك، ولو شئت أن تقتله لأمكنها،
تقال السكيت:

فعل المقرة للمقا لة خامري يا أم عامر^(٥)

وقال الشنفرى:

لأنقبروني إن قبرى محرم عليكم ولكن خامري أم عامر^(٦)
إذا ماضى رأسى وفي الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى سم سائرى^(٧)
هنا لك لا أرجو حياة تسرنى سحيس الليالى مبسلا بالجرائر^(٨)

(١) ذكره ابن الأنبار في النهاية (١ : ١٥)، وقال: «الأثرة، بفتح الهمزة والياء الاسم من أثر يؤثر ليشارة إذا أعطى؛ أراد أنه يستأثر عليهم فيفضل غيركم في نصيبه في النى».

(٢) المثل في جمهرة الأمثال ١ : ٢٧٦

(٣) كم: جمع كمة؛ وهى قلعة الذكر، وفي جمهرة الأمثال: «كمر»؛ جمع كمر؛ وهى رأس الذكر.

(٤) في اللسان: «تعاطلت الجراد، إذا تسافتت» وأورد المثل.

(٥) من أبيات في معاني ابن قتيبة ١ : ٣١٤

(٦) ديوانه ٣٦ (من مجموعة الطرائف الأدبية)، وفيه: «أبشري أم عامر»

(٧) ديوانه:

* إذا احتملوا رأسى وفي الرأس أكثرى *

(٨) سحيس الليالى؛ أى أبداً؛ ومبسلا، أى مسلماً؛ كذا فسره صاحب اللسان في (٧ : ٤٠٨)،

«١٣ : ٥٧»، واستشهد بالبيت.

أوصاهم ألا يدفنوه إذا قُتل ، وقال : اجعلوني كغلاب السباع ، كالشيء الذي يرغب به الضئع في الخروج ؛ وتقدير الكلام : لا تقبروني ولكن اجعلوني كالتى يقال لها : خامرى أم عامر ، وهى الضئع ، فإنها لا تقبر . ويمكن أن يقال أيضا : أراد لا تقبروني واجعلوني فريسة للتى يقال لها : خامرى أم عامر ؛ لأنها تأكل الجيف وأشلاء القتلى والموتى .

وقال أبو عبيدة : يأتى الصائد فيضرب بعقبه الأرض عند باب مغارها ضربا خفيفا ؛ وذلك هو اللدم ، ويقول : خامرى أم عامر ؛ مرارا ، بصوت ليس بشديد ، فتنام على ذلك ، فيدخل إليها ، فيجعل الخبل فى عرقوبها ويخرجها . يقول : لا أقعدُ عن الحرب . والانتصار لنفسى وسلطانى ، فيكون حالى مع القوم المشار إليهم حال الضئع مع صائدها ، فأكون قد أسلمت نفسى ، فعل العاجز الأحمق ، ولكنى أحارب من عصائى بمن أطاعنى حتى أموت ، ثم عقب ذلك بقوله : إن الاستئثار على والتغلب أمر لم يتجدد الآن ؛ ولكنه كان منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[طلحة والزبير ونسبهما]

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . أبوه ابن عم أبي بكر ، وأمه الصعبة بنت الحضرمي ، وكانت قبل أن تكون عند عبيد الله تحت أبى سفيان صخر بن حرب ، فطلقها ثم تبعها نفسه ، فقال فيها شعرا أوله :

وإني وصعبَة فيما أرى بعيدان والودُّ ودُّ قريب

فى أبيات مشهورة . وطلحة أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد أصحاب الشورى ، وكان له فى الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد أثر عظيم ، وشلت بعض (١٥ - شرح نهج البلاغة - أول)

أصابه يومئذوق رسول الله صلى الله عليه وآله بيده من سيوف المشركين، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ : « اليوم أوجب طلحة الجنة »^(١) .
والزبير هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ،
أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وهو أحد العشرة أيضاً، وأحد الستة، ومن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد
وأبلى بلاء حسناً، وقال النبي صلى الله عليه وآله : « لكل نبي حوارى وحوارى الزبير » .
والحوارى : الخالصة ، تقول : فلان خالصة فلان ، وخلصانه وحواريه ، أى شديد
الاختصاص به والاستخلاص له .

[خروج طارق بن شهاب لاستقبال علي بن أبي طالب]

خرج طارق بن شهاب الأحمسي يستقبل علياً عليه السلام ، وقد صار بالرّبعة طالبا
عائشة وأصحابها، وكان طارق من صحابة علي عليه السلام وشيعته، قال : فسألت عنه قبل
أن ألقاه : ما أقدمه ؟ فقبل : خالفه طلحة والزبير وعائشة فأتوا البصرة ، فقلت في نفسي :
إنها الحرب ! أفأقاتل أم المؤمنين ، وحوارى رسول الله صلى الله عليه وآله ! إن هذا
لعظيم ، ثم قلت : أدع علياً ، وهو أول المؤمنين إيماناً بالله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله
عليه وآله ووصيه ! هذا أعظم . ثم أتيت فسلمت عليه ، ثم جلست إليه ، فقصص علي قصة
القوم وقصته ، ثم صلى بنا الظهر ، فلما انقضى جاءه الحسن ابنه عليهما السلام ، فبكى بين
يديه ، قال : ما بالكَ ؟ قال : أبكى لقتلك غداً بمصيعة ولا ناصر لك . أما إنى أمرتك
فمصيبتى ، ثم أمرتك فمصيبتى . فقال عليه السلام : لا تزال تخنّ خنين^(٢) ! مالذى
أمرتني به فعصيتك ! قال : أمرتك حين أحاط الناس بعثمان أن تعتزل ، فإن الناس إذا
قتلوه طلبوك أينما كنت حتى يبايعوك ، فلم تفعل . ثم أمرتك لما قتل عثمان ألا توافقهم على

(١) أوجب، أى عمل عملاً أوجب له الجنة . وانظر النهاية لابن الأثير ٤ : ١٩٤

(٢) الخنين : تردد البكاء حتى يكون في الصوت غنة . والخبر في اللسان (خن) وفي الأصول :

« خنين » ، تحريف .

البيعة حتى يجتمع الناس ويأتيتك وفودُ العرب فلم تفعل . ثم خالفك هؤلاء القوم ، فأمرتك ألا تخرج من المدينة ، وأن تدعهم وشأنهم ، فإن اجتمعت عليك الأمة فذاك ، وإلا رضيت بقضاء الله . فقال عليه السلام : والله لا أكون كالضبع تنام على اللذم حتى يدخل إليها طالبها فيعلق الحبل برجلها ، ويقول لها : دباب دباب ، حتى يُقطع عُقُوبُهَا ... وذكر تمام الفصل . فكان طارق بن شهاب يبكي إذا ذكر هذا الحديث .

دَبَاب : اسم الضبع ، مبنى على الكسر كبرّاح اسم للشمس .

(٧)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اتخذوا الشيطانَ لأمريهم مَلَاكًا، واتخذهم له أشرًا كًا، فباضَ وفرّخَ في صدورهم،
ودبَّ ودرجَ في حُجُورهم ؛ فنظرَ بأعينهم ، ونطقَ بألسنتهم ، فركبَ بهم الزَّلَّ ،
وزيَّنَ لهم الخطلَ ؛ ففعلَ من قَدِ شرِّه الشَّيطانُ في سُلْطانه ، ونطقَ بالباطلِ
على لسانه .

الشرح :

يجوز أن يكون أشرًا كًا، جمع شريك ، كشریف وأشراف . ويجوز أن يكون جمع
شرك ، كجَبَل وأجبال ، والمعنى بالاعتبارين مختلف .

وباض وفرّخ في صدورهم، استعارة للسوسة والإغواء ، ومراده طولُ مكثه وإقامته
عليهم ، لأن الطائر لا يبيض ويفرّخ إلا في الأعشاش التي هي وطنه ومسكنه . ودبَّ ودرج
في حُجُورهم ، أى ربّوا الباطل كما يربّي الوالدان الولد في حجورها . ثم ذكر أنه لشدة
اتحادهم وامتزاجه صار كمن ينظر بأعينهم ، وينطق بألسنتهم، أى صار الاثنان كالواحد،
قال أبو الطيّب :

ما خللَ إلا من أودَّ بقلبه وأرى بطرفٍ لا يرى بسوائه^(١)

وقال آخر :

كُفّا من المساعدة نَحْيًا برُوحٍ واحدة

وقال آخر :

جُبِلَتْ نَفْسُكَ فِي نَفْسِي كَمَا تُجْبَلُ الْخَمْرَةُ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ

فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ

وَالْخَطْلُ: الْقَوْلُ الْفَاسِدُ. وَيَجُوزُ : أَشْرَكَ الشَّيْطَانُ فِي سُلْطَانِهِ، بِالْهَمْزَةِ ، وَشَرِكَ أَيضاً؛

وَبَغَيْرِ الْهَمْزَةِ أَفْصَحُ .

(٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام يعنى به الزبير فى حال اقتضت ذلك :
يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ ؛ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْبَيْعَةِ ، وَأَدَّعَى الْوَلِيَّةَ .
فَلَيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ ، وَإِلَّا فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ .

الشرح :

الوليعة : البطانة ، والأمر يُسرَّ ويكتم ، قال الله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ ^(١) . كان الزبير يقول : بايعة بيدي لا بقلبي ؛ وكان يدعى تارة أنه أكرهه ، ويدعى تارة أنه ورى فى البيعة تورية ، ونوى دخيلة ، وأتى بمعارض لا تحمل على ظاهرها ، فقال عليه السلام : هذا الكلام إقرار منه بالبيعة وادعاء أمر آخر لم يُقيم عليه دليلا ، ولم ينصب له برهانا ، فإما أن يقيم دليلا على فساد البيعة الظاهرة ، وإما أن يعاود طاعته .

قال على عليه السلام للزبير يوم بايعة : لئن لحائف أن تغدربى وتنكث بيعتى ، قال : لا تخافن ؛ فإن ذلك لا يكون منى أبدا ، فقال عليه السلام : فلى الله عليك بذلك رايك وكفيل . قال : نعم ، الله لك على بذلك رايك وكفيل .

[أمر طلحة والزبير مع على بن أبى طالب بعد بيعتهما له]

لما بويع على عليه السلام كتب إلى معاوية : أما بعد ، فإن الناس قتلوا عثمان عن غير

مشورة مني ، وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع ، فإذا أتاك كتابي فبايع لي ، وأوفدني إلى أشراف أهل الشام قبلك .

فلما قدم رسوله على معاوية ، وقرأ كتابه ، بعث رجلا من بني عُمَيْس ، وكتب معه كتابا إلى الزبير بن العوام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان : سلام عليك ، أما بعد ، فإنني قد بايعتُ لك أهل الشام ، فأجابوا واستوسقوا^(١) كما يستوسق الجلب ، فدونك الكوفة والبصرة ، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب ، فإنه لا شيء بعد هذين المصيرين ، وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فأظهره الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك ، وليسكن منك الجِد والتشمير ، أظفر كما الله ، وخذل منافئكما !

فلما وصل هذا الكتاب إلى الزبير سر به ، وأعلم به طلحة وأقرأه إياه ، فلم يشكأ في النصيح لهما من قبل معاوية ، وأجعا عند ذلك على خلاف على عليه السلام .

جاء الزبير وطلحة إلى على عليه السلام بعد البيعة بأيام ، فقالا له : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كفا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها ، وعلمت رأي عثمان كان في بني أمية ، وقد ولاك الله الخلافة من بعده ، فولنا بعض أعمالك ، فقال لهما : أرضيا بقسم الله لكما ، حتى أرى رأيي ، واعلما أنني لا أشرك في أمانتي إلا من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي ، ومن قد عرفت دخيلته .

فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس ، فاستأذناه في العمرة .

(٢) استوسقوا : استجمعوا وانضموا . وفي نهاية ابن الأثير : « ومنه حديث أحد : استوسقوا كما يستوسق جرب الغنم ، أي استجمعوا » .

طلب طلحة والزبير من عليّ عليه السلام أن يوليَّيهما المِصرَيْن : البصرة والكوفة ، فقال : حتى أنظر . ثم استشار المغيرة بن شعبة ، فقال له : أرى أن توليَّيهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس . فخلا بابن عباس ، وقال : ما تَرَى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ السكوفة والبصرة عَيْنُ الخلافَةِ ، وبهما كنوزُ الرجال ، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمتَ ، ولستُ آمنهما إن ولَّيَّتهما أن يُحدِثا أمرا . فأخذ عليّ عليه السلام برأى ابن عباس . وقد كان استشار المغيرة أيضا في أمر معاوية ، فقال له : أرى إقراره على الشام ، وأن تبعثَ إليه بعذه إلى أن يسكنَ شَغْبُ الناس ، ولك بعدُ رأيك . فلم يأخذ برأيه . فقال المغيرة بعد ذلك : والله ما نصحتُه قبلها ، ولا أنصحُه بَعْدَها ما بقيت .

دخل الزبير وطلحة على عليّ عليه السلام ، فاستأذناه في العمرة ، فقال : ما العمرة تريدان ؟ فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غيرَ العمرة ، فُقال لهما : ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان الفُدرة ونكثَ البيعة ؛ فحلفا بالله ما الخلافَ عليه ولا نكثَ بيعةٍ يريدان ، وما رأيُهما غيرَ العمرة . قال لهما : فأعيدا البيعةَ لى ثانية ، فأعاداهما بأشدَّ ما يكون من الأيمان والمواثيق ، فأذِنَ لهما ، فلما خرجا عن عنده ، قال لمن كان حاضرا : والله لا تروُنهما إلا في فتنة يقتتلان فيها . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فرِّ برِّدِّهما عليك ، قال : لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كان مفعولا .

لما خرج الزبير وطلحة من المدينة إلى مكّة لم يلقيا أحدا إلا وقالوا له : ليس لعلّ في أعناقنا بيعةٌ ، وإلّا ما يعمناه مكرهين . فبلغ عليا عليه السلام قولهما ، فقال : أبعدهما الله وأغرب^(١) دارهما ! أما والله لقد علمتُ أنهما سيقْتُلان أنفسهما أخبث مقتل ، ويأتیان مَنْ .

(١) يقال : أغرب داره : أبعدها .

وردا عليه بأشأم يوم ، والله ما العُمرَةُ يريدان ، ولقد أتيا نى بوجهي فاجريْن ، ورجعا بوجهي غادرين ناكثين ، والله لا يلقيا نى بعد اليوم إلا فى كتيبة خَشْناء^(١) ، يقتُلان فيها أنفسهما ، فُبُعْدًا لهما وسحقًا !

وذكر أبو مخنف فى "كتاب الجمل" ، أنَّ عليًّا عليه السلام خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعهما عائشة يريدون البصرة ، فقال : أيُّها الناس ، إنَّ عائشة سارت إلين البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلُُّ منهما يرى الأمر له . دون صاحبه ، أما طلحةُ فابنُ عمِّها ، وأما الزبير فحَتَمُها ، والله لو ظفروا بما أرادوا - ولن يقولوا ذلك أبدا - ليضربن أحدهما عنق صاحبه بعد تفازع منهما شديد . والله إنَّ راكبةَ الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحلُّ عُقْدَةً إلا فى معصية الله وسَخَطه ، حتى تورَدَ نفسها ومن معها موارد الهلكة ؛ أى والله ليَقْتَلَن ثلثهم ، وليهربن ثلثهم : وليتوبن ثلثهم ، وإنها التى تنبئُها كلاب الحوَّاب ، وإنَّهما ليعلمان أنَّهما مخطئان . وربِّ عالمٍ قتله جهلُهُ ، ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ! فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية ، أين المحتسبون ؟ أين المؤمنون ؟ مالى ولقريش ! أما والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلهم مفتونين ! وما لنا إلى عائشة من ذَنْبٍ إلا أنا أدخلناها فى حَيْرَنا . والله لأبقرن الباطل ، حتى يَظْهر الحقُّ من خاصرته ، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجَها . ثم نزل .

برز علىَّ عليه السلام يوم الجمل ، ونادى بالزُّبير : يا أبا عبد الله ، مرارا ، فخرج الزبير ، فتقاربا حتى اختلفت أعناقُ خيلهما ، فقال له علىَّ عليه السلام : إنما دعوتُكَ لأذكرك حديثا قاله لى ولك رسول الله صلى الله عليه ؛ أتذكر يومَ رآكَ وأنت معتنق ، فقال لك :

(١) كتيبة خَشْناء ، أى كثيرة السلاح خشنه .

«أتحبّه»؟ قلت: ومالي لأحبّه وهو أخى وابن خالى! فقال: «أما إنك ستحاربه وأنت ظالم له». فاسترجع الزبير، وقال: أذكرتني ما أنسانيه الدهر، ورجع إلى صفوفه. فقال له عبد الله ابنه: لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذى فارقتنا به! فقال: أذكرني على حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحاربه أبداً، وإني لأراجع وتارككم منذ اليوم. فقال له عبد الله: ما أراك إلا جُبنت عن سيف بنى عبد المطلب، إنَّها لسيوف حِداد، تحملها فتية أنجاد؛ فقال الزبير: وبلك! أتتهبجني على حربى! أما إني قد حلفت ألا أحاربه، قال: كَفَرُ عن يمينك؛ لا تتحدث نساء قريش أنك جبنت، وما كنت جبانا، فقال الزبير: غلامى مكحولٌ حرٌّ كفارة عن يمينى، ثم أنصل^(١) سنان ربحه، وحمل على عسكر على عليه السلام برُمح لا سنان له، فقال على عليه السلام: أفرجوا له، فإنه مُخْرَج، ثم عاد إلى أصحابه، ثم حمل ثانية، ثم ثالثة، ثم قال لابنه: أجبنا وبلك ترى! فقال: لقد أعذرت.

لما أذكر على عليه السلام الزبير بما أذكره به ورجع الزبير، قال:

نَادَى عَلَىٰ بِأَمْرٍ لَسْتُ أَنْسِكُرُهُ وَكَانَ عَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرَ مُذْهِبِ
فَقُلْتُ حَسْبُكَ مِنْ عَذْلٍ أَبَا حَسَنِ بَعْضُ الَّذِي قُلْتُ مُنْذُ الْيَوْمِ يَكْفِينِي
تَرَكْتُ الْأُمُورَ الَّتِي تُخْشَى مَقَبَّهَا وَاللَّهُ أَمْثَلُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ
فَاخْتَرْتُ عَارًا عَلَى نَارٍ مُؤَجَّجَةٍ أَنِي يَقُومُ لَهَا خَلْقٌ مِنَ الطَّيْنِ!

لما خرج على عليه السلام لطلب الزبير خرج حاسرا، وخرج إليه الزبير دارعاً مدججاً، فقال للزبير: يا أبا عبد الله، قد لعمري أعددت سلاحا، وحبذا فهل أعددت عند الله عذرا؟ فقال الزبير: إن مردنا إلى الله، قال على عليه السلام: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾^(٢)، ثم أذكره الخبر، فلما كَرَّ

(١) أنصل سنان ربحه، أى نزعهُ.

(٢) سورة النور ٢٥

الزبيرُ راجعاً إلى أصحابه نادماً واجماً ، رجع على عليه السلام إلى أصحابه جذلاً مسروراً ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين ، تبرز إلى الزبير حاسراً ، وهو شاك^(١) في السلاح ، وأنت تعرف شجاعته ! قال : إنه ليس بقاتلي ، إنما يقتلني رجل خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلة في غير مأقط^(٢) حرب ، ولا معركة رجال ، ويلمه أشقى البشر ! ليودن أن أمه هيلت به ! أما إنه وأحمر ثمود لمقرونان في قرآن .

لما انصرف الزبير عن حرب علي عليه السلام مرّ بوادي السباع ، والأحنف بن قيس هناك في جمع من بني تميم قد اعتزل الفريقين ، فأخبر الأحنف بمرور الزبير ، فقال رافعاً صوته : ما صنع بالزبير ! لف غاربن^(٣) من المسلمين ، حتى أخذت السيوف منهم ما أخذها ، انسَلْ وتركهم . أما إنه خلليق بالقتل ، قتله الله ! فاتبعه عمرو بن جرموز — وكان فاتكاً — فلما قرّب منه وقف الزبير ، وقال : ماشأنك ؟ قال : جئت لأسألك عن أمر الناس ، قال الزبير : إني تركتهم قياماً في الرّكب ، يضرب بعضهم وجهه بعض بالسيف . فسار ابن جرموز معه ، وكل واحد منهما يتقي الآخر . فلما حضرت الصلاة ، قال الزبير : يا هذا ، إننا نريد أن نصلي .

فقال ابن جرموز : وأنا أريد ذلك ، فقال الزبير : فتؤمّني وأؤمّنك ؟ قال : نعم ، فتبني الزبير رجله ، وأخذ وضوءه . فلما قام إلى الصلاة شدّ ابن جرموز عليه فقتله ، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه ، وحثا عليه تراباً يسيراً ، ورجع إلى الأحنف ، فأخبره ، فقال : والله ما أدرى أسأت أم أحسنت ؟ اذهب إلى علي عليه السلام فأخبره ، فجاء إلى علي عليه السلام ، فقال للأذن : قل له : عمرو بن جرموز بالباب ومعه رأس الزبير وسيفه ، فأدخله . وفي كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف ، فقال له : وأنت قتلتَه ؟ قال : نعم ، قال : والله ما كان ابنُ صفية جباناً ولا ثيماً ، ولكن الحين ومصارع السوء ،

(١) يقال : رجل شاك السلاح ؛ إذا كان ذا شوكة وحد في سلاحه (٢) المأقط : ساحة القتال .

(٣) الغار هنا : الجيش ، وفي اللسان ٦ : ٣٤ « جمع بين غارين » .

ثم قال : ناولني سيفه ، فناوله فمزّه ؛ وقال : سيف طالما جئى به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله . فقال ابن جرموز : الجائزة يا أمير المؤمنين ، فقال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » ، فخرج ابن جرموز خائباً ، وقال :

أتيتُ عليّاً برأس الزبير أبغى به عنده الرُّفَّةُ (١)
فبَشَّرَ بالنَّارِ يَوْمَ الحِسابِ فَبُئِستْ بِشارةٍ ذى التَّحَفَةِ
فقلتُ له إنَّ قتلَ الزبيرِ لولا رضاكَ من الكُلفَةِ
فإنَّ ترضَ ذاكَ فنك الرضا وإلا قَدُونكَ لى حَلَفِهِ
وَرَبُّ المَحَلِّينَ والمَحْرَمِينَ وَرَبُّ المَجْلَعَةِ والأُلْفَةِ
لَسَيِّانٍ عِنْدِي قَتْلُ الزبيرِ وَضُرْطَةٌ عَنِ بَذَى الجُحْفَةِ

ثم خرج ابن جرموز على على عليه السلام مع أهل النهر ، فقتله معهم فيمن قتل .

(٩)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :
وَقَدْ أَرْعَدُوا وَأَبْرَقُوا ، وَمَعَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْفَشْلُ ، وَلَسْنَا نُرْعِدُ حَتَّى نُوقِعَ ،
وَلَا نُسِيلُ حَتَّى نُمَطِّرَ .

الشَّيْخُ :

أرعد الرجل وأبرق ، إذا أوعد وتهدد ، وكان الأصمى ينفكره ، ويزعم أنه لا يقال
إلا رعد وبرق ، ولما احتج عليه ببيت الكميت :
أَرْعِدْ وَأَبْرِقْ يَا يَزِيدُ فَمَا وَعِيدُكَ لِي بِضَائِرِ
قال : الكميت قروى لا يحتج بقوله^(١) .
وكلام أمير المؤمنين عليه السلام حُجَّة دالة على بطلان قول الأصمى . والفشل :
الجنون والخور .

وقوله : « ولا نسيلُ حتى نمطر » ، كلمة فصيحة ، يقول : إن أصحاب الجمل في
وعيدهم وإجلابهم بمنزلة مَنْ يدعى أنه يحدث السيل قبل إحداث المطر ؛ وهذا محال ،
لأنَّ السَّيْلَ إنما يكون من المطر ، فكيف يسبق المطر ! وأما نحن فإننا لا ندعى ذلك ،
وإنما نُجْرِي الأمور على حقائقها ، فإن كان ممّا مطر كان ممّا سيل ، وإذا أوقعنا بخصمنا
أوعدنا حينئذ بالإيقاع به غيره من خصومنا .

(١) الخبر والبيت في أمالي الغالي ١ : ٩٦

وقوله عليه السلام : « ومع هذين الأمرين الفشل » معني حسن ، لأنّ الغالب من الجبناء كثرة الضوضاء والجلبة يوم الحرب ، كما أنّ الغالب من الشجعان الصمت والسكوب .

وسمع أبو طاهر الجنابي^(١) ضوضاء عسكر المقتدر بالله ودبّادبهم^(٢) وبوقاتهم ، وهو في ألف وخمسمائة ، وعسكر المقتدر في عشرين ألفا ، مقدّمهم يوسف بن أبي الساج ، فقال لبعض أصحابه : ما هذا الزّجل^(٣) ؟ قال : فُشل ، قال : أجّل .

ويقال : إنه ما رُئي جيش كجيش أبي طاهر ، ما كان يسمع لهم صوت ، حتى إنّ الخيل لم تكن لها حُحمة ، فرشق عسكر ابن أبي الساج^(٤) القرامطة بالسهم المسمومة ، فخرج منهم أكثر من خمسمائة إنسان .

وكان أبو طاهر في عمارية له ، فنزل وركب فرسا ، وحمل بنفسه ومعه أصحابه حملة على عسكر ابن أبي الساج ، فكسروه وفلّوه وخلصوا إلى يوسف فأسروه ، وتقطع عسكره بعد أن أتى بالقتل على كثير منهم ، وكان ذلك في سنة خمس عشرة وثلثمائة . ومن أمثالهم : الصدقُ ينيءُ عنك لا الوعيد .

(١) هو أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ؛ كان أبوه الحسن كبير القرامطة ؛ وقتل سنة ٣٠١ ، قتله خادم له صقلبي ، فتولى ابنه أبو طاهر أمر القرامطة بعده ، بعد أن هجز أخوه سعيد عن الأمر . تاريخ ابن الأثير ٦ : ١٤٧

(٢) في اللسان : « الدبادب : صوت كأنه دب ، دب ؛ وهي حكاية الصوت » .

(٣) الزجل : الجلبة ورفع الصوت .

(٤) هو يوسف بن أبي الساج ؛ أحد ولاية الرى في عهد المقتدر ؛ وكان استقل عن الخليفة ، ثم عاد إلى طاعته . وانظر طرفا من أخباره في تاريخ ابن الأثير في ٦ : ١٧٥ ، وما بعدها .

(١٠)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ جَمَعَ حِزْبَهُ ، وَاسْتَجَلَبَ خَيْلَهُ وَرَجُلَهُ ؛ وَإِنْ مَعِيَ لَبَصِيرَتِي ؛
مَا لَبَسْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَلَا لُبَّسَ عَلَى . وَإِنَّمُ اللَّهُ لَا فِرْطَنَ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَا حِجُّهُ ،
لَا يَصُدُّوْنَ عَنْهُ ، وَلَا يَمُودُونَ إِلَيْهِ .

الشيخ :

يمكن أن يعنى بالشیطان الشیطان الحقیقی ، ويمكن أن یعنی به معاوية ، فإن عني معاوية ، فقله : « قد جمع حزبه ، واستجلب خيله ورجله » كلام جارٍ على حقائقه ، وإن عني به الشيطان ، كان ذلك من باب الاستعارة ؛ ومأخوذاً من قوله تعالى : ﴿ وَأُسْتَفْزِرُ مِنْ أُسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ ﴾^(١) ، والرجل : جمع راجل ، كالشرب ، جمع شارب ، والركب : جمع راكب .

قوله : « وإن معي لبصيرتي » ، يريد أن البصيرة التي كانت معي في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله لم تتغير .

وقوله : « ما لبست » تقسيم جيد ، لأن كل ضالّ عن الهداية ، فإما أن يضلّ من تلقاء نفسه ، أو بإضلال غيره له .

وقوله : « لأفرطن » من رواها بفتح الهمزة ، فأصله « فرط » ثلاثي ، يقال : فرطَ

(١) سورة الإسراء ٦٤ .

زيد القوم أى سبقهم ، ورجل فرط : يسبق القوم إلى البئر ، فيهيئ لهم الأرشية والدلاء ، ومنه قوله عليه السلام : « أنا فرطكم على الحوض » ، ويكون تقدير الكلام : وإيم الله لأفرطن لهم إلى حوض ، فلما حذف الجار عدى الفعل بنفسه ، فنصب ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ۖ ﴾^(١) ، وتكون اللام فى « لهم » إمّا لام التعدية ، كقوله : « ويؤمن المؤمنون » أى ويؤمن المؤمنون ، أو تكون لام التعليل ، أى لأجلهم . ومن رواها « لأفرطن » بضم الهمزة ، فهو من أفرط المزايدة ، أى ملأها .

والماتح : المستقى ، متح يمتح ، بالفتح ، والماتح ، بالياء : الذى ينزل إلى البئر فيملأ الدلو . وقيل لأبى على رحمه الله : ما الفرق بين الماتح والماتح ؟ فقال : هما كإعجامهما ، يعنى أن التاء بنقطتين من فوق ، وكذلك الماتح لأنه المستقى ، فهو فوق البئر ، والياء بنقطتين من تحت ، وكذلك الماتح لأنه تحت فى الماء الذى فى البئر يملأ الدلاء . ومعنى قوله : « أنا ماتحه » ، أنا خبير به ، كما يقول من يدعى معرفة الدار : أنا بانى هذه الدار ، والكلام استعارة ؛ يقول : لأملأن لهم حياض الحرب التى هى دُرَبَتى وعادتى ، أو لأسبقتهم إلى حياض حرب أنا متدرب بها ، مجرب لها ، إذا وردوها لا يصدرون عنها . يعنى قتلهم وإزهاق أنفسهم ، ومن فر منهم لا يعود إليها . ومن هذا اللفظ قول الشاعر :
تَحَضَّتْ بِدَلْوِهِ حَتَّى تَحْسَى ذُنُوبَ الشَّرِّ مَلَأَى أَوْقُرَابَا^(٢)

(٢) البيت فى شرح الحاسة للمرزوقى ٥٣٣ من غير نسبة .

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(١١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجبل :
تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُولُ ، غَضَّ عَلَى نَاجِدِكَ ، أَعْرِ اللَّهَ جُحْمَتَكَ ، تَدُ فِي الْأَرْضِ
قَدَمَكَ ، أَرِمَ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ ، وَغَضَّ بِصَرِّكَ ، وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ .

الشيخ :

قوله : « تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُولُ » ، خبر فيه معنى الشرط ، تقديره : إن زالت الجبال
فلا تزل أنت ؛ والمراد المبالغة . في أخبار صفين أن بني عكّل - وكانوا مع أهل الشام -
حملوا في يوم من أيام صفين ، خرجوا وعقلوا أنفسهم بعمائمهم ، وتحالفوا أن لا نفر حتى يفر
هذا « الحكر » ، بالكاف ، قالوا : لأن عكلاً تبدل الجيم كافاً .

والناجذ : أقصى الأضراس . وتَدُ ، أمر من وتَدَّ قَدَمُهُ في الأرض ؛ أي أثبتتها فيها كالوتد .
ولا تَنَاقُضَ بَيْنَ قَوْلِهِ : « أَرِمَ بِبَصَرِكَ » وقوله : « غَضَّ بِصَرِّكَ » ، وذلك لأنه في الأولى
أمره أن يفتح عينه ويرفع طرفه ، ويحدّق إلى أقصى القوم ببصره ؛ ففعل الشجاع المقدام
غير المكترث ولا المبالى ، لأن الجبان تضعف نفسه ويخفق قلبه فيقصر بصره ، ولا يرتفع
طرفه ، ولا يمتدّ عنقه ، ويكون ناكس الرأس ، غضيض الطرف . وفي الثانية أمره أن
يغضّ بصره عن برّيق سيوفهم ولمعان دروعهم ، لئلا يبرق بصره ، ويدهش ويستشعر
خوفاً . وتقدير الكلام « واحمل » وحذف ذلك للعلم به ، فكأنه قال : إذا عازمت على الحملة
(١٦ - شرح نهج البلاغة - أول)

وصممت ، فغَضَّ حينئذٍ بصرَكَ واحمل ، وكن كالعشواء التي تحيط ما أمامها ولا تبالي .
وقوله : «عَضَّ على ناجِذِكَ» ، قالوا : إنَّ العاضَّ على نواجِذه ينبو السيف عن دماغه ،
لأنَّ عظام الرأس تشتدَّ وتصلب ؛ وقد جاء في كلامه عليه السلام هذا مشروحاً في موضع
آخر ، وهو قوله : «وعَضُّوا على النواجِذ ، فإنه أنبى للصوارم عن الهام» . ويحتمل أن يريد به
شِدَّة الحَنَق ؛ قالوا : فلان يحرقُ كلَّ الأَرَم ، يريدون شدة الغيظ ، والحرق : صريف
الأسنان وصوتها ، والأَرَم : الأضراس .

وقوله : «أَعِـرِ اللهَ جُجَـمَتَكَ» ، معناه ابذلها في طاعة الله . ويمكن أن يقال : إن ذلك
إشعارُ له أَنَّهُ لا يُقتل في تلك الحرب ، لأنَّ العارية مردودة ، ولو قال له : بعِ اللهَ جُجَـمَتَكَ ،
لكان ذلك إشعاراً له بالشهادة فيها .

وأخذ يزيد بن المهلب هذه اللفظة فخطب أصحابه بواسطه ، فقال : إني قد أسمع قول
الرعاع : جاء مَسْلَمَةٌ ، وجاء العباس^(١) ، وجاء أهل الشام ، ومَنْ أهلُ الشام ! والله ما هم إلا نسعة
أسياف ، سبعة منها معي ، واثنان علىّ ، وأما مَسْلَمَةٌ فخرادة صفراء ، وأما العباس
فنسطوس ابن نسطوس^(٢) ، أتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وجراجمة^(٣) وأقباط وأنباط
وأخلاط ، إنما أقبل إليكم الفلاحون وأوباش كأشلاء اللحم . والله مالتقوا قطّ كحديثكم
وعديدكم ، أعيروني سواعدكم ساعة تصفّقون بها خراطيمهم ، فإنما هي غَدَوَةٌ أو رُوحة ؛
حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين .

من صفات الشجاع قولهم : فلان مفامر ، وفلان غَشْمَشَم ، أي لا يبصر ما بين يديه
في الحرب ، وذلك لشدة تقحّمه وركوبه المهلكة ، وقلة نظره في العاقبة ، وهذا هو معنى قوله
عليه السلام لحمد : « غَضَّ بصرَكَ » .

(١) هما مسامة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، جهزهما يزيد بن عبد الملك لقتال يزيد
ابن المهلب . انظر ابن خلكان ، ترجمة يزيد بن المهلب . (٢) إشارة إلى أن أمه كانت أمة
رومية نصرانية . (٣) الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام . والجرامقة :
قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام .

[ذكر خبر مقتل حمزة بن عبد المطلب]

وكان حمزة بن عبد المطلب مغامراً غَشْمَماً لا يبصرُ أمامه ، قال جُبَيْر بن مُطْعِم
ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف لعبده وحشي يوم أُحُد : وَيَلَيْكَ ! إن علياً قتل عمي طُعَيْمَةَ
سَيِّد البطحاء يوم بدر ، فإن قتلته اليوم فأنت حرٌّ، وإن قتلتَ محمداً فأنت حرٌّ، وإن قتلت
حمزة فأنت حرٌّ ، فلا أحد يعدل عمي إلا هؤلاء . فقال : أمّا محمد فإن أصحابه دونَه ، ولن
يُسَلِّمُوهُ ، ولا أراي أصلُ إليه ، وأما عليٌّ فرجلٌ حذر مَرِس^(١) ، كثير الالتفات في الحرب
لا أستطيع قتله ، ولكن سأقتل لك حمزة ، فإنه رجل لا يبصرُ أمامه في الحرب ، فوقف
لحمزة حتى إذا حاذاه زرقه بالحربة كما تَزْرُق^(٢) الحبشة بحراجهما ، فقتله .

[محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره]

دفع أمير المؤمنين عليه السلام يوم الجمل رايته إلى محمد ابنه عليهما السلام، وقد استوت
الصفوف، وقال له : احمِل ؛ فتوقف قليلاً، فقال له : احمِل ، فقال : يا أمير المؤمنين، أماري
السَّهَام كأنَّها شَايِبُ المطر ! فدفع في صدره ، فقال : أدركك عِرْق من أمك ، ثم أخذ
الرَّايَةَ فهِزَّهَا ، ثم قال :

اطعنْ بها طعنَ أبيك مُحَمَّدٍ لا خير في الحربِ إذا لم تُوقَدِ

* بِالْمَشْرِفِ وَالْقَنَا الْمَسْدِدِ *

ثم حمل وحمل الناس خلفه ، فطعن عسكر البصرة .

(١) رجل مرس : شديد العلاج للأمور .

(٢) زرقه : طعنه .

قيل لحمد: لِمَ يُعَرِّزُ بك أبوك في الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه .
كان عليّ عليه السلام يقذفُ بمحمد في مهالك الحرب، ويكفّ حسنا وحُسنا عنها .

ومن كلامه في يوم صفّين: امّا كُؤوا عني هذين الفتّيين، أخاف أن ينقطع بهما نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله .

أمّ محمد رضى الله عنه خوّلة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع ابن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائل .

واختلف في أمرها، فقال قوم: إنها سبيّة من سبايا الرّدة، قوتل أهلها على يد خالد ابن الوليد في أيام أبي بكر، لما منع كثير من العرب الزكاة، وارتدت بنو حنيفة، وادّعت نبوة مُسَيّلة، وإن أبا بكر دفعها إلى عليّ عليه السلام من سهمه في المنعم .

وقال قوم، منهم أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائني: هي سبيّة في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً إلى اليمن، فأصاب خوّلة في بني زُبَيْد، وقد ارتدوا مع عمرو بن معدى كرب، وكانت زُبَيْد سبّتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم، فصارت في سهم عليّ عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إن ولدت منك غلاماً فسمّه باسمي، وكنته بكنتي، فولدت له بعد موت فاطمة عليها السلام محمداً، فكنّاه أبا القاسم .

وقال قوم، وهم الحقّون، وقولهم الأظهر: إن بني أسدٍ أغارت على بني حنيفة في خلافة أبي بكر الصديق، فسبوا خوّلة بنت جعفر، وقد مواها المدينة فباعوها من عليّ عليه السلام،

وبلغ قومها خبرها ، فقد موال المدينة على عليّ عليه السلام ، فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم ، فأعتقها ومهرها وتزوجها ، فولدت له محمداً ، فسكنناه أبا القاسم .
وهذا القول ، هو اختيار أحمد بن يحيى البلاذري في كتابه المعروف بـ " تاريخ الأشراف " ، .

لما تقاعس محمد يوم الجبل عن الحملة ، وحمل عليّ عليه السلام بالراية ، فضضع أركان عسكرا للجبل ، دفع إليه الراية ، وقال : أمحُ الأولى بالأخرى ، وهذه الأنصار معك . وضمّ إليه خزّيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، في جمع من الأنصار ، كثير منهم من أهل بدر ، فحمل حملات كثيرة ، أزال بها القوم عن مواقفهم وأبلى بلاء حسناً . فقال خزّيمة بن ثابت لعليّ عليه السلام : أما إنه لو كان غير محمد اليوم لافتضح ، وإن كنت خفت عليه الحين وهو بينك وبين حمزة وجعفر لما خفناه عليه ، وإن كنت أردت أن تعلمه الطعان فطالما علمته الرجال .

وقالت الأنصار : يا أمير المؤمنين ، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب . فقال عليّ عليه السلام : أين النجم من الشمس والقمر ! أما إنه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضل صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظامهما له ، ولا نظامه - لفضلهما عليه - حقّه ، فقال عليّ عليه السلام : أين يقع ابني من ابني بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ! فقال خزّيمة بن ثابت فيه :

محمد ما في عودك اليوم وصمة ولا كنت في الحرب الصرّوس مُعَرِّداً (١)
أبوك الذي لم يركب الخيل مثله عليّ ، وسماك النبيّ محمداً
فلو كان حقاً من أبيك خليفة لكنت ، ولكن ذاك مالا يرى بداً

(١) معرّد : منهزم .

وأنت بحمد الله أطولُ غالب^(١) لساناً ، وأندأها بما ملكت يدا
وأقربها من كل خيرٍ تريده قریش وأوفاها بما قال موعدا
وأطعمهم صدر الكفى بزحمه وأكسأهم للهام عَضْباً مُهَنِّدا
سوى أخويك السيدين ، كلاهما إمام الورى والداعيان إلى الهدى
أبى الله أن يعطى عدوك مقعدا من الأرض أوفى الأوج مرقى ومصددا

(١) غالب : يقصد به ذرية غالب بن فهر بن مالك .

(١٢)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لما أظفره الله بأصحاب الجمل ، وقد قال له بعض أصحابه :
 هوددت أن أخى فلانا كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك ، فقال على عليه السلام :
 أَهْوَى أَخِيكَ مَعْنَا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَدْ شَهِدْنَا ، وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي
 عَسْكَرِنَا هَذَا قَوْمٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ ، سَيَرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ ،
 وَيَقْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ .

البشرح :

يرَعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ : يُوَجِّدُهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ ، كما يرَعَفُ الإنسان بالدم الذي يخرج منه
 أنفه ، قال الشاعر :

وما رَعَفَ الزمان بمثل عمرو ولا تَلِدُ النساءُ له ضريباً
 والمعنى مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله لعثمان - ولم يكن شهد بدرًا ، تخلفَ
 على رُقِيَّةَ ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لما مرضت مرض موتها : « لقد كنت شاهداً
 وإن كنت غائبا ، لك أجرك وسهمك » .

[من أخبار يوم الجمل]

قال الكلبي : قلت لأبي صالح : كيف لم يضع على عليه السلام السيف في أهل
 البصرة يوم الجمل بعد ظفروه ؟ قال : سار فيهم بالصفح والمن الذي سار به رسول الله صلى الله

عليه وآله في أهل مكة يوم الفتح ، فإنه أراد أن يستعرضهم بالسيف ، ثم منّ عليهم ، وكان يحب أن يهديهم الله .

قال فطر بن خليفة : ما دخلت دار الوليد بالكوفة التي فيها القصارون إلا وذكرت بأصواتهم وقع السيوف يوم الجمل .

حرب بن جبهان الجعفي : لقد رأيت الرماح يوم الجمل قد أشرعها الرجال بعضهم في صدر بعض ، كأنها آجام القصب ، لو شاءت الرجال أن تمشي عليها لمشت ، ولقد صدقونا القتال حتى ما ظننت أن يهزموا ، وما رأيت يوماً قط أشبه بيوم الجمل من يوم جلولاء الواقعة^(١) .

الأصبغ بن نباتة : لما انهزم أهل البصرة ركب علي عليه السلام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء ؛ وكانت باقية عنده ، وسار في القتلى يستعرضهم ، فرّ بكعب بن سور القاضي ، قاضي البصرة ، وهو قتيل ، فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال له : وَيْلُكَ كعب ابن سور ! لقد كان لك علم لو نفعك ! ولكن الشيطان أضلك فأزلت ، فمَجَلَّكَ إلى النار ، أرسلوه . ثم مر بطاحنة بن عبيد الله قتيلاً ؛ فقال : أجلسوه ، فأجلس - قال أبو مخنف في كتابه : فقال : وَيْلُكَ طاحنة ! لقد كان لك قدم لو نفعك ! ولكن الشيطان أضلك فأزلك فمَجَلَّكَ إلى النار .

وأما أصحابنا فيروون غير ذلك ؛ يروون أنه عليه السلام قال له لما أجلسوه : أعز عليّ أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء وفي بطن هذا الوادي ! أبعَدَ جهادك في الله ، وذبتك عن رسول الله صلى الله عليه وآله ! فجاء إليه إنسان فقال : أشهد يا أمير المؤمنين ، لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع ، فصاح بي ، فقال : من أصحاب من أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : امدد يدك لأبايع

(١) جلولاء : موضع في طريق خراسان ، كانت بها وقعة المسلمين على الفرس سنة ١٦ ؛ وسميت الواقعة لما أوقع بهم المسلمون (ياقوت) .

الأمير المؤمنين عليه السلام ، فمددت إليه يدي فبايعني لك . فقال عليّ عليه السلام : أباي .
الله أن يدخلَ طلحةَ الجنةَ إلا وبيعتي في عنقه .

ثم مرّ بعبد الله بن خلف الخزاعيّ ، وكان عليه السلام قتله بيده مبارزة ، وكان
رئيسَ أهل البصرة ، فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال : الويل لك يا بن خلف ! لقد
عانيت أمراً عظيماً .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : ومرّ عليه السلام بعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد ،
فقال : أجلسوه ، فأجلس ، فقال : هذا يعسوبُ قريش ، هذا اللّبابُ المُحضُّ من بني
عبد مناف . ثم قال : شفيتُ نفسي ، وقتلتُ معشري ، إلى الله أشكو عُجْرِي
وَبُجْرِي^(١) ! قتلتُ الصناديدَ من بني عبد مناف ، وأفلتني الأعيارُ^(٢) من بني جُحج .
فقال له قائل : الشدّ ما أطريت هذا الفتى منذ اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنّه قام عني
وعنه نسوةٌ لم يقمن عنك .

قال أبو الأسود الدؤليّ : لما ظهر عليّ عليه السلام يومَ الجمل ، دخل بيت المال بالبصرة
في ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم ، فلما رأى كثرةَ ما فيه ، قال : غرّني غيري ...
مرارا . ثم نظر إلى المال ، وصعد فيه بصره وصوّب ، وقال : اقسموه بين أصحابي خمسمائة
خمسائة ، فقسم بينهم ، فلا والذي بعث محمداً بالحق ما نقص درهما ولا زاد درهما ، كأنّه
كان يعرف مبلغه ومقداره ، وكان ستة آلاف ألف درهم ، والناس اثنا عشر ألفاً .

(١) عجري وبجري ، نقل صاحب اللسان (٦ : ٢١٦) عن محمد بن يزيد : « معناه هومي وأحزاني ؛
وقيل : ما أبدى وأخفى ، وكله على المثل » . وقال : « وأصل العجر العروق المنعقدة في الصدر ، ولجج
العروق المنعقدة في البطن خاصة » .

(٢) الأعيار هنا : جم عير ؛ وعير القوم : سيدهم ؛ وعليه قول الحارث بن حنّلة :

زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعِيْرَ رَمَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنْتِ الْوَلَاةُ

حَبَّةُ الْعُرْنَى^(١) ، قَسَمَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْتَ مَالِ الْبَصْرَةِ عَلَى أَصْحَابِهِ خَمْسَمِائَةَ خَمْسَمِائَةَ ، وَأَخَذَ خَمْسَمِائَةَ دِرْهَمٍ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فَجَاءَهُ إِنْسَانٌ لَمْ يَحْضُرِ الْوَقْعَةَ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كُنْتُ شَاهِدًا مَعَكَ بِقَلْبِي ، وَإِنْ غَابَ عَنْكَ جَسْمِي ، فَأَعْطِنِي مِنَ الْفِيءِ شَيْئًا .
فَدَفَعَ إِلَيْهِ الَّذِي أَخَذَهُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ خَمْسَمِائَةُ دِرْهَمٍ ، وَلَمْ يَصِبْ مِنَ الْفِيءِ شَيْئًا .

اتَّفَقَتْ الرِّوَاةُ كُلُّهَا عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبِضَ مَا وَجَدَ فِي عَسْكَرِ الْجَلِ مِنْ سِلَاحٍ وَدَابَّةٍ وَمَمْلُوكٍ وَمَتَاعٍ وَعُرُوضٍ ، فَقَسَمَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ : اقْسِمْ بَيْنَنَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ فَاجْعَلْهُمْ رَقِيقًا ، فَقَالَ : لَا ، فَقَالُوا : فَكَيْفَ تُحِلُّ لَنَا مَاءَهُمْ وَتَحَرِّمُ عَلَيْنَا سَبْيَهُمْ ! فَقَالَ : كَيْفَ يَحِلُّ لَكُمْ ذَرْيَةُ ضَعِيفَةٍ فِي دَارِ هِجْرَةٍ وَإِسْلَامٍ ! أَمَا مَا أَجَلَّبَ بِهِ الْقَوْمُ فِي مَعْسَكِهِمْ عَلَيْكُمْ فَهُوَ لَكُمْ مَنَّمٌ ، وَأَمَا مَا وَارَتْ الدَّوْرَ وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ فَهُوَ لِأَهْلِهِ ، وَلَا نَصِيبَ لَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ : فَأَقْرِعُوا عَلَى عَائِشَةَ ، لِأَدْفَعَهَا إِلَى مَنْ تَصِيبُهُ الْقُرْعَةُ ! فَقَالُوا : نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ثُمَّ انْصَرَفُوا .

(١) حبة ، بفتح أوله ، ثم موحدة ثقيلة ، بن جوين العرنى ، والسكري . كان غالبا في التشيع ؛ قال في التهذيب : مات أول ما قدم الحجاج العراق سنة ٧٦ .

(١٣)

الأصل:

ومن كلام له عليه السلام في ذم أهل البصرة:

كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرْأَةِ ، وَأَتْبَاعَ الْبَهِيمَةِ . رَغَا فَأَجَبْتُمْ ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ . أَخْلَقَكُمْ دِقَاقٌ ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ ، وَالْمَقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَمِنٌ بِذَنْبِهِ ، وَالشَّائِصُ عَنْكُمْ مُتَدَارِكٌ بِرَحْمَةِ مِنْ رَبِّهِ ؛ كَأَنِّي بِمَسْجِدِكُمْ كَجَوْجُؤٍ سَفِينَةٍ ، قَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا ، وَغَرَّقَ مَنْ فِي ضَمْنِهَا .

وفي رواية:

وَأَيْمُ اللَّهِ ، لَتَغْرُقَنَّ بِلَدْتُكُمْ ، حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجَوْجُؤٍ سَفِينَةٍ ، أَوْ نَعَامَةٍ جَائِعَةٍ .

وفي رواية:

كَجَوْجُؤٍ طَيْرٍ فِي تِلْجَةِ بَحْرِ .

وفي رواية أخرى:

بِلَادُكُمْ أَنْتَنُ بِلَادِ اللَّهِ تُرْبَةٌ ؛ أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَاءِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنَ السَّمَاءِ ؛ وَبِهَا تِسْعَةُ أَغْشَارِ الشَّرِّ . الْمُحْتَبَسُ فِيهَا بِذَنْبِهِ ، وَالْخَارِجُ يَعْفُو اللَّهُ . كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى قَرْبَتِكُمْ هَذِهِ قَدْ طَبَقَهَا الْمَاءُ ، حَتَّى مَا يُرَى مِنْهَا إِلَّا شَرْفُ الْمَسْجِدِ ؛ كَأَنَّهُ جَوْجُؤُ طَيْرٍ فِي تِلْجَةِ بَحْرِ .

الشَّيْخُ :

قوله : « وأتباع البهيمية » ، يعنى الجلال ، وكان جل عائشة راية عسكر البصرة ، قُتِلُوا
دونه كما تُقْتَلُ الرجال تحت راياتها .

وقوله : « أخلاقكم دقاق » ، يصفهم باللؤم ، وفى الحديث أن رجلا قال له :
يا رسول الله إني أحب أن أنسكح فلانة ، إلا أن في أخلاق أهلها دقة ، فقال له : « إياك
وخضراء الدمن ، إياك والمرأة الحسناء فى منبت السوء » .

قوله : « وعهدكم شقاق » يصفهم بالفدر ، يقول : عهدكم وذمتكم لا يوثق بها ،
بل هى وإن كانت فى الصورة عهدا أو ذمة ، فإنها فى المعنى خلاف وعداوة .

قوله : « وماؤكم زعاق » ، أى ملح ، وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تُذَمُّ
به المدينة ، كما قال :

بلاد بها الحمى وأسدُ عرينةٍ وفيها الملى يعتدى ويحجورُ
فإني لمن قَدْ حلَّ فيها لراحِمُ وإني لمن لم يأتها لنذيرُ

ولا ذنب لأهلها فى أنها بلاد الحمى والسباع .

ثم وصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتَهَنٌ بذنبه ، لأنه إما أن يشاركهم فى الذنوب
أو يراها فلا يذكرُها ؛ ومذهب أصحابنا أنه لا تجوز الإقامة فى دار الفسق ، كما لا تجوز
الإقامة فى دار الكفر .

والجؤجؤ : عَظْمُ الصدر ؛ وجؤجؤ السفينة : صدرها .

فأما إخباره عليه السلام أنّ البصرة تفرّق عدا المسجد الجامع بها ، فقد رأيتُ مَنْ يذكر أنّ كتب الملاحم تدلّ على أنّ البصرة تَهْلِكُ بالماء الأسود ينفجر من أرضها ، فتفرق ويبقى مسجدُها .

والصحيح أن الخبر به قد وقع ، فإنّ البصرة غرقت مرتين ؛ مرة في أيام القادر بالله ، ومرة في أيام القائم بأمر الله ، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدُها الجامع بالزوا بعضه كجَوْجُو الطائر ، حَسَبَ ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام ، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس ، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام ، وخرّبت دورها ، وغرق كلّ ما في ضِمْنِها ، وهلك كثير من أهلها .
وأخبار هذين الفرقتين معروفة عند أهل البصرة ، يتناقضها خلقهم عن سلفهم ..

[من أخبار يوم الجمل أيضاً]

قال أبو الحسن علي بن محمد بن سيف المدائنيّ ومحمد بن عمر الواقديّ : ما حَفِظَ رَجَزٌ قطّ أكثر من رَجَزِ قَيْلِ يوم الجمل ، وأكثره لَبَنِي ضَبَّةَ والأزْد ، الذين كانوا حول الجمل يُحَاوِنُ عنه ، ولقد كانت الرؤوس تُنْدَرُ^(١) عن السكواهل ، والأيدي تَطْمِئُ من المعاصم وأقناب البطن^(٢) تندلق من الأجواف ؛ وهم حول الجمل كالجراد الثابتة لا تتحلحل ولا تنزل ؛ حتى لقد صرخ عليه السلام بأعلى صوته : ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان ! ثم قال : اعقروه وإلا فَنَيْتِ العرب . لا يزال السيفُ قائماً ورا كماً حتى يهوى هذا البعيرُ

(١) تندر : تقطع .

(٢) الأقناب : الأمعاء ؛ واحده قنب « محرّكة ، أو بكسر فسكون .

إلى الأرض ، فصمدوا له حتى عقروه فسقط وله رغاء شديد ؛ فلما برك كانت الهزيمة .

ومن الأراجيز المحفوظة يوم الجمل لعسكر البصرة قول بعضهم^(١) :

نَحْنُ - بَنِي ضَبَّة - أَصْحَابُ الْجَمَلِ نُنَازِلُ الْمَوْتَ إِذَا أَلَمَّوَتْ نَزَلَ
نَنْفَعِي ابْنَ عَفَانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلِ رَدُّوا عَلَيْنَا شَيْخِنَا ثُمَّ بَجَلْ^(٢)
الْمَوْتَ أَحَلَّى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ لَا عَارَ فِي الْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ
إِنَّ عَايَاهُو مِنْ شَرِّ الْبَدَلِ إِنْ تَعَدَلُوا بِشَيْخِنَا لَا يُعْتَدَلُ
* أَيْنَ الْوِهَادُ وَشَمَارِيخُ الْقَتْلِ^(٣) *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام :

نَحْنُ قَتَلْنَا نَعَثَلًا فَيَمَنْ قُتِلَ أَكْثَرُ مِنْ أَكْثَرٍ فِيهِ أَوْ أَقَلْ^(٤)
أَيُّ يُرَدُّ نَعَثَلٌ وَقَدْ قَحَلَ نَحْنُ ضَرَبْنَا وَسَطَهُ حَتَّى انْجَدَلَ^(٥)
لِحُكْمِهِ حُكْمُ الطَّوَاغِيتِ الْأَوَّلِ^(٦) آثَرَ بِالْفِيءِ وَجَافَى فِي الْعَمَلِ
فَأَبْدَلَ اللَّهُ بِهِ خَيْرَ بَدَلٍ إِنِّي أَمْرٌ مُسْتَقْدِمٌ غَيْرُ وَكَلٍ
* مَشْمَرٌ لِلْحَرْبِ مَعْرُوفٌ بِطَلٍّ *

ومن أراجيز أهل البصرة :

يَا أَيُّهَا الْجُنْدُ الصَّلِيبُ الْإِيمَانُ قَوْمُوا قِيَامًا وَاسْتَفِيثُوا الرَّحْمَنُ

(١) الأبيات في الطبرى (٤ : ٥١٨) ، منسوبة إلى رجل يدعى الحارث من بني ضبة ، وفي المسعودى (٢ : ٣٧٥) من غير نسبة ، مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات .

(٢) بجل : حسب ؛ كذا فسره صاحب اللسان (١٣ : ٤٨) ، واستشهد بالبيت .

(٣) الشماريخ : رءوس الجبال .

(٤) قال صاحب اللسان : « نعثل : رجل من أهل مصر ، كان طويل اللحية ؛ قيل : لأنه كان يشبه عثمان رضى الله عنه ؛ هذا قول أبى عبد . وشأتو عثمان رضى الله عنه يسمونه نعثلا ؛ تشبيها بالرجل المصرى لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيبا غير هذا » .

(٥) قحل : مات وجف جلده . وانجدل : سقط ، وفي ج : « انجدل » ، أى انقسم قسمين .

(٦) رواية البيت في كتاب سفين :

* لَمَّا حَكَى حُكْمَ الطَّوَاغِيتِ الْأَوَّلِ *

إني أتاني خَيْرُ ذُو الْوَلَانِ أَنْ عَلِيًّا قَتَلَ ابْنَ عَفَانَ
رُدُّوا إِلَيْنَا شَيْخَنَا كَمَا كَانَ يَا رَبِّ وَايَعِثْ نَاصِرًا لِعُمَانَ
* يَقْتُلُهُمْ بِقُوَّةٍ وَسُلْطَانٍ *

فأجابه رجل من عسكر الكوفة :

أَبَتْ سُيُوفٌ مَذْحِجٌ وَهَمْدَانُ بَأْنِ تَرُدُّ نَعْمَلًا كَمَا كَانَ
خَالِقًا سَوِيًّا بَعْدَ خَلْقِ الرَّحْمَنِ وَقَدْ قَضَى بِالْحُكْمِ حُكْمَ الشَّيْطَانِ
وَفَارَقَ الْحَقَّ وَنُورَ الْفَرْقَانِ فَذَاقَ كَأْسَ الْمَوْتِ شُرْبَ الظَّمَانِ

ومن الرجز المشهور المقول يوم الجمل ، قاله أهل البصرة :

يَا أَمْنًا عَائِشُ لَا تُرَاعَى كُلُّ بَنِيكَ بَطْلُ الْمِصَاعِ^(١)
يَنْعَى ابْنَ عَفَانَ إِلَيْكَ نَاعٍ كَعَبْ بَنِ سُرُورٍ كَاشَفَ الْقِنَاعِ
فَارِضِي بَنَصْرَ السَّيِّدِ الْمَطَاعِ وَالْأَزْدُ فِيهَا كَرَمُ الطَّبَاعِ

ومنه قول بعضهم :

يَا أَمْنًا يَكْفِيكَ مَنَّا دَنُوءُهُ لَنْ يُوْخِذَ الدَّهْرَ انْخِلَامُ عَنُوءُهُ
وَحَوْلُوكِ الْيَوْمَ رِجَالُ شَنُوءُهُ وَحَى هَمْدَانِ رِجَالُ الْهَبُوءَةِ^(٢)
وَالْمَالِكِيُّونَ الْقَلِيلُو الْكَبُوءَةِ وَالْأَزْدُ حَتَّى لَيْسَ فِيهِمْ نَبُوءُهُ
قالوا : وخرج من أهل البصرة شيخ صبيحُ الوجه ، نبيل ، عاميه جبة وشي ، يحضّ
الناس على الحرب ، ويقول :

يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ عَلَيْكُمْ أَمُّكُمْ فَبِهِنَّ صَلَاتُكُمْ وَصَوْمُكُمْ
وَالْحَرَمَةُ الْعُظْمَى الَّتِي تَعْمُكُمْ فَأَحْضَرُوهَا جِدِّكُمْ وَحَزَمَكُمْ

(١) المصاع : الجلاد والضراب . (٢) الهبوة : الغيرة ؛ يريد ما يثائر في المعارك من الغبار والغراب ،
ومن ملاحظات الأستاذ جاسم : « يلزم أن يكون بدلًا من حَى همدان اسم آخر لما لم يوجد في ذلك
العهد من همدان أحد بالبصرة » ، والمثبت ما في الأصول .

لَا يَغْلِبَنَّ سُمُّْ الْعَدُوِّ سُمَّْكُمْ إِنْ الْعَدُوَّ إِنْ عَلَاكُمْ زَمَّكُمْ
وَحَصَّكُمْ بِجُورِهِ وَعَمَّكُمْ لَا تُفَضِّحُوا الْيَوْمَ فِدَاكُمْ قَوْمَكُمْ

قال المدائني والواقدي : وهذا الرَّجَزُ يَصَدِّقُ الرواية أن الزبير وطلحة قاما في الناس ،
فقالا : إِنَّ عَلِيًّا إِنْ يَظْفَرُ فَهُوَ فَنَاوُكُمْ يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، فاحموا حقيقتكم ، فإنه لا يُبْقَى حُرْمَةٌ
إِلَّا أَنْتَهَكَهَا ، وَلَا حَرِيمًا إِلَّا هَتَكَهُ ، وَلَا ذَرْبَةً إِلَّا قَتَلَهَا ، وَلَا ذَوَاتٍ خِذْرٍ إِلَّا سَبَاهُنَّ ،
فقاتلوا مقاتلة مَنْ يَحْمِي عَنْ حَرِيمِهِ ، ويختار الموت على الفضيحة يراها في أهله .

وقال أبو مخنف : لم يقل أحد من رُجَّازِ الْبَصْرَةِ قولاً كان أحبَّ إلى أهل الجبل
من قول هذا الشيخ ، استقتل الناس عند قوله ، وثبتوا حول الجبل ؛ وانتدبوا ، فخرج
عوف بن قَطَن الضَّبِّيُّ ؛ وهو ينادي : ليس لعثمان ثأر إلا عليّ بن أبي طالب وولده ،
فأخذ خِطَامَ الْجبل ، وقال :

يَا أُمُّ يَا أُمُّ خَالَ مِثِّي الْوَطَنُ لَا أَبْتغِي الْقَبْرَ وَلَا أَبْنَى الْكَفَنُ
مِنْ هَاهُنَا مَحْشَرُ عَوْفِ بْنِ قَطَنُ إِنْ فَاتَنَا الْيَوْمَ عَلَى الْفَقَبِ
أَوْ فَاتَنَا ابْنَاهُ حَسِينٌ وَحَسَنُ إِذَا أُمْتُ بَطُولَ هَمٍّ وَحَزَنُ
ثم تقدم ، فضرب بسيفه حتى قتل .

وتناول عبد الله بن أبزى خِطَامَ الْجبل ، وكان كلٌّ من أراد الجِدَّ في الحرب وقاتل
قتال مستميت يتقدم إلى الْجبل فيأخذ بِخِطَامِهِ ، ثم شدَّ على عسكر عليّ عليه
السلام ، وقال :

أَضْرِبُهُمْ وَلَا أَرَى أَبَا حَسَنُ هَا إِنَّ هَذَا حَزَنٌ مِنْ الْحَزَنِ
فشدَّ عليه عليّ أمير المؤمنين عليه السلام بالرمح فطعنه فقتله ، وقال : قد رأيت
أبا حسن ، فكيف رأيته ! وترك الرمح فيه .

وأخذت عائشة كفاً من حصي ، فخصبت به أصحاب علي عليه السلام ، وصاحت بأعلى صوتها : شأهت الوجوه ! كما صنع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين ، فقال لها قاتل : ومارميت إذ رميت ولكن الشيطان^(١) رمى . وزحف على عليه السلام نحو^(٢) الجمل بنفسه في كتيبتة الخضر من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه : حسن وحسين ومحمد عليهم السلام ، ودفع الراية إلى محمد ، وقال : أقدم بها حتى تركزها في عين^(٣) الجمل ، ولا تقفنّ دونه . فتقدم محمد ؛ فرشقته السهام ، فقال لأصحابه : رويداً حتى تنفذ سهامهم ، فلم يبق لهم إلا رشفة أو رشفتان . فأنفذ إليه علي عليه السلام إليه يستحثه ، ويأمره بالمناجزة ، فلما أبطأ عليه جاء بنفسه من خلفه ، فوضع يده اليسرى على منكبيه الأيمن ، وقال له : أقدم لا أم لك ! فكان محمد رضى الله عنه إذا ذكر ذلك بعد يبكى ، ويقول : لكانى أجدر ريج نفسه بى قفأى ، والله لا أنسى أبداً . ثم أدركت علياً عليه السلام رقة على ولده ، فتناول الراية منه بيده اليسرى ، وذوالفقار مشهور فى يمين يده ، ثم حمل ففأص فى عسكر الجمل ، ثم رجع وقد انحنى سيفه ، فأقامه بركبته . فقال له أصحابه وبنوه والأشتر وعماز : نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . فلم يجب أحداً منهم ولا ردّ إليهم بصره ؛ وظل ينحط^(٤) ويزار زبير الأسد ، حتى فرّق^(٥) من حوله . وتبادروه ؛ وإنه لطامح ببصره نحو عسكر البصرة ، لا يبصر من حوله ، ولا يردّ حواراً ، ثم دفع الراية إلى ابنه محمد ، ثم حمل حملة ثانية وحده ، فدخل وسطهم فضر بهم بالسيف قدماً قدماً ، والرجال تفر من بين يديه ، وتناجز عنه يمنة ويسرة ، حتى خضب الأرض بدماء القتلى ، ثم رجع وقد انحنى سيفه ، فأقامه بركبته ، فاعصوب^(٦) به أصحابه ، وناشدوه الله فى نفسه وفى الإسلام ، وقالوا : إنك إن نصب يذهب الدين ، فأمسك ونحن نكفيك . فقال : والله ما أريد بما ترون إلا وجه الله والدار الآخرة . ثم قال لحمد ابنه : هكذا تصنع يا ابن الحنفية ، فقال الناس : من الذى يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين !

(١) كذا فى ١ ، وفى ب « ولكن الله » . (٢) ١ : « يوم » . (٣) ١ : « بجز » .
(٤) ينحط : يزفر . (٥) فرق ، من باب تعب ؛ أى خاف . (٦) اعصوبوا به : استجمعوا والتفوا حوله
(١٧ - شرح نهج البلاغة - أول)

ومن كلماته الفصيحة عليه السلام في يوم الجمل ، مارواه الكلبي عن رجل من الأنصار قال : بينا أنا واقف في أول الصفوف يوم الجمل ؛ إذ جاء عليّ عليه السلام فانحرفتُ إليه فقال : أين مَنزى القوم ؟ فقلت : ها هنا - نحو عائشة .

قال الكلبي : يريد أين عددهم ؟ وأين جمهورهم وكثرتهم ؟ والمال الثرى على «فعل» هو الكثير ، ومنه رجل ثروان ، وامرأة ثروى ، وتصفيرها ثرياً . والصدقة مثرة للمال ، أى مكثرة له .

قال أبو مخنف : وبعث عليّ عليه السلام إلى الأشر : أن أحمل عليّ ميسرتهم ، فحمل عليها وفيها هلال بن وكيع ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل هلال ؛ قتله الأشر ؛ فالت الميسرة إلى عائشة فلادوا بها ، وعظمهم بنو ضبة وبنو عدي ، ثم عطفت الأزد وضبة وناجية وباهلة إلى الجمل ، فأحاطوا به ، واقتتل الناس حوله قتالا شديداً ، وقتل كعب بن سور قاضي البصرة ، جاءه سهم^(١) غرب فقتله وخطام الجمل في يده ، ثم قتل عمرو بن بثر بن الضبي^(٢) ، وكان فارس أصحاب الجمل وشجعانهم ، بعد أن قتل كثيراً من أصحاب علي عليه السلام .

قالوا : كان عمرو أخذ بخطام الجمل ، فدفعه إلى ابنه ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه هند بن عمرو الجلي^(٣) عاباء بن الهيثم السدوسي ، فقتله عمرو ، ثم دعا إلى البراز ، فخرج إليه هند بن عمرو الجلي^(٣) فقتله عمرو ، ثم دعا إلى البراز ، فقال زيد بن صوحان العبدى لعلّي عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت يداً أشرفت على من السماء وهى تقول : هلم إلينا ، وأنا خارج إلى

(١) يقال : أصابه سهم غرب (بفتحين) وغرب (بفتح فسكون) ، إذا كان لا يدري من رماه ؛ وقيل : إذا أتاه من حيث لا يدري . اللسان ٢ : ١٣٣ .

(٢) عمرو بن بثر بن الضبي ، كان من رؤوس ضبة في الجاهلية ، ثم أسلم ، واستقضاء عثمان على البصرة . الإصابة ٥ : ١٢٠ ، والاشتقاق ٤١٣ .

(٣) هو هند بن عمرو الجلي ، نسبة إلى جمل بن سعد العشيرة ، حى من مذبح . الاشتقاق ٤١٣ .

ابن يثربى ، فإذا قتلنى فادفنى بدمى ولا تُغسلنى ، فإنى مخاصم عند ربى . ثم خرج فقتله عمرو ، ثم رجع إلى خطام الجمل مرتجزا يقول :

أرديتُ عِلباءَ وهندا في طَلَقٍ ثم ابنَ صُوحان خَضيباً في عَلَقٍ^(١)
 قد سَبَقَ اليومَ لنا ما قد سَبَقَ والوثرُ مِنّا في عدى ذى الفَرَقِ
 والأشترُ الفاوى وعمرُ بن الحَمِقِ^(٢) والفارسُ المُعَلِمُ فى الحربِ الحَمِقِ
 ذاك الذى فى الحادثات لم يُطَقْ أعنى عليّاً ليقته فينا مِرَقِ

قال : قوله : «الوثرُ مِنّا فى عدى» يعنى عدى بن حاتم الطائى ، وكان من أشدّ الناس على عثمان ، ومن أشدّهم جهادا مع علىّ عليه السلام . ثم ترك ابنُ يثربى الخطام ، وخرج يطلب المبارزة ، فاختلف فى قاتله ، فقال قوم : إن عمار بن ياسر خرج إليه والناس يسترجعون له ، لأنه كان أضعفَ من برز إليه يومئذ . أقصرهم سيفاً ، وأقصفهم رحاً ، وأحشهم^(٣) ساقاً ، حمالة سيفه من نسعة^(٤) الرّاحل ، وذُباب سيفه^(٥) قريب من إبطه . فاختلفا ضربتين ، فنشب سيف ابن يثربى فى حَجَفَةِ^(٦) عمار ، فضر به عمار على رأسه فصرعه ، ثم أخذ برجله يسحبه حتى انتهى به إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اسْتَبَقْنِي أَجَاهِدَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وأقتل منهم مثل ما قتلتُ مِنْكُمْ . فقال له علىّ عليه السلام : أبعد زيد وهند وعلباء أستبقيك ! لاها الله إذا ! قال : فادننى منك أسارك ، قال له : أنت متمرد ، وقد أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله بالمتمردين ، وذكَركَ فيهم . فقال : أما والله لو وصلتُ إليك لعضضتُ أنفَكَ عَضَّةً أَبْنَتُهُ مِنْكَ . فأمر به علىّ عليه السلام فضرِبَتْ عنقه .

-
- (١) الطاق : الشوط ، والعلق : الدم .
 (٢) عمرو بن الحَق ، يعرف بالكاهن ، صحب الرسول عليه السلام وشهد الشاهد مع على ، وقتله معاوية بالجزيرة ، وكان رأسه أول رأس صلب فى الإسلام . الاشتقاق ٤٧٤ .
 (٣) أحش الساقين : دقيقهما .
 (٤) النسع : سير ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال ، تشد به الزحال ؛ والقطعة منه نسعة .
 (٥) الذباب : حد السيف ، أو طرفه المتطرف .
 (٦) الحجفة : واحدة الحُجف ، وهى التروس من جلد أو خشب .

وقال قوم : إن عمرًا لما قَتَلَ مَنْ قَتَلَ، وأراد أن يخرج لطلب البراز ، قال للأزد: يا معشر الأزد ، إنكم قوم لكم حياء وبأس، وإنى قد وتَّرت القوم ، وهم قاتليّ، وهذه أمتكم نصرُها دين ، وخِذْلانها عقوق ، ولست أخشى أن أقتل حتى أصرع، فإن صرعت فاستنقذوني. فقالت له الأزد : مافى هذا الجمع أحد نخافه عليك إلا الأشر ، قال : فإياه أخاف .

قال أبو مخنف : فقيّضه الله له ، وقد أعلمًا جميعا ، فارتجز الأشر :

إني إذا ما الحربُ أبدت ناهيها وأغلقت يومَ الوغى أبوابها
ومزّقت من حَقِّ أثوابها كفتا قدأماها ولا أذناها^(١)
ليس العدوُّ دوننا أصحابها من هابها اليوم فلن أهابها
* لا طعننا أخشى ولا ضرابها *

ثم حمل عليه فطعنه فصرعه، وحامت عنه الأزد فاستنقذوه، فوثب وهو وقيدٌ ثقيل^(٢)، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه ، واستعرضه عبدُ الرحمن بن طود البكرى ، فطعنه فصرعه ثانية ، ووثب عليه رجل من سدوس، فأخذه مسحوبًا برجله حتى أتى به عليًا عليه السلام، فناشده الله وقال : يا أمير المؤمنين ، اعفُ عني ، فإن العرب لم تزل قائلةً عنك : إنك لم تُجهزْ على جريح قطّ . فأطلقه، وقال : اذهب حيث شئت ، فإني إلى أصحابه وهو لما به. حضره الموت ، فقالوا له : دُمك عند أيّ الناس ؟ فقال : أما الأشر فلَقَيْتَنِي وأنا كالمهر الأرن^(٣) ، فعلا حدهُ حَدِّي ، ولقيت رجلا يبتغي له عشرة أمشال . وأما البكرى فلَقَيْتَنِي ، وأنا لمسابي ، وكان يبتغي لى عشرة أمشاله ، وتولّى أسرى أضعفُ القوم ، وصاحبي الأشر .

قال أبو مخنف : فلما انكشفت الحرب، شكرت أبة عمرو بن يثربى الأزد، وعابت قومها ، فقالت :

(٢) الوقيد : الجريح الممرى على الموت .

(١) قدامى الجيش : مقدمه .

(٣) الأرن : النسيط .

يَا صَبَّاءُ إِنَّكَ قَدْ فُجِعْتِ بِفَارِسٍ حَامِي الْحَقِيقَةِ قَاتِلِ الْأَقْرَانِ
عَمْرُو بْنُ يَثْرِبٍ الَّذِي فُجِعَتْ بِهِ كُلُّ الْقَبَائِلِ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ
لَمْ يَحْمِهِ وَسْطُ الْعَجَاجَةِ قَوْمُهُ وَحَنَّتْ عَلَيْهِ الْأَزْدُ، أَزْدُ عُثْمَانَ
فَلَهُمْ عَلَىٰ بِذَلِكَ حَلِثُ نِعْمَةٍ وَلُحْبِهِمْ أَحْبَبْتُ كُلَّ يَمَانٍ
لَوْ كَانَ يَدْفَعُ عَنْ مَنِيَّةٍ هَالِكٍ طَوْلُ الْأَكْفِ بِذَابِلِ الْمُرَانِ
أَوْ مَعَشَرُهُ وَصَلُوا الْخَطَا بِسَيُوفِهِمْ وَسْطَ الْعَجَاجَةِ وَالْحَتُوفِ دَوَانٍ
مَا نِيلَ تَعْمَرُ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ حَتَّى يُنَالِ النِّجْمَ وَالْقَمَرَانِ
لَوْ غَيْرُ الْأَشْتَرِ نَالَهُ لَنَدْبَتْهُ وَبِكَيْتِهِ مَا دَامَ هَضْبُ أَبَانٍ^(١)
لَكِنَّهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِقَتْلِهِ أَسَدُ الْأَسْوَدِ وَفَارِسُ الْفُرْسَانِ

قال أبو مخنف : وبلغنا أن عبد الرحمن بن طود البكري قال لقومه : أنا والله قتلت عمرا ، وإن الأشتر كان بعدي وأنا أمامه في الصعاليك ، فطعنت عمرا طعنة لم أحسب أنها تجعل للأشتر دوني ، وإنما الأشتر ذو حظ في الحرب ، وإنه ليعلم أنه كان خلفي ، ولكن أبي الناس إلا أنه صاحبه ، ولا أرى أن أكون خصم العامة ، وإن الأشتر لأهل ألا ينازع . فلما بلغ الأشتر قوله قال : أما والله لولا أني أطفأت بجرته عنه ما دنا منه ، وما صاحبه غيري ، وإن الصيد لمن وقذه . فقال عبد الرحمن : لا أنازع فيه ، ما القول إلا ما قاله ، وأني لي أن أخالف الناس !

قال : وخرج عبد الله بن خلف الخزاعي ، وهو رئيس البصرة ، وأكثر أهلها مالا وضياعا ، فطلب البراز ، وسأل ألا يخرج إليه إلا على عليه السلام ، وارتجز فقال :
أبا تراب أدن مني فترا^(٢) فإنني دان إليك شبرا
* وإن في صدري عليك عمرا^(٣) *

(٢) كذا في ١ ، وفي ب « يا باتراب » .

(١) أبان : من أسماء الجبال عندهم .

(٣) الفمر : الحقد والمداوة .

نفرج إليه علىّ عليه السلام ، فلم يُمهله أن صرّبه ، ففلق هامته .

قالوا : استدار الجبل كما تدور الرحا ، وتكاثفت الرجال من حوله ، واشتد رُغَاؤُه ، واشتد زحام الناس عليه ، ونادى الحُفَات المجاشعيّ : أيها الناس ، أمّكم أمّكم ! واختلط الناس فضرب بعضهم بعضاً ، وتقصد أهل الكوفة قصد الجبل ؛ والرجال دونه كالجبال ، كلّما خفت قوم جاء أضعافهم . فنادى علىّ عليه السلام : ويحكم ! ارضقوا الجبل بالنبل ، اعقروه لعنه الله ! فرشق بالسهم ، فلم يبق فيه موضع إلا أصابه النبل ، وكان مجففاً^(١) فتعلقت السهام به ، فصار كالقنفذ ، ونادت الأزد وضبة : يا ثارات عثمان ! فاتخذوها شعاراً ، ونادى أصحاب علىّ عليه السلام : يا محمد ! فاتخذوها شعاراً ، واختلط الفريقان ؛ ونادى علىّ عليه السلام بشعار رسول الله صلى الله عليه وآله : يا منصور أميت^(٢) . وهذا في اليوم الثاني من أيام الجبل ، فلما دعا بها تزلزلت أقدام القوم ، وذلك وقت العصر ، بعد أن كانت الحرب من وقت الفجر .

قال الواقدي : وقد روي أن شعاره عليه السلام كان في ذلك اليوم « حَم لا ينصرون . اللهم انصرنا على القوم الناكثين » ثم تحاجز الفريقان ، والقتل فاش فيهما ، إلا أنه في أهل البصرة أكثر ، وأمارات النصر لأتجة لمسكر الكوفة ، ثم تواقفوا في اليوم الثالث ، فبرز أول الناس عبد الله بن الزبير ، ودعا إلى المبارزة ، فبرز إليه الأشتر ، فقالت عائشة : مَنْ برز إلى عبد الله ؟ قالوا : الأشتر ، فقالت : وأُسْكَل أسماء ! فضرب كل منهما صاحبه فخرجه ، ثم اعتنقا ، فصارع الأشتر عبد الله ، وقعد على صدره ، واختلط الفريقان : هؤلاء لينفذوا عبد الله ، وهؤلاء ليُعِينوا الأشتر . وكان الأشتر طاوياً ثلاثة أيام

(١) كان مجففاً ، أي ألبس التجفاف ، وهو آلة الحرب توضع على الفرس .

(٢) هو أمر بالموت ، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة ، مع حصول الغرض (النهاية لابن الأثير) .

لم يَطْعَم - وهذه عادته في الحرب - وكان أيضاً شيخاً عالى السن ، فجعل عبد الله ينادى :
* اقتلوني ومالكاً ^(١) *

فلو قال : « اقتلوني والأشتر » لقتلوا ، إلا أن أكثر من كان يمر بهما لا يعرفهما ؛
لكثرة مَنْ وقع في المعركة صرعى بعضهم فوق بعض ، وأفلت ابن الزبير مِنْ تحته ولم
يكبد ، فذلك قول الأشتر :

أعائشُ لولا أننى كُنتُ طَاوِيَا ثلاثاً لألقيتِ ابنَ أُخَيْتِكَ هَالِكَا
غداة ينادى والرجالُ تحوزهُ بأضعف صوتٍ : اقتُلُونى ومالكَا
فلَمْ يعرفوه إذ دعاهم وعمهُ خَدَبٌ عليه في العجاجة بارِكَا ^(٢)
فنجاه منى أكله وشبابه وأنى شيخٌ لم أكن متماسكا

وروى أبو مخنف عن الأصمغ بن نباتة ، قال : دخل عمار بن ياسر ومالك بن الحارث الأشتر
على عائشة بعد انقضاء أمر الجمل ، فقالت عائشة : يا عمار ، مَنْ معك ؟ قال : الأشتر .
فقالت : يا مالك ، أنت الذى صنعتَ بـابنِ أُختى ما صنعت ؟ قال : نعم ، ولولا أنى
كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحتُ أمة محمد منه ، فقالت : أما علمت أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : « لا يحل دم مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، أو زناً بعد
إحصان ، أو قتل نفس بغير حق » ! فقال الأشتر : قلى بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أم المؤمنين ،
وأيّم الله ما خاننى سبى قبلها ، ولقد أقسمت ألا يصحبني بعدها .

قال أبو مخنف : ففى ذلك يقول الأشتر من جملة هذا الشعر الذى ذكرناه :

وَقَالَتْ عَلَى أَى الْخِصَالِ صرَعْتَهُ بقتلِ أنى ، أم رِدَّةٍ لا أبَا لَكَا
أم المحصن الزانى الذى حَلَّ قتلُهُ فقلت لها لا بدّ من بعض ذلكا

* واقتُلُوا مَالِكاً مَعِى *

(٢) الحدب : الضخم .

(١) بقيته :

وانظر المسعودى ٢ : ٣٧٦

قال أبو مخنف : وانتهى الحارث بن زهير الأزدي من أصحاب علي عليه السلام إلى الجبل ، ورجل ^(١) أخذ بحيطامه ، لا يدنو منه أحد إلا قتله ، فلما رآه الحارث بن زهير مشى إليه بالسيف وارتجز ، فقال لعائشة :

يا أَمْنًا أَعَىَّ أُمَّيَّ نَعْلَمُ ^(٢) وَالْأُمَّ تَفْذُو وَلَدَهَا وَتَرْحَمُ
أَمَاتَرِينَ كَمْ شَجَاعٍ يُكَلِّمُ! وَتُخْتَلَى هَامَتُهُ وَالْمَعْصَمُ ^(٣)!
فاختلف هو والرجل ضربتين ، فكللها أثخن صاحبه .

قال جندب بن عبد الله الأزدي : فجئت حتى وقفت عليهما وما يفحصان بأرجلهما حتى ماتا . قال : فأتيت عائشة بعد ذلك أسلم عليها بالمدينة ، فقالت : مَنْ أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قالت : هل شهدتنا يوم البصرة ؟ قلت : نعم ، قالت : مع أي الفريقين ؟ قلت : مع علي ، قالت : هل سمعت مقالة الذي قال :

* يَا أَمْنًا أَعَىَّ أُمَّيَّ نَعْلَمُ *

قلت : نعم ، وأعرفه ، قالت : ومن هو ؟ قلت : ابن عم لي ، قالت : وما فعل ؟ قلت : قُتل عند الجبل ، وقُتل قاتله ، قال : فبكت حتى ظننت والله أنها لا تسبكت ، ثم قالت : لوددت والله أنني كنت ميت قبل ذلك اليوم بعشرين سنة .

قالوا : وخرج رجل من عسكر البصرة يعرف بخباب بن عمرو الراسبي ، فارتجز فقال :

أَضْرِبُهُمْ وَلَوْ أَرَى عَلِيًّا عَمَمَتُهُ أَيْبَضَ مَشْرِفِيَا
* أَرِيحُ مِنْهُ مَعْشَرًا غَوِيَا *

فصمد عليه الأشر فقتله .

ثم تقدّم عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وهو

(١) هو عمرو بن الأشرف . الطبري ٥ : ٢١١ .

(٢) ذكر الطبري رواية أخرى في هذا الرجز :

* يَا أَمْنًا يَا خَيْرَ أُمَّيَّ نَعْلَمُ *

(٣) تختلي : تقطع .

من أشرف قریش - وكان اسم سيفه « ولول » - فارتجز ، فقال :

أَنَا ابْنُ عَقَّابٍ وَسَيِّفِي وَلَوْلُ وَالْمَوْتُ دُونَ الْجَمَلِ الْجَمَلِ^(١)

فحمل عليه الأشتر فقتله . ثم خرج عبد الله بن حكيم بن حزام من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، من أشرف قریش أيضاً ، فارتجز وطلب المبارزة ، فخرج إليه الأشتر فضربه على رأسه فصرعه ، ثم قام فنجأ بنفسه .

قالوا : وأخذ خطام الجمل سبعون من قریش ، فقتلوا كلهم ، ولم يكن يأخذ بخطام الجمل أحداً إلا سالت نفسه ، أوقطعت يده . وجاءت بنو ناجية فأخذوا بخطام الجمل ، ولم يكن يأخذ الخطام أحداً إلا سالت عائشة : من هذا ؟ فسألت عنهم ، فقيل : بنو ناجية ؛ فقالت عائشة : صبراً يا بنتي ناجية ، فإني أعرف فيكم شمائل قریش . قالوا : وبنو ناجية مطعون في نسبهم^(٢) إلى قریش^(٣) ، فقتلوا حولها جميعاً .

قال أبو مخنف : وحدثنا إسحاق بن راشد عن عبد الله بن الزبير ، قال : أمسيت يوم الجمل وبني سبعة وثلاثون جرحاً ، من ضربة وطعنة ورمية ، وما رأيت مثل يوم الجمل قط ، ما كان الفريقان إلا كالجليلين لا يزولان ..

قال أبو مخنف : وقام رجل إلى علي عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ، أرى فتنة أعظم من هذه ؟ إن البدريّة ليمشي بعضها إلى بعض بالسيف ، فقال علي عليه السلام : ويحك ! أتكون فتنة أنا أميرها ، وقائدها ! والذي بعث محمداً بالحق وكرم وجهه ، ما كذبت ولا كذبت ، ولا ضللت ولا ضللت ، ولا زلت ولا زلت ، وإني لأعلى بيعة من ربّي ، بيعة الله لرسوله ، وبيعة رسوله لي ، وسأدعي يوم القيامة ولا ذنب لي ، ولو كان لي ذنب لكفر عني ذنوبي ما أنا فيه من قتالهم .

قال أبو مخنف : وحدثنا مسلم الأعور عن حبة العرني قال : فلما رأي علي عليه السلام

(١ - ٢) ساقط من ب .

(١) ب : « عند الجمل » .

أن الموتَ عند الجبل ، وأنه مادام قائماً فالحرب لا تطفأ ، وضع سيفه على عاتقه ، وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ، ومشى نحوه والخطام مع بني ضبّة ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، واستحرق القتلى في بني ضبّة ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخلّص علىّ عليه السلام في جماعة من النّخع وتمدّدان إلى الجبل ، فقال رجل من النّخع اسمه بُجَيْر : دونك الجبل يا بُجَيْر ، فضرب عَجَز الجبل بسيفه فوق لجنبه ، وضرب بجِرائه الأرض ، وعجّ عجيجا لم يُسمع بأشدّ منه ، فما هو إلا أن صرّع الجبل حتى فرّبت الرجال ، كما يطير الجراد في الريح الشديدة المهبوب ، واحتملت عائشة بهودجها ، فحُمِلت إلى دار عبد الله بن خلف ، وأمر علىّ عليه السلام بالجبل أن يُحرق ثم يذرّى في الريح . وقال عليه السلام : لعنه الله من دابة ! فما أشبهه بعجل بني إسرائيل ، ثم قرأ : ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (١) .

(١٤)

الأضل:

ومن كلام له عليه السلام في مثل ذلك :

أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنْ الْمَاءِ ، بَعِيدَةٌ مِنْ السَّمَاءِ . خَفَّتْ عُقُولُكُمْ ، وَسَفِهَتْ
حُلُومُكُمْ ؛ فَأَنْتُمْ غَرَضُ لِنَابِلٍ ، وَأَكَلَةُ لَأَكِلٍ ، وَفَرِيسَةُ لِبَاصِلٍ .

الشنخ :

الغَرَضُ : ما يُنْصَبُ لِيُرْمَى بالسهم . والنَّابِلُ : ذو النبل . والأَكَلَةُ ، بضم الهمزة :
المأكل . وفريسة الأسد : ما يفترسه .

وسَفِهَ فلان ، بالكسر ، أى صار سفيها ، وسَفِهَ بالضم أيضا . فإذا قلت : سَفِهَ فلان
رأيه أو حلمه أو نفسه ، لم تقل إلا بالكسر ، لأنَّ « فَعَلَ » بالضم لا يتعدى . وقولهم :
سَفِهَ فلان نفسه ، وَغَيْنَ رأيه ، وَبَطَرَ عَيْشَهُ ، وَأَلَمَ بطنه ، وَرَفِقَ حاله ، وَرَشِدَ أمره ،
كان الأصل فيه كله : سَفِهَتْ نفس زيد فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بالمفعولية .
هذا مذهب البصريين والكسائيّ من الكوفيين .

وقال الفراء : لما حوّل الفعل إلى الرجل خرج ما بعده مفسّرا ليدلّ على أن السفاهة
فيه ، وكان حكمه أن يكون : سَفِهَ زيدٌ نفسا ، لأنّ المفسّر لا يكون إلا نكرة ، ولكنّه
ترك على إضافته ، ونُصِبَ كمنصب النكرة ، تشبيها بها .

ويجوز عند البصريين والكسائيّ تقديم المنصوب ، كما يجوز : ضرب غلامه زيد ،
وعند الفراء لا يجوز تقديمه ، لأنّ المفسّر لا يتقدّم ^(١) .

فأما قوله : « أرضكم قريبة من الماء ، بعيدة من السماء » فقد قدّمنا^(١) معنى قوله « قريبة من الماء » وذكرنا غرقها من بحر فارس دَفْعَتَيْن ، ومراده عليه السلام بقوله : « قريبة من الماء » ، أى قريبة من الغرق بالماء . وأما « بعيدة من السماء » ؛ فإنّ أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أنّ أبعد موضع في الأرض عن السماء الأُبلّة^(٢) ، وذلك موافق لقوله عليه السلام .

ومعنى البعد عن السماء هنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع ، والبلاد تختلف في ذلك . وقد دلّت الأرصاد والآلات النجومية على أنّ أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الأُبلّة ، والأُبلّة هي قصبة البصرة . وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السّلام ، لأنّه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب ، ولا تهتدى إليه ، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء . وهذا من أسرارهِ وغرائبهِ البديعة .

(١) ص ٢٥٣ من هذا الجزء .

(٢) الأُبلّة بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها : بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى ، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ؛ وهي أقدم من البصرة . مراد الاطلاع ١ : ١٨ .

(١٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام فيما رده على المسلمين من قطائع عمان رضى الله عنه :
وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ ، وَمَلَكَ بِهِ الْإِمَاءَ ؛ لَرَدَدْتُهُ ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ
سَعَةً . وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ ، فَالْجُورُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ .

الشرح :

القطائع : ما يقطعه الإمام بعض الرعية من أرض بيت المال ذات الخراج ، ويسقط
عنه خراجها ، ويجعلها عايه ضريبة يسيرة عوضا عن الخراج . وقد كان عمان أقطع كثيرا
من بنى أمية وغيرهم من أوليائه وأصحابه قطائع من أرض الخراج على هذه الصورة ، وقد كان
عمرُ أقطع قطائع ؛ ولكن لأرباب الغناء في الحرب والآثار المشهورة في الجهاد ؛ فعَلَ ذلك
تمنّا عما بذلوه من مُهجّهم في طاعة الله سبحانه ، وعثمان أقطع القطائع صلة لرحمه ، وميلا
إلى أصحابه ، عن غير عناء في الحرب ولا أثر .

وهذه الخطبة ذكرها الكلبي مروية مرفوعة إلى أبي صالح ، عن ابن عباس رضى الله
عنهما : أَنَّ عليا عليه السلام خَطَبَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ بَيْعَتِهِ بِالْمَدِينَةِ ، فَقَالَ :
أَلَا إِنَّ كُلَّ قَطِيعَةٍ أَطْعَمَهَا عُثْمَانُ ، وَكُلَّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ ، فَهُوَ مَرْدُودٌ فِي
بَيْتِ الْمَالِ ، فَإِنَّ الْحَقَّ الْقَدِيمَ لَا يُبْطَلُ شَيْءٌ ، وَلَوْ وَجَدْتُهُ وَقَدْ ^(١) تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ ،
وَفُرِّقَ فِي الْبُلْدَانِ ، لَرَدَدْتُهُ إِلَى حَالِهِ ^(٢) ؛ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً ، وَمَنْ ضَاقَ عَنْهُ الْحَقُّ فَالْجُورُ
عَلَيْهِ أَضْيَقُ .

(٢) ب : « على حاله » .

(١) ب : « قد » .

وتفسيرُ هذا الكلام أن الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في العدل ، فهي في الجور أضيق عليه ؛ لأن الجائر في مظنة أن يُمنع ويُصد عن جوره .

قال الكلبي : ثم أمر عليه السلام بكل سلاح وُجد لعثمان في داره مما تقوى به على المسامين فقبض ، وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة ، فقبضت ، وأمر بقبض سيفه ودرعه ، وأمر ألا يعرض سلاح وُجد له لم يقاتل به المسامون ، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره ، وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها .

فبلغ ذلك عمرو بن العاص ، وكان بأيلة من أرض الشام ، أتاه حيث وثب الناس على عثمان ، فنزلها فكتب إلى معاوية : ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قسرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقسّر عن العصا ليحاهها .

وقال الوليد بن عتبة - وهو أخو عثمان من أمه - يذكر قبض علي عليه السلام بنجائب عثمان وسيفه وسلاحه (١) :

وَلَا تُنْهِيُوهُ لَا تَحِلُّ مِنْهُ	بَنِي هَاشِمٍ رُدُّوا سِلَاحَ ابْنِ أَخِيكُمْ
وَعِنْدَ عَلِيٍّ دِرْعُهُ وَنَجَائِبُهُ	بَنِي هَاشِمٍ كَيْفَ الْهَوَادَّةُ بَيْنَنَا
وَبَزَّ ابْنُ أَرْوَى فِيكُمْ وَحَرَّائِبُهُ (٢)	بَنِي هَاشِمٍ كَيْفَ التَّوَدُّدُ مِنْكُمْ
سِوَاءَ عَلَيْنَا قَاتِلَاهُ وَسَالِبُهُ	بَنِي هَاشِمٍ إِلَّا تَرُدُّوا فَإِنَّنَا
كَصَدِّعِ الصِّفَا لَا يَشْعَبُ الصَّدْعُ شَاعِبُهُ	بَنِي هَاشِمٍ إِنَّا وَمَا كَانَ مِنْكُمْ
كَمَا غَدَرْتُ يَوْمًا بِكِسْرَى مَرَايِبُهُ (٣)	فَقَتَلْتُمْ أَخِي كَيْمَا تَكُونُوا مَكَانَهُ

(١) الأبيات في السعدى ٢ : ٣٥٦ ؛ والأغاني ٤ : ١٧٥ (ساسى) ، والكامل ٣ : ٢٨ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .

(٢) البز : مناع البيت من الثياب . والحرائب : جمع حريبة ؛ وهو مال الرجل الذى يقوم به أمره ؛ ورواية البيت في السعدى :

بَنِي هَاشِمٍ كَيْفَ الْهَوَادَّةُ بَيْنَنَا وَسَيْفُ ابْنِ أَرْوَى عِنْدَكُمْ وَحَرَّائِبُهُ
(٣) رواية السعدى :

* غَدَرْتُمْ بِدِ كَيْمَا تَكُونُوا مَكَانَهُ *

فأجابه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بأبيات طويلة^(١) من جملتها:
 فَلَا تَسْأَلُونَا سَيْفَكُمْ إِنَّا سَيْفُكُمْ أَضِيعُ وَالْقَاهُ لَدَى الرَّوْعِ صَاحِبُهُ
 وَشَبَّهَتْهُ كِسْرَى وَقَدْ كَانَ مِثْلَهُ شَبِيهَا بِكِسْرَى هَدْيُهُ وَضَرَائِبُهُ
 أى كان كافرا كما كان كسرى كافرا .
 وكان المنصور رحمه الله تعالى إذا أنشد هذا الشعر^(٢) يقول : لعن الله الوليد ! هو الذى
 فرّق بين بنى عبد مناف بهذا الشعر !

(١) نسبها المسعودى وصاحب الأغاني إلى الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب .

(٢) ب : « البيت » .

(١٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام لما بويع بالمدينة :

ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةً ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ . إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعَبْرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثَلَاتِ ، حَاجَزَتْهُ النَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ . أَلَا وَإِنْ بَلَّيْتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهِ^(١) . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبْلَى لِبَلَّةٍ ، وَلَتُفْرَبُنَّ غُرَبَلَةً ، وَلَتُسَاطِنَنَّ سَوَاطِنَ الْقَدْرِ ؛ حَتَّى يَمُودَ أَسْفَلُكُمْ أَغْلَاكُمْ ، وَأَغْلَاكُمْ أَسْفَلُكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا اقْصَرُوا ، وَلَيَقْصُرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا .
وَاللَّهِ مَا كَتَمْتُ وَشَمَّةً ، وَلَا كَذَبْتُ كَذَبَةً ، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْقَامِ . وَهَذَا الْيَوْمِ .

أَلَا وَإِنْ أَلْخَطَابَا خَيْلُ شَمْسٍ حُلَّ عَلَيَهَا أَهْلُهَا ، وَخُلِعَتْ لُجْمُهَا ، فَتَقَحَّحَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ .

أَلَا وَإِنَّ النَّقْوَى مَطَابَا ذُلٌّ ، حُلَّ عَلَيَهَا أَهْلُهَا ، وَأَعْطُوا أَرْمَتَهَا ، فَأَوْرَدَتْهُمْ الْجَنَّةَ . حَقٌّ وَبَاطِلٌ ، وَلِكُلِّ أَهْلٍ ، فَلَا تَنْ أَمْرَ الْبَاطِلِ لَقَدِيمًا فَعَلَّ ، وَلَئِنْ قُلَّ الْحَقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ ؛ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ .

^(٢) قال الرضى عليه السلام : « وأقول : إن في هذا الكلام الأذنى من مواقع

(١) كذا في ١ ومخطوطة النهج ، وفي ب : « نبهم » .

(٢ - ٢) ساقط من ب

الْإِحْسَانَ مَا لَا تَبْلُغُهُ مَوَاقِعُ الاسْتِحْسَانِ . وَإِنَّ حَظَّ الْعَجَبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ حَظِّ الْعُجْبِ بِهِ ، وَفِيهِ مَعَ الْحَالِ الَّتِي وَصَفْنَا ^(١) زَوَائِدَ مِنَ الْفَصَاحَةِ لَا يَقُومُ بِهَا لِسَانٌ ، وَلَا يَطْلُعُ فَجَّهَا ^(٢) إِنْسَانٌ ، وَلَا يَعْرِفُ مَا أَقُولُ إِلَّا مَنْ ضَرَبَ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ بِحَقٍّ ، وَجَرَى فِيهَا عَلَى عِرْقٍ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

ومن هذه الخطبة :

شُعِلَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ . سَاعِجٌ سَرِيعٌ نَجَا ، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا ، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى .
الْيَمِينُ وَالشَّمَالُ مَضَلَّةٌ ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ ، عَلَيْهَا بَاقِي ^(٣) الْكِتَابِ .
وَأَثَارُ الذُّبُورَةِ ، وَمِنْهَا مَنَعْدُ السُّنَّةِ ، وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ .
هَلَكَ مَنْ أَدَّعَى ، وَخَابَ مَنْ أَفْتَرَى .
مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ عِنْدَ جَهْلَةِ النَّاسِ . وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا إِلَّا يَعْرِفَ قَدْرَهُ .

لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنَخُ أَصْلٍ ، وَلَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ ؛ فَاسْتَبْرُوا فِي بُيُوتِكُمْ ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلَا يَحْمَدُ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَلْمُ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَهُ .

(١) مخطوطة النهج : « وصفناه » .

(٢) الفج : الطريق الواسع بين جبلي ، وطلم الطريق : بلغه .

(٣) مخطوطة النهج : « مافي الكتاب » .

الشَّرْحُ :

الدِّمَّةُ : العقد والعهد ، يقول : هذا الدِّينُ في ذِمَّتِي ، كقولك : في عنقي ؛ وها كناية عن الالتزام والضمان والتقلد . والزَّعِيمُ : الكفيل ، ومخرج الكلام لهم مخرج الترغيب في سماع ما يقوله ، كما يقول المهتمُّ بإيضاح أمر لقوم لهم : أنا المذْركُ المتقلدُ بصدق ما أقوله لكم . وصرّحت : كَشَفْتُ . والعَبْرُ : جمع عِبْرَةٍ ، وهى الموعظة . والمثَلات : العقوبات . وحَجَرَه : منعه . وقوله : « لَتَبْلَبَنَّ » أى لَتُخْلَطَنَّ ، تلبلت الألسن ، أى اختلطت . « وَلَتَغْرَبَنَّ » ، يجوز أن يكون من الغرْبَال الذى يُغْرَبُ به الدقيق ، ويجوز أن يكون من غَرَبْتُ اللحم ، أى قطعته . فإن كان الأول كان له معنيان : أحدهما الاختلاط ، كالتبليط ، لأن غرلة الدقيق تخلط ببعضه ببعض . والثانى أن يريد بذلك أنه يستخلصُ الصالح منكم من الفاسد ، ويَتَمَيَّزُ كما يَتَمَيَّزُ الدقيق عند الغرْبلة من نُخالته .

وتقول : ما عصيت فلاناً وشمة ، أى كلمة . وحِصان شَموس : يمنع ظهوره ، شَمَسُ الفرسُ ، بالفتح ، وبه شِماس . وأَمَرَ الباطل : كَثُرَ .

وقوله : « لَتَقْدِمَا فَعَلَ » ، أى لَتَقْدِمَا فَعَلَ الباطل ذلك ، ونَسَبَ الفعل إلى الباطل مجازاً . ويجوز أن يكون « فَعَلَ » بمعنى « انْفَعَلَ » كقوله (١) :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهُ فَجَبَرَ *

أى فأنجَبَرَ . والسِّنْخُ : الأصل ، وقوله : « سِنْخُ أَصْل » كقوله (٢) :

* إِذَا حَاصَ عَيْنِيهِ كَرَى النُّومِ . . . *

وفى بعض الروايات : « من أبدى صفحته للحق هلك عند جهلة الناس » ، والتأويل مختلف ، فمراده على الرواية الأولى - وهى الصحيحة - مَنْ كَاشَفَ الْحَقَّ مَخَاصِمًا لَهُ هَلَكَ ،

(١) مطلع أرجوزة للمعاج ، ديوانه ١٥ ، واللسان ٥ : ١٨٥ .

(٢) لتأبط شراً ، والبيت برواية أبى تمام فى الحماسة - بشرح المرزوقى ١ : ٩٧ .

إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالى من قلب شينان فانك

وهي كلمة جارية تجرّى المثل . ومراده على الرواية : الثانية : مَنْ أبدى صفحته لنصرة الحق غلبه أهل الجهل - لأنهم العامة ، وفيهم الكثرة - فهلك .

وهذه الخطبة من جلائل خطبه عليه السلام ومن مشهوراتها ، قد رواها الناس كلهم ، وفيها زيادات حذفها الرضى ، إما اختصاراً أو خوفاً من إيجاش السامعين ، وقد ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب " البيان والتبيين " ، ^(١) على وجهها ، ورواها عن أبي عبيدة معمر بن المثنى .

قال : أوّل خطبة خطبها أمير المؤمنين على عليه السلام بالمدينة في خلافته ^(٢) حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ^(٣) ، ثم قال :
ألا لا يُرعى ^(٤) مُرعى إلا على نفسه . شغل من الجنة والنار أمامه ^(٥) . ساع يجتهد [ينجو] ^(٥) ، وطالب يرجو ، ومقصر في النار ^(٦) ؛ ثلاثة . واثنان : ملك طار بجنائحه ، ونبي أخذ الله بيده ^(٧) ؛ لا سادس . هلك من ادعى ، وردى من اقتحم ^(٨) . اليمين والشمال مضلّة ، والوسطى الجادة ^(٩) ؛ منهج عليه باقى الكتاب والسنة وآثار النبوة . إن الله داوى هذه الأمة بدوائن : الوسط والسيف ؛ لا هودة عند الإمام فيهما . استتروا في بيوتكم ^(١٠) ، وأصلحوا ذات بينكم ^(١١) ، والتوبة من ورائكم . من أبدى صفحته

(١) البيان والتبيين (٢ : ٥٠ - ٥٢) ، ورواها أيضاً ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢ : ٢٣٦) .

(٢ - ٢) البيان : « أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه » .

(٣) البيان : « أما بعد فلا يرعى » .

(٤) في البيان : « فإن من أرعى على غير نفسه شغل عن الجنة والنار أمامه » .

(٥) تسكلمة من البيان والتبيين .

(٦) عند ابن قتيبة في العيون : « ساع سريع نجما ، وطالب بطى ، رجا ، ومقصر في النار هوى » .

(٧) البيان والعيون : « بيده » . (٨) البيان : « فإن اليمين » .

(٩) الجادة : الطريق الواضح .

(١٠) البيان : « استتروا بيوتكم » ، والعيون : « فاستتروا بيوتكم » .

(١١) البيان : « وأصلحوا فيما بينكم » .

للحق هلك . قد كانت [لكم] ^(١) أمور [مِلْتَمُ فيها على مَيْلَةٍ] ^(٢) لم تكونوا عندي فيها محمودين ^(٣) [ولا مُصِيبِينَ] ^(٤) . أما إني لو أشاء لقلتُ، عفا الله عما سلف . سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب هَمَّتُهُ بَطْنُهُ . ويحهُ ^(٥) لو قُصَّ جَنَاحُهُ ، وقُطِعَ رأسه لكان خيرا له ! انظروا فإن أنكرتم فأنكروا ، وإن عرفتم فآزرُوا . حَقٌّ وباطل ، ولكلٍ أهل . ولئن أَمَرَ الباطلُ لَقَدِيمًا فَعَلَ ، ولئن ^(٦) قُلَّ الحقُّ لَرُبَّمَا وَلَعَلَّ ، وَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ ^(٧) . ولئن رَجَعْتَ إليكم أموركم إنكم لسعداء ، وإني لأخشى أن تكونوا في فِتْرَةٍ ، وما علينا إلا الاجتهاد .

قال شيخنا أبو عثمان رحمه الله تعالى : وقال أبو عبيدة : وزاد ^(٨) فيها في رواية جعفر ابن محمد عليهما السلام عن آبائهما عليهم السلام ^(٩) :

ألا إن أبرار عِزَّتِي ، وأطايِبَ أَرْوَمَتِي ، أحلم الناس صفارا ، وأعلم الناس كبارا . ألا وإننا أهل بيت من علم الله علمنا ، وبحكم الله حَكَمْنَا ، ومن قولٍ صادقٍ سَمِعْنَا ، فإن تَتَّبِعُوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ، وإن لم تفعلوا يَهْدِكُمْ اللهُ بأيدينا . ومعنا راية الحق ؛ مَنْ تَبِعَهَا لِحَقٍّ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا غَرِقَ . ألا وبنا يُذَرِّكُ تِرَةً كل مؤمن ، وبنا تخلع رِبْقَةُ الذِّلِّ عن أعناقكم ^(١٠) وبنا فُتِّحَ ^(١١) لا بكم ، ومنا يُخْتَمُ لا بكم .

قوله : « لا يُرْعَيْنَ » أي لا يبين ، أُرْعِيْتُ عليه ، أي أبقيت ؛ يقول : مَنْ أبقى على الناس فإنما أبقى على نفسه . والهوادة : الرفق والصلح ، وأصله اللين . والتهويد : المشي ،

(١) تكملة من البيان والتبيين .

(٢) البيان : « محمودين » .

(٣) ب : « وإن » .

(٤) (٦ - ٦) البيان : « وروى فيها جعفر بن محمد » .

(٥) (٧) البيان : « من أعناقكم » .

(٦) (٨) ا ، البيان : « فتج الله » .

(٣) البيان : « يا ويحه » .

(٥) البيان : « ما أدبر شيء فأقبل » .

رويدا ، وفي الحديث : «أسرعوا المشى في الجنائز ولا تهودوا ككاهن أهل الكتاب» .
وَأَزْرَتْ زَيْدًا : أَعْنَتَهُ .. التَّزَّة : والوتر . والرَّبَقَة : الحبل يُجْعَل في عُنُق الشَّاة . وَرَدِيَّ :
هَلَك ، من الرَّدَى ، كَقَوْلِكَ : عَمِيَ مِنَ الْعَمَى ، وَشَجِيَ مِنَ الشَّجَى .

وقوله : «شُغِلَ مَنْ الجَنَّة والنَّار أَمَامَهُ» ؛ يريدُ به أن مَنْ كَانَتْ هَاتَانِ الدَّارَانِ
أَمَامَهُ كَانِي شُغْلٍ عَنْ أُمُور الدُّنْيَا إِنْ كَانَ رَشِيدًا .

وقوله : «سَاعٍ مَجْتَهِدٍ» إِلَى قَوْلِهِ : «لَا سَادِس» كَلَامٌ تَقْدِيرُهُ : الْمَكْلَفُونَ عَلَى
خَمْسَةِ أَقْسَامٍ : سَاعٍ مَجْتَهِدٍ ، وَطَالِبٍ رَانِجٍ ، وَمَقْصَرٍ هَالِكٍ . ثُمَّ قَالَ : ثَلَاثَةٌ ، أَيْ فَمَثُلَاءِ
ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ، وَهَذَا يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ : «ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ
عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ» (١) ،
ثُمَّ ذَكَرَ الْقِسْمَيْنِ : الرَّابِعَ وَالْخَامِسَ ، فَقَالَ : هَا مَلَأْتُ طَارِ بِجَنَاحِيهِ ، وَنَبِيٌّ أَخَذَ اللَّهُ بِيَدِهِ ؛
يُرِيدُ عِصْمَةَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْقُبُوحِ ، ثُمَّ قَالَ : «لَا سَادِس» ، أَيْ لَمْ يَبْقَ فِي الْمَكْلَفِينَ
قِسْمٌ سَادِسٌ . وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْعِصْمَةَ لَيْسَتْ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَلَوْ كَانَ الْإِمَامُ
يُجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا لَكَانَ قِسْمًا سَادِسًا ، فَإِذْنٌ قَدْ شَهِدَ هَذَا الْكَلَامُ بِصَحَّةِ مَا يَقُولُهُ
الْمُعْتَزِلَةُ فِي نَفْيِ اشْتِرَاطِ الْعِصْمَةِ فِي الْإِمَامَةِ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ دَاخِلًا فِي الْقِسْمِ
الْأَوَّلِ ، وَهُوَ السَّاعِي الْمَجْتَهِدُ . وَفِيهِ بَعْدُ وَضَعْفٌ .

وقوله : «هَلَكَ مَنْ ادَّعَى ، وَرَدِيَّ مَنْ اقْتَحَمَ» ، يريدُ هَلَكَ مَنْ ادَّعَى وَكَذَبَ ،
لَا بَدَّ مِنْ تَقْدِيرِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَى تَعْمُ الصَّدْقَ وَالْكَذْبَ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ : هَلَكَ مَنْ ادَّعَى
الْإِمَامَةَ ، وَرَدِيَّ مَنْ اقْتَحَمَهَا وَوَجَّهَهَا عَنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ
الْخُطْبَةِ ، كُلُّهُ كُنَايَاتٌ عَنِ الْإِمَامَةِ لَا عَنْ غَيْرِهَا .

وقوله : « اليمين والشمال » ، مثال لأن السالك الطريق أَلْمَهَبِجَ اللاحب ناجٍ ، والعادل عنها يميناً وشمالاً مُعَرَّضٌ للخطر .

ونحو هذا الكلام مارُوي عن عمر ، أنه لما صدر عن مِنى في السنة التي قتل فيها ، كَوْمُ كَوْمَةٍ مِنَ الْبَطْحَاءِ ^(١) فقام عليها ، فخطب الناس ، فقال : أيها الناس ، قد سُنَّتْ لَكُمْ السِّنُّ ، وفُرِضَتْ لَكُمْ الفرائضُ ، وتُرَكِّمُ عَلَى الواضحة ، إِلَّا أَنْ تَمِيلُوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ^(٢) ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا إِنَّهُمَا نَجْدَا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ؛ فَمَا جَعَلَ نَجْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ نَجْدِ الْخَيْرِ .

[من كلام للحجاج وزياذ نسجاً فيه على منوال كلام علي]

وقوله : « إِنْ اللَّهَ دَاوَى هَذِهِ الْأُمَّةَ بِدَوَاءِ بْنِ » . كلام شريف ، وعلى منواله نسج الحجاج وزياذ كلامهما المذكور فيه السوط والسيف . فمن ذلك قول الحجاج ^(٣) :
مَنْ أَعْيَاه دَاوَاهُ فَعَلَى دَوَاوِهِ ، وَمَنْ اسْتَبْطَأَ أَجَلَهُ فَعَلَى أَنْ أَعْبَلَهُ ، وَمَنْ اسْتَنْقَلَ رَأْسَهُ وَضَعَتْ عَنْهُ ثِقَلَهُ ، وَمَنْ اسْتَطَالَ مَاضِيَ عَمْرِهِ قَصُرَتْ عَلَيْهِ بَاقِيهِ . إِنْ لِلشَّيْطَانِ طَيْفًا ، وَإِنْ لِلسُّلْطَانِ سَيْفًا ، فَمَنْ سَقَمَتْ سَرِيرَتُهُ ، صَحَّتْ عَقُوبَتُهُ ، وَمَنْ وَضَعَهُ ذَنْبُهُ ، رَفَعَهُ صَلْبُهُ ، وَمَنْ لَمْ تَسْعِهِ الْعَافِيَةُ ، لَمْ تَضِقْ عَنْهُ الْهَلَسَكَةُ ؛ وَمَنْ سَبَقَتْهُ بَادِرَةٌ فِيمَ ، سَبَقَ بِدَنَاهُ سَفْكُ دَمِهِ . إِنْ لِي أَنْزِدَ ثُمَّ لَا أَنْظِرَ ، وَأَحْذَرُ ثُمَّ لَا أَعْذِرُ ، وَأَتَوَعَّدُ ثُمَّ لَا أَعْفِرُ ؛ إِنَّمَا أَفْسَدَكُمْ ^(٤) تَرْقِيقُ وَلَا تَسْكُمُ . وَمَنْ اسْتَخَى لِبَيْتِهِ ^(٥) ، سَاءَ أَدْبُهُ . إِنْ الْحَزْمَ وَالْعَزْمَ سَلَبَانِي

(١) البطحاء : التراب السهل مما جرت به السيول .

(٢) سورة البلد ٨ - ١٠ .

(٣) نهاية الأرب ٧ : ٢٢٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، سرح العيون ١٨٤ .

(٤) في صبح الأعشى : « ترقيق » ، والترقيق : الضعف في الأمر .

(٥) اللب : ما يشد في صدر الدابة لينع استئخار الرحل ؛ يريد أن الموادة واللبن لما يفسد الرعية و

سوطى ،^(١) وجعلنا سوطى سيفى^(٢) ، فقامته فى يدي ، وبجأده^(٣) فى عنقى ، وذبابه^(٤) فإلادة^(٥) لمن عصانى . والله لا أمر أحد أن يخرج من^(٦) باب من^(٧) أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه .

ومن ذلك قول زياد :

إنما هو زجر بالقول ، ثم ضرب بالسوط ، ثم الثالثة التى لا شوى^(٨) لها . فلا يكونن لسان أحدكم شفرة^(٩) تجرى على أوداجه^(١٠) ، وليعلم إذا خلا بنفسه أنى قد حملت سيفى بيده ؛ فإن شهره لم أغمده ، وإن أغمده لم أشهره .

وقوله عليه السلام : « كالغراب » يعنى الحرص والجشع ، والغراب يقع على الجيفة ، ويقع على التمرة ، ويقع على الحبة ؛ وفى الأمثال : « أجشع من غراب » ، و « أحرص من غراب » .

وقوله : « ويحه لوقص » ، يريد لو كان قتل أو مات قبل أن يتلبس بالخلافة لكان خيرا له من أن يعيش ويدخل فيها . ثم قال لهم : أفكروا فيما قد قلت ، فإن كان منسكرا فأنكروه ، وإن كان حقا فأعينوا عليه .

وقوله : « استتروا فى بيوتكم » نهى لهم عن العصبية^(١١) والاجتماع والتحزب ، فقد كان قوم بعد قتل عثمان تسكلموا فى قتله من شيعة بنى أمية بالمدينة .

(١ - ١) صبح الأعشى : « وأبدلانى به سبنى » . (٢) النجاد : علاقة السيف .
(٣) ذباب السيف : حده .
(٤ - ٤) ساقط من ب ، وهو فى وصح الأعشى .
(٥) لا شوى لها ، أى لا خطأ لها ، أو لا براء ؛ ومنه قول الحكيم :

أَجِيبُوا رُقَى الْأَسَى الْنَطَاسِيَّ وَأَحْذَرُوا مُطَفَّئَةَ الرَّضْفِ الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

(٦) الشفرة : السكين العظيم ، أو ماعرض من الحديد وحدد .

(٧) الأوداج : عروق العنق .

(٨) ١ : « المعصية » .

وأما قوله : « قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها محمودين » ، فمراده أمرُ عثمان وتقديمه في الخلافة عليه . ومن الناس مَنْ يحملُ ذلك على خلافة الشيخين أيضاً . وبعدهُ عندي أن يكونَ أرادَه ، لأنَّ المدة قد كانت طالَتْ ، ولم يَبْقَ مَنْ يعاتبه ليقول : قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها محمودين ، فإنَّ هذا الكلام يُشعر بمعاتبة قوم على أمر كان أنكره منهم . وأما بيعة عثمان ، ثمَّ ما جرى بينه وبين عثمان من منازعاتٍ طويلة ، وغضب تارة ، وصُلحٍ أخرى ، ومراسلاتٍ خُشمة ولطيفة ، وكون الناس بالمدينة كانوا حزينين وفثنين : إحداهما معه عليه السلام ، والأخرى مع عثمان ؛ فإنَّ^(١) صرَف الكلام إلى ما قلناه بهذا الاعتبار أليق .

ولسنا نمنع من أن يكون في كلامه عليه السلام الكثير من التوجّد والتألّم لصرف الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله عنه ؛ وإنما كلامنا الآن في هذه اللفظات التي في هذه الخطبة ؛ على أن قوله عليه السلام : « سبق الرجال » والاقتصار على ذلك فيه كفاية في انحرافه عنهما .

وأما قوله : « حق وباطل . . . » إلى آخر الفصل ، فعناه كلُّ أمر فهو إما حقٌّ وإما باطل ، ولكلٍّ واحدٍ من هذين أهلٌ ، وما زال أهل الباطل أكثر من أهل الحق ؛ ولئن كان الحق قليلاً لربّما كثر ، ولعله ينتصر أهله .

ثم قال على سبيل التضجر بنفسه : « ولما أدبر شيء فأقبل » ، استبعد عليه السلام أن تعود دولة قوم بعد زوالها عنهم ؛ وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر في قوله :

وَقَالُوا يَعُودُ الْمَاءُ فِي النَّهْرِ بَعْدَ مَا ذَوَى نَبْتِ جَنْبَيْهِ وَجَفَّ الْمَشَارِعُ
فَقُلْتُ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ النَّهْرُ جَارِيًا وَيُعْشِبَ جَنْبَاهُ تَمُوتُ الضَّفَادِعُ

ثم قال : « ولئن رجعت عليكم أموركم » أى إن ساعدنى الوقت ، وتمكنت من أن أحكم فيكم بحكم الله تعالى ورسوله ، وعادت إليكم أيام شبيبة نأيا من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسيرة مماثلة لسيرته في أصحابه ؛ إنكم لسعداء .

ثم قال : « وإنى لأخشى أن تكونوا في فترة » ، الفترة هى الأزمنة التى بين الأنبياء . إذا انقطعت الرسل فيها ؛ كالفترة التى بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله ، لأنه لم يكن بينهما نبي ، بخلاف المدة التى كانت بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأنه بُعث فيها أنبياء كثيرون ، فيقول عليه السلام : إني لأخشى ألا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم ، فتكونوا كالأمم الذين فى أزمنة الفترة لا يرجعون إلى نبي يشافهمهم بالشرائع والأحكام ؛ وكأنه عليه السلام قد كان يعلم أن الأمر سيضطرب عليه .

ثم قال : « وما علينا إلا الاجتهاد » ، يقول : أنا أعمل بما يجب علىّ من الاجتهاد^(١) فى القيام بالشرعية وعزل ولادة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين ، فإن تم ما أريد فذاك ، وإلا كنت قد أعذرت .

وأما التهمة المزوية عن جعفر بن محمد عليهما السلام فواضحة الألفاظ ، وقوله فى آخرها : « وبنا تحتم لا بسكم » إشارة إلى المهدي الذى يظهر فى آخر الزمان . وأكثر الحديثين على أنه من ولد فاطمة عليها السلام . وأصحابنا المعتزلة لا ينكرونه ، وقد صرحوا بذكره فى كتبهم ، واعترف به شيوخهم ، إلا أنه عندنا لم يُخلق بعد ، وسيخلق .

وإلى هذا المذهب يذهب أصحاب الحديث أيضاً .

وروى قاضى القضاة رحمه الله تعالى عن كافى الكفاة أبى القاسم إسماعيل بن عباد

رحمه الله بإسناد متصل بعليّ عليه السلام أنّه ذكر المهديّ ، وقال : إنه من ولد الحسين عليه السلام ، وذكر حليته^(١) ، فقال رجل : أجلى الجبين ، أفنى الأنف ، ضمّ البطن ، أزيل^(٢) الفخذين ، أبلغ الثنايا ، بفضذه اليمنى شامة ... وذكر هذا الحديث بعينه عبد الله بن قتيبة في كتاب ” غريب الحديث “ .



(١) الحلية هنا : الصفة .

(٢) الزيل ، محرّكة : تباعد ما بين الفخذين ، وهو زيل .

(١٧)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس
لذلك بأهل :

إِنَّ أَبْغَضَ الْخَلَائِقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رَجُلَانِ :

رَجُلٌ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ ؛ فَهُوَ جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، مَشْغُوفٌ بِكَلَامِ
بِدْعَةٍ ، وَدُعَاءِ ضَلَالَةٍ ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ افْتَتَنَ بِهِ ، ضَالٌّ عَنْ هُدًى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ،
مُضِلٌّ لِمَنْ أَفْنَدَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . سَحَالٌ خَطَايَا غَيْرِهِ ، رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ .

وَرَجُلٌ قَمَشَ جَهْلًا ، مُوَضِّعٌ فِي جُهَالِ الْأُمَّةِ ، عَادٍ^(١) فِي أَغْبَاشِ الْفِتْنَةِ ، عَمٍ بِمَا
فِي عَقْدِ الْهُدَنَةِ ، قَدْ سَمَّاهُ أَشْبَاهُ النَّاسِ عَالِمًا ؛ وَلَيْسَ بِهِ . بَكَّرَ فَاسْتَكْثَرَ مِنْ
جَمْعٍ ، مَا قَلَّ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَى مِنْ آجِنٍ ، وَاسْتَنْزَلَ مِنْ غَيْرِ طَائِلٍ .
جَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا ، ضَامِنًا لِتَخْلِيصِ مَا التَّبَسَّ عَلَى غَيْرِهِ . فَإِنْ نَزَلَتْ بِهِ إِحْدَى
الْمُجْهَمَاتِ ؛ هَيَّأَ لَهَا حَشَوًا رَثًا مِنْ رَأْيِهِ ، ثُمَّ قَطَعَ بِهِ . فَهُوَ مِنْ لَبْسِ الشُّبُهَاتِ فِي
مِثْلِ نَسِجِ الْعَنْكَبُوتِ ، لَا يَذَرِي أَصَابَ أَمْ أَخْطَأَ ، فَإِنْ أَصَابَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ
أَخْطَأَ ، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجَا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ . جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهَالَاتٍ ، عَاشٍ رَكَابُ
عَشَوَاتٍ ، لَمْ يَعْصَ عَلَى الْعِلْمِ بِضُرْسٍ قَارِعٍ . يَذَرِي الرِّوَايَاتِ إِذْ رَأَى الرِّيحَ الْمَهِشِمَ ،
لَا مَلِيٍّ ؛ وَاللَّهِ بِإِصْدَارِ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ ، وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِمَا فُوضَ إِلَيْهِ . لَا يَحْسِبُ الْعِلْمَ فِي
شَيْءٍ مِمَّا أَنْكَرَهُ ، وَلَا يَرَى أَنَّ مَنْ وَرَاءَ مَا بَلَغَ مَذْهَبًا لغيرِهِ ، وَإِنْ أَظْلَمَ عَلَيْهِ أَمْرٌ
اكتتم به ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ جَهْلِ نَفْسِهِ ، تَصْرُخُ مِنْ جَوْرِ قَضَائِهِ الدَّمَاءَ ، وَتَمُجُّ مِنْهُ

(١) ج : « عاد » .

الْمَوَارِيثُ إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعَشَرٍ يَعِيشُونَ جُهْلًا ، وَيَمُوتُونَ ضَلَالًا ؛ لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعًا ، وَلَا أَعْلَى ثَمَنًا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا أَغْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ .

الشَّرْحُ :

وكله إلى نفسه : تركه ونفسه ، وكلته وكلا وؤكولا . والجائر : الضال الغافل عن الطريق . وقمّش جهلا : جمعه . وموضع : مسرع ؛ أوضع البعير : أسرع ، وأوضعه رآكبه ، فهو موضع به ، أى أسرع به .

وأغباش الفتنة : ظلمها ، الواحدة غَبَش ، وأغباش الليل : بقايا ظلمته ، ومنه الحديث في صلاة الصبح : « والنساء متلفعات بمروطٍ ما يُعرفن من الغَبَش » والماء الآجن : الفاسد . وأكثر ، كقولك : « استكثر » ، ويروى : « اكتنز » ، أى اتخذ العلم كنزا . والتخليص : التبيين ، وهو والتلخيص متقاربان ، ولعلها شىء واحد من المقلوب . والمبهات : المشكلات ؛ وإنما قيل لها مُبْهِمَةٌ ، لأنها أبْهِمَتْ عن البيان ، كأنها أصمّت فلم يُجْعَلْ عليها دليل ولا إليها سبيل ، أو جُعِلَ عليها دليل وإليها سبيل ؛ إلا أنه متعسر مستصعب ؛ ولهذا قيل لما لا ينطق من الحيوان : بهيمة ، وقيل للمصمت اللون الذى لا شِئَةَ فيه : بهيم ..

وقوله : « حشوا رثًا » كلام مخرجه الدم ، والرث : الخلق ، ضد الجديد .

وقوله : « حشوا » ، يعنى كثيرا لا فائدة فيه . وعاش : خابط في ظلام وقوله : « لم يعص » يريد أنه لم يُتَقَن . ولم يحكم الأمور ، فيكون بمنزلة من يعص بالناجذ ، وهو آخر الأضراس وإنما

يطلع إذا استحكمت شبية الإنسان واشتدت مِرَّتُهُ ؛ ولذلك يدعو العوامَ ضِرْسَ الحِلْمِ^(١) ،
كأنَّ الحِلْمَ يأتي مع طلوعه ، ويذهب نَزَقُ الصَّبَا ؛ ويقولون : رجلٌ مُنَجَّدٌ ، أى مجربٌ
مُحْكَمٌ ، كأنه قد عَضَّ على ناجذه وكَمَلَ عقله .

وقوله : « يُذَرِّي الروايات » هكذا أكثر النسخ ، وأكثر الروايات « يُذَرِّي » من
« أَذَرِي » رباعياً ؛ وقد أوضحه قوله : « إِذْرَاءُ الرِّيحِ » ، يقال : طعنه فأذراه ، أى ألقاه ،
وأذريتُ الحبَّ للزرع ، أى ألقيته ، فكأنه يقول : يُلْقِي الروايات كما يُلْقِي الإنسان
الشيء على الأرض ؛ والأجود الأصحَّ الرواية الأخرى : « يَذَرُو الرواياتِ ذَرْوُ الرِّيحِ
الهشيم » ، وهكذا ذكر ابن قتيبة في " غريب الحديث " لما ذكر هذه الخطبة عن
أمير المؤمنين عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذَرُوهُ الرِّيحُ ﴾^(٢) ، والهشيم :
ما يبس من الثَّبْتِ وتفتت :

قوله : « لا ملء » ، أى لا قيم به ، وفلان غنى ملء ، أى ثقة بين الملاء والملاء ، بالمد . وفي كتاب
ابن قتيبة تنمة هذا الكلام : « ولا أهل لما قُرِظَ به » ، قال : أى ليس بمستحقِّ المدح
الذى مُدِحَ به . والذي رواه ابن قتيبة من تمام كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو الصحيح
الجيد ؛ لأنه يُسْتَقْبَحُ في العربية أن تقول : لا زيد قائمٌ ، حتى تقول : ولا عمرو ؛ أو تقول :
ولا قاعد ؛ فتقوله عليه السلام : « لا ملء » أى لا هو ملء ، وهذا يستدعى « لا » ثانية ،
ولا يحسن الاختصار على الأولى .

وقوله عليه السلام : « اكنتم به » أى كنتمه وستره . وقوله : « تصرخ منه وتمعج » .
العمج : رفع الصوت ؛ وهذا من باب الاستعارة .

وفي كثير من النسخ : « إلى الله أشكو » ، فمن روى ذلك وقف على « المواريث » ،

(١) الحِلْمُ ، بالكسر : الأناة والعقل .

(٢) سورة الكهف ٤٠

ومن روى الرواية الأولى وَقَفَ على قوله : « إلى الله » ويكون قوله : « من معشر » من تمام صفات ذلك الحاكم ، أى هو من معشر صفتهم كذا .

وأبَوَّرَ «أفعل» من البَوَّرَ : الفاسد ، بَارَ الشيء ، أى فسد ، وبارت السلعة ؛ أى كسدت ولم تنفق ، وهو المراد هاهنا ، وأصله الفساد أيضا .

إن قيل : يَدَيُّوا الفرقَ بين الرَّجُلَيْنِ اللّٰذَيْنِ أَحَدُهُمَا وَكَوَلَهُ اللهُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَالْآخَرَ جَلَّ قَمَشَ جَهْلًا ؛ فَإِنَّهُمَا فِي الظَّاهِرِ وَاحِدٌ .

قيل : أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ ، فَهُوَ الضَّالُّ فِي أَصُولِ الْعُقَائِدِ ، كَالْمُسَبِّهِ وَالْجَبْرِ وَنَحْوِهَا ؛ أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ قَالَ : « مَشْغُوفٌ بِكَلَامٍ بَدْعَةٍ ، وَدَعَاءِ ضَلَالَةٍ » ، وَهَذَا يُشْعِرُ بِمَاقِلَاهُ ؛ مِنْ أَنَّ مَرَادَهُ بِهِ الْمَتَكَلِّمُ فِي أَصُولِ الدِّينِ ، وَهُوَ ضَالٌّ عَنِ الْحَقِّ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : إِنَّهُ فِتْنَةٌ لِمَنْ افْتَتَنَ بِهِ ضَالٌّ عَنْ هُدًى مَنْ قَبْلَهُ ، مُضِلٌّ لِمَنْ يَجِئُ بَعْدَهُ . وَأَمَّا الرَّجُلُ الثَّانِي فَهُوَ الْمُتَفَقِّهُ فِي فُرُوعِ الشَّرْعِيَّاتِ ، وَلَيْسَ بِأَهْلٍ لِلذَلِكَ ، كَفَقِهَاءِ السُّوءِ ، أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ يَقُولُ : جَاسَ بَيْنَ النَّاسِ قَاضِيًا .

وقال أيضا : « تصرُّخ من جور قضائه الدماء ، وتعيج منه المواريث » .

فإن قيل : مامعنى قوله في الرَّجُلِ الْأَوَّلِ : « رَهْنٌ بِخَطِيئَتِهِ » ؟ قيل : لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ ضَالًّا فِي دَعْوَتِهِ مُضِلًّا لِمَنْ اتَّبَعَهُ ، فَقَدْ حَمَلَ خَطَايَاهُ وَخَطَايَا غَيْرِهِ ، فَهُوَ رَهْنٌ بِالْخَطِيئَتَيْنِ مَعًا ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَيْحَمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) .

إن قيل : مامعنى قوله « عمَّ بِمَا فِي عَقْدِ الْهَدَنَةِ » ؟ قيل : الْهَدَنَةُ أَصْلُهَا فِي اللُّغَةِ السَّكُونُ ، يُقَالُ : هَدَنَ إِذَا سَكَنَ ، وَمَعْنَى السَّكَلَامِ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَا فِي الْفِتْنَةِ مِنَ الشَّرِّ ، وَلَا مَا فِي السَّكُونِ وَالْمَصَالِحَةِ (٢) مِنَ الْخَيْرِ .

(١) سورة العنكبوت ١٣

(٢) ١ : « المصلحة » ، تصحيف .

ويروى : « بما في غَيْب الهدنة » ، أى في طيِّها وفي ضمنها . ويروى : « غارّ في أغباش الفتنة » ، أى غافل ذو غِرّة .

وروى : « من جمع » بالتنوين فتكون « ما » على هذا اسما موصولا ، وهى وصلتها فى موضع جرّ لأنها صفة « جمع » ، ومن لم يرو التنوين فى « جمع » حذف الموصوف ، تقديره : من جمع شىء ما قلّ منه خيرٌ مما كثر ، فتكون « ما » مصدرية ، وتقدير الكلام : قلّته خيرٌ من كثرته ، ويكون موضع ذلك جرا أيضا بالصفة .

(١٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في ذم اختلاف العلماء في الفتيا :

تَرَدُّ عَلَى أَحَدِهِمُ الْقَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ ، فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ، ثُمَّ تَرَدُّ تِلْكَ الْقَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ ؛ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ ^(١) ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ الْقَضَاءُ بِذَلِكَ عِنْدَ الْإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ ، فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعًا وَإِلَهُمُ وَاحِدٌ ، وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ ، وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ .

أَفَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْاِخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ ! أَمْ نَهَاَهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ ^(٢) سُبْحَانَهُ دِينًا نَاقِصًا فَاسْتَعَانَ بِهِمْ عَلَى إِتْمَامِهِ ! أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيْهِ أَنْ يَرَضَى ! أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دِينًا تَامًا فَقَصَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَنْ تَبْلِيغِهِ وَأَدَانِهِ ؛ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ^(٣) ﴾ ، ^(٤) وَفِيهِ تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ^(٥) . وَذَكَرَ أَنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ^(٥) ﴾ .

وَإِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ ، لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ . وَلَا تُسَكِّفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِهِ .

(١) كذا في اخطوطة النهج ، وفي ب « بخلافه » .

(٢) ١ : « أَمْ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ » . (٣) سورة الأنعام ٣٨ .

(٤ - ٤) في ب : « وقال : فيه تبيان كل شيء » ؛ والأصوب ما أثبتته من ا ، وخطوطة النهج .

(٥) سورة النساء ٨٢ .

الْمَنْعُ :

الأنيق : المعجب ، وآتقنى الشيء ، أى أعجبني ؛ يقول : لا ينبغي أن يُجْمَلَ جميعُ
حافى الكتاب العزبز على ظاهره ؛ فكم من ظاهرٍ فيه غيرُ مرادٍ ، بل المراد به أمر آخر
باطن ؛ والمراد الردّ على أهل الاجتهاد فى الأحكام الشرعية ، وإفساد قول من قال : كلُّ
مجتهد مصيب ، وتلخيص الاحتجاج من خمسة أوجه :

الأوّل : أنّه لمّا كان الإله سبحانه واحدا ، والرسول صلى الله عليه وآله واحدا
والكتاب واحدا ، وجب أن يكونَ الحُكْمُ فى الواقعة واحدا ؛ كالملك الذى يُرْسِلُ إلى
رعيّته رسولا بكتابٍ يأمرهم فيه بأوامرٍ يقتضيها مُلكه وإمرته ، فإنه لا يجوز أن
تتناقض أوامره ، ولو تناقضت لنُسِبَ إلى السّفه والجهل .

الثانى : لا يخلو الاختلافُ الذى ذهب إليه المجتهدون ، إمّا أن يكونَ مأمورا به
أو منهيّا عنه ، والأوّل باطل ، لأنّه ليس فى الكتاب والسنة ما يمكنُ الخصم أن يتعلق به
فى كون الاختلاف مأمورا به . والثانى حقّ ، ويلزم منه تحريم الاختلاف .

الثالث : إمّا أن يكونَ دينُ الإسلام ناقصاً أو تامّاً ، فإن كان الأوّل كان الله سبحانه
قد استعان بالمكلفين على إتمام شريعةٍ ناقصة أرسل بها رسوله ، إمّا استعانةً على سبيل
النيابة عنه ، أو على سبيل المشاركة له ، وكلاهما كفر . وإن كان الثانى ؛ فإمّا أن يكونَ الله
تعالى أنزلَ الشرع تامّاً فقصر الرسولُ عن تبليغه ، أو يكونَ الرسولُ قد أبلغه على تمامه
وكاله ؛ فإن كان الأوّل فهو كفر أيضاً ؛ وإن كان الثانى فقد بطل الاجتهاد ؛ لأنّ الاجتهاد
إمّا يكون فيما لم يتبين ؛ فأما ما قد بُيِّن فلا مجال للاجتهاد فيه .

الرابع : الاستدلالُ بقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١) ، وقوله ،
﴿ تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾

(١) سورة الأنعام ٣٨ .

(٢) سورة النحل ٨٩ . وفى الأصول : وقوله : « فيه تبين كل شيء » ، والتلاوة ما أنبّه .

(١٩ - شرح نهج البلاغة - أول)

مُبين^(١)، فهذه الآيات دالة على اشتمال الكتاب العزيز على جميع الأحكام؛ فكل ما ليس في الكتاب وجب ألا يكون في الشرع.

الخامس : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾^(٢)، فجعل الاختلاف دليلاً على أنه ليس من عند الله، لكنه من عند الله سبحانه بالأدلة القاطعة الدالة على صحة النبوة، فوجب ألا يكون فيه اختلاف.

واعلم أن هذه الوجوه هي التي تتعلق بها الإمامية ونفاة القياس والاجتهاد في الشريعات. وقد تكلم عليها أصحابنا في كتبهم، وقالوا : إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يجتهد ويقيس، وادّعوا إجماع الصحابة على صحة الاجتهاد والقياس، ودفعوا صحة هذا الكلام المنسوب في هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقالوا : إنه من رواية الإمامية، وهو معارض بما ترويه الزيدية عنه وعن أبنائه عليهم السلام في صحة القياس والاجتهاد، ومخالطة الزيدية لأئمة أهل البيت عليهم السلام كمخالطة الإمامية لهم؛ ومعرفتهم بأقوالهم وأحوالهم ومذاهبهم كمعرفة الإمامية، لا فرق بين الفئتين في ذلك. والزيدية قاطبة جاروديتها وصالحيتها^(٣) تقول بالقياس والاجتهاد، وينقلون في ذلك نصوصاً عن أهل البيت عليهم السلام. وإذا تعارضت الروايتان تساقطتا، وعدنا إلى الأدلة المذكورة في هذه المسألة. وقد تكلمت في "اعتبار الذريعة"، للمرتضى^(٤) على احتجاجه في إبطال القياس والاجتهاد بما ليس هذا موضع ذكره.

(٢) سورة النساء ٨٢.

(١) سورة الأنعام ٥٩.

(٣) الزيدية : أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ وهم أصناف ثلاثة : جارودية؛ وهم أصحاب أبي الجارود زيد بن أبي زياد، وسليمانية؛ وهم أصحاب سليمان بن جرير، وصاحبة؛ وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حي؛ ومن هؤلاء البترية؛ أصحاب كثير الأثر. وانظر تفصيل مذاهبهم في الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٣٧ - ١٤٣.

(٤) هو كتاب الذريعة إلى أصول الشريعة؛ للشرير المرتضى، شرحه ابن أبي الحديد وسمى شرحه الاعتبار على كتاب الذريعة؛ في ثلاثة مجلدات. وانظر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٠ : ٢٦.

(١٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام ؛ قاله للأشعث بن قيس ، وهو على منبر الكوفة يخطب ،
فمضى في بعض كلامه شيء اعترضه الأشعث فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه عليك
لا لك ، فخفض إليه بصره عليه السلام ، ثم قال :

وَمَا يُدْرِيكَ مَا عَلَىِّ مِمَّا لِي ! عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ ؛ حَاتِّكَ ابْنُ حَاتِّكَ ،
مُنَافِقُ ابْنُ كَافِرٍ . وَاللَّهُ لَقَدْ أَسْرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى ، فَمَا فَذَاكَ مِنْ
وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ وَلَا حَسْبُكَ . وَإِنَّ أَمْرًا دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفُ ، وَسَاقَ إِلَيْهِمْ
الْخَيْفُ ، تَحَرَّى أَنْ يَمُوتَهُ الْأَقْرَبُ ، وَلَا يَأْمَنُهُ إِلَّا بَعْدُ .

قال الرضى رحمه الله :

يريد عليه السلام أنه أسير في الكفر مرة وفي الإسلام مرة .
وأما قوله عليه السلام : «دَلَّ عَلَى قَوْمِهِ السَّيْفُ» ، فأراد به حديثاً كان للأشعث
مع خالد بن الوليد باليمامة ، غرر فيه قومه ، ومكر بهم ؛ حتى أوقع بهم خالد ،
وكان قومه بعد ذلك يسمونه عُرف النار ، وهو اسم للغادر عندهم .

البُغْضُ :

خَفَضَ إِلَيْهِ بَصْرَهُ : طَاطَاهُ . وَقَوْلُهُ : « فَمَا فِدَاكَ » ، لَا يَرِيدُ بِهِ الْفِدَاءَ الْحَقِيقِيَّ ، فَإِنَّ الْأَشْعَثَ فُدِيَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِفِدَاءٍ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ ، فَقَالَ : « أَغْلَى فِدَاءٍ مِنَ الْأَشْعَثِ » ، وَسَنَذْكُرُهُ ، وَإِنَّمَا يَرِيدُ : مَا دَفَعَ عَنْكَ الْأَسْرَ مَالُكَ وَلَا حَسَبَكَ . وَيَمَقْتُهُ : يَبْغِضُهُ ، وَالْمَقْتُ : الْبُغْضُ .

[الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ وَنَسَبُهُ وَبَعْضُ أَخْبَارِهِ]

اسم الأشعث معدى كرب ، وأبوه قيس الأشج - سمي الأشج ؛ لأنه سُجِّ في بعض حروبهم - ابن معدى كرب بن معاوية بن معدى كرب بن معاوية بن جبلة ابن عبد العزى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن الحارث ابن معاوية بن ثور بن مُرتَع^(١) بن معاوية بن كِنْدَةَ بن عُقَيْر بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد .

وأمّ الأشعث كبشة بنت يزيد بن شَرَحْبِيل بن يزيد بن امرئ القيس بن عمرو المقصور الملك .

كان الأشعث أبداً أشعث الرأس ، فسمي الأشعث ، وغلب عليه حتى نسي اسمه ؛ ولعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث يقول أعشى همدان^(٢) :

يَا بْنَ الْأَشَجِّ قَرِيعَ كُنْ دَعَا أَبَا بَالِي فَيْكَ عَتَبًا^(٣)

(١) مرتع ، كحدث ، وكحسن أيضا . القاموس .

(٢) هو أبو مصبح عبد الرحمن بن عبد الله ؛ من أبيات في ديوان الأعشى ٣١١ ؛ أولها :

مَنْ مُبْلِغُ الْحِجَابِ أُنِّي قَدْ نَدَبْتُ إِلَيْهِ حَرْبًا
حَرْبًا مَذْكَرَةً عَاوَا نَا تَتْرُكُ الشُّبَّانَ شُهَبًا

(٣) في الديوان :

لَا بِنِ الْأَشَجِّ قَرِيعَ كُنْ دَعَا لَا أَبِينُ فِيهِ عَتَبًا

أَنْتَ الرَّئِيسُ ابْنُ الرَّيْدِ س وَأَنْتَ أَعْلَى النَّاسِ كَعَبًا^(١)
وتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله فُتَيْلَةَ أخت الأشعث ، فتوفى قبل أن
تصل إليه .

فأما الأسر الذى أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام إليه فى الجاهلية فقد ذكره
ابن الكلبي فى " جمهرة النسب " ، فقال : إن مُرادا لما قتلت قيساً الأشجى ، خرج
الأشعث طالبا بثأره^(٢) ، فخرجت كنفه مُتساندين على ثلاثة ألوية : على أحد الألوية كُتِبَ
ابن هانى بن شُرَحْبِيل بن الحارث بن عدى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين - ويعرف
هانئ بالمطليح ، لأنه كان يغزو فيقول : اطلعتُ بنى^(٣) فلان ، فسمي المطليح . وعلى
أحدها القشعم أبو جبر^(٤) بن يزيد الأرقم . وعلى أحدها الأشعث ، فأخطأوا مُرادا ، ولم
يَقْعُوا عليهم ، ووقعوا على بنى الحارث بن كعب ، فقتل كُتِبَ والقشعم أبو جبر ،
وأسير الأشعث ، ففدى بثلاثة آلاف بعير ، لم يُفد بها عربى بعده ولا قبله ، فقال فى
ذلك عمرو بن معدى كرب الزُبَيْدِى :

فَكَانَ فِدَاؤُهُ أَلْفَى بَعِيرٍ وَأَلْفًا مِنْ طَرِيفَاتٍ وَتَلْدٍ

وأما الأسر الثانى فى الإسلام ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قَدِمَتْ كنفه
حُجَّابًا قبل الهجرة ، عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه عليهم ، كما كان يعرضُ
نفسه على أحياء العرب ، فدفعه بنو وُلَيْعَةَ من بنى عمرو بن معاوية ولم يقبلوه ، فلما هاجر
صلى الله عليه وآله وتمهدت دعوته ، وجاءته وفود العرب ، جاءه وفد كِنْدَةَ ، فيهم الأشعث
وبنو وُلَيْعَةَ ، فأسلموا ، فأطعم رسول الله صلى الله عليه وآله بنى وُلَيْعَةَ طُعْمَةً من صدقات
حَضْرَمَوْت ، وكان قد استعمل على حَضْرَمَوْت زياد بن لَبِيد البياضى الأنصارى ، فدفعها
زياد إليهم ، فأبَوْا أخذها ، وقالوا : لا ظَهْرَ لَنَا^(٥) ، فابعث بها إلى بلادنا على ظَهْرٍ

(١) الديوان : « أعلَى القوم » . (٢) ١ : « ثأره » .

(٣) اطلع القوم : هجم عليهم . (٤) ١ : « القاسم بن جبر » ، وصوابه من ب ، والاشتقاق ٣٦٥

(٥) الظهر : الركاب التى تحمل الأمتعة فى السفر ، سميت بذلك لحملها إياها على ظهورها .

من عندك ، فأبى زياد ، وحَدَّثَ بينهم وبين زياد شرَّ كاد يكون حرباً ، فرجع منهم قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكتب زياد إليه عليه السلام يشكّوهم .

وفي هذه الواقعة كان الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال لبنى وليعة : « لَتَذُنَّهَنَّ يَا بَنِي وَلِيعة ، أَوْ لَأَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلًا عَدِيلَ نَفْسِي ، يَقْتُلُ مُقَاتِلَتَكُمْ ، وَيَسْبِي ذُرَارِيَكُمْ » . قال عمر بن الخطاب : فما تمتِ الإمارة إلا يومئذ ، وجعلت أنصب له صدرى رجاء أن يقول : هو هذا ، فأخذ بيد علي عليه السلام ، وقال : « هو هذا » .

ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زياد ، فوصلوا إليه بالكتاب وقد توفّى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وطار الخبر بموته إلى قبائل العرب ، فارتدت بنو وليعة ، وغنّت بغاياهم ، وخضبن له أيديهن .

وقال محمد بن حبيب : كان إسلام بنى وليعة ضعيفاً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم ذلك منهم . ولما حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع ، وانتهى إلى فَمِ الشَّعْبَ دخل أسامة بن زيد ليبول ، فانتظره رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان أسامة أسوداً أفلس - فقال بنو وليعة : هذا الحبشيّ حبّسنا ! فكانت الردّة في أنفسهم .

قال أبو جعفر محمد بن جرير : فأمر^(١) أبو بكر زياداً على حَضَرَموت ، وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم ، فبايعوه إلا بنى وليعة ، فلما خرج ليقبض الصدقات من بنى عمرو بن معاوية ، أخذ ناقةً لـغلام منهم يعرف بشيطان بن حُجْر - وكانت صفية^(٢) نفيسة ، اسمها شذرة - فنعه الغلام عنها . وقال : خذ غيرها ، فأبى زياد ذلك ولجّ ، فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حُجْر ، فقال لزياد : دَعْهَا وَخُذْ غيرها ، فأبى زياد ذلك ، ولجّ الغلامان في أخذها ، ولجّ زياد وقال لهما : لا تكونن شذرة عليكما كالبسوس ،

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ؛ مع تصرف . (٢) الصفية : الناقة الغزيرة اللبن .

فَهْتَفَ الْغُلَامَانِ : يَا لَعَمْرُو ! أَنْضَامُ وَنُضْطَهْدُ ! إِنْ الدَّلِيلَ مَنْ أَكَلَ فِي دَارِهِ . وَهَتَفَا بِمَسْرُوقِ بْنِ مَعْدَى كَرْبَ ، فَقَالَ مَسْرُوقُ لَزِيَادَ : أَطْلَقَهَا ، فَأَبَى ، فَقَالَ مَسْرُوقُ :
يُطْلِقُهَا شَيْخٌ بِحَدَّيْهِ الشَّيْبُ^(١) مُلَمَّعٌ فِيهِ كَتَلَمِيعُ الثَّوْبِ^(٢)
* ماضٍ عَلَى الرَّيْبِ إِذَا كَانَ الرَّيْبُ^(٣) *

ثُمَّ قَامَ فَأَطْلَقَهَا ، فَاجْتَمَعَ إِلَى زِيَادَ بْنِ لَمِيدَ أَصْحَابُهُ ، وَاجْتَمَعَ بَنُو وَلِيْعَةَ ، وَأَظْهَرُوا أَمْرَهُمْ ، فَبَيَّتَهُمْ زِيَادُ وَهُمْ غَارُونَ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ جَمْعًا كَثِيرًا ، وَنَهَبَ وَسَبَى ، وَلَحَقَ فَلَّهُمْ بِالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسَ ، فَاسْتَنْصَرُوهُ فَقَالَ : لَا أَنْصُرْكُمْ حَتَّى تَمْلِكُوا عَلَيَّكُمْ . فَلَمَّا كَوَّهَ وَتَوَجَّهَ كَمَا يَقْتَضِي الْمَلِكُ مِنْ قَحْطَانِ . فَخَرَجَ إِلَى زِيَادَ فِي جَمْعٍ كَثِيفٍ ، وَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى الْمُهَاجِرِ بْنِ أَبِي أُمِيَّةَ وَهُوَ عَلَى صَنْعَاءَ أَنْ يَسِيرَ بِمَنْ مَعَهُ إِلَى زِيَادَ ، فَاسْتَخْلَفَ عَلَى صَنْعَاءَ ، وَسَارَ إِلَى زِيَادَ ، فَلَقُوا الْأَشْعَثَ ، فَهَزَمُوهُ وَقَتَلَ مَسْرُوقَ ، وَلَجَأَ الْأَشْعَثُ وَالْبَاقُونَ إِلَى الْحِصْنِ الْمَعْرُوفِ بِالْجُبَيْرِ^(٤) . فَخَاصَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حِصَارًا شَدِيدًا حَتَّى ضَعُفُوا ، وَنَزَلَ الْأَشْعَثُ لِيَسْلُبَ إِلَى الْمُهَاجِرِ وَزِيَادَ ، فَسَأَلَهَا الْأَمَانَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَتَقَدَّمَ بِهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَرَى فِيهِ رَأْيَهُ ؛ عَلَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُمُ الْحِصْنَ وَيُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ مَنْ فِيهِ .
وَقِيلَ : بَلْ كَانَ فِي الْأَمَانِ عَشْرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْأَشْعَثِ .

فَأَمَّنَاهُ وَأَمْضِيَا شَرْطَهُ ، فَفَتَحَ لَهُمُ الْحِصْنَ ؛ فَدَخَلُوهُ وَاسْتَنْزَلُوا كُلَّ مَنْ فِيهِ ، وَأَخَذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، وَقَالُوا لِلْأَشْعَثِ : اعْزِلِ الْعَشْرَةَ ، فَعَزَلَهُمْ ، فَتَرَكَوهُمْ وَقَتَلُوا الْبَاقِينَ - وَكَانُوا ثَمَانِيَةً - وَقَطَعُوا أَيْدِيَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي سَمِعْنَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَحَمَلُوا الْأَشْعَثَ

(٢) الطبري :

(١) الطبري : « يَمْنَعُهَا » .

* مُلَمَّعٌ كَمَا يُلَمَّعُ الثَّوْبُ *

(٣) لم يرد هذا البيت في الطبري .

(٤) كَذَا ضَبْطَهُ صَاحِبُ مَرَاوِدِ الْأَطْلَاعِ بِالنَّصْفِيزِ ، وَقَالَ : « حَصَنٌ بِالْبَيْنِ قَرِبَ حَضْرَمَوْتَ » .

إلى أبي بكر مؤثقاً في الحديد هو والعشرة ، ففعا عنه وعنهم ، وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة - وكانت عمياء - فولدت للأشعث محمدا وإسماعيل وإسحاق .
 وخرج الأشعث يوم البناء عليها إلى سوق المدينة ، فامرّ بذات أربع إلا عقرها ، وقال للناس : هذه وليمة البناء ، وثمن كل عقيرة في مالى . فدفّع أثمائها إلى أربابها .
 قال أبو جعفر محمد بن جرير في التاريخ : وكان المسلمون يلعبون الأشعث ويلعبونه الكافرون أيضاً وسبايا قومه ، وسمّاه نساء قومه عُرْفَ الفار ، وهو اسم للغادر عندهم^(١) .
 وهذا عندى هو الوجه ، وهو أصبح مما ذكره الرضى رحمه الله تعالى من قوله في تفسير قول أمير المؤمنين : « وإن امرأ دلّ على قومه السيف » : انه أراد به حديثا كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة عرّ فيه قومه ، ومكر بهم حتى قتلهم ؛ فإننا لم نعرف في التواريخ أن الأشعث جرّى له باليمامة مع خالد هذا ولا شبهه ، وأين كندة واليمامة ! كندة باليمن ، واليمامة لبني حنيفة ، ولا أعلم من أين نقل الرضى رحمه الله تعالى هذا !

فأما الكلام الذى كان أمير المؤمنين عليه السلام قاله على منبر الكوفة فاعترضه فيه الأشعث ، فإنّ عليّاً عليه السلام قام إليه - وهو يخطب ، ويذكر أمر الحكمين - رجل من أصحابه ، بعد أن انقضى أمر الخوارج ، فقال له : نهيمنا عن الحكومة ثم امرتنا بها ، فما ندرى أى الأمرين أرشد ! فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى ، وقال : هذا جزاء من ترك العقدة . وكان مراده عليه السلام : هذا جزاؤكم إذ تركتم الرأى والحزم ، وأصررتم على إجابة القوم إلى التحكيم ؛ فظن الأشعث أنه أراد : هذا جزاؤى حيث تركت الرأى والحزم وحكمت ، لأنّ هذه اللفظة محتملة ؛ ألا ترى أن الرئيس

(١) الطبرى ٣ : ٣٣٨ ؛ وعبارته : « كلام يمان يسمون به الغادر » .

إذا شَغَبَ عليه جُنْدُه وطلبوا منه اعتماد أمرٍ ليس بصواب ، فوافقهم تسكيننا لشغَبهم
 لا استصلاحا لرأيهم ، ثم نَدِمُوا بعد ذلك ، قد يقول : هذا جزاء مَنْ ترك الرأى ،
 وخالف وجه الحزم ؛ ويعنى بذلك أصحابه ؛ وقد يقوله يعنى به نفسه حيث وافقهم
 أمير المؤمنين عليه السلام ، إنما عَنَى ما ذكرناه دون ما خَطَرَ للأشعث ، فلما قال له : هذه
 عليك لالكَ ، قال له : وما يدريك ما علىّ مما لى ، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين !
 وكان الأشعثُ من المنافقين فى خلافة علىّ عليه السلام ، وهو فى أصحاب أمير المؤمنين
 عليه السلام ، كما كان عبد الله بن أبى بن سَكُول فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله
 كلّ واحد منهما رأسُ النفاق فى زمانه .
 وأما قوله عليه السلام للأشعث : « حائك ابن حائك » ، فإن أهل اليمن يعيرون
 بالحياكة ؛ وليس هذا مما يَخُصُّ الأشعث .
 ومن كلام خالد بن صفوان : ما أقول فى قومٍ ليس فيهم إلا حائك بُرْد ، أو دابغ
 جِلْد ، أو سائس قرْد ؛ ملكتهم امرأة ، وأغرقهم فأرة ، ودلّ عليهم هُذُود !

(٢٠)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ ، لَجَزَعْتُمْ وَوَهَدْتُمْ ، وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا ؛ وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ .
وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ ، وَهُدِيتُمْ إِنْ اهْتَدَيْتُمْ ؛
وَيَحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ ^(١) : لَقَدْ جَاهَرَتْكُمْ الْعِبَرُ ، وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ، وَمَا يُبْلَغُ
عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ .

الشرح :

الوهل : الخوف ، وهل الرجل يؤهل .

و« ما » في قوله : « مَا يُطْرَحُ » مصدرية ؛ تقديره : « وقريب طرح الحجاب » ،
يعنى رفعه بالموت .

وهذا الكلام يدل على صحة القول بعذاب القبر ، وأصحابنا كلهم يذهبون إليه ، وإن
شنع عليهم أعداؤهم من الأشعرية وغيرهم بجحده .

وذكر قاضي القضاة رحمه الله تعالى : أنه لم يعرف ^(٢) معتزلياً نفى عذاب القبر ، لا من

(١) كلمة « لَكُمْ » ساقطة من أ .

(٢) ج : « لا يعرف » .

متقدّمهم ولا من متأخريهم ؛ قال : وإتّما نفاه ضرار^(١) بن عمرو ، لمخالطته لأصحابنا وأخذه عن شيوخنا ، ما نسب قوله إليهم .

ويمكن أن يقول قائل : هذا الكلام لا يدلّ على صحّة القول بعذاب القبر ؛ لجواز أن يعنى بمعانيه من قد مات ، ما يشاهده المحتضر من الحالة الدالة على السعادة أو الشقاوة ، فقد جاء في الخبر : « لا يموت امرؤ حتى يعلم مصيره ؛ هل هو إلى الجنة أم إلى النار » . ويمكن أن يعنى به ما يعاينه المحتضر من ملك الموت وهول قدومه . ويمكن أن يعنى به ما كان عليه السلام يقوله عن نفسه : إنه لا يموت ميت حتى يشاهده عليه السلام حاضراً عنده . والشيعة تذهب إلى هذا القول وتعتقده ، وتروى عنه عليه السلام شعراً قاله للحارث الأعور الهمداني :

يا حارِ همدانَ مَنْ يَمُتْ بِرَئِي مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُنَافِقٍ قُبُلَا
يَعْرِفُنِي طَرَفُهُ وَأَعْرِفُهُ بِعَيْنِيهِ وَاسْمِهِ وَمَا قَعُلَا
أَقُولُ لِلنَّارِ هِيَ تَوْقِدُ لَّا مَرَضٍ ذَرِيهِ لَا تَقْرِي الرَّجُلَا
ذَرِيهِ لَا تَقْرِيهِ إِنْ لَهِ حَبَلًا بِحَبْلِ الْوَصِيِّ مُتَّصِلَا
وَأَنْتَ يَا حَارِ إِنْ تَمَتَّ تَرِنِي فَلَا تَخَفْ عَثْرَةً وَلَا زَلَلَا^(٢)
أَسْقِيكَ مِنْ بَارِدٍ عَلَى ظَمَأٍ تَخَالُهُ فِي الْحُلَاوَةِ الْعَسَلَا

وليس هذا بمنسكّر ؛ إن صحّ أنّه عليه السلام قاله عن نفسه ، ففي الكتاب العزيز ما يدلّ على أنّ أهل الكتاب لا يموت منهم ميت حتى يصدق بعيسى بن مريم عليه السلام ؛ وذلك قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ

(١) ضرار بن عمرو ، صاحب مذهب الضرارية من فرق الجبرية ، وكان في بدء أمره تلميذاً لواصل ابن عطاء المعتزلي ، ثم خالفه في خلق الأعمال وإنكار عذاب القبر . الفرق بين الفرق ٢٠١ .

(٢) هذا البيت والذي يليه لم يذكر في ب .

الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا^(١)؛ قال كثير من المفسرين : معنى ذلك أن كل ميت من اليهود وغيرهم من أهل الكتب السالفة إذا احتضر رأى المسيح عيسى^(٢) عنده ، فيصدق به مَنْ لم يكن في أوقات التكليف مصدقاً به .

وشبيهه بقوله عليه السلام : «لو عاينتم ما عاين مَنْ مات قبلكم» قول أبي حازم لسليمان ابن عبد الملك في كلام يعظه به : إن آباءك ابتزوا هذا الأمر من غير مشورة ، ثم ماتوا ، فلو علمت ما قالوا وما قيل لهم ! فقليل : إنه^(٣) بكى حتى سقط^(٤) .

(١) سورة النساء ١٥٩ .

(٢) ساقطة من ب .

(٣ - ٣) : ١ « إن سليمان بكى حتى سقط » .

(٢١)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَإِنَّ الْغَايَةَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ وَرَاءَكُمْ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ .
تَخَفُّوْا تَلَحُّقُوا ، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ .

قال الرضى رحمه الله :

أقول : إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَوْ وُزِنَ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَبَعْدَ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكُلِّ كَلَامٍ لَمَالَ بِهِ رَاجِحًا ، وَبَرَزَ عَلَيْهِ سَابِقًا .
فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « تَخَفُّوْا تَلَحُّقُوا » ، فَمَا سُمِعَ كَلَامٌ أَقْلٌ مِنْهُ مَسْمُوعًا وَلَا أَكْثَرُ مَخْصُولًا ، وَمَا أَبْعَدَ غَوْرَهَا مِنْ كَلِمَةٍ ! وَأَنْقَعَ نُطْفَتَهَا مِنْ حِكْمَةٍ !
وَقَدْ تَبَهَّنَا فِي كِتَابِ « الْخَصَائِصِ »^(١) ، عَلَى عِظَمِ قَدْرِهَا ، وَشَرَفِ جَوْهَرِهَا .

الْبُخ :

غاية المكلفين هي الثواب أو العقاب ، فيحتمل أن يكون أراد ذلك ، ويحتمل أن يكون أراد بالغاية الموت ، وإنما جعل ذلك أمامنا ، لأنَّ الإنسان كالسائر إلى الموت أو كالسائر إلى الجزاء ، فهما أمامه ، أى بين يديه .

(١) كتاب خصائص الأئمة للشرىف الرضى . انظر الذريعة فى مصنفات الشيعة ٧ : ١٦٤ .

ثم قال : « وإن وراءكم الساعة تحذوكم » أى تسوقكم ، وإنما جعلها وراءنا ، لأنها إذا وجدت ساقطت الناس إلى موقف الجزاء كما يسوق الراعى الإبل ، فلما كانت سائقة لنا ، كانت كالشيء يحفز الإنسان من خلفه ، ويحركه من ورائه ، إلى جهة ما بين يديه .

ولا يجوز أن يقال : إنما سماها « وراءنا » ، لأنها تكون بعد موتنا وخروجنا من الدنيا ، وذلك أن الثواب والعقاب هذا شأنهما ، وقد جعلهما أمامنا .
وأما القطب الراوندى ، فإنه قال : معنى قوله : « فإن الغاية أمامكم » ، يعنى أن الجنة والنار خلفكم . ومعنى قوله : « وراءكم الساعة » أى قدّامكم .
ولقائل أن يقول : أما الراء بمعنى القدّام فقد ورد ، ولكن ماورد « أمام » بمعنى « خلف » ، ولا سمعنا ذلك .

وأما قوله : « تخففوا تلحقوا » ، فأصله الرجل يسعى وهو غير مُثقل بما يحمله ، يكون أجدر أن يلحق الذين سبقوه ، ومثله قوله : « نجا المحققون » .
وقوله عليه السلام : « فإنما ينتظر بأولكم آخركم » ، يريد : إنما ينتظر ببعث الذين ماتوا فى أول الدهر بحجى من^(١) يخلقون ويموتون فى آخره ، كأمر يريد إعطاء جنده إذا تكامل عرضهم ، إنما يعطى الأول منهم إذا انتهى عرض الأخير .
وهذا كلام فصيح جداً .

والنور : العمق . والنطفة : ماصفا من الماء ، وما أنقع هذا الماء أى ما أرواه للعطش !

(١) ج : « بحجى الذين يخلقون » .

(٢٢)

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِرْزَ بَه، وَأَسْجَلَبَ جَلَبَهُ، لِيَعُودَ الْجُورُ إِلَى أَوْطَانِهِ^(١)،
وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ .

وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَى مُنْكَرٍ، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَافًا ؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ
حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ ؛ فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكُهُمْ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ لِنَصِيبِهِمْ
مِنْهُ ، وَإِنْ كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي ؛ فَمَا التَّيْعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ . وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ أَعْلَى
أَنْفُسِهِمْ ؛ يَرْتَضِعُونَ أُمَّا قَدْ فَطَمَتْ ، وَيُحْيُونَ بِدَعَةٍ قَدْ أُمِيتَتْ .

يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي ! مَنْ دَعَا ! وَإِلَامَ أَجِيب ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ،
وَعَلَيْهِ فِيهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ ، وَكَفَى بِهِ شَافِيًا مِنَ الْبَاطِلِ ،
وَنَاصِرًا لِلْحَقِّ !

وَمِنَ الْعَجَبِ بَعَثْتُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطَّعْمَانِ ، وَأَنْ أَصِيرَ لِلْجِلَادِ . هَيْلَتُهُمُ الْهُبُولُ !
لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدَدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ . وَإِنِّي أَعْلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي ،
وَعَزِيرٍ شُبُهَةِ مِنْ دِينِي .

الْبَرْخُ :

يروى : « ذَمَر » بالتخفيف ، و « ذَمَر » بالتشديد ، وأصله الحَضّ والحَثّ ، والتشديد دليل على التكثير .

واستجلب جَلَبَه ، الجَلَب بفتح اللام : ما يُجَلَب ، كما يقال : جَمَعَ جَمْعَه . و يروى : « جُلَبَه » و « جِلَبَه » ؛ وهما بمعنى ، وهو السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه ، أى جمع قوما كالجُلهام الذى لا نفع فيه . وروى : « ليعودَ الجُورُ إلى قِطابِه » ، والقِطاب : مزاج الخمر بالماء ، أى ليعود الجور ممتزجاً بالمدل كما كان . ويجوز أن يعنى بالقِطاب قِطاب الجيب ، وهو مدخل الرأس فيه ، أى ليعودَ الجورُ إلى لباسه وثوبه . وقال الراوندى : قِطابِه : أصله ؛ وليس ذلك بمعروف فى اللغة .

ورُويَ « الباطل » بالنصب ؛ على أن يكون « يرجع » متعدياً ، تقول : رجعت زيدا إلى كذا ؛ والمعنى : ويردّ الجورُ الباطل إلى أوطانه .

وقال الراوندى : « يعود » أيضاً مثل « يرجع » ، يكون لازماً ومتعدياً ، وأجاز نصب « الجور » به ؛ وهذا غير صحيح ؛ لأن « عاد » لم يأت متعدياً ، وإنما يعدى بالهمزة . والنَّصَف : الذى يُنْصَف .

وقال الراوندى : النَّصَف : النَّصْفَةُ^(١) ؛ والمعنى لا يحتمله ؛ لأنه لا معنى لقوله : ولا جعلوا بينى وبينهم إنصافاً ، بل المعنى : لم يجعلوا ذا إنصاف بينى وبينهم . يرتضمون أمّا قد فطمت ، يقول : يطلبون الشيء بعد فواته ؛ لأنّ الأم إذا فطمت ولدها فقد انقضى إرضاعها .

وقوله : « يا خيبة الداعى » ، هاهنا كالتداء فى قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾^(٣) أى يا خيبة احضرى فهذا أوانك !

(١) كذا فى ١ ، وفى ب : « النصف » ، والنصف : المدل .

(٢) سورة الأنعام ٣١ .

(٣) سورة يس ٣٠ .

وكلامه في هذه الخطبة مع أصحاب الجمل ؛ والداعى هو أحد الثلاثة: الرجلان والمرأة.
ثم قال على سبيل الاستصغار لهم ، والاستحقاق : « مَنْ دَعَا ! وإلى ماذا أجيب ! »
أى أحقر بقوم دعاهم هذا الداعى ! وأقبح بالأمر الذى أجابوه إليه ، فما أخشه وأرذله !
وقال الراوندى : يا خيبة الداعى ؛ تقديره : يا هؤلاء ، لحذف المنادى ، ثم قال : خيبة
الداعى ؛ أى خاب الداعى خيبة . وهذا ارتكاب ضرورة لا حاجة إليها ، وإنما يُحذف
للمنادى فى المواضع التى دلّ الدليلُ فيها على الحذف ، كقوله :

* يا فأنظراً أين الوادى على إضم *

وأيضاً ، فإن المصدر الذى لا عامل فيه غير جائز حذف عامله ؛ وتقدير حذفه تقدير
مالا دليل عليه .

وهبيلته أمه ، بكسر الباء : تسكّلته .

وقوله : « لقد كنتُ وما أهدد بالحرب » ، معناه : مازلتُ لا أهدد بالحرب ، والواو
زائدة . وهذه كلمة فصيحة كثيراً ما تستعملها العرب . وقد ورد فى القرآن العزيز « كان »
بمعنى « مازال » فى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾^(١) ونحو ذلك من الآى ، معنى
ذلك : لم يزل الله عليماً حكيماً . والذى تأوله المرتضى رحمه الله تعالى فى " تسكّلة الفرر والدرر " ،^(٢)
كلام متكلف ، والوجه الصحيح ما ذكرناه .

وهذه الخطبة ليست من خطب صيغين كما ذكره الراوندى ، بل من خطب الجمل ، وقد
ذكر كثير منها أبو مخنف رحمه الله تعالى ، قال : حدثنا مسافر بن عفيف بن أبى الأحنس

(١) سورة النساء ١٧٠

(٢) تسكّلة الفرر والدرر ٢ : ٣٠٠ - ٣٠٢

قال : لما رجعت رُسُل علىّ عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذِنونه بالحرب ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه ، ثم قال :

أيُّها النَّاس ، إنِّي قد راقبتُ هؤلاء القومَ كي يَرعَوْوا أو يرجعوا ، ويَتَجَنَّبُوا بَنسَكْتَهُمْ ، وعَرَّقْتَهُمْ بَغْيَهُمْ فلم يَسْتَحْيُوا ، وقد بعثوا إلىَّ أن أُرْزَ لِلطَّعَانِ ، وأصبر للجلاد ، وإنما تُمْنِيكَ نَفْسُكَ أَمَانِي الْبَاطِل ، وتَعِدُّكَ الْفُرُور . أَلَا هَبَيْتَهُمُ الْهَبُول ، لقد كُفْتُ وما أَهْدُدُ بالحرب ، ولا أَرْهَبُ بالضرب ! ولقد أنصفَ القارةَ مَنْ رَامَاهَا^(١) ، فَلْيَرِ عِدُّوا وَلْيَبْرِقُوا ، فقد رأوني قديماً ، وعرفوا نِسْكَائِي ، فكيف رأوني ! أنا أبو الحسن ، الذي قُلْتُ حَدَّ الْمَشْرَكِينَ ، وفَرَّقْتُ جَمَاعَتَهُمْ ، وبذلك القلب أَلْقَى عِدْوِي الْيَوْمَ ، وإِنِّي لَعَلِي ما وعدني رَبِّي مِنَ النِّصْرِ والتَّأْيِيدِ ، وعلى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِي ، وفي غير شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي .

أيُّها النَّاس ، إنَّ الموتَ لا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ ، ولا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ ، ليس عن الموتِ تَحِيدٌ ولا مَحِيصٌ ، مَنْ لَمْ يُقْتَلْ مات .

إنَّ أَفْضَلَ الْمَوْتِ الْقَتْلَ ، والذي نَفَسَ عَلَى يَدَيْهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ مِنْ مَوْتَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ . اللَّهُمَّ إِنِّ طَلْحَةَ نَسَكْتُ بَيْعَتِي ، وَأَلْبَ عَلَى عُمَانَ حَتَّى قَتَلَهُ ، ثُمَّ عَصَيْتَنِي^(٢) بِهِ وَرَمَانِي .

اللَّهُمَّ فَلَا تَمِمْهُ . اللَّهُمَّ إِنِّ الزَّبِيرَ قَطَعَ رَحِمِي ، وَنَسَكْتُ بَيْعَتِي ، وَظَاهَرَ عَلَى عِدْوِي ، فَكَفِّنِيهِ الْيَوْمَ بِمَا شِئْتُ .
ثم نزل .

(١) قد أنصف القارة من رامها ؛ مثل ، والقارة : قوم رماة من العرب . وفي اللسان (٦ : ٤٣٦) . عن التهذيب : « كانوا رماة الحندق في الجاهلية ؛ وهم اليوم في اليمن ينسبون إلى أسد ، والنسبة إليهم قاري ، وزعموا أن رجلين التقيا ؛ أحدهما قاري والآخر أسدي ، فقال القاري : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القاري : لقد أنصفتني ، رأشد :

قد أنصف القارة مَنْ رَامَاهَا إِنَّا إِذَا مَا فِئْتُهُ نَلْقَاهَا

* نَرَدُّ أَوْلَاهَا عَلَى أَخْرَاهَا *

ثم اقترح له سهما فشك فؤاده (٢) عضه ، أي قال فيه ما لم يكن .

[خطبة عليّ بالمدينة في أول إمارته]

واعلم أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام وكلام أصحابه وعَمَّاله في واقعة الجمل، كلّهُ يدورُ على هذه المعاني التي اشتملت عليها ألفاظُ هذا الفصل ؛ فمن ذلك الخطبة التي رواها أبو الحسن عليّ بن محمد المدائنيّ ، عن عبد الله بن جُنادة ، قال : قدِمْتُ من الحجاز أريد العراق ؛ في أوّلِ إمارة عليّ عليه السلام ، فمررت بمكة ، فاعترمت ، ثم قدِمْتُ المدينة ، فدخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إذ نودي : الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس ، وخرج عليّ عليه السلام متقلّداً سيفه ، فشخصت الأبصارُ نحوه ، فحمد الله وصلى على رسوله ، صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

أما بعد ، فإنه لما قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله ، قلنا : نحن أهلُ وورثته وعِترته ، وأولياؤه دون الناس ، لا يَنازِعُنا سلطانَه أحد ، ولا يطمع في حقنا طامع ؛ إذ انبرى لنا قومنا فقصبونا سلطان نبيّنا ، فصارت الإمرة ^(١) لغيرنا . وصرنا سوقة ؛ يطمع فينا الضعيف ؛ ويتعزّز علينا الذليل ؛ فبَسكت الأعين مِنّا لذلك ، وخَشِنَت ^(٢) الصدور ، وجزّعت النفوس . وإيمُ الله لولا مخافة الفرقة بين المسابغين ، وأن يعود الكفر ، ويبور الدين ، لسكنا على غير ما كنّا لهم عليه ، فولى الأمرَ ولادة لم يألوها الناس خيراً ، ثم استخرجتموني أيها الناس من بيتي ، فبايعتموني على شَيْنٍ مِنِّي لأمرِكُم ، وفِراسة تَصُدُّقِي ما في قلوب كثير منكم ، وبايعني هَذَانِ الرجلان في أوّل مَنْ بايع ، تعلمون ذلك ، وقد نكثا وغَدَرَا ، ونهضا إلى البصرة بمائسة ليفرقا جماعتكُم ، ويُلقيا بأسَكُم بينكُم . اللهم نخذها بما عملا أخذَ رابية ^(٣) ،

(١) « الإمارة » . (٢) كذا في ج ، وخشنت أي أوغرت ، ومنه قول عنترة :

* وَخَشِنَتْ صَدْرًا جِيْبُهُ لَكَ نَاصِحُ *

وفي « خشيت » ، والوجه ما أثبتته من أ

(٣) ب : « أخذت واحدة رابية » ، وما أثبتته عن أ . وأخذت رابية ، أي أخذت تريد على الأخذات ، وقال الجوهري : أي زائدة ، كقولك : أريت ، لذا أخذت أكثر مما أعطيت ، قال تعالى : ﴿ فَمَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاْخَذَهُمْ اْخَذَةً رَابِيَةً ﴾ .

ولا تنعش^(١) لها صرعة ، ولا تقبل لها عثرة ، ولا تمهلها فؤاقا^(٢) ، فإنهما يطلبان حقا تركاه ،
ودما سفكاه . اللهم إني أقتضيك وعدك ، فإنك قلت وقولك الحق : « ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ
اللَّهُ ^(٣) » اللهم فَأُنْجِزْ لِي موعداك ، ولا تسكنني إلى نفسي ، إنك على كل شيء قدير .
ثم نزل .

[خطبته عند مسيره للبصرة]

وروى الكلبي قال : لما أراد عليّ عليه السلام المسير إلى البصرة ، قام فخطب
الناس ، فقال بعد أن حمّد الله وصلى على رسوله ، صلى الله عليه :
إِنَّ اللَّهَ لما قبض نبيّه ، استأثرت علينا قريش بالأمر ، ودفعتنا عَنْ حَقِّ نَحْنُ أَحَقُّ بِهِ مِنْ
النَّاسِ كَافَّةً ، فرأيت أَنَّ الصَّبْرَ على ذلك أَفْضَلُ مِنْ تَفْرِيقِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَفْكَ دِمَائِهِمْ .
وَالنَّاسُ حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ ، وَالَّذِينَ يُنْخَضُ يُنْخَضُ الْوُطْبُ ، يُفْسِدُهُ أَذْنِي وَهْنٌ ،
وَيَعْكِسُهُ أَقْلٌ خُلْفٌ . فَوَلَّى الْأَمْرَ قَوْمٌ لَمْ يَأْلُوا فِي أَمْرِهِمْ اجْتِهَاداً ، ثُمَّ انْتَقَلَوْا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ ،
وَاللَّهُ وَلِيٌّ تَمْحِيطُ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَالْعَفْوُ عَنْ هَفَوَاتِهِمْ . فَمَا بَالُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ، وَلَيْسَا مِنْ هَذَا
الْأَمْرِ بِسَبِيلٍ ! لَمْ يَصْبِرَا عَلَى حَوْلٍ وَلَا شَهْرٍ حَتَّى وَثَبَا وَمَرَقَا ، وَنَازَعَانِي أَمْرًا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُمَا إِلَيْهِ
سَبِيلًا ، بَعْدَ أَنْ بَايَعَا طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ ، يَرْضِعَانِ أُمَّا قَدْ قَطَمْتَ ، وَيُحْيِيَانِ بِدْعَةً
قَدْ أُمِيتَتْ . أَدَمَ عُثْمَانُ زَعْمًا ! وَاللَّهُ مَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلِّي

(١) النعش : الرفح ؛ نعشت فلانا ، إذا جبرته بعد فقر ، وأقلته بعد عثرة .

(٢) الفواق : بفتح الفاء وصمها : ما بين الحلبتين من الوقت ؛ لأنها تحلب ثم تترك سوية يرتضمها الفصيل
لندرس ثم تحلب ؛ يقال : ما أقام عندنا إلا فؤاقا ، أي قدر فواق .

(٣) الآية بأكلها في سورة الحج ٦٠ : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ
ثُمَّ بُنِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

أنفسهم ، وأناراض بحجة الله عليهم وعمله فيهم ، فإن فاء وأنابا فخطهما أحرزا ،
وأنفسهما غنيا ، وأعظم بها غنيمه ! وإن أبيتاً أعطيتهما حد السيف ، وكفى به ناصراً لحق ،
وشافياً لباطل .
ثم نزل .

[خطبته بذي قار]

وروى أبو مخنف عن زيد بن صوحان ، قال : شهدتُ عليا عليه السلام بذي قار^(١) ،
وهو معتمّ بعامة سواد ، ملثف بساج يخطب ، فقال في خطبة :
الحمد لله على كل أمر وحال ، في الغدوة والآصال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن
محمداً عبده ورسوله ، ابتعته رحمة للعباد ، وحياة للبلاد ، حين امتلأت الأرض فتنة ،
واضطرب جبلها ، وعبد الشيطان في أكنافها ، واشتمل عدو الله إبليس على عقائد أهلها ،
فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذي أطفأ الله به نيرانها ، وأخذ به شرارها ، ونزع
به أوتادها ، وأقام به ميثاقها ، إمام الهدى ، والنبي المصطفى ، صلى الله عليه وآله . فلقد صدع
بما أمر به ، وبلغ رسالات ربه ، فأصلح الله به ذات البين ، وآمن به السبل ، وحقق به
الدماء ، وألف به بين ذوي الضعائن الواغرة في الصدور ، حتى أتاه اليقين ، ثم قبضه
الله إليه حميدا . ثم استخلف الناس أبا بكر ، فلم يأل جهداً ، ثم استخلف أبو بكر عمر فلم
يأل جهداً ، ثم استخلف الناس عثمان ، فنال منكم وندم منه ، حتى إذا كان من أمره
ما كان ، أتيتموني لتبايعوني ، لا حاجة لي في ذلك ، ودخلت منزلي ، فاستخرجتموني
فقبضت يدي فبسطتموها ، وتداكم^(٢) على ، حتى ظننت أنكم قاتلي ، وأن بعضكم
قاتل بعض ، فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ولا جدل .

(١) ذوقار : موضع قريب من البصرة ؛ وهو المكان الذي كانت فيه الحرب بين العرب والفرس .

(٢) تداكم : تراحم .

وقد علم الله سبحانه أني كنتُ كارها للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وآله ،
ولقد سمعته يقول : « ما من والٍ يَلِي شَيْئاً من أُمْرِ أُمَّتِي إِلَّا أُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ ، ثُمَّ يُنْشَرُ كِتَابُهُ ، فَإِنْ كَانَ عَادِلاً نَجَا ،
وإِنْ كَانَ جَائِراً هَوِيَ » ، حتى اجتمع على ملؤكم ، وبايعني طلحة والزبير ، وأنا أعرفُ
الغدر في أوجههما ، والنكث في أعينهما ، ثم استأذنانِي في العُمرة ، فأعلمتهما أن ليس العُمرة
يريدان ، فسارا إلى مكة واستخفّا عائشة وخذعاها ، وشخص معهما أبناء الطلقاء^(١) ،
فقدّموا البصرة ، فقتلوا بها المسلمين ، وفعلوا المنكر . وباعبجبا لاستقامتهما لأبي بكر وعمر
وبنيهما على ! وهما يعلمان أنني لست دون أحدهما ، ولو شئت أن أقول لقلت ؛ ولقد كان
معاوية كتب إليهما من الشام كتاباً يخدعهما فيه ، فكتماه عني ، وخرجا يؤهمان الطّغّام
أنهما يطلبان بدم عثمان ؛ والله ما أنكرنا على منكرنا ، ولا جعلنا بيني وبينهم نصفاً ، وإن
دم عثمان لمعصوب بهما ، ومطلوب منهما . يا خبيبة الدّاعي ! إلّام دعاً ! وبماذا أجيب ؟
والله إنهما لعلّ ضلالة صمّاء ، وجهالة عمياء ، وإنّ الشيطان قد ذمّر لها حيزه ، واستجلب
منهما خيله ورجله ، ليعيد الجوز إلى أوطانه ، ويردّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه ، فقال : اللهم ! إنّ طلحة والزبير قطعاني ، وظلماني ، وألبا على ،
ونكثا بيعتي ، فاحلّل ماعقدا ، وانكث ما أبرما ، ولا تفقر لهما أبداً ، وأرها المساءة
فيما عملا وأملا !

قال أبو مخنف : فقام إليه الأشتر فقال :

الحمد لله الذي منّ علينا فأفضل ، وأحسن إلينا فأجمل ، قد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد
أصبت ووفقت ، وأنت ابن عمّ نبينا وصهره ووصيه ، وأوّل مصدّق به ، ومصلّ معه ، شهدت

(١) الطلقاء : هم الذين خلى عنهم الرسول عليه السلام يوم فتح مكة ، وأطلقهم فلم يسترقهم ، واحدهم
طليق ، فعمل بمعنى مفعول ، وهو الأسير إذا أطلق سبيله .

مشاهدَه كُلَّهَا ، فَسَكَانُ لَكَ الْفَضْلُ فِيهَا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ ، فَمَنْ اتَّبَعَكَ أَصَابَ حَظَّهُ ،
وَاسْتَبْشَرَ بَفَلَاحِهِ ، وَمَنْ عَصَاكَ ، وَرَغِبَ عَنْكَ ؛ فَإِلَى أُمَّةِ الْهََاوِيَةِ ! لِعَمْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَا أَمْرٌ طَلَعَهُ وَالزَّبِيرُ وَعَائِشَةُ عَلَيْنَا بِمُخَيَّلٍ ، وَلَقَدْ دَخَلَ الرِّجَالَانِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ ، وَفَارَقَا عَلَى
غَيْرِ حَدَثٍ أَحْدَثَتْ ، وَلَا جَوْرٍ صَنَعَتْ ؛ فَإِنْ زَعَمَا أَنَّهُمَا يَطْلُبَانِ بَدَمَ عُثْمَانَ فَلْيَقْبِذَا مِنْ
أَنْفُسِهِمَا فَإِنَّهُمَا أَوَّلُ مَنْ أَلَبَّ عَلَيْهِ وَأَغْرَى النَّاسَ بِدَمِهِ ، وَأَشْهَدُ اللَّهَ ، لَنْتَنَ لَمْ يَدْخُلَا فِيمَا
خَرَجَا مِنْهُ لَنُلْجِحَنَّ لَهُمَا بَعْمَانُ ، فَإِنَّ سَيُوفَنَا فِي عَوَاتِقِنَا ، وَقُلُوبَنَا فِي صُدُورِنَا ، وَنَحْنُ الْيَوْمَ كَمَا
كُنَّا أَمْسَ . ثُمَّ قَعَدَ .

(٢٣)

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ ؛ فَإِنْ ^(١) رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلِ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ ؛ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً ، فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْفِرْ ذَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُعْرِى بِهَا لثَامُ النَّاسِ ؛ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ ، وَيُرْفَعُ عَنْهُ بِهَا الْمَغْرَمُ . وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيُّ مِنَ الْخِلْيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ ؛ إِمَّا دَاعِيَ اللَّهِ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ ؛ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ ؛ وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ .

إِنَّ أَلَمَالَ وَالْبَنِينَ حَرِثُ الدُّنْيَا ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرِثُ الْآخِرَةِ ؛ وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ ؛ فَأَحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ ، وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِبَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكِلْهُ اللَّهُ إِلَى مَنْ يَحْكُمُ لَهُ . نَسَأَلُ اللَّهَ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَمُعَايِشَةَ السَّعْدَاءِ ، وَمُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَا يَسْتَفْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَالسِّدِّهِمْ ؛ وَهُمْ أَكْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ ، وَالْمُهْمُ لِشَعْبِهِ ، وَأَعْظَمُهُمْ

(١) ب : « فإذا » .

عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِنْ ^(١) نَزَلَتْ بِهِ ، وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورَثُهُ غَيْرُهُ .

ومنها :

أَلَا لَا يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخُصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لَا يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ . وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا يَقْبِضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ ، وَتَقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ .
وَمَنْ تَلَنْ حَاشِيَتَهُ يَسْتَدِمُ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ .

قال الرضی رحمہ اللہ ^(٢) :

أَقُولُ : الْغَفِيرَةُ هَاهُنَا الزِّيَادَةُ وَالْكَثْرَةُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ لِلْجَمْعِ الْكَثِيرِ : الْجَمُّ الْغَفِيرِ ، وَالْجَمَّاءُ الْغَفِيرُ . وَيُرْوَى : « عَفْوَةٌ مِنْ ^(٣) أَهْلِ أَوْ مَالٍ » ، وَالْعَفْوَةُ : الْخِيَارُ مِنَ الشَّيْءِ ؛ يُقَالُ : أَكَلْتُ عَفْوَةَ الطَّعَامِ ، أَيْ خِيَارَهُ .

وَمَا أَحْسَنَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُهُ : « وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ... » إِلَى تَمَامِ الْكَلَامِ ، فَإِنَّ أَلْمُسِكَ خَيْرَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ ، إِنَّمَا يُنْسِكُ نَفْعَ يَدٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا احْتِاجَ إِلَى نُصْرَتِهِمْ وَاضْطَرَّ إِلَى مُرَافَقَتِهِمْ ، قَعَدُوا عَنْ نُصْرِهِ ، وَتَنَاقَلُوا عَنْ صَوْتِهِ ؛ فَمُنِيعَ تَرَاثُفِ الْأَيْدِي الْكَثِيرَةِ وَتَنَاهُضِ الْأَقْدَامِ الْجَمَّةِ .

(٢) ساقطة من أ .

(١) ب : « إِذَا » .

(٣) أ : « فِي » .

الشَّرْحُ :

الفالج : الظافر الفائر ، فَلَجَ يَفْلُجُ ، بالضم ، وفي المثل : « مَنْ يَأْتِ الْحَكَمَ وَحْدَهُ يَفْلُجُ » . والياسر : الذى يلعب بالقِداح ، واليَسَرُّ مثله ، والجمع أيسار . وفي الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : كالياسر الفالج ، أى كاللاعب بالقِداح المحظوظ منها ، وهو من باب تقديم الصفة على الموصوف ، كقوله تعالى : ﴿ وَغَرَّابِيبُ سُودٌ ﴾^(١) ، وَحَسَنَ ذَلِكَ هَاهُنَا أَنَّ اللَّفْظَيْنِ صِفَتَانِ ، وَإِنْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مَرْتَبَةً عَلَى الْأُخْرَى .

وقوله : « لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ » ، أى لَيْسَتْ بِذَاتِ تَعْذِيرٍ ، أى تقصير ، لحذف المضاف ، كقوله تعالى : ﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ﴾^(٢) أى ذى النَّارِ .
وقوله : « هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيَاطَةً » كَبَيْعَةً ، أى رعاية وكلاءة ، ويروى : « حَيْطَةً » ، كَفَيْيَةً ، وهى مصدر حاط أى تحننا وتعطنا .

والخصاصة : الفقر ، يقول : القضاء والقدر ينزلان من السماء إلى الأرض كقطر المطر ، أى مبعوث فى جميع أقطار الأرض إلى كلِّ نفس بما قَسِمَ لها من زيادة أو نقصان ، فى المال والعمر والجاه والولد وغير ذلك . فإذا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ زِيَادَةً فى رِزْقٍ أو عَمْرٍ أو وَلَدٍ وغير ذلك ؛ فلا يَكُونَنَّ ذَلِكَ لَهُ فِتْنَةً تُفْضِي بِهِ إِلَى الْحَسَدِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لِلْمَسْئَلَةِ إِذَا كَانَ غَيْرَ مُوَاقِعٍ لِدَنَاءَةٍ وَقَبِيحٍ يَسْتَحْيِي مِنْ ذِكْرِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَخْشَعُ إِذَا قَرَّعَ بِهِ ، وَيَغْرَى لِثَامِ النَّاسِ بِهَتَكِ سِتْرِهِ بِهِ ، كَاللَّاعِبِ بِالْقِدَاحِ ؛ الْحُظُوظُ مِنْهَا ، يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ وَغَلَبَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ ، تَجْلِبُ لَهُ نَفْعًا ، وَتَدْفَعُ عَنْهُ ضَرًّا ؛ كَذَلِكَ مَنْ وَصَفْنَا حَالَهُ ، يَصِيرُ وَيَنْتَظِرُ إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ ؛ إِمَّا أَنْ يَدْعُوهُ اللَّهُ فَيَقْبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَيَسْتَأْثِرَ بِهِ ، فَالَّذِى عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ . وَإِمَّا أَنْ يُنْسَأَ فى أَجَلِهِ ، فَيَرْزُقَهُ اللَّهُ أَهْلًا وَمَالًا ، فَيَصْبِحَ وَقَدْ اجْتَمَعَ لَهُ ذَلِكَ مَعَ حَسَبِهِ وَدِينِهِ وَمَرْوَتِهِ الْمَحْفُوظَةِ عَلَيْهِ .

ثم قال : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ حَرِثُ الدُّنْيَا » ، وهو من قوله سبحانه : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ

زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١﴾ ، ومن قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾
نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
نَصِيبٍ ﴿٢﴾ .

قال : وقد يجمعهما الله لأقوام ، فإنه تعالى قد يرزق الرجل الصالح مالا وبنين ،
فتجتمع له الدنيا والآخرة .

ثم قال : « فاحذروا من الله ما حذرکم من نفسه » ، وذلك لأنه تعالى قال :
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ فَارْهَبُوا ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْا ﴾ (٥) ،
وغير ذلك من آيات التحذير .

ثم قال : ولتكن التقوى منكم أقصى نهايات جهدكم ، لا ذات تقصيركم ، فإن
العمل القاصر قاصر الثواب ، قاصر المنزلة .

[فصل في ذم الحاسد والحسد]

واعلم أن مصدرَ هذا الكلام النهي عن الحسد ، وهو من أقبح الأخلاق الذمومة .
وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله : « ألا لا تعادوا نعم الله » ، قيل :
يا رسول الله ، ومن الذي يعادي نعم الله ؟ قال : « الذين يحسدون الناس » .
وكان ابن عمر يقول : تعوذوا بالله من قدر وافق إرادة حسود .

(١) سورة الكهف ٤٦ .

(٢) سورة الشورى ٢٠ .

(٣) سورة البقرة ٤١ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ .

(٤) سورة البقرة ٤٠ . ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ .

(٥) سورة المائدة ٤٤ .

قيل لأرسطو : ما بال الحسود أشد غمًا من المكروب ؟ قال : لأنه يأخذ نصيبه من غوم الدنيا ، ويضاف إلى ذلك غم سرور الناس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وقال منصور الفقيه^(١) :

مُفَاسَّةُ الْفَتَى فِيمَا يَزُولُ عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ
وَمُخْتَارُ الْقَلِيلِ أَقْلٌ مِنْهُ وَكُلُّ فَوَائِدِ الدُّنْيَا قَلِيلُ

ومن الكلام المروى عن أمير المؤمنين عليه السلام : لله در الحسد ! ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله .

ومن كلام عثمان بن عفان : يكفيك من انتقامك من الحاسد أنه يغم وقت سرورك .
وقال مالك بن دينار : شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض ، فإنهم أشد تحاسدا من الشوس في الوب .

وقال أبو تمام :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ ، أُنَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ^(٢)
لَوْلَا أَشْتِمَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ
لَوْلَا مُحَازَرَةُ الْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ^(٣)

وهذا كرقوم من ظرفاء البصرة الحسد ، فقال رجل منهم : إن الناس ربما حسدوا على الصلْب ؛ فأنكروا ذلك ، ثم جاءهم بعد ذلك بأيام ، فقال : إن الخليفة قد أمر بصلب

(١) هو منصور بن إسماعيل بن عيسى التميمي أحد فقهاء الشافعية . طبقات السبكي ٢ . ٣١٧

(٢) ديوانه ١ : ٤٠٢ (٣) الديوان : « لولا التخوف للعواقب » .

الأحفف^(١) بن قيس^(٢) ، ومالك بن مسمع ، وخذان الحجام ؛ فقالوا : هذا الخبيث يُصَلَّب مع هذين الرئيسين ! فقال : ألم أقل لكم إنَّ الناس يحسدون على الصَّلب !
وروى أنس بن مالك مرفوعاً : « إنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .
وفي الكتب القديمة : يقول الله عز وجل : الحاسِدُ عدُوٌّ نِعَمَتِي ، مُنْسَخَطٌ لِّعَمَلِي ،
غير راضٍ بِقِسْمَتِي .

وقال الأصمعي : رأيتُ أعرابياً قد بلغ مائة وعشرين سنة ، فقلت له : ما أطولَ عمرك ! فقال : تركتُ الحسدَ فبقيت .
وقال بعضهم : ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بِمَظْلُومٍ من حاسد .

قال الشاعر :

تراه كأنَّ الله يَجِدُّعُ أنْفَه وأذنيه إنَّ مولاة ثابَّ إلى وَفْرِ
وقال آخر :

قُلْ لِلْحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ ضِغْنُهُ يا ظالِماً وَكَأَنَّهُ مَظْلُومُ !

ومن كلام الحكماء : إِيَّاكَ والحسد ، فإنَّه يَبِينُ فيكَ ولا يَبِينُ في الحسود .
ومن كلامهم : من دناءة الحاسِدِ أَنَّهُ يبدأ بالأقرب فالأقرب .

وقيل لبعضهم : لَزِمْتَ البادية ، وتركْتَ قومَكَ وبلدَكَ ! قال : وهل بقيَ إلَّا حاسدُ
نِعْمَة ، أو شامتُ بِمِصْبِيَة !

بيننا عبد الملك بن صالح يسيرُ مع الرَّشيد في موكبه ، إذ هتف هاتف : يا أمير المؤمنين ،
طأطى من إشرافه ، وقصَّر من عِنايته ، واشدُّد من شِكاله - وكان عبدُ الملك متَّهماً

(١) ساقط من ب

عند الرشيد بالطَّمَع في الخلافة - فقال الرشيد : ما يقول هذا ؟ فقال عبدُ الملك : مقالُ حاسدٍ ودسيسٍ حاقِدٍ يا أمير المؤمنين . قال : قد صدقت ، نقصَ القومُ وفضلتَهم ، وتخلَّفوا وسبقَتَهم ؛ حتى برزَ شأوك ، وقصَّرَ عنك غيرُك ، ففي صدورهم جراتُ التخلُّفِ ، وحزازاتُ التبلدِ . قال عبد الملك : فأضِرَّ منها يا أمير المؤمنين عليهم بالمزيد .
وقال شاعر :

يَا طَائِبَ أَلْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَايَ تَحْضًا بِلَا كَدَرٍ ، صَفَوًا بِلَا رَنَقٍ
خَلَّصَ فَوَادِكَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ فَالْغِلُّ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ
ومن كلام عبد الله بن المعتز : إذا زال المحسودُ عليه ، علمتَ أنَّ الحاسدَ كان يحسُدُ
على غير شيء .

ومن كلامه : الحاسدُ مغتاز على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه .
ومن كلامه : لا راحةَ لحاسد ، ولا حياةَ لحريص .
ومن كلامه : الميِّت يقلُّ الحسدُ له ، ويكثر الكذبُ عليه .
ومن كلامه : ما ذلَّ قوم حتى ضَعُفُوا ، وما ضَعُفُوا حتى تَفَرَّقُوا ، وما تَفَرَّقُوا حتى
اختلفوا ، وما اختلفوا حتى تباغضوا ، وما تباغضوا حتى تحاسدوا ، وما تحاسدوا حتى
استأثر بعضهم على بعض .
وقال الشاعر :

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لَائِمِهِمْ قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا^(١)
قَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غِيظًا بِمَا يَحْسُدُ

(١) من أبيات في أمالي المرتضى ١ : ٤١٤ ، ونسبها إلى السكيت بن زيد ؛ وهي في شرح المختار
من شعر بشار ٦٧ من غير نسبة ، وعيون الأخبار ٢ : ١١ ، وأمالي القالي ٢ : ١٩٨

ومن كلامهم : ما خلا جسدٌ عن حسد .
 وحدُّ الحسد هو أن تفتاظَ مما رزقَه غيرُك ، وتودَّ أنه زال عنه وصار إليك . والغبطة :
 ألا تفتاظ ولا تودَّ زواله عنه ؛ وإنما تودَّ أن تُرزقَ مثله ، وليست الغبطة بمذمومة .
 وقال الشاعر :

حَسَدُوا أَلْفَيَّ إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعِيَهُ فَالْكُلُّ أَعْدَاؤُهُ وَخُصُومُهُ^(١)
 كَضَرَّائِرِ الْحُسْنَاءِ قَانَ لِوَجْهِهَا - حَسَدًا وَبَغِيًّا - إِنَّهُ أَدَمِيمُ
 * * *

[فصل في مدح الصبر وانتظار الفرج]

واعلم أنه عليه السلام بعد أن نهى عن الحسد أمر بالصبر وانتظار الفرج من الله ،
 إما بموتٍ مريح ، أو بظفرٍ بالمطلوب .
 والصبرُ من المقامات الشريفة ، وقد وردت فيه آثارٌ كثيرة ، روى عبد الله بن مسعود
 عن النبي صلى الله عليه وآله : « إنَّ الصبر نصفُ الإيمان ، واليقين الإيمان كله » .
 وقالت عائشة : لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً .
 وقال عليّ عليه السلام : الصبرُ إما صبر على المصيبة ، أو على الطاعة ؛ أو عن المعصية ؛
 وهذا القسم الثالث أعلى درجة من القسمين الأولين .
 وعنه عليه السلام : الحياء زينة ، والتقوى كرم ، وخير المراكب مركب الصبر .
 وعنه عليه السلام : القناعة سيفٌ لا ينبؤ ، والصبر مطيئةٌ لا تكبو ، وأفضل العدة
 الصبرُ على الشدة .

قال الحسن عليه السلام : جَرَبْنَا وَجَرَّبَ الْجَرَّبُونَ ، فلم نَرِ شيئاً أنفعَ وِجداناً ،
 ولا أضرَّ فِقداناً من الصبر ؛ تُدَاوِي به الأمور ، ولا يداوى هُوَ بغيره .

(١) لأبي الأسود الدؤلي ، ملحق ديوانه ٥١ .

وقال سعيد بن محمد الكاتب^(١) :

لَا تَعْتَبَنَّ عَلَى النَّوَائِبِ فَالْدَّهْرُ يُزْنِمُ كُلَّ عَائِبِ
وَاصْبِرْ عَلَى حَدَثَانِهِ إِنَّ الْأُمُورَ لَهَا عَوَاقِبِ
كَمْ نِعْمَةٍ مَطْوِيَّةٍ لَكَ بَيْنَ أَثْنَاءِ النَّوَائِبِ^(٢)
وَمَسْرُوعَةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ حَيْثُ تَنْتَظَرُ الْمَصَائِبِ

ومن كلامهم : الصبر مُرٌّ ، لا يتجرَّعه إلا حُرٌّ .

قال أعرابي : كُنْ حُلُوَّ الصَّبْرِ غُنْدَ مَرَارَةِ الْفَازِلَةِ .

وقال كسرى لِبَرْزُجُهر : ما علامة الظفر بالأمور المطلوبة المستصعبة ؟ قال : ملازمة

الطلب ، والحفاظ على الصبر ، وكنان السر .

وقال الأحنف بن قيس : لست حليماً ؛ إنما أنا صبور ، فأفادني الصبر صِفَتِي بِالْحِلْمِ .

وسئل علي عليه السلام : أئى شيء أقرب إلى الكفر ؟ قال : ذو فاقة لا صبر له .

ومن كلامه عليه السلام : الصبر يُنَاضِلُ الْخَدَثَانِ ، وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ .

وقال أعشى همدان :

إِنْ نَلْتُ لَمْ أَفْرَحْ بِشَيْءٍ نَلْتُهُ وَإِذَا سُوِّقْتُ بِهِ فَلَا أَتَلَهَّفُ^(٣)
وَمَتَى تُصِيبُكَ مِنَ الْخَوَاصِ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ فَكُلَّ غِيَابَةٍ تَتَكَشَّفُ

والأمر يذكر بالأمر ، وهذا البيت هو الذى قاله له الحجاج يوم قتله ، ذكر ذلك

أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري في " الأمل " ، قال : لما أُتِيَ الحجاجُ بأعشى

همدان أسيراً ؛ وقد كان خرج مع ابن الأشعث ، قال له : يا ابن اللخناء ! أنت القائل

لعدوِّ الرحمن - يعنى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث :

(١) البيتان : الثالث والرابع في شرح المختار من شعر بشار ٣١٤ ، من غير نسبة .

(٢) شرح المختار : " كم فرجة " .

(٣) ديوان الأعشى ٣٥ ، مع اختلاف في الرواية والترتيب .

يَا بْنَ الْأَشَجِّ قَرِيعَ كِنْدَ دَهْ لَا أُبَالِي فِيكَ عَتَبَا^(١)
 أَنْتَ الرَّئِيسُ ابْنُ الرَّئِثِ سِ، وَأَنْتَ أَعْلَى النَّاسِ كَعْبَا^(٢)
 نَبَّئْتُ حِجَاجَ بْنَ يَوْسَ فَمَ خَرَّ مِنْ زَلَقِي فَتَبَا
 فَأَهْضَمْتُ هُدَيْتَ لَعَلَّهُ يَجْلُو بِكَ الرَّحْمَنُ كَرَبَا^(٣)
 وَابْعَثْ عَطِيَّةً فِي الْحُرُوبِ بِيَكْبَهْنٍ عَلَيْهِ كَبَا

ثم قال : عبد الرحمن خَرَّ مِنْ زَلَقِي فَتَبَّ ، وخِسر وانكَبَّ ، وما لقيَ ما أَحَبَّ .
 وورفع بها صوته ، واهتز مَدِكِبَاهُ ، ودرَّ وَدَجَاهُ^(٤) ، واحمرَّت عيناه ، ولم يبق في المجلس إلا
 من هابه ، فقال : أيها الأمير ، وأنا القائل :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّمَ نُورُهُ وَيُطْفِئَ نَارَ الْكَافِرِينَ فَتَحْمَدَا^(٥)
 وَيُنْزِلَ ذُلًّا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ كَمَا نَقَضُوا الْعَهْدَ الْوَثِيقَ الْمُؤَكَّدَا
 وَمَا لَيْتَ الْحِجَاجَ أَنْ سَلَّ سَيْفَهُ عَلَيْنَا ، فَوَلَّى جَمْعُنَا وَتَبَدَّدَا

فالتفت الحِجَاجُ إِلَى مَنْ حَضَرَ ، فقال : مَا تَقُولُونَ ؟ قَالُوا : لَقَدْ أَحْسَنَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ،
 وَنَحْنُ بِأَخِيرِ قَوْلِهِ أَوَّلُهُ ، فَلْيَسْعُهُ حِلْمُكَ . فقال : لَا هَا اللَّهُ ! إِنَّهُ لَمْ يَرُدْ مَا ظَنَنْتُمْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ
 تَحْرِيطَ أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَيْلَكَ ! أَلَسْتَ الْقَائِلُ :

إِنْ نَلْتُ لَمْ أَفْرَحْ بِشَيْءٍ نَلْتُهُ وَإِذَا سُمِّقْتُ بِهِ فَلَا أَتَلَهَفُ
 وَمَتَى تُصِيبَكَ مِنَ الْخَوَادِثِ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ ، فَكُلُّ غِيَابَةٍ تَتَكَشَّفُ
 أَمَا وَاللَّهِ لَتُظْلِمَنَّ عَلَيْكَ غِيَابَةٌ لَا تَتَكَشَّفُ أَبَدًا ، أَلَسْتَ الْقَائِلُ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ :
 وَإِذَا سَأَلْتَ الْحَمْدَ أَيْنَ مَحَلُّهُ فَالْجَدُّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَسَعِيدٍ

(١) ديوان الأعشى ٣١٢ (٢) ديوان الأعشى : « أَعْلَى الْقَوْمِ » .

(٣) ديوان الأعشى : « فِدَيْت » .

(٤) يقال : در العرق ، إِذَا امْتَلَأَ دَمًا ، وَالْوُدْجَانُ : عِرْقَانِ فِي الْعُنُقِ .

(٥) ديوان الأعشى ٣٢٠ ، مع اختلاف في الرواية وترتيب الآيات .

(٢١ - شرح نهج البلاغة - أول)

— ٣٢٢ —

بَيْنَ الْأَشْجِّ وَبَيْنَ قَيْنَسٍ نَارِلٌ بَخْ بَخْ لِوَالِدِهِ وَلِلْمَوْلُودِ^(١)
والله لا يُبَخِّخُ^(٢) بعدها أبدا : يا حرسى اضرِبْ عُنُقَهُ .

ومما جاء فى الصبر قيل للأحنف : إنك شيخٌ ضعيف ، وإن الصيام يَهْدُكَ .
فقال : إني أعدّه لشرٍّ يومٍ طويل ، وإن الصبرَ على طاعة الله أهونُ من الصبر على
عذاب الله .

ومن كلامه : مَنْ لم يَصْبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات . ربّ غيظٍ قد تجرّعتُه مخافة ما هو
أشدّ منه .

يونس بن عبيد : لو أمرنا بالجزع لصبرنا .

ابن السّامك : المصيبة واحدة ، فإن جزع صاحبها منها صارت اثنتين . يعنى : فقد
المصاب وفقد الثواب .

الحارث بن أسد الحاسبى : لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر
العقل الصبر .

جابر بن عبد الله : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإيمان ، فقال : « الصبر
والسماحة » .

وقال المعتابى :

اصْبِرْ إِذَا بَدَّهَتْكَ نَارِيَّةٌ مَاعَالَ مُنْقَطِعٍ إِلَى الصَّبْرِ
الصَّبْرُ أَوْلَى مَا اعْتَصَمْتَ بِهِ وَلَنِعْمَ حَشْوُ جَوَارِحِ الصَّدْرِ

ومن كلام على عليه السلام : الصبر مفتاح الغفر ، والتوكل على الله رسول الفرج .

ومن كلامه عليه السلام : انتظار الفرج بالصبر عبادة .

أَكْثَمَ بن صَيْفَى : الصبر على جرّع الحمام أعذب من جنب النّدم .

(١) ديوان الأعشى ٣٢٣ .

(٢) يخبّخ الرجل ؛ إذا قال : يخ ، وفى اللسان : « والله لا يخبّخ بعدها » .

ومن كلام بعض الزهاد: واصبر على عمل لا غناء بك عن ثوابه ، واصبر عن عمل لا صبر على عقابك به .

وكتب ابن العميد: أقرأ في الصبر سورة ، ولا أقرأ في الجزع آية . وأحفظ في التماسك والتجمل قصائد ، ولا أحفظ في التهاوت قافية .

وقال الشاعر :

وَيَوْمَ كَيَوْمِ الْبُعْثِ مَا فِيهِ حَاكِمٌ وَلَا عَاصِمٌ إِلَّا قَبْلاً وَدُرُوعٌ
حَبَسْتُ بِهِ نَفْسِي عَلَى مَوْقِفِ الرَّدَى حِفَاطًا وَأَطْرَافِ الرَّمَاحِ شُرُوعٌ
وَمَا يَسْتَوِي عِنْدَ الْمَمَاتِ إِنْ عَرَّتْ صَبُورٌ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَجَزُوعٌ
أبو حية النُميري :

إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجَرُّبَةً لِلصَّبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُودَةً الْأَثَرِ
وَقُلٌّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يُحَاوِلُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ

ووصف الحسن البصري علياً عليه السلام ، فقال : كَانَ لَا يَجْهَلُ ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْهِ حَلُمٌ . وَلَا يَظْلِمُ ، وَإِنْ ظَلِمَ غَفَرَ . وَلَا يَبْخُلُ ، وَإِنْ بَخِلَتْ الدُّنْيَا عَلَيْهِ صَبْرٌ .

عبد العزيز بن زُرارة الكلابي :

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطْوَاراً عَلَى طُرُقِ شَيْءٍ فَقَسَّاسْتُ مِنْهُ الْخُلُوعَ وَالْبَشْعَا^(١)
كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءَ تُبْطِرُنِي وَلَا تَخْشَعُنِي مِنْ لَأْوَاهَا جَزَعَا
لَا يَمْلَأُ الْأَمْرُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي إِذَا وَقَعَا
ومن كلام بعضهم : مَنْ تَبَصَّرَ نَصَبَ . الصَّبْرُ يَفْسَحُ الْفُرَجَ ، وَيَفْتَحُ الْمُرْتَجَّحَ . الْحُفْنَةُ إِذَا تُلْقِيَتْ بِالرِّضَا وَالصَّبْرُ كَانَتْ نِعْمَةً دَائِمَةً ، وَالنِّعْمَةُ إِذَا خَلَّتْ مِنَ الشُّكْرِ كَانَتْ نِحْنَةً لَازِمَةً .

(١) ديوان المعاني ١ : ٨٨ ؛ وفي نسبة هذه الأبيات وروايتها خلاف ، انظره في حواشي الآتي ٤١٢ .

قيل لأبي مسلم صاحب الدولة . بِمَ أَصَبْتَ مَا أَصَبْتَ ؟ قال : ارْتَدَيْتُ بِالصَّبْرِ ،
واتزرت بالسكتمان ، وحالفتُ الحزم ، وخالفتُ الهوى ، ولم أجعل العدوَّ صديقاً ،
ولا الصديقَ عدواً .

منصور النعمري في الرشيد .

وَلَيْسَ لِأَعْبَاءِ الْأُمُورِ إِذَا عَرَتْ بِمَكَتَرٍ لَكِنْ لَهُنَّ صَبُورُ
يُرَى سَاكِنِ الْأَطْرَافِ بِاسِطَ وَجْهِهِ يُرِيكَ الْهُوَيْنَى وَالْأُمُورُ نَظِيرُ
من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : أوصيكم بخمس لو ضربتكم إليهنَّ آباطُ الإبل
كانت لذلك أهلاً : لا يَرْجُونَ أَحَدُكُمْ إِلَّا رَبَّهُ ، ولا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ ، ولا يَسْتَحْيِينَ إِذَا
سُئِلَ عَمَلًا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ لَا أَعْلَمُ ، ولا يَسْتَحْيِي إِذَا جَهِلَ أَمْرًا أَنْ يَتَعَلَّمَهُ . وعليكم بالصبر ،
فإنَّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فكما لا خَيْرَ في جسدٍ لا رأسَ له ،
لا خَيْرَ في إيمانٍ لا صبرَ معه .

وعنه عليه السلام : لا يعدم الصَّبُّورُ الظَّفَرَ ، وإن طال به الزمان .

نهشل بن حرَّي :

وَبِوَيْمٍ كَانَ الْمِصْطَلِينَ بِحَرِّهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَحْرًا قِيَامٌ عَلَى جَحْرِ
صَبْرَنَا لَهُ حَتَّى تَجَلَّى وَإِنَّمَا تَفَرَّجُ أَيَّامُ السَّكْرِيهَةِ بِالصَّبْرِ

على عليه السلام : اطرَحْ عَنْكَ وَاِرْدَاتِ الْهُمُومِ بِعِزِّ الصَّبْرِ وَحَسَنِ الْيَقِينِ .

وعنه عليه السلام : وإن كنت جازعاً على ما تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فاجزَعْ عَلَى كُلِّ مَالٍ

يصل إليك !

وفي كتابه عليه السلام الذي كتبه إلى عَقِيلِ أَخِيهِ : ولا تحسبنَّ ابنَ أُمِّكَ - ولو أسلمه
الناس - متضرعاً متخشعاً ، ولا مقرّاً للضيمِّ وإهنا ، ولا سَلِسَ الزمامَ للقائد ، ولا وطيءَ
الظَّهْرَ للراكب ، ولا كنهه كما قال أخو بني سُلَيْمٍ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبٌ^(١)
يَعِزُّ عَلَى أَنْ تُرَى بِي كَأَبَةٌ فَيَسْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبٌ

[فصل في الرياء والنهي عنه]

واعلم أنه عليه السلام، بعد أن أمرنا بالصبر، نهى عن الرياء في العمل، والرياء في العمل منهى عنه ، بل العمل ذو الرياء ليس بعمل على الحقيقة ، لأنه لم يُقصد به وجه الله تعالى . وأصحابنا المتكلمون يقولون : ينبغي أن يعمل المكلف الواجب لأنه واجب ، ويحتنب القبيح لأنه قبيح ، ولا يفعل الطاعة ويترك المعصية رغبة في الثواب ، وخوفاً من العقاب ؛ فإن ذلك يُخرج عمله من أن يكون طريقاً إلى الثواب ؛ وشبهوه بالاعتذار في الشيء ؛ فإن من يعتذر إليك من ذنب خوفاً أن تعاقبه على ذلك الذنب ، لا ندماً على القبيح الذي سبق منه ، لا يكون عُذْرُهُ مقبولاً ، ولا ذنبه عندك مغفوراً . وهذا مقامٌ جليل لا يصل إليه إلا الأفراد من ألوف الألوف .

وقد جاء في الآثار من النهي عن الرياء والسمعة كثير ، روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « يُؤْتَى في يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال - أو قال : كجبال تهامة - وله خطيئة واحدة ، فيقال : إنما عملتها ليُقَالَ عنك ، فقد قيل ؛ وذاك ثوابك وهذه خطيئتك ، أدخلوه بها إلى جهنم » .

وقال عليه السلام : « ليست الصلاة قيامك وعودك ، إنما الصلاة إخلاصك ، وأن تُريدَ بها الله وحده » .

وقال حبيب الفارسي : لو أن الله تعالى أقامني يوم القيامة وقال : هل تعدّ سجدةً سجدتَ ليس للشيطان فيها نصيب لم أقدر على ذلك .

(١) مجموعة المعاني ٧٢ ، وهما لصخر بن عمرو السلمي ، والأول من أبيات أربعة في الأغاني ١٥ : ٧٩

توصل عبد الله بن الزبير إلى امرأة عبد الله بن عمر - وهي أخت المختار بن أبي عبيد
الثقفى - في أن تكلم بعلمها عبد الله بن عمر أن يبايعه . فكلّمته في ذلك ، وذكرت
صلاته وقيامه وصيامه ، فقال لها : أما رأيت البغلات الشهب التي كُنّا نراها تحت معاوية
بالحجر إذا قدم مكة ؟ قالت : بلى ، قال : فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته !
وفي الخبر المرفوع : « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء في العمل ، ألا وإن الرياء
في العمل هو الشرك الخفي » :

صَلَّى وَصَامَ لِأَمْرِ كَانَ يَطْلُبُهُ حَتَّى حَوَاهُ فَلَا صَلَّى وَلَا صَامَاً

[فصل في الاعتضاد بالعشيرة والتكثير بالقبيلة]

ثم إنه عليه السلام بعد نهيه عن الرياء وطلب السمعة ؛ أمر بالاعتضاد بالعشيرة والتكثير
بالقبيلة ؛ فإن الإنسان لا يستغنى عنهم وإن كان ذا مال ، وقد قالت الشعراء في هذا المعنى
كثيراً ؛ فمن ذلك قول بعض شعراء الحماسة ^(١) :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْضَبْ لَهُ حِينَ يَغْضَبُ	فَوَارِسُ إِنْ قِيلَ أَرَكُبُوا الْمَوْتَ كَبُورًا
وَلَمْ يَحْبِبْهُ بِالنَّصْرِ قَوْمٌ أَعَزَّةٌ	مَقَاحِيمُ فِي الْأُمْرِ الَّذِي يُتَهَيَّبُ ^(٢)
تَهَضُّمُهُ أَدْنَى الْعُدَاةِ فَلَمْ يَزَلْ	وَإِنْ كَانَ عِضًّا بِالظَّلَامَةِ يُضْرَبُ ^(٣)
فَسَاحَ لِحَالِ السَّلْمِ مَنْ شِئْتَ وَاعْلَمَنْ	بِأَنَّ سِوَى مَوْلَاكَ فِي الْحَرْبِ أَجْنَبُ
وَمَوْلَاكَ مَوْلَاكَ الَّذِي إِنْ دَعَوْتَهُ	أَجَابَكَ طَوْعًا وَالدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
فَلَا تَخْذُلِ الْمَوْتَى وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا	فَإِنَّ بِهِ تُشَاي الْأُمُورُ وَتُرَابُ ^(٤)

(١) في الحماسة ٢ : ٢١١ : « قراد بن عباد » ، وصححه التبريزي : « قراد بن العيار » ، وقال :
« أبوه العيار أحد شياطين العرب » .

(٢) مقاحيم : جمع مقحاج ؛ وهو الذي يخوض قحمة الشيء ؛ أي معظمه .

(٣) تهضمه ، أي كسره وأذله . والعرض : المنكر الشديد اللسان .

(٤) تشاى : تخرق وفتق .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أَفِيقُوا بَنِي حَزَنٍ وَأَهْوَاؤَنَا مَعًا
لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرٌ بِقِيَّةٍ
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ وَأَمَلَكُ مِنْهُمْ
وَإِنْ حَدَّثَكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ
وَأَرْحَامُنَا مَوْصُولَةٌ لَمْ تُقَضِّبِ^(١)
عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلُّ مَرْكَبٍ
لَتَعَزَّى إِلَيْهِمْ فِي خَبِيثٍ وَطَيْبٍ
عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذَّبِ

ومن شعر الحماسة أيضاً :

لَعَمْرُكَ مَا أَنْصَفْتَنِي حِينَ سُمِّتَنِي
إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى فَرِغْتُ لِيُظْلِمِهِ
هَوَاكَ مَعَ الْمَوْتَى وَأَنْ لَا هَوَى لِيَا^(٢)
خَرَقَ أَحْسَابِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا

ومن شعر الحماسة أيضاً :

وَمَا كُنْتُ أَبْغِي الْعَمَّ يَمْشِي عَلَى شَفَا
وَلَكِنْ أَوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ سُوءُ صَنِيعَةٍ
وَأَنْ بَلَّغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجَفَادِ^(٣)
لَتَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
مُنَاوَاةُ ذِي الْقُرْبَى وَأَنْ قِيلَ قَاطِعُ^(٤)

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أَلَا هَلْ أَتَى الْأَنْصَارَ أَنْ ابْنَ بَحْدَلٍ
فَانَا وَكَلْبًا كَالْيَدَيْنِ مَتَى تَقَعُ
مُحَمَّدًا شَفَى كَلْبًا فَقَرَّتْ عَيْنُونَهَا^(٥)
شِمَاكَ فِي الْهَيْجَا يُعْنِيهَا

-
- (١) ديوان الحماسة (١ : ٣١٨) بشرح المرزوقي ، ونسبه التبريزي (١ : ٢٩٧) إلى جندل بن عمرو . معاً ، أي مجتمعة . والفضب : القطع ؛ ولم يرد في الحماسة سوى البيت الأول .
(٢) ديوان الحماسة (١ : ٣٥٠) بشرح التبريزي ، ونسبه إلى حريث بن جابر .
(٣) ديوان الحماسة (١ : ٣٨٠) بشرح التبريزي ، ونسبه إلى محمد بن عبد الله الأزدي وروايته : « لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي . . . » ، وشفا الشيء : حرقه . والجنادع : الدواهي .
(٤) يجوز فتح همزة « لَنْ » وكسرهما ، وانظر التبريزي .
(٥) ديوان (الحماسة ٢ : ٥٢٢) بشرح المرزوقي وهي هناك أربعة أبيات ؛ هنا الأول والرابع منها ، ونسبها إلى بعض بني جهينة .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

أخوك أخوك من ينأى وتدنو مودته وإن دعى استجاباً^(١)
إذا حاربت حارب من تعادى وزاد غناؤه منك اقترباً^(٢)
يواصي في كريهته ويدنو إذا ما مضى الحداث نأياً^(٣)

[فصل في حسن الثناء وطيب الأحذوثة]

ثم إنه عليه السلام ذكر أن لسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خيراً له من المال يورثه غيره . ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به ، قال سبيحانه : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾^(٤) .

وقد ورد في هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنة هريم : ما الذي أعطى أبوك زهيراً ؟ قالت : أعطاه مالا ينفى ، وثيابا تنبئ . قال : لكن ما أعطاكم زهير لا ينبئ به الدهر ، ولا يفتنيه الزمان .

ومن شعر الحماسة أيضاً :

إذا أنت أعطيت النفي ثم لم تجد بفضل النفي ألفت مالك حامداً^(٥)
وقل غناء عنك مال جمعه إذا كان ميراثاً وواراك لأحد

وقال يزيد بن المهلب : المال والحياة أحب شيء إلى الإنسان ، والثناء الحسن أحب إلى منهما ؛ ولو أني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع بها ما يقال في غدا وقد ميت كريمة .

وحكى أبو عثمان الجاحظ عن إبراهيم السندى ، قال : قلت في أيام ولايتي الكوفة

(١) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقي ٢ : ٥٤٢ ، ونسبها إلى ربيعة بن مقروم .

(٢) الحماسة : « وزاد سلاحه » .

(٣) لم يذكر هذا البيت في الحماسة . (٤) سورة الشعراء ٨٤ .

(٥) ديوان الحماسة ٣ : ١١٩٩ بشرح المرزوقي ، من أبيات نسبها إلى محمد بن أبي شعاذ .

لرجل من وجوهها - كان لا يحفت لبذنه ولا يستريح قلمه ، ولا تسكن حركته في طلب
حوائج الناس ، وإدخال السرور على قلوبهم ، والرفق على ضعفاءهم ، وكان عفيف الطعمة .
خبرني عما هوّن عليك النصب ، وقوّاك على التعب ؟ فقال : قد والله سمعتُ غناء الأطيّار
بالأسحار ، على أغصان الأشجار ، وسمعتُ خفق الأوتار ، وتجاوب العود والمزمار ، فما
طربتُ من صوت قطّ طرّبي من ثناء حسن على رجل محسن ، فقلت : لله أبوك !
فلقد ملئت كرمًا .

وقال حاتم :

أماوي إن يصبّح صدّاي بفقرةٍ من الأرض لا ماء لدى ولا تحرم^(١)
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرّني^(٢) وأنّ يدي مما بخلت به صفرُ
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر^(٣)
بعض المحدثين :

من اشتري بماله حسن الثناء غنياً
أفقره سملحه وذلك الفقر الفنى
ومن أمثال الفرس : كل ما يؤكل يننّ ، وكل ما يوهب يارج .
وقال أبو الطيّب :

ذكرُ الفتى عمره الثّاني وحاجتهُ ما قاته وفُضُولُ العيش أشغال^(٤)

[فصل في مواساة الأهل وصلة الرحم]

ثم إنه عليه السلام بعد أن قرّظ الثناء والذكّر الجميل ، وفَضّله على المال ، أمر بمواساة

(٢) الديوان : « ما أهـلكت » .

(١) ديوانه ١١٨ .

(٤) ديوانه ٣ : ٢٨٨ .

(٣) الديوان : « إذا حشرجت نفس » .

الأهل ، وصلة الرحم ، وإن قل ما يواسى به ، فقال : « ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة... » ، إلى آخر الفصل ، وقد قال الناس في هذا المعنى فأكثرُوا .

فمن ذلك قول زهير :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَفَنَ عَنْهُ وَيُذَمُّ^(١)
وقال عثمان : إن عمر كان يمنع أقباءه ابتغاء وجه الله ، وأنا أعطيتهم ابتغاء وجه الله ، ولن تروا مثل عمر .

أبو هريرة مرفوعا : « الرحمُ مشتقة من الرحمن ، والرحمن اسم من أسماء الله العظمى ، قال الله لها : من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » .

وفي الحديث المشهور : « صلة الرحم تزيد في العمر » .

وقال طرفة يهجو إنسانا بأنه يصل الأبعد ويقطع الأقارب :

وَأَنْتَ عَلَى الْأَدْنَى شِمَالٌ عَرِيَّةٌ شَامِيَةٌ تَزْوِي الْوَجْوهَ بَلِيلٌ^(٢)
وَأَنْتَ عَلَى الْأَقْصَى صَبَاً غَيْرُ قَرَّةٍ تَذَاؤِبٌ مِنْهَا مَزْرَعٌ وَمَسِيلٌ^(٣)

ومن شعر الحماسة :

لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غَنَى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَا أَكْلَفُهُمْ رِفْدًا^(٤)
وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَأْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

(١) ديوانه ٣٠٠

(٢) ديوانه ١١٩ . الأدنى : الأقرب . والشمال : ريح غير محودة . بليل : ريح باردة .

(٣) الأقصى : البعد . الصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا ، وهي محودة عندهم . وقرة : باردة .

(٤) اللقنع الكندي ، الحماسة بشرح الرزوقي ٣ : ١١٨٠ .

(٢٤)

الأفضل:

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَمَّعْرَى مَا عَلَى مَنْ قِتَالٍ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ ، وَخَابَطَ الْغَيَّ ، مَنْ إِذْهَانَ وَلَا إِيهَانَ .
فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنْ اللَّهِ ، وَأَمْضُوا فِي الذِّى نَهَجَهُ لَكُمْ ، وَقُومُوا
بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ ، فَعَلَى ضَامِنٍ لِفَلَجِكُمْ آجِلًا إِنْ لَمْ تُنْمَحُوهُ عَاجِلًا .

الشرح :

الإذهان : المصانعة والمناقة ، قال سبحانه : ﴿ وَذُوا لَوْ تَذَهِنُوا فَيَذْهَبُونَ ﴾^(١) .
والإيهان : مصدر أوهنته ، أى أضعفته ، ويجوز وهنته ، بحذف الهمزة . ونهجه :
أوضحه وجعله نهجاً ، أى طريقاً يدينا . وعصبه بكم : ناطه بكم وجعله كالعصابة التى تشد
بها الرأس . والفلاج : الفوز والظفر .
وقوله : « وخابط الغي » كأنه جملة والغى متخايطين ، يخبط أحدهما فى الآخر ؛
وذلك أشد مبالغة من أن تقول : خبط فى الغي ، لأن من يخبط ويخبطه غيره يكون
أشد اضطراباً ممن يخبط ولا يخبطه غيره . وقوله : « وفرّوا إلى الله من الله » ، أى
اهربوا إلى رحمة الله من عذابه . وقد نظر الفرزدق إلى هذا فقال :
إِلَيْكَ فَرَرْتُ مِنْكَ وَمِنْ زِيَادٍ وَلَمْ أَحْسِبْ دَمِي لَكُمْ حَلَالًا^(٢)

(١) سورة القلم ٩ .

(٢) ديوانه ٦٠٨ ، فى مدح سعيد بن العاصى ، وروايته : « ولم أجعل دمي » .

(٢٥)

الأضل:

ومن خطبة له عليه السلام وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد ، وقدم عليه عامله على اليمن ، وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران ، لما غلب عليهما بسر بن أرطاة ، فقام عليه السلام على المنبر ضجراً يتشاقل أصحابه عن الجهاد ، ومخالفهم له في الرأي ؛ فقال :

مَا هِيَ إِلَّا السَّكُوفَةُ أَقْبَضُهَا وَأَبْسَطُهَا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْتِ سَهْبٌ أَعَاصِيرُكَ
فَقَبَّحَكَ اللَّهُ !

وتمثل بقول الشاعر :

لَعَمْرُ أَيْبِكَ الْخَيْرِ يَا عَمْرُو إِنَّنِي عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلٍ^(١)

ثم قال عليه السلام :

أُنْبِئْتُ بُسْرًا قَدْ أَطْلَعَ الْيَمَنَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُدُّونَ
مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، وَبِمَقْصِيَّتِكُمْ إِمَامَكُمْ
فِي الْحَقِّ ؛ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَبَادَأْتَهُمُ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ ،
وَبِصْلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ ، فَلَوْ أَتَمَمْتُمْ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ تَحْشَيْتُمْ أَنْ
يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ .

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَأْتُهُمْ وَمَلَأُونِي ، وَسَمِعْتُهُمْ وَسَمِعُونِي ، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ

(١) الوضر : بقية الدسم في الإناء .

وَأَبْدَلَهُمْ بِيْ شَرًّا مِّنِّي أَللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبِهِمْ كَمَا يُمَاتُ الْمَلَحُ فِي الْمَاءِ . أَمَّا وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ
أَنْ لِّي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنِ غَنَمٍ :
هَذَا لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ^(١)

ثم نزل عليه السلام من المنبر :

قال الرضى رحمه الله :

أَقُولُ : الْأَرْمِيَةُ جَمْعُ رَمِيٍّ ؛ وَهُوَ السَّحَابُ . وَالْحَمِيمُ هَاهُنَا : وَقْتُ الصَّيْفِ ،
وَإِنَّمَا خَصَّ الشَّاعِرُ سَحَابَ الصَّيْفِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَشَدُّ جَفُولًا ، وَأَسْرَعُ خَفُوقًا ، لِأَنَّهُ
لَا مَاءَ فِيهِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ السَّحَابُ ثَقِيلَ السَّيْرِ لَامْتِلَانِهِ بِالْمَاءِ ؛ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ فِي
الْأَكْثَرِ إِلَّا زَمَانَ الشِّتَاءِ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ الشَّاعِرُ وَصَفَهُمْ بِالسَّرْعَةِ إِذَا دُعُوا ، وَالْإِغَاثَةِ إِذَا
أُسْتُغِيثُوا ، وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ :

* هَذَا لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ *

الشُّنْخُ :

تَوَاتَرَاتٌ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ ، مِثْلُ تَرَادَفَتْ وَتَوَاصَلَتْ . النَّاسُ مِنْ يَطْعَنُ فِي هَذَا ،
وَيَقُولُ : التَّوَاتُرُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ فتراتٍ بَيْنَ أَوْقَاتِ الْإِتْيَانِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ :
﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى ﴾^(٢) ، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ مُتَرَادِفُونَ ، بَلْ بَيْنَ كُلِّ نَبِيٍّ فِتْرَةٌ ،
قَالُوا : وَأَصْلُ « تَتْرَى » مِنَ الْوَاوِ ، وَاشْتِقَاقُهَا مِنْ « الْوَتْرِ » ، وَهُوَ الْفَرْدُ : وَعَدَّوْا هَذَا
الْمَوْضِعَ مِمَّا تَغَلَطَ فِيهِ الْخَاصَّةُ .

(١) الْبَيْتُ فِي اللِّسَانِ (١٩ : ٥٤) ، وَنُسِبَهُ إِلَى أَبِي جَنْدَبٍ الْهَذَلِيِّ ، وَرَوَاتُهُ : « رَحَالٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ
الْحَمِيمِ » .
(٢) سُورَةُ « الْمُؤْمِنُونَ » ٤٤ .

[نسب معاوية بن أبي سفيان وذكر بعض أخباره]

ومعاوية هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي .

وأُمُّهُ هِنْد بنت عُتْبَةَ بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وهي أم أخيه عُتْبَةَ بن أبي سفيان . فأما يزيد بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، وعَنْبَسَةُ ابن أبي سفيان ، وحَنْظَلَةُ بن أبي سفيان ، وعمر بن أبي سفيان ؛ فمن أمهات شتى .

وأبو سفيان هو الذي قاد قُرَيْشًا في حُرُوبِهَا إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ وَهُوَ رَئِيسُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ بَعْدَ قَتْلِ عُتْبَةَ بن ربيعة بِبَدْرَ ، ذَاكَ صَاحِبُ الْعِيرِ ، وَهَذَا صَاحِبُ النَّفِيرِ ، وَبِهِمَا يَضْرِبُ الْمَثَلُ ، فَيُقَالُ لِلْخَاطِلِ : « لَا فِي الْعِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ » .

وروى الزُّهَيْرِيُّ بن بَكَّارٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أَيَّامِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : لَقَدْ هَمَمْتُ الْيَوْمَ يَا أَخِي أَنْ أَفْتِكَ بِالْوَلِيدِ بن عَبْدِ الْمَلِكِ ، قَالَ : بَلَسْمَا كَهَمَمْتُ بِهِ فِي ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلِيَّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ ! فَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : إِنَّ خِيْلِي مَرَّتْ بِهِ فَعَبِثَ بِهَا وَأَصْغَرَنِي ، فَقَالَ خَالِدٌ : أَنَا أَكْفِيكَ ، فَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْوَلِيدِ عنده ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الْوَلِيدَ مَرَّتْ بِهِ خِيْلُ ابْنِ عَمِّهِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَعَبِثَ بِهَا وَأَصْغَرَهُ — وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ مَطْرِقًا — ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَّبُوكَ بِفَعْلِهِمْ ﴾ ^(١) ، فَقَالَ خَالِدٌ : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴾ ^(٢) ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَفِي عَبْدِ اللَّهِ تَسْكَلْنِي ! وَاللَّهِ لَقَدْ دَخَلَ أَمْسٌ عَلَيَّ فَمَا أَقَامَ لِسَانَهُ لِحَنًا ! قَالَ

خالد : أفعلى الوليد تعول يا أمير المؤمنين ! قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان [لا]^(١) . فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالدًا [لا]^(١) ، فالتفت الوليد إلى خالد وقال له : اسكت ويحك ! فوالله ما نعد في العير ولا في النفير ، فقال : اسمع يا أمير المؤمنين ، ثم التفت إلى الوليد ، فقال له : ويحك أفمن صاحب العير والنفير غير جدتي أبي سفيان صاحب العير ، وجدتي عتبة صاحب النفير ! ولكن لو قلت : غنيمات وحبيلات والطائف ، ورحم الله عثمان ، لقلنا : صدقت^(٢) .

وهذا من الكلام المستحسن ، والألفاظ الفصيحة ، والجوابات المسكتة ؛ وإنما كان أبو سفيان صاحب العير ، لأنه هو الذى قدّم بالعير التى رام رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه أن يعترضوها ، وكانت قادمة من الشام إلى مكة تحمل العطر والبز ، فنذر بهم أبو سفيان ، فضرب وجوه العير إلى البحر ، فساحل^(٣) بها حتى ألقاها منهم ، وكانت وقعة بدر العظمى لأجلها ، لأن قريشا أتاها النذير بحالها ، وبخروج النبي صلى الله عليه وآله بأصحابه من المدينة فى طلبها ، لينفروا ، وكان رئيس الجيش النافر لحمايتها عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس جد معاوية لأمه .

وأما « غنيمات وحبيلات ... » إلى آخر الكلام ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما طرد الحكم بن أبى العاص إلى الطائف لأمر نقمها عليه ، أقام بالطائف فى حُبلة ابتاعها - وهى الكرمة - وكان يرعى غنيمات اتخذها ، يشرب من لبنها . فلما ولي أبو بكر ، شفع إليه عثمان فى أن يرده ، فلم يفعل ، فلما ولي عمر شفع إليه أيضاً فلم يفعل ، فلما ولي هو الأمر رده . والحكم جد عبد الملك ، فعيرهم خالد بن يزيد به .

وبنو أمية صنفان : الأعياص والعنابس ، فالأعياص : العاص ، وأبو العاص ،

(٢) الخبر فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٢ .

(١) من مجمع الأمثال .

(٣) ساحل بها : أتى بها ساحل البحر .

والعيص ، وأبو العيص ، والعنابس : حرب ، وأبو حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان . فبنو مروان وعثمان من الأعياص ، ومعاوية وابنه من العنابس ؛ ولكل واحد من الصنفين المذكورين وشيعتهم كلام طويل ، واختلاف شديد في تفضيل بعضهم على بعض .

وكانت هند تذكر في مكة بفجور وعُور .

وقال الزنجشري في كتاب " ربيع الأبرار " : كان معاوية يُعزى إلى أربعة : إلى مسافر بن أبي عمرو ، وإلى عمار بن الوليد بن المغيرة ، وإلى العباس بن عبد المطلب ، وإلى الصباح ؛ مُفَنِّ كان لعمارة بن الوليد . قال : وقد كان أبو سفيان دَمِيًّا قصيراً ، وكان الصباح عَسِيفاً^(١) لأبي سفيان ، شاباً وسيماً ، فدعته هند إلى نفسها ففشيها .

وقالوا : إنَّ عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً ، وقالوا : إنها كرهت أن تدَّعه في منزلها ، فخرجت إلى أجِيَاد ، فوضعتَه هناك . وفي هذا المعنى يقول حسان أيام المهاجة بين المسلمين والمشركين في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل عام الفتح^(٢) :

لَمِنْ الصَّيِّ بِجَانِبِ الْبَطْحَا فِي التُّرْبِ مُلْقَى غَيْرِ ذِي مَهْدٍ
نَجَلَتْ بِهِ بَيْضَاهُ آرَسَةً مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ صَلْتَةٌ أَخْلَدُ^(٣)

والذين نَزَّهوا هند عن هذا القذف رَوَوْا غير هذا . فروى أبو عبيدة معمر بن المثنى أن هنداً كانت تحت الفاكه بن المغيرة الخزومي ، وكان له بيت ضيافة يَغْشَاهُ النَّاسُ ، فيدخلونه من غير إذن ، فخلأ ذلك البيت يوماً ، فاضطجع فيه الفاكه وهند ، ثم قام الفاكه وترك هنداً في البيت لأمر عرض له ، ثم عاد إلى البيت ، فإذا رجل قد خرج من البيت ، فأقبل إلى هند فرَّكَلَهَا برجله ، وقال : مَنْ الَّذِي كَانَ عِنْدِكَ ؟ فقالت : لم يكن عندي

(١) العسيف : الأجير .

(٢) ديوانه ١٥٧

(٣) نجلت به : ولدته . وصلته الهدى : الصلت : الأملس : وفي الأصول : « صلبة » تصغير .

أحد ، وإنما كنت نائمة . فقال : الحق بأهلك ، فقامت من فورها إلى أهلها ، فتكلم
الناس في ذلك ، فقال لها عتبة أبوها : يا بنية ، إن الناس قد أكثروا في أمرك ، فأخبريني
بقصتك على الصحة ، فإن كان لك ذنب دسست إلى الفاكه من يقتله ، فتقطع عنك
القالة . خلفت أنها لا تعرف لنفسها جرماً ، وإنه لكاذب عليها . فقال عتبة للفاكه :
إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم ، فهل لك أن تحاكمني إلى بعض الكهنة ؟ فخرج الفاكه
في جماعة من بني مخزوم ، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ، وأخرج معه هنداً
ونسوة معها ، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغيرت حال هند ، وتسكر أمرها ، واختطف
لمونها . فرأى ذلك أبوها ، فقال لها : إني أرى ما بك ، وما ذاك إلا لمكروه عندك !
فهل كان هذا قبل أن يشهر عند الناس مسيرنا ! قالت : يا أبت ، إن الذي رأيت
منى ليس لمكروه عندي ، واسكني أعلم أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ، ولا آمن
أن يسميني ميسماً يكون على عارا عند نساء مكة . قال لها : فإني سأمتحنه قبل المسألة بأمر .
ثم صفر بقرس له فأدلى ، ثم أخذ حبة برٍّ فأدخلها في إحليله ، وشده بسير وتركه ؛ حتى إذا
وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال عتبة : إنا قد جئناك لأمر ، وقد خبأت لك خبيثاً
أختبرك به ، فانظر ما هو ؟ فقال : ثمرة في كمر ، فقال : أبين من هذا ، قال : حبة برٍّ ،
في إحليل مهر ، قال : صدقت ، انظر الآن في أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من واحدة
واحدة منهن ، ويقول : انهضى ، حتى صار إلى هند ، فضرب على كتفها ، وقال : انهضى
غير رقيقاء ولا زانية ، ولتلدن ملبكا يقال له معاوية . فوثب إليها الفاكه ، فأخذها بيده
وقال : قومي إلى بيتك ، فجذبت يدها من يده ، وقالت : إليك عني ، فوالله لا كان
منك ، ولا كان إلا من غيرك ! فتزوجها أبو سفيان بن حرب .

الرقعاء : البغى التي تسكتسب بالفجور ، والرقاحة : التجارة .

وولى معاوية اثنتين وأربعين سنة منها اثنتان وعشرون سنة ولى فيها إمارة الشام منذ مات أخوه يزيد بن أبي سفيان ، بعد خمس سنين من خلافة عمر ، إلى أن قتل أمير المؤمنين على عليه السلام في سنة أربعين . ومنها عشرون سنة خليفة إلى أن مات في سنة ستين . ومرّ به إنسان وهو غلام يلعب مع الغلمان ، فقال : إني أظنّ هذا الغلام سيسودّ قومه ، فقالت هند : تَكَلَّمَتْهُ إِنْ كَانَ لَا يَسُودُ إِلَّا قَوْمَهُ !

ولم يزل معاوية ذا همّة عالية ، يطلب معالي الأمور ، ويرشّح نفسه الرياسة ، وكان أحدَ كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وآله . واختلف في كتابته له كيف كانت ، فالذي عليه المحقّقون من أهل السيرة أنّ الوحيّ كان يكتبه علىّ عليه السلام وزيد بن ثابت ، وزيد بن أرقم ، وأن حنظلة بن الربيع التيميّ ومعاوية بن أبي سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل ، ويكتبان حوائجه بين يديه ، ويكتبان ما يُحِبُّ من أموال الصدقات وما يُقسَم في أربابها .

وكان معاوية على أس^(١) الدهر مُبِغِضاً علىّ عليه السلام ، شديد الانحراف عنه ، وكيف لا يُبغِضه وقد قتل أخاه حنظلة يوم بدر ، وخاله الوليد بن عتبة ، وشريك عمّه في جده وهو عتبة - أو في عمه ، وهو شيبة ، على اختلاف الرواية - وقتل من بنى عمه عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأماثلهم ؛ ثم جاءت الطامة الكبرى واقعة عثمان ، فنسبها كلّها إليه بشبهة إمساكه عنه ، وانضواء كثير من قتلته إليه عليه السلام ، فتأكّدت البغضة ، وثارَت الأحقاد ، وتذكّرت تلك التّرات الأولى ؛ حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى إليه . وقد كان معاوية ، مع عِظَم قَدْرِ علىّ عليه السلام في النفوس ، واعتراف العرب بشجاعته ، وأنّه البطل الذي لا يُقامُ له ، يتهدده - وعثمان بعدُ حيّ - بالحرب والمنازعة ، ويراسله من الشام رسائلَ خشنّة ؛ حتى قال له في وجهه ما رواه أبو هلال العسكري في كتاب ” الأوائل “ ، قال :

(١) أس الدهر ؛ بفتح الهزّة أو ضمها أو كسرهما : قدم الدهر ووجهه .

قدم معاوية المدينة قدمة أيام عُثْمَان في أواخر خلافته ، فجلس عُثْمَان يوما للناس ، فاعتذر من أمور نُقِمَتْ عليه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قَبِلَ توبة الكافر ، وإنني رددتُ الحُكْمَ عَمِّي لأنه تاب ، فقبِلتُ توبته ، ولو كان بينه وبين أبي بكر وعمر من الرِّحْم ما بيني وبينه لآوياه . فأما ما نَقَمْتُمْ عليَّ أَتَى أُعْطِيتُ من مال الله ، فَإِنَّ الأمرَ إليَّ ، أَحْكُم في هذا المال بما أراه صلاحا للأمة ، وإلا فلماذا كنت خليفة ! فقطع عليه الكلام معاوية وقال للمسلمين الحاضرين عنده : أيُّها المهاجرون ، قد علمتم أَنَّهُ ليس منكم رجل إلَّا وقد كان قبل الإسلام مغمورا في قومه ، تُقَطَّعُ الأمور من دونه ، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه ، وأبطأ عنه أهلُ الشرف والرياسة ، فسُدَّتْ سُبُلُ السَّيْرِ لا بغيره ؛ حتى إنه ليُقَال اليوم : رهط فلان ، وآل فلان ؛ ولم يكونوا قبلُ شيئا مذكورا ، وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم ؛ فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه وإلا خرج منكم ، ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم . فقال له عليٌّ عليه السلام : ما أنت وهذا يا ابن اللِّئْناء ! فقال معاوية : مهلا يا أبا الحسن عن ذكر أمي ، فما كانت بأخس نساءكم ، ولقد صاخبها رسول الله صلى الله عليه وآله عليه يوم أسلمت ولم يصافح امرأة غيرها ، أما لو قالها غيرك ! فنهض عليٌّ عليه السلام ليخرج مُغَضِّبا ، فقال عُثْمَان : اجلس ، فقال له : لا أجلس ، فقال : عزمت عليك لتجلسن ، فأنى وولِّي ، فأخذ عُثْمَان طرف رداءه فترك الرداء في يده وخرج ، فأتبعه عُثْمَان بصرة ، فقال : والله لا تصلُ إليك ولا إلى أحد من ولدك .

قال أسامة بن زيد : كُنْتُ حاضرا هذا المجلس ، فعجِبْتُ في نفسي من تألَّى عُثْمَان ، فذكرته لسعد بن أبي وقاص ، فقال : لا تعجب ، فَإِنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله عليه يقول : « لا ينفألها عليٌّ ولا ولده » .

قال أسامة : فَإِنِّي في الغد آتِي المسجد ، وعلىَّ وطلحة والزبير وجماعة من المهاجرين جُلُوس ؛ إذ جاء معاوية ، فتأمروا بينهم ألا يوسَّعوا له ، فجاء حتى جلس بين أيديهم ،

فقال : أتدرون لماذا جئت ؟ قالوا : لا ، قال : إني أقسم بالله إن لم تتركوا شيخكم يموت على فراشه لا أعطيكم إلا هذا السيف ! ثم قام فخرج .

فقال على عليه السلام : لقد كنت أحسب أن عند هذا شيئا ، فقال له طلحة : وأى شيء يكون عنده أعظم مما قال ! قاتله الله ! لقد رمى الغرض فأصاب ؛ والله ما سمعت يا أبا الحسن كلمة هي أملاً لصدرك منها .

ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا رحمهم الله ، يُرمى بالزندقة .
وقد ذكرنا في نقض " السفينية " ، على شيخنا أبي عثمان الجاحظ مارواه أصحابنا في كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرض لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وماتظاهر به من الجبر والإرجاء ؛ ولو لم يكن شيء من ذلك ، لكان في محاربتة الإمام ما يكفي في فساد حاله ، لا سيما على قواعد أصحابنا ، وكونهم بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار واخلود فيها إن لم تسكرها التوبة .

[بسر بن أرطاة ونسبه]

وأما بسر بن أرطاة ، فهو بسر بن أرطاة - وقيل ابن أبي أرطاة - بن عويمر بن عمران بن الحليس بن سنان بن نزار بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

بعثه معاوية إلى اليمن في جيش كثيف ، وأمره أن يقتل كل من كان في طاعة علي عليه السلام ، فقتل خلقا كثيرا ، وقتل فيمن قتل ابنه عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكان غلامين صغيرين ، فقالت أمهما تريهما .

يَا مَنْ أَحَسَّ بُنْيَّ اللَّذَيْنِ هُمَا كَالذَّيْنِ تَشْطَى عَنْهُمَا الصَّدَفُ^(١)
في أبيات مشهورة .

(١) تشطى : تفرق شطايا . والأبيات في الكامل ٨ - ١٥٨ - بشرح المصنف .

[عبيد الله بن العباس وبعض أخباره]

وكان عبيد الله عاملَ عليّ عليه السلام على اليمن ، وهو عبيد الله بن العباس ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي . أمه وأم إخوته عبد الله وقثم ومعبود وعبد الرحمن ، لبابة بنت الحارث بن حزن ، من بني عامر بن صعصعة . ومات عبيد الله بالمدينة ، وكان جوادا ، وأعقب ، ومن أولاده : قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس ولأه أبو جعفر المنصور المدينة ، وكان جوادا ممدوحا ، وله يقول ابن المؤلّى (١) :

أُعِفِّيتَ مِنْ كُورٍ وَمِنْ رَحْلَةٍ يَا نَاقُ إِنِ ادَّتَيْتَنِي مِنْ قُثْمٍ
فِي وَجْهِهِ نُورٌ وَفِي بَإِئِهِ طُولٌ وَفِي الْعِرْتَيْنِ مِنْهُ سَمٌّ

ويقال : مارئي قبور إخوة أكثر تباعدا من قبور بني العباس رحمه الله تعالى :
قبر عبد الله بالطائف ، وقبر عبيد الله بالمدينة ، وقبر قثم بسمرة قنند ، وقبر عبد الرحمن بالشام ،
وقبر معبد بإفريقية .

ثم نعود إلى شرح الخطبة :

الأعاصير : جمع إعصار ، وهي الرياح المستديرة على نفسها ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ (٢) .

والوضر : بقية الدسم في الإناء . وقد أطلع اليمين ، أي غشيها وغزاها وأغار عليها .
وقوله : « سِيدُ الْوَنِ مِنْكُمْ » ، أي يَغْلِبُونَكُمْ وتكون لهم الدولة عليكم . ومات زيد الملاح
في الماء : أذا به .

وبنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة ، حتى مشهور بالشجاعة ؛ منهم

(١) كذا بهذه النسبة في نسب قريش ٣٣ ، وهما من أبيات تنسب إلى داود بن سلم ، في الأغاني
٦ : ٢٠ ، ٩ : ١٦٩ ، وفي الكامل ٢ : ٢٢٩ منسوبة إلى سليمان بن قتة .

(٢) سورة البقرة ٢٦٦ .

علقمة بن فراس ، وهو جذل الطعان . ومنهم ربيعة بن مكدّم بن حُرْنان بن جَدِيمة بن علقمة بن فراس ، الشجاع المشهور ، حامى الظُّمُن حَيًّا وميتًا ، ولم يحم الحرّيم وهو ميت أحدٌ غيره ؛ عرض له فرسان من بني سُليم ، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده ، فطاعهم ، فرماه نُبَيْشَة بن حبيب بسهم أصاب قلبه ، فنصب رحمه في الأرض ، واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل . وأشار إلى الظعائن بالرواح ، فسيرن حتى بَلَغْنَ بيوت الحَيِّ ، وبنو سُليم قيام إزاءه لا يقدّمون عليه ، ويظنون حَيًّا ؛ حتى قال قائل منهم : إني لا أراه إلّا ميتًا ، ولو كان حَيًّا لتحرك ؛ إنّه والله لماثل راتب على هيئة واحدة ، لا يرفع يده ، ولا يحرك رأسه . فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه ، حتى رموا فرسه بسهم ، فشبّ من تحته ، فوقع وهو ميت ، وفاتتهم الظعائن .

وقال الشاعر :

لَا يَبْعَدَنَّ رَبِيعَةَ بْنَ مُكْدَمٍ وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِدَنُوبٍ^(١)
نَفَرَتْ قُلُوبِي مِنْ حِجَارَةٍ حَرَّةٍ بُنِيتَ عَلَى طَائِفِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ
لَا تَنْفِرِي يَا نَاقُ مِنْهُ فَإِنَّهُ شَرِيبُ خَيْرِ مِسْعَرٍ لِيْخْرُوبِ
لَوْ لَا السَّمَارُ وَبُعْدُ خَرْقِ مَهْمَةٍ لَتَرَكْتَهَا تَجْثُو عَلَى الْعُرْقُوبِ
نَعَمْ أَلْفَتِي أَدَى نُبَيْشَةَ بَزَهُ يَوْمَ الْإِقْدَاءِ نُبَيْشَةُ بْنُ حَبِيبِ

وقوله عليه السلام : « ما هي إلا الكوفة » ، أي ما مملكتي إلا الكوفة . أقبضها وأبسطها ، أي أنصرف فيها كما يتصرف الإنسان في ثوبه ، يقبضه ويبسطه كما يريد . ثم قال على طريق صرف الخطاب : « فإن لم تكوني إلا أنت » ، خرج من الغيبة إلى خطاب الحاضر ؛ كقوله تعالى : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . اَلرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ ، يقول : إن لم يكن لي من الدنيا مُلْكٌ إلا مُلْكُ الكوفة ذاتِ الفتن ، والآراء المختلفة ، فأبعدها الله !

(١) لسان بن ثابت ، وقيل هي لضرار بن الخطاب ، وهي في الأغاني ١٦ : ٥٨ والكمال ٤ : ٨٩ مع اختلاف في الرواية .

وشبه ما كان يحدث من أهلها من الاختلاف والشقاق بالأعاصير ؛ لإثارتها التراب وإفسادها الأرض . ثم ذكر علة إدالة أهل الشام من أهل العراق ؛ وهي اجتماع كلمتهم وطاعتهم لصاحبهم ، وأداؤهم الأمانة وإصلاحهم بلادهم .

[أهل العراق وخطب الحجاج فيهم]

وقال أبو عثمان الجاحظ : العلة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام أن أهل العراق أهل نظير وذو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقذح والترجيح بين الرجال ، والتميز بين الرؤساء ، وإظهار عيوب الأمراء . وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأى واحد ؛ لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغييب الأحوال .

وما زال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة ، وبالشقاق على أولى الرئاسة .

ومن كلام الحجاج^(١) :

يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق ! أما والله لألحونكم
لأخو العصا ، ولأعصبنكم عصب السّم ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ؛
إني أسمع لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذى يُراد به الترغيب ؛ ولكنّه تكبير التّرهيب .
ألا إنّها عجاجة تحتها قصف^(٢) ، يا بني اللّسكية^(٣) ، وعبيد العصا ، وأبناء الإمام !
إنّما مثلي ومثلكم كما قال ابنُ بَرّاقة^(٤) :

وَكَفْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالَ هُمْدَانَ ظَالِمٌ^(٥)

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٣٧ مع اختلاف في الرواية .

(٢) العجاجة : شدة الغبار ، والقصف : شدة الريح .

(٣) اللّسكية : اللّيمة .

(٤) هو عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه بن شهر بن سهم الهمداني ؛ وبراقة أمه ، ينسب إليها .

(٥) البيتان من قصيدة طويلة له ذكرها القالي في الأمل ٢ : ١٢٢ ، في خبر له مع حريم المرادى حين أغار عليه .

مَتَى تَجْمَعُ الْقَابَ الذِّكْيَ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ
وَلِلَّهِ لَا تَقْرَعُ عَصًا عَصًا إِلَّا جَعَلَهَا كَأَمْسِ الدَّاهِبِ .

وكانت هذه الخطبة عقيب سماعه تكبيراً مُنْكَرًا في شوارع الكوفة ، فأشفق
من الفتنة .

ومما خَطَبَ به في ذم أهل العراق بعد وقعة دَيْرِ الجاجم ^(١) :

يا أهلَ العراق، يا أهلَ الشقاق والنفاق؛ إنَّ الشيطانَ اسْتَبْطَنَكُمْ، نَخَاطُ اللَّحْمَ وَالدَّمَ،
وَالْعَصَبَ ، وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ وَالْأَعْضَاءَ وَالشَّغَافَ ؛ ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الْأَنْخَاخِ وَالْأَصْخَاخِ ؛
ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ ، ثُمَّ بَاضَ فَفَرَّخَ ، فَخَشَاكُمْ نِفَاقًا وَشَقَاقًا ، وَمَلَأَكُمْ غَدْرًا وَخِلَافًا ؛ اتَّخَذْتُمُوهُ
دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ ، وَقَائِدًا تُطِيعُونَهُ ، وَمُؤَامَرًا تَسْتَشِيرُونَهُ ؛ فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةٌ ، أَوْ تَعْظُمُكُمْ
وَأَقَاعَةٌ ، أَوْ يَحْجُزْكُمْ إِسْلَامٌ ، أَوْ يَعْصِمُكُمْ مِيثَاقٌ ! أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَاِ ؛ حَيْثُ رُمْتُمُ الْمُسْكَرَ ،
وَسَعَيْتُمُ بِالْغَدْرِ ، وَظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يَخْذُلُ دِينَهُ وَخِلَافَتَهُ ؛ وَأَنَا أُرْمِيكُمْ بِطَرْفِي ، وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّلُونَ لِوَادِئِهِ ،
وَتَنْهَزُمُونَ سَرَاعًا ! ثُمَّ يَوْمَ الزَّائِيَةِ ^(٢) ، وَمَا يَوْمَ الزَّائِيَةِ إِبْهَاجًا كَانَ فَشْلُكُمْ وَكَسْلُكُمْ وَتَخَاذُلُكُمْ
وَتَنَازُعُكُمْ ، وَبِرَاءَةُ اللَّهِ مِنْكُمْ ، وَنُكُولُ وَلِيِّكُمْ عَنْكُمْ ؛ إِذْ وَلَيْسْتُمْ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ
إِلَى أَوْطَانِهَا ، النَّوَازِعِ إِلَى أَعْطَانِهَا ؛ لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَلْوِي الْأَبُ عَلَى بَنِيهِ ؛
لَمَّا عَضَّكُمْ السَّلَاحَ ، وَقَصَمَتْكُمْ ^(٣) الرِّمَاحُ . ثُمَّ يَوْمَ دَيْرِ الْجَاجِمِ ، وَمَا يَوْمَ دَيْرِ الْجَاجِمِ !

(١) وقعة دير الجاجم ، كانت بين الحجاج وابن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ ، وهزم فيها ابن
الأشعث . والخطبة في البيان والتبيين ٢ : ١٣٨ ، والقصد ٤ : ١١٥ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ مع
اختلاف في الرواية .

(٢) الزاوية : موضع قرب البصرة كانت به وقعة بين الحجاج وابن الأشعث قتل فيها خلق كثير .
وذلك سنة ٨٢ . الطبري (حوادث ٨٢) .

(٣) قصمتكم : كسرتكم وغلبتكم . وفي البيان : « وقصتكم » ، وهما بمعنى .

بها كانت المعارك والملاحم ، بِضَرْبٍ يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ؛ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ ^(١) .
 يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ؛ يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ! الْكَفَرَاتِ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ ، وَالْغَدَرَاتِ
 بَعْدَ الْخَتَرَاتِ ^(٢) ، وَالْبُرُوزَةِ بَعْدَ النَّزَوَاتِ ! إِنْ بَعِثْتُمْ إِلَى نَفُورِكُمْ غَلَّاسًا ^(٣) وَخُنُفًا ،
 وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ . لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً ، وَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً .
 هَلْ اسْتَخَفَّكُمْ نَاكِثٌ ، أَوْ اسْتَغْوَاكُمْ غَاوٌ ، أَوْ اسْتَفْزَرَكُمْ عَاصٍ ، أَوْ اسْتَنْصَرَكُمْ ظَالِمٌ ،
 أَوْ اسْتَعَضَّكُمْ خَالِعٌ إِلَّا اتَّبَعْتُمُوهُ وَأَوَيْتُمُوهُ ، وَنَصَرْتُمُوهُ وَزَكَّيْتُمُوهُ !

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ؛ هَلْ شَغَبَ شَاغِبٌ ، أَوْ نَعَبَ نَاعِبٌ ، أَوْ زَفَرَ كَاذِبٌ ^(٤) ؛ إِلَّا كُنْتُمْ
 أَشْيَاعَهُ وَأَتْبَاعَهُ ، وَحِمَاتِهِ وَأَنْصَارَهُ !

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ؛ أَلَمْ تَزَجِرْكُمْ الْمَوَاعِظُ ! أَلَمْ تُذَبِّهِكُمْ الْوَقَائِعُ ! أَلَمْ تَرُدَّكُمْ الْحَوَادِثُ !
 ثُمَّ التَفْتُ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ وَهُمْ حَوْلَ الْمَذْبَرِ ، فَقَالَ :
 يَا أَهْلَ الشَّامِ : إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ كَالظَّلِيمِ الرَّامِحِ ^(٥) عَنْ فِرَاحِهِ ، يَنْفِي عَنْهَا الْقَدَرُ ^(٦)
 وَيُبَاعِدُ عَنْهَا الْحَجَرَ ، وَيُكْتِبُهَا مِنَ الْمَطَرِ ، وَيَحْمِيهَا مِنَ الضَّبَابِ ، وَيَحْرُسُهَا مِنَ الذَّنَابِ !
 يَا أَهْلَ الشَّامِ ؛ أَنْتُمْ الْجُنَّةُ وَالرِّدَاءُ ، وَأَنْتُمْ الْعُدَّةُ وَالْحِذَاءُ .
 ثُمَّ نَزَلَ .

(١) أَخَذَهُ مِنْ رَجَزِ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ يَوْمَ صَفَيْنَ ؛ وَفِيهِ :
 ضَرْبًا يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

ومقيله : موضعه . وانظر وقعة صفين ٣٦٦ - ٣٨٧ .

(٢) الخترات : جمع خترة ، وهي الغدر والخذعة .

(٣) الغل هنا : الخيانة .

(٤) العقده : « زفر زافر » .

(٥) الظليم : ذكر النعام ، والرامي : المدافع .

(٦) البيان والعقد : « المدر » .

ومن خطبة له في هذا المعنى وقد أراد الحج^(١) :

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ؛ إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ وَقَدْ اسْتَخَلَفْتُ عَلَيْكُمْ ابْنِي مُحَمَّدًا ، وَأَوْصِيْتُهُ بِخِلَافِ
وَصِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْأَنْصَارِ ، فَإِنَّهُ أَمَرَ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَيَتَجَاوَزَ
عَنْ مُسِيئِهِمْ ؛ وَإِنِّي قَدْ أَوْصِيْتُهُ إِلَّا يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِكُمْ ، وَلَا يَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ .
إِلَّا وَإِنَّكُمْ سَتَقُولُونَ بَعْدِي : لَا أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ الصَّحَابَةَ إِلَّا وَإِنِّي مُعَجِّلٌ لَكُمْ الْجَوَابَ :
لَا أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ الْخِلَافَةَ !

ومن خطبة له في هذا المعنى :

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ؛ إِنْ الْفِتْنَةُ تُلْقِحُ بِالنَّجْوَى^(٢) ، وَتُنْتِجُ بِالشُّكْوَى ، وَتُخَصِّدُ بِالسَّيْفِ ؛
أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ أَبْغَضْتُمُونِي لَا تَضُرُّوْنِي ؛ وَإِنْ أَحْبَبْتُمُونِي لَا تَنْفَعُونِي ! وَمَا أَنَا بِالْمُسْتَوْحِشِ
لِعَدَاوَتِكُمْ ، وَلَا الْمُسْتَرِيحِ إِلَى مَوَدَّتِكُمْ ؛ زَعَمْتُ أَنِّي سَاحِرٌ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ ﴾^(٣) ، وَقَدْ أَفَاحَتْ . وَزَعَمْتُ أَنِّي أَعْلَمُ الْأَسْمَ الْأَكْبَرَ ؛ فَلَمْ تَقَاتِلُونِ مَنْ يَعْلَمُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ !

ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

لَأَزْوَاجُكُمْ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، وَلَأَبْنَاؤُكُمْ أَنْسُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلَدِ ؛ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا كَمَا
قَالَ أَخُو ذُبْيَانَ :

إِذَا حَاوَلْتَ فِي أَسَدٍ فُجُورًا فَإِنِّي لَأَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي^(٤)
هَمْ دِرْعِي الَّتِي اسْتَلَأَمْتُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ النَّسَارِ وَهُمْ يَجْنِي^(٥)

(١) عيون الأخبار ٢ : ٢٤٥

(٢) النجوى : المنارة . (٣) سورة طه ٦٩

(٤) ديوانه ٧٩ (من مجموعة خسة دواوين) .

(٥) استلأمت : لبس اللأمة ؛ وهى الدرع . النصار : ماء لبي عامر . والجن : الترس .

ثم قال :

بل أنتم يا أهل الشام ؛ كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ^(١) .

وخطب مرة بعد موت أخيه وابنه قال :

بلغني أنكم تقولون : يموت الحجاج ، ومات الحجاج ! فمه ! وما كان ماذا !
والله ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت ! وما رضى الله البقاء إلا لأهون المخلوقين عليه
إبليس ؛ ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ قال إنك من المُنْظَرِينَ ^(٢) . ثم قال :
يا أهل العراق ؛ أتيتكم وأنا ذو لمة وافرة أرقل فيها ؛ فما زال بي شقاقكم
وعصيانكم حتى حص ^(٣) شعري . ثم كشف رأسه وهو أصلع ، وقال :

مَنْ يَكُ ذَا لِمَةٍ يُكْشَفُهَا فَإِنِّي غَيْرُ ضَائِرٍ زَعَرِي ^(٤)
لا يمنع المرء أن يسود وأن يضرب بالسيف - قلة الشعر

فأما قوله عليه السلام : « اللهم أبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً مني » ،
ولا خير فيهم ولا شرّ فيه عليه السلام ؛ فإن « أفعل » ها هنا بمنزلة في قوله تعالى :
﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ^(٥) ، وبمنزلة في قوله :
﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ ^(٦) .

(٢) سورة الأعراف ١٤ ، ١٥
(٤) الزعر : ذهاب أصول الشعر .
(٦) سورة الفرقان ١٥ .

(١) سورة الصافات ١٧١ - ١٧٣
(٣) الحص : ذهاب الشعر .
(٥) سورة فصلت ٤٠

ويحتمل أن يكون الذى تمناه عليه السلام من إبداله بهم خيراً منهم قوماً صالحين
ينصرونه ويوفقون لطاعته .

ويحتمل أن يريد بذلك ما بعد الموت من مرافقة النبىِّ صلى الله عليه وآله .
وقال القطبُ الراوندى : بنو فراس بن غنم هم الروم . وليس بجيد ، والصحيح
ما ذكرناه .

والبيت المتمثل به أخيراً لأبى جندب الهذلى ، وأول الأبيات :
ألا يا أمَّ زُبَايَعِ أَقِيْمِي صُدُورَ الْعِيسِ نَحْوِ بَنِي تَمِيمِ

وهذه الخطبة ، خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام بعد فراغه من صفين ؛ وانقضاء
أمر الحكمين والخوارج ؛ وهى من أواخر خطبه عليه السلام .

تم الجزء الأول^(١) من شرح نهج البلاغة بحمد الله ومثته ؛ والحمد لله وحده العزيز ؛
وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

.....

(١) من تجزئة المؤلف ؛ وهذه خاتمة نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ا : « هذا آخر الجزء الأول ،
ويتلوه الجزء الثانى إن شاء الله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

- ١ - من خطبة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب يذكر فيها ابتداء خَلْق
السموات والأرض وخلق آدم . ٥٧
- ٢ - من خطبة له بعد انصرافه من صفين ١٣١
- ٣ - من خطبة له وهى المعروفة بالشفقة ١٥١
- ٤ - من خطبة له يذكر كمال دينه وبقينه واهتداء الناس به ٢٠٧
- ٥ - من كلام له لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢١٣
- ٦ - من كلام له لما أشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يرضى لهما القتال ٢٢٣
- ٧ - من خطبة له فى ذم قوم باتباع الشيطان وركوبهم متن الزلل . ٢٢٨
- ٨ - من كلام له يعنى به الزبير فى حال اقتضت ذلك ٢٣٠
- ٩ - من كلام له فى صفة قوم أَرعدوا وأبرقوا وفشاهم فى ذلك ٢٣٧
- ١٠ - من خطبة له يوعد قوما ٢٣٩
- ١١ - من كلام له يخاطب به ابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل ٢٤١
- ١٢ - من كلام له لما أظفره الله بأصحاب الجمل ٢٤٦
- ١٣ - من كلام له فى ذم أهل البصرة ٢٥١
- ١٤ - من كلام له فى ذم أهل البصرة أيضا ٢٦٧
- ١٥ - من كلام له فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان ٢٦٩
- ١٦ - من خطبة له لما بُوع بالمدينة ٢٧٢

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

صفحة

- ١٧ - من كلام له في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل ٢٨٣
- ١٨ - من كلام له في ذم اختلاف العلماء في الفتيا ٢٨٨
- ١٩ - من كلام له قاله للأشعث وهو على منبر الكوفة ٢٩١
- ٢٠ - من خطبة له في تهويل ما بعد الموت وتعظيمه ، وفيها حث على الاعتبار ٢٩٨
- ٢١ - من خطبة له في تذكير المسامين بالساعة وبالיום الآخر ٣٠١
- ٢٢ - من خطبة له فيمن آثمه بدم عثمان ٣٠٣
- ٢٣ - من خطبة له في المال وقسمة الأرزاق بين الناس ٣١٢
- ٢٤ - من خطبة له فيمن خالف الحق وخابط الغي ٣٣١
- ٢٥ - من خطبة له وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء معاوية على البلاد ٣٣٢

فهرس الموضوعات *

صفحة	
٣	مقدمة المؤلف
٧	القول فيما يذهب إليه المعتزلة في الإمامة والتفضيل والنبوة والخوارج
١١	القول في نسب أمير المؤمنين على بن أبي طالب وذكر كُلمة بسيرة من فضائله
٣١	القول في نسب الرضى وذكر طرف من خصائصه ومنافقه
٤٢	القول في شرح خطبة نهج البلاغة
٩١	القول في الملائكة وأقسامهم
١٠٣	اختلاف الأقوال في ابتداء خلق البشر
١٠٦	تصويب لزنادقة إبليس لامتناعه عن السجود لآدم
١٠٨	اختلاف الأقوال في خلق الجنة والنار
١٠٩	القول في آدم والملائكة أيهما أفضل
١١٧	القول في أديان العرب في الجاهلية
١٢٤	فصل في فضل البيت والكعبة
١٢٦	فصل في الكلام على السجعة
١٣٣	باب لزوم ما لا يلزم وإيراد أمثلة منه
١٤٣	ما ورد في الوصاية من الشعر
١٥٥	نسب أبي بكر ونبذة من أخبار أبيه
١٥٩	مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمرة أسامة بن زيد على الجيش
١٦٣	عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر بن الخطاب
١٧٣	طرف من أخبار عمر بن الخطاب
١٨٥	قصة الشورى
١٩٨	نصف من أخبار عثمان بن عفان

* وهي الموضوعات التي وردت في أثناء الشرح .

صفحة	
٢١٤	ذكر طائفة من الاستعارات
٢١٨	اختلاف الرأى فى الخلافة بعد وفاة رسول الله
٢٢٥	طلحة والزبير ونسبهما
٢٢٦	خروج طارق بن شهاب لاستقبال على بن أبى طالب
٢٣٠	أمر طلحة والزبير مع على بن أبى طالب بعد بيعتهما له
٢٤٣	مقتل حمزة بن عبد المطلب
٢٤٣	محمد بن الحنفية ونسبه وبعض أخباره
٢٤٧	من أخبار يوم الجمل
٢٥٣	من أخبار يوم الجمل أيضا
٢٧٨	من كلام للحجاج وزيد نسجا فيه على منوال كلام على
٢٩٢	الأشعث بن قيس ونسبه وبعض أخباره
٣٠٧	خطبة على بالمدينة فى أول إمارته
٣٠٨	خطبته عند مسيره للبصرة
٣٠٩	خطبته بذي قار
٣١٥	فصل فى ذم الحاسد والحسد
٣١٩	فصل فى مدح الصبر وانتظار الفرج
٣٢٥	فصل فى الرياء والنهى عنه
٣٢٦	فصل فى الاعتضاد بالعشيرة والتكثير بالقبيلة
٣٢٨	فصل فى حسن الثناء وطيب الأحذوثة
٣٢٩	فصل فى مواساة الأهل وصلة الرحم
٣٣٤	نسب معاوية بن أبى سفيان وذكر بعض أخباره
٣٤١	عبيد الله بن العباس وبعض أخباره
٣٤٣	أهل العراق وخطب الحجاج فيهم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الثاني

دار الجيل
بيروت

محقق الطبع محفوظة للنشر

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[بعث معاوية بُسرَ بن أرطاة إلى الحجاز واليمن]

فأما خبرُ بُسرِ بن أرطاة العامريّ ؛ من بنى عامر بن لؤي بن غالب ، وبعث معاوية له ليغيّر على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام ، وما عمّله من سفك الدماء وأخذ الأموال ، فقد ذكر أرباب السير أنّ الذي هاج معاوية على تسريح بُسر بن أرطاة - ويقال ابن أبي أرطاة - إلى الحجاز واليمن ، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان ، يُعظمون قتله ، لم يكن لهم نظام ولا رأس ، فبايعوا عليّ عليه السلام على مافي أنفسهم ؛ وعامل عليّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عبيد الله بن عباس^(١) وعامله على الجند سعيد بن نمران^(٢) .

فلما اختلف الناس على عليّ عليه السلام بالعراق ، وقُتل محمد بن أبي بكر بمصر ، وكثرت غارات أهل الشام ، تكلموا ودعوا إلى الطلب بدم عثمان ، فبلغ ذلك عبيد الله ابن عباس ، فأرسل إلى ناس من وجوههم ، فقال : ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ قالوا : إنّنا لم نزل نذكر قتل عثمان ، ونرى مجاهدة من سعى عليه . فحبسهم ، فكتبوا إلى من بالجند من أصحابهم ، فثاروا بسعيد بن نمران ، فأخرجوه من الجند ، وأظهروا أمرهم ، وخرج إليهم من كان بصنعاء ، وانضم إليهم كل من كان على رأيهم ، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم ؛ إرادة أن ينفخوا الصدقة ، والتقى عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران ، ومعهما شيعة عليّ عليه السلام ، فقال ابن عباس لابن نمران : والله لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا

(١) عبيد الله بن العباس ؛ كان أصغر من أخيه عند الله سنة ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم وسمي منه ، وحفظ عنه . الاستيعاب ٤٠٤ .

(٢) سعيد بن نمران الحمداني ؛ كان كاتباً لعليّ ؛ وأدرك من حياة النبي عليه السلام أعواماً . الاستيعاب

لمقاربون ، وإن قاتلناهم لا نعلم على مَنْ تكون الدائرة ؛ فَهَلُمَّ لِنَكْتُبَ إِلَى أمير المؤمنين عليه السلام^(١) بنخبرهم وَقَدْ حَسَمَ ، وَبِمَنْزِلِهِمُ الَّذِي هُمْ بِهِ .
فَكْتُبْنَا إِلَى أمير المؤمنين عليه السلام^(٢) :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا نَخْبِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَّ شِيعَةَ عُمَانَ وَثَبُوا بِنَا ، وَأَظْهَرُوا أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَدْ شَيْدَ أَمْرَهُ ، وَاتَّسَقَ لَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَأَنَّا سِرْنَا إِلَيْهِمْ بِشِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ كَانَ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ أَحْمَشَهُمْ^(٣) وَالْبَهْمَ ، فَعَبَّؤُوا^(٤) لَنَا ، وَتَدَاعَوْا عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَنَصَرَهُمْ عَلَيْنَا مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ رَأْيٌ فِيهِمْ ، إِرَادَةَ أَنْ يَمْنَعَ حَقَّ اللَّهِ الْمَفْرُوضَ عَلَيْهِ ؛ وَلَيْسَ يَمْنَعُنَا مِنْ مُنَاجَزَتِهِمْ إِلَّا أَنْتَظَرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَدَامَ اللَّهُ عَزَّهُ وَأَيْدِيَهُ ، وَقَضَى لَهُ بِالْأَقْدَارِ الصَّالِحَةِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ . وَالسَّلَامُ .

فَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُهُمَا ، سَاءَ عَلَيْنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَغْضَبَهُ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمَا :

مِنْ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ وَسَعِيدِ بْنِ نُمَيْرَانَ : سَلَامٌ اللَّهُ عَلَيْكُمَا ، فَإِنِّي أَحَدُ إِلَيْكُمَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ أَتَانِي كِتَابُكُمَا تَذَكُّرَانِ فِيهِ خُرُوجَ هَذِهِ الْخَارِجَةِ ، وَتَعَظْمَانِ مِنْ شَأْنِهَا صَغِيرًا ؛ وَتُكْثَرَانِ مِنْ عُدْدِهَا قَلِيلًا ؛ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَخْبَ^(٥) أَفْنَدْتَكُمَا ، وَصِغَرِ أَنْفُسَكُمَا ، وَشَتَاتِ رَأْيِكُمَا ، وَسُوءِ تَدْبِيرِكُمَا ، هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ عَلَيْكُمَا مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكُمَا فَاسِدًا ، وَجَزَأَ عَلَيْكُمَا مَنْ كَانَ عَنْ لِقَائِكُمَا جَبَانًا ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولِي عَلَيْكُمَا ، فَاْمُضِيَا إِلَى الْقَوْمِ حَتَّى تَقْرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابِي إِلَيْهِمْ ، وَتَدْعُوَاهُمْ إِلَى حُظِّهِمْ وَتَقْوَى رَبِّهِمْ ؛ فَإِنْ أَجَابُوا تَحْمَدَنَا اللَّهُ وَقَبِلْنَا مِنْهُمْ ، وَإِنْ حَارَبُوا اسْتَعْنَا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ وَنَابِذْنَاهُمْ عَلَى سِوَاءٍ ؛ إِنْ اللَّهُ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ .

قَالُوا : وَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَزِيدَ بْنِ قَيْسٍ الْأَرْحَبِيِّ : أَلَا تَرَى إِلَى مَا صَنَعَ قَوْمُكَ !

(٢) أَحْمَشَهُمْ : هَاجَهُمْ وَأَغْضَبَهُمْ .

(٤) الْعَبَّؤُوا : الْجَبَنَ وَضَعَفَ الْقَلْبَ .

(١ - ١) سَاقَطَ مِنْ أ

(٣) ب : « فَعَبَّؤُوا » .

فقال : إن ظني يا أمير المؤمنين بقومي كحسن في طاعتك ، فإن شئت خرجت إليهم فكفيتهم ، وإن شئت كتبت إليهم فتمنظر ما يجيبونك . فكتب علي عليه السلام إليهم (١) :

من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى من شاق وغدر من أهل الجند وصنعاء . أما بعد ، فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، الذي لا يعقب له حكم ، ولا يرد له قضاء ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

وقد بلغني تجرؤكم وشقاقكم وإعراضكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيعة ، فسألت أهل الدين الخالص ، والورع الصادق ، واللبّ الراجح ، عن بدء تحرككم ، وما نويتم به ، وما أتمشكم له ؛ فحدثت عن ذلك بما لم أركم في شيء منه عذراً مبيناً ، ولا مقالاً جميلاً ، ولا حجة ظاهرة ؛ فإذا أتاكم رسولي فتمرقوا وانصرفوا إلى رجالكم أعف عنكم ، وأصفح عن جاهلكم ، وأحفظ قاصيكم ، وأعمل فيكم بحكم الكتاب ؛ فإن لم تفعلوا ، فاستعدوا لقدم جيش جَمّ الفرسان ، عظيم الأركان ، يقصد لمن طغى وعصى (٢) ، فتطعنوا كطعن الرّحّا ؛ فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ومار بك بظلام للعبيد .

ووجه الكتاب مع رجل من همدان ، فقدم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خير ، فقال لهم : إنني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبي في جيش كثيف ، فلم يمنعه إلا انتظار جوابكم . فقالوا : نحن سامعون مطيعون ، إن عزل عنا هذين الرجلين : عبيد الله وسعيدا .

فرجع الهمداني من عندهم إلى علي عليه السلام فأخبره خبر القوم . قالوا : وكتبت تلك العصابة حين جاءها كتاب علي عليه السلام إلى معاوية يخبرونه ، وكتبوا في كتابهم :

مُعاوِيَ إلا تُسرِع السيرَ نَحُونَا نباعِ عليّاً أو يزيدَ اليَمانِيا

(٢) ساقطة من ١

(١) ساقطة من ب .

فلما قدّم كتابهم ، دعا بُسرَ بن أبي أرطاة - وكان قاسى القلب فظّاً سفاكاً للدماء ، لا رأفةَ عنده ولا رحمة - فأمره أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهى إلى اليمن ، وقال له : لا تنزل على بلد أهلَه على طاعةٍ على ، إلا بسطت عليهم لسانك ؛ حتى يروا أنهم لا نجاء لهم ، وأنك محيط بهم . ثم اكففت عنهم ، وادعهم إلى البيعة لى ، فمن أبى فاقتله ، واقتل شيعةً على حيث كانوا .

وروى إبراهيم بن هلال الثقفى فى كتاب " الفارات " ، عن يزيد بن جابر الأزدي ، قال :

سمعت عبد الرحمن بن مسعدة الفزارى يحدث فى خلافة عبد الملك ، قال : لما دخلت سنة أربعين ، تحدّث الناس بالشام أن عليّاً عليه السلام يستنفرُ الناس بالعراق فلا ينفرون معه ، وتذاكروا أن قد اختلفت أهواؤهم ، ووقعت الفرقة بينهم ، قال : فقامت فى نقر من أهل الشام إلى الوليد بن عُقبة ، فقلنا له : إن الناس لا يشكّون فى اختلاف الناس على على عليه السلام بالعراق ، فادخل إلى صاحبك فمره فليسير بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم ، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره . فقال : بلى ، لقد قاوتله فى ذلك وراجعتُه وعانته ، حتى لقد برم بى ، واستثقل طلعتى ، وإيم الله على ذلك ما أدع أن أبلغه مامشيتم^(١) إلى فيه .

فدخل عليه نخبه بجيئنا إليه ، ومقاتلنا له ، فأذن لنا ، فدخلنا عليه ، فقال : ماهذا الخبر الذى جاءنى به عنكم الوليد ؟ فقلنا : هذا خبر فى الناس سائر ، فشمّر للحرب ، وناهض الأعداء ، واهتبل الفرصة ، واغتنم الفرّة ، فإنك لا تدري متى تقدّر على عدوك على مثل حالهم التى هم عليها ؛ وأن تسير إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك . واعلم

(١) : « ماشيتم » .

والله أنه لولا تفرق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك . فقال لنا : ما أستغني عن رأيكم ومشورتكم ، ومتى أحتجج إلى ذلك منكم أدعكم . إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم ، واختلاف أهوائهم ، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم ، وأن أسير إليهم مخاطرا بجندي ، لا أدري على تكون الدائرة أم لي ! فإياكم واستبطائي ، فإني آخذُ بهم في وجهٍ هو أرفقُ بكم ، وأبلغُ في هلاككم . قد شذبتُ عليهم الغارات من كلِّ جانب ؛ نخيلي مرةً بالجزيرة ، ومرةً بالحجاز ؛ وقد فتح الله فيما بين ذلك مصر ، فأعزّ بفتحها ولينا ، وأذلّ به عدونا ، فأشرف أهل العراق لما يرون من حُسن صنيع الله لنا ، يأتوننا على قلائضهم في كلِّ الأيام ، وهذا مما يزيدكم الله به وينقصهم ، ويقويكم ويضعفهم ، ويعزكم ويذلهم ؛ فاصبروا ولا تعجلوا ، فإني لو رأيت فرصتي لاهتبتها .

نخرجنا من عنده ونحن نعرف الفصل^(١) فيما ذكر ، فجلسنا ناحيةً ، وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بسر بن أبي أرطاة ، فبعثه في ثلاثة آلاف ، وقال : سرّ حتى تمرّ بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخف من مررت به ، وانهب أموال كلِّ من أصبت له مالا ؛ ممن لم يسكن دخل في طاعتنا ، فإذا دخلت المدينة ، فأرهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ؛ حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم ، ثم سرّ حتى تدخل مكة ، ولا تعرض فيها لأحد ، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شرداً ؛ حتى تأتي صنعاء والجند ، فإن لنا بهما شيعة ، وقد جاءني كتابهم .

نخرج بسرّ في ذلك البعث ؛ حتى أتى دير مروان ، فعرضهم فسقط منهم أربعمائة ، فحصى في ألفين وسمائة ، فقال الوليد بن عتبة : أشرنا على معاوية برأينا أن يسير

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « الفضل » .

إلى الكوفة ، فبعث الجيش إلى المدينة ، فثقلنا ومثله ، كما قال الأول : أريها السُّمَّها وتُرِيْنِي الْقَمَرُ^(١) .

فبلغ ذلك معاوية ، فغضب وقال : والله لقد هممتُ بمساة هذا الأحمق الذي لا يحسن التدبير ، ولا يدري سياسة الأمور . ثم كف عنه .

قلت : الوليد كان لشدّة بغضه عليّاً عليه السلام القديم التالد ، لا يرى الأناة في حربه ، ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده ، ولا يشفي غيظَه ولا يُبرِد حزازات قلبه ؛ إلا باستئصاله نفسه بالجيش ، وتسييرها إلى دار مُلكه ، وسرير خلافته ، وهي الكوفة ، وأن يكون معاوية بنفسه هو الذي يسير بالجيش إليه ؛ ليسكون ذلك أبلغ في هلاك عليّ عليه السلام ، واجتثاث أصل سلطانه . ومعاوية كان يرى غير هذا الرأي ، ويعلم أن السير بالجيش للقاء على عليه السلام خطر عظيم ؛ فاقتضت المصلحة عنده وما يغيب على ظنه من حُسن التدبير ، أن يثبت بمركزه بالشام في جمهور جيشه ، ويسرّب الغارات على أعمال عليّ عليه السلام وبلاده ، فتجوس خلال الديار وتضعفها ، فإذا أضعفتها أضعفت بيضه ملك عليّ عليه السلام ؛ لأنّ ضعف الأطراف يُوجب ضعف البيضة ، وإذا أضعفت البيضة كان على بلوغ إرادته ، والمسير حينئذ - إن استصوب المسير - أقدَر .

ولا يلام الوليد على ما في نفسه ؛ فإنّ عليّاً عليه السلام قتل أباه عقبة بن أبي مُعيط صَبْرًا^(٢) يوم بدر ، وُسِّى الفاسق^(٣) بعد ذلك في القرآن ، انزاع وقع بينه وبينه ،

(١) السُّمَّها : كويكب صغير خفي الضوء و بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم . والمثل في اللسان ١٩ : ١٣٣ وانظر الميداني ١ : ٢٩١ .

(٢) القتل صبرا : أن يحبس الإنسان ويرمى به حتى يموت .

(٣) يشير إلى ما ذكره من سبب نزول قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ . وانظر الإصابة ٦ : ٦٣١ ، وأسباب النزول للواحدي ٢٩١ .

ثم جلده الحدّ في خلافة عثمان ، وعزله عن الكوفة ، وكان عاملها . وبيعض هذا عند العرب أرباب الدين ، والتقى تُسْتَحَلُّ الحارم . ، وتُستباح السماء ، ولا تبقى مراقبة في شفاء الغيظ لدين ولا لعقاب ولا لثواب ، فكيف الوليد المشتعل على الفسوق والفجور ، مجاهرا بذلك ! وكان من المؤلفة قلوبهم ، مطعوناً في نسبه^(١) ، مرمياً بالإلحاد والزندقة .

قال إبراهيم بن هلال : روى عوانة عن السكاكي ولوط بن يحيى أن بُسراً لما أسقط من أسقط من جيشه ، سار بمن تخلّف معه ، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبل أهل ذلك الماء فركبوها ، وقادوا خيولهم حتى يردّوا الماء الآخر ، فيردّون تلك الإبل ، ويركبون إبل هؤلاء ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة .

قال : وقد روى أن قضاة استقبلتهم ؛ ينحرون لهم الجزر ، حتى دخلوا المدينة . قال : فلاخلوها ، وعامل على عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصاري ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج عنها هارباً ، ودخل بُسر المدينة ، فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ وتوعدهم ، وقال : شأنت الوجوه ! إن الله تعالى يقول : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا . . . ﴾^(٢) الآية ، وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله ؛ كان بلدكم مهاجر النبي صلى الله عليه وآله ومُنزله ، وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده ؛ فلم تشكروا نعمة ربكم ، ولم ترعوا حقّ نبيكم ، وقتل خليفة الله بين أظهركم ، فكنتم بين قاتلٍ وخاذلٍ ، ومتربّص وشامت ، إن كانت للمؤمنين ، قلتم : ألم نكن معكم ! وإن كان للكافرين نصيب ، قلتم : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من

(١) : « دينه » .

(٢) سورة النحل ١١٢ ، وبقيتها : ﴿ رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ / فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

المؤمنين اثم شتم الأنصار ، فقال : يا معشر اليهود وأبناء العبيد : بنى زريق ، وبنى النجار ، وبنى سلمة ، وبنى عبد الأشهل ؛ أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان ؛ أما والله لأدعنكم أحاديث كالأمم السالفة^(١).

فتهددهم حتى خاف الناس أن يوقع بهم ، ففزعوا إلى حويط بن عبد العزى - ويقال إنه زوج أمة - فصعد إليه المنبر ، فناشده ، وقال : عترتك وأنصار رسول الله ، وليسوا بقتلة عثمان ؛ فلم يزل به حتى سكن ، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه . ونزل فأحرق دورا كثيرة ، منها دار زُرارة بن حَرُون ، أحد بني عمرو بن عوف ، ودار رفاعة ابن رافع الزريقى ، ودار أبي أيوب الأنصارى . وتنفق جابر بن عبد الله ، فقال : مالى لا أرى جابرا يا بنى سلمة ! لا أمان لكم عندى ، أو تأتونى بجابر ؛ فعاذ جابر بأم سلمة رضى الله عنها ، فأرسلت إلى بسر بن أرطاة ، فقال : لا أؤمنه حتى يبايع ، فقالت له أم سلمة : اذهب فبايع ، وقالت لابنها عمر : اذهب فبايع ، فذهبا فبايعاه^(٢).

قال إبراهيم : وروى الوليد بن كثير عن وهب بن كيسان ، قال : سمعت جابر ابن عبد الله الأنصارى يقول : لما خِفْتُ بُسرًا وتواريت عنه ، قال لقومى : لا أمان لكم عندى حتى يحضر جابر ، فأتونى وقالوا : نَنشُدُكَ الله لما انطلقتَ معنا فبايعتَ ، فحَفَنْتَ دَمَكَ ودَماء قومك ؛ فإنك إن لم تفعلْ قَتَلْتَ مُقاتِلينا ، وسبَيْتَ ذُراريَنا . فاستنظرتُهم الليل ، فلما أمسيت دخلت على أم سلمة فأخبرتُها الخبر ، فقالت : يا بنى ، انطلق فبايع ، احقنْ دَمَكَ ودَماء قومك ؛ فإنى قد أمرت ابن أخى أن يذهبَ فبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة .

(١) انظر تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « فقال لها : ماذا ترين ؟ لى قد خشيت أن أقتل ؛ وهذه بيعة ضلالة ، فقالت : « أرى أن تبايع ، فإنى قد أمرت ابنى عمر بن أبى سلمة أن يبايع ، وأمرت ختنى عبد الله بن زمعة .. » .

قال إبراهيم : فأقام بُسر بالمدينة أياماً ثم قال لهم : إني قد عَفَوْتُ عنكم ؛ وإن لم تكونوا لذلك بأهل ؛ ما قومٌ قَتَلَ إمامهم بين ظَهْرَانِيهِمْ بأهلٍ أن يُكَفَّ عنهم العذاب ؛ ولئن نالكم العفو مني في الدنيا ؛ إني لأرجو ألا تنالكم رحمة الله عز وجل في الآخرة ، وقد استخلفتُ عليكم أبا هريرة ؛ فإياكم وخلافه . ثم خرج إلى مكة .

قال إبراهيم : ورى الوليد بن هشام ، قال : أقبل بُسر ، فدخل المدينة ، فصعد منبر الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم قال : بأهل المدينة ، خَضَبْتُمْ لِحَاكُمْ ، وقتلتم عَمَانَ مَخْضُوباً ، والله لا أدعُ في المسجد مَخْضُوباً إلا قَتَلْتُهُ ، ثم قال لأصحابه : خذُوا بأبواب المسجد - وهو يريد أن يستعرِضهم - فقام إليه عبد الله بن الزبير وأبو قيس أحد بني عامر بن لؤي ، فطلبا إليه حتى كفَّ عنهم . وخرج إلى مكة ، فلما قرب منها هرب قُثمُ ابن العباس - وكان عاملَ عليٍّ عليه السلام - ودخلها بُسر ، فشتَمَ أهلَ مكة وأنابهم . ثم خرج عنها ، واستعمل عليها شَيْبَةَ بن عَمَانَ .

قال إبراهيم : وقد روى عَوَانَةُ عن السكبي أن بُسراً لما خرج من المدينة إلى مكة قتل في طريقه رجالاً ، وأخذ أموالاً ، وبلغ أهلَ مكة خبرُهُ ، فتنحى عنها عامةُ أهلها ، وتراضى الناس بشيبة بن عَمَانَ أميراً لما خرج قُثمُ بن العباس عنها ، وخرج إلى بُسر قوم من قريش ، فتلَقَّوه ، فشتَمهم ، ثم قال : أما والله لو تُرِكَت ورأيي فيكم لتركْتُكم وما فيكم روح تمشي على الأرض . فقالوا : نَنشُدُكَ الله في أهلك وعِترتك ! فسكت ثم دخل وطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، ثم خطبهم ، فقال :

الحمد لله الذي أعزَّ دعوتنا ، وجمعَ ألفتنا ، وأذلَّ^(١) عَدُوَّنَا بالقتل والتشريد ، هذا ابنُ أبي طالب بما حية العراق في ضَنكِ وضيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسأله بجريرته ؛

(١) : « وخذل » .

فتفرق عنه أصحابه ناهقين عليه ، وولى الأمر معاوية الطالبُ بدمِ عُمَان ؛ فبايعوا ولا تجملوا على أنفسكم سبيلا . فبايعوا .

وتفقدَ سعيدَ بنَ العاصِ فطلبه فلم يجده ، وأقام أياماً ثم خطبهم فقال :
يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، إِنِّي قَدْ صَفَحْتُ عَنْكُمْ ، فإياكم والخلاف ، فوالله إنَّ فَعَامِمْ لَأَقْصِدَنَّ مِنْكُمْ
إِلَى الَّتِي تُبِيرُ الْأَصْلَ ، وَتَحْرُبُ الْمَالَ ، وَتَحْرُبُ الدِّيارَ .

ثم خرج إلى الطائف ، فسكتب إليه المغيرة بن شعبة حين خرج من مكة إليها :
أما بعد ، فقد بلغني مسيرك إلى الحجاز ، ونزولك مكة ، وشِدَّتْكَ عَلَى الْمَرِيبِ ،
وعفوك عن المسيء ، وإكرامك لأولى النَّهْيِ ، لَحَمَدْتُ رَأْيَكَ فِي ذَلِكَ ، فَدُمُّ عَلَى صَالِحِ
مَا كُنْتَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يَزِيدَ بِالْخَيْرِ أَهْلَهُ إِلَّا خَيْرًا ؛ جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ مِنْ
الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالْقَاصِدِينَ إِلَى الْحَقِّ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا .

قال : ووجه رجلاً من قريش إلى تبالة ، وبها قوم من شيعة على عليه السلام ، وأمره
بقتلهم . فأخذهم ، وكلم فيهم وقيل له : هؤلاء قومك ، فكف عنهم حتى تأتيك بكتاب
من بُسِّرَ بِأَمَانِهِمْ ؛ فحبسهم . وخرج منيع الباهلي من عندهم إلى بُسْرٍ وهو بالطائف يستشفع
إليه فيهم ، فتحمل عليه بقوم من الطائف ، فسكّموه فيهم ، وسألوه الكتاب بإطلاقهم ،
فوعدهم ، ومطّلمهم بالكتاب حتى ظن أنه قد قتلهم القرشي المبعوث لقتلهم ، وأن كتابه
لا يصل إليهم حتى يُقتلوا . ثم كتب لهم ، فأتى منيع منزله ، وكان قد نزل على امرأة
بالطائف وورّحله عندها ، فلم يجدها في منزلها ، فوطئ على ناقته بردائه ، وركب فصار يوم
الجمعة وليلة السبت لم ينزل عن راحلته قط ، فأتاهم ضحوة ، وقد أخرج القوم ليقتلوا ،
واستبطئ كتاب بُسِّرَ فيهم ، فقدم رجل منهم فضر به رجل من أهل الشام ، فاقطع
سيفه ، فقال الشاميون بعضهم لبعض : شمسوا سيوفكم حتى تلين فهوروها . وتبصر منيع

الباهلى بريق السيوف ، فألمع بثوبه ، فقال القوم : هذا راكب عنده خير ، فكفوا ،
وقام به بعيره فنزل عنه ، وجاء على رجليه يشتد فدفع الكتاب إليهم فأطلقوا . وكان الرجل
المقدم - الذى ضرب بالسيف فانكسر السيف - أخاه .

قال إبراهيم : وروى على بن مجاهد ، عن ابن إسحاق أن أهل مكة لما بلغهم
ما صنع بسر ، خافوه وهربوا ، فخرج ابنا عبيد الله بن العباس ؛ وهما سليمان ودادود ،
وأما جويرية ابنة خالد بن قرظ الكنانية ، وتكنى أم حكيم ، وهم حلفاء بنى زهرة
- وهما غلامان - مع أهل مكة ، فأضالوهما عند بئر ميمون بن الحضرمي - وميمون هذا هو
أخو العلاء بن الحضرمي - وهما عليهما بسر ، فأخذها وذبحهما ، فقالت أمهما (١) :

ها من أحس بابني اللذين هما	كالدرتين تشظي عنهما الصدف (٢)
ها من أحس بابني اللذين هما	سمعي وقلبي ؛ فقلبي اليوم تحتطف
ها من أحس بابني اللذين هما	مخ العظام ، فمخى اليوم مزدهف (٣)
نبتت بسرأ وما صدقت ما زعموا	من قولهم ومن الإفك الذى اقترفوا
أنحى على ودجى ابني مرهفة	مشحودة ، وكذلك الإثم يقترف (٤)
من دلّ واله حرى مسلمة (٥)	على صبيين ضلأ إذ مضى السلف (٦)

(١) الأبيات فى الكامل - بشرح الرصنى ٨ : ١٥٨ ، وهى أيضاً مع الخبر فى الأغانى ١٥ : ٤٥ ،
(طبعة الساسى) .

(٢) الكامل والأغانى : « يامن أحس بنى » . وتشظى : تفرق .

(٣) مزدهف : ذهب به .

(٤) الكامل : « على ودجى طفلى » ، وبعد هذا البيت فى رواية الأغانى :

حتى لقيت رجالاً من أرومتيه شم الأنوف لهم فى قويمهم شرف
فالآن ألعن بسرأ حق لعنتيه هذا لعمر أبى بسر هو السرف

(٥) الكامل : « مفجعة » والأغانى : « مولعة » .

(٦) الكامل : « على صبيين غابا » ، والأغانى : « إذ غدا السلف » .

وقد روى أن اسمهما قُسم وعبد الرحمن. وروى أنهما ضلّا في أخوالهما من بنى كنانة. وروى أن بُسرًا إنما قتلها باليمن ، وأنهما ذبحا على درَج صنعاء ^(١) .

وروى عبد الملك بن نوفل بن مُساحق عن أبيه ، أن بُسرًا لما دخل الطائف، وقد كَلَّمه المغيرة ، قال له : لقد صدقتني ونصحتني ؛ فبات بها وخرج منها ، وشيعة المغيرة ساعة ، ثم ودّعه وانصرف عنه ، فخرَج حتى مرَّ ببني كنانة ، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأُمهما . فلما انتهى بُسرٌ إليهم ، طلبهما ، فدخل رجل من بني كنانة - وكان أبوها أوصاه بهما - فأخذ السيفَ من بيته وخرج ، فقال له بُسرٌ : ثكلتك أمك ! والله ما كنا أردنا قَتْلَكَ ، فلمْ عَرَضْتَ نَفْسَكَ للقتل ! قال : أَقْتُلْ دون جاري أَعْدَرُ لي عند الله والناس . ثم شدَّ على أصحاب بُسرٍ بالسيف حاسرا ، وهو يرتجز :

آليتُ لا يمنع حافات الدار ولا يموت مصلتا دون الجار ^(٢)
* إلّا فتى أروع غير غدار *

فضارب بسيفه حتى قُتل ، ثم قدّم الغلامان فقتلا . فخرج نسوة من بني كنانة ، فقالت امرأةٌ منهنّ : هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ! والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام ، والله إن سلطانا لا يشتدّ إلّا بقتل الضرع الضعيف ، والشيخ الكبير ، ورفع الرحمة ، وقطع الأرحام لسلطان سوء ؛ فقال بُسرٌ : والله أهملت أن أضع فيسكن السيف ، قالت : والله إنه لأحبُّ إلىّ إن فعلت !

قال إبراهيم : وخرج بُسرٌ من الطائف ، فأثى نَجْران ، فقتل عبد الله بن عبد المذان وابنه مالهكا - وكان عبد الله هذا صهرا لعبيد الله بن العباس - ثم جمعهم وقام فيهم ، وقال :

(٢) المصات : المجرّد سيفه .

(١) الدرج : الطريق .

يأهل نجران ، يامعشرَ النصارى وإخوان القروء : أما والله إن بلغنى عنكم ما أكره
لأعوذنّ عليكم بالتي تقطع النسل ، وتُهْلِكُ الحرث ، وتحرب الديار !
وتهدّهم طويلاً ، ثم سارحتى [بلغ] أرْحَبَ ، فقتل أبا كريب - وكان يَشِيعُ - ويقال : إنه
سيّد من كان بالبادية من همدان ، فقدمه فقتله .

وأنى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس وسعيد بن نمران ، وقد استخلف
عبيدُ الله عليها عمرو بن أراكة الثقفي ، ففتح بُسراً من دخولها وقتله ، فقتله بُسر ، ودخل
صنعاء ، فقتل منها قوماً ، وأتاه وفدُ مأرب فقتلهم ، فلم ينجُ منهم إلا رجل واحد ، ورجع
إلى قومه ، فقال لهم : « أنعى قتلاًنا ، شيوخاً وشبّاناً » .

قال إبراهيم : وهذه الأبيات المشهورة لعبيد الله بن أراكة الثقفي : يرثي بها ابنه عمراً^(١) :
لَعَمْرِي لَقَدْ أَرْدَى ابْنُ أَرْطَاةَ فَارِسًا بصنعاء كاللّيث الهزبر أبي الأجر^(٢)
تَعَزَّ فَإِنْ كَانَ الْبَكَاءُ هَالِكًا على أحد ، فاجهد بُسْكَك على عمرو^(٣)
وَلَا تَبْكِ مَيِّتًا بَعْدَ مَيِّتٍ أَجَنَّهُ على وعباس وآل أبي بكر
قال : وروى نُمَيْرُ بْنُ وَعَلَةَ ، عن أَبِي وَدَّاعٍ^(٤) ، قال : كُنْتُ عِنْدَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا
قَدِمَ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ نَمْرَانَ السَّكُوفِيَّ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ وَعَلَى عَبِيدِ اللَّهِ الْآلَ يَسْكُونُ قَاتِلًا بُسْرًا ،

(١) الأبيات في الكامل - بشرح المصنف ٨ : ١٥٧ ، وقبلهما في روايته :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَتَبَعْتَ عَيْنَكَ مَا مَضَى به الدهرُ أوساق الحمام إلى القبر
لَدَسْتَنِي فِدَنُ مَاءِ الشُّنُونِ بِأَسْرِهِ وَلَوْ كُنْتُ تَمْرِيَهِنَ مِنْ تَبِيجِ الْبَحْرِ
(٢) في الكامل : « أبي أجر » ، وأجر : جمع جرو ، وهو هنا اسم لولد الأسد ؛ ويجمع على أجراء أيضاً .
(٣) رواية الكامل :

تَبَيَّنَ فَإِنْ كَانَ الْبَكَاءُ هَالِكًا على أهله فاشدّد بُسْكَكَ على عمرو
(٤) هو جبر بن نوف الهمداني ، أبو الوداك ، بفتح الواو وتشديد الدال . التقريب ٤١ .

فقال سعيد : قد والله قاتلت ، ولسكن ابن عباس خذلني وأبى أن يقاتل ، ولقد خلوتُ به حين دنا مِنَّا بُسر ، فقلت : إنَّ ابنَ عمك لا يرضى مِنِّي ومنك بدون الجِدِّ في قتالهم ، قال : لا والله مالفا بهم طاقة ولا يدان ، فقممت في الناس ، فحمدت الله ثم قلت : يا أهل اليمن ، مَنْ كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فإلىَّ إلى . فأجابني منهم عصابة ، فاستقدمت بهم ، فقاتلت قتالا ضعيفا ، وتفرق الناس عني وانصرفت .

قال : ثم خرج بُسر من صنعاء ، فأتى أهل جَيْشَانَ^(١) وهم شيعة علىَّ عليه السلام فقاتلهم وقتلوه ، فبرز منهم وقتلهم قتلاً ذريعاً ، ثم رجع إلى صنعاء ، فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس ، لأنَّ ابني عبيد الله بن العباس كانا مستترين في بيت امرأة من أبناءهم ، تعرف بابنة بُزرج .

وقال الكلبي وأبو مخنف : فندب علىَّ عليه السلام أصحابه لبعث سرية في إثر بُسر ، فتشاقفوا ، وأجابه جارية بن قدامة السعدي ، فبعثه في ألفين ، فشخص إلى البصرة ، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدِم اليمن ، وسأل عن بُسر ف قيل : أخذ في بلاد بني تميم ، فقال : أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم . وبلغ بُسرا مسيرُ جارية ، فأنحدر إلى اليمامة ، وأخذ جارية بن قدامة السير ، مايلتفت إلى مدينة مرَّ بها ولا أهل حصن ، ولا يرجع على شيء إلا أن يُرْمَل^(٢) بعض أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته ، أو يسقط بعير رجل أو تحي في دابته ، فيأمر أصحابه بأن يُعْقِبُوهُ ، حتى انتهوا إلى أرض اليمن ، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال ، واتبعهم شيعة علىَّ عليه السلام ، وتداعت عليهم من كل جانب ، وأصابوا منهم ، وصمد^(٣) نحو بُسر ، وبسر بين يديه يفر من جهة إلى جهة أخرى ، حتى أخرجه من أعمال علىَّ عليه السلام كلها .

فلما فعل به ذلك ، أقام جارية بحرس نحو من شهر ، حتى استراح وأراح أصحابه ، ووثب الناس ببُسر في طريقه لما انصرف من بين يدي جارية ، لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغشمه وأصاب بنو تميم ثِقْلاً من ثقله في بلاده . وصحبه إلى معاوية ليأمره على الطاعة ابنُ جَبَّاعة

(١) جيشان : خلاف باليمن ، شمال الحج (٢) يقال : أرمل القوم ؛ إذا نفذ زادهم .

(٣) صمد : قصد .

رئيس اليمامة ، فلما وصل بُسر إلى معاوية قال : يا أمير المؤمنين ، هذا ابن مجاعة قد أتيتك به فاقتله ، فقال معاوية : تركته لم تقتله ، ثم جئتني به فقلت اقتله ! لا لمعري لا أقتله . ثم بايعه ووصله ، وأعادته إلى قومه .

وقال بُسر : أحمد الله يا أمير المؤمنين أني سرت في هذا الجيش أقتل عدوك ذاهبا جائيا لم يُنكسب رجل منهم نكبة ، فقال معاوية : الله قد فعل ذلك لا أنت . وكان الذي قتل بُسر في وجهه ذلك ثلاثين ألفا ، وحرّق قوما بالنار ، فقال يزيد ابن مفرغ :

تعلق من أَسْمَاءَ مَا قَدْ تَمَلَّقَا	ومثل الذي لاقى من الشوق أَرْقَا ^(١)
سقى هَزِمُ الأَرْعَادِ مِنْبَعِجَ الكَلَى	منازلها من مَسْرُوقَانِ فَسْرَقَا
إلى الشرف الأعلى إلى رَامَهُزْمُزِ	إلى قَرَابَاتِ الشَّيْخِ مِنْ نَهْرِ أَرْبَقَا
إلى دشتِ بَارِينٍ إِلَى الشَّطِّ كُلِّهِ	إلى جمع السُّلَّانِ مِنْ بطن دَوْرَقَا ^(٢)
إلى حيث يُرْفَا مِنْ دُجَيْلٍ سَفِينُهُ	إلى جمع النهرين حيث تفرقا
إلى حيث سار المرءُ بُسْرٌ بِجَيْشِهِ	فقتل بُسْرٌ مَا اسْتَطَاعَ وَحَرَقَا

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : اجتمع عبيد الله بن العباس وُبسر بن أرطاة يوما عند معاوية بعد صلح الحسن عليه السلام ، فقال له ابن عباس : أنت أمرت اللعين السيِّءَ القَدَمَ أن يقتل ابني ؟ فقال : ما أمرته بذلك ، ولوددت أنه لم يكن قتلها ، ففضب بُسر ونزع سيفه فألقاه وقال لمعاوية : اقبض سيفك ، قلّدتنيه وأمرتني أن أخيط به الناس ففعلت ، حتى إذا بلغت ما أردت قلت : لم أهو ولم أمر ا فقال : خذ سيفك إليك ، فلمعري

(١) وردت هذه الأبيات في الأغاني ١٧ : ٦٩ (سائي) ، ومعجم ما استعجم ٢ : ١٢٢٥ - ١٢٢٦ ، ومعجم البلدان ٨ : ٥٢ ؛ مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات وترتيبها . (٢) الدشت : الصحراء .

إنك ضعيف مائق حين تُلقي السيفَ بين يدي رجلٍ من بني عبد مناف ، قد قتلتَ
أُمسِ ابنِيه .

فقال له عبيد الله : أتَحسبني يامعاويةُ قاتلاً بُسراً بأحدِ ابني ! هو أحقر والأُم من
ذلك ؛ ولَسَكُنِّي والله لا أرى لى مَقْنَعًا ، ولا أدرك ثأراً إلا أن أصيب بهما يزيدَ وعبد الله .
فتبسّم معاوية وقال : وما ذنبُ معاوية وابنِ معاوية ! والله ما علمتُ ولا أمرتُ ،
ولا رضيت ولا هَوَيْت . واحتملها منه لشرفه وسؤدده .

قال : ودعا على عليه السلام على بُسرٍ فقال : اللهم إن بُسراً باع دينه بالدنيا ، وانتَهك
محارمَكَ ، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثراً عنده مما عندك . اللهم فلا تُثِمِّتْهُ حتى تَسْلُبَهُ
عقله ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار . اللهم ألعن بُسراً وعمرأ ومعاوية ،
وليُجَلِّ عليهم غضبك ، ولتنزل بهم نِقَمَتُكَ ، وليصي بهم بأسك ورجزك الذي لا تردّه عن
القوم الجرمين .

فلم يلبث بُسرٌ بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله . فكان يهذي
بالسيف ، ويقول : أعطوني سيفاً أقتل به ؛ لا يزال يردد ذلك حتى اتَّخَذَ له سيف من
خشب ، وكانوا يدنون منه المِرْفَقة ، فلا يزال بضربها حتى يُفشي عليه ، فلبث كذلك
إلى أن مات .

قلت : كان مُسلم بن عُقْبَةَ ليزيد وماعيل بالمدينة في وقعة الحرّة كما كان بُسر لمعاوية
وما عمل في الحجاز واليمن ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

نَبِيٍّ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا^(١)

(١) قبله :

إِنَّا وَإِنْ كَرُمْتَ أَوَائِلُنَا لَسَنَّا عَلَى الْأَحْسَابِ نَسْكَالُ

وينسب البيتان للمؤكل اللبثي ؛ وهما في العقد ٣ : ٤١١ .

(٢٦)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ ،
وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ ، وَفِي شَرِّ دَارٍ ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ ،
وَحَيَاتٍ صُمٍّ ، تَشْرَبُونَ الْكَدِيرَ ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ،
وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ . الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنصُوبَةٌ ، وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ .

الشرح :

يجوز أن يعنى بقوله : « بين حجارة خشن ، وحيات صم » الحقيقة لا المجاز ؛
وذلك أن البادية بالحجاز ونجد وتِهامة وغيرها من أرض العرب ذات حيات وحجارة
خشن ، وقد يعنى بالحجارة الخشن الجبال أيضاً أو الأصنام ؛ فيكون داخلها في قسَم
الحقيقة إذا فرضناه مُراداً ، ويكون المعنى بذلك وصف ما كانوا عليه من البؤس وشظف
العيشة وسوء الاختيار في العبادة ، فأبدلهم الله تعالى بذلك الرِّيف^(١) ولين المهاد وعبادة
من يستحق العبادة .

ويجوز أن يعنى به المجاز ، وهو الأحسن ؛ يقال للأعداء حيات . والحية الصماء
أذهى من التي ليست بصماء ، لأنها لا تنزجر بالصوت . ويقال للعدو أيضاً : إنه لحجر
خشن المس ، إذا كان ألد الخصاص .

والجشِب من الطعام : الغايظُ الخشن .

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب وسعة في الماء كل والمشرَب .

وقال أبو البختريّ وهب بن وهب القاضي : كنتُ عند الرشيد يوماً ، واستدعى ماء مبرّداً بالثلج ، فلم يوجد في الخزانة ثلج ، فاعتذر إليه بذلك ، وأحضر إليه ماء غير مثلوج ، فضرب وجه الغلام بالكُوز ، واستشاط غضباً ، فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمِن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من الغيّر بالأمس - يعني زوال دَوْلَة بني أميّة - والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحرزُ ألا تعود نفسك الترفّة والنعمة ، بل تأكل اللَّيّن والجشِب ، وتلبس الناعم والخشن ، وتشرب الحارّ والقارّ ؛ فنفخني بيده ، وقال : لا والله ، لا أذهب إلى ما تذهب إليه ، بل ألبسُ النعمة ما لبستني ، فإذا نابت نوبة الدهر عدت إلى نصّاب غير خوّار^(١) .

وقوله : « والآثام بكم معصوبة » ، استعارة ، كأنها مشدودة إليهم .

وعنى بقوله : « تسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم » ما كانوا عليه في الجاهليّة من الغارات والحروب .

الأبطل :

ومنها :

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي ، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ ،
وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى ، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَى ، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ ، وَعَلَى أَمْرِ
مِنْ طَعْمِ الْعَلَقَمِ .

(١) الحوار : الضعيف .

الشَّيْخُ

الكَلَمُ ، بفتح الظاء : مَخْرَجُ النَّفْسِ ، والجمع أَكْطَام . وَضِنْتُ ، بالكسر : بَخَلْتُ .
وَأَغْضَيْتُ عَلَى كَذَا : غَضَضْتُ طَرَفِي ، وَالشَّيْخَى : مَا يَعْتَرِضُ فِي الْحَلَقِ .

[حديث السَّقِيفَةِ]

اختلفت الروايات في قِصَّةِ السَّقِيفَةِ ، فالذى تقولها الشيعة - وقد قال قوم من الحديثين بعضه ورووا كثيرا منه - أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ امتنع من الْبَيْعَةِ حتى أَخْرَجَ كَرْهًا ، وَأَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ امتنع من الْبَيْعَةِ وقال : لَا أَبَايَعُ إِلَّا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وكذلك أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَبَنُوهُ ، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَجَمِيعُ بَنِي هَاشِمٍ . وقالوا : إِنَّ الزُّبَيْرَ شَهَرَ سَيْفَهُ ، فَلَمَّا جَاءَ عُمَرُ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ ، قَالَ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَ : خُذُوا سَيْفَ هَذَا فَاضْرِبُوا بِهِ الْحَجَرَ . ويقال : إِنَّهُ أَخَذَ السَّيْفَ مِنْ يَدِ الزُّبَيْرِ فَضَرَبَ بِهِ حَجَرًا فَكَسَرَهُ ، وَسَاقَهُمْ كُلَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَنَحَلَهُمْ عَلَى بَيْعَتِهِ وَلَمْ يَتَخَافْ إِلَّا عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ وَحَدَّهِ ، فَإِنَّهُ اعْتَصَمَ بِبَيْتِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ، فَتَحَامَوْا إِخْرَاجَهُ مِنْهُ قَسْرًا ، وَقَامَتِ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ إِلَى بَابِ الْبَيْتِ فَاسْتَمَعَتْ مَنْ جَاءَ يَطْلُبُهُ ، فَتَفَرَّقُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُ بِمَفْرَدِهِ لَا يَضُرُّ شَيْئًا ، فَتَرَكَوهُ .

وقيل : إِنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ فِيمَنْ أَخْرَجَ وَحَمَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعَهُ . وقد روى أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ كَثِيرًا مِنْ هَذَا ^(١) .

فَأَمَّا حَدِيثُ التَّحْرِيقِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُ مِنَ الْأُمُورِ الْفَظِيحَةِ ، يَقُولُ مَنْ قَالَ إِنَّهُمْ أَخَذُوا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَادُ بِعِمَامَتِهِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ ؛ فَأَمْرٌ بِعَيْدٍ ، وَالشَّيْعَةُ تَنْفَرِدُ بِهِ ، عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ قَدْ رَوَوْا نَحْوَهُ ، وَسَنَذْكُرُ ذَلِكَ .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٣ وما بعدها .

وقال أبو جعفر : إنّ الأنصار لَمَّا فاتَها ماطلبت من الخلافة ، قالت - أوقال بعضها : لا نبايع إلا علياً . وذكر نحو هذا عليّ بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصليّ في تاريخه ^(١) .

فأمّا قوله : « لم يكن لي معين إلا أهل بيتي فضنّنتُ بهم عن الموت » فقولٌ مازال عليّ عليه السلام يقول ، ولقد قاله عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : لَوْ وَجَدْتُ أَرْبَعِينَ ذَوِي عِزْمٍ !

ذكر ذلك نصر بن مُزاحم في كتاب " صيفين " ، وذكره كثير من أرباب السيرة .

وأما الذي يقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم ، فإنّه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر ، ولزِمَ بيته ، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام ، فلما ماتت بايع طوعاً . وفي صحيحه مسلم والبخاريّ : كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعدُ ، فلما ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه الناس عنه ، وخرج من بيته فبايع أبا بكر ، وكانت مدةُ بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر ^(٢) .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ ، ^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال لي عبد الرحمن بن عوف ، وقد حَجَجْنَا مع عمر ^(٤) : شهدت اليومَ أمير المؤمنين عليه السلام يمّني ، وقال له رجلٌ ^(٥) : إني سمعتُ فلانا يقول : لو قد مات عمر لبايعت فلانا ، فقال عمر ^(٥) : إني لقائمُ العشيّة في الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن

(١) الكامل ٢ : ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) صحيح البخاري بسنده عن عائشة في كتاب المغازي ، وصحيح مسلم بسنده أيضاً عن عائشة ، في كتاب الجهاد والسير .

(٣-٣) صدر الخبر في الطبري : « عن ابن عباس ، قال : كنت أقرئُ عبد الرحمن بن عوف ، قال : فُجج عمر وحججنا معه ، قال : فإني لفي منزلٍ بمي إذ جاءني عبد الرحمن بن عوف فقال : شهدت . »

(٤) الطبري : « وقام إليه رجل فقال . » (٥) الطبري : « فقال أمير المؤمنين . »

يغتصبوا الناس أمرهم . قال عبد الرحمن : فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الموسم يجمع رعايا الناس وغوغاهم ،^(١) وهم الذين يقربون من مجلسك ويغلبون عليه ، وأخاف أن تقول مقالة لا يعونها ، ولا يحفظونها فيطيروا بها^(٢) ، ولأكن أمهل حتى تقدم المدينة^(٣) وتخلص بأصحاب رسول الله ، فتقول [ماقلت متمكنا]^(٤) ، فيسمعوا^(٥) . فقلت : والله لأقومن بها أول مقام أقوم به بالمدينة .

قال ابن عباس :^(٥) فلما قدمناها ، هجرت يوم الجمعة لحديث^(٥) عبد الرحمن ، فلما جلس^(٦) عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال^(٦) بعد أن ذكر الرجم وحد الزنا : إنه بلغني أن قائلا منكم يقول : لو مات أمير المؤمنين بايعت فلانا ، فلا يفرن امرأ أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، فلقد كانت كذلك ؛ ولكن^(٧) الله وقى شرها ، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق كأبي بكر ، وإنه كان من خبرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه . أن عليا والزبير تخلفا عنا في بيت فاطمة ومن معهما ، وتخلفت عنا الأنصار ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت له : انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار . فانطلقنا نحوهم ، فلقينا رجلا صالحا من الأنصار قد شهدا بدر : أجدهما عويم بن ساعدة ، والثاني معن بن عدي ، فقالا لنا : ارجعوا فاقضوا أمركم بينكم^(٨) ؛ فأتينا الأنصار ، وهم مجتمعون في سقيفة

(١-١) عبارة الطبري : « ولأنهم الذين يغلبون مجلسك ، ولأن الحائف إن قلت اليوم مقالة ألا يموها ولا يحفظوها ، ولا يضعوها على مواضعها ، وأن يطيروا بها كل مطير » .

(٢) الطبري : « دار الهجرة والسنة » . (٣) تكملة من تاريخ الطبري .

(٤) الطبري : « فيعوا » .

(٥-٥) الطبري : « فلما قدمنا المدينة وجاء يوم الجمعة هجرت للحديث الذي حدثني به عبد الرحمن فوجدت سعيد بن زيد قد سبقني بالتهجير ، فجلست » .

(٦-٦) عبارة الطبري : « فوجدت سعيد بن زيد قد سبقني بالتهجير ، فجلست إلى جنبه عند المنبر ، ركبتي إلى ركبته ، فلما زالت الشمس لم يلبث عمر أن خرج ، فقلت لسعيد وهو مقبل : ليقول أمير المؤمنين اليوم على هذا المنبر مقالة لم تقل قبله ، فغضب وقال : فأى مقالة يقول لم تقل قبله ؟ فلما جلس عمر على المنبر أذن المؤذنون ، فلما قضى المؤذن أذانه قام عمر ، حمد الله وأثنى عليه وقال ... »

(٧) الطبري : « غير أن » .

(٨) بعدها في الطبري : « فقلنا والله لنا بينهم » .

بنى ساعدة، وبين أظهرهم رجل مُزَمَّل، فقلت : من هذا ؟ ^(١) قالوا: سعد بن عبادَةَ وجِيع ^(٢).
فقام رجل منهم ، فحمد الله وأثنى عليه، فقال : أما بعدُ ، فنحن الأنصار ، وكتبية الإسلام
وأنتم يامعشر قريش رهطُ نبينا ، قد دَفَّتْ إلينا دافَّةٌ من قومكم ^(٣) ، فإذا أنتم تريدون
أن تفصبونا الأمر .

فلما سكت ، ^(٤) وكنت قد زوّرت في نفسى مقالة أقولها بين يدي أبى بكر ^(٥) ،
فلما ذهبت أسكلم ، قال أبو بكر : عَلَى رِسْلِكَ ! فقام فحمد الله وأثنى عليه ، فما ترك شيئا
كنت زوّرت ^(٦) في نفسى إلّا جاء به أو بأحسن منه ، وقال : يامعشر الأنصار ،
إنكم لا تَدْرُونَ فضلا إلّا وأنتم له أهل ، وإنّ العربَ لا تعرف هذا الأمر
إلا قريش ، أوسط العرب داراً ونسباً ، وقد رَضِيتُ لكم أحداً هذين الرجلين
- وأخذ بيدي ويد أبى عبيدة بن الجراح - والله ما كرهتُ من كلامه غيرَها ؛
إن كنتُ لأَقْدَمُ فتضربُ عُنُقِي فيما لا يقرّ بنى إلى إمام ؛ أحبّ إلىّ من أن أومّر على قوم
فيهم أبو بكر .

فلما قضى أبو بكر كلامه ، قامَ رجل ^(٧) من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُنا المحكّك ،
وعُدَيْقُنا المرجّب ^(٨) ؛ منا أمير ومنكم أمير .

(١-١) عبارة الطبرى : « فقلت : ماشأته ؟ قالوا : وجِيع » .

(٢) الدافّة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد .

(٣-٣) الطبرى : « قال : فلما رأيتهم يريدون أن يحتزلونا من أصلنا ويفصبونا الأمر ، وقد كنت
زورت في نفسى مقالة أقدمها بين يدي أبى بكر » .

(٤) زورت في نفسى كلاماً ، أى هيأت وأصلحت ، والتزوير : إصلاح الشيء .

(٥) هو الحباب بن المنذر الخزرجى ، ذكره الزمخشري في الفائق ١ : ١٨١ ، وأورد كلامه .

(٦) الجذيل في الأصل : تصغير الجذل ؛ وهو عود ينصب للابل الجربى تستشنى بالاحتكاك به . والمحكك :
الذى كثر به الاحتكاك حتى صار ممسكاً . والعديق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجّب : المدعوم
بالرجية ؛ وهى خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا كثر وطال حمله ؛ والمعنى أنى ذورأى يشنى بالاستضاءة به
كثيراً في مثل هذه الحادثة ، وأنا في كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها
كالنخلة الكثيرة الحمل . الفائق ١ : ١٨١ ، ١٨٢ .

وارتفعت الأصوات واللغط ، فلما خُفْتُ الاختلاف ، قلتُ لأبي بكر : ابْسُطْ يَدَكَ أبايُكَ ، فَبَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعْتُهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ ، ثُمَّ نَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ : قَتَلْتُمْ سَعْدًا ! فَقُلْتُ : اقْتُلُوهُ قَتْلَهُ اللَّهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا أَمْرًا هُوَ أَقْوَى مِنْ بَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ ، خَشِيتُ إِنْ فَارَقْتُ الْقَوْمَ وَلَمْ تَسْكُنْ بَيْعَةَ أَنْ يَحْدِثُوا بَعْدَنَا بَيْعَةً ، فِيمَا أَنْ تَبَايَعَهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى ، أَوْ نَخْلَفَهُمْ فَيَكُونُ فُسَادٌ .

هذا حديث مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ السِّيَرَةِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ الرِّوَايَاتُ فِيهِ بِزِيَادَاتٍ ؛ رَوَى الْمَدَائِنِيُّ قَالَ : لَمَّا أَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِ عُمَرَ وَأَبَى عُبَيْدَةَ وَقَالَ لِلنَّاسِ : قَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدًا هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ لِعُمَرَ : أَمْدُدْ يَدَكَ نَبَايَعُكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : مَا لَكَ فِي الْإِسْلَامِ فَهَةٍ ^(١) غَيْرَهَا . أُنْقَوْلُ هَذَا وَأَبُو بَكْرٍ حَاضِرًا ^(٢) ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ : أَيُّكُمْ يَطِيبُ نَفْسًا أَنْ يَتَقَدَّمَ قَدَمَيْنِ قَدَمَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ رَضِيكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَمْ لَا نَرْضَاكَ لَدُنْيَانَا ! ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعَهُ .

وهذه الرواية هي التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله تعالى في كتاب " المغني " .
وقال الواقدي في روايته في حكاية كلام عمر : وَاللَّهِ لَأَنْ أَقْدَمَ فَأُنْخَرَكَا يُنْخَرُ الْبَعِيرُ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَقَدَّمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ .

وقال شيخنا أبو القاسم الباقلي : قَالَ شَيْخُنَا أَبُو عَمَّانٍ الْجَاهِظُ : إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قَالَ : لَوْ قَدَمَاتِ عُمَرُ لِبَايَعْتِ فُلَانًا ، عُمَرُ بْنُ بِنَاسِرٍ ، قَالَ : لَوْ قَدَمَاتِ عُمَرُ لِبَايَعْتِ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي هَاجَ عُمَرُ أَنْ خُطِبَ بِمَا خُطِبَ بِهِ .

وقال غيره من أهل الحديث : لَمَّا كَانَ الْمَعْرُومُ عَلَى بَيْعَتِهِ لَوْ قَدَمَاتِ عُمَرُ ، طَلَحَتْهُ ابْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ .

(١) الفهية : السقطة والجهلة ونحوها .

(٢) في رواية اللسان - فبه - : « أَتَبَايَعْنِي وَفِيكُمْ الصَّدِيقُ ثَانِي اثْنَيْنِ ! » .

فأما حديث الفلّنة ، فقد كان سبق من عمر أن قال : إن بيعة أبي بكر كانت فلّنة
وقى الله شرها ؛ فن عاد إلى مثلها فاقتلوه .

وهذا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف فيه حديث الفلّنة ؛
ولكنه منشوق على ما قاله أولا ، ألا تراه يقول : فلا يفرّ امرأ أن يقول : إن بيعة
أبي بكر كانت فلّنة ، فلقد كانت كذلك ، فهذا يشعر بأنه قد كان قال من قبل : إن
بيعة أبي بكر كانت فلّنة .

وقد أكثر الناس فى حديث الفلّنة ؛ وذكرها شيوخنا المتكلمون ، فقال شيخنا
أبو على رحمه الله تعالى : الفلّنة ليست الزلّة والخطيئة ، بل هى البغّة ، وما وقع لجأه من
غير روية ولا مشاورة ، واستشهد بقول الشاعر :

مَنْ يَأْمَنِ الْخِلْدَانِ بَعْدَ صَبْرَةِ الْقَرْشِيِّ مَا تَأْتِ
سَبَقَتْ مَنِيتُهُ الْمَشِيبَ وَكَانَ مِيقَتُهُ أَفْئِلَاتَا
يعنى بغّة .

وقال شيخنا أبو على رحمه الله تعالى : ذكر الرايشى أن العرب تسمّى آخر يوم
من شوال فلّنة ، من حيث إن كل من لم يدرك ثأره فيه فاتّه ؛ لأنهم كانوا إذا دخلوا
فى الأشهر الحرم لا يطلبون الثأر ، وذو القعدة من الأشهر الحرم ، فسموا ذلك اليوم
فلّنة ، لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم ، فقد أدركوا ما كان يفوتهم . فأراد عمر أن بيعة
أبي بكر تداركها بعد أن كادت تفوت .

وقوله : « وقى الله شرها » دليل على تصويب البيعة ، لأن المراد بذلك أن الله تعالى
دفع شر الاختلاف فيها .

فأما قوله : « فن عاد إلى مثلها فاقتلوه » ؛ فالمراد مَنْ عاد إلى أن يُبَايع من غير مُشاورة ولا عدد يُثبت صحة البيعة به ، ولا ضرورة داعية إلى البَيْعَة ، ثم بسط يده على المسلمين يدخلهم في البيعة قهرا ، فاقتلوه ^(١) .

قال قاضي القضاة رحمه الله تعالى : وهل يشكّ أحدٌ في تعظيم عمرَ لأبي بكر وطاعته إياه ! ومعلوم ضرورة من حال عمر إعظامه له ، والقول بإمامته والرضا بالبيعة والثناء عليه ، فكيف يجوز أن يترك ما يُعلم ضرورة لقولٍ محتمل ذى وجوه وتأويلات ! وكيف يجوز أن تحمل هذه اللفظة من عمر على الذمّ والتخطئة وسوء القول !

واعلم أنّ هذه اللفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ما جبهه الله تعالى عليه من غِلظ الطينة وجفاء الطبيعة ، ولا حيلة فيها ؛ لأنه مجبولٌ عليها لا يستطيع تغييرها ، ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطى أن يتلطف ، وأن يُخرج ألفاظه خارج حسنة لطيفة ، فينزِع به الطبع الجاسى ، والفريزة الغليظة ، إلى أمثال هذه اللفظات ، ولا يقصد بها سوء ، ولا يريد بها ذمّا ولا تخطئة ، كما قدّمنا من قبلُ في اللفظة ^(٢) التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكاللفظات ^(٣) التى قالها عام الحديبية وغير ذلك ، والله تعالى لا يجازى المكلف إلا بما نواه ، ولقد كانت نيّته من أطهر النيات وأخلصها لله سبحانه وللمسلمين . ومن أنصف علم أنّ هذا الكلام حقّ ، وأنّه يُغنى عن تأويل شيخنا أبى على .

ونحن من بعدُ نذكر ماقاله المرتضى رحمه الله تعالى فى كتاب " الشافى " ^(٤) لما تسكلم فى هذا الموضع ، قال : أمّا ما ادّعى من العلم الضرورى برضا عمر ببيعة أبى بكر وإمامته ، فالمعلوم ضرورة بلا شبهة أنّه كان راضيا بإمامته ، وليس كلّ مَنْ رضى شيئا

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٤١ . (٢) الجزء الأول س ١٦١ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٦٥ .

(٤) كتاب الشافى فى الإمامة والنقض على كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار ، وقد اختصره أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوطسى المتوفى سنة ٤٦٠ ، وطبع الكتاب والمختصر فى العجم سنة ١٣٠١ فى جزأين .

كان متدينًا به ، معتقدًا لصوابه ؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يرضون بأشياء من حيث كانت دافعًا لها هو أضرُّ منها ؛ وإن كانوا لا يرونها صوابًا ، ولو ملكوا الاختيار لاختاروا غيرها ، وقد علمنا أنَّ معاوية كان راضيًا ببيعة يزيد وولايته^(١) العهد له من بعده ، ولم يكن متدينًا بذلك ومعتقدًا صحته ، وإنما رضى عمر ببيعة أبي بكر ، من حيث كانت حاضرةً عن بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولو ملك الاختيار لكان مصير الأمر إليه^(٢) أسرَّ في نفسه ، وأفرَّ لعينه . وإن ادعى أنَّ المعلوم ضرورةً تدينُ عمر بإمامة أبي بكر ، وأنه أولى بالإمامة منه ، فهذا مدفوع أشدَّ دفع ، مع أنه قد كان يبدر من عمر^(٣) في وقتٍ بعد آخر ما يدلُّ على ما أوردناه . روى الهيثم^(٤) بن عديٍّ من عبد الله بن عبيد الله بن عبد الحميد^(٥) عن سعيد بن جبير ، قال : ذكر أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر ، فقال رجل : كانا والله شمسَي هذه الأمة ونورَيْها ، فقال ابن عمر : وما يُدريك ؟ قال الرجل : أو ليس قد اختلفا ! قال ابن عمر : بل اختلفا لو كنتم تعلمون ! أشهدُ أنَّى كنتُ عند أبي يومًا ، وقد أمرني أن أحبس الناس عنه ، فاستأذن عليه عبدُ الرحمن بن أبي بكر فقال عمر : دويبةٌ سوء ، وهو خيرٌ من أبيه ، فأوحشني ذلك منه ، فقلت : يا أبت ، عبد الرحمن خير من أبيه ! فقال : ومنَّ ليس بخير من أبيه لا أمَّ لك ! انذن لعبد الرحمن ، فدخل عليه فكلَّمه في الخطيئة الشاعر أنَّ يرضى عنه - وقد كان عمر حبسه في شعر قاله - فقال عمر : إنَّ في الخطيئة أودًا^(٦) فدعني أقوِّمه بطول حبسه ، فألحَّ عليه عبد الرحمن وأبى عمر ،

(١) الشافعي : « وولايته » . (٢) الشافعي : « آثر » .

(٣) الشافعي : « منه - أعني عمر » .

(٤) هو الهيثم بن عدي الطائي المتبحر الكوفي ؛ كان أخباريًا روى عن هشام بن عروة وعبد الله بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن عدي . إنما هو صاحب أخبار . وقال ابن المديني : هو أوثق من الواقدي ولا أرضاه في شيء . وقال النسائي : متروك الحديث . وقال أبو نعيم : يوجد في حديثه المناكير . توفي سنة ٢٠٦ - لسان الميزان ٤ : ٢١٠ .

(٥) في الأصول والشافعي : « عباس » ، تصحيف ؛ وهو عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عبد الله الكوفي ؛ كان راوية الأخبار والآداب ؛ ويقع في أخباره المناكير . مات سنة ١٥٨ ، لسان الميزان ٣ : ٣٢٢ .

(٦) الشافعي : « إن الخطيئة لبئس » .

نُفِرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي وَقَالَ : أَفِي غَفْلَةٍ أَنْتَ إِلَى يَوْمِكَ هَذَا عَمَّا كَانَ مِنْ تَقَدُّمِ
أَحْمَقِ بْنِ تَيْمٍ عَلَى وَظَلَمِهِ لِي ! فَقُلْتُ : لَا عِلْمَ لِي بِمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : يَا بُنَيَّ
فَمَا عَسَيْتَ أَنْ تَعْلَمَ ؟ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَهَوَ أَحَبُّ إِلَيَّ النَّاسِ مِنْ ضِيَاءِ أَبْصَارِهِمْ ، قَالَ : إِنْ ذَلِكَ
كَذَلِكَ عَلَى رَغَمِ أَيْبِكَ وَسُخْطِهِ ، قُلْتُ : يَا أَبَتِ ، أَفَلَا تَجَلَّى عَنْ فِعْلِهِ ^(١) بِمَوْقِفٍ فِي النَّاسِ
تُبَيِّنُ ذَلِكَ لَهُمْ ؟ قَالَ : وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ مَعَ مَا ذُكِرَتْ أَنَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ النَّاسِ مِنْ ضِيَاءِ
أَبْصَارِهِمْ إِذْ يُرْضَخُ ^(٢) رَأْسُ أَيْبِكَ بِالْجَنْدَلِ . قَالَ ابْنُ عُمَرَ : ثُمَّ تَجَاسَرَ وَاللَّهِ فَجَسَرَ ،
فَمَا دَارَتْ الْجَمْعَةُ حَتَّى قَامَ خَطِيبًا فِي النَّاسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنْ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ
فَلْتَمَتْ وَقِيَ اللَّهُ شَرَّهَا ، فَمَنْ دَعَاكُمْ إِلَى مِثْلِهَا فَاقْتُلُوهُ .

وَرَوَى الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ ، عَنْ مَجَالِدٍ ^(٣) بْنِ سَعِيدٍ ، قَالَ : غَدَوْتُ يَوْمًا إِلَى الشَّعْبِيِّ وَأَنَا أُرِيدُ
أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ بَلَغَنِي عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُهُ ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي مَسْجِدٍ حَيٍّ بِهِ
وَفِي الْمَسْجِدِ قَوْمٌ يَنْتَظِرُونَهُ ، فَخَرَجَ فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ ، وَقُلْتُ : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ
يَقُولُ : مَا كُنْتُ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فَتْنَةٌ ، قَالَ : نَعَمْ ،
كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ ذَلِكَ ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُهُ أَيْضًا — وَكَانَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ دَفَائِنُ عِلْمٍ
يُعْطِيهَا أَهْلَهَا ، وَيَصْرِفُهَا عَنْ غَيْرِهِمْ — فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ ، فَجَاسَ إِلَيْنَا ،
فَأَخَذَنَا فِي ذِكْرِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، فَضَحِكَ الشَّعْبِيُّ وَقَالَ : لَقَدْ كَانَ فِي صَدْرِ عُمَرَ ضِيبٌ ^(٤)
عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَقَالَ الْأَزْدِيُّ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُنَا وَلَا سَمِعْنَا بِرَجُلٍ قَطُّ كَانَ أَسْلَسَ قِيَادًا لِرَجُلٍ ،

(١) الشَّافِي : « أَفَلَا تَحْكِي عَنْ فِعْلِهِ » . (٢) الرِّضِيُّ : كَسَرَ الرَّأْسَ بِالْحِجْرِ .

(٣) هُوَ مَجَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْهَمْدَانِيِّ السَّكُونِيُّ . قَالَ الْبُخَارِيُّ : كَانَ يُحِبِّي بَنِي سَعِيدٍ يَضَعُهُ ، وَكَانَ ابْنُ
مَهْدِيٍّ لَا يَرَوِي عَنْهُ ، وَكَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لَا يَرَاهُ شَيْئًا . وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ : ضَعِيفٌ وَاهِي الْحَدِيثِ . مَاتَ
سَنَةَ ١٤٤ هـ . تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ ١٠ : ٣٩ .

(٤) الضِّبُّ : الْحَقْدُ وَالْعِدَاوَةُ ؛ وَجَعَهُ ضِيبًا ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَسْلُ ضِغْنِي وَتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِيبَايَ

ولا أقول فيه بالجليل من عمر في أبي بكر ، فأقبل على الشعبي وقال : هذا مما سألت عنه ، ثم أقبل على الرجل وقال : يا أخا الأزد ، فكيف تصنع بالفلانة التي وقى الله شرّها ! أنرى عدوّاً يقول في عدوّ يريد أن يهدم ما بنى لنفسه في الناس أكثر من قول عمر في أبي بكر ! فقال الرجل : سبحان الله ! أنت تقول ذلك يا أبا عمرو ! فقال الشعبي : أنا أقوله ، قاله عمر ابن الخطاب على رموس الأشهاد ، فلمّه أو دَع . فنهض الرجل مُغضباً وهو يهتهم في الكلام بشيء لم أفهمه . قال مجالد : فقلت للشعبي : ما أحسب هذا الرجل إلا سينقل عنك هذا الكلام إلى الناس ويُبثّه فيهم ! قال : إذن والله لا أحفلُ به ، وشيء لم يحفلُ به عمر حين قام على رموس الأشهاد من المهاجرين والأنصار أحفلُ به أنا ! أذيعوه أنتم عني أيضاً ما بدا لكم .

وروى شريك بن عبد الله النخعي^(١) ، عن محمد بن عمرو بن مِرّة عن أبيه ، عن عبد الله ابن سلمة ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : حججت مع عمر ، فلما نزلنا وعُظّم الناس خرجت من رَحْلى أريده ، فلقيني المغيرة بن شعبة ، فرافقني ، ثم قال : أين تريد؟ فقلت : أمير المؤمنين ، فهل لك ؟ قال : نعم ، فانطلقنا نريد رَحْلى عمر ، فإنّا لفي طريقنا إذ ذكرنا تولّى عمر وقيامه بما هو فيه ، وحياطته على الإسلام ، ونهوضه بما قبله من ذلك ، ثم خرجنا إلى ذكر أبي بكر ، فقلت للمغيرة : يالك الخير ! لقد كان أبو بكر مسدّداً في عمر ، لسكّانه ينظر إلى قيامه من بعده ، وجِدّه واجتهاده وغنائه في الإسلام ، فقال للمغيرة : لقد كان ذلك ، وإن كان قوم كرهوا ولاية عمر ليزووها عنه ، وما كان لهم في ذلك من حظّ ، فقلت له : لا أبالك ! ومن القوم الذين كرهوا ذلك لعمر ؟ فقال للمغيرة : لله أنت ! كأنك

(١) هو شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي أبو عبد الله الكوفي ؛ قال ابن معين : شريك صدوق ثقة ؛ إلا أنه إذا خالف غيره أحب إلينا منه . وقال ابن المبارك : شريك أعلم بحديث الكوفيين من الثوري . وقال الجوزجاني : شريك سيء الحفظ مضطرب الحديث مائل . مات سنة ١٧٧ . تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٥ .

لا تعرف هذا الحى من قریش وما خصّوا به من الحسد ! فوالله لو كان هذا الحسد يُدرک بحساب لكان لقریش تسعة أعشاره وللناس کلّهم عشر ، فقلت : مه يا مغيرة ! فإن قریشا بانت بفضلها على الناس . فلم نزل فى مثل ذلك حتى انتهينا إلى رَحْل عمر فلم نجد ، فسألنا عنه فقيل : قد خرج آنفا ، فمضينا نقفو أثره حتى دخلنا المسجد ، فإذا عمر يطوف بالبيت ، فطفنا معه ، فلما فرغ دخل بينى وبين المغيرة ، فتوكأ على المغيرة وقال : من أين جئتما ؟ فقلنا : خرجنا نريدك يا أمير المؤمنين ، فأتينا رَحْلَكَ فقيل لنا : خرج إلى المسجد ، فاتبعناك . فقال : اتبعكما الخير ، ثم نظر المغيرة إلىّ وتبسّم ، فرمقه عمر ، فقال : مم تبسّمت أيها العبد ! فقال : من حديث كفت أنا وأبو موسى فيه آنفا فى طريقنا إليك ، قال : وما ذاك الحديث ؟ فقصصنا عليه الخبر حتى بلغنا ذكر حسد قریش ، وذكر مَنْ أراد صرف أبى بكر عن استخلاف عمر ، فتنفس الصعداء ثم قال : نكلتك أمك يا مغيرة ! وما تسعة أعشار الحسد ! بل وتسعة أعشار العشر ، وفى الناس کلّهم عشر العشر ، بل وقریش شركاؤهم أيضا فيه ! وسكت مليّا وهو يتهدى بيننا ، ثم قال : ألا أخبركما بأحسد قریش کلها ؟ قلنا : بلى يا أمير المؤمنين ، قال : وعليكما ثيابكما ؟ قلنا : نعم ، قال : وكيف بذلك وأنتما ملبسان ثيابكما ! قلنا يا أمير المؤمنين ، وما بال الثياب ! قال : خوف الإذاعة منها ، قلنا له : أتخاف الإذاعة من الثياب أنت ، وأنت من ملبس الثياب أخوف ! وما الثياب أردت ! قال : هو ذاك ، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رَحْلِهِ ، فخلّى أيدينا من يده ، ثم قال : لا تريما ، ودخل ، فقلت للمغيرة : لا أبالك ! لقد عثرنا^(١) بكلامنا معه ، وما كنتا فيه ، وما نراه حبسنا إلا ليذاكرنا إياها ، قال : فإننا لكذلك إذا خرج إذنه إلينا ، فقال : ادخلا ، فدخلنا فوجدناه مستلقيا على برّذعة برّحل ، فلما رأنا تمثّل بقول كعب بن زهير :

لَا نَفْسَ سِرِّكَ إِلَّا عِنْدَ ذِي ثِقَةٍ أَوْلَى وَأَفْضَلُ مَا اسْتَوْدَعْتَ أَمْرَارًا^(٢)

(١) كذا فى الشافى وهو الصواب ، وفى الأصول : « أثرنا » .

(٢) ملحق ديوانه ٢٥٧ ، وغرر الحقائق ١٨١ .

صدرًا رحيبًا وقلبًا واسعًا قَمِينًا أَلَّا تَخَافَ متى أودعْتَ إظهارًا
 فعلمنا أنه يريد أن نضمن له كتمانَ حديثه ، فقلت أنا له : يا أمير المؤمنين ، الزمنا وخصنا
 وصلبنا ، قال : بماذا يا أخا الأشعرين ^(١) ؟ فقلت : بإفشاء سرك وأن تشرَ كنفاي همتك فنعَم
 المستشاران نحنُ لك ! قال : إنكما كذلك ، فاستألا عما بدا لكما ، ثم قام إلى الباب ليُعَلِّقه ،
 فإذا الأذن الذي أذن لنا عليه في الحجرة ، فقال : امض عنا لا أم لك ! فخرج وأغلق الباب
 خلفه ، ثم أقبل علينا ، فجلس معنا ، وقال : سَلَا تُخْبِرَا ، قلنا : نريد أن نخبرنا أمير المؤمنين
 بأحسنِ قریش ، الذي لم يأمن ثيابنا على ذكره لنا ، فقال : سألتُما عن مُعْصِلَةٍ ؛ وسأخبركما فليكن
 عندكما في ذِمَّةٍ منيعة وحرزٍ مابقية ؛ فإذا مِتَّ فشأنكما وماشئكما من إظهار أو كتمان .
 قلنا : فإنَّ لك عندنا ذلك . قال أبو موسى : وأنا أقول في نفسي : ما يريد إلا الذين كرهوا
 استخلاف أبي بكر له كطلحة وغيره ، فإنهم قالوا لأبي بكر : أتستخلف علينا فظًّا غليظًا !
 وإذا هو يذهب إلى غير ما في نفسي ، فعاد إلى التنبُّس ، ثم قال : مَنْ تَرَيَانِ ؟ قلنا : والله
 ما ندرى إلا ظنًّا ! قال : وَمَنْ تَظُنَّانِ ؟ قلنا : عساك تريد القوم الذين أرادوا أبا بكر على
 سرفِ هذا الأمر عنك ؛ قال : كَلَّا والله ! بل كان أبو بكر أعق ، وهو الذي سألتُما عنه ،
 كان والله أحسنَ قریشِ كلِّها . ثم أطارق طويلاً ، فنظر المغيرة إلىَّ ونظرتُ إليه ، وأطرقنا مليًّا
 لإطراقه ، وطال السكوتُ منا ومنه ، حتى ظننا أنه قد نديم على ما بدا منه . ثم قال : والهفاه
 على ضئيل بنى تيم بن مرة ! لقد تقدَّمتني ظالمًا ، وخرج إلىَّ منها آثمًا ، فقال المغيرة :
 أمَّا تقدُّمه عليك يا أمير المؤمنين ظالمًا فقد عرفناه ، كيف خرج إليك منها آثمًا ؟ قال : ذاك
 لأنه لم يخرج إلىَّ منها إلا بعد يأس منها ، أما والله لو كنت أطعتُ يزيد بن الخطاب
 وأصحابه لم يتهلَّظ من حلاوتها بشيء أبداً ، واسكني قدمت وأخرت ، وصعدت وصوبت ،
 ونقصت وأبرمت ، فلم أجداً إلا الإغضاء على ما نشب به منها ، والتلفُّ على نفسي ، وأملت
 إقامته ورجوعه ، فوالله ما فعل حتى نَفَرَ ^(٢) بها بَشَمًا .

(١) في اللسان : « تقول العرب : جاء بك الأشعرون ، يحذف ياء النسب » . (٢) نفر : أى ابتلا .

قال المغيرة : فما منعك منها يا أمير المؤمنين ، وقد عرّضك لها يوم السقيفة بدعائك إليها ! ثم أنت الآن تنقِم وتتناسف . قال : تَسَكَّلْتُكَ أَمَك يا مغيرة ! إني كنت لأعدُّكَ^(١) من دُهاة العرب ، كأنك كنت غائباً عما هناك ! إن الرجل ما كَرُنِي فما كَرُنُهُ ، وألفاني أحمَدَر من قِطاة ؛ إنه لما رأى شَقَفَ الناس به ، وإقبالهم بوجوههم عليه ، أيقن أنهم لا يريدون به بدلا ، فأحبَّ لَمَّا رأى من حرص الناس عليه ، وميلهم إليه أن يعلم ما عندي ، وهل تنازعني نفسي إليها ؟ وأحبَّ أن يبأوني بإطاعى فيها ، والتعريض لى بها ، وقد علم وعلمتُ لو قبلتُ ماعرضه علىّ ، لم يجب الناس إلى ذلك ، فألفاني قائما على إخصي مستوفزا حمِدا ، ولو أجبته إلى قبولها لم يسلم الناس إلى ذلك ، واختبأها ضِغنا علىّ في قلبٍ ، ولم آمن غائلته ولو بعد حين ؛ مع ما بدا لى من كراهة الناس لى ؛ أما سمعتُ بداءهم من كل ناحية عند عرّضها علىّ : لا نريد سواك يا أبا بكر ، أنت لها إفرَدَتْها إياه عند ذلك ؛ فلقد رأيتُه التمع وجهه لذلك سرورا . ولقد عاتبني مرّة على كلام بلغه عني ، وذلك لما قدِم عليه بالأشعث أسيرا ، فمنّ عليه وأطلقه ، وزوجه أخته أم فرّوة ، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه : يا عدوّ الله ، أكفرت بعد إسلامك ، وارتددت ناكصا على عَقْبِيكَ ! فنظر إلىّ نظرا علمت أنه يريد أن يكلمني بكلام في نفسه ، ثم لقيني بعد ذلك في سِكَكِ المدينة ، فقال لى : أنت صاحبُ الكلام يا ابن الخطاب ؟ فقلت : نعم يا عدوّ الله ؛ ولك عندي شرّ من ذلك ، فقال : بئس الجزاء هذا لى منك ! قلت : وعلام تريد مني حُسْنُ الجزاء ؟ قال : لأنّني لك من اتّباع هذا الرجل ، والله ماجرّأني على الخلاف عليه إلا تقدّمه عليك ، وتحلفك عنها ، ولو كنت صاحبها لما رأيت مني خلافا عليك . قلت : لقد كان ذلك ، فما تأمر الآن ؟ قال : إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر ، ومضى ومضيت . ولقى الأشعث الزُّبْرَقان بن بدر فذكر له ماجرى بيني وبينه ، فنقل ذلك إلى أبي بكر ؛ فأرسل إلى بعتاب مؤلم ، فأرسلت إليه : أما والله

(١) ب : « أعدك » .

لَتَكُنَّ أَوْ لَأَقُولَنَّ كَلِمَةً بِالْفَةِ بِي وَبِكَ فِي النَّاسِ، تَحْمِلُهَا الرِّكْبَانُ حَيْثُ سَارُوا، وَإِنْ شِئْتَ اسْتَدْمَنَا مَانِحِينَ فِيهِ عَفْوًا، فَقَالَ: بَلْ نَسْتَدِيمُهُ، وَإِنَّهَا لَصَائِرَةٌ إِلَيْكَ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْهِ جَمْعَةٌ حَتَّى يَرُدَّهَا عَلَيَّ، فَتَغَافِلُ، وَاللَّهِ مَاذَا كَرْنِي بَعْدَ ذَلِكَ حَرْفًا حَتَّى هَلَكَ. وَاقْدَمَدَ فِي أَمْدِهَا عَاضًا عَلَى نَوَاجِذِهِ حَتَّى حَضَرَهُ الْمَوْتُ، وَأَيَّسَ مِنْهَا فَكَانَ مِنْهُ مَارَأِيئًا، فَكَيْمَا مَاقَلْتُ لَكُمَا عَنِ النَّاسِ كَافَّةً وَعَنْ بَنِي هَاشِمٍ خَاصَّةً، وَلَيْسَكُنْ مِنْكُمَا بِحَيْثُ أَمَرْتُمَا. قَوْمًا إِذَا شِئْنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَقَمْنَا وَنَحْنُ نَعْجِبُ مِنْ قَوْلِهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَفْشَيْنَا سِرَّهُ حَتَّى هَلَكَ^(١). قَالَ الْمُرْتَضَى: وَلَيْسَ فِي طَعْنِ عُمَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ مَا يُؤَدِّي إِلَى فُسَادِ خِلَافَتِهِ، إِذْ لَهُ أَنْ يُثْبِتَ إِمَامَةً نَفْسَهُ بِالْإِجْمَاعِ، لَا بِنَصِّ أَبِي بَكْرٍ عَلَيْهِ. وَأَمَّا الْفَلْتَةُ فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ مُحْتَمِلَةً لِابْتِغَاةِ كَمَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ إِلَّا أَنْ قَوْلَهُ: «وَقَى اللَّهُ شَرَّهَا» يَخْصُصُهَا بِأَنْ مَخْرَجَهَا مَخْرَجَ الدِّمِّ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «فَنَ عَادَ إِلَى مِثْلِهَا فَاقْتَلَوْهُ»، وَقَوْلُهُ: الْمَرَادُ وَقَى اللَّهُ شَرَّ الْاِخْتِلَافِ فِيهَا، عَدُولٌ عَنِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ الشَّرَّ فِي الْكَلَامِ مُضَافٌ إِلَيْهَا دُونَ غَيْرِهَا. وَأَبْعَدُ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ: إِنْ الْمَرَادُ مَنْ عَادَ إِلَى مِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَأَكْرَهَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا فَاقْتَلَوْهُ؛ لِأَنَّ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى لَا يَكُونُ مِثْلًا لِبَيْعَةِ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَا جَرَى فِيهَا عَلَى مَذَاهِبِهِمْ؛ وَقَدْ كَانَ يَجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يَقُولَ: فَنَ عَادَ إِلَى خِلَافَتِهَا فَاقْتَلَوْهُ.

وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا أَرَادَ بِالْمِثْلِ وَجْهًا وَاحِدًا، وَهُوَ وَقُوعُهَا مِنْ غَيْرِ مَشَاوَرَةٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِتِمَاتَمٌ فِي أَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً بِظُهُورِ أَمْرِهِ وَاشْتِهَارِ فَضْلِهِ. وَلَأَنَّهُمْ بَادَرُوا إِلَى الْعَقْدِ خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُنْكَرٍ أَنْ يَتَّفَقَ مِنْ ظُهُورِ فَضْلِ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ وَاشْتِهَارِ أَمْرِهِ وَخَوْفِ الْفِتْنَةِ مَا اتَّفَقَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَا يَسْتَحِقُّ قِتْلًا وَلَا ذِمًّا؛ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: «مِثْلُهَا» يَقْتَضِي وَقُوعَهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي وَقَعَتْ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَا وَقَعَ مِنْ غَيْرِ مَشَاوَرَةٍ لَضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ وَأَسْبَابٍ مُوجِبَةٍ مِثْلًا لِمَا وَقَعَ بِلا مَشَاوَرَةٍ، وَمِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَا أَسْبَابٍ أَوِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْ أَهْلِ اللَّفَةِ

من أن آخر يوم من شوال يسمّى فَلَنتَة من حيث إن من لم يدرك فيه النار فإنه قول لا نعرفه ؛ والذي نعرفه أنهم يسمون الليلة التي ينتهى بها آخر الأشهر الحُرُم ويتم فَلَنتَة ، وهى آخر ليلة من ليالى الشهر ، لأنه ربما رأى الهلال قوم لتسع وعشرين ولم يبصره الباقون ، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غارون^(١) ، فلهذا سُمّيت تلك الليلة فَلَنتَة ؛ على أننا قد بينا أن مجموع الكلام يقتضى ما ذكرناه من المعنى ، لو سلّم له ما رواه عن أهل اللغة فى احتمال هذه اللفظة .

قال : وقد ذكر صاحب كتاب " العين " ، أن الفَلَنتَة الأمر الذى يقع على غير إحكام ، فقد صحح أنها موضوعة فى اللغة لهذا ، وإن جاز ألا تختصّ به ، بل تكون لفظة مشتركة .

وبعد ، فلو كان عمر لم يُردّ بقوله توهين بيعة أبى بكر ؛ بل أراد ما ظنه الخالفون ، لكان ذلك عائدا عليه بالنقص ؛ لأنه وضع كلامه فى غير موضعه ، وأراد شيئا فعبّر عن خلافه ، فليس يخرج هذا الخبر من أن يكون طعنا على أبى بكر ؛ إلا بأن يكون طعنا على عمر^(٢) .

* * *

واعلم أنه لا يبعد أن يقال : إن الرضا والسخط ، والحبّ والبغض ، وما شاكل ذلك ، من الأخلاق النفسانية وإن كانت أمورا باطنة ، فإنها قد تعلّم ويضطر الحاضرون إلى تحصيلها بقرائن أحوال تفيد العلم الضرورى ؛ كما يُعلّم خوف الخائف وسرور المبهج . وقد يكون الإنسان عاشقا لآخر فيعلم الخاطون لها ضرورة أنه يعشقه ، لما يشاهدونه من قرائن الأحوال ، وكذلك يُعلم من قرائن أحوال العابد المجتهد فى العبادة ، وصوم المواجه وملازمة الأوراد وسهر الليل ، أنه يتدين بذلك . فغير منكر أن يقول قاضى القضاة رحمه الله

(١) غارون : غافلون .

(٢) كتاب الشافى ٢٤٤ مع اختصار وتصرف .

تعالى : إِنَّ المعلوم ضرورةً من حالِ عمرِ تعظيمِ أبى بكرٍ ورضاهُ بخلافتهِ وتدينهُ بذلك ، فالذى اعترضه رحمه الله تعالى به غيرُ وارد عليه .

وأما الأخبار التى رواها عن عمر فأخبار غريبة ؛ ما رأيناها فى الكتب المدونة ، وما وقفنا عليها إلا من كتاب المرتضى ، وكتاب آخر يعرف بكتاب ” المسترشد ” (١) لـ محمد بن جرير الطبري . وليس هو محمد بن جرير صاحب ” التاريخ ” ، بل هو من رجال الشيعة . وأظن أن أمه من بنى جرير من مدينة آمل طبرستان ، وبنو جرير الآليون شيعة مستهترون بالتشيع ، فنسب إلى أخواله ، ويدل على ذلك شعر مروى له وهو :

بأَمَلٍ مولِدِي وبنو جَرِيرٍ فَأخوَالِي، وَيَحْكِي المَرءُ خَالَهٗ (٢)
فَمَنْ يَكُ رَافِضِيًّا عَنْ أَبِيهِ فَإِنِّي رَافِضِيٌّ عَنْ كَلَالَهٗ

وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التى لا توجد فى الكتب المدونة كيف هى ؟ فأما إنكاره ما ذكره شيخنا أبو على رحمه الله تعالى من أن الفلته هى آخر يوم من شوال ، وقوله : إِنَّا لَنَعْرِفُهُ ؛ فليس الأمر كذلك بل هو تفسير صحيح ، ذكره الجوهري فى كتاب ” الصحاح ” ، قال : الفلته آخر ليلة من كل شهر ، ويقال : هى آخر يوم من الشهر الذى بعده الشهر الحرام (٣) . وهذا يدل على أن آخر يوم من شوال يسمى فلته ، وكذلك آخر يوم من جمادى الآخرة ؛ وإِنَّمَا التفسير الذى ذكره المرتضى غير معروف عند أهل اللغة .

وأما ما ذكره من إفساد حمل الفلته فى الخبر على هذه الوجوه المتأولة فحيد ، إلا أن الإنصاف أن عمر لم يخرج الكلام مخرج الندم لأمر أبى بكر ؛ وإنما أراد باللفظة محض حقيقتها فى اللغة ، ذكر صاحب ” الصحاح ” ، أن الفلته الأمر الذى يُعمل نجاة من

(١) كتاب المسترشد فى الإمامة ، طبع فى النجف وفى الأصول : ” المستبشر ” وهو خطأ ، راجع النجاشي ٢٦٦

(٢) نسبهما ياقوت فى معجم البلدان (١ : ٦٣) إلى أبى بكر الخوارزمي ، وظن أنه قالهما فى خاله الطبري المؤرخ ؛ وحققه محمد باقر ، وذكر أن الأمر اشتبه على ياقوت . وانظر روضات الجنات ٦٧٣

(٣) الصحاح ١ : ٣٦٠

غير تردد ولا تدبر؛ وهكذا كانت بيعة أبي بكر؛ لأن الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين، وإنما وقعت بغتة لم تتمحّص فيها الآراء، ولم يتناظر فيها الرجال، وكانت كالشيء المستلب المنهّب، وكان عمر يخاف أن يموت عن غير وصية، أو يقتل قتلا فيمبايع أحد من المسلمين بغتة كبيعة أبي بكر، فخطب بما خطب به، وقال معتذراً: ألا إنه ليس فيكم من تقطع إليه الأعناق كأبي بكر!

وأيضاً قول المرتضى: قد يتفق^(١) من ظهور فضل غير أبي بكر وخوف الفتنة مثل ما اتفق لأبي بكر، فلا يستحق القتل، فإن لقائل أن يقول: إن عمر لم يخاطب بهذا إلا أهل عصره، وكان هو رحمه الله يذهب إلى أنه ليس فيهم كأبي بكر، ولا من يُحتمل له أن يبايع فلانة كما احتل ذلك لأبي بكر؛ فإن اتفق أن يكون في عصر آخر بعد عصره من يظهر فضله، ويكون في زمانه كأبي بكر في زمانه فهو غير داخل في نهى عمر وتحريمه.

واعلم أن الشيعة لم تسلّم لعمر أن بيعة أبي بكر كانت فلانة، قال محمد بن هاني المغربي:

وَلَكِنَّ أَمْرًا كَانَ أُبْرِمَ بَيْنَهُمْ وَإِنْ قَالَ قَوْمٌ فَلَنَّةٌ غَيْرُ مُبْرَمٍ^(٢)
وقال آخر:

زَعَمُوا فَلَنَةً فَاجِئَةً لَا وَرَبَّ الْبَيْتِ وَالرُّكْنَ الْمَشِيدِ
إِنَّمَا كَانَتْ أُمُورًا نُسِجَتْ بَيْنَهُمْ أَسْبَابُهَا نَسْجَ الْبُرُودِ

وروى أبو جعفر أيضاً في^(٣) التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخرجوا سعد بن عبادَةَ، ليؤتوه الخلافة، وكان

(١) ب: «سبق»، تحريف صوابه من ج والشافعي. (٢) ديوانه ٦٨٩ (طبع المعارف).

(٣) تاريخ الطبري ٣: ٢١٨ وما بعدها مع اختصار وتصرف.

مريضاً ، فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه ، ثم ترادوا الكلام فقالوا : فإن أبي المهاجرون ، وقالوا : نحن أولياؤه وعِترته ؟ فقال قوم من الأنصار : نقول : مِنّا أمير ومنكم أمير ، فقال سعد : فهذا أول الوَهَن ! وسمِع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أبو بكر ، فأرسل إليه أن اخرج إليّ ، فأرسل : إني مشغول ، فأرسل إليه عمر أن اخرج ، فقد حدث أمر لا بدّ أن تحضّره ، فخرج فأعلمه الخبر ، فضيأ مسرعين نحوهم ، ومعهما أبو عبيدة ، فتكلّم أبو بكر ، فذكر قُرْب المهاجرين من رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم وأتهم أولياؤه وعِترته ، ثم قال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لانفتحت عليكم بشورة ، ولا نقضى دونكم الأمور .

فقام الحُباب بن المنذر بن الجوح فقال :

يا معشرَ الأنصار امسكوا عليكم أمرَكم ؛ فإنّ الناس في ظلّكم ، ولن يجرى مجرى على خلافكم ، ولا يصدرُ أحد إلا عن رأيكم . أنتم أهل العِزّة والمنّة ، وأولو العدَد والكثرة ، وذوو البأس والنجدة ، وإمّا ينظر الناس مانصفعون ، فلا تختلفوا فتفسد عليكم أمورُكم ، فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم ؛ فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سَيِّفان في غنْد ، والله لا ترضى العرب أن تؤمّرَكم ونبيّها من غيركم ، ولا تمتنع^(١) العربُ أن تولّى أمرَها من كانت النبوة منهم ؛ من ينافرنا سلطان محمد ، ونحن أولياؤه وعشيرته !

فقال الحُباب بن المنذر :

يا معشرَ الأنصار ، امسكوا أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم فأجلوهم من هذه البلاد ، فأنتم أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دان الناس بهذا الدّين ؛ أنا جُذيلُكم المحكّك ، وعُدّيَقُهم المرجب ،

(١) كذلك في ج و تاريخ الطبري ، وفي ا ، ب : « تمتنع » .

أنا أبو شبل في عريسة الأسد؛ والله إن شئتم أنعميداً بها جعدة .

فقال عمر : إذن يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار ؛ إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .

فقام بشير بن سعد ، والد النعمان بن بشير فقال : يامعشر الأنصار ؛ ألا إن محمداً من قریش ، وقومه أولى به ، وإيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر .

فقال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيهما شئتم ، فقالا : والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه في الصلاة - وهي أفضل الدين - أسط يدك . فلما أسط يده ليبياعاه سبهما إليه بشير بن سعد فباعيه ، فباداه الحباب بن المذر : يا بشير ، عقت عقاق^(١) أنفست على ابن عمك الإمارة^(٢) فقال أسيد بن حضير^(٣) رئيس الأوس لأصحابه : والله لئن لم تبايعوا ليكونن للخزرج عليكم الفضيلة أبداً . فقاموا فبايعوا أبا بكر .

فانكسر على سعد بن عباد والخزرج ما اجتمعوا عليه ، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ، ثم حبل سعد بن عباد إلى داره ، فبقي أياماً ، وأرسل إليه أبو بكر ليبياع ، فقال : لا والله حتى أرميكم بما في كنفاتي ، وأخضب سنن رحي ، وأضرب بسيفي ما أطاعني ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن تبعني ، ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي .

فقال عمر : لا تدعه حتى يبايع ، فقال بشير بن سعد : إنه قد لج ، وليس بمبايع لكم

(١) عقاق : مبنية على الكسر ، مثل حذام وفي الطبري « عقتك عقاق » .

(٢) بعدها كما في التاريخ : « فقال : لا والله ، ولكني كرهت أن أنزع قوماً حقاً جعله الله لهم » .

(٣) في الطبري : « ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قریش ؛ وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عباد ؛ فقال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير . . . » ثم ذكر كلام أسيد .

حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يُقتلَ معه أهله وطائفة من عشيرته ، ولا يضرَّكم تركه ؛
إنما هو رجل واحد ، فتركوه .

وجاءت أسلم فبايعت ، فقوىَ بهم جانب أبي بكر ، وبايعه الناس .

وفي كتب غريب الحديث في تنمة كلام عمر : فأيتما رجل بايع رجلا بغير مشورة من
الناس فلا يؤمر واحد منهما تفرّة أن يقتلا^(١) .

قالوا : غرّر تغريرا وتفرّة . كما قالوا : حلل تحليلا وتحلّة ، وعلل تعليلا وتعلّة ،
وانتصب «تفرّة» هاهنا لأنه مفعول له ؛ ومعنى الكلام أنه إذا بايع واحد لآخر بفتنة عن غير
شورى ، فلا يؤمر واحد منهما ، لأنهما قد غررا بأنفسهما تفرّة ، وعرضاها لأن يقتلا .

وروى جميع أصحاب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما توفّي كان أبو بكر
في منزله^(٢) بالسُّنْح ، فقام عمر بن الخطاب فقال : مامات رسول الله صلى الله عليه ،
ولا يموت حتى يظهر دينه على الدّين كله ، وكبرجمنّ ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم من
أرجف بموته ، لا أسمع رجلا يقول : مات رسول الله إلا ضربته بسيفي . فجاء أبو بكر
وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : بأبي وأمي ! طبت حيا وميتا ،
والله لا يذيقك الله الموتين أبدا ، ثم خرج والناس حول عمر ، وهو يقول لهم : إنه لم يموت ،
ويحلف ، فقال له : أيها الخالف ، على رسلك ! ثم قال : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ،
ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ
مَيِّتُونَ ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾^(٤) ، قال عمر : فوالله

(١) النهاية لابن الأثير ٣ : ١٥٦

(٢) السنح ؛ بالضم ثم السكون : إحدى محال المدينة ؛ كان بها منزل أبي بكر ؛ وهي منازل بني الحارث
ابن الخزرج بعوالى المدينة .

(٤) سورة آل عمران ١٤٤

(٣) سورة الزمر ٣٠

ماما مَكَتْ نَفْسِي حَيْثُ سَمِعْتُهَا أَنْ سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَدْ مَاتَ .

وَقَدْ تَكَلَّمْتُ الشَّيْعَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ بَلَغَ مِنْ قَلَّةِ عِلْمِهِ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْمَوْتَ يَجُوزُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَنَّهُ أَسْوَأُ الْأَنْبِيَاءِ فِي ذَلِكَ ؛ وَقَالَ : لَمَّا تَلَا أَبُو بَكْرٍ الْآيَاتِ ، أَيقَنْتُ الْآنَ بَوَفَاتِهِ . كَأَنِّي ^(١) لَمْ أَسْمَعْ هَذِهِ الْآيَةَ ، فَلَوْ كَانَ يُحْفَظُ الْقُرْآنُ أَوْ يَتَفَكَّرُ فِيهِ ، مَا قَالُ ذَلِكَ ، وَمِنْ هَذِهِ حَالُهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا .

وَأَجَابَ قَاضِي الْقَضَاةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي " الْمَغْنَى " ، عَنْ هَذَا فَقَالَ : إِنَّ عَمْرَ لَمْ يَمْنَعْ مِنْ جَوَازِ مَوْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا نَفَى كَوْنِهِ مُمْكِنًا ، وَلَكِنَّهُ تَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ^(٢) ، وَقَالَ : كَيْفَ يَمُوتُ وَلَمْ يَظْهَرْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِذَا ظَهَرَ دِينُهُ فَقَدْ ظَهَرَ هُوَ ، وَسَيُظْهِرُ دِينَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ .

فَحَمَلَ عَمْرُ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ ﴾ عَلَى تَأَخُّرِ الْمَوْتِ ، لَا عَلَى نَفْيِهِ بِالْكُلِّيَّةِ ، قَالَ : وَلَا يَجِبُ فِيمِنْ ذَهَلٍ عَنْ بَعْضِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ أَلَّا يُحْفَظَ الْقُرْآنُ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَوَجِبَ أَلَّا يُحْفَظَ الْقُرْآنُ إِلَّا مِنْ عَرَفَ جَمِيعَ أَحْكَامِهِ ؛ عَلَى أَنَّ حِفْظَ جَمِيعِ الْقُرْآنِ غَيْرُ وَاجِبٍ ، وَلَا يَقْدَحُ الْإِخْلَالُ بِهِ فِي الْفَضْلِ ^(٣) .

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب " الشافي " ، هذا الكلام ، فقال : لَا يَخْلُو خِلَافٌ عَمْرَ فِي وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ لِمَوْتِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَالْإِعْتِقَادُ أَنَّ ^(٤) الْمَوْتَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ عَلَى كُلِّ وَجْهِ ، أَوْ يَكُونَ مَنكِرًا لِمَوْتِهِ فِي

(١) الشافي : « وَكَأَنِّي » .

(٢) سورة التوبة ٣٣ .

(٣) نقله المرتضى في الشافي ٢٥٢ ص مع اختلاف في الروايتين .

(٤) ب : « لَأَنَّ » ، وَالْأَصُوبُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ أ .

تلك الحال من حيث لم يظهر على الدين كله، فإن كان الأوّل فهو مما لا يجوز خلاف عاقل فيه، والعلم بجواز الموت على جميع البشر ضرورى . وليس يحتاج فى حصول هذا العلم إلى تلاوة الآيات التى تلاها أبو بكر . وإن كان الثانى ، فأول ما فيه أنّ هذا الاختلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر عليه من قوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ ، لأن عمر لم ينكّر على هذا الوجه جواز الموت عليه وصحته، وإنما خالف فى وقته . فكان يجب أن يقول لأبى بكر : وأى حجة فى هذه الآيات علىّ ! فإنى لم أ منع جواز موته ، وإنما منعت وقوع موته الآن ، وجوزته فى المستقبل ، والآيات إنما تدل على جواز الموت فقط ، لا على تخصيصه بحال معينة .

وبعد ، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق ! ومن أين زعم أنه سيمود فيقطع أيدى رجال وأرجلهم ! وكيف لم يحصل له من اليقين لما رأى من الواقعة^(١) وكآبة الخلق وإغلاق الباب وصراخ النساء ما يدفع به ذلك الوهم والشبهة البعيدة، فلم يحتج إلى موقف !

وبعد ، فيجب إن كانت هذه شبهته أن يقول فى مرض النبى صلى الله عليه وآله - وقد رأى جزع أهله وخوفهم عليه الموت، وقول أسامة صاحب الجيش - : لم أكن لأرحل وأنت هكذا وأسأل عنك الركب؛ ياهؤلاء لا تخافوا ولا تجزعوا، ولا تخف أنت يا أسامة، فإن رسول الله صلى الله عليه لا يموت الآن لأنه لم يظهر على الدين كله .

وبعد ، فليس هذا من أحكام الكتاب التى يُعذر من لا يعرفها على ما ظنّ المعتذر له^(٢) .

ونحن نقول : إن عمر كان أجلّ قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه فى هذه الواقعة ؛

(١) الواقعة : الصراخ على الميت . (٢) الشافى ٢٥٢ مع اختصار وتصرف

ولكنه لما علم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، خاف من وقوع فتنة في الإمامة، وتقلب أقوام عليها، إما من الأنصار أو غيرهم، وخاف أيضا من حدوث ريّة، ورجوع عن الإسلام، فإنه كان ضعيفا بعد لم يتمكن، وخاف من ترات تُشنّ، ودماء تراق، فإن أكثر العرب كان موتورا في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لقتل من قتل أصحابه منهم، وفي مثل ذلك الحال تنتهز الفرصة، وتهتبل الغيرة، فاقتضت المصلحة عنده تسكين الناس بأن أظهر ما أظهره من كون رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمت، وأوقع تلك الشبهة في قلوبهم، فكسرها بشرة كثير منهم، وظنوها حقا، فثناهم بذلك عن حادث يُحدثونه، تخيلا منهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله مامات، وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه، وهكذا كان عمر يقول لهم: إنه قد غاب عنكم كما غاب موسى عن قومه، وليعودن فليطعن أيدي قوم أرجفوا بموته.

ومثل هذا الكلام يقع في الوهم، فيصد عن كثير من العزم؛ ألا ترى أن الملك إذا مات في مدينة وقع فيها في أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكل من في نفسه حقد على آخر بلغ منه غرضه، إما بقتل أو جرح أو نهب مال؛ إلى أن تتمم قاعدة الملك الذي يلي بعده؛ فإذا كان في المدينة وزير حازم الرأي، كتم موت الملك، وسجن قوما ممن أرجف نداء بموته، وأقام فيهم السياسة، وأشاع أن الملك حي، وأن أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلزم ذلك الناموس إلى أن يمهد قاعدة الملك للوالى بعده؛ وكذلك عمر أظهر ما أظهر حراسة الدين والدولة، إلى أن جاء أبو بكر - وكان غائبا بالسُّنح، وهو منزل بعيد عن المدينة - فلما اجتمع بأبي بكر قوى به جأشه، واشتد به أزره، وعظم طاعة الناس له وميلهم إليه، فسكت حينئذ عن تلك الدعوى التي كان ادّعاها، لأنه قد أمِنَ بحضور أبي بكر من خطب يحدث، أو فساد يتجدد؛ وكان أبو بكر محببا إلى الناس؛ لا سيما المهاجرين.

ويجوز عند الشيعة وعند أصحابنا أيضا أن يقول الإنسان كلاما ظاهر الكذب على جهة المعارض؛ فلا وَصْمَةٌ على عمر إذا كان حَكْفَ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُمْتُ، ولا وَصْمَةٌ عليه في قوله بعد حضور أبي بكر وتلاوة ماتلا : كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْهَا ، أو قد تيقنت الآن وفاته صلى الله عليه، لأنه أراد بهذا القول الأخير تشييد القول الأول، وكان هو الصواب، وكان من سيئ الرأي وقبيحه أن يقول : إِنَّمَا قُلْتُهُ تَسْكِينًا لَكُمْ ، ولم أقله عن اعتقاد، فالذى بدأ به حسن وصواب ، والذي ختم به أحسن وأصوب .

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب " السقيفة " عن عمر بن شبة، عن محمد بن منصور، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال : كان النبي صلى الله عليه وآله قد بعثَ أبا سفيان ساعياً^(١)، فرجع من سعيته وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله، فلقية قوم - فسألهم ، فقالوا : مات رسول الله صلى الله عليه ، فقال : مَنْ وَلِيَ بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قال : أبو فصِيل ! قالوا : نعم ، قال : فما فعل المستضعفان : عليّ والعباس ! أما والذي نفسي بيده لأرفعنَّ لهما من أعضادهما .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وذكر الراوى - وهو جعفر بن سليمان - أن أبا سفيان قال شيئاً آخر لم تحفظه الرواة ؛ فلما قدم المدينة قال : إِنِّي لأرى تَجَاجُةً لَا يَطْفُئُهَا إِلَّا الدَّمُ ! قال : فَكَلِّمْ عُمَرَ أبا بكر ، فقال : إِنَّ أبا سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ ، وَإِنَّا لَا نَأْمَنُ شَرَّهُ ، فَذَعْ لَهُ مَا فِي يَدِهِ ، فَتَرَكَهُ فَرَضَى .

وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لما بويع عثمان : كان هذا الأمر في تَيْمٍ ، وَأَنْتَ لَتَيْمٍ هَذَا الْأَمْرُ أَتَمَّ صَارَ إِلَى عَدِيٍّ فَأَبْعَدَ وَأَبْعَدَ ، ثُمَّ رَجَعْتَ إِلَى مَنَازِلِهَا ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ قَرَارَهُ ، فَتَلَفَفَوْهَا تَلَفَفَ الْكَرَةِ .

(١) السعاية : مباشرة أعمال الصدقات .

قال أحمد بن عبد العزيز : وحدثني المغيرة بن محمد المهلب قال : ذكرت إسماعيل ابن إسحاق القاضي بهذا الحديث ، وأنّ أبا سفيان قال لعثمان : يا بني أنت ! أنفق ولا تكن كأي حجر ، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان السكر ، فوالله ما من جنة ولا نار - وكان الزبير حاضرا ، فقال عثمان لأبي سفيان : أعزّب ، فقال : يا بني أهاهنا أحدا ! قال الزبير : نعم والله لا كتمتها عليك - قال : فقال إسماعيل : هذا باطل . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ما أنكر هذا من أبي سفيان ، ولكن أنكر أن يكون سمعه عثمان ، ولم يضرب عنقه . وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : جاء أبو سفيان إلى عليّ عليه السلام ، فقال : ولتيم على هذا الأمر أذلّ بيت في قریش ، أما والله لئن شئت لأملأنها على أبي فضيل خيلا ورجلا ، فقال عليّ عليه السلام : طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئا ! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك ، لولا أنّا رأينا أبا بكر لها أهلا ، لما تركناه .

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : لما بويع لأبي بكر كان الزبير والمقداد يختلفان في جماعة من الناس إلى عليّ وهو في بيت فاطمة ، فيتشاورون ويتراجعون أمورهم ، فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السلام ، وقال : يا بنت رسول الله ، ما من أحد من الخلق أحب إلينا من أبيك ، وما من أحد أحب إلينا منك بعد أبيك ، وإيم الله ما ذاك بمانع إن اجتمع هؤلاء النفر عندك أن أمر بتحريق البيت عليهم . فلما خرج عمر جاءوها ، فقالت : تعلمون أن عمر جاءني ، وحلف لي بالله إن عدتم ليحرقن عليكم البيت ، وإيم الله ليبيضن لما حلف له ، فانصرفوا عنا راشدين . فلم يرجعوا إلى بيتها ، وذهبوا فبايعوا لأبي بكر .

وروى أحمد - وروى المبرّد في " الكامل " ، صدر هذا الخبر ^(١) - عن عبد الرحمن

(١) والخبر أيضاً في تاريخ الطبري : (٣ : ٢٣٤) وما بعدها .

ابن عوف ، قال : دخلتُ على أبي بكرٍ أعودُهُ في مرضه الذي مات فيه ، فسألت ، وسألتُه : كيف به ؟ فاستوى جالساً ، فقلت : لقد أصبحتَ بحمد الله بارئاً ، فقال : أما إنِّي على ما تَرى لوَجَّع ، وجعلتم لي معشر المهاجرين شغلامع وجعِي ، وجعلت لکم عهداً مني من بعدی ، واخترت لکم خيرَ کم في نفسی ، فكلَّکم وِرم^(١) لذلك أنفهُ رجاء أن يكون الأمر له ، ورأيتُم الدنيا قد أقبلت ؛ والله لتتَّخِذُنَّ ستورَ الحرير ونضائد الديباج^(٢) ، وتألُمون ضجائع الصوف الأذري^(٣) ، كأنَّ أحدَكم على حَسَك^(٤) السعدان . والله لأنَّ يقدِّم أحدَكم فتضربَ عنقه في غير حدِّ خيرٍ له من أن يسَّبح في غمرة الدنيا ، وإنَّكم غداً لأوَّل ضالِّ بالناس يَجُورون عن الطريق يميناً وشمالاً ، يَاهادِي الطريق جُرَّتْ ؛ إنما هو البَجْر أو الفَجْر^(٥) . فقال له عبد الرحمن : لا تُكثِرْ على ما بك فيهِ يَصُك^(٦) ، والله ما أردتُ إلا خيراً^(٧) ، وإن صاحبك لَدُو خير ؛ وما الناس إلا رجُلان : رجل رأى ما رأيت ؛ فلا خلاف عليك منه ، ورجل رأى غير ذلك ؛ وإنما يشير عليك برأيه . فيسكنَ وسكتَ هُنَيْمَةً ؛ فقال عبدُ الرحمن : ما أرى بك بأساً والحمد لله ، فلا تأسَ على الدنيا ، فوالله إنَّ علمناكَ إلا صالحاً مصلحاً . فقال : أما إنِّي لا آسَى إلا على ثلاث فعلتُهنَّ ، ودِدْتُ أنِّي لم أفعلنَّ ، وثلاث لم أفعلنَّ ودِدْتُ أنِّي فعلتُهنَّ ، وثلاث ودِدْتُ أنِّي سألت رسول الله صلى الله عليه عنهنَّ :

فأما الثلاث التي فعلتُها ووددت أنِّي لم أكن فعلتُها : فودِدْتُ أنِّي لم أكن كَشَفْتُ

(١) ورم أنفه : أي امتلأ من ذلك غضباً .

(٢) نضائد الديباج : واحدها نضيدة ؛ وهي الوسادة وما ينضد من المتاع .

(٣) الأذري : منسوب إلى أذريجان .

(٤) السعدان : ثبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه .

(٥) قال في السكامل : « وقوله : والله هو الفجر أو البجر ، يقول : إن التظنرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجم بك على المكروه » .

(٦) يهيضك : أي يعمتك ويؤذيك ؛ وأصله في العظم إذا كسر بعد الجبور ؛ فإنه يكون أشد وجعاً .

(٧) هذه آخر رواية المبرد - مع تصرف كثير في العبارة - في السكامل ١ : ٥٤ ، ٥٥ - بشرح الرصني .

عن بيت فاطمة وتركته ولو أغلق على حرب، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين : عمر أو أبى عبيدة ، فكان أميراً وكنت وزيراً ؛ ووددت أنى إذ أتيت بالفجأة^(١) لم أكن أحرقة ، وكنت قتلت بالحديد أو أطلقت .
وأما الثلاث التى تركتها ووددت أنى فعلتها : فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث كنت ضربت عنقه ، فإنه يخيّل إلى أنه لا يرى شرّاً إلا أعان عليه ؛ ووددت أنى حيث وجهت خالداً إلى أهل الردة أقمت بذى القصة ، فإن ظفّر المسلمون وإلا كنت رداء لهم ، ووددت حيث وجهت خالداً إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق ، فأكون قد بسطت كلتا يدي :
اليمن والشمال فى سبيل الله .

وأما الثلاث اللواتى ووددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه عنهن : فوددت أنى سألته فيمن هذا الأمر ، فكنا لا ننازعه أهله ، [ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟] ^(٢) ووددت أنى سألته عن ميراث العمّة وابنة الأخت ؛ فإن فى نفسى منهما حاجة .

ومن كتاب معاوية المشهور إلى على عليه السلام :
وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويداك فى يدي ابنك الحسن والحسين يوم بويج أبو بكر الصديق ، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسوابق إلا دعوتهم إلى نفسك ، ومشيت إليهم بامرأتك ، وأدليت إليهم بابنيك ، واستنصرتهم على صاحب رسول الله ، فلم يجبهك منهم إلا أربعة أو خمسة ؛ ولعمري لو كنت محققاً لأجابوك ، ولكنت ادعيت باطلا ، وقلت مالا تعرف ، ورؤمت مالا يدرك ، ومهما نسيت فلا أنسى قولك لأبى سفيان ، لما حرّكك وهيجك : لو وجدت أربعين ذوى عزم منهم لناهضت القوم ؛ فما يوم المسلمين منك بواحد ، ولا بغنيك على الخلفاء بطريف ولا مستبدع .

(١) هو لباس بن عبد الله بن عبد ياليل السامى ، وكان قد استعرض الناس يقتلهم ويأخذ أموالهم ، فأصر أبو بكر بإحراقه . وانظر تفصيل الخبر فى الطبرى ٣ : ٢٣٤ .
(٢) زيادة من الطبرى يقتضيه السياق .

وسنذكر تمام هذا الكتاب وأوله عند انتهائنا إلى كتب علي عليه السلام .
وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي المنذر وهشام بن محمد بن السائب
عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، قال : كان بين العباس وعليّ مباحدة ، فلقى
ابنُ عباس عليّاً ، فقال : إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فأنه ، وما أراك تلقاه
بعدها . فوجم^(١) لها وقال . تقدمني واستأذن ، فتقدمته واستأذنت له ، فأذن فدخل ، فاعتنق
كل واحد منهما صاحبه ، وأقبل عليّ عليه السلام على يده ورجله يقبّاهما ، ويقول :
يا عمّ ، ارض عني رضي الله عنك ، قال : قد رضيتُ عنك .
ثم قال : يا بن أخي ، قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل ، ورأيتَ في عاقبتهما ما كرهت ؛
وهذا أشير عليك برأى رابعٍ ، فإن قبلته ؛ وإلا نالك ما نالك مما كان قبلك . قال :
وما ذاك يا عم ؟ قال : أشرتُ عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه أن تسأله ، فإن
كان الأمر فينا أعطانا ، وإن كان في غيرنا أوصى بنا . فقلت : أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد
بعده^(٢) ، فحضتُ تلك . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، أتانا بوسفيان بن حرب تلك
الساعة ، فدعوناك إلى أن نبايعك ، وقلت لك : أبسط يدك أبايعك ، وببايعك هذا الشيخ ، فإننا
إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف ، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك
أحد^(٣) من قريش ، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب ، فقلت : لنا بجهاز
رسول الله صلى الله عليه شغل ، وهذا الأمر فليس نخشى عليه ؛ فلم نلبث أن سمعنا التكبير
من سقيفة بني ساعدة ، فقلت : يا عمّ ، ما هذا ؟ قلت : ما دعوناك إليه فأبيت ، قلت :
سبحان الله ! أو يكون هذا ! قلت : نعم . قلت : أفلا يرد ؟ قلت لك : وهل ردّ مثل هذا
قط ! ثم أشرتُ عليك حين طعن عمر فقلت : لا تدخل نفسك في الشورى ، فإنك إن
اعتزلتهم قدّموك ، وإن ساويتهم تقدّموك ، فدخلت معهم فكان ما رأيت .

(٢) ب : « قرشي » .

(١) ساقطة من ب .

ثم أنا الآن أشيرُ عليك برأيٍ رابع ، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله ؛ إنى أرى أن هذا الرجل - يعنى عثمان - قد أخذ في أمور ، والله لسكأتى بالعرب قد سارت إليه حتى يُنَجَّرَ في بيته كما يُنَجَّرُ الجمل . والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة ألزمتك الناس به ؛ وإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئاً إلا من بعد شرٍّ لاخير معه .

قال عبد الله بن عباس : فلما كان يوم الجمل عرَضْتُ له - وقد قتل طلحة ، وقد أكثر أهل الكوفة في سبِّه ونمِّصه - فقال علىّ عليه السلام : أما والله لئن قالوا ذلك ، لقد كان كما قال أخو جُعمي^(١) :

فَتَى كَانَ يَدِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَفَنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
ثم قال : والله لسكأنّ عَمَى كان ينظر من وراء سِتْرِ رَقِيق ؛ والله مانلت من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرٍّ لاخير معه .

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز ، عن حُباب بن يزيد ، عن جرير بن المغيرة أن سلمان والزبير والأنصار كان هواهم أن يُبَايَعُوا عليّاً عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله ، فلما بُويع أبو بكر ، قال سلمان : أصبتم الخِيرةَ وأخطأتم المَعْدِن .
قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا عليّ بن أبي هاشم ، قال : حدثنا عمرو بن ثابت ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : قال سلمان يومئذ : أصبتم ذاللسن منكم ، وأخطأتم أهل بيت نبيكم ؛ لوجملتموها فيهم ما اختلف عليكم ائنسان ، ولأكلتموها رغداً .

قال أبو بكر : وأخبرنا عمر بن شبة ، قال : حدثني محمد بن يحيى ، قال : حدثنا غسان

(١) هو سلمة بن يزيد بن شعبة الجعفي ، من كلمة يثرى فيها أخاه لأمه قيس بن سلمة . أمالي القالي ٢ : ٧٣

(٤ - نهج - ٢)

ابن عبد الحميد ، قال : لما أكثر الناس في تحلف على عليه السلام عن بيعة أبي بكر ، واشتد أبو بكر وعمر عليه في ذلك ، خرجت أم مسطح بن أثانة ، فوقفت عند القبر ، وقالت : كانت أمورٌ وأبناءٌ وهنْبَشَةٌ لو كنت شاهداً لم تَكْثُر الخطبُ^(١) إنا فقدناك فقد الأرضَ وإبائهم واختل قومك فاشهدهم ولا تغيب^(٢) قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبَّه ، قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، عن ابن وهب ، عن ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، قال : غضب رجالٌ من المهاجرين في بيعة أبي بكر بغير مشورة ، وغضب عليّ والزبير ، فدخل بيت فاطمة عليها السلام ، معها السلاح ، فجاء عمر في عصا به ؛ منهم أسيد بن حضير وسامة بن سلامة ابن وقش - وهما من بني عبد الأشهل - فصاحت فاطمة عليها السلام ، وناشدتهم الله . فأخذوا سيفي عليّ والزبير ، فضربوا بهما الجدار حتى كسروهما ، ثم أخرجهما عمر يسوقهما حتى بايعا ، ثم قام أبو بكر فخطب الناس ، واعتذر إليهم ، وقال : إن بيعتي كانت فلتة وفي الله شرّها ، وخشيتُ الفتنة ، وإيم الله ما حرصت عليها يوماً قط ، ولقد قللتُ أمراً عظيماً مالى به طاقة ولا يدان ، ولوددتُ أنّ أقوى الناس عليه مكاني . وجعل يعتذر إليهم ، فقبل المهاجرون عذره . وقال عليّ والزبير : ما غَضِبْنَا إلا في المشورة ، وإنا لَنَرَى أبا بكر أحقّ الناس بها ؛ إنه لصاحبُ الغار ، وإنا لنعرف له سنة ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه بالصلاة بالناس وهو حيّ .

قال أبو بكر - وقد روى بإسناد آخر ذكره ؛ أنّ ثابت بن قيس بن شماس كان مع الجماعة الذين حضروا مع عمر في بيت فاطمة عليها السلام ؛ وثابت هذا أخو بني الحارث ابن الخزرج .

(١) الهنْبَشَةُ ، واحدة الهنابث ؛ وهي الأمور الشداد المختلفة ؛ والبيتان في اللسان (٣ : ٢٠) ، وذكر أنه جاء في حديث أن فاطمة قالتها بعد موت الرسول عليه السلام ؛ وذكر أيضاً أنه ورد هذا الشعر في حديث آخر ؛ قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت صفية تلغع بثوبها وتقول البيتين .
(٢) اللسان : « فاختل » .

وروى أيضاً أن محمد بن مسامة كان معهم ، وأن محمداً هو الذى كسر سيف الزبير .

قال أبو بكر : وحدثني يعقوب بن شَيْبَةَ ، عن أحمد بن أيوب ، عن إبراهيم بن سعد ، عن ابن إسحاق ، عن الزَّهْرِيِّ ، عن عبد الله بن عباس ، قال : خرج على عليه السلام على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه في مرضه ، فقال له الناس : كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه يا أبا حسن ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً ، قال : فأخذ العباس بيد عليّ ، ثم قال : يا عليّ ، أنت عبد العصا بعد ثلاث ؛ أحلف لقد رأيتُ الموتَ في وجهه - وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب - فانطأقُ إلى رسول الله صلى الله عليه فاذكر له هذا الأمر ؛ إن كان فينا أعلمنا ، وإن كان في غيرنا أوصى بنا . فقال : لا أفعل ، والله إن منعمنا اليوم لا يؤتيناها الناسُ بعده ؛ قال : فتوفي رسول الله ذلك اليوم .

وقال أبو بكر : حدثني المغيرة بن محمد الملهبيّ من حفظه وعمر بن شبة من كتابه ، بإسنادٍ رفعه إلى أبي سعيد الخدريّ ، قال : سمعت البراء بن عازب يقول : لم أزلُ لبني هاشم محبباً ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه تخوّفتُ أن تتمالأ قريشُ على إخراج هذا الأمر عن بني هاشم ، فأخذني ما يأخذ الوالدة العجول .

ثم ذكر ما قد ذكرناه نحن في أول هذا الكتاب^(١) في شرح قوله عليه السلام : « أما والله لقد تَقَمَّصَهَا فلان » ، وزاد فيه في هذه الرواية : فمكثتُ أكابد ما في نفسي ، فلما كان بايل ، خرجت إلى المسجد ، فلما صرت فيه تذكرتُ أنّي كنتُ أسمعُ هَمْزَةَ رسول الله صلى الله عليه بالقرآن ، فامتنعتُ من مكاني ، فخرجت إلى الفضاء ، فضاء بني بَيْبَاضة ، وأجد نفرا يتناجون ، فلما دنوتُ منهم سَكَتُوا ، فانصرفت عنهم ، فعرفوني وما عرفهم ، فدعوني إليهم فأنبأهم ، فأجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ، وسلمان الفارسيّ ، وأبا ذر ، وحذيفة ، وأبا الهيثم بن التيهان ؛ وإذا حذيفة يقول لهم : والله ليكونن ما أخبرتكم

(١) الجزء الأول ص ١٥٩ وما بعدها .

به ، والله ما كُذِّبَتْ ولا كُذِّبَتْ ؛ وإذا القوم يريدون أن يُعِيدُوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال : ائتوا أبيّ بن كعب ، فقد علم كما علمت . قال : فانطلقنا إلى أبيّ ، فضربنا عليه بابَه ؛ حتى صار خلف الباب ، فقال : من أنتم ؟ فكلّمه المقداد ، فقال : ما حاجتكم ؟ فقال له : افتح عليك بابك ، فإنّ الأمر أعظم من أن يُجرى من وراء حجاب ، قال : ما أنا بفاتح بابي ، وقد عرفتُ ما جئتم له ، كأنكم أردتم النظر في هذا العقد . فقلنا : نعم ، فقال : أفبكم حذيفة ؟ فقلنا : نعم ، قال : فالقول ما قال ؛ وبالله ما أفتّح ^(١) عني بابي حتى يُجرى على ما هي جارية ، ولما يكون بعدها شرٌّ منها ، وإلى الله المشتكى !

قال : وبلغ الخبرُ أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبي عُبَيْدَةَ والمغيرة بن شُعْبَةَ ، فسألاهما عن الرأي ، فقال المغيرة : أن تَلَقُوا العباس فتجعلوا له في هذا الأمر نصيبا فيسكون له ولعقبه ، فتقطعوا به من ناحية عليّ ، ويكون لكم حُجَّةٌ عند الناس على عليّ ، إذا مال معكم العباس .

فانطلقوا حتى دخلوا على العباس في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله . ثم ذكر خطبة أبي بكر وكلام عمر وما أجابهما العباس به ، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في الجزء الأول .

وروى أبو بكر ، قال : أخبرنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنا عبد الله بن عمر ، عن حماد بن زيد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، قال : لما تَوَفَّى النبي صلى الله عليه وآله اجتمع الأنصار إلى سعد بن عُبَادَةَ ، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عُبَيْدَةَ ، فقال الحُباب :

(١) ب : « ما يفتح » .

ابن المنذر : متنا أمير ومنكم أمير ، إنا والله ما ننفس^(١) هذا الأمر عليكم أيها الرهط؛ ولكننا نخاف أن يليه بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم ؛ فقال عمر بن الخطاب : إذا كان ذلك قت إن استطعت . فتكلم أبو بكر فقال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، والأمر بيننا نصفان كشق الأبلمة^(٢) . فبويع ، وكان أول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان ابن بشير .

فلما اجتمع الناس على أبي بكر ، قسّم قسماً^(٣) بين نساء المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى امرأة من بنى عدى بن النجار قسّمها مع زيد بن ثابت ، فقالت : ما هذا ؟ قال : قسّم قسّمه أبو بكر للنساء ، قالت : أتراشوني عن ديني والله لا أقبل منه شيئاً . فردّته عليه .

قلت : قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي الحسيني المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة رحمه الله تعالى في سنة عشر وثمانئة من كتاب السقيفة لأحمد ابن عبد العزيز الجوهري ، قال : لقد صدقتُ فِرَاسةَ الحُبَاب ، فإنّ الذي خافه وقع يوم الحرة وأخذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر . ثم قال لي رحمه الله تعالى : ومن هذا خاف أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله على ذُرّيّته وأهله ، فإنه كان عليه السلام قد وثر الناس ، وعلم أنّه إن مات وترك ابنته وولدها سُوقَة ورعيّة تحت أيدي الولاة ، كانوا بعرض خطر عظيم ، فما زال يقرّر لابن عمه قاعدة الأمر بعده ، حفظاً لدمه ودماء أهل بيته ، فإنّهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقرب إلى الصّيّانة والعصمة مما إذا كانوا سُوقَة تحت يد وّالٍ من غيرهم ، فلم يساعده القضاء والقدر ، وكان من الأمر ما كان . ثم أفضى أمر ذُرّيّته فيما بعد إلى ما قد علمت .

(١) نفّس : نحسد .

(٢) في اللسان : (١٤ : ٣٢٠) وفي حديث السقيفة : « الأمر بيننا وبينكم كقعد الأبلّة » ، والأبلّة ، بضم الهيمزة واللام وفتحهما وكسرهما : خوصة المفل ، وهزتها زائدة ، يقول : نحن وليناكم في الحكم سواء ، لأفضل لأمر على مأمور ، كالخوصة إذا شقت اثنتين متساويتين .

(٣) القسم هنا : العطاء .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : حدثني يعقوب بن شيبه بإسناد رفعه إلى طلحة ابن مصرف ، قال : قلت لهذيل بن شُرَحْبِيل : إن الناس يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى علي عليه السلام ، فقال : أبو بكر يتأمر على وصي رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ودّ أبو بكر أنه وجد من رسول الله صلى الله عليه وآله عليه عهدا نفزم أنفه .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان : محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري في صحيحيهما عن طلحة بن مصرف ، قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى : أوصى^(١) رسول الله صلى الله عليه وآله عليه ؟ قال : لا ، قلت : فكيف كُتِبَ على المسلمين الوصية^(٢) أو كيف أمر بالوصية ولم يوص^(٣) ؟ قال : أوصى بكتاب الله^(٤) . قال طلحة : ثم قال ابن أوفى : ما كان أبو بكر يتأمر على وصي رسول الله صلى الله عليه وآله عليه ؛ ودّ أبو بكر أنه وجد من رسول الله صلى الله عليه وآله عليه عهدا ، نفزم أنفه بخزامة .

وروى الشيخان في الصحيحين عن عائشة أنه ذكر عندها أن رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى ، قالت : ومتى أوصى ؟ ومن يقول ذلك اقليل ؛ إنهم يقولون ، قالت : من يقول ؟ لقد دعا بطست ليبول ، وإنه بين سحري ونحري فانحنت^(٥) ، في صدرى فمات وما شعرت^(٦) .

وفي الصحيحين أيضاً ، خرّجاه معا عن ابن عباس ، أنه كان يقول : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ؛ ثم بكى حتى بلّ دمه الحصى ، فقلنا : يا بن عباس ، وما يوم الخميس ؟

(١) لفظ مسلم : « هل أوصى ؟ » .

(٢) لفظ مسلم : « فلم كتب على المسلمين الوصية ؟ » .

(٣) لفظ مسلم : « أو فلم أمروا بالوصية ؟ » .

(٤) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٦ .

(٥) انحنت : مال وسقط .

(٦) لفظ مسلم ٣ : ١٢٥٧ بسنده عن الأسود بن يزيد : « ذكروا عند عائشة أن علياً كان وصياً ، فقالت : متى أوصى إليه ؟ فقد كنت مسندته إلى صدرى — أو قالت حجرى — فدعا بالعلست ، فلقد انحنت في حجرى ، وما شعرت أنه مات ، ففنى أوصى إليه ؟ » .

قال : اشتد برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ائتوني بكتاب أكتبه لكم^(١) لا تضلوا بعدى أبدا . فتنازعوا ، فقال : إنه لا ينبغي عندى تفازع ، فقال قائل : ماشأنه ؟ أهجر ؟ استفهموه . فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعوني ، والذي أنا فيه خير من الذى أنتم فيه ، ثم أمر بثلاثة أشياء ، فقال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ؛ وسئل ابن عباس عن الثالثة ، فقال : إما ألا يكون تكلمهم بها ، وإما أن يكون قالها فنسيت^(٢) .

وفى الصحيحين أيضا خرّجاه معا عن ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : لما احتضر^(٣) رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفى البيت رجال منهم عمر بن الخطاب ؛ قال النبي صلى الله عليه وآله : هلم أكتب لكم كتابا لا تضلّون بعده ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . فاختلفت القوم واختصموا ، فمنهم من يقول : قرّبوا إليه يكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعده ، ومنهم من يقول : القول ما قاله عمر ؛ فلما أكتثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام ، قال لهم : قوموا ، فقاموا ، فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين أن يكتب لكم^(٤) ذلك الكتاب^(٥) .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ : وحدثني أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثني عبد الله بن عمر بن معاذ ، عن ابن عون ، قال : حدثني رجل من زُرّيق

(١) لفظ مسلم : « ائتوني أكتب لكم كتابا » .

(٢) لفظ مسلم : « قال : وسكت عن الثالثة أو قال : فأنسيتها » ، والحدث فى صحيحه ٣ :

١٢٥٧ - ١٢٥٨ .

(٣) لفظ مسلم : « حضر » ؛ وهما بمعنى حضره الموت .

(٤) لفظ مسلم : « لهم » .

(٥) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ .

أنّ عمر كان يومئذ - قال : يعنى يوم بويح أبو بكر - محتجزاً^(١) يهرول بين يدي أبي بكر؛ ويقول : ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر . قال : فجاء أبو بكر حتى جاس على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإنّي وأبيّتكم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسُنّت السنن ، وعلمنا فتعلمنا أنّ أكيّس الكيّس التقي ، وأحقّ الحقّ الفجور . وإن أقوامكم عندي الضعيف حتى أخذ له بالحقّ ، وأضعفكم عندي القويّ حتى أخذ منه الحق . أيها الناس إنّما أنا متبع ولست بمبتدع ، إذا أحسنتُ فأعينوني ، وإذا زُغْتُ فقوموني .

قال أبو بكر : وحدّثنى أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا أحمد بن معاوية ، قال : حدّثنى الفضر بن سمّيل ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو ، عن سلمة بن عبد الرحمن ، قال : لما جلس أبو بكر على المنبر ، كان علىّ عليه السلام والزبير وناسٌ من بني هاشم في بيت فاطمة ، فجاء عمر إليهم ، فقال : والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَخْرُجُنَّ إِلَى الْبَيْعَةِ أَوْ لِأُخْرِقَنَّ الْبَيْتَ عَلَيْهِمْ ! فخرج الزبير مُصْلِحاً سيفه ، فاعتنقه رجل من الأنصار وزباد بن كبيد . فبدر السيف ، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر : اضرب به الحجر ، فذق به . قال أبو عمرو ابن حماس : فلقد رأيت الحجر فيه تلك الضربة ، ويقال : هذه ضربة سيف الزبير . ثم قال أبو بكر : دعوهم فسيأتى الله بهم ، قال : فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه .

قال أبو بكر : وقد رُوي في رواية أخرى أنّ سعد بن أبي وقاص ، كان معهم في بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً ، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليّاً عليه السلام ، فاتاهم عمر ليحرق عليهم البيت ، فخرج إليه الزبير بالسيف ، وخرجت فاطمة عليها السلام تبكي وتصيح ؛ فنهت من الناس ، وقالوا : ليس عندنا معصية ، ولا خلاف في خير اجتماع عليه الناس ؛ وإنما اجتمعنا لنؤلف القرآن في مصحف واحد . ثم بايعوا أبا بكر ، فاستمرّ الأمرُ واطمأنّ الناس .

(١) يقال : احتجز بالإزار إذا شده على وسطه .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : أخبرنا أبو بكر الباهلي ، قال : حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبي ، قال : سألت أبو بكر فقال : أين الزبير ؟ فقلت : عند عليّ وقد تقلد سيفه ، فقال : قم يا عمر ، قم يا خالد بن الوليد ؛ انطلقا حتى تأتيا بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ، وقام خالد على باب البيت من خارج ، فقال عمر الزبير : ما هذا السيف ؟ فقال : نبايع عليّا ، فاخترطه عمر فضرب به حجرا فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه ، وقال : يا خالد دونك فأمسكه ، ثم قال لعليّ : قم فبايع لأبي بكر ، فتلصّنا واحتبس ، فأخذ بيده ، وقال : قم ، فأبى أن يقوم ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير فأخرجه ، ورأت فاطمة ما صنع بهما ، فقامت على باب الحجرة ، وقالت : يا أبا بكر ، ما أسرع ما أغرّتم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أسكّم عمر حتى ألقى الله . قال : فشئى إليها أبو بكر بعد ذلك وشقّ لعمر ، وطلب إليها فرضيت عنه .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد ، قال : حدثنا محمد بن حاتم ، قال : حدثنا الحرابي ، قال : حدثنا الحسين بن زيد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعليّ وعنده ابنُ عباس بفناء داره ، فسلم فسألاه : أين تريد ؟ فقال : مالي يندبُع ، قال : عليّ : أفلا نصل جناحك ونقوم معك ؟ فقال : بلى ، فقال لابن عباس : قم معه ، قال : فشبك أصابعه في أصابعي ، ومضى حتى إذا خلفنا البقيع ، قال : يا ابن عباس ، أما والله إن كان صاحبك هذا أولى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلّا أنا خفناه على اثنتين . قال ابن عباس : فجاء بمنطق لم أجد بداً معه من مسألتيه عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ماها ؟ قال : خشيته على حداثة سنّه وحبّه بنى عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدثني أبو زيد ، قال : حدثنا هارون بن عمر ، بإسناد رفعه إلى ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : تفرّق الناس ليلة الجابية^(١) عن عمر ، فسار

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، ذكر ياقوت أن عمر خطب فيها خطبته المشهورة .

كل واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة في مسيرنا، فحدثته، فشكا إلى تحلف على عنه . فقلت : ألم يعتذر إليك ؟ قال : بلى ، فقلت : هو ما اعتذر به ، قال : يا بن عباس، إن أول من ريشكم عن هذا الأمر أبو بكر ؛ إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوة ، قلت : لم ذاك يا أمير المؤمنين ؟ ألم نفلهم خيرا ؟ قال : بلى ، ولكنهم لو فعلوا لسكنتم عليهم جحفاً جحفاً^(١) .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدثنا عبد العزيز بن الخطاب ، قال : حدثنا علي بن هشام ، مرفوعاً إلى عاصم بن عمرو بن قتادة ، قال : لقي علي عليه السلام عمر ، فقال له علي عليه السلام : أنشدك الله ، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : لا ، قال : فكيف تصنع أنت وصاحبك ؟ قال : أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فأسأ خلعها من عنقي إلى عنقك ، فقال : جدع الله أنف من يُنفذك منها ! لا ولكن جعلني الله علماً ، فإذا قت فن خالفني ضلّ .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، عن هارون بن عمر ، عن محمد بن سعيد بن الفضل عن أبيه ، عن الحارث بن كعب ، عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي ، قال : كان خالد ابن سعيد بن العاص من ثمال رسول الله صلى الله عليه على اليمن ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه جاء المدينة ، وقد بايع الناس أبا بكر ، فاحتبس عن أبي بكر فلم يبايعه أياماً، وقد بايع الناس، وأتى بني هاشم ، فقال : أنتم الظاهر والبطن ، والشعار دون الدثار^(٢) ، والعصا دون اللّاحا^(٣) ، فإذا رضيتم رضيينا ، وإذا سخطتم سخطنا . حدثوني إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : على برد ورضا من جماعتكم ؟ قالوا : نعم ، قال :

(١) جحفاً جحفاً ، أي فخراً فخراً وشرفاً شرفاً . النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٥ .

(٢) الشعار : ما يلي شعر الجسد ؛ وهو تحت الدثار .

(٣) اللّاحا : ما على العصا من قشرها ، يمد ويقصر ؛ وفي خطبة الحجاج : « ألحونكم لحو العصا » .

فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم . أما والله يا بنى هاشم ، إنكم الطّوال الشجر الطيّب^(١) الثمر . ثم إنه بايع أبا بكر ، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها ، ووظفنها عليه عمر ، فلما ولاه أبو بكر الجند الذى استنفر إلى الشام ، قال له عمر : أتولّى خالداً وقد حبسَ عليك بيعته ، وقال لبنى هاشم ما قال ، وقد جاء بورق من اليمن وعبيد وحُشبان ودُروع ورماح ! ما أرى أن تولّيه ، وما آمن خلافة . فانصرف عنه أبو بكر ؛ وولّى أبا عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنّة .

واعلم أن الآثار والأخبار في هذا الباب كثيرة جدّاً ، ومن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نصّ صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك ، ولا تتطرق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية ، فإنهم يقولون : إن الرسول صلى الله عليه وآله نصّ على أمير المؤمنين عليه السلام نصّاً صريحاً ليس بنصّ يوم الغدير^(٢) ، ولا خبر المنزلة^(٣) ، ولا ما شابهها من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها ، بل نصّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين ، وأمر المسلمين أن يستأموا عليه بذلك ، فاستأموا عليه بها ، وصرح لهم في كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده ، وأمرهم بالسمع والطاعة له . ولا ريب أن المنصف إذا سمع ماجرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم قطعاً أنه لم يكن هذا النصّ ، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنه قد كان هناك تعريض وتلويح ، وكفاية وقول غير صريح ، وحكم غير مثبت ، ولعله صلى الله عليه وآله كان يصدّه عن التصريح بذلك أمرٌ يعلمه ، ومصلحة يراعيها ، أو وقوف مع إذن الله تعالى في ذلك .

فأما امتناع علىّ عليه السلام من البيعة حتى أخرج على الوجه الذى أخرج عليه ، فقد

(١) كذا في ج ، وفي أ ، ب : « الطيب » .

(٢) هو غدير خم ، موضع بين مكة والمدينة ، نقل الحب الطبرى في الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) أن الرسول عليه السلام قال يوم غدير خم : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

(٣) يشير إلى حديث : « أنت مبي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

ذكره المحدثون ورواه أهل السير وقد ذكرنا ما قاله الجوهري في هذا الباب؛ وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين ، وقد ذكر غيره من هذا النحو مالا يحصى كثرة .

فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام ، وأنه ضربها بالسوط فصار في عَضُدِهَا كالدُّمْلَجِ وبقي أثره إلى أن ماتت ، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار ، فصاحت : يا ابتاه يا رسول الله ! وألقت جنيذنا ميتا ، وجعل في عنق علي عليه السلام حَبْلٌ يقاد به وهو يُعْتَل ، وفاطمة خلفه تصرخ وتفادى بالويل والثبور ، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان ، وأن علياً لما أحضر سألوه البيعة فامتنع ، فتهدّد بالقتل ، فقال : إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله ! فقالوا : أما عبد الله فنعم ، وأما أخو رسول الله فلا ، وأنه طمن فيهم في أوجههم بالنفاق ، وسطر صحيفة الغدر التي اجتمعوا عليها ، وبأنهم أرادوا أن ينفقوا ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة ؛ فكله لا أصل له عند أصحابنا ، ولا يُثبت به أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله .

الأصل :

ومنها :

وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا . فَلَا ظَفِيرَتُ يَدِ الْبَائِعِ ، وَخَزِيرَتُ أَمَانَةِ الْمُبْتَاعِ ! فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أَهْبَتَهَا ، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا ، فَقَدْ شَبَّ أَظَاهَا ، وَعَلَا سَنَاهَا . وَأَسْتَشِيرُوا الصَّبْرَ ، فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ .

الشرح

هذا فصل من كلام يذكر فيه عليه السلام عمرو بن العاص . وقوله : « فلا ظفیرت يد البائع » يعني معاوية . وقوله : « وخزیرت أمانة المبتاع » يعني عمرا ، وخزيت ، أى

خسرت وهانت. وفي أكثر النسخ: «فلا ظفرت يد المبايع»، بيمين المفاعلة، والظاهر مارويناه. وفي بعض النسخ «فإنه أحزم للنصر»، من حَزَمْتُ الشيء إذا شدّدته، كأنه يشدّ النصر وبنوّته، والرواية التي ذكرناها أحسن.

والأهبة: العدة. وشبّ لظاها استعارة، وأصله صعدو طرف النار الأعلى. والسنا بال قصر: الضوء. واستشعروا الصبر: اتخذوه شعارا، والشعار: ما يلي الجسد من الثياب؛ وهو ألزم الثياب للجسد؛ يقول: لازموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبه الذي يلي جلده لا بدّ له منه، وقد يستغنى عن غيره من الثياب.

[قدوم عمرو بن العاص على معاوية]

لما نزل على عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتابا يدعو به إلى البيعة، أرسل فيه^(١) جرير بن عبد الله البجليّ. فقدم عليه به الشام. فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كلّ مذهب، وطاول جريرا بالجواب عن الكتاب، حتّى كَلَم قوما من أهل الشام في الطلب بدم عثمان؛ فأجابوه ووثقوا له، وأحبّ الزيادة في الاستظهار، فاستشار أخاه عتبة بن أبي سفيان، فقال له: استعنْ بعمرو بن العاص، فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرِك أشدّ اعتزالا؛ إلا أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية:

أما بعد، فإنه كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا أمر وان بن الحكم في نفر من أهل البصرة^(٢)، وقدم علينا جرير بن عبد الله في بيعة عليّ، وقد حبست نفسي عليك،^(٣) فأقبل إذا كرك أمورا لا تعدّ صلاح مَعْبَتها، إن شاء الله^(٤)

(١) ساقطة من ب. (٢) في كتاب صفين: «في رافضة أهل البصرة».

(٣ - ٣) في صفين: «حتى تأتيني، أقبل إذا كرك أمرا».

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنه : عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو ، فقال لها : ماتريان ؟ فقال عبد الله : أرى أن رسول الله صلى الله عليه قُبِضَ وهو عنك راض ، والخليفة من بعده ؛ وقُتِلَ عثمان وأنت عنه غائب ، فقرّ في منزلك ، فليست بمجمعولا خليفة ، ولا تريد على^(١) أن تكون حاشية لمعاوية ، على دنيا قليلة أو شكما أن تهلكا ، فتستويا^(٢) في عقابها . وقال محمد : أرى أنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن نصرمت هذا الأمر وأنت فيه غافل^(٣) تصاغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يدا من أيديها ، طالبا بدم عثمان ، فإنه سيقوم بذلك بنو أمية^(٤) .

فقال عمرو : أمّا أنت يا عبد الله ، فأمرتنى بما هو خير لي في ديني ، وأنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لي في دنياي ، وأنا ناظر . فلما جَنَهِ الليل رفع صوته وأهله يسمعون^(٥) ، فقال :
تَطَاوَلَ لَيْلِي بِالْهُمُومِ الطَّوَارِقِ وَخَوْفِ الَّتِي تَجْلُو وَجوهَ الْعَوَائِقِ^(٦)
وَلَمَّا ابْنَ هِنْدَ سَأَلَنِي أَنْ أَزُورَهُ وَتِلْكَ الَّتِي فِيهَا بَنَاتُ الْبَوَائِقِ^(٧)
أَتَاهُ جَرِيرٌ مِنْ عَلَى بِخُطْبَةٍ أَمَرَّتْ عَلَيْهِ الْعَيْشُ ذَاتِ مَضَائِقِ
فَإِنْ نَالَ مَنِّي مَا يُؤْمَلُ رَدَّهِ وَإِنْ لَمْ يَنْلَهُ ذَلِكَ ذَلِ الْمَطَائِقِ^(٨)
فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي وَمَا كُنْتُ هَكَذَا أَكُونُ وَمَهْمَا قَادَنِي فَهُوَ سَابِقِي
أَخَادِعُهُ إِنَّ الْخِلْدَاعَ دَنِيَّةٌ أَمْ أُعْطِيهِ مِنْ نَفْسِي نَصِيحَةً وَامِقِ

-
- (١) في كتاب صفين والإمامة للسياسة ١٥٨ : « ولا تريد أن تكون » .
(٢) كذا في ١ ، والإمامة والسياسة ، وفي ب . « فتستويا » ، وفي كتاب صفين « أو شك أن تهلك فتشقى فيها » .
(٣) في صفين والإمامة والسياسة : « وأنت غافل » .
(٤) في الإمامة والسياسة : « فإنك به تستميل بنو أمية » .
(٥) كتاب صفين : « ينظرون » .
(٦) في صفين : « وخول التي تجلو » ، والعوائق : جمع عائق ؛ وهي الشابة .
(٧) البوائق : جمع بائقة ؛ وهي الداهية ؛ وفي صفين : « سألني أن أزوره »
(٨) المطابقة : المشى في القيد .

أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحةً لشيخ يخاف الموت في كل شارقٍ^(١)
وقد قال عبد الله قولا تعلقت به النفس إن لم تقطعني عوائقي^(٢)
وخالفه فيه أخوه محمد وإني لصلبُ العود عند الحقائق^(٣)
فقال عبد الله : رحل الشيخ^(٤) . ودعا عمرو غلامه وردان - وكان داهيا ماردا -
فقال : ارحل يا وردان ، ثم قال : اخطأ يا وردان ، اخطأ
يا وردان . فقال له وردان : خلطت أبا عبد الله ! أما إنك إن شئت أنبأتك بما في قلبك ،
قال : هات ويحك ! قال : اعتزكت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىّ معه الآخرة
في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس في
الدنيا عوض من الآخرة ، وأنت^(٥) واقف بينهما ، قال : قاتلك الله ! ما أخطأت ما في
قلبي ، فما ترى يا وردان ؟ قال : أرى أن تقيم في بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت في
عفو دينهم^(٦) ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . قال : الآن لما أشهرت العرب
سيرى إلى معاوية^(٧) ! فارتحل وهو يقول :

يَا قَاتَلَ اللَّهُ وَرْدَانًا وَقَدْ حَتَّه
أَبْدَى لَعَمْرُكَ مَا فِي النَّفْسِ وَرْدَانُ^(٨)
لَمَّا تَعَرَّضَتْ الدُّنْيَا عَرَضَتْ لَهَا
بَحْرَصِ نَفْسِي فِي الْأَطْبَاعِ إِذْ هَانُ^(٩)
نَفْسُ تَعْنِي وَأُخْرَى الْحَرَصُ يُفْلِحُهَا
وَالْمَرْءُ يَا كُلَّ تَبَنَّا وَهُوَ غَرْتَانُ
أَمَّا عَلَى فِدَيْنٍ لَيْسَ بِشَرِّكَهُ
دُنْيَا ، وَذَلِكَ لَهُ دُنْيَا وَسُلْطَانُ

(١) في صفين : « أو أقعد » .

(٢) في صفين : « إن لم يعتقني » .

(٣) الحقائق : ما يجب على المرء حمايته من عرس أو مال .

(٤) في صفين : « ترحل » .

(٥) في صفين : « فأنت » .

(٦) عفو دينهم : أي فضل دينهم .

(٧) في الإمامة والسياسة : « الآن حين شهرتني العرب بمسيرى إلى معاوية » .

(٨) في صفين : « وزحته » . (٩) الإدهان : المصانعة .

فَاخْتَرْتُ مِنْ طَمَعِي دُنْيَا عَلَى بَصَرٍ وَمَا مَعِيَ بِالَّذِي اخْتَارُ بُرْهَانَ
إِنِّي لَأَعْرِفُ مَا فِيهَا وَأُبْصِرُهُ وَفِيَّ أَيْضًا لَمَّا أَهْوَاهُ أَلْوَانُ
لَسَكُنَ نَفْسِي تَحِبُّ الْعَيْشَ فِي شَرَفٍ وَلَيْسَ يَرْضَى بِذَلِكَ الْعَيْشَ إِنْسَانُ
فسارحتي قدم على معاوية ، وعرف حاجة معاوية إليه ، فباعده من نفسه ، وكأيد كل
واحد منهما صاحبه .

فقال له معاوية يوم دخل عليه : أبا عبد الله ، طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها وِرد
ولا صَدَر ، قال : وما ذاك ؟ قال : منها أن محمد بن أبي حذيفة كَسَرَ سِجْنَ مِصْرَ فَخَرَجَ
هو وأصحابه ، وهو من آفات هذا الدين . ومنها أن قيصَرَ زَحَفَ بِجَمَاعَةِ الرُّومِ لِيَقْلِبَ عَلَى
الشَّامِ . ومنها أن علياً نزل السكوفة ، وتَهَيَّأَ لِلْمَسِيرِ إِلَيْنَا .

فقال عمرو : ليس كل ما ذكرت عظيماً ؛ أما ابن أبي حذيفة ، فما يتعاضدكم من رجل
خرج في أشباهه أن تبعث إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به ، وإن قاتل لم يضرك^(١) .
وأما قيصَرَ فأهدله الوصائف وآنية الذهب والفضة ، وسأله الموادة فإنه إليها سريع . وأما عليّ
فلا والله يا معاوية ما يسوى العرب^(٢) بينك وبينه في شيء من الأشياء ، وإن له في
الحرب لحظاً ما هو لأحد من قريش ؛ وإنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه . هكذا في رواية
نصر بن مزاحم عن محمد بن عبيد الله^(٣) .

وروى نصر^(٤) أيضاً عن عمر بن سعد قال : قال معاوية لعمر بن عبد الله ، إنني أدعوك
إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصا المسلمين ، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة ، وفرق

(١) في وقعة صفين : « وإن فاتك لا يضرك » وفي الإمامة والسياسة : « وإن يقتل فلا يضرك » .

(٢) كذا في ١ ، وصفين ، وفي ب : « ما يسوى العربى » .

(٣) وقعة صفين ٣٩ - ٤٠ ، وفي ب : « عبد الله » ، وصوابه من ١ .

(٤) وقعة صفين ٤٢ - ٥٢ .

الجماعة وقطع الرّحم ، فقال عمرو : مَنْ هو ؟ قال : عليّ ، قال : والله يامعاوية ما أنت وعليّ بحملي^(١) بعير ؛ ليس لك^(٢) هِجْرَتُهُ ولا سابقته ، ولا صاحبته ولا جهاده ، ولا فقهه ولا علمه .
^(٣) والله إنّ له مع ذلك لحظّاً في الحرب ليس لأحد غيره ، ولكنّي قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً^(٤) ؛ فما تجعل لي إنّ شأبتك على حربيه ، وأنت تعلم ما فيه من العرر والخطر ؟ قال : حُكْمُكَ ، فقال : مصر طُعْمَةٌ ، فتلكأ عليه معاوية .
 قال نصر : وفي حديث غير عمر بن سعد : فقال له معاوية : يا أبا عبد الله ، إني أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنّك إنّما دخلت في هذا الأمر لقرض الدنيا ، قال عمرو : دَعْنِي عنك ، فقال معاوية : إني لو شئت أن أمثّيك وأخذتُك لعملت ، قال عمرو : لا ، لعمرك الله مامثلي يُخدع ، لأنّا^(٥) أ كَيْسٌ من ذلك ؛ قال معاوية : اذْنُ مني أسارك ، فدنا منه عمرو ليساره ، فعضّ معاوية أذنه ، وقال : هذه خدعة ! هل ترى في البيت أحداً ؟ ليس غيري وغيرك .

قلت : قال شيخنا أبو القاسم البالخيّ رحمه الله تعالى : قول عمرو له : « دَعْنِي عنك » كناية عن الإلحاد ، بل تصرّح به ، أي دَعْ هذا الكلام ؛ لا أصل له ، فإنّ اعتقاد الآخرة ، وأنّها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات .
 وقال رحمه الله تعالى : وما زال عمرو بن العاص مُلْحِداً ، ما تردّد قطّ في الإلحاد والزندقة ، وكان معاوية مثله ، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السّرار المروى ، وأن معاوية عضّ أذن عمرو ؛ أين هذا من سيرة عمر ؟ وأين هذا من أخلاق عليّ عليه السلام وشدته في ذات الله ، وهما مع ذلك يعميانه بالدّعاية !

(١) في كتاب صفين : « بمكي بعير » ، والمكان : عدلان يشدان على جانبي الهودج .

(٢) في صفين : « مالك هِجْرَتُهُ » .

(٣ - ٣) وقعة صفين : « والله إنّ له مع ذلك حداً وجداً ، وحظاً وحظوةً ، وبلاءً من الله حسناً » .

(٤) كذا في ب ، ج ، وفي أ : « لأنّي » .

قال نصر : فأنشأ عمرو يقول :

مُعَاوِيَ لَا أُعْطِيكَ دِينِي وَلَمْ أَنْلِ
[فَإِنْ تُعْطِنِي مِصْرًا فَارْزُبْ بِصَفْقَةٍ
وَمَا الدِّينُ وَالدُّنْيَا سِوَاءٌ وَإِنِّي
وَلَسَكِنِّي أُغْضِي الْجُفُونِ وَإِنِّي
وَأُعْطِيكَ أَمْرًا فِيهِ لِلْمُلْكِ قُوَّةٌ
وَتَمْنَعُنِي مِصْرًا وَلَيْسَتْ بِرَغْبَةٍ
بِهِ مِنْكَ دُنْيَا فَاظْطَرُّنْ كَيْفَ تَضْمَعُ
أَخَذْتَ بِهَا شَيْخًا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ^(١)
لَا أَخْذَ مَا تَعْطِي وَرَأَيْتُ مُقَنَّعُ
لَا أَخْذَعُ نَفْسِي ، وَالْخَادِعُ يُخْذَعُ
وَأَلْتَنِي بِهِ إِنْ زَلَّتِ النَّمْلُ أَصْرَعُ ^(٢)
وَإِنِّي بِذَا الْمَمْنُوعِ قَدْ مَأْلَمْتُ

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : كانت مصر في نفس عمرو بن العاص ، لأنه هو الذي فتحها في سنة تسع عشرة من الهجرة في خلافة عمر ، فكان لعظمها في نفسه وجلالها في صدره ، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا ، لا يستعظم أن يجعلها ثمنًا من دينه ، وهذا معنى قوله :

* وَإِنِّي بِذَا الْمَمْنُوعِ قَدْ مَأْلَمْتُ *

قال نصر : فقال له معاوية : يا أبا عبد الله ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ مِصْرَ مِثْلَ الْعِرَاقِ أَقَالَ : بَلَى ، وَلَكِنَّمَا إِنَّمَا تَكُونُ لِي إِذَا كَانَتْ لَكَ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لَكَ إِذَا غَلَبْتَ عَلَيَّ عَلَى الْعِرَاقِ . قال : وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مِصْرَ بَعَثُوا بِطَاعَتِهِمْ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فلما حضر عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تُشْتَرِيَ عَمْرًا بِمِصْرَ

(١) هذا البيت زيادة من كتاب صفين ، ولم يرد في الأصول .

(٢) في كتاب صفين :

* وَإِنِّي بِهِ إِنْ زَلَّتِ النَّمْلُ أَصْرَعُ *

إن هي صفت لك ! ليتك لا تغلب على الشام . فقال معاوية : يا عتبة ، بت عندنا الليلة ، فلما جئ الليل على عتبة رفع صوته لسمع معاوية ، وقال :

إِنَّمَا الْمَانِعُ سَيْفًا لَمْ يَهْزُ إِنَّمَا مِلَتْ عَلَى خَزٍ وَقَزُ
إِنَّمَا أَنْتَ خُرُوفٌ مَائِلٌ بَيْنَ ضَرْعَيْنِ وَصُوفٍ لَمْ يُجْزُ
أَعْطِ عَمْرًا إِنْ عَمْرًا تَارَكَ دِينَهُ الْيَوْمَ لَدُنْيَا لَمْ تُحْزُ
يَا لَكَ الْخَيْرُ نَخْذُ مِنْ دَرِّهِ شَخْبُهُ الْأَوَّلُ وَابْعِذْ مَا غَرَزُ
وَاسْحَبِ الذَّيْلَ وَبَادِرْ فُوقَهَا (١) وَانْهَرْهَا إِنْ عَمْرًا يَنْهَرْ
أَعْطِهِ مِصْرًا وَزِدْهُ مِثْلَهَا إِنَّمَا مِصْرٌ لِمَنْ عَزَّ فَبِزْ
وَأَتْرُكِ الْحَرَصَ عَلَيْهَا ضَلَّةً وَأَشْدِبِ النَّارَ لِمَقْرُورٍ بِكَزْ (٢)
إِنْ مِصْرًا لِعَلَى أَوْ لَنَا يُغْلَبُ الْيَوْمَ عَلَيْهَا مَنْ تَحْجُزُ

قال : فلما سمع معاوية قول عتبة ، أرسل إلى عمرو ، فأعطاه مصر ، فقال عمرو : لى الله عليك بذلك شاهد؟ قال : نعم ، لك الله على بذلك إن فتح الله علينا الكوفة ، فقال عمرو : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٣) .

فخرج عمرو من عنده ، فقال له ابنه : ما صنعت ؟ قال : أعطانا مصر طعمة ، قالوا : وما مصر فى ملك العرب ! قال : لا أشبع الله بطونكم ! إن لم تشبعكم [مصر] (٤) .
قال : (٥) وكتب معاوية له بمصر كتابه ، وكتب (٥) : « على ألا ينقض شرط طاعة » ، فكتب عمرو : « على ألا ينقض طاعة شرطاً » . فكأيد كل واحد منهما صاحبه .

قلت : قد ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتابه " الكامل " .

(١) الفوق هنا : الطريق الأول .

(٢) الكزاز : داء يأخذ من شدة البرد ، وتعتري منه رعدة .

(٣) سورة القصص ٢٨ .

(٤) من كتاب وقعة صفين .

(٥ - ٥) فى كتاب وقعة صفين : « فأعطاه إياه ، وكتب له كتابا ، وكتب معاوية » .

ولم يفسره^(١)، وتفسيره أن معاوية قال للكاتب: «اكتب على ألا ينقض شرط طاعة»، يريد أخذ إقرار عمرو له أنه قد بايعه على الطاعة ببيعة مطلقة غير مشروطة بشيء، وهذه مكايده له؛ لأنه لو كتب ذلك لكان لمعاوية أن يرجع في إعطائه مصر، ولم يكن لعمرو أن يرجع عن طاعته، ويحتج عليه برجوعه عن إعطائه مصر، لأن مقتضى المشاركة المذكورة، أن طاعة معاوية واجبة عليه مطلقا، سواء أكانت مصر مسماة إليه أم لا.

فلما انتبه عمرو إلى هذه المكيدة منع الكاتب من أن يكتب ذلك، وقال: بل اكتب: «على ألا تنقض طاعة شرطاً»، يريد أخذ إقرار معاوية له بأنه إذا كان أطاعه لا تنقض طاعته إياه ما شرطه عليه من تسليم مصر إليه. وهذا أيضا مكيدة من عمرو لمعاوية، ومنع له من أن يفدر بما أعطاه من مصر.

قال نصر: وكان لعمرو بن العاص عم من بني سهم، أريب^(٢)، فلما جاء عمرو بالكتاب مسرورا عجّب الفتى، وقال: ألا تخبرني يا عمرو، بأي رأى تعيش في قريش! أعطيت دينك وتمنيت دنيا غيرك! أترى أهل مصر - وهم قتلة عثمان - يدفعونها إلى معاوية وعلى حي! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالخزف الذي قدّمه في الكتاب؟ فقال عمرو: يا بن أخى، إن الأمر لله دون على ومعاوية، فقال الفتى:

ألا ياهندُ أختَ بنى زيادِ رُمى عمرو بداهية البلاد^(٣)
رُمى عمرو بأغورَ عبشميٍّ بعيد القعر مخشى السكباد^(٤)
لَهُ خُدَعٌ يَحَارُ الْعَقْلَ مِنْهَا مَزْخَرَةٌ صَوَائِدُ الْفُؤَادِ
فَشَرَطَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْهِ حَرْفًا يَفَادِيهِ بِخُدَعَتِهِ الْمُنَادِي

(١) الكامل ٣ : ٢١٠ - بشرح الموصنى .

(٢) في كتاب صفين : « وكان مع عمرو ابن عم له ، فتى شاب ، وكان داهية حليما » ، وفي كتاب الإمامة والسياسة ١٦٠ « وكان مع عمرو بن العاص ابن أخ له جاءه من مصر » . وهو ما يناسب ما يجيء بعد .

(٣) كتاب صفين : « دهى عمرو » .

(٤) يريد أنه يخشى كيد .

وأثبت مثله عمرو عليه
ألا يا عمرو ما أحرزت مضراً
أبعت الدين بالدنيا خساراً
فلو كنت الغداة أخذت مصراً
وفدت إلى معاوية بن حرب
وأعطيت الذي أعطيت منها
ألم تعرف أبا حسن علياً
عدلت به معاوية بن حرب
ويا بعد الأصابع من سهيل
أتأمن أن تدال على خدب^(١)
ينادي بالنزال وأنت منه
قريب فانظرن من ذا تعادى

فقال عمرو: يابن أخي، لو كنت عند عليّ لوسعني، ولكني الآن عند معاوية^(٢). قال
الفتي: إنك لو لم ترد معاوية لم يردك؛ ولكنك تريد دنياه، وهو يريد دينك. وبلغ
معاوية قول الفتى فطلبه، فهرب فلاحق به على عليه السلام، فحدثه أمره فسر به وقربه.
قال: وغضب مروان وقال: ما بالي لأشترى [كما اشترى عمرو]^(٣)! فقال معاوية:
إنما يشتري الرجال لك. فلما بلغ عليا عليه السلام ما صنع معاوية قال:

يا عجبا لقد سمعت منكرا كذباً على الله يشيب الشعرا
يسترق السمع ويغشى البصر ما كان يرضى أحمد لو أخيرا^(٤)

(١) الحذب: الضخم. وفي صفين: «أن تراه».

(٢) كذا في ج وكتاب صفين، وفي أ، ب: «ولكني الآن عنده».

(٣) تسكلة من كتاب صفين.

(٤) صفين: «لو خيرا».

أن يَقْرِ نُوا وَصِيَّيْهِه وَالْأَبْتَا شَانِي الرِّسُولِ وَاللَّعِينِ الْأَخْزَرَا^(١)
 كِلَاهُمَا فِي جُنْدِهِ قَدْ عَسَكَرَا قَدْ بَاعَ هَذَا دِينَهُ فَأَفْجَرَا
 مَنْ ذَا بَدُنِيَا بِيَعَهُ قَدْ خَسِرَا بَمَلِكٍ مِصْرَ أَنْ أَصَابَ الظُّفْرَا !
 إِلَى إِذَا الْمَوْتُ دَنَا وَحَضَرَ شَمَرْتُ ثَوْبِي وَدَعَوْتُ قُنْبَرَا^(٢)
 قَدَّمْ لَوَائِي لَا تُوَخِّرْ حَذَرَا لَا يَدْفَعُ الْحِذَارُ مَا قَدْ قُدِّرَا
 لَمَّا رَأَيْتُ الْمَوْتَ مَوْتًا أَحْمَرَا عَبَّاتُ هَمْدَانَ وَعَبَّوْا حَيْرَا
 حَتَّى يَمَانٍ يُعْظِمُونَ الْخَطَرَا قِرْنٌ إِذَا نَاطَحَ قِرْنًا كَسَرَا^(٣)
 قُلْ لَابَنِ حَرْبٍ لَا تَدْبُ الْخَمْرَا أَرْوِدُ قَلِيلًا أَبَدٍ مِنْكَ الضُّجْرَا^(٤)
 لَا تَحْسِبْنِي يَا بَنَ هِنْدَ عَمْرَا^(٥) وَسَلْ بِنَا بَدْرًا مَعًا وَخَيْرَا
 يَوْمَ جَعَلْنَاكُمْ بِبَدْرِ جَزَرَا^(٦) لَوْ أَنَّ عِنْدِي يَا بَنَ هِنْدَ جَعْفَرَا
 أَوْ حِمْرَةَ الْقَرَمِ الْهَامِ الْأَزْهَرَا رَأَتْ قَرِيْشَ نَجْمٍ لَيْلٍ ظَهَرَا
 قَالَ نَصْرُ : فَلَمَّا كَتَبَ الْكِتَابَ^(٧) ، قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَمْرُو : مَا تَرَى الْآنَ ؟ قَالَ :
 أَمْضِ الرَّأْيَ الْأَوَّلَ . فَبَعَثَ مَالِكُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْكِنْدِيُّ فِي طَلَبِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حُدَيْفَةَ ، فَأَدْرَكَهُ
 فَقَتَلَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى قَيْصَرَ بِالْهَدَايَا فَوَادَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : مَا تَرَى فِي عَلِيٍّ ؟ قَالَ : [أَرَى فِيهِ

(١) الْأَخْزَرُ : الَّذِي يَنْظُرُ بِمَوْخِرِ عَيْنِهِ .

(٢) قُنْبَرُ : مَوْتِي عَلَى . (٣) يرى الأستاذ جاسم أنها : « قرن » . بالفتح على الحجاز .

(٤) الْحَجَرُ : مَا وَارَاكَ مِنَ الشَّجَرِ وَالْجِبَالِ وَنَحْوِهَا ؛ وَالْدَّبِيبُ : الْمَشْيُ عَلَى هَيْئَةٍ ؛ يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا خَتَلَ صَاحِبَهُ : هُوَ يَدْبُ لَهُ الضَّرَاءَ وَيَعْتَمِدُ لَهُ الْحَجَرُ . وَالْإِرْوَادُ : الْإِمْهَالُ .

(٥) الْعَمْرُ : مَنْ لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ .

(٦) الْجِزْرُ : اللَّحْمُ الَّذِي تَأْكُلُهُ السِّبَاعُ ، وَفِي كِتَابِ صَفِينِ .

* كَانَتْ قَرِيْشٌ يَوْمَ بَدْرِ جَزَرَا *

وَبَعْدَهُ :

* إِذْ وَرَدُوا الْأَمْرَ فَذَمُّوا الصَّدْرَا *

(٧) فِي كِتَابِ صَفِينِ : « لَمَّا بَاتَ عَمْرُو عِنْدَ مَعَاوِيَةَ وَأَصْبَحَ أَعْطَاهُ مِصْرَ طَعْمَةً لَهُ ، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا كِتَابًا » .

خيراً] ^(١)، إنه قد أتاك في طلب البيعة خيرُ أهل العراق، ومن عند خير الناس في أنفس الناس؛ ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة خطر شديد، ورأس أهل الشام سُرحبيل بن السَّمط الكِندي، وهو عدوٌّ لجريز المرسل إليك، فابعث إليه ووطن له ثقاتك، فليُفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل رضا عند سُرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ماتحب، وإن تعلقت بقلب سُرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً.

فكتب إلى سُرحبيل: إن جرير بن عبد الله قدّم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر مفطع، فاقدّم.

ودعا معاوية يزيد بن أسد، وبُسر بن أرطاة، وعمرو بن سفيان، ومخارق بن الحارث الزبيدي، وحزرة بن مالك، وحابس بن سعد الطائي—وهؤلاء رؤوس قحطان واليمن، وكانوا ثقات معاوية وخاصته وبنو عم سُرحبيل بن السَّمط— فأمرهم أن يلقوه ويخبروه أن علياً قتل عثمان. فلما قدم كتاب معاوية على سُرحبيل وهو بحمص، استشار أهل اليمن فاختلقوا عليه، فقام إليه عبد الرحمن بن غنم الأزدي—وهو صاحب معاذ بن جبل وختمه، وكان أقره أهل الشام— فقال: يا سُرحبيل بن السَّمط، إن الله لم يزل يزيدك خيراً منذ هاجرت إلى اليوم، وإنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس؛ وإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم. إنه قد أتني إلى معاوية أن علياً قتل عثمان ^(٢)، ولهذا يريدك، فإن كان قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار، وهم الحكماء على الناس، وإن لم يكن قتله، فعلام تصدق معاوية عليه لا تهلكن نفسك وقومك؛ فإن كرهت أن يذهب بحظها جرير، فسير إلى علي، فبايعه عن ^(٣) شامك وقومك. فأبى سُرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية، فكتب إليه عياض الثمالي— وكان ناسكاً:

(١) من كتاب صفين.

(٢) في كتاب صفين: «إنه قد أتني إلينا قتل عثمان، وأن علياً قتل عثمان».

(٣) صفين: «على شامك وقومك».

يا شَرَحُ يا بن السَّمَطِ إناك بالغُ
وَيَا شُرَحُ إنا الشامُ شامُك ما بها
فإن ابنَ هند ناصبٌ لك خُدعةٌ
فإن نال ما يرجو بنا كان مُلكنا
فلا تَبَغِينَ حَرْبَ العراقِ فإنها
وإن عليًّا خيرٌ من وطى الثرى
له في رِقابِ الناسِ عهدٌ وذِمةٌ
فبايع ولا ترجع على العقبِ كافرًا
ولا تسمعن قولَ الطَّغاةِ فإنهم
وماذا علمَهم أن تطاعنَ دونهم
فإن غلبوا كانوا علينا أئمةً
وإن غلبوا لم يَصُلْ بِالخَطْبِ غيرُنا
يهونُ على عليٍّ لؤيُّ بن غالب
فدعُ عنك عثمان بن عفان إثمًا -
على أى حال كان مصرعُ جنبه

بودّ على ما تريدُ من الأمرِ^(١)
سوالك فدعُ عنك المضللَّ من فيهِ^(٢)
تكونُ علينا مثل راغيةِ البسِكرِ^(٣)
هنيئًا له ، والحربُ قاصمةِ الظهرِ
تحرّم أطهارَ النساءِ من الدُّعْرِ
من الهاشميين المداريكِ للوترِ^(٤)
كعهدِ أبى حفصٍ وعهدِ أبى بكرٍ
أعيدك بالله العزيز من الكفرِ !
يريدون أن يلقوك في تلجةِ البحرِ
عليًّا بأطرافِ المثقفةِ السُّمرِ
وكنا بحمدِ الله مِن وَلَدِ الطُّهرِ
وكان على حَرْبنا آخِرَ الدهرِ
دماء بنى قحطان في ملسكهم تجرى
لك الخير - لا تدري بأنك لا تدري
فلا تسمعن قولَ الأعيورِ أو عمرو

قال : فلما قديمُ شَرَحِيل على معاوية ، أمر الناس أن يلقوه ويعظموه ، فلما

(١) شرح : مرخم شرحبيل .

(٢) صفين : « فدع عنك المضلل » .

(٣) راغية البسِكر ، يريد رغاء البسِكر ، فوضع راغية موضع المصدر ؛ يشير إلى ما كان من رغاء بكر عود ، رغاء نهم فأهاسكوا ، فضربته العرب مثلاً في الشؤم ، وأكثرت فيه . انظر الكامل للمبرد

١ : ٢٢ - بشرح المرصني .

(٤) الوتر : الثأر والدحل .

دخل على معاوية ، تسكّم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا شَرَحَبِيل ، إن جريرَ ابن عبد الله قدّم علينا يدعوننا إلى بَيْعَةِ عليّ ، وعلىّ خير الناس ؛ لولا أنه قتل عثمان بن عفان ؛ وقد حبستُ نفسي عليك ، وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أَرْضَى ما رَضُوا وأَكْرَهُ ما كَرَهُوا .

فقال شَرَحَبِيل : أخرجُ فأنظر . فلقى هؤلاء النفر الموطئون له ، فكلّهم أخبره^(١) أن عليا قتل عثمان ، فرجع مضيا إلى معاوية فقال : يا معاوية ، أرى الناس إلا أنّ عليا قتل عثمان ، والله إن بايعت له انخرجتك من شامنا أو لقتلتك . فقال معاوية : ما كنت لأخالف عليكم ، ما أنا إلا رجل من أهل الشام . قال : فرُدّ هذا الرجل إلى صاحبه إذن . فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته في حرب أهل العراق ، وأن الشام كله مع شرحبيل ، وكتب إلى عليّ عليه السلام ما سنّوره فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

(١) كتاب صفين : « يخبّره » .

(٢٧)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأضل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، فَتَحَّهُ اللَّهُ لِإِخَاصَةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى ، وَدِرْعُ اللَّهِ الْخَصِيئَةِ ، وَجَنَّتُهُ الْوُثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ ، وَشَمَلَهُ أَلْبَاسُ الْبَلَاءِ ، وَذِيَّتْ بِالصَّغَارِ وَالْقِمَاءِ ، وَضَرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ ، وَأَدِيلَ الْحَقِّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ ، وَسِيمَ الْخُسْفِ ، وَمُنِيعَ النَّصَفِ .
أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ : اغْزَوْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزَوْكُمْ ؛ فَوَاللَّهِ مَا غَزَى قَوْمٌ قَطُّ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَوَا كَلْتُمْ وَتَخَذَلْتُمْ ؛ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتُ ، وَمِيدَلَتْ عَلَيْكُمْ الْأَوْطَانُ .

(١) هَذَا أَخُو غَامِدٍ ، قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانٍ الْبَكْرِيَّ ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَاجِدِهَا ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا ، وَقَلَانِدَهَا وَرُعْثَهَا ، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِزْجَاعِ وَالِاسْتِحْرَامِ . ثُمَّ أَنْصَرَفُوا وَافْرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلَا أَرِيقَ لَهُمْ دَمٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ أَمْرًا مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفَا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا !

فَيَا عَجَبًا عَجَبًا ؛ وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ ، وَيَجِيْبُ الْهَمَّ ، مِنْ أَجْيَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ! فَقُبْحَالِكُمْ وَتَرْحَا ، حِينَ صَرْتُمْ غَرَضًا يَرْمَى ، يُفَارُ

عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُون ، وَتُغَرِّوْنَ وَلَا تَغْرُونَ ، وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ ١
فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ : هَذِهِ حَمَارَةُ الْقَيْظِ ، أَمِيلْنَا
يُسْبِخُ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَةُ الْقُرِّ ،
أَمِيلْنَا يَنْسَلِخُ عَنَّا الْبَرْدُ ؛ كُلُّ هَذَا فِرَارًا مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ
وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ ؛ فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ !

يَا أَشْبَاهَ الرُّجَالِ وَلَا رِجَالِ ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ؛ لَوَدِدْتُ
أَنْ لَمْ أَرَكُمُ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً - وَاللَّهِ - جَرَّتْ نَدَمًا وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا . فَأَتَلْتُكُمْ
اللَّهُ ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا ، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظًا ، وَجَرَّ عُنْمُوْنِي نَعَبَ التَّهْمَامِ
أَنْفَاسًا ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَى رَأْيِي بِالْعَصِيَّانِ وَالْخِذْلَانِ ؛ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ : إِنَّ
أَبْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ وَلَسِكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . لِلَّهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ
أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي ! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ ؛ وَهَآنَذَا
قَدْ ذَرَفْتُ عَلَى السُّتُنِ ! وَلَسِكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ !

الشرح :

هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام ؛ قد ذكرها كثير من الناس ، ورواها
أبو العباس المبرّد في أول " الكامل " ، ^(١) وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها
ألفاظاً ، وقال في أولها :

« إنه انتهى إلى علىّ عليه السلام أن خيلاً وردت الأنبار لمعاوية ، فقتلوا عاملاً له

(١) الكامل ١ : ٢٠ ، ٢١ ؛ يرونها عن عبيد الله بن حفص النخعي المعروف بابن عائشة .

يقال له : حَسَنان بن حسان ، فخرج مغضباً يَجُرُّ رداءه^(١) ، حتى أتى النُخَيْلَةَ^(٢) ، واتبعه الناسُ ، فرقى رُبَاوَةً^(٣) من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما بعد فإنَّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله الذلَّ وسِما الخُسْفِ .

وقال في شرح ذلك : قوله : « وسِما الخُسْفِ » ، هكذا حدَّثونا به ، وأظنه « سِمْ الخُسْفِ » ، من قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾^(٤) . وقال : «^(٥) فإنَّ نَصْرَنَا ما سمعناه ، « فسِما الخُسْفِ »^(٥) ، تأويله علامة الخُسْفِ ، قال الله تعالى : ﴿ سِمْيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾^(٦) ، وقال : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِمْيَاهُمْ ﴾^(٧) ، وسِما مقصور ؛ وفي معناه « سِمْمِيا » ممدود ، قال الشاعر^(٨) :

غَلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعَا لَهُ سِمْمِيا لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ

ونحن نقول : إنَّ السماع الذي حكاه أبو العباس غير مرضى ، والصحيح ما تضمَّنه " نهج البلاغة " وهو « سِمْ الخُسْفِ » فعل ما لم يسمَّ فاعله ، و « الخُسْفِ » منصوب ؛ لأنه مفعول ، وتأويله : أُولَى الخُسْفِ وكَلَّفَ إياه ، والخُسْفِ : الذلُّ والمشقة . وأيضاً فإنَّ في " نهج البلاغة " لا يمكن أن يكون إلا كما اخترناه ؛ لأنه بين أفعال متعددة بُنيت للمفعول به ، وهى : « دُيِّثَ » و « ضُرِبَ » و « أُدِيلَ » و « مُنِعَ » ،

(١) في السكامل : « ثوبه » .

(٢) النخيلة : اسم موضع خارج الكوفة .

(٣) الرباوة : اسم لكل ما ارتفع من الأرض ، كالرباوة والربوة والرابية .

(٤) سورة البقرة ٤٩ .

(٥) كذا في الأصول ، وعبارة السكامل فيما لدينا من نسخه : « ومعنى قوله : « سِما الخُسْفِ » ، تأويله علامة ، هذا أصل هذا » .

(٦) سورة الفتح ٢٩ .

(٧) سورة الرحمن ٤١ .

(٨) في زيادات السكامل : « هو ابن عتقاء الفزارى في عميلة الفزارى » ؛ وذكر بعده :

كَأَنَّ الثَّرِيَّا عَلَّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي أَنْفِهِ الشُّعْرَى وَفِي جِيدِهِ الْقَمَرُ

ولا يمكن أن يكون ما بين هذه الأفعال معطوفا عليها إلا مثلاً ، ولا يجوز أن يكون اسماً .

وأما قوله عليه السلام : « وهو لباس التقوى » ، فهو لفظة مأخوذة من الكتاب العزيز ، قال الله سبحانه : ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ (١) .

والجَنَّةُ : ما يُجَنَّتْ به ، أى يستتر ، كالدرع والحِجَّة (٢) .
وتركه رغبة عنه ، أى زهداً فيه ، رغبته عن كذا ، ضد رغبته فى كذا .
ودَيْتٌ بالصغار ، أى ذُلٌّ ، بعير مُدَيْتٌ ، أى مُدَالٌّ ؛ ومنه الدَّيْوُثُ : الذى لا غيرة له ، كأنه قد ذُلَّ حتى صار كذلك .
والصَّغَارُ : الذل والضم .

والقَمَاءُ ؛ بالمد : مصدر قَمُو الرجل قَمَاءً وقَمَاءً ، أى صار قميئاً ، وهو الصغير الذليل ، فأَمَّا قَمَاءٌ ، بفتح الميم فمعناه سَمَنٌ ، ومصدره القُمُو والقُمُوعة .

وروى الراوندى : « ودَيْتٌ بالصغار والقما » ، بالقصر ، وهو غير معروف .
وقوله عليه السلام : « وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ » ، فالإسهاب هاهنا هو ذهاب العقل ؛ ويمكن أن يكون من الإسهاب الذى هو كثرة الكلام ؛ كأنه عوقب بأن يكثركلامه فيما لا فائدة تحته .

قوله : « وأدبِلَ الحق منه بتضييع الجهاد » ، قد يظن ظان (٣) أنه يريد عليه السلام : وأدبِلَ الحق منه بأن أضيع جهاده ؛ كالباءات المتقدمة ، وهى قوله : « ودَيْتٌ بالصغار » ، و « ضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ » . وليس كما ظن ، بل المراد : وأدبِلَ الحق منه

(١) سورة الأعراف ٢٦ . (٢) الحجة : ضرب من الترسة ، وقيل : هى من الجلود خاصة .

(٣) ب ، ج : « فلان » ، وما أثبتته عن ا .

لأجل تصليعه الجهاد ، فالباء هاهنا للسببية ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ جَزَينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ (١) .

والنصف : الإنصاف وعُقر دارهم ، بالضم : أصل دارهم ، والعُقر : الأصل ، ومنه العُقار للنخل ، كأنه أصل المال . وتواكلتم ، من وكلت الأمر إليك ووكلتك إلى ، أى لم يتولّه أحد متّاً ، ولسكن أحال به كلّ واحد على الآخر ، ومنه رجل وركل ، أى عاجر بكل أمره إلى غيره ، وكذلك وكلة .
وتخاذلتم ، من الخذلان .

وشدّت عليكم الغارات : فُرِقت ، وما كان من ذلك متفرّقا نحو إرسال الماء على الوجه دفعة بعد دفعة ، فهو بالشين الممجة ، وما كان إرسالاً غير متفرّق ، فهو بالسين المهملة ؛ ويجوز شنّ الغارة وأشنها .

والمسالح : جمع مسلحة ، وهى كالنفر والمركب ، وفى الحديث : « كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العذيب » (٢) . والمعاهدة : ذات العهد ، وهى الذميمة . والحِجْل : الخِلخال ، ومن هذا قيل للفارس محجّل ، وسُمى القيد حِجْلاً ، لأنّه يكون مكان الخِلخال . ورُعْثها : شُئفوها ، جمع رِعات بكسر الراء ، ورِعات : جمع رَعْثة ، فالأول مثلُ خمار وخمر ، والثانى مثل جَفْنة وجفّان . والقُلْب : جمع قَلْب ، وهو السوار المصمّت . والاسترجاع ، قوله : ﴿ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٣) . والاسترحام : أن تناشده الرحم . وانصرفوا وافرين ، أى تامين ، وفّر الشئ نفسه أى تمّ فهو وافر ، وفُرتُ الشئ ، متعدّ ، أى أتممته .
وفى رواية المبرّد « موفورين » ، قال : من الوفر ، أى لم ينل أحد منهم بأن يُرزأ (٤) فى بدن أو مال .

(١) سورة الأنعام ١٤٦ .

(٢) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٣) سورة البقرة ١٥٦ .

(٤) لم يرزأ ؛ من الرزأ وهو المصيبة .

وفي رواية المبرد أيضا : « فتوا كلمتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا » ، قال : أي رميتهم به وراء ظهوركم ، أي لم تلتفتوا إليه ، يقال في المثل : لا تجعل حاجتي منك بظهر ، أي لا تطرحها غير ناظر إليها ، قال الفرزدق :

تَمِيمُ بْنُ مُرٍّ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بِظَهْرٍ وَلَا بَعِيَا عَلَيْكَ جَوَابُهَا^(١)

والكلم : الجراح . وفي رواية المبرد أيضا : « مات من دون هذا أسفا » ، والأسف : التحسر . وفي رواية المبرد أيضا : « من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم » ، أي من تعاونهم وتظاهروا بهم . وفي رواية المبرد أيضا : « وفشلكم عن حقكم » ، الفشل : الجبن والشكول عن الشيء . فقبحا لكم وترحبا ، دعاء بأن ينجيهم الله عن الخير ، وأن ينجزيهم ويسوءهم . والقرص : الهدف . وسحارة القيقظ ، بتشديد الراء : شدة حره . ويسبخ عذا الحر ، أي يخف ، وفي الحديث أن عائشة أكرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئا ، فقال لها النبي صلى الله عليه وآله : « لَا تُسَبِّخِي عَنْهُ بَدْعَانِكَ » .

وصبارة الشتاء ، بتشديد الراء : شدة برده ، ولم يرو المبرد هذه اللفظة ، وروى : « إذا قلت لكم اغزؤم في الشتاء قلتم هذا أوان قرّ وصير ، وإن قلت لكم اغزؤم في الصيف قلتم هذه سحارة القيقظ أنظرونا ينصرم عذا الحر » . الصر : شدة البرد قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾^(٢) .

ولم يرو المبرد : « حلوم الأطفال » ، وروى عوضها : « ياطغام الأحلام » ، وقال : الطغام : من لا معرفة عنده ، ومنه قولهم : « طغام أهل الشام » .

وربات الحجال : النساء ، [والحجال] جمع حجلة ، وهي بيت يزين بالستور والثياب والأسرة

(١) اللسان ٦ : ١٩٥ وروايته : « تميم بن قيس » ، ورواية الديوان ٩٥ :

تَمِيمُ بْنُ زَيْدٍ لَا تَهُونَنَّ حَاجَتِي لَدَيْكَ ، وَلَا بَعِيَا عَلَيَّ جَوَابُهَا

وبهذه الرواية لا شاهد فيه لهذا الموضع .

(٢) سورة آل عمران ١١٧ .

والسَّدم : الحزن والغیظ . والقَمیح ما يكون فی القُرْحَة من صديدها .
وشحنتم : ملأتم .
والنُّغَب : جمع نَغْبَة وهی الجرعة . والتَّهمام ، بفتح التاء : الهم ، وكذلك
كلّ « تَفْعَال » ، كالترداد ، والتَّكرار ، والتَّجْوال ، إلا التَّبَيّات والتَّلّاء ،
فإنهما بالكسر .

وأنفاساً ، أى جرعة بعد جرعة ، يقال : اكرع فی الإناء نفّسين أو ثلاثة .
وذرفت علی السّتين ، أى زدت . ورواها المبرد : « تَيّفت » .
وروى المبرد فی آخرها : فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال : يا أمير المؤمنين ، إني وأخي
هذا ، كما قال الله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ ^(١) ، فمرنا بأمرك ، فوالله
لنتمهينّ إليه ولو حال بيننا وبينه جحر الفضا وشوك القتاد . فدعا لها بخير وقال : وأين تقعان
مما أريد انتم نزل .

[استطراد بذكر كلام لابن نباتة في الجهاد]

واعلم أنّ التحريضَ على الجهاد والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثرُوا ، وكلّهم
أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فمن جيّد ذلك ما قاله ابنُ نباتة ^(٢) الخطيب :
أيّها الناس ، إلى كم تسمعون الذّكر فلا تعون ، وإلى كم تقرعون بالزّجر فلا تقلعون !
كأنّ أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبكم بها استكبارٌ عن الحفظ ، وعدوّكم يعمل

(١) سورة المائدة ٢٥ .

(٢) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي ؛ كان خطيب حاب ، وبها اجتمع مع أبي
الطيب المنبهي في خدمة سيف الدولة ، وكان سيف الدولة كثير الفزوات ؛ فكثر خطبه في الجهاد ليحض
الناس على نصر سيف الدولة ، توفي سنة ٣٧٤ . ونباتة ، بضم النون وفتح الباء . ابن خلدون ١ :

في دياركم عملَه ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله ، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقّه بخالفتموه ، وهذه البهائم تناضل عن ذِمّارها ، وهذه الطير تموت حمية درن أوكارها ، بلا كتاب أنزل عليها ، ولا رسول أرسل إليها . وأنتم أهل العقول والأفهام ، وأهل الشرائع والأحكام ، تَنِدُّون من عدوكم نديد الإبل ، وتَدِرِّعون له مدارع العجز والفشل ، وأنتم والله أولى بالغزو إليهم ، وأحرى بالمغار عليهم ، لأنكم أمناء الله على كتابه ، والمصدّقون بعقابه وثوابه ، خصّكم الله بالنجدة والبأس ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس ؛ فأين حمية الإيمان ؟ وأين بصيرة الإيقان ؟ وأين الإشفاق من لُهب النيران ؟ وأين الثقة بضمان الرحمن ؟ فقد قال الله عز وجل في القرآن : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾^(١) ؛ فاشتراط عليكم التقوى والصبر ، وضمّن لَكُمْ المعونة والنصر ؛ أفنتهمونه في ضمّانه ! أم تشكّون في عدله وإحسانه ! فسا بقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نقيّة ، ونفوس أبيّة ، وأعمال رضيّة ، ووجوه مُضيّة ؛ وخذوا بعزائم التّشمير ، واكشفوا عن رؤوسكم عار التقصير ، وهبوا نفوسكم لمن هو أمّلكُ بها منكم ، ولا تركنوا إلى الجزع فإنه لا يدفع الموت عنكم ، ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾^(٢) . فالجهاد الجهاد أيها الموقنون ، والظفر الظفر أيها الصابرون ! والجنة الجنة أيها الراغبون ! والنار النار أيها الراهبون ! فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان ، وإنّ مَنْ ناصح الله لبين منزلتين مرغوب فيهما ، مجمّع على تفضيلهما : إما السعادة بالظفر في العاجل ، وإما الفوز بالشهادة في الآجل ؛ وأكره المنزلتين إليكم أعظمهما نعمة

(١) سورة آل عمران ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٦ .

عليكم ، فانصروا الله فإن نصره حُرُزٌ من الهلكات حُرِيز ، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ (١) .

هذا آخر خطبة ابن نُبَّاتة ، فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الإنصاف ، تجدها بالنسبة إليها كمخفّت بالنسبة إلى فحل ، أو كسيفٍ من رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد . وانظر ما عليها من أثر القَوْلِيد وشَيْن التَّسْكَلَفِ وَخِجَاجَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ ؛ ألا ترى إلى خِجَاجَةِ قَوْلِهِ : « كَأَنَّ أَسْمَاعَكُمْ تَمَجَّ وَدَائِعُ الْوَعْظِ ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ بِهَا اسْتِكْبَارٌ عَنْ الْخُلُفِ ! » وكذلك ليس يخفى نزول قوله : « تَنْبِذُونَ مِنْ عَدُوِّكُمْ نَدِيدَ الْإِبْلِ ، وَتَدَّرِعُونَ لَهُ مَدَارِعَ الْعَجْزِ وَالْفُشْلِ » .

وفيها كثير من هذا الجنس ، إذا تأمله الخبير عرفه ، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ألا ترى أن قوله عليه السلام : « أما بعد ، فإنَّ الجهادَ باب من أبواب الجنة » ، قد سرقه ابن نُبَّاتة . فقال : « فإنَّ الجهادَ أثبتُّ قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان ! » وقوله عليه السلام : « من اجتمع هؤلاء على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم » ، سرقه أيضا ، فقال : « صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وَنَدَبَكُمْ الرَّحْمَنُ إِلَى حَقِّهِ فخالقتموه » . وقوله عليه السلام : « قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم . . . » إلى آخره ، سرقه أيضا فقال : « كم تسمعون الذِّكْرَ فَلَا تَعُونُ ! وَتَقَرَّعُونَ بِالزَّجْرِ فَلَا تَقْلَعُونَ ! » وقوله عليه السلام : « حتى شُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ » ، سرقه أيضا وقال : « وعدوّكم يعمل في دياركم عمله ، ويبليغ بتخلفكم عن جهاده أمله » . وأما باقي خطبة ابن نُبَّاتة فمُسْرُوقٌ مِنْ خُطْبِ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ آخَرَ ، سيأتي ذكرها .

واعلم أنى أضرب لك مثلاً تتخذهُ دستوراً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكلام الكتاب والخطباء بعده كابن نباتة والصابي وغيرهما؛ انظر نسبة شعر أبي تمام والبحرّى وأبي نواس ومسلم، إلى شعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى؛ هل إذا تأملت أشعار هؤلاء وأشعار هؤلاء، تجد نفسك حاكمةً بتساوى القبيلين أو بتفضيل أبي نواس وأصحابه عليهم؟ ما أظنّ أنّ ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك ، ولا يقوله إلا مَنْ لا يعرف علم البيان ، وماهية الفصاحة ، وكثمة البلاغة ، وفضيلة المطبوع على المصنوع ، ومزية المتقدم على المتأخر، فإذا أقررت من نفسك بالفرق والفضل ، وعرفت فضل الفاضل ونقص الناقص ، فاعلم أنّ نسبة كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هؤلاء هذه النسبة، بل أظهر، لأنك تجد في شعر امرئ القيس وأصحابه من التعجُّر والكلام الحوشى، واللفظ الغريب المستكره شيئاً كثيراً؛ ولا تجد من ذلك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً ، وأكثر فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك .

فإن شئت أن تزداد استبصاراً، فانظر القرآن العزيز - واعلم أنّ الناس قد اتفقوا على أنه في أعلى طبقات الفصاحة - وتأمله تأملاً شافياً، وانظر إلى ما خصّ به من مزية الفصاحة والبعد عن التعكير والتعقيب^(١) والكلام الحوشى الغريب، وانظر كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّك تجده مشتقاً من ألفاظه، ومقتضياً من معانيه ومذاهبه، ومحدّثاً به حدّوه، ومسلوكة به في منهاجه، فهو وإن لم يكن نظيراً ولا ندّاً، يصلح أن يقال إنه ليس بعده كلام أفصح منه ولا أجزل ، ولا أعلى ولا أنعم ولا أنبل ، إلا أن يكون كلام ابن عمه عليه السلام، وهذا أمر لا يعلمه إلا مَنْ ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر ، بل ولا لانتقاد الذهب ، ولكل صناعة أهل ، ولكل عمل رجال .

ومن خطب ابن نباتة التي يحرّض فيها على الجهاد :

(١) التعكير : التعمق في الكلام والتشديد به ، ومثله التعقيب .

«ألا وإن الجهاد كنزٌ وفر الله منه أقسامكم، وحِرزٌ طَهَّرَ الله به أجسامكم، وعزٌّ أظهرَ الله به إسلامكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فأنفروا رحمكم الله جميعاً وثباتٍ^(١)، وشُفُوا على أعدائكم الفارات، وتمسكوا بعَصَمِ الإقدام ومعاقِلِ الثبات، وأخلصوا في جهادِ عدوكم حقائق النيات، فإنه والله ما غزى قوم في عُقرِ دارهم إلا ذلُّوا، ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلُّوا. واعلموا أنه لا يصلح الجهادُ بغيرِ اجتهاد، كما لا يصلح السفرُ بغيرِ زاد، فقدّموا مجاهدةَ القلوب، قبل مشاهدةِ الجروب، ومغالبةِ الأهواء قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر؛ فإنها من أنفس العدد والذخائر، واعتاضوا من حياة لا بد من فناءها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، وكونوا من أطاع الله وشمر في مرضاته، وسابقوا بالجهاد إلى تملك جنّاته؛ فإن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال، وتشديدُه إنفاق الأموال، وساحتُه زحف الرجال، وطريقه غفمة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال».

فليُنظر الناظر في هذا الكلام، فإنه وإن كان قد أخذ من صناعة البديع بنصيب؛ إلا أنه في حضيض الأرض وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في أَوْج السماء، فإنه لا يفكر لزومه فيه لمالا يلزمه اقتداراً وقوة وكتابة، نحو قوله: «كنز» فإنه بإزاء «حز» و«عز»، وقوله: «مشاهدة» بإزاء قوله: «مجاهدة»، «ومغالبة» بإزاء «محاربة»، و«حدوده» بإزاء «تشديده»، لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كدار مبنية من اللبن والطين، مموّهة الجدران بالنقوش والتصاوير، مزخرفة بالذهب من فوق الجِصّ والإسفيداج^(٢)، بالقياس إلى دار مبنية بالصخر الأصمّ الصلّد، المسبوك بينه عمد الرصاص والنحاس للذاب، وهي مكشوفة غير مموّهة ولا مزخرفة. فإن بين هاتين الدارين بوناً بعيداً، وفرقاً عظيماً. وانظر قوله: «ما غزى قوم في عُقر دارهم إلا ذلُّوا»، كيف تصيح من بين الخطبة صياحاً، وتنادى على نفسها نداءً فصيحاً، وتُعَلِّم سامعها أنها ليست من المعدن

(١) ثبات : جماعة بعد جماعة .

(٢) الإسفيداج : رماد الرصاص .

الذى خرج باقى الكلام منه ، ولا من الخاطر الذى صدر ذلك السجع عنه ، ولعمرك الله لقد تجلت الخطبة وحسنتها وزانتها ، وما مثلها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز يُتمثل بها فى رسالة أو خطبة ، فإنها تكون كاللؤلؤة المضيئة تزهر وتدير ، وتقوم بنفسها وتكتسى الرسالة بها رونقا ، وتكتسب بها ديباجة .

وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التى تكلفها ليوازنها بها ، وهى قوله : « ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلوا » ، فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلف والغثاء ما يقوى عندك صدق ما قلته لك .

على أن فى كلام ابن نُبَّانة فى هذا الفصل ما ليس بجيد ، وهو قوله : « وحرز طهر الله به أجسامكم » فإنه لا يقال فى الحرز : إنه يطهر الأجسام ، ولو قال عوض « طهر » : حصن الله به أجسامكم ، لكان أليق ، لكنه أراد أن يقول : « طهر » ليكون بإزاء « وفر » وإزاء « أظهر » ، فأداه حبُّ التقابل إلى ما ليس بجيد .

[غارة سفيان بن عوف الغامدى على الأنبار]

فأما أخو غامد الذى وردت خيله الأنبار ، فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى ، وغلمد قبيلة من اليمى ، وهى من الأزدي ؛ أزد شنوءة . واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وسُمى غامدا لأنه كان يبين قومه شرًّا فأصلحه وتممدهم بذلك .

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى^(١) فى كتاب « الفرات » ، عن أبى الكنود ، قال : حدثنى سفيان بن عوف الغامدى ، قال : دعانى معاوية ، فقال : إبنى باعثك فى جيش كثيف ، ذى أداة وجلادة ، فالزم لى جانب الفرات ، حتى تمر بهيت^(٢)

(١) إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد الثقفى ؛ من علماء أصبهان ، ذكره أبو نعيم فى تاريخه وقال : كان غالبا فى الرضى ، مات سنة ٢٨٠ هـ . لسان الميزان ١ : ١٠٢ .
(٢) هيت : بلد على الفرات فوق الأنبار .

فقطّطّمها ، فإن وجدت بها جندا فأغِرْ عليهم ؛ وإلا فامضِ حتى تغير على الأنبار ، فإن لم تجد بها جندا فامضِ حتى تُوغِل في المدائن ؛ ثم أقبِل إلى واتق أن تقرُب الكوفة . واعلم أنّك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة ؛ إن هذه الغارات يأسفیان على أهل العراق ترعّب قلوبهم ، وتفرّح كلّ من له فيها هوى منهم ، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر ؛ فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك ، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى ، واحرب الأموال ، فإنّ حرب الأموال شبيهة بالقتل ، وهو أوجع للقلب .

قال : فخرجتُ من عنده فمسكرت ، وقام معاوية في الناس فخطبهم ، فقال : أيّها الناس ، انتدبوا^(١) مع سفيان بن عوف ، فإنه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة فيه أو بكم إن شاء الله . ثم نزل .

قال : فوالذي لا إله غيره ما مرّت ثلاثة حتى خرجت في ستة آلاف ، ثم لُزمت شاطئ الفرات ، فأغذتُ السير حتى أمرّ بهيئت ، فبلغهم أنّي قد غشيتهم فقطعوا الفرات ، فررت بها وما به عَرِيب ،^(٢) كأنّها لم تُحَلِّ قطّ ، فوطئتها حتى أمرّ بصندوداء^(٣) ، ففرّوا فلم ألق بها أحدا ، فامضِ حتى أفتتح الأنبار ، وقد نذروا بي ، فخرج صاحب المسلحة إلىّ ، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلمانا من أهل القرية ، فقلت لهم : أخبروني ، كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام ؟ قالوا : عدّة رجال المسلحة خمسمائة ، ولكنهم قد تبدّدوا ورجعوا إلى الكوفة ؛ ولا ندرى الذي يكون فيها ، قد يكون مائتي رجل ؛ فنزات فكتبتُ أصحابي كتائب ، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة فيقاتلهم والله يصبر لهم ، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة ، فلما رأيتُ ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين ،

(١) انتدبوا : خفوا للقتال .

(٢) عريب : أى ما بها أحد .

(٣) صندوداء : قرية كانت في غربى الفرات فوق الأنبار .

وأتبعتهم الخيل ، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشى ؛ لم يكن شيء حتى تفرقوا ، وقتل صاحبهم في نحو من ثلاثين رجلاً ، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال ؛ ثم انصرفت ، فوالله ما غزوتُ غزاةً كانت أسلمَ ولا أقرَّ للعيون ، ولا أسرَّ للنفوس منها . وبلغني والله أنها أُرعبتِ الناس ، فلما عدت إلى معاوية ؛ حدثته الحديث على وجهه ، فقال : كنتَ عند ظني بك ، لا تنزل في بلد من بلداني إلا قضيتَ فيه مثل ما بقضي فيه أميرُه ، وإن أحببت توليته وتليتكَ ، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دني .

قال : فوالله ما لبثنا إلا يسيراً ، حتى رأيت رجالَ أهلِ العراق يأتوننا على الإبل هُرباً من عسكر علىّ عليه السلام .

قال إبراهيم : كان اسم عامل علىّ عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسان البكري .

وروى إبراهيم عن عبد الله بن قيس ، عن حبيب بن عفيف ، قال : كنتُ مع أشرس بن حسان البكري بالأنبار على مسلحتها ، إذ صَبَحنا سُفَيان بن عَوْفٍ في كتائب تلعبُ الأبصارُ منها ، فهأُونَا والله ، وعلمنا إذ رأينا أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد ، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا ، وإيمُ الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم ؛ حتى كرهونا ، ثم نزل صاحبنا ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ^(١) . ثم قال لنا : مَنْ كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفساً بالموت ، فليخرج عن القرية مادماً نقاتلهم ، فإن قاتلنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب ، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار . ثم نزل في ثلاثين رجلاً ، فهمت بالزول معه ، ثم أبت نفسي ، واستقدم هو وأصحابه ، فقاتلوا حتى قتلوا رحيم الله ، وانصرفنا نحن منهزمين .

قال إبراهيم: وقَدِمَ^(١) عِلْجٌ من أهل الأنبار على علي عليه السلام ، فأخبره الخبر، فصعد المنبر فخطب الناس ، وقال :

إن أخاكم البكرى قد أصيب بالأنبار ، وهو معترّ لا يخاف ما كان ، واختار ما عند الله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم ، فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا .

ثم سكت عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم ، فلم ينبس أحدٌ منهم بكلمة ، فلما رأى صمّهم نزل ، وخرج يمشى راجلاً حتى أتى النخيلة ، والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرافهم ، فقالوا : ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك ، فقال : ما تكفونني ولا تكفون أنفسكم ، فلم يزالوا به حتى صرقوه إلى منزله ، فرجع وهو واجم كئيب ، ودعا سعيد بن قيس الهمداني ، فبعثه من النخيلة في ثمانية آلاف ، وذلك أنه أخبر أن القوم جاءوا في جمع كثير .

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفرات في طلب سفين بن عوف ؛ حتى إذا باغ عانات^(٢) ، سرح أمامه هاني بن الخطاب الهمداني ، فاتبع آثارهم حتى دخل أداني أرض قنسرين وقد فاتوه ، فانصرف .

قال : ولبت علي عليه السلام ، تُرى فيه السكابة والحزن ، حتى قدم عليه سعيد بن قيس ، وكان تلك الأيام عليلاً ، فلم يقوَ على القيام في الناس بما يريد من القول ، فجالس بباب السدة التي تصل إلى المسجد ، ومعه ابنه حسن وحسين عليهما السلام ، وعبد الله بن جعفر ، ودعا سعدا مولاه ، فدفع إليه الكتاب ، وأمره أن يقرأه على الناس ، فقام سعد بحيث يستمع على عليه السلام صوته ، ويسمع ما يردّ الناس عليه ، ثم قرأ هذه الخطبة التي نحن في شرحها .

(١) العِلْج : الرجل من كفار العجم .

(٢) عانات : بلد بين الرقة وهيت قريبة من الأنبار .

وذكر أن القائم إليه ، العارض نفسه عليه جندب بن عفيف الأزدي ، هو وابن أخ له يقال له : عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف .

قال : ثم أمر الحارث الأعور الهمداني ، فنادى في الناس : أين من يشتري نفسه لربه ويبيع ديناه بأخرته ؟ أصبحوا غداً بالرحبة إن شاء الله ، ولا يحضر إلا صادق النية في السير معنا ، والجهاد لعدونا فأصبح وليس بالرحبة إلا دُونَ ثلاثمائة ، فلما عرضهم ، قال : لو كانوا ألفاً كان لي فيهم رأى .

وأثناء قوم يعتذرون ، فقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ ^(١) ، وتحلف المكذّبون ، ومكث أياماً بليداً حزنه شديد السكابة ، ثم جمع الناس فخطبهم فقال : أما بعد ، أيها الناس ، فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر من الأنصار في العرب ، وما كانوا يوم أعطوا رسول الله صلى الله عليه أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين ، قريباً مولدهما ، ماها بأقدم العرب ميلاداً ، ولا بأكثرهم عدداً . فلما آووا النبي صلى الله عليه وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فتحالفت عليهم اليهود ، وغزتهم القبائل قبيلةً بعد قبيلة ، فتجردوا لنصرة دين الله ، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل ، وما بينهم وبين اليهود من الحلف ، ونصبوا لأهل نجد وتيامة وأهل مكة واليمامة ، وأهل الحزن والسهل ، وأقاموا قنات الدين ، وصبروا تحت كحاس الجلال ، حتى دانت العرب لرسول الله صلى الله عليه ، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عز وجل إليه ، وأنتم اليوم في الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان في العرب .

فقسام إليه رجل آدم طوال ، فقال : ما أنت بحمد ، ولا نحن بأولئك الذين

ذكرت ، فقال عليه السلام : أحسن سَمْعاً تحسن إجابة ! انكلمتكم الشواكل ! ما تزيدوني إلا غمّاً ! هل أخبرتكم أتى محمد ، وأنكم الأنصار ! إنما ضربت لكم مثلاً ، وإنما أرجو أن تنبأسوا بهم .

ثم قام رجل آخر ، فقال : ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهرِ وإن . ثم تكلم الناس من كل ناحية ولفظوا ، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته : استبان فقدُ الأشر على أهل العراق ! أشهد لو كان حياً لقلّ اللَغَطُ ، ولعلم كل امرئ ما يقول . فقال على عليه السلام : هيلتكم الهوابل ! أنا أوجبُ عليكم حقاً من الأشر ؛ وهل للأشر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم !

فقام حُجْر بن عدى الكندى وسعيد بن قيس التَّمَدانيّ ، فقالا : لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين ، مُرْنَا بأمرك نتبعه ، فوالله ما نُعْظِمُ جَزَءاً على أموالنا إن نفدت ، ولا على عِشائِرنا إن قُتِلَتْ في طاعتك . فقال : تجهزوا للمسير إلى عدونا .

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه ، قال لهم : أشيروا علىّ برجل صليبي ناصح ، يحشر الناس من السّواد . فقال له سعيد بن قيس : يا أمير المؤمنين ، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب ، معقل بن قيس التميمي ، قال : نعم . ثم دعاه فوجهه ، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام .

(٢٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذْبَرَتْ وَأَذْنَتْ بِوَدَاعٍ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ ^(١) ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ ، وَغَدَا السَّبَّاقَ ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ ، وَالْغَايَةُ النَّارُ .

أَفَلَا تَأْتِبُ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَمِيتِهِ ! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ !
أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامٍ أَمَلٍ ، مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ ؛ فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامٍ أَمَلِهِ قَبْلَ
حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ ، وَلَمْ يَضُرَّهُ أَجَلُهُ . وَمَنْ قَصَرَ فِي أَيَّامٍ أَمَلِهِ قَبْلَ
حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ ، وَضُرَّهُ أَجَلُهُ .

أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرِّغْبَةِ ، كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرِّهْبَةِ .
أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا ، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا .
أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْخَلْقُ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى ، يَجُرُّ بِهِ
الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى .

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّنِّ ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ؛ وَإِنَّ أَخْوَفَ
مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعَ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَخْرُجُونَ
بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَدًا .

قال الرضى رحمه الله :

وَأَقُولُ : إِنَّهُ لَوْ كَانَ كَلَامُ يَأْخُذُ بِالْأَعْنَاقِ إِلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَيَضْطَرُّ إِلَى عَمَلِ الْآخِرَةِ لَسَكَانَ هَذَا الْكَلَامَ . وَكَفَى بِهِ قَاطِعًا لِمَلَائِكَةِ الْأَمَالِ ، وَقَادِحًا زِنَادَ الْإِتْعَاطِ وَالْأَزْدِجَارِ .. وَمَنْ أَعْجَبِهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدَا السَّبَّاقَ ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ » ، فَإِنَّ فِيهِ مَعَ فَخَامَةِ اللَّفْظِ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْمَعْنَى ، وَصَادِقِ التَّمَثِيلِ ، وَوَاقِعِ التَّشْبِيهِ ، سِرًّا عَجِيبًا ، وَمَعْنَى لَطِيفًا ، وَهُوَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ « وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ » ، فَيَخَالَفَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ لِاخْتِلَافِ الْمَعْنَيْنِ ، وَلَمْ يَقُلْ « السَّبَقَةُ النَّارُ » كَمَا قَالَ : « السَّبَقَةُ الْجَنَّةُ » لِأَنَّ الْأَسْبَاقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى أَمْرٍ مَحْبُوبٍ وَغَرَضٍ مَطْلُوبٍ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْجَنَّةِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودًا فِي النَّارِ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا ! فَلَمْ يَجْزُ أَنْ يَقُولَ : « وَالسَّبَقَةُ النَّارُ » بَلْ قَالَ : « وَالْغَايَةُ النَّارُ » ، لِأَنَّ الْغَايَةَ قَدْ بَلَغَتْهَا إِلَيْهَا مَنْ لَا يَسُرُّهُ الْإِسْتِهَاءُ إِلَيْهَا ، وَمَنْ يَسُرُّهُ ذَلِكَ فَصَلَحَ أَنْ يُعَاهَرَ بِهَا عَنِ الْأُمُورِ مَعًا ، فَمَعَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَالْمَصِيرِ وَالْمَعَالِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ ^(١) ، وَلَا يَجُوزُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُقَالَ : فَإِنَّ « سَبَقَتَكُمْ إِلَى النَّارِ » . فَتَأْمَلْ ذَلِكَ قَبَاطِنُهُ عَجِيبٌ ، وَغَوْرُهُ بَعِيدٌ لَطِيفٌ ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَفِي بَعْضِ النُّسخِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى « وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ » ^(٢) « بضم السين ، وَالسَّبَقَةُ عِنْدَهُمْ : اسْمٌ لِمَا يُجْعَلُ لِلْسَّابِقِ ، إِذَا سَبَقَ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرَضٍ ؛ وَالْمَعْنَيَانِ مُتَقَارِبَانِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ جَزَاءً عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ الْمَذْمُومِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ جَزَاءً عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ الْمَحْمُودِ .

(٢) وهى رواية مخطوطة النهج .

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

الشيخ

أذنت : أعلمت . والمضمار ؛ منصوب ، لأنه اسم « إن » . واليوم ظرف ، وموضعه رفع ، لأنه خبر « إن » ، وظرف الزمان يجوز أن يكون خبراً عن الحدث ، والمضمار : وهو الزمان الذي تضرّر فيه الخليل للسباق ، والضمّر : الهزال وخفة اللحم . وإعراب قوله : « وغدا السباق » ؛ على هذا الوجه أيضاً .

ويجوز الرفع في الموضعين على أن تجعلهما خبر « إن » بأنفسهما .
وقوله عليه السلام : « ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه » أخذه ابن نباتة مصالحة^(١) ، فقال في بعض خطبه : « ألا عامل لنفسه قبل حلول رمسه » .

قوله : « ألا فاعملوا في الرغبة » ، يقول : لا ريب أن أحدكم إذا مسّه الضر من مرض شديد ، أو خوف مُقلق ، من عدوّ قاهر ؛ فإنه يكون شديد الإخلاص والعبادة ، وهذه حال من يخاف الفرق في سفينة تتلاعب بها الأمواج ، فهو عليه السلام أمر بأن يكون المكلف عاملاً أيام عدم الخوف ، مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام هذه العوارض .

قوله : « لم أر كالجنة نام طالبها » ؛ يقول : إن من أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام ! ومن أعجب العجائب من يوقن بالنار ، كيف لا يهرب منها وينام ! أي لا ينبغي أن ينام طالب هذه ولا الهارب من هذه .
وقد فسر الرضّي رحمه الله تعالى معنى قوله : « والسبقة الجنة » .

[نبذ من أقوال الصالحين والحكماء]

ونحن نورد في هذا الفصل نكتاً من مواعظ الصالحين يرحمهم الله ، تناسب هذا المأخذ .
فما يؤثر عن أبي حازم الأعرج - كان في أيام بني أمية - قوله لعمر بن عبد العزيز ،
(١) المصالحة عند الشعراء ، أن يأخذ الشاعر بيتاً لغيره لفظاً ومعنى ؛ وهي من أقبح السرقات الشعرية ، من الصلت بمعنى اللبس .

وقد قال له : يا أبا حازم ، إني أخافُ اللهَ مما قد دخلتُ فيه ، فقال : لست أخافُ عليك أن تخافَ ؛ وإنما أخافُ عليك ألا تخافَ .

وقيل له : كيف يكون الناسُ يومَ القيامةِ ؟ قال : أما العاصي فأَبْقَى قَدِيمٌ به على مولاه ، وأما المطيعُ ففَنَاءٌ قَدِيمٌ على أهله .

ومن كلامه : إنما بيني وبين الملوكِ يوم واحد ؛ أما أمسٍ فلا يجدون لذته ، ولا أجد شدته ، وأما غداً فإني وإياهم منه على خطر ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون ! ومن كلامه : إذا تتابعتُ عليك نِعَمُ ربك وأنت تعصيه فأحذرْه .

وقال له سليمان بن عبد الملك : عِظْنِي ، فقال : عَظَّمْ رَبَّكَ أن يراك حيث نَهَاكَ ، أو يفقدك حيث أَمَرَكَ .

وقيل له : ما مالك ؟ قال : شَيْءَانِ لا عُدَمُ بي معهما : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس .

ومن كلامه : عجبا لقوم يعملون لدارٍ يرحلون عنها كلَّ يوم مرحلة ، ويتركون أن يعملوا لدارٍ يرحلون إليها كلَّ يوم مرحلة !

ومن كلامه : إن عوفينا من شرٍّ ما أعطانا ، لم يضرنا فقد ما زُوِيَ عنا .

ومن كلامه : نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوب ، ونحن لا نتوب حتى نموت .

ولما ثَقَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ رأى غسالاَ يلوي بيده ثوباً ، فقال : وددت أني كنت غسالاَ مثل هذا ، أعيش بما أكتسب يوماً فيوماً ؛ فذكرَ ذلك لأبي حازم ، فقال : الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه ، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه .

ومن كلام غيره من الصالحين : دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك

في السكبة ، فكلّمه هشام ، ثم قال له : سَلْ حاجَتَكَ ، قال : معاذ الله أن أسأل في بيت الله غير الله .

وقيل لرابعة القيسية : لو كَلَّتِ أهلك أن يشتروا لك خادما بكفيل مؤنة بيتك ! قالت : إنّي لأستحي أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها ، فكيف مَنْ لا يملكها ! وقال بكر بن عبد الله : أطفئوا نارَ الغضب بذكر نار جهنم .

عامر بن عبد القيس : الدنيا والدة للموت ، ناقضة للمبرم ، مرتجعة للعطية ، وكلّ مَنْ فيها يجرى إلى مالا يدرى ، وكلّ مستقرّ فيها غير راضٍ بها ؛ وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار .

باع عتبة بن عبد الله بن مسعود أرضاً له بثمانين ألفاً ، فتصدّق بها ، فقيل له : لو جعلتَ هذا المال أو بفضه ذُخْراً لولدك ! قال : بل أجعل هذا المال ذُخْراً لى ، وأجعل الله تعالى ذُخْراً لولدى .

رأى إياس بن قتادة شيبَةً في لحيتِهِ ، فقال : أرى الموت يطلبُنِي ، وأراني لا أفوته . فلزم بيته وترك الاكتساب . فقال له أهله : تموت هُزَلاً أقال : لأنّ أموتَ مؤمناً مهزولاً أحبُّ إلىّ من أعيش مُنافقاً سميماً .

بكر بن عبد الله المزنيّ : ما الدنيا ليت شعري ! أمّا ما مَضَى منها فحُلمٌ ، وأمّا ما بقى فأمانى !

مُورِق العجليّ : خَيْرٌ مِنَ العُجْبِ بالطاعة ألا تأتي بالطاعة .

ومن كلامه : ضاحِكٌ معترف بذنبه ، خير من باكٍ مُدِلٍّ على ربه .

ومن كلامه : أوحى الله إلى الدنيا : مَنْ خَدَمَنِي فَاخْدُمِيهِ ، ومن خَدَمَكَ فاستخدميه .

قيل لرايعة : هل علمتِ عملاتين أنه يُقبل منك ؟ قالت : إن كان يخوفني أن يُردَّ عليّ .

نظر حبيب إلى مالك بن دينار ، وهو يقسم صدقته علانية ، فقال : يا أخى ، إن الكنوز لتُستتر ، فما بال هذا يجهرُ به !

قال عمرو بن عُبيد المنصور : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذى أصبح اليوم فى يدك لو كان مما يبقى على الناس لبقى فى يد مَنْ كان قبلك ، ولم يصِرْ إليك ، فاحذَرْ ليلة تمخض يوم لا ترى بعده إلا يوم القيامة . فبكى المنصور ، وقال : يا أبا عثمان ، سل حاجة ، قال : حاجتى ألا تعطينى حتى أسألك ، ولا تدعنى حتى أجيئك ، قال : إذن لا نلتقى أبدا ، قال : فذاك أريد .

كان يقال : الدنيا جاهلة ، ومن جهلها ، أنها لا تعطى أحداً ما يستحقه ؛ إما أن تزيدَه ، وإما أن تنقصَه .

قيل لخالد بن صفوان : مَنْ أبلغُ الناس ؟ قال : الحسن ، لقوله : فضح الموتُ الدنيا . قيل ليحضر الزهاد : كيف سُخط نفسك على الدنيا ؟ قال : أيقنت أنى خارج منها كرها ، فأحببت أن أخرج منها طوعا .

مرَّ إبراهيم بن آدم بباب أبى جعفر المنصور ، فنظر السلاح والحرس ، فقال : المريب خائف .

قيل لزاهد : ما أصبرك على الوحدة ! قال ، كلاًّ أنا أجالسُ ربّى ، إذا شئت أن يناجينى قرأت كتابه ، وإذا شئت أن أناجيه صليت .

كان يقال : خف الله لقدرته عليك ، واستح منه لقربه منك .

قال الرشيد^(١) للفضيل بن عياض : ما زهدك ! قال : أنت يهاون^٢ أزهد مني ، لأنني زهدت في دنيا فانية ، وزهدت في آخرة باقية .

وقال الفضيل : ياربّي ، إني لأستحي أن أقول : توكلت عليك ؛ لو توكلت عليك ما خفت إلا منك ، ولا رجوت إلا إياك .

عوتب بعض الزهاد على كثرة التصديق بماله ، فقال : لو أراد رجل أن ينتقل من دار إلى دار ، ما أظنّه كان يترك في الدار الأولى شيئاً !

قال بعض الملوك لبعض الزهاد : مالك لا تغشى بابي وأنت عبدي ! قال : لو علمت أيها الملك ، لعلمت أنك عبد عبدي ، لأنني أملك الهوى والهوى يملكك .

دخل متظلم على سليمان بن عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكر يوم الأذان ، قال : وما يوم الأذان ؟ قال : اليوم الذي قال تعالى فيه : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) ، فبكى سليمان وأزال ظلامته .

سئل الفضيل بن عياض عن الزهد ، فقال : يجمعه حرفان في كتاب الله : ﴿ لِسَكَّيَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمُ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^(٤) .

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرشيد : ما يمرُّ يومٌ من نعيمك إلا ويمرُّ يوم من بؤس ، وكلاهما إلى نفاذ .

قيس لحاتم الأصم : علام بنيت أمرك ؟ قال : على أربع خصال : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فلم أهتم به ، وعلمت أن عملي لا يعمل به غيري فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنني بعين الله في كلِّ حال فاستحييت منه .

(١) ب : « قال بعض الملوك » ، وما أثبتته من أ ، ج .

(٢) سورة الأعراف ٤٤ .

(٣) سورة الحديد ٢٣ .

نظر بعضُ الصالحين إلى رجل يفعُش في قوله ، فقال : يا هذا إنما تُتملى على حافظيك كتاباً إلى ربك ، فانظر ماتودعه .
كان يقال : مثلُ الدنيا والآخرة مثل ضرتين لبعلٍ واحد ، إن أَرْضى هذه أسخط الأخرى .

قيل لبعضهم : ما مثَلُ الدنيا ؟ قال : هي أقلُّ من أن يكون لها مثَل .
دخل لصٌّ على بعض الزهاد الصالحين ، فلم يرَ في داره شيئاً ، فقال له : يا هذا ، أين متاعك ؟ قال : حوَّلتُه إلى الدار الأخرى .
قيل للربيع بن خيثم : ياربِّيعُ ، ما تراك تَذُمُّ أحداً ؟ فقال : ما أنا عن نفسي براض ، فأُتَحَوَّلُ مِنْ دَمِي إِلَى دَمِ النَّاسِ ؛ إِنَّ النَّاسَ خَافُوا اللَّهَ عَلَى ذُنُوبِ الْعِبَادِ وَأَمْنُوهُ عَلَى ذُنُوبِهِمْ .

قال عيسى بن موسى لأبي شذبة القاضي : لم لا تأتينا ؟ قال : إن قَرَّبْتَنِي فَمَتَّعْتَنِي ، وَإِنْ أَقْصَيْتَنِي أَحْزَنْتَنِي ، وليس عندي ما أخافك عليه ، ولا عندك ما أرجوك له .
من كلام بعض الزهاد : تأمَّلْ ذا الغنى ، ما أَشَدَّ نَصَبَهُ ، وأَقْلَ راحته ، وأخسَّ من ماله حظُّه ، وأشدَّ من الأيام حذرُه ! هو بين سلطانٍ يَهْضُمُه ، وعدوٍّ يَبْغِي عليه ، وحقوقٍ تلزمه ، وأكفاءٍ يحسدونه ، وولدٍ يودُّ فراقَه ، قد بعث عليه غناه من سلطانه العنت ، ومن أكَفائِهِ الحسد ، ومن أعدائه البغى ، ومن ذوى الحقوق الدَمَ ، ومن الولد الملالة .
ومن كلام سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ : يا ابن آدم ، جوارحك سلاحُ الله عليك ، بأيِّها شاء قَتَلَكَ .

ميمون بن مهران في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) ،
قال : إنها تمعزية للمظلوم ، ووعيد للظالم .

دخل عبد الوارث بن سعيد على مريضٍ يعود ، فقال له : ما نمتُ منذ أربعين ليلة ، فقال : يا هذا ، أحصيت لياليَ البلاء ، فهل أحصيت ليالي الرخاء !
بعضهم : وأعجباه لمن يفرح بالدنيا ، فإنما هي عقوبة ذنب !
ابن السماك : خَفِ الله حَتَّى كَأَنَّكَ لَمْ تُطْعَمْ قَطَّ ، وَارْجُهُ حَتَّى كَأَنَّكَ لَمْ تَعْصِهِ قَطَّ .
بعضهم : العلماء أطباء هذا الخلق ، والدنيا داء هذا الخلق ؛ فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره !

قيل لـ محمد بن واسع : فلان زاهد ، قال : وما قَدَّرَ الدنيا حتى يُحَمَّدَ مَنْ يزهد فيها ؟
رُئِيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ واقفا بين مقبرة ومزبلة ، فقيل له : ما أوقفك ؟ قال : أنا بين كنزَيْن من كنوز الدنيا فيهما عبرة : هذا كنز الأموال ، وهذا كنز الرجال .
قيل لبعضهم : أتعبت نفسك ؛ فقال : راحتها أطلب .

دخل الإسكندرُ مدينةَ فتحها ، فسأل عَمَّنْ بَقِيَ من أولاد الملوك بها ، فقيل : رجل يسكن المقابر ، فدعا به ، فقال : ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر ؟ فقال : أحببت أن أُمَيِّزَ بين عظام الملوك ، وعظام عبيدهم ، فوجدتها سواء . فقال : هل لك أن تتبعني فأحيي شرفك وشرف آبائك ، إن كانت لك همة ! قال : همتي عظيمة ، قال : وما همتك ؟ قال : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم معه ، وغنى لا فقر معه ، وسرور لا مكروه معه ، فقال : ليس هذا عندي ، قال : فدعني ألتمسه ممن هو عنده .

مات ابنُ عمر بن ذر ، فقال : لقد شغلني الحزنُ لك يا بنيَّ عن الحزنِ عليك .
كان يقال : مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنَالُ مَا عَنْده إِلَّا بِتَرْكِهَا .

ومن كلام عبد الله بن شداد : أرى دواعي الموت لا تقنع ، وأرى مَنْ مَضَى لا يرجع ،

فلا تزهدين في معروف ، فإن الدهر ذو صروف . كم من راغب قد كان مرغوباً إليه ! والزمان ذو ألوان ، من يصحب الزمان ير ألوان ، وإن غلبت يوماً على المال فلا تغلبين على الحيلة على كل حال ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالا ، أقل ما تكون في الباطن مآلاً .
 ، كان يقال : إن مما يعجل الله تعالى عقوبته : الأمانة تئخان ، والإحسان يسكفر ،
 والرحم تقطع ، والبنى على الناس .

الربيع بن خيثم : لو كانت الذنوب تفوح روائحها لم يجلس أحد إلى أحد .
 قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ قال : أسفاً على أمسي ، كارهاً ليومي ، متهمياً لغدي .
 وقيل لآخر : لم تركت الدنيا ؟ قال : أنفت من قليلها ، وأنفت من كثيرها . وهذا كما قال بعضهم ، وقد قيل له : لم لا تقول الشعر ؟ قال . ياباني جيبه ، وآبى رديته .
 بعض الصالحين : لو أنزل الله تعالى كتاباً : « إني معذب رجلاً واحداً » ، خفت أن أكونه ، أو إنه راحم رجلاً واحداً ، أرجو أن أكونه .
 مطرف بن الشخير : خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحفحة^(١) . وهذا الكلام قد روى مرفوعاً .

يحيى بن معاذ : إن الله عليك نعمتين : في السراء التذكّر ، وفي الضراء التصبر ؛ فكُن في السراء عبداً شكوراً ، وفي الضراء حراً صبوراً .
 دخل ابن السماك على الرشيد ، فقال له : عطني ، ثم دعا بماء ليشر به ، فقال له : ناشدتك الله ؛ لو منعك الله من شربه ما كنت فاعلاً ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكي . قال : فاشربه ، فلما شرب ، قال : ناشدتك الله ؛ لو منعك الله من خروجه ما كنت فاعلاً ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكي ، قال : إن ملكاً يُفتدى به شربة ماء ، تخلق ألاً ينافس عليه .
 قال المنصور لعمر بن عبيد رحمه الله تعالى : عطني ، قال : بما رأيت أم بما سمعت ؟

(١) الحفحة : أرفع السير وأتعبه للظهر .

قال : بما رأيت . قال : رأيتُ عمر بن عبد العزيز ، وقد مات ، خلف أحد عشر ابنًا ، وبلغت تركته سبعة عشر دينارًا ، كُفّن منها بخمسة دنانير ، واشترى موضع قبره بدينارين ، وأصاب كل واحد من ولده دون الدينار . ثم رأيت هشام بن عبد الملك ، وقد مات وخلف عشرة ذكور ، فأصاب كل واحد من ولده ألف ألف دينار . ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز ، قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من ولد هشام ، يسأل الناس ليتصدقوا عليه .

حسان بن أبي سنان : ما شيء أهون من ورع ؛ إذا رابك شيء فدعه .

مورق العجليّ : لقد سألت الله حاجة أربعين سنة ، ما قضاها ولا يؤت منها ، قيل : وما هي ؟ قال : ترك ما لا يعني .

قتادة : إنّ الله يُعطي العبد على نية الآخرة ما يسأله من الدنيا ، ولا يعطيه على نية الدنيا إلا الدنيا .

من كلام محمد بن واسع : ليس في النار عذاب أشدّ على أهلها من علمهم بأنه ليس لكرهم تنفيس ، ولا لضيقهم ترفيه ، ولا لعذابهم غاية ؛ وليس في الجنة نعيم أبلغ من علم أهلها بأن ذلك الملك لا يزول عنهم .

قال بعض الملوك لبعض الزهاد : اذم لي الدنيا ، قال : أيها الملك ، هي الآخذة لما تُعطى ، المورثة بعد ذلك الدم ، السالبة ما تكسو ، المورثة بعد ذلك الفسوح ، تسد بالأراذل مكان الأفاضل ، وبالعجزة مكان الحزمة ، تجد في كل من كل خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا ، تُسكن دار كل قرن قرنا ، وتطعم سُور كل قوم قوما .

ومن كلام الحجاج - وكان مع غشمه وإلحاده واعظا بليغا مفوها - خطب فقال : اللهم أرني النغي غيّا فأنجبه ، وأرني الهدى هدى فأتبعه ، ولا تسكنني إلى نفسي فأضلّ

ضلالا بعيدا ؛ والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه ، ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إلى الجمعة ، فجلست قريبا من المنبر ، فصعد الحجاج ، فسمعتة يقول : امرو زور عمله ، امرو حاسب نفسه ، امرو فسكر فيما يقرؤه في صحيفته ، ويراه في ميزانه ، امرو كان عند قلبه زاجر ، وعند همه أمر ، امرو أخذ بعنان قلبه ، كما يأخذ الرجل بخطام جملة ، فإن قاده إلى طاعة الله تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفه ؛ إننا والله ما خلقنا للفناء ؛ وإنما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وخطب يوما^(١) ، فقال : إن الله أمرنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدنيا ؛ فليته كفانا مئونة الآخرة ، وأمرنا بطلب الدنيا . فقال الحسن : ضالة المؤمن خرجت من قلب المنافق .

ومن الكلام المنسوب إليه - وأكثر الناس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام : أيها الناس ، اقدعوا هذه الأنفس ؛ فإنها أسأل شيء إذا أعطيت ، وأبخل شيء إذا سئلت ، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاما وزماما ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعطفها بزمامها عن معصية الله ؛ فإني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : إن امرأ أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، ويستغفر من ذنبه ، ويفكر في معاده ، لجدير أن يطول حزنه ، ويتضاعف أسفه . إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتبت عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ؛ فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل .

(١) أى الحجاج .

ونقلت من "أمالى" ، أبى أحمد العسكرى رحمه الله تعالى ؛ قال : خطب الحجاج يوماً ، فقال : أيها الناس ، قد أصبحتم في أجل منقوص ، وعمل محفوظ . ربّ دائب مُضَيِّعٌ وساع لغيره . والموت في أعقابكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، وممّا في أيديكم لما بين أيديكم ، فكان ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكان الأموات لم يكونوا أحياء ؛ وكلّ ما تروّنه فإنّه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوك الأولون ! أين الجبابرة المتكبرون ! المحاسبُ الله ، والصّراط منصوب ، وجهنم تزفرُ وتوقّد ، وأهل الجنة يَنعمون ، هم في روضة يُحَبَّرُونَ ، جعلنا الله وإياكم من الذين ، ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (١) .

قال : فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول : ألا تمجّبون من هذا الفاجر ! يرقي عتبات المنبر فيتمكّم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في فعله !

[استطراد بلاغى في الكلام على المقابلة]

وأما ما ذكره الرضى رحمه الله تعالى من المقابلة بين السبقة والغاية ، فسكتة جيّدة من علم البيان ؛ ونحن نذكر فيها أبحاثاً نافعة ، فنقول :

إمّا أن يُقابلَ الشئُ ضدّه أو ما ليس بضدّه .

فالأول كالسواد والبياض ؛ وهو قسمان :

أحدهما : مقابلته في اللفظ والمعنى .

(١) سورة الفرقان ٧٣ .

والثانى : مقابله فى المعنى لا فى اللفظ .

أما الأول ، فكقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ ^(١) ، فالضحك ضد البكاء ، والقليل ضد الكثير . وكذلك قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(٢) . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » . ومن كلام المؤمنين عليه السلام لعثمان : إن الحق ثقيل مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ؛ وأنت رجل إن صدقت سخطت ، وإن كذبت رضىت . وكذلك قوله عليه السلام لما قالت الخوارج : لا حكم إلا لله : « كلمة حق أريد بها باطل » . وقال الحجاج لسعيد بن جبير لما أراد قتله : ما اسمك ؟ فقال : سعيد بن جبير ، فقال : بل شقي بن كسير .

وقال ابن الأثير فى كتابه المسمى بـ " المثل السائر " ، : إن هذا النوع من المقابلة غير مختص بلغة العرب ، فإنه لما مات قباز أحد ملوك الفرس ، قال وزيره : حرر كفا بسكونه .

وفى أول كتاب الفصول لبقرط فى الطب : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان ^(٣) .

قلت : أى حاجة به إلى هذا التكلف ! وهل هذه الدعوى من الأمور التى يجوز أن يعترى الشك والشبهة فيها ، لىأتى بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتج بها أليس كل قبيلة وكل أمة لها لغة تختص بها ! أليس الألفاظ دلالات على مافى الأنفس

(١) سورة التوبة ٨٢ .

(٢) سورة الحديد ٢٣ .

(٣) المثل السائر ٢ : ٢٨٠ ، من فصل عقده للتناسب بين المعانى .

من المعاني ! فإذا خطر في النفس كلام يتضمن أمرين ضدّين فلا بد لصاحب ذلك الخاطر - سواء أكان عربياً أم فارسياً أم زنجياً أم حبشياً - أن ينطق بلفظ يدل على تلك المعاني المتضادة ، وهذا أمر يعمّ العقلاء كلّهم ؛ على أن تلك اللفظة التي قالها ، ما قيلت في موت قبّاذ ، وإنما قيلت في موت الإسكندر ، لما تكلمت الحكماء وهم حول تابوته بما تكلموا به من الحكم .

ومما جاء من هذا القسم من المقابلة في الكتاب العزيز قوله تعالى في صفة الواقعة : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾^(١) ؛ لأنها تخفض العاصين ، وترفع المطيعين . وقوله تعالى : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِأُتُونُهُ فِيهِ الرِّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾^(٢) . وقوله : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٣) . ومن هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار : « إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْقَرَعِ وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ » .

ومما جاء من ذلك في الشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير :
بَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نَهْيٍ حَيْرِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ^(٤)
وقال آخر :
فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُذْبِرٌ^(٥)

(١) سورة الواقعة ٣ .

(٢) سورة الحديد ١٣ .

(٣) سورة المائدة ٥٤ .

(٤) ديوانه : ٤٥ ، وروايته : « لى نهاق حيرهم » .

(٥) في المثل السائر ٢ : ٢٨٣ من غير نسبة .

وقال أبو تمام :

ما إن تَرَى الأَحْسَابَ بَيْضًا وَضَحًّا إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَنَايَا سُودًا ^(١)
[وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا] ^(٢) :

شَرَفٌ عَلَى أَوْلَى الزَّمَانِ وَإِنَّمَا خَلَقُ الْمَنَاسِبِ مَا يَكُونُ جَسَدِيدًا ^(٣)
وأما القسم الثاني من القسم الأول ؛ وهو مقابلة الشيء بضده بالمعنى لا باللفظ ،
فكقول المتنمى السكندري :

لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنَى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَا أَكْلَفُهُمْ رِفْدًا ^(٤)
فقوله : « إن تتابع لي غنى » في قوة قوله : « إن كثر مالي » ، والكثرة ضد القلة ،
فهو إذن مقابل بالمعنى لا باللفظ بعينه .

ومن هذا الباب قول البحتري :

تَقْيِضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ النَّوَى وَيَسْرِي إِلَى الشَّوْقِ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ ^(٥)
فقوله : « لا أعلم » ليس ضدًا لقوله : « أعلم » ؛ لكنه نقیض له ؛ وفي قوة قوله :
« أجهل » ، والجهل ضد العلم .

ومن لطيف ما وقعت المقابلة به من هذا النوع قول أبي تمام :

مَهْأَ الْوُخْشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ قَنَا الْخَطُّ إِلَّا أَنْ تِلْكَ ذَوَابِلُ ^(٦)

(١) ديوانه ١ : ٤٢٢ .

(٢) تكملة من كتاب المثل السائر .

(٣) ديوانه ١ : ٤١٩ .

(٤) ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ٢ : ١١٨٠ .

(٥) ديوانه ٢ : ٢٢٩ .

(٦) ديوانه ٣ : ١١٦ ، قال الصولي في شرحه يقول : « هن كبقر الوحش في تهادين وحسن عيونهن ؛
وهن كفنا الخط في القد ، إلا أن القنا ذوابل ؛ وهن طراء . وقيل للقنا: ذوابل ؛ لأنها تلين عند الطعن
فلا تنكسر » .

فقابل بين « هاتا » وبين « تلك » ، وهى مقابلة معنوية لا لفظية ؛ لأن « هاتا » للحاضرة ، و « تلك » للغائبة ، والحضور ضد الغيبة .

وأما مقابلة الشئ لما ليس بضدّه ، فإمّا أن يكون مثلاً أو مخالفاً .

والأوّل على ضربين : مقابلة المفرد بالمفرد ، ومقابلة الجملة بالجملة .

مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾^(١) ، وقوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا نَا مَكَرًّا ﴾^(٢) ، هكذا قال نصر الله ابن الأثير^(٣) .

قال : وهذا مراعى في القرآن الكريم إذا كان جواباً كما تقدم من الآتين ، وكقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٤) ، وقوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾^(٥) .

قال : وقد كان يجوز أن يقول : « من كفر فعليه ذنبه » ، لكنّ الأحسن هو إعادة اللفظ ، فأما إذا كان غير جواب لم تلزم فيه هذه المراجعة اللفظية ، بل قد تقابل اللفظة بلفظة تفيد معناها ؛ وإن لم تكن هى بعينها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَوَفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾^(٦) ، فقال : « يفعلون » ولم يقل « يعملون » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾^(٧) ، ولم يقل : « قالوا لا تفزع » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٨) ، ولم يقل : « كنتم تخوضون وتلعبون » .

(١) سورة الحشر ١٩ .

(٣) المثل السائر ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٥) سورة الروم ٤٤ .

(٧) سورة ص ٢٢ .

(٢) سورة النمل ٥٠ .

(٤) سورة الشورى ٤٠ .

(٦) سورة الزمر ٧٠ .

(٨) سورة التوبة ٦٥ .

قال : ونحو ذلك من الأبيات الشعرية قول أبي تمام :

بَسَطَ الرَّجَاءُ لَنَا بِرَغْمِ نَوَائِبٍ كَثُرَتْ بَيْنَ مَصَارِعِ الْأَمَالِ^(١)

فقال : « الآمال » عوض « الرجاء » ، قال أبو الطيب :

إِنِّي لِأَعْلَمُ وَاللَّيْبُ خَبِيرُ أَنَّ الْحَيَاةَ - وَإِنْ حَرَصْتَ - غُرُورُ^(٢)

فقال : « خبير » ولم يقل : « عليم » .

قال : وإنما حسن ذلك ، لأنه ليس بجواب ؛ وإنما هو كلام مبتدأ .

قلت : الصحيح أن هذه الآيات ، وهي قوله تعالى : ﴿ تَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وما شابهها ليست من باب المقابلة التي نحن في ذكرها ، وإنما نوع آخر ؛ ولو سُميت : الملائلة أو المكافاة لكان أولى ؛ والدليل على ذلك أن هذا الرجل حدد المقابلة في أول الباب الذي ذكر هذا البحث فيه ، فقال : إنها ضد التجنيس ؛ لأن التجنيس أن يكون اللفظ واحداً مختلف المعنى ؛ وهذه لابد أن تعضمن معنيين ضدين ، وإن كان التضاد مأخوذاً في حدّها ، فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة ، وكانت نوعاً آخر .

وأيضاً فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًّا وَمَكْرُؤًا مَكْرًّا ﴾ ليس من سلك الآيات الأخرى ؛ لأنه بالواو والآيات الأخرى ، بالفاء ، والفاء جواب ، والواو ليست بجواب .

وأيضاً ، فإننا إذا تأملنا القرآن العزيز لم نجد ما ذكره هذا الرجل مطرداً ، قال تعالى :

﴿ أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَىٰ ۖ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّقَ ۖ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَى ۖ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۖ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۖ ﴾^(٣) ، فلم يقل في الثانية : « وأما من جاءك يسعى وهو فقير » .

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۖ وَأَمَّا مَنْ

(١) ديوانه ٣ : ١٥١ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٢٨ .

(٣) سورة عبس ٥ - ١٠ .

بِخَلٍّ وَأُسْتَعْنَى * وَكَذَّبَ بِإِلْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١﴾ ، فقابل بين «أعطى» و«بخل» ولم يقابل بين «اتقى» و«استغنى» ، ومثل هذا في القرآن العزيز كثير ؛ وأكثَر من الكثير .

وقد بان الآن أن التقسيم الأول فاسد، وأنه لا مقابلة إلا بين الأضداد وما يجرى مجراها . وأما مقابلة الجملة بالجملة في تقابل المتماثلين ، فإنه إذا كانت إحداها في معنى الأخرى وقعت المقابلة ؛ والأغلب أن تقابل الجملة الماضية بالماضية ، والمستقبلية بالمستقبلية . وقد تقابل الجملة الماضية بالمستقبلية ؛ فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَى رَبِّي ﴾ (٢) ، فإنّ هذا تقابل من جهة المعنى ؛ لأنه لو كان من جهة اللفظ لقال : « وإن اهتديت فإِنَّمَا اهتدى لها » .

ووجه التقابل المعنوي ، هو أن كل ما على النفس فهو بها ، أعني كل ما هو عايتها وبالّ وضرر فهو منها وبسببها ؛ لأنها الأمارة بالسوء ، وكل ما لها مما ينفعها فهو بهداية ربّها وتوفيقه لها .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ (٣) ، فإنه لم يرع التقابل اللفظي ، ولو راعاه لقال : والنهار ليصبروا فيه ، وإِنَّمَا المراعاة لجانب المعنى ؛ لأنّ معنى « مبصرا » ليصبروا فيه طرق التقلب في الحاجات .

وأما مقابلة المخالف ؛ فهو على وجهين :

أحدهما : أن يكون بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقابل ، كقول القائل :
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ الشُّؤِّ إِحْسَانًا (٤)

(١) سورة الليل ٥ - ١٠ .

(٢) سورة سبأ ٥٠ .

(٣) سورة النمل ٨٦ .

(٤) لأنيف بن قريظ العنبري من أبيات في ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ١ : ٢٢ .

فقابل الظلم بالمغفرة ، وهى مخالفة له ، ليست مثله ولا ضده ، وإنما الظلم ضدّ العدل ؛ إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسّنت المقابلة بينها وبين الظلم ؛ ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) ، فإنّ الرحمة ليست ضدّاً للشدة ، وإنما ضدّ الشدة اللين ؛ إلا أنه لما كانت الرحمة سبباً للين حسّنت المقابلة بينها وبين الشدة . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا ﴾^(٢) ، فإنّ المصيبة أخصّ من السيئة ؛ فالتقابل هاهنا من جهة العموم والخصوص .

الوجه الثانى : ما كان بين المقابل والمقابل بُعد ، وذلك مما لا يحسن استعماله ، كقول امرأة من العرب لابنها ، وقد تزوج بامرأة غير محمودة :

تَرَبَّصْ بِهَا الْأَيَّامَ عَلَى صُرُوفِهَا سَتَرَمِي بِهَا فِي جَا حِمٍ مُتَسَعِّرٍ^(٣)
فَكُفُّمٍ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَفَاهُ إِلَهُهُ بِمَذْمُومَةِ الْأَخْلَاقِ وَاسِعَةِ الْحَرِّ

ف «مذمومة» ليست فى مقابلة «واسعة» ، ولو كانت قالت : «بضيقّة الأخلاق» ، كانت المقابلة صحيحة ، والشعر مستقيماً . وكذلك قول المتنبى :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءةَ مُجْرِمٍ^(٤)

فالمقابلة الصحيحة بين الحبّ والمبغض ؛ لا بين الحبّ والجرم .

قلت : إنّ لقائل أن يقول : هلاًّ قلت فى هذا ما قلت فى السيئة والمصيبة ! أأست القائل : إن التقابل حسنٌ بين المصيبة والسيئة ، لكنه تقابل العموم والخصوص ! وهذا الموضع مثله أيضاً ، لأنّ كل مبغض لك مجرم إليك ، لأنّ مجرد البغضة جُرم ، ففيهما عموم وخصوص .

بل لقائل أن يقول : كلّ مجرم مبغض ، وكلّ مبغض مجرم ، وهذا صحيح مطرد .

(١) سورة الفتح ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ٥٠ .

(٣) من أبيات نسبها أبو تمام فى الحماسة بشرح التبريزى (٤ : ٣٤) إلى أم القيف ، والجاحم : النار الشديدة التأجج .

(٤) ديوانه ٤ : ١٤١ .

(٢٩)

الأضل:

ومن خطبة له عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلَامُهُمْ: يُوهِي الصَّمَّ
الضَّلَالِ؛ وَفِعْلُهُمْ: يُطْمِعُ فِيكُمْ الْأَعْدَاءَ.

تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيَدِي حِيَادِي
مَا عَزَّتْ دَعْوَةٌ مِنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَّاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ. أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ؛
دِفَاعُ ذِي الدِّينِ الْمَطُولِ.

لَا يَمْنَعُ الضَّيْمُ الدَّلِيلُ، وَلَا يُدْرِكُ الْخَلْقُ إِلَّا بِالْجِدِّ.

أَيُّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ أَوْ مَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ أَلَمْ غَرُّوهُ وَاللَّهِ مَنْ
غَرَّزْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللَّهِ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ
رَمَى بِأَفْوَقِ نَاصِلٍ.

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لَا أَصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوْعِدُ
الْعَدُوَّ بِكُمْ.

مَا بَالُكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ.
أَقُولُ لَا بَغْيَ عِلْمٍ، وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَيْعٍ، وَطَمَعًا فِي غَيْرِ حَقٍّ!

الْبَرْخ:

حِيَدِي حِيَادِي، كلمة يقولها الهارب الفارّ، وهي نظيرة قولهم: «فيحى فياح»^(١)،

(١) في اللسان: فياح مثل قطام: اسم للغارة، وكان يقال للغارة في الجاهلية: فيحى فياح، وذلك
إذا دفعت الخيل المغيرة فانسعت.

أى اتسمى ، وصمى صام ، للدهية^(١) . وأصلها من حاد عن الشيء ، أى انحرف ،
وحياذ ، مبنية على الكسر ، وكذلك ما كان من بابها ، نحو قولهم : بدار ، أى ليأخذ
كل واحد قرنه . وقولهم : خراج فى لعبة للصبيان ، أى اخرجوا .

والباء فى قوله : « بأضاليل » متعلقة بـ « أعاليل » نفسها ، أى يتعللون بالأضاليل
التي لا جدوى لها .

والسهم الأفوق : المكسور الفوق ، وهو مدخل الوتر . والناصل : الذى لا نصل
فيه ؛ يخاطبهم فيقول لهم : أبدانكم مجتمعة وأهواؤكم مختلفة ، متكلمون بما هو فى الشدة
والقوة يؤهى الجبال الصم الصلبة ، وعند الحرب يظهر أن ذلك الكلام لم يكن له ثمره .
تقولون فى المجالس كئيت وكئيت ، أى سنفعل وسنفعل ، وكئيت وكئيت كناية
عن الحديث ، كما كئيت بغلان عن العلم ، ولانستعمل إلا مكررة ، وهما مخففان من « كئية »
وقد استعملت على الأصل ، وهى مبنية على الفتح . وقد روى أئمة العربية فيها
الضم والكسر أيضا .

فإذا جاء القتال فررتم وقاتم : الفرار الفرار .

ثم أخذ فى الشكوى ، فقال : من دعاكم لم تعز دعوتهُ ، ومن قاساكم لم يستريح قلبهُ .
دأبكم التعلل بالأمور الباطلة ، والأمانى الكاذبة . وسألتونى الإزجاء وتأخر الحرب
كمن يعطل بدين لازم له . والضم لا يدفعه الدليل ، ولا يدرك الحق إلا بالجد فيه
والاجتهاد وعدم الانكماش .

وباقى الفصل ظاهر المعنى .

(١) صمى صام ، أى زبدى

وقوله : « القوم رجال أمثالكم » مثل قول الشاعر :

قَاتِلُوا الْقَوْمَ يَا خُزَاعَ وَلَا يَدْخُلُكُمْ مِنْ قِتَالِهِمْ قَتْلُ
الْقَوْمِ أَمْثَالُكُمْ لَهُمْ شَعْرٌ فِي الرَّأْسِ لَا يُنْشَرُونَ إِنْ قُتِلُوا

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام في غارة الضحاك بن قيس ، ونحن
نقصها هنا :

[غارة الضحاك بن قيس وتنف من أخباره]

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي في كتاب " الغارات " قال :
كانت غارة الضحاك بن قيس بعد الحكمين ، وقبل قتال التمرّوان ، وذلك أن معاوية
أما بلغه أن علياً عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلاً ، هاله ذلك ، فخرج
من دمشق معسكراً ، وبعث إلى كُور الشام ، فصاح بها ^(١) : إن علياً قد سار إليكم .
وكتب إليهم نسخة واحدة ، فقرئت على الناس :

أما بعد ، فإنّا كنّا كتبنا كتاباً بيننا وبين عليّ ، وشرطنا فيه شروطاً ، وحكّمنا رجُلين
يحْكمان علينا وعليه بحسبكم الكتاب لا يمدّونه ، وجعلنا عهد الله وميثاقه على من نكث
العهد ولم يُمنضِ الحسبكم ، وإن حاكمي الذي كنت حكمته أثبتني ، وإن حكّمه خالعه ،
وقد أقبل إليكم ظالماً ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْتَكُتْ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ^(٢) ، تهجّزوا للحرب
بأحسن الجهاز ، وأعدّوا آلة القتال ، وأقبلوا خِفَافاً وثِقَالاً يَسْرِنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ !

(١) ب : « فيها » .

(٢) سورة الفتح ١٠ .

فاجتمع إليه الناس من كل كورة^(١) وأرادوا المسير إلى صقين ، فاستشارهم ، وقال :
إن علياً قد خرج من الكوفة ، وعهد العاهد به أنه فارق النخيلة^(٢) .
فقال حبيب بن مسلمة : فإنني أرى أن نخرج حتى نزل منزلنا الذي كنا فيه ، فإنه منزل
مبارك ، وقد متعنا الله به وأعطانا من عدونا فيه النصف .

وقال عمرو بن العاص : إني أرى لك أن تسير بالجنود حتى تؤغلها في سلطانهم من أرض
الجزيرة ، فإن ذلك أقوى لجندك ، وأذل لأهل حربك . فقال معاوية : والله إني لأعرف
أن الذي تقول كما تقول ، ولكن الناس لا يطيعون ذلك . قال عمرو : إنها أرض رقيقة ،
فقال معاوية : إن جهد الناس أن يبلغوا منزلهم الذي كانوا به - يعني صقين .

فكثروا يحيلون الرأي يومين أو ثلاثة ، حتى قدِمَت عليهم عيونهم أن علياً اختلف
عليه أصحابه ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة ، وأنه قد رجع عنكم إليهم .
فكبر الناس سُروراً لانصرافه عنهم ، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم . فلم يزل
معاوية مُعسِّكراً في مكانه ، معتظراً لما يكون من علي وأصحابه ؛ وهل يُقبل بالناس أم لا ؟
فما برح حتى جاء الخبر أن علياً قد قتل أولئك الخوارج ، وأنه أراد بعد قتلهم أن يُقبل
بالناس ، وأنهم استنظروه ودافعوه . فسرَّ بذلك هو ومن قبله من الناس .

قال : وروى ابن أبي سيف^(٣) ، عن يزيد بن يزيد بن جابر ، عن عبد الرحمن بن مسعدة
الفزاري ، قال : جاءنا كتاب عُمارة بن عُقبة بن أبي مُعيط ، وكان بالكوفة مقيماً ،
ونحن معسكرون مع معاوية ، نتخوف أن يفرغ على من الخوارج ثم يُقبل إلينا ، ونحن
نقول : إن أقبل إلينا كان أفضل المسكان الذي نستقبله به المسكان الذي لقيناه فيه
العام الماضي . فكان في كتاب عُمارة بن عُقبة : أما بعد ؛ فإن علياً خرج عليه قرءاء

(١) الكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر ، يجمع
اسمها . معجم البلدان ١ : ٣٦ .

(٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة .

(٣) كذا في ١ ، ج ، وفي ب : « سفیان » .

أصحابه ونسأكمهم ، فخرج إليهم فقتلهم ، وقد فسد عليه جندُه وأهلُ مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرقوا أشدَّ الفرقة ، وأحببت إعلامك انتحمده الله ، والسلام .

قال عبد الرحمن بن مسعدة : فقرأه معاوية على وجه أخيه عتبة ، وعلى الوليد ابن عتبة ، وعلى أبي الأعمور السلمي ؛ ثم نظر إلى أخيه عتبة وإلى الوليد بن عتبة ، وقال للوليد : لقد رصى أخوك أن يكون لنا عينا . فضحك الوليد وقال : إن في ذلك أيضاً لنفعاً .

وروى أبو جعفر الطبري ، قال : كان عمارة مقيماً بالكوفة بعد قتل عثمان ، لم يهجه على عليه السلام ولم يدعره ، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سرّاً . ومن شعر الوليد لأخيه عمارة يحرّضه :

إِنْ يَكُ ظَنِّي فِي عُمَارَةَ صَادِقًا يَمُّ ثُمَّ لَا يَطْلُبُ بِدَخْلٍ وَلَا وَتْرٍ^(١)
يَبِيْتُ وَأَوْتَارُ ابْنِ عَمَّانَ عِنْدَهُ مُحْتِمَةً بَيْنَ الْخَوَزَنِيِّ فَالْقَصْرِ
تَمْشِي رَخَى الْبَالِ مُسْتَشْرِزَ الْقَوَى كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِقَتْلِ أَبِي عَمْرٍو^(٢)
أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ قَتِيلُ التَّجِيبِيِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ مِصْرٍ^(٣)

قال : فأجابه الفضل بن العباس بن عتبة^(٤) :

أَطْلُبُ ثَاراً لَسْتُ مِنْهُ وَلَا لَهُ وَمَا لِبْنِ ذَكْوَانَ الصَّفُورِيِّ وَالْوَتْرِ^(٥)

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٤٢٦ ؛ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات . والوتر والدخل : الثأر .
(٢) لم يذكره في الطبري ، ومستشزر القوى : مستحکم ، وأصله في الجبل المقتول .
(٣) التجيبي : هو كنانة بن بشر بن عتاب الرياحي ؛ أحد قتلة عثمان ؛ قال الطبري : « ضرب كنانة ابن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود جديد ، فخر لجبينه » (٦ : ١٣٢) .
(٤) في الأصول : « عبد المطاب » ، وهو خطأ .
(٥) الطبري :

* وَأَبْنُ ابْنِ ذَكْوَانَ الصَّفُورِيُّ مِنْ عَمْرٍو *

كَمَا افْتَحَرَتْ بِنْتُ الْحِمَارِ بِأَمِّهَا وَتَنَسَّى أَبَاهَا إِذْ تَسَامَى أُولُو الْفَخْرِ^(١)
 أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ وَصِيُّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى عِنْدَ ذِي الذِّكْرِ^(٢)
 وَأَوَّلَ مَنْ صَلَّى وَصَنُوهُ نَبِيِّهِ وَأَوَّلُ مَنْ أَرْدَى الْغَوَاةَ لَدَى بَذْرِ^(٣)
 أَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ : « وَمَا لِبْنِ ذَكْوَانَ الصَّفُورِيِّ » ، فَإِنَّ الْوَلِيدَ ، هُوَ ابْنُ عُقْبَةَ
 ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ بَنِ أَبِي عَمْرٍو ، وَاسْمُهُ ذَكْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْسٍ شَمْسٍ . وَقَدْ ذَكَرَ جَمَاعَةٌ
 مِنَ النَّسَابِينَ أَنَّ ذَكْوَانَ كَانَ مَوْلَى لَأُمَيَّةَ بْنِ عَبْسٍ شَمْسٍ ، فَتَبَنَاهُ وَكَتَبَاهُ أَبَا عَمْرٍو ،
 فَبَنُوهُ مَوَالٍ وَابْنُ أُمَيَّةَ لِصُّبَّاهُ . وَالصَّفُورِيُّ : مَنْسُوبٌ إِلَى صَفُورِيَّةَ ؛ قَرْيَةٍ
 مِنْ قَرَى الرُّومِ .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَلَالٍ الثَّقَفِيُّ : فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا مَعَاوِيَةَ الضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ الْفَهْرِيَّ ،
 وَقَالَ لَهُ : سِرُّ حَتَّى تَمُرَّ بِنَاحِيَةِ الْكُوفَةِ وَتَرْتَفِعَ عَنْهَا مَا اسْتَطَعْتَ ، فَمَنْ وَجَدْتَهُ مِنْ
 الْأَعْرَابِ فِي طَاعَةِ عَلِيٍّ فَأَغِرْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ وَجَدْتَ لَهُ مَسَلَحَةً^(٤) أَوْ خِيَلًا فَأَغِرْ عَلَيْهَا ،
 وَإِذَا أَصْبَحْتَ فِي بَلَدَةٍ فَأَمْسُ فِي أُخْرَى ، وَلَا تُقِيمَنَّ لَيْلٍ بَلَدًا أَنْهَا قَدْ سُرُّتْ إِلَيْكَ
 لَتَأْتِيَهَا فَتَقَاتِلَهَا . فَسَرَّحَهُ فِيمَا بَيْنَ ثَلَاثَةِ آلَافٍ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ .
 فَأَقْبَلَ الضَّحَّاكَ ، فَنَهَبَ الْأَمْوَالَ وَقَتَلَ مَنْ لَقِيَ مِنَ الْأَعْرَابِ ، حَتَّى مَرَّ بِالْمُعَلَّبِيَّةِ^(٥)

(١) رَوَايَةُ الطَّبْرِيِّ :

كَمَا اتَّصَلَتْ بِنْتُ الْحِمَارِ بِأَمِّهَا وَتَنَسَّى أَبَاهَا إِذْ تَسَامَى أُولُو الْفَخْرِ

(٢) الطَّبْرِيُّ : « بَعْدَ مُحَمَّدٍ » .

(٣) بَعْدَهُ فِي الطَّبْرِيِّ :

فَلَوْ رَأَتْ أَلَا نَصَارُ ظَلَمَ ابْنُ عَمِّكُمْ لَكَانُوا لَهُ مِنْ ظُلْمِهِ حَاضِرِي النَّصْرِ

كَفَى ذَلِكَ عَيْبًا أَنْ يُشِيرُوا بِقَتْلِهِ وَأَنْ يُسْلِمُوهُ لِلْأَحَابِيشِ مِنْ مِصْرٍ

(٤) الْمَسَاحَةُ هُنَا : الْقَوْمُ ذَوُو سِلَاحٍ .

(٥) الْمُعَلَّبِيَّةُ : مِنْ مَنَازِلِ طَرِيقِ مَكَّةَ إِلَى الْكُوفَةِ .

فَأَغَارَ عَلَى الْحَاجِّ ، فَأَخَذَ أَمَتَهُمْ ، ثُمَّ أَقْبَلَ فَلَقِيَ عَمْرُو بْنَ عُمَيْسَ بْنَ مَسْعُودٍ الْهَذَلِيَّ ، وَهُوَ ابْنُ أَخِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَتَلَهُ فِي طَرِيقِ الْحَاجِّ عِنْدَ الْقُطُقْطَانَةِ ^(١) . وَقَتَلَ مَعَهُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ .

قال : فَرَوَى إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَبَارَكٍ الْبَجَلِيُّ عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَيْسَى ، عَنْ أَبِي رَوْفٍ ، قال : حَدَّثَنِي أَبِي ، قال : سَمِعْتُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، وَهُوَ يَقُولُ عَلَى الْمُنْبَرِ :

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، اخْرُجُوا إِلَى الْعَبْدِ الصَّالِحِ عَمْرُو بْنِ عُمَيْسٍ ، وَإِلَى جِيُوشِ لَكُمْ قَدْ أَصِيبَ مِنْهُمْ طَرَفٌ ، اخْرُجُوا فَقَاتِلُوا عَدُوَّكُمْ ، وَامْنَعُوا حَرِيمَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ .
فَرَدُّوا عَلَيْهِ رَدًّا ضَعِيفًا ، وَرَأَى مِنْهُمْ تَجَرُّأً وَفَشَلًا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوِدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُلِّ ثَمَانِيَةِ مِنْكُمْ رَجُلًا مِنْهُمْ ! وَيُحْكَمُ اخْرُجُوا مَعِيَ ، ثُمَّ فَرَّوْا عَنِّي مَابِدَا لَكُمْ ؛ فَوَاللَّهِ مَا أَكْرَهَ لِقَاءَ رَبِّي عَلَى نَيْتِي وَبَصِيرَتِي ، وَفِي ذَلِكَ رَوْحٌ لِي عَظِيمٌ ، وَفَرَجٌ مِنْ مَنَاجَاتِكُمْ وَمَقَاسَاتِكُمْ . ثُمَّ نَزَلَ .

فَخَرَجَ يَمْشِي حَتَّى بَلَغَ الْغَرِيَّتَيْنِ ، ثُمَّ دَعَا حُجَيْرَ بْنَ عَدَى الْكِندِيَّ ، فَعَقَّدَ لَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ السَّكَلَنِيُّ ، قال : اسْتَصْرَخَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّاسَ عَقِيبَ ^(١) غَارَةِ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسِ الْفَهْرِيِّ عَلَى أَطْرَافِ أَعْمَالِهِ ، فَتَقَاعَدُوا عَنْهُ ، نَفْطَهُمْ فَقَالَ : مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ ، وَلَا اسْتَرَاخَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ . . . الْفَصْلُ إِلَى آخِرِهِ .

قال إِبْرَاهِيمُ الثَّمَنِيُّ : فَخَرَجَ حُجَيْرُ بْنُ عَدَى حَتَّى مَرَّ بِالسَّامَوَةِ - وَهِيَ أَرْضُ كَلْبٍ -

(١) قال في المصباح : « وَأَمَّا عَقِيبٌ مِثَالُ كَرِيمٍ فَاسْمُ فَاعِلٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : عَاقَبَهُ مَعَاقِبَةً وَعَقَبَهُ تَعْقِيبًا ، فَهُوَ مَعَاقِبٌ وَمَعَاقِبٌ وَعَقِيبٌ » .

فلقيَ بها امرأ القيس بن عدى بن أوس بن جابر بن كعب بن عُليم الكلبيّ - وهم أصحابُ الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام - فكانوا أدلاءً في الطريق وعلى المياه ، فلم يزل مُغذّاً في أثر الضحّاك ، حتى لقيَه بناحية تَدْمُر ، فواقعه فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحّاك تسعة عشر رجلاً ، وقُتل من أصحاب حُجر رجلاً ، وحجز الليل بينهم . فمضى الضحّاك ، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثراً . وكان الضحّاك يقول بعد : أنا ابنُ قيس ، أنا أبو أنيس ! أنا قاتل عمرو بن عُمَيْس .

قال : وكتب في أثر هذه الواقعة عَقِيل بن أبي طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام ، حين بلغه خِذْلان أهل الكوفة ، وتقاعدهم به :
 لعبد الله على أمير المؤمنين عليه السلام من عَقِيل بن أبي طالب . سلام عليك ، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإنَّ الله حارسُك من كلِّ سوء ، وعاصمُك من كلِّ مكروه ، وعلى كلِّ حال ؛ إني قد خرجت إلى مكة معتمراً ، فلقيت عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح في نحو من أربعين شاباً من أبناء الطُّلقاء ، فعرفتُ المنكرَ في وجوههم ، فقلت : إلى أين يا أبناء الشائنين ! أبعادية تلحقون ! عداوة والله منكم قديماً غيرُ مستنكرة ؛ تريدون بها إطفاء نور الله ، وتبديل أمره . فأسمعنِي القومُ وأسمعنهم ، فلما قُدمتُ مكة ، سمعتُ أهلها يتحدثون أنَّ الضحّاك بن قيس أغار على الحيرة ، فاحتمل من أموالها ما شاء ، ثم انكبَّ راجعاً سالماً . فأفّ حمية في دهر جرّاً عليك الضحّاك ! وما الضحّاك ! فقع بقرقر^(١) ! وقد توهمت حيث بلغني ذلك أنَّ شيعتك وأنصارك خذلوك فاكُتب إلى يابن أميِّ برأيك ، فإن كنت الموت تريد ، تحملت إليك بنى أخيك ،

(١) القرقر : الأرض المستوية ، والفقع : ضرب من أردأ السكّاء ، يقال للرجل الدليل : هو وقع قرقر ؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها .

وولد أبيك ، فعشنا معك ماعشت ، وميتنا معك إذا مت ؛ فوالله ما أحب أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً .

وأقسم بالأعزّ الأجلّ ، إنّ عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنىء ولا مرىء ولا نجيع ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^(١) .

* * *

فكتب إليه عليه السلام : من عبد الله على أمير المؤمنين : إلى عقيل بن أبي طالب . سلام الله عليك ، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : كلاًنا الله وإياك كلاءة من يحشاه بالغيب ، إنه حميد مجيد . قد وصل إلى كتابك مع عبد الرحمن بن عبيد الأزديّ ، تذكر فيه أنّك لقيت عبد الله بن سعد بن أبي سرح مقبلاً من قُدَيْد^(٢) في نحو من أربعين فارساً من أبناء الطلقاء ، متوجّهين إلى جهة الغرب . وإنّ ابن أبي سرح طالما كاد الله ورسوله وكتابه ، وصدّ عن سبيله وبغاه عوجاً ؛ فدع ابن أبي سرح ، ودع عنك قريشاً ، وخلهم وترّكهم في الضلال ، وتجوّاهم في الشقاق . ألا وإنّ العرب قد أجمعت على حرب أخيك اليوم إجماعاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقه ، وجحدوا فضله ، وبادروه العداوة ، ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كلّ الجهد ، وجرّوا إليه جيش الأحزاب . اللهمّ فاجز قريشاً عنّي الجوازي^(٣) ! فقد قطعت رجمي ، وتظاهرت عليّ ، ودفعتني عن حقّي ، وسلبتني سلطان ابن أمّي ، وسلّمت ذلك إلى من ليس مثلي في قرابتي من الرسول ، وسابقتني في الإسلام إلّا أن يدعى مدّع ما لا أعرفه ، ولا أظنّ الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال . فأما ما ذكرته من غارة الضحّاك على أهل الحيرة ، فهو أقلّ وأزلّ من أن يلمّ بها

(١) الفواق : قدر ما بين الحلبتين . (٢) الأغاني ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ - بيروت .

(٣) الجوازي : جمع جازية ؛ وهي المكافأة على الشيء .

أو يدنو منها؛ ولكنّه قد كان أقبل في جريدة خيل، فأخذ على السماوة، حتى مرّ بواقصة^(١) وشراف^(٢) والقنططانة؛ مما وإلى ذلك الصّقع، فوجهت إليه جنداً كثيفاً من المسلمين، فلما بلغه ذلك فرّ هاربا، فاتّبعوه فلاحقوه ببعض الطريق وقد أمعن، وكان ذلك حين طفّلت^(٣) الشمس للإياب، فتناوشوا القتال قليلا كلا ولا^(٤)، فلم يصبر لوقوع المشرقية^(٥)، وولّى هاربا، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلا، ونجّاه أيضا^(٦) بعد ما أخذ منه بالحقنق، فلأيا بلائي مانجا. فأما ما سألتني أن أكتب لك برأي فيما أنا فيه، فإن رأي جهـ اذ المجلّين حتى ألقى الله، لا يزيدني كثرة الناس معي عزّة، ولا تفرّقهم عني وحشة، لأنني بحق والله مع الحق؛ والله ما أكره الموت على الحق وما الخير كلّهُ إلا بعد الموت لمن كان محقّا. وأما ما عرضت به من مسيرك إلى بينيك وبنى أبيك فلا حاجة لي في ذلك؛ فأقم راشداً محموداً، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت، ولا تحسبن ابن أملك - ولو أسلمه الناس - متخشّعا ولا متضرّعا، إنه لكما قال أخو بني سليم^(٧) :

فإن تسألني كيف أنت فإنني صبورٌ كلّ زمان صليبُ
يعزّ كلّ أن ترى بي كآبةً فيشمت عادي أو يساء حبيبُ

قال إبراهيم بن هلال الثقيّ: وذكر محمد بن مخنف أنه سمع الضّحّاك بن قيس بعد ذلك بزمان يخطّب على منبر الكوفة، وقد كان بآفه أن قوما من أهلها يشتمون عثمان

-
- (١) واقصة: منزل في طريق مكة .
(٢) شراف، بفتح أوله: موضع قريب من واقصة في طريق مكة أيضاً .
(٣) طفّلت الشمس: مالت إلى المغيب .
(٤) كلا ولا في اللسان: العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل قالوا: كال فعله كلا، وربما كرروا فقالوا: كلا ولا (٢٠: ٣٧٥) .
(٥) المشرقية: السيوف؛ منسوبة إلى مشارف الشام، قرى من أرض العرب تدنو من الريف .
(٦) جريضا: مجهودا يكاد يقضى .
(٧) هو صخر بن الثريد السلمي .

ويبرءون منه ، قال : فسمعتُهُ يقول : بلغني أن رجلا منكم ضلّلا يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ؛ أما والذي ليس له ندٌّ ولا شريك ؛ لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعنّ فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدونني ضعيف السّورة^(١) ، ولا كليل الشّفرة .
أما إني لصاحبكم الذي أغرت على بلادكم ، فسكنتُ أولَ مَنْ غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الثّعَلبيّة ومن شاطئ الفرات ، أعاقبُ مَنْ شئتُ ، وأعفو عن شئتُ ؛ لقد ذعرتُ الخُدَراتِ^(٢) في خُدورِهِنَّ ، وإن كانت المرأة ليبيكي ابنها فلا تُرهِبُهُ ولا تسكته إلا بذكر اسمي .
فانقوا الله يا أهلَ العراق ؛ أنا الضّحّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو بن عُيس !
فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : صدقَ الأمير وأحسن القول ، ما أعرَفنا والله بما ذكرت ! ولقد آقيناك بغرّبي تَدْمُر ، فوجدناك شجاعا مجرّبا صبورا . ثم جالس وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أولَ ما قدِم ا وإيّمُ الله لأذكّرته أبغضَ مواطنه إليه . قال . فسكتَ الضّحّاك قليلا ، وكأنّه خَزِي واستحيا ، ثم قال : نعم كان ذلك اليوم ! فأخذه بكلام ثقيل ، ثم نزل .

قال محمد بن مخنف : فقلت لعبد الرحمن بن عبيد - أو قيل له : لقد اجترأت حين تَدَكّرهُ هذا اليوم ، وتُخبرهُ أنّك كنت فيمن لقيّه ا فقال : لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا ما كتبَ الله لنا .

قال : وسأل الضّحّاك عبدَ الرحمن بن عبيد حين قدم الكوفة ، فقال : لقد رأيتُ منكم بغرّبي تَدْمُر رجلا ما كنت أرى أن في الناس مثله ، حمل علينا ، فما كذب حتى ضرب الكتيبة التي أنا فيها ، فلما ذهب ليولّي حملت عليه ، فطعنته ، فوقع ثم قام

(١) السّورة : الشدة .

(٢) الخُدرة : المرأة في الحذر ؛ وهو ستر محمد في ناحية البيت .

فلم يضره شيئاً ، ثم لم يلبث أن حمل علينا في الكتيبة التي أنا فيها ، فصرع رجلاً ثم ذهب لينصرف ، فحملت عليه فضربتته على رأسه بالسيف ، فخيل إلى أن سيفي قد ثبت في عظم رأسه فضر بني ؛ فوالله ما صنع سيفه شيئاً ، ثم ذهب فظننت أنه لن يعود ، فوالله ما راعني إلا وقد عصب رأسه بعمامة ، ثم أقبل نحونا فقلت : شككتك أمك ! أما نهتكم الأوليان عن الإقدام علينا ! قال : إنهما لم تنهيانى ، إنما احتسب هذا في سبيل الله . ثم حمل ليطمئننى ، فطمنته وحمل أصحابه علينا ، فانفصلنا ، وحال الليل بيننا ، فقال له عبد الرحمن : هذا يوم شهده هذا - يعنى ربيعة بن ماجد - وهو فارس الحى ، وما أظنه يخفى أمر هذا الرجل . فقال له : أتعرفه ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : فأرني الضربة التي برأسك ، فأراه فإذا هي ضربة قد برت العظم منكسرة ، فقال له : فما رأيك اليوم ؟ أهو كرايك يومئذ ! قال : رأيي اليوم رأي الجماعة ، قال : فما عليكم من بأس ، أنتم آمنون ما لم تظهروا خلافاً ، واسكن العجب كيف نجوت من زياد لم يقتلك فيمن قتل ، أو يُسيرك فيمن سيرا فقال : أما التسيير فقد سيرنى ، وأما القتل فقد عافانا الله منه !

قال إبراهيم الثقفى : وأصاب الضحك في هربه من حُجر عطش شديد ، وذلك لأن الجمل الذى كان عليه ماؤه ضلّ فعمطش ، وخفق برأسه خفقتين لنعاس أصابه ، فترك الطريق وانتبه ، وليس معه إلا نفر يسير من أصحابه ، وليس منهم أحد معه ماء ، فبعث رجالاً منهم في جانب يلتمسون الماء ولا أنيس ، فكان الضحك بعد ذلك يحكى ، قال : فرأيت جادة فلزمتها ، فسمعت قائلاً يقول :

دَعَانِي الْهَوَى فَازْدَدْتُ شَوْقًا وَرَبِّمَا دَعَانِي الْهَوَى مِنْ سَاعَةٍ فَاجِيبُ
وَأَرْقِنِي بَعْدَ الْمَنَامِ وَرَبِّمَا أَرِقْتُ لِسَارِي الْمَهْمِ حِينَ يَثُوبُ

فَإِنْ أَكْ قَدْ أَحْبَبْتُكُمْ وَرَأَيْتُكُمْ فَإِنِّي بَدَارِي عَامِرٍ لَغَرِيبٍ
 قال: وأشرف على رجل، فقلت: يا عبد الله، اسقني ماء، فقال: لا والله، حتى تعطيني
 ثمنه، قلت: وما ثمنه؟ قال: دينك، قلت: أما ترى عليك من الحق أن تقرري الضيف،
 فتطعمه وتسقيه؟ قال: ربما فعلنا وربما بخلنا، قال: فقلت: والله ما أراك فعلت خيراً قط،
 اسقني، قال: ما أطيق، قلت: فَإِنِّي أَحْسَنُ إِلَيْكَ وَأَكْسُوكَ، قال: لا والله لا أنقص شربة
 من مائة دينار، فقلت له: وَيَحْكُ! اسقني! فقال: وَيَحْكُ! أعطني، قلت: لا والله ما هي
 معي، واسكنك تسقيني، ثم تنطلق معي أعطيكها، قال: لا والله، قات: اسقني وأرهمك
 فرسي حتى أوفيكها، قال: نعم، ثم خرج بين يدي واتبعته، فأشرفنا على أخبية وناس
 على ماء فقال لي: مكانك حتى آتيك. فقلت: بل أجيء معك، قال: وساء حيث
 رأيت الناس والماء، فذهب يشتد حتى دخل بيتا، ثم جاء بماء في إناء، فقال: اشرب، فقلت:
 لا حاجة لي فيه. ثم دنوت من القوم، فقلت: اسقوني ماء، فقال شيخ لابنته: اسقيه،
 فقامت ابنته فجاءت بماء ولبن، فقال ذلك الرجل: نَجِّيتُكَ مِنَ الْعَطَشِ، وتذهب بحقي
 والله لا أفارقك حتى أستوفي منك حَقِّي، فقلت: اجلس حتى أوفيك. فجلس: فنزلت
 فأخذت الماء واللبن من يد الفتاة، فشربت واجتمع إلى أهل الماء، فقلت لهم: هذا
 ألام الناس! فعل بي كذا وكذا! وهذا الشيخ خيرٌ منه وأسدَى، استسقيته فلم يكلمني
 وأمر ابنته فسقنتني، وهو الآن يلزمني بمائة دينار. فشتمه أهل الحى، ووقعوا به، ولم يكن
 بأسرع من أن لحقني قوم من أصحابي، فسلموا على بالإمرة، فارتاب الرجل وجزع،
 وذهب يريد أن يقوم، فقلت: والله لا تبرح حتى أوفيك المائة، فجلس ما يدرى ما الذى
 أريد به! فلما كثر جندي عندي سرحت إلى ثَقْلَى^(١)، فأيت به، ثم أمرت بالرجل فجلد
 مائة جلدة، ودعوت الشيخ وابنته فأمرت لهما بمائة دينار وكسوتهما، وكسوت أهل الماء

(١) ثَقْلَى : متاع المسافر .

نوبا نوبا ، وحرمتُهُ . فقال أهل الماء : كان أيها الأمير أهلا لذلك . وكنتَ لما أتيت من خير أهلا .

فلما رجعتُ إلى معاوية ، وحدثته عَجِب ، وقال : لقد رأيتَ في سفرك هذا عجبا . ويذكرُ أهلُ النَّسَب أن قيسا أبا الضحاك بن قيس كان يبيع عَسَبَ الفحول^(١) في الجاهلية .

وروا أن عَقِيلًا رحمه الله تعالى ، قدِمَ على أمير المؤمنين ، فوجده جالسا في صحن المسجد بالكوفة ، فقال : السَّلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته - وكان عَقِيل قد كَفَّ بصره - فقال : وعليك السَّلام يا أبا يزيد ، ثم التفت إلى ابنه الحسن عليه السَّلام ، فقال : قم فأنزل عَمَّكَ ، فقام فأنزله ، ثم عاد فقال : اذهب فاشترِ لعمَّك قميصا جديدا ، ورداء جديدا . وإزارا جديدا ونعلا جديدا ، فذهب فاشترى له ، ففدا عَقِيل على عليٍّ عليه السَّلام في الثَّياب ، فقال : السَّلام عليك يا أمير المؤمنين ، قال : وعليك السَّلام يا أبا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أراك أصبتَ من الدنيا شيئا ، وإنى لاترضى نفسى من خلافتك بما رضيتَ به لنفسك ، فقال : يا أبا يزيد ، يخرج عطاءى فأدفعه إليك .

فلما ارتحل عن أمير المؤمنين عليه السَّلام أتى معاوية فنُصِبَت له كراسيُّه ، وأجلس جلساءه حوله ، فلما وُردَ عليه أمرُ له بمائة ألف فقَبَضَها ، ثم غدا عليه يوما بعد ذلك ، وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السَّلام ، وبيعة الحسن لمعاوية ، وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد ، أخبرني عن عسكرك وعسكر أخيك ، فقد وردتَ عليهما ، قال : أخبرك ، مررت والله

(١) العَسَب هنا : ماء الفحل .

بمسكر أخى ، فإذا ليل مكليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فى القوم ؛ ما رأيتُ إلا مضلّيا ، ولا سمعتُ إلا قارئا . ومررت بمسكرك ، فاستقبلنى قومٌ من المنافقين بمن نفر برسول الله ليلة البقرة ، ثم قال : مَنْ هذا عن يمينك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذى اختصم فيه ستة نفر ، فغلب عليه جَزَار قريش ! فمن الآخر ؟ قال : الضحّاك بن قيس الفهري قال : أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس ؟ فمن هذا الآخر ؟ قال : أبو موسى الأشعرى ، قال : هذا ابنُ السَّرّاقة ، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره عن نفسه ، قال فيه سوءاً ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء ، فيذهب بذلك غضبُ جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول فى ؟ قال : دعنى من هذا ا قال : لتقولنّ ، قال : أتعرف حمامة ؟ قال : ومَنْ حمامة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام فضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة ، فدعاه ، فقال : مَنْ حمامة ؟ قال : ولى الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمامةٌ جدتك أم أبى سفيان ، كانت بَغِيًّا فى الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتكم وزدت عليكم فلا تفضّوهوا .

(٣٠)

ومن خطبة له عليه السلام في معنى قتل عثمان .

الأصل :

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِرًا ؛ غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ؛ وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ ؛ اسْتَأْثَرَ فَاسَاءَ الْأَثَرَةِ ، وَجَزِ غَتْمُ فَاسَأْتُمْ الْجَزَعَ ، وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَقَعَ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَارِعِ .

الشرح :

هذا الكلام بظاهره يقتضى أنه ما أمر بقتله ، ولا نهى عنه ، فيكون دمه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها ، ولا ينهى عنها . غير أنه لا يجوز أن يحمل الكلام على ظاهره ، لما ثبت من عصمة دم عثمان . وأيضاً فقد ثبت في السير والأخبار أنه كان عليه السلام ينهى الناس عن قتله ؛ فإذاً يجب أن يُحمَل لفظ النهى على المنع كما يقال : الأمير ينهى عن نهب أموال الرعية ، أى يمنع ، وحينئذ يستقيم الكلام ؛ لأنه عليه السلام ما أمر بقتله ولا منع عن قتله ، وإنما كان ينهى عنه باللسان ولا يمنع عنه باليد .

فإن قيل : فالنهي عن المنكر واجب ، فهل يمنع من قتله باليد ؟

قيل : إنما يجب المنع باليد عن المنكر إذا كان حسناً ؛ وإنما يكون الإنكار حسناً

إذا لم يغاب على ظنّ الناهي عن المنكر أن نهيه لا يؤثر ، فإن غلب على ظنّه أن نهيه لا يؤثر فَبُحِجَ إنكار المنكر ، لأنه إن كان الغرض تعريفَ فاعل القبيح قبحَ ما أقدم عليه ؛ فذلك حاصل من دون الإنكار ؛ وإن كان الغرضُ ألا يقع المنكر ، فذلك غير حاصل ؛ لأنه قد غلب على ظنّه أن نهيه وإنكاره لا يؤثر ؛ ولذلك لا يحسن من الإنسان الإنكار على أصحاب المآصر^(١) ما هم عليه من أخذ المكوس ، لما غلب على الظن أن الإنكار لا يؤثر ؛ وهذا يقتضى أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام قد غلب على ظنّه أن إنكاره لا يؤثر ؛ فذلك لم ينكر .

ولأجل اشتباه هذا الكلام على السامعين ، قال كعب بن جُعيل ، شاعر أهل الشام الأبيات التي منها^(٢) :

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّهُ أَهْلَ الْعِرَاقِ	وَأَهْلُ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهُونًا ^(٣)
وَكُلُّ لَصَاحِبِهِ مَبْفُضٌ	يَرَى كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذَاكَ دِينًا
إِذَا مَارَمُونًا رَمَيْنَاهُمْ	وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يَقْرَضُونًا ^(٤)
وَقَالُوا : عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا	فَقُلْنَا : رَضِينَا ابْنَ هِنْدٍ رَضِينَا
وَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا	فَقُلْنَا : أَلَا لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا ^(٥)
وَمِنْ دُونِ ذَلِكَ خَرَطُ الْقَتَادِ	وَطَعْنٌ وَضَرْبٌ يَقِرُّ الْعُيُونًا ^(٦)

(١) المآصر : المواضع المعدة لحبس المارة عن المسير لأخذ العشور .

(٢) الأبيات في وقعة صفين ٦٣ ، ٦٤ ، وأورد المبرد في الكامل (٤ - ٢١٢ - بشرح المرصني) الستة الأبيات الأولى منها ؛ وقال : « وفي آخر هذا الشعر ذم لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه أمسكنا عن ذكره » .

(٣) وقعة صفين « والكامل » : « ملك العراق » .

(٤) دناهم : من الدين ، وهو القرض ؛ ويقرضونا ، حذفنا النون من غير ناصب ولا جازم ، وهو جائز في العربية ، وانظر خزائن الأدب (٣ : ٥٢٥ - ٥٢٦) .

(٥) هذه رواية ابن أبي الحديد ؛ وهي توافق رواية المبرد ؛ وفي صفين :

وَقُلْنَا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا فَقَالُوا لَنَا : لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا

(٦) قال المبرد : « وأحسن الروايتين : يفض الشثونا » .

وَكُلُّ يَسْرٍ بِمَا عِنْدَهُ يَرَى غَثَّ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِيمًا
وَمَا فِي عَالِيِ الْمُسْتَعْتَبِ مَقَالٌ سَوَى ضَمَّةِ الْحَدِيثِ نَبِيًّا
وَابْنَارِهِ الْيَوْمَ أَهْلَ الذُّنُوبِ وَرَفَعَ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَاتِلِينَ
إِذَا سِيلَ عَنْهُ حَذَا شَبْهَةً وَتَمَى الْجَوَابَ عَلَى السَّائِلِينَ^(١)
فَلَيْسَ بِرَاضٍ وَلَا سَاحِطٍ وَلَا فِي الْهَمَاءِ وَلَا الْآمَرِينَا
وَلَا هُوَ سَاءٌ وَلَا سَرَّةٌ وَلَا بُدَّ مِنْ بَعْضِ ذَا أَنْ يَكُونَا

وهذا شعر خبيث مُنْكَرٌ ، ومقصد عميق ، وما قال هذا الشعر إلا بعد أن نُقِلَ إلى
أهل الشام كلامٌ كثيرٌ لأمير المؤمنين عليه السلام في عثمان يجرى هذا الجرى ، نحو
قوله : ما سرّنى وَلَا ساءنى . وقيل له : أرضيت بقتله ؟ فقال : لم أرض ، فقيل له :
أَسَخِطْتَ قَتْلَهُ ؟ فقال : لم أَسَخِط . وقوله تارة : الله قتله وأنا معه ، وقوله تارة أخرى :
ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله . وقوله تارة أخرى : كنت رجلا من المسلمين أوردتُ
إِذْ أوردُوا ، وأصدرت إِذْ أصدرُوا .

ولكل شيء من كلامه إِذَا صحَّ عنه تأويل يعرفه أولو الأبواب .
فأما قوله : « غير أن مَنْ نصره » ، فكلام معناه أن خاذليه كانوا خيرا من
ناصريه ؛ لأن الذين نصره كان أكثرهم فُسَاقًا ، كمرّوان بن الحكم وأضرابه ، وخذله
المهاجرون والأنصار .

فأما قوله : « وأنا جامع لكم أمره ... » إلى آخر الفصل ؛ فمعناه أنه فعل ما لا يجوز ،
وفعلتم ما لا يجوز ، أما هو فاستأثر فأساء الأثرة ، أى استبدّ بالأمور فأساء فى الاستبداد ، وأما
أنتم فجزعتم مما فعل أى حزنتم فأسأتم الجزع ، لأنكم قتلتموه ، وقد كان الواجب عليه أن

(١) حذا : أعطى ، وفى صفتين : « حذا » ، أى ساق .

يرجع عن استنثاره ، وكان الواجب عليكم ألا تجعلوا جزاءه عماً أذنب القتل ، بل الخلع والحبس وترتيب غيره في الإمامة .
ثم قال : والله حُكْمٌ سيحكم به فيه وفيكم .

[اضطراب الأمر على عثمان ثم أخبار مقتله]

ويجب أن نذكر في هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قُتِل .
وأصح ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في " التاريخ " (١) .
وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً مشهورة بَقَمَها الناس عليه ، من تأمير بني أمية ، ولا سيما الفساق منهم وأرباب السَّفَه وقلة الدين ، وإخراج مال النبی إليهم ، وما جرى في أمر عَمَّار وأبي ذرّ وعبد الله بن مسعود ، وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته . ثم اتفق أن الوليد بن عُقبة لما كان عامله على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر ، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه ، فقدم سعيد الكوفة ، واستخلص من أهله قوماً يسمرون عنده ، فقال سعيد يوماً : إنَّ السواد بستان قرّيش وبني أمية . فقال الأشتر النخعي : وتزعم أن السواد الذي أفاء الله على المسلمين بأسيا فبا بستان لك ولقومك . فقال صاحب شُرطته : أتردّ على الأمير مقاتله ! وأغلظ له ، فقال الأشتر لمن كان حوله من النخع وغيرهم من أشراف الكوفة : ألا تسمعون ! فوثبوا عليه بحضرة سعيد فوطئوه وطأ عنيفاً ، وجروا برجله ، فغلظ ذلك على سعيد ، وأبعد سَمَّارَه فلم يأذن بعد لهم ، فجعلوا يشتمون سعيداً في مجالسهم ، ثم تعدوا ذلك إلى شتم عثمان ، واجتمع إليهم ناس كثير ، حتى غلظ أمرهم ، فكتب سعيد إلى عثمان في أمرهم ، فكتب إليه أن يسيرهم إلى الشام ؛ لئلا يفسدوا أهل الكوفة ، وكتب إلى معاوية وهو وإلى الشام : إن نفراً من أهل الكوفة

(١) في حوادث سنة ٣٣ - ٣٥ ، مع تصرف واختصار في جميع ما أورده في هذا الفصل .

(٩ - نهج - ٢)

قد همّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتهم إليك، فانهمهم ؛ فإن آنت منهم رُشدًا فأحسن إليهم،
واردّهم إلى بلادهم .

فلما قدموا على معاوية - وكانوا : الأشتر ، ومالك بن كعب الأزحجّ ، والأسود بن
يزيد النخعيّ، وعلقمة بن قيس النخعيّ ، وصمصعة بن صوحان العبديّ، وغيرهم - جمعهم
يوما ، وقال لهم : إنكم قوم من العرب، ذوو أسنان وألسنة، وقد أدرّكم بالإسلام شرّفاً،
وغلّبتهم الأمم ، وحويتهم مواريتهم ؛ وقد بلغني أنكم ذمتم قريشا ، ونقيتم على الولاة فيها ؛
ولولا قريش لكانتم أذلة ؛ إن أمتكم لكم جنة ، فلا تفرّقوا عن جنتكم ، إن أمتكم
ليصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم^(١) العتاب ؛ والله لتنهنّ أو ليبتلينكم الله بن
يسومكم الخسف، ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جرّتهم على الرعية في
حياتكم ، وبعد وفاتكم .

فقال له صمصعة بن صوحان : أما قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها
في الجاهلية ، وإن غيرها من العرب لأكثر منها كان وأمنع .

فقال معاوية : إنك لخطيب القوم ، ولا أرى لك عقلا ، وقد عرفتمكم الآن، وعلمت
أن الذي أغراكم قلة العقول . أعظم عليكم أمر الإسلام فتدّكرني الجاهلية ! أخزى الله
قوما عظّموا أمرهم ! افقهوا عني ولا أظنكم تفقهون ؛ إن قريشا لم تعزّ في جاهلية ولا
إسلام إلا بالله وحده ؛ لم تكن بأكثر العرب ولا أشدّها ، ولكنهم كانوا أكرمهم
أحسابا ، وأحضرهم^(٢) أنسابا ، وأكملهم مروءة ؛ ولم يمتنعوا في الجاهلية - والناس يأكل
بعضهم بعضا - إلا بالله ، فبؤأهم حرّما آمنا يُتخطّف الناس من حوله . هل تعرفون عربا
أو عجماء ، أو سودا أو حرا إلا وقد أصابهم الدهر في بلدهم وحرّمهم ، إلا ما كان من قريش ؛
فإنه لم يرّدهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خذه الأسفل ؛ حتى أراد الله تعالى أن
يستنفذ من أكرمهم باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مردّ الآخرة ، فارتضى لذلك خير

(١) كذا في ١ ، ج ، وفي ب : « فيكم » .

(٢) يقال : عربى محض ؛ أى خالص النسب .

خلقه ، ثم ارتضى له أصحابا ، وكان خيارهم قريشا . ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم ، فلا يصلح الأمر إلا بهم ؛ وقد كان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم ؛ أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه ! أف لك ولأصحابك ! أما أنت يا صمصمة ، فإن قريتك شر القرى ؛ أنتنّها نبتنّها وأعقنّها واديا ، ولأما جيرانا ، وأعرفها بالشر ؛ لم يسكنها شريف قط ولا وضع إلا سب بها ، نزع الأم وعبيد فارس . وأنت شر قومك . أحين أبرزك الإسلام ، وخلطك بالناس ، أقبلت تبغى دين الله عوجا ، وتنزع إلى الغواية ! إنه لن يضر ذلك قريشا ولا يضعهم ، ولا يمنهم من تأدية ما عليهم ؛ إن الشيطان عنكم لغير غافل ، قد عرفكم بالشر ، فأغراكم بالناس ، وهو صارعكم ؛ وإنكم لا تدركون بالشر أمرا إلا فُتِحَ عليكم شر منه وأخرى . قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم ، لا ينفع الله بكم أحدا أبدا ولا يضره ، ولستم برجال منفعة ولا مضرة ، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعةكم ولا تبطروا نكم النعمة ؛ فإن البطر لا يجر خيرا . اذهبوا حيث شئتم ، فسا كتب إلى أمير المؤمنين فيكم .

وكتب إلى عثمان :

إنه قدِمَ على قوم ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة ، والله مبتليهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين نخاف نكائتهم ، وليسوا بأكثر ممن له شغب ونكير .
ثم أخرجهم من الشام ^(١) .

وروى أبو الحسن المدائني أنه كان لهم مع معاوية بالشام مجالس طالت فيها المحاورات والمحاطبات بينهم ، وأن معاوية قال لهم في جملة ما قاله : إن قريشا قد عرفت أن أبا سفيان

كان أكرمها وابن أكرمها ، إلا ما جعل الله لنبيه صلى الله عليه ، فإنه انتخبه ^(١) وأكرمه ، ولو أن أبا سفيان ولد الناس كلهم لكانوا حلاماً ^(٢) .
فقال له صمصمة بن ضوحان : كذبت ا قد ولدتم خير من أبي سفيان ا من خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البر والفاجر ، والكيس والأحمق .

قال : ومن المجالس التي دارت بينهم أن معاوية قال لهم : أيها القوم ردوا خيرا أو اسكتوا ؛ وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين ، فاطلبوه وأطيعوني .
فقال له صمصمة : لست بأهل ذلك ، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله .
فقال : إن أول كلام ابتدأت به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعة رسوله ، وأن تمتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .
فقالوا ^(٣) : بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله .
فقال : إن كنت فعلت فإني الآن أتوب ، وأمركم بتقوى الله وطاعته ، ولزوم الجماعة ، وأن توقروا أمتكم وتطيعوهم .
فقال صمصمة : إن كنت تبت فإننا نأمرك أن تعزل عمك ^(٤) ، فإن في المسلمين من هو أحق به منك ، ممن كان أبوه أحسن أثرا في الإسلام من أبيك ، وهو أحسن قدما في الإسلام منك .

فقال معاوية : إن لي في الإسلام قدما ، وإن كان غيري أحسن قدما مني ؛ لكنني

(١) انتخبه : اصطفاه واختاره ، وفي الطبري : « انتخبه » .

(٢) عبارة الطبري : « ولو ولد الناس لم يلد إلا حازما » .

(٣) في الأصول : « فقال » وصوابه من الطبري .

(٤) كذا في ا ، ج ، وفي ب : « أمرك » .

ليس في زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه متى ، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك ، فلو كان غيرى أقوى متى لم يكن عند عمر هَوادة لى ولا لغيرى ، ولم أحدث ^(١) ما ينبغي له أن أعتزل على ، فلو رأى ذلك أمير المؤمنين لكتب إلى [بخط يده] ^(٢) فاعتزلت عمله ؛ فهلا فإن في دون ما أنتم فيه ما يألمر فيسه الشيطان وينهى . ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأهوائكم ما استقام الأمر لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ؛ فعاودا الخير وقولوه ؛ فإن الله دوسطوات ؛ وإنى خائف عليكم أن تتأبعا إلى مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن . فيجلكم ذلك دار الهون في العاجل والآجل .

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته فقال : مه ! إن هذه ليست بأرض الكوفة ، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي [وأنا أمامهم] ^(٣) ما ملكت أن أنهام عيكم حتى يقتلوك ؛ فلمعمرى إن صنيعكم يشبه بعضه بعضا .

ثم قام من عندهم ، وكتب إلى عثمان في أمرهم ^(٤) ؛ فكتب إليه أن رُدَّهم إلى سعيد ابن العاص بالكوفة . فردَّهم ، فأطلقوا ألسنتهم في ذمه وذم عثمان وعيبيهما . فكتب إليه عثمان أن يسيرهم إلى حصص ، إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فسيرهم إليها .

(١) ب . « ولا ح ت » .

(٢) من الطبرى .

(٣) ذكر الطبرى كتاب معاوية إلى عثمان ، وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإنك بعثت إلى أقواماً يشكمون بالسنة الشياطين وما يملون عليهم ، ويأتون الناس - زعموا - من قبل القرآن ، فيشبهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ؛ وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أنقاهم الإسلام وأضجرهم ، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم ؛ فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرائهم من أهل الكوفة ، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرم وجورهم ؛ فارددهم إلى مصرهم ؛ فلتسكن دارهم في مصرهم الذى نجب فيه نفاقهم ، والسلام » .

وروى الوقديّ ، قال : لما سِيرَ بالنّفر الذين طردهم عثمان عن الكوفة إلى حِصْن-وهم : الأشتر ، وثابت بن قيس الهمدانيّ ، وكَمَيْل بن زياد النخعيّ ، وزيد بن صُوحان ، وأخوه صعصعة ، وجندب^(١) بن زهير الغامديّ ، وجندب^(٢) بن كعب الأزديّ وعروة بن الجعد ، وعمر بن الحقيق الخزاعيّ ، وابن الكوّاء - جمعهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، بعد أن أنزلهم أيّاما ، وفرض لهم طعاما ، ثم قال لهم يا بنيّ الشيطان ، لا مرحبا بكم ولا أهلا ؛ قد رجع الشيطان محسورا . وأنتم بعدُ في بساط ضلالكم وغيّكم ! جزى الله عبد الرحمن إن لم يؤذكم ! يامعشر من لا أدري أعرب هم أم عجم ! أتراكم تقولون لي ما قلتم لمعاوية ! أنا ابن خالد ابن الوليد ! أنا ابن من عَجَمَتِه العاجات ، أنا ابن فاقى عين الرّدة ؛ والله يا بن صُوحان لأطيرن بك طيّرة بعيدة المهوى إن بلغتني أن أحدا ممن معي دق أنفك فأفقت^(٣) رأسك . قال : فأقاموا عنده شهرا ؛ كلّما ركب أمشاهم معه ، ويقول لصعصعة : يا بن الخطيئة ، إن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ؛ مالك لا تقول كما كنت تقول لسعيد ومعاوية ! فيقولون : سنتوب إلى الله ، أَلَيْسَ أَقَالَكَ اللهُ ! فما زال ذاك دأبه ودأبهم ، حتى قال : تاب الله عليكم . فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم ، ويسأله فيهم ، فردّهم إلى الكوفة .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ رحمه الله تعالى : ثم إن سعيد بن العاص قدّم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته . فلما دخل المدينة أجمع قوم من الصحابة ، فذكروا سعيدا وأعماله ، وذكروا قرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين ، وعابوا أفعال عثمان ، فأرسلوا إليه عامر بن عبد القيس - وكان متألّها^(٣) ، واسم أبيه عبد الله ، وهو من تميم ، ثم من بني العنبر - فدخل على عثمان ، فقال له : إن ناسا من الصحابة

(١) ج : « حبيب » ، وما أثبتته من ب والطبريّ .

(٢) أفقت رأسك : رفعتها .

(٣) المتألّه : المتعبد بالتنسك .

اجتمعوا ونظروا في أعمالك ، فوجدوك قد رَكِبْتَ أمورا عظاما ، فاتَّقِ الله وتبَّ إليه .
فقال عثمان : انظروا إلى هذا ، تزعم الناس أنه قارىء ، ثم هو يجرى إلى فيكلمني فيما
لا يعلمه ! والله ما تدري أين الله ! فقال عامر : بلى والله إنى لأدري أن الله كالبِرصاد^(١) .

فأخرجه عثمان ، وأرسل إلى عبد الله بن سعد بن سرح ، وإلى معاوية وسعيد
ابن العاص وعمر بن العاص وعبد الله بن عامر — وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم —
فشاورهم ، وقال : إن لكل أمير وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحاؤي وأهل ثقتي ،
وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عُمالي وأن أرجع عن جميع
ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم .

فقال عبد الله بن عامر : أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذُلُّوا
لك ، ولا تكون همّة أحدٍ إلّا في نفسه ، وما هو فيه من دبر دابته^(٢) وقمل قرّوته .
وقال سعيد بن العاص : احسب عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف ؛ إن لكل
قوم قادة متى يَهْلِكوا يتفرّقوا ولا يجتمع لهم أمر .

فقال عثمان : إن هذا هو الرأي لولا ما فيه .

وقال معاوية : أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد ، فيكفيك كل رجل منهم
ما قبله ، فأنا أكفيك أهل الشام .

وقال عبد الله بن سعد : إن الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف
عليك قلوبهم .

فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين ؛ إنك قد رَكِبْتَ الناس^(٣) بيني أمية ، فقلت
وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل ، فإن أيدت فأعزمت عزمًا ، وامض قُدُما .

(١) في الطبري : « فإن ربك بالمرصاد لك ؛ فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان . . » .

(٢) الدبرة ، بالتحريك : قرحة الدابة والبعر ، وجمعها دبر ، بفتحين .

(٣) عبارة الطبري : « قد ركب الناس بما يكرهون » .

فقال له عثمان : مالك قَمَلٌ فَرَّوْكَ ! أهذا بجَدِّ^(١) منك !

فسكت عمرو حتى تفرّقوا ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ، لأنّ أكرمُ علىّ من ذلك ؛ ولكّني علمت أنّ بالباب مَنْ يبلّغُ الناس قول كلِّ رجلٍ مِنّا فأردت أن يبلّغهم قولي ، فينتقوا بي ، فأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شراً .

فردّ عثمان عُثماله إلى أعمالهم ، وأمرهم بتجهيز الناس في البُعوث ، وعَزَمَ على أن يحجّهم أعطياتهم ليُطيعوه ، وردّ سعيد بن العاص إلى الكوفة ، فبقيّاه أهلها بالجرعة^(٢) — وكانوا قد كرهوا إمارته ، وذمّوا سيرته — فقالوا له : ارجع إلى صاحبك ، فلا حاجة لنا فيك . فهم بأن يَمُضِيَ لوجهه ولا يرجع ، فكثّر الناس عليه ، فقال له قائل : ما هذا ! أتردّ السيلَ عن أدراجه ! والله لا يُسْكِنُ الغوغاء إلا المُشْرِفِيَّةَ^(٣) ، ويوشك أن تُنْتَضِي بعد اليوم ، ثمّ يتمنون ما هم اليوم فيه فلا يردّ عليهم . فارجع إلى المدينة ، فإنّ الكوفة ليست لك بدار .

فرجع إلى عثمان ، فأخبره بما فعلوا . فأنفذَ أبا موسى الأشعريّ أميراً على الكوفة ، وكتب إليهم : أما بعد ، فقد أرسلتُ إليكم أبا موسى الأشعريّ أميراً ، وأعفيتكم من سعيد ، والله لأفوضنكم عِرْضِي ، ولأبذلنّ لكم صَبْرِي ، ولأستصليحنكم جهدي ، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لأعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لأعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ؛ لأكون فيه عندما أحببتُم وكرهتم ؛ حتى لا يكون لكم على الله حجة ، والله أنصيرنّ كما أمرنا ، وسيجزى الله الصابرين .

(١) الطبري : « أهذا الجَدُّ منك ! » .

(٢) الجرعة ، بالتحريك — وقيل بسكون الراء : موضع قرب الكوفة ، بين النجف والحيرة .

(٣) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف ، قرى قرب حوران .

قال أبو جعفر : فلما دخلت سنة خمس وثلاثين ، تكاتب أعداء عثمان وبنى أمية في البلاد ، وحرّض بعضهم بعضا على خلع عثمان عن الخلافة ، وعزّل عماله عن الأمصار ، واتصل ذلك بعثمان ، فكتب إلى أهل الأمصار :

أما بعد ، فإنه رُفِعَ إلى أن أقواما منكم يشتمهم عمالي ويضربونهم ، فمن أصابه شيء من ذلك فليواف الموسم بمكة ، فليأخذ بحقه متى أو من عمالي فإنني قد استقدمتهم ، أو تصدّقوا فإن الله يجزي المتصدقين .

ثم كاتب عماله واستقدمهم ، فلما قدّموا عليه جمعهم ، وقال : ما شكاية الناس منكم ؟ إنني لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، وما يُعَصَّبُ هذا الأمرُ إلا بي . فقالوا له : والله ما صدق من رَفَعَ إليك ولا برّ ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا . فقال عثمان : فأشيروا عليّ ، فقال سعيد بن العاص : هذه أمور مصنوعة تُلقَى في السرّ فيتحدّث بها الناس ، ودواها ذلك السيف .

وقال عبد الله بن سعد : خُذْ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم .
وقال معاوية : الرأيُ حسنُ الأدب .

وقال عمرو بن العاص : أرى لك أن تلزّم طريقَ صاحبَيْك ، فتلينَ [في] ^(١) موضع اللين ، وتشدّ [في] ^(٢) موضع الشدة .

فقال عثمان : قد سمعتُ ما قلتم ؛ إن الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن لا بُدَّ منه ، وإن بابه الذي يُغاثق عليه ليُفتَحَ ؛ فكفّ كفّهم ^(٣) باللين والمدارة إلا في حدود الله ، فقد علّم الله أني لم آلُ الناس خيرا ، وإن راحا الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يجرّ كُها ! سكّنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم ^(٤) ، فإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تدهنوا فيها ^(٥) .

(٢) كفّفهم : اصرفهم .

(١) تكملة من الطبري .

(٣) المداينة : المصانعة ، وفي الطبري وج : « فلا تدهنوا » ، والإدهان : المصانعة .

(٤) في الأصول : « حقوقكم » ، وما أثبتته عن الطبري .

ثم نفرّ فقدم المدينة ، فدعا عليّاً وطاحيّة والزبير ، فحضرُوا وعنده معاوية ، فسكت
عثمان ولم يتكلّم ، وتكلّم معاوية ، فحمّد الله ، وقال :

أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وخيرته من خلقه ، وولاة أمر هذه الأمة ،
لا يطمع فيه أحدٌ غيرُكم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع ؛ وقد كبر^(١)
وولّى عمره ، فلواتظّرتُم به الهرم كان قريباً ؛ مع أنى أرجو أن يكون أكرم على الله
أن يبلفه ذلك ، وقد فشّت مقالة خِفْتُها عليكم ، فما عِبتُم فيه من شيء فهذه يدي
لكم به رهناً^(٢) ، فلا تطمعوا الناس في أمركم ؛ فوالله إن أطمعتموهم لارأيتم أبداً
منها إلا إداراً .

فقال علىّ عليه السلام : ومالك وذاك لأأمّ لك ! فقال : دُع أُمّي فإنّها ليست
بشر أمّهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبيّ صلى الله عليه ، وأجِبتني عمّا أقول لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أخى ، أنا أخبركم عنّي وعمّا وليت ؛ إن صاحبيّ اللذين كانا
قبلي ، ظلّما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً . وإن رسول الله صلى الله عليه كان
يعطى قرابته ، وأنا في رهطٍ أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطتُ يدي في شيء من ذلك
لما أقومُ به فيه ؛ فإن رأيتم ذلك خطأ فردّوه ، فأمرى لأمركم تبّع .

قالوا : أصبت وأحسنّت ؛ إنك أعطيت عبدَ الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً ،
وأعطيت مروانَ خمسة عشر ألفاً ، فاستعدها منها . فاستعدها ، فخرجوا راضين .

قال أبو جعفر : وقال معاوية لعثمان : اخرجُ معي إلى الشام ، فإنهم على الطاعة

(١) الطبري : « كبرت سنه » .

(٢) كلمة « رهنا » ساقطة من الطبري .

قَبْلَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيْكَ مَا لَا قَبْلَ لَكَ بِهِ ، فَقَالَ : لَا أَبِيعُ جَوَارَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ [قَطْع] ^(١) خِيْطُ عُنُقِي . قَالَ : فَأَبِيعْتُ إِلَيْكَ جُنْدًا مِنَ الشَّامِ يُقِيمُ مَعَكَ لِنَائِبَةٍ إِنْ نَابَتْ [الْمَدِينَةُ أَوْ إِيَّاكَ] ^(١) . فَقَالَ : لَا أَضِيقُ عَلَى جِيرَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَتُعْتَاكُنَّ ، فَقَالَ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ مِنْ عِنْدِ عُثْمَانَ ، فَمَرَّ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، فِيهِمْ عَلَى عَالِيهِ السَّلَامِ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ ، وَعَلَى مَعَاوِيَةَ ثِيَابُ سَفَرِهِ ، وَهُوَ خَارِجٌ إِلَى الشَّامِ ، فَقَامَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ كَانَ الْبَاسَ يَتَفَالَبُونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ، فَتَفَاضَلُوا بِالسَّابِقَةِ وَالْقُدِّمَةِ وَالْجِهَادِ ؛ فَإِنْ أَخَذُوا بِذَلِكَ فَلَأَمْرُ أَمْرِهِمْ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ تَبَعٌ ، وَإِنْ طَلَبُوا الدُّنْيَا بِالتَّغَالُبِ سُلِبُوا ذَلِكَ ، وَرَدَّ اللَّهُ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَإِنْ اللَّهُ عَلَى الْبَدَلِ لِقَادِرٌ . وَإِنِّي قَدْ خَلَفْتُ فِيكُمْ شَيْخَنَا ، فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْرًا وَكَانَفُوهُ ، تَسْكُونُوا أَسْعَدَ مِنْهُ بِذَلِكَ . ثُمَّ وَدَّعَهُمْ وَمَضَى . فَقَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : كُنْتُ أَرَى فِي هَذَا خَيْرًا . فَقَالَ الزُّبَيْرُ : وَاللَّهِ مَا كَانَ أَعْظَمَ قُطْ فِي صَدْرِكَ وَصَدُورِنَا مِنْهُ الْيَوْمَ .

قُلْتُ : مِنْ هَذَا الْيَوْمِ أَنْشَبَ مَعَاوِيَةُ أَظْفَارَهُ فِي الْخِلَافَةِ ؛ لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ قَتْلُ عُثْمَانَ ، وَرَأَى أَنَّ الشَّامَ بِيَدِهِ ، وَأَنَّ أَهْلَهَا بِطِيعُونَهُ ، وَأَنَّ لَهُ حِجَّةَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْهِمْ ، وَيَجْعَلُهَا ذَرِيعَةً إِلَى غَرَضِهِ ؛ وَهِيَ قَتْلُ عُثْمَانَ إِذَا قُتِلَ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي أَمْرَاءِ عُثْمَانَ أَقْوَى مِنْهُ وَلَا أَقْدَرُ عَلَى تَدْيِيرِ الْجِيُوشِ ، وَاسْتِمَالَةِ الْعَرَبِ ، فَبَنَى أَمْرَهُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ عَلَى الطَّمَعِ فِي الْخِلَافَةِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ لَصَعَصَعَةً مِنْ قَبْلِ : إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَقْوَى مِنِّي عَلَى الْإِمَارَةِ ، وَإِنْ عَمِرَ

(١) تكملة من الطبرى .

استعملني ورضي سيرتي ! أو لا ترى إلى قوله للمهاجرين الأولين : إن شرعتم في أخذها بالتغالب ، وملتم على هذا الشيخ ، أخرجها الله منكم إلى غيركم وهو على الاستبدال قادر ، وإنما كان يعني نفسه ، وهو يَكْنِي عنها ، ولهذا تربّض^(١) بنصرة عثمان لما استنصره ولم يبعث إليه أحدا .

وروى محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى ، قال : لما أجلب الناس على عثمان ، وكثرت القالة فيه ، خرج ناس من مصر^(٢) منهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوي ، وكفانة ابن بَشْرِ اللّيثي ، وسودان بن حُمران السَّكُونِي ، وقتيرة بن وهب السَّكْسَكِي ، وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقي ، وكانوا في ألفين . وخرج ناس من الكوفة ، منهم زيد بن صُوحان العبدي ، ومالك الأشتر الفخمي ، وزباد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم الغامدي ، في ألفين . وخرج ناس من أهل البصرة ، منهم حُكَيْم بن جَبَلَة العبدي ، وجماعة من أمراءهم ، وعليهم حُرْقُوص بن زهير السَّعْدِي ؛ وذلك في شوال من سنة خمس وثلاثين ، وأظهروا أنهم يُريدون الحج . فلما كانوا من المدينة على ثلاث ، تقدّم أهل البصرة ، فنزلوا ذا خُشب^(٣) . وكان هوام في طلحة - وتقدم أهل الكوفة ، فنزلوا الأعوص^(٤) . وكان هوام في الزبير - وجاء أهل مصر فنزلوا المروّة^(٥) . وكان هوام في علي عليه السلام - ودخل ناس منهم إلى المدينة يخبرون ما في قلوب الناس لعثمان ، فلقوا جماعة من المهاجرين والأنصار ، ولفوا أزواج للنبي صلى الله عليه وآله ، وقالوا : إنما نريد الحج ، ونستعفي من عمالنا .

ثم اتى جماعة من المصريين علياً عليه السلام ، وهو مقبلاً سيفه عند أحجار الزيت^(٥) ،

(١) تربّض : قعد ولم ينصره . (٢) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة .
(٣) أعوص : موضع قرب المدينة على أميال منها . (٤) المروّة : جبل بمكة ينتهي إليه السمي من الصفا .
(٥) أحجار الزيت : موضع بالمدينة .

فسلموا عليه ، وعَرَضُوا عليه أمرهم ، فصاح بهم وطردهم ، وقال : لقد عَلِمَ الصالحون أن جيش المروّة وذى خُشْب والأعوص مَلْعُونُونَ على لسانِ محمد صلى الله عليه .
فانصرفوا عنه .

وَأَتَى البصريون طلحة ؛ فقال لهم مثلَ ذلك ، وَأَتَى السكوفيون الزبيرَ ، فقال لهم مثلَ ذلك . فتفرقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم .

فلما أَمِنَ أَهْلُ المدينة منهم واطمأنُّوا إلى رُجُوعِهِمْ لم يشعروا إِلَّا والتكبيرُ في نواحي المدينة ، وقد نزلوها ، وأحاطوا بعمان ، ونادى منادِيهم : يَا أَهْلَ المدينة ، مَنْ كَفَّ يَدَهُ عن الحرب فهو آمِنٌ . فَحَصَرُوهُ في منزله ، إِلَّا أَنَّهُمْ لم يَمْنَعُوا النَّاسَ من كلامه ولِقَائِهِ ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين ، وسألوهم : مَا شَأْنُكُمْ ؟ فقالوا : لَا حَاجَةَ لَنَا في هَذَا الرجل ، لِيَعْتَزِلْنَا لِنُؤَلِّيَ غَيْرَهُ ، لم يَزِيدُوهُمْ على ذلك .

فكَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، يَسْتَنْجِدُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَعْجِيلِ الشُّخُوصِ إِلَيْهِ لِمَنْعِ عَنَّهُ ، وَيَعْرِفُهُمْ مَا النَّاسُ فِيهِ . فَخَرَجَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلُولِ ، فَبَعَثَ مَعَاوِيَةَ حَبِيبَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْفَهْرِيَّ ، وَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ مَعَاوِيَةَ بْنَ خُدَيْجٍ ، وَخَرَجَ مِنَ السَّكُوفَةِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو ؛ بَعَثَهُ أَبُو وَسَى .

وَقَامَ بِالسَّكُوفَةِ نَفَرٌ يَحْرِضُونَ النَّاسَ عَلَى نَصْرِ عُثْمَانَ وَإِعَانَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مِنْهُمْ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرِو ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُوْفَى ، وَحَنْظَلَةُ السَّكَاتِبِ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَمِنَ التَّابِعِينَ مَسْرُوقٌ ، وَالْأَسُودُ ، وَشُرَيْحٌ ، وَغَيْرُهُمْ .

وَقَامَ بِالْبَصْرَةِ عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ . وَمِنَ التَّابِعِينَ كَعْبُ بْنُ سُور^(١) ، وَهَرِيمُ بْنُ حَيَّانٍ وَغَيْرُهُمَا .

(١) في الأصول : « شور » ، وصوابه من الطبري والقاموس .

وقام بالشام ومصر جماعة من الصحابة والتابعين .
 وخرج عثمان يوم الجمعة ، فصلى بالناس ، وقام على المنبر ، فقال : يا هؤلاء ، الله الله ؛
 فوالله إن أهل المدينة يعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه ، فامحوا
 الخطأ بالصواب .

فقام محمد بن مسلمة الأنصاري ، فقال : نعم أنا أعلم ذلك ، فأقعدته حُكَيْمُ بن جَبَلَةَ .
 وقام زيد بن ثابت فأقعدته قُتَيْبَةُ بن وهب . وثار القوم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم
 من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صُرع عن المنبر مغشياً عليه ؛ فأدخل داره ؛ واستقتل
 نفر من أهل المدينة مع عثمان ؛ منهم سعد بن أبي وقاص ، والحسن بن علي عليه السلام ،
 وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ؛ فأرسل إليهم عثمان : عزمت عليكم أن تنصرفوا ؛
 فانصرفوا .

وأقبل على طلحة والزبير ، فدخلوا على عثمان يمدونه من صرعه ، ويشكون إليه
 ما يجدون لأجله ؛ وعند عثمان نفر من بني أمية ، منهم مروان بن الحكم ، فقالوا لعل
 عليه السلام : أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت ا والله إن بلغت هذا الأمر الذي تريده
 لنمرن عليك الدنيا ؛ فقام مغضباً ، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم .

وروى الواقدي ، قال : صلى عثمان بعد ما وثبوا به في المسجد شهراً كاملاً ، ثم منعه
 الصلاة ، وصلى بالناس أميرهم الغافقي .
 وروى المدائني ، قال : كان عثمان محصوراً محاطاً به ، وهو يصلي بالناس في المسجد ،
 وأهل مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خلفه ، وهم أدق في عينه
 من التراب .

قال أبو جعفر في التاريخ : ثم إن أهل المدينة تفرقوا عنه ، ولزموا بيوتهم ، لا يخرج أحد منهم إلا بسيفه يمتنع به ؛ فكان حصاره أربعين يوماً .

وروى الكلبي والواقدي والمدائني أن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة كانا بمصر يحرضان الناس على عثمان ، فسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان ، وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر ، ثم غلب عليها لما سار عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامل عثمان عنها إلى المدينة في أثر المصريين ، بإذن عثمان له ، فلما كان بأيلة ، بلغه أن المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول ، وأن محمد بن أبي حذيفة قد غلب على مصر ، فعاد عبد الله إلى مصر ، فمنع عنها ، فأقام بها حتى قُتل عثمان .

وروى الكلبي ، قال : بعث عبد الله بن سعد بن أبي سرح رسولا من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض من نهض من مصر إليه ، وأنهم قد أظهروا العفوة ، وقصدتهم خلعهم أو قتلهم ، فخطب عثمان الناس ، وأعلمهم حالهم ، وقال : إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عُمرى ، والله إن فارقتهم ليمتمن كل منهم أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم سنة ؛ بما يرون من الدماء المسفوقة والإحْن والآثرة الظاهرة ، والأحكام المغيرة .

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرض على عثمان ويُغري به ، ولقد خطب عثمان يوماً في أواخر خلافته ، فصاح به عمرو بن العاص : اتق الله يا عثمان ، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك ، فتنب إلى الله نَتَب . فناداه عثمان : وإنك هاهنا يا ابن النابغة ! قَمِلْتَ والله جُبَّتْكَ منذ نزعْتُكَ عن العمل . فنودى من ناحية أخرى : تب إلى الله . ونودى من أخرى مثل ذلك ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم إني أول التائبين . ثم نزل .

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص شديد التحريض والتأليب على عثمان ، وكان يقول : والله إن كنت لألقى الراعى فأحرّضه على عثمان ، فضلا عن الرؤساء والوجوه . فلما سَعَرَ الشرّ بالمدينة ، خرج إلى منزله بفلسطين ، فبينما هو بقصره ومعه ابناه : عبد الله ومحمد ؛ وعندهم سلامة بن روح الجذامي ، إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان ، فقال : محصور ، فقال عمرو : أنا أبو عبد الله ! قد يضرب العير والمسكواة في النار . ثم مرّ بهم راكب آخر ، فسألوه ، فقال : قُتِلَ عثمان فقال عمرو : أنا أبو عبد الله ، إذا نسكأت قرحة أدميتها^(١) . فقال سلامة بن روح : يا معشر قريش ؛ إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه ، فقال : نعم أردنا أن يخرج الحق من خَصِرَةِ الباطل ، ليسكون الناس في الأمر شرعاً سواء .

وروى أبو جعفر ، قال : لما نزل القوم ذا خُشْب يريدون قتل عثمان إن لم ينزع عما يكرهون ، وعلم عثمان ذلك ، جاء إلى منزل عليّ عليه السلام ، فدخل وقال : يا بن عمّ ، إن قرابي قريبة ، ولي عليك حقّ ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مُصَبَّحِيّ ، ولك عند الناس قُدْر ، وهم يسمعون منك ، وأحبُّ أن تركب إليهم فتدّهم عني ، فإن في دخولهم عليّ وهذا لأمرى ، وجُرْأَة عليّ . فقال عليه السلام : على أي شيء أردتهم ؟ قال : على أن أصير إلى ما أشرت به ، ورأيتني لي . فقال عليّ عليه السلام : إني قد كلّتك مرة بعد أخرى ، فكل ذلك تخرج وتقول ، وتعدّ ثم ترجع ! وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد ؛ فإنك أطعتهم وعصيتني ! قال عثمان : فإني أعصيتهم وأطيعك .

فأمر عليّ عليه السلام الناس أن يركبوا معه ، فركب ثلاثون رجلاً من المهاجرين

(١) الطبري : « حككت قرحة نسكاتها » .

والأنصار ، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل ، وأبو جَهْم العدويّ ، وجُبَيْر بن مُطعم ، وحَكِيم بن حِزام ، ومَرْوان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتاب ابن أُسيد .

ومن الأنصار أبو أُسيد الساعديّ ، وزيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وغيرهم .

فأتوا المصريين فكلّموهم ، فكان ^(١) الذي يكلمهم علىّ ومحمد بن مسامة ، فسمعوا منهما ، ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر ، ورجع علىّ عليه السلام حتى دخل على عثمان ، فأشار عليه أن يتكلّم بكلام يسمعه الناس منه ، ليسكنوا إلى ما بعدهم به من النزوع ^(٢) . وقال له : إن البلاد قد تمخّضت عليك ، ولا آمن أن يحيى ركب من جهة أخرى ، فتقول لي : يا علىّ ، اركب إليهم ؛ فإن لم أفعل رأيتني قد قطعْتُ رحلك ، واستخففت بحقك .

فخرج عثمان ، فخطب الخطبة التي نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة ، وقال لهم : أنا أولُ من انعط ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه ، فثلى نزع وتاب ؛ فإذا نزلت فلما تثنى أشرافكم فليروا رأيهم ، وليذكر كل واحد ظلامته ؛ لأكشفها ، وحاجته لأفضيها ، فوالله لئن ردني الحقُّ عبداً لأستنّ بسنة العبيد ، ولأذنّ ذلّ العبيد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، والله لأعطيّنكم الرضا ، ولأنحّيّن مَرْوان وذويه ، ولا أحتجب عنكم .

فرقّ الناس له وبكوا حتى خضلوا لحاهم ، وبكى هو أيضاً ، فلما نزل وجد مَرْوان وسعيداً ^(٣) ونفراً من بنى أمية في منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته ؛ ولكنها بلغتهم ؛ فلما جلس ، قال مَرْوان : يا أمير المؤمنين ، أتتكلّم أم أسكت ؟ فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان : لا بل تسكت ، فأتتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله ؛ إنه قد قال مقالة لا ينبغي له

(١) ، ج : « وكان » . (٢) نزع عن الأمر نزوعاً : انتهى منه . (٣) هو سعيد بن العاص .

أن ينزع عنها . فقال لها مروان : وما أنت وذاك ! والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! فقالت : مهلا يا مروان عن ذكر أبي إلا بخير ؛ والله لولا أن أباك عمّ عثمان ، وأنه يناله غمة وعيبه ، لأخبرتكَ من أمره بما لا أكذب فيه عليه .

فأعرض عنه عثمان ، ثم عاد فقال : يا أمير المؤمنين ، أتتكلّم أم أسكت ؟ فقال : تسكّم ، فقال : بأبي أنت وأمي ! والله لو دِدْتُ أن مقاتلك هذه كانت وأنت تمتنع ، فكنتُ أوّل مَنْ رَضِيَ بها وأعان عليها ؛ ولكنتُ قلت ما قلت ، وقد بلغ الحزَامُ الطَّبِيبِينَ ، وجاوز السَّيْلُ الرَّبِّي^(١) ، وحين أعطى الخُطَّةَ الذليلة الذليل ؛ والله لإقامة على خُطِيئة تستغفر الله منها ، أجلُّ من توبة تُخَوِّفُ عليها ، ما زدت على أن جرأت عليك الناس .

فقال عثمان : قد كان من قَوْلِي ما كان ، وإنّ الفأيت لا يُردّ ، ولم آلُ خيرا . فقال مروان : إنّ الناس قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال ، قال : ماشأنهم ؟ قال : أنت دعوتهم إلى نفسك ، فهذا يذكر مظامة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل من عمّالك عنه ، وهذا ماجئيت كلّى خلافتك ، ولو استمسكت وصبرت كان خيرا لك . قال : فاخرج أنت إلى الناس فكلمهم فأني أستحي أن أكلمهم وأردّهم .

فخرج مروان إلى الناس ، وقد ركب بعضهم بعضا ، فقال : ماشأنكم ؟ قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ؛ شامت الوجوه^(٢) ! أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اعزُّوا عَنَّا ؛ والله إن رُمْتُمونا لَنُمرِّنَ عليكم ماحلا ، ولنُجِلِّنَ بكم مالا يسركم ، ولا تحمدوا فيه غِب^(٣) رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإننا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا .

(١) جاوز الحزام الطيبين ؛ مثل ؛ يقال لمواضع الأخلاف من الناقة أطباء ؛ واحدها طبي ؛ بضم الطاء وكسرهما ، فإذا بلغ الحزام الطيبين فقد انتهى في المسكروه . ومثله جاوز السيل الربّي ؛ والزبي جمع زبية ؛ وهي مصيدة الأسد ؛ ولا تتخذ إلا في قلة أو هضبة أو رابية .

(٢) شامت الوجوه : قبيحت .

(٣) غب رأيكم ، أي عاقبة رأيكم .

فرجع الناس خائبين يشتمون عثمان ومروان، وأناى بعضهم علياً عليه السلام فأخبره
الخبر، فأقبل علىّ عليه السلام علىّ عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهرى، فقال :
أحضرت خطبة عثمان ؟ قال : نعم ، قال : أحضرت مقالة مروان للناس ؟ قال : نعم ، فقال :
أى عباد الله ، يا لله للمسلمين ! إني إن قعدتُ فى بيتى ، قال لى : تركتني وخذلتني !
وإن تكلمت فبلّغت له ما يريد ، جاء مروان فتلقب به حتى قد صار سيقاً^(١) له ؛ يسوقه
حيث يشاء ، بعد كبر السن وصحبته الرسول صلى الله عليه . وقام مفضباً من قوره حتى
دخل علىّ عثمان ، فقال له : أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك !
فأنت معه كجمل الظمينة ، يُقاد حيث يُسار به ؛ والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا عقله ،
وإني لأراه يُوردك ثم لا يُصدرك ، وما أنا عائدٌ بعد مقامى هذا لمعاتبتك ؛ أفسدت
شرفك ، وغلبت علىّ رأيك . ثم نهض .

فدخلت نائلة بنت الفرافصة ، فقالت : قد سمعتُ قول علىّ لك ، وإنه ليس براجر
إليك ولا معاود لك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء . قال : فما أصنع ؟ قالت :
تتقى الله وتتبع سنة صاحبك ، فإنك متى أطعت مروان قتلتك ، وليس لمروان عند الناس
قدّر ولا هيبة ولا محبة ، وإنما تركك الناس لمكانه ، وإنما رجع عنك أهل مصر لقول
علىّ ؛ فأرسل إليه فاستصليحه ؛ فإن له عند الناس قدماً ، وإنه لا يعصى .

فأرسل إلى علىّ فلم يأت به وقال : قد أعلمته أنى غير عائد .

قال أبو جعفر : فجاء عثمان إلى علىّ بمنزله ليلاً ، فاعتذر إليه ، ووعد من نفسه الجميل ،
وقال : إني فاعل ، وإني غير فاعل ؛ فقال له علىّ عليه السلام : أبعد ما تكلمت على منبر
رسول الله صلى الله عليه ، وأعطيت من نفسك ، ثم دخلت بيتك ، وخرج مروان

(١) سيقاً له : أى مسوقاً .

إلى الناس يشتمهم على بابك ! فخرج عثمان من عنده ، وهو يقول : خذلتني يا أبا الحسن ! وجرت الناس على فقال علي عليه السلام : والله إنى لأكثرُ الناس ذباً عنك ؛ ولستنى كلما جئت بشيء أظنه لك رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله ، وتركته قولى .

ولم يمد علي إلى نصر عثمان ؛ إلى أن منيع الماء لما اشتد الحصار عليه ، فغضب علي من ذلك غضباً شديداً ، وقال لطلحة : أدخلوا عليه الروايا ، فسكره طلحة ذلك وساءه ، فلم يزل علي عليه السلام حتى أدخل الماء إليه .

وروى أبو جعفر أيضاً أن علياً عليه السلام كان في ماله بخير لَمَّا حُصِرَ عثمان ، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة ، وكان لطلحة في حصار عثمان أثر ، فلما قدم علي عليه السلام أتاه عثمان ، وقال له : أما بعد ؛ فإن لى حق الإسلام وحق الإخاء والقراة والصهر ، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنتا في جاهلية ، لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم - يعنى طلحة - فقال له علي : أنا أكتفيك ، فاذهب أنت .

ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد ، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهى مملوءة من الناس ، فقال له : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى صنعت بعثمان ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعده أن مس الحزام الطيبين ! فانصرف علي عليه السلام حتى أتى بيت المال ، فقال : افتحوه ، فلم يجدوا المفاتيح ، فكسر الباب ، وفرق ما فيه على الناس ؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بقي وحده ، وسر عثمان بذلك ؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني أردت أسراً لخال الله يبنى وبينه ، وقد جئتك تائباً ، فقال : والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً ؛ الله حسيبك يا طلحة !

قال أبو جعفر : كان عثمان مستضعفا ، طمع فيه الناس ، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بني أمية عليه ، وكان ابتداء الجزاء عليه أن إبلًا من إبل الصدقة قُدم بها عليه ؛ فوهبها لبعض ولد الحُكم بن أبي العاص ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره ، فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان .

وقيل : بل كان أول وهن دخل عليه ، أن عثمان مرَّ بجبله بن عمرو الساعديّ ، وهو في نادي قومه ، وفي يده جامعة ، فسلم ، فردّ القوم عليه ، فقال جبلة : لِمَ تردُّون على رجل فعل كذا وفعل كذا ؟ ثم قال لعثمان : والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك أو لثركنّ بطنائك هذه الخبيثة ؛ مروان وابن عامر وابن أبي سرح ، فمنهم من نزل القرآن بذمه ، ومنهم من أباح رسول الله صلى الله عليه وآله دمه .

وقيل : إنه خطب يوما ويده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها جهجاء الغفاريّ من يده ، وكسرها على ركبته ، فلما تكاثرت أحداثه ، وتكاثر طمع الناس فيه ، كتب بجُح من أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق : إن كنتم تُريدون الجهاد ، فهُمُّوا إلينا فإن دين محمد قد أفسده خليفتم فاخلعوه ، فاختلفت عليه القلوب ، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث .

وروى الواقديّ والدائنيّ وابن الكلبيّ وغيرهم ، وذكره أبو جعفر في التاريخ ؛ وذكره غيره من جميع المؤرخين : أن عليا عليه السلام لما ردّ المصريين ، رَجَعُوا بعد ثلاثة أيام ، فأخرجوا صحيفة في أنبوبة رصاص ، وقالوا : وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف

بالْبُؤْيَب^(١) على بعير من إبل الصدقة ، ففتشنا متاعه ؛ لأننا استرَبْنَا أمره ، فوجدنا فيه هذه الصحيفة ، مضمونها أَمْرُ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ بِجَلْدِ عبد الرحمن بن عَدِيسٍ وعمر بن الحِقِيقِ ، وَحَلْقِ رؤوسهما ولحاهما وجنبسهما ، وصاب قوم آخرين من أهل مصر .

وقيل : إنَّ الذي أَخَذَتْ منه الصحيفة أبو الأعور السلمي ، وإنهم لما رأوه وسألوه عن مسيره ، وهل معه كتاب ؟ فقال : لا ، فسألوه : في أى شيء هو ؟ فتغير كلامه ، فأخذه وفنشه وأخذوا الكتاب منه ، وعادوا إلى المدينة . وجاء الناس إلى علي عليه السلام ، وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال ، فقام فجاء إليه فسأله ، فأقسم بالله ما كتبته ولا علمته ، ولا أمرت به ، فقال محمد بن مسلمة : صدق ، هذا من عمل مَرْوَانَ ، فقال : لا أدري - وكان أهل مصر حضورا - فقالوا : أفيَجْتَرَأُ عليك وبيعَتُ غلامك على جمل من إبل الصدقة ؛ وينقش على خاتمك ، وبيعَت إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة ، وأنت لا تدري ! قال : نعم ، قالوا : إنَّكَ إما صادق أو كاذب ، فإن كنت كاذبا فقد استحققت الخلع ؛ لما أمرت به من قتلنا وعقوبتنا بغير حق ، وإن كنت صادقا فقد استحققت الخلع ، لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك ، وخبث بطانتك ، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته ، فاخلع نفسك منه . فقال : لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، ولكني أتوب وأنزع ، قالوا : لو كان هذا أول ذنب تبت منه لقبلا ، ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ، ولسنا بمنصرفين حتى نخلمك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله ، وإن منعت أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلف إليك . فقال : أَمَا أَنْ أبرا من خلافة الله فالقتل أحب إلي من ذلك ! وأما قتالكم من يمنع عني ، فإني لا آمر أحدا بقتالكم ، فمن قاتلكم بغير أمري قاتل ، ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا

(١) البؤيب : مدخل أهل الحجاز إلى مصر .

على أو لحقتُ ببعض الأطراف . وكثرت الأصوات واللفظ ، فقام على فأخرج أهل مصر معه ، وخرج إلى منزله .

قال أبو جعفر : وكتب عُثمان إلى معاوية وابنِ عامر وأمرأه الأجناد يستنجدهم ، ويأمر بالعجل والبيدار وإرسال الجنود إليه ، فتربّص به معاوية ، فقام في أهل الشام يزيد ابن أسد القسري جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق ، فتبعه خلقٌ كثير ، فسار بهم إلى عثمان ، فلما كانوا بوادي القرى بلغهم قتلُ عثمان ، فرجعوا .

وقيل : بل أشخص معاوية من الشام حبيب بن مسلمة الفهري ، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي ، فلما وصلوا الرّبذة^(١) ، ونزلت مقدمتهم الموضع المسمى صرارا^(٢) بناحية المدينة ، أتاهم قتلُ عثمان ، فرجعوا . وكان عثمان قد استشار نصحاءه في أمره ، فأشاروا أن يرسل إلى علىّ عليه السلام ، يطالب إليه أن يردّ الناس ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى تأتية الأمداد ، فقال : إنهم لا يقبلون التعليل ، وقد كان مني في المرأة الأولى ما كان ، فقال مروان : أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك ، فإنهم قوم قد بنوا عليك ، ولا عهد لهم .

فدعا عليا عليه السلام ، وقال له : قد ترى ما كان من الناس ، ولست آمنهم على دمي ، فاردّهم عني ، فإني أعطيهم ما يريدون من الحق من نفسي ومن غيري .

فقال علىّ : إن الناس إلى عدلِكَ أحوجُّ منهم إلى قتلِكَ ، وإنهم لا يرضون إلا

(١) الرّبذة : من قرى المدينة ، على ثلاثة أميال منها ، بها قبر أبي ذر الغفاري .

(٢) صرار : موضع قريب من المدينة ، على طريق العراق .

بالرضا ، وقد كنت أعطيتهم من قبل عهد فلم تف به ، فلا تفرّ في هذه المرة ، فأبى معطيهم عنك الحق ، قال : أعطهم فوالله لأفبنّ لهم .

فخرج على عليه السلام إلى الناس ، فقال : إنكم إنما تطلبون الحق وقد أعطيتهموه ، وإنه منصفكم من نفسه ، فسأله الناس أن يستوثق لهم ، وقالوا : إنا لا نرضى بقول دون فعل ، فدخل عليه فأعلمه ، فقال : اضرب بيني وبين الناس أجلاً ، فأبى لا أقدر على تبديل ما كرهوا في يوم واحد ، فقال على عليه السلام : أما ما كان بالمدينة فلا أجل فيه ، وأما ما غاب فأجله وصول أمرك ، قال : نعم ، فأجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام . فأجابه إلى ذلك ، وكتب بينه وبين الناس كتاباً على رد كل مظلمة ، وعزل كل عامل كرهوه . فنكف الناس عنه ، وجعل يتأهب سرا للقتال ، ويستعد بالسلاح ، واتخذ جُنُداً ، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئاً ثار به الناس ، وخرج قوم إلى مَنْ بذى خُشب من المصريين ، فأعلموهم الحال ، فقدموا المدينة ، وتسكاثر الناس عليه ، وطلبوا منه عزل عماله وردّ مظالمهم ؛ فكان جوابه لهم : إني إن كنت أستعمل مَنْ تريدون لا مَنْ أريد ، فلست إذن في شيء من الخلافة ، والأمر أمرُكم فقالوا : والله لتفعلنّ أولئـكـم أولئـكـم . فأبى عليهم وقال : لا أنزع سِرّاً سربلتني الله . فحصروه وضيقوا الحصار عليه .

وروى أبو جعفر : لما اشتدّ على عثمان الحصار ، أشرف على الناس ، فقال : يا أهل المدينة ، أستودِعكم الله وأسأله أن يُحسن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال : أنشدكم الله ، هل تعملون أنكم دعوتُم الله عند مصاب عُمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أفتقولون : إن الله لم يستجب لكم ، وهنتم عليه ، وأنتم أهل حقه وأنصار نبيّه^(١) ، أم تقولون : هان على الله

(١) ب : « دينه » .

دينه فلم يبال من ولى ، والدين لم يتفرق أهله بعد ! أم تقولون : لم يكن أخذ عن مشورة ، إنما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة - إذ عصته ولم يتشاوروا في الإمامة - إلى أنفسهم ! أم تقولون : إن الله لم يعلم عاقبة أمرى ! فهنا مهلا ! لا تقتلوني ، وإنه لا يحلّ إلا قتل ثلاثة : زان بعد إحسان ، أو كافر بعد إيمان ، أو قاتل نفس بغير حق . أما إنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لا يرفع الله عنكم أبدا . فقالوا : أما ماذا كرت من استخارة الناس بعد عمر ، فإن كل ما يصفه الله الخيرة ، ولو سكن الله جعلك بليّة ابتلى بها عباده ، ولقد كانت لك قدم وسابقة ، وكنت أهلا للولاية ، ولكن أحدثت ما تعلمه ، ولا تترك اليوم إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا . وأما قولك : لا يحلّ دم إلا بإحدى ثلاث : فإننا نجد في كتاب الله إباحة دم غير الثلاثة : دم من سعى في الأرض بالفساد ، ودم من بنى ثم قاتل على بغيه ، ودم من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه ؛ وقد بغيت ومنعت الحق ، وحلت دونه ، وكبرت عليه ، ولم تقدم من نفسك من ظلمته ، ولا من عمالك ، وقد تمسكت بالإمارة علينا . والذين يقومون دونك ويمنعونك ، إنما يتمنعونك ويقالوننا لتسميتك بالإمارة ؛ فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك .

فسكت عثمان ولزم الدار ، وأمر أهل المدينة بالرجوع ، وأقسم عليهم فرجعوا ، إلا الحسن بن علي ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزبير وأشباههم ، وكانت مدة الحصار أربعين يوما .

قال أبو جعفر : ثم إن محاصري عمان أشفقوا من وصول أجناد من الشام والبصرة تمنعه ، فخالوا بين عمان وبين الناس ، ومنعوه كل شيء حتى الماء ، فأرسل عثمان ميرا إلى علي عليه السلام ، وإلى أزواج النبي صلى الله عليه وآله أنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم أن

تُرسلوا إلينا ماء فافعلوا . فجاء على عليه السلام في الغلّس وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، فوقف على عليه السلام على الناس فوعظهم ، وقال : أيّها الناس ؛ إنّ الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين ؛ إنّ فارس والروم لتأسير فتطعم وتسقى ، فالله الله ! لاتقطعوا الماء عن الرجل ؛ فأغلظوا له وقالوا : لانعم ولا نعمة عين^(١) . فلما رأى منهم الجِدّ نزع عمامته عن رأسه ، ورعى بها إلى دار عثمان ، يُعلمه أنه قد نهض وعاد .

وأما أمّ حبيبة — وكانت مشتملة على إداوة — فضربوا وجه بملأها ، فقالت : إنّ وصايا أيتام بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلِكَ أموال اليتامى ، فشتموها ، وقالوا : أنت كاذبة ، وقطعوا حبل^(٢) البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها .

وروى أبو جعفر ، قال : أشرف عثمان عليهم يوما ، فقال : أنشدكم الله ، هل تعلمون أنّي اشتريت بئر رومة^(٣) بمالى ، أستعذب بها ، وجعلت رِشائي فيها كرجل من المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : فلم تمنعوني أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ! ثم قال : أنشدكم الله ، هل تعلمون أنّي اشتريت أرض كذا ، فزدها في المسجد ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل علمتم أنّ أحدا منكم أن يصلي فيه قبلي !

(١) نعمة العين : قرّتها .

(٢) الحبل للداية : رسنها .

(٣) بئر رومة في عقيق المدينة ، روى عن بشير الأسلمى ، قال : لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكان لرجل من بني غفار بئر يقال لها بئر رومة ، كان يبيع منها القرية بالمد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعنيها بعين في الجنة ، فقال : يا رسول الله ، ليس لي ولا لعمالي غيرها ، لا أستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم . . . وتصدق بها كلها . (معجم البلدان ١ : ٤)

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عيَّاش بن أبي ربيعة الخزوميّ، قال: دخلتُ على
عثمان، فأخذ بيدي فأسمعني كلامَ مَنْ على بابه من الناس، فمنهم مَنْ يقول: ماتتظرون
به؟ ومنهم مَنْ يقول: لا تمجّلوا، فمساء ينزع ويراحع؛ فبينما نحن إذ مرّ طلحة، فقام
إليه ابنُ عُدَيْسِ البَلَوِيِّ، فناجاه، ثم رجع ابنُ عُدَيْسِ، فقال لأصحابه: لا تتركوا أحدا
يدخل إلى عثمان، ولا يخرج من عنده، قال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة، اللهم اكفني
طلحة، فإنه حَمَلُ هؤلاء القوم وألبهم على، والله إني لأرجو أن يكونَ منها صِفْرا، وأن
يُسْفَلَ دمه! قال: فأردت أن أخرج، فمعنوني حتى أمرهم محمد بن أبي بكر، فتركوني
أخرج^(١).

قال أبو جعفر: فلما طال الأمرُ وعلم المصريون أنهم قد أجزموا إليه جرماً كجُرم القتل،
وأنه لا فرقَ بَيْنَ قتله وبين ما أتوا إليه، وخافوا على نفوسهم مِنْ تَرْكه حَيًّا، راموا
الدخولَ عليه من باب داره، فأغلقوا الباب، وما نَعَمهم الحسنُ بن عليّ، وعبد الله بن
الزبير، ومحمد بن طلحة، ومروان، وسعيد بن العاص؛ وجاعة معهم من أبناء الأنصار،
فزَجَرَهُم عثمان، وقال: أنتم في حِلٍّ من نُصرتي، فأبوا ولم يرجعوا.
وقام رجل من أسلم يقال له نيار بن عياض - وكان من الصَّحابة - فنادى عثمان،
وأمره أن يخلع نفسه، فبينما هو يُناشِده ويسومه خلع نفسه، رماه كثير بن الصلت
السكندريّ - وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار - بسهم فقتله، فصاح المصريون وغيرهم
عند ذلك: ادفعوا إلينا قاتلَ ابن عياض لِنَقْتله به، فقال عثمان: لم أكن لأدفعَ إليكم رجلا
نصرتي وأنتم تريدون قتلي! فناروا إلى الباب، فأغلق دونه، فجاءوا بنار فأحرقوه
وأحرقوا السَّقِيفَةَ التي عليه، فقال لمن عنده من أنصاره: إن رسول الله صلى الله عليه عهد

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٨، ٣٧٩.

إلى عهدنا فأنا صابر عليه ، فأخرج على رجل يقاتل دوني اثم قال للحسن : إن أباك الآن في أمر عظيم من أجلك ، فأخرج إليه ، أقسمت عليك لما خرجت إليه ا فلم يفعل ، ووقف محاميا عنه .

وخرج مروان بسيفه يجالد الناس ، فضر به رجل من بني ليث على رقبته ، فأثبته^(١) وقطع إحدى علياويه^(٢) ، فعاش مروان بعد ذلك أوقص^(٣) ، وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقى ليذفف عليه^(٤) ، فقامت دونه فاطمة أم إبراهيم بن عدي - وكانت أرضعت مروان وأرضعت له - فقالت له : إن كنت تريد قتله فقد قُتل ، وإن كنت إنما تريد أن تتلعب بلمحه فأصبح بذلك أفركه ، فخلصته وأدخلته بيتها ، فعرف لها بنوه ذلك بعد ، واستعملوا ابنها إبراهيم ، وكان له منهم خاصة^(٥) .

وقُتل الغيرة بن الأخنس بن شريق ، وهو يحمي عن عثمان بالسيف ، واقتحم القوم الدار ، ودخل كثير منهم الدور المجاورة لها ، وتسوروا من دار عمرو بن حزم إليها حتى ملئوها ، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلا لقتله ، فدخل إليه البيت ، فقال له : اخلعها وندعك ، فقال : ويحك ا والله ما كشفت عن امرأة في جاهلية ولا إسلام ، ولا نعيم^(٦) ولا تمنيت ، ولا وضعت يميني على عورتى مذ بايعت رسول الله ، ولست بخال قبيصا كسانيه الله ، حتى يكرم أهل السعادة ، ويهين أهل الشقاوة .

فخرج عنه فقالوا له : ما صنعت ؟ قال : إنني لم أستحل قتله ، فأدخلوا إليه رجلا من الصحابة ، فقال له : لست بصاحب ؛ إن النبي صلى الله عليه دعا لك أن يحفظك يوم كذا ، ولن تضيع ؛ فرجع عنه .

(١) أثبته : جعله ثابتاً في مكانه لا يتحرك من أثر الجراحة .

(٢) علياوان : مثنى علياء ؛ وهى عصب العنق .

(٣) الوقص : قصر العنق .

(٤) يذفف على الجريح : يجهز عليه .

(٥) والخاصة : من تخصه بنفسك .

(٦) تعين الرجل : تأني ليصيب شيئاً بعينه .

فأدخلوا إليه رجلا من قريش، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا ، فلن تقارِفَ دما حراما ، فرجع عنه .

فدخل عليه محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان : ويحك ! أعلَى الله تغضب ! هل لى إليك جُرْمٌ إلا أنى أخذت حقَّ الله منك ؟ فأخذ محمد بلحيته ، وقال : أخزأك الله يا نعل^(١) ! قال : لست بنعل ، ولسكنى عثمان وأمير المؤمنين ؛ فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! فقال عثمان : يابن أخى، دَعَا من يدك ، فما كان أبوك ليقبض عليها ، فقال : لو عملت ما عملت فى حياة أبى لقبض عليها ، والذي أريد بك أشدَّ من قبضى عليها ، فقال : أستنصر الله عليكم وأستمعن به ، فتركه وخرج .

وقيل : بل طعن جبينه بِمَشَقَصٍ^(٢) كان فى يده ، فثار سُوْدَانُ بن حُرَّان ، وأبو حرب الغافقى وقتيرة بن وهب السَّكْسَكِيّ، فضربه الغافقى بعمود كان فى يده ، وضرب المصحف برجله - وكان فى حجره - فنزل بين يديه وسال عليه الدم . وجاء سُوْدَانُ ليضربه بالسيف ، فأكبَّتْ عليه امرأته نائلة بنت الفرافصة^(٣) الكلبيّة ، واتَّقت السيف بيدها وهى تصرخُ ، فنفع أصابعها فأطمنها^(٤) ، فولّت ، فغمز بعضهم أوراكها ، وقال : إنَّها لسكبيرة العجّز ، وضرب سُوْدَانُ عثمان فقتله .

وقيل : بل قتله كفانة بن بشر الشَّحْبَجِيّ وقيل : بل قتيرة بن وهب ودخل غلمان عثمان ومواليه ، فضرب أحدهم عنق سُوْدَانُ فقتله ، فوثب قُتَيْبَةُ بن وهب على ذلك الغلام

(١) نعل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية ؛ قيل : لأنه كان يشبه عثمان ، قال أبو عبيد : وشاعرو عثمان رضى الله عنه يسمونه نعلنا (اللسان) .

(٢) المشقص ، كمنبر : نصل عريض .

(٣) الفرافصة ؛ قال فى اللسان : ليس فى العرب من سمي الفرافصة بالألف واللام غيره ، ونقل ابن برى عن القالى عن ابن الأنبارى عن أبيه عن شيوخه ، قال : كل مافى العرب فرافصة ، بضم الفاء إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رضى الله عنه . بفتح الفاء لاغير . تاج العروس ٤ : ٤١٥ .

(٤) أطمنها : قطعها .

فقتله ، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله ، ونهبت دار عثمان ، وأخذ ما على نسائه وما كان في بيت المال ، وكان فيه غرارتان دراهم . ووثب عمرو بن الحقيق على صدر عثمان وبهرمق فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاث منها فإني طعنن الله تعالى ، وأما سبت منها فلما كان في صدرى عليه . وأرادوا قطع رأسه ، فوقع عليه زوجته : نائلة بنت الفرافصة وأم البنين ، ابنة عُمينة بن حصن الفزاري ، فصحن وضربن الوجوه ، فقال ابن عديس : اتركوه ، وأقبل عمير بن ضابئ التبرجي فوثب عليه ، فكسر ضلعين من أضلعه ، وقال له : سجنتم أبي حتى مات في السجن ! وكان قتله يوم الثامن عشر من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين . وقيل : بل في أيام التشريق ، وكان عمره ستا وثمانين سنة .

قال أبو جعفر : وبقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن . ثم إن حَكِيم بن حزام وجُبَيْر بن مُطْعِم كلما عليا عليه السلام في أن يأذن في دفنه ففعل ، فلما سمع الناس بذلك قعد له قوم في الطريق بالحجارة ، وخرج به ناس يسير من أهله ، ومعهم الحسن بن علي وابن الزبير ، وأبو جهم بن حذيفة بين المغرب والعشاء ، فأتوا به حائطا من حيطان المدينة ، يعرف بحش كوكب^(١) وهو خارج البقيع ، فصلوا عليه . وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ، فأرسل علي عليه السلام ، فمنع من رجم سريرته ، وكف الذين راموا منع الصلاة عليه ، ودفن في حش كوكب ، فلما ظهر معاوية على الأمر ، أمر بذلك الحائط فهُدِم ، وأدخل في البقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره ؛ حتى اتصل بمقابر المسلمين بالبقيع .

وقيل : إن عثمان لم يغسل ، وإنه كفن في ثيابه التي قتل فيها .

(١) حش كوكب : موضع بجانب البقيع ، اشتراه عثمان وزاد فيه (مرصد الاطلاع) .

قال أبو جعفر : وروى عن عامر الشعبي أنه قال : ما قُتِلَ عمر بن الخطاب حتى ملته قریش واستطالت خلافته ، وقد كان يعلم فتنهم ، فحصرهم في المدينة وقال لهم : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد . وإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو ، فيقول : إن لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه ما يكفيك ، وهو خير لك من غزوك اليوم ، وخير لك من الغزو ألا ترى الدنيا ولا تراك . فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قریش ، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة ، فلما ولي عثمان الخلافة خلى عنهم فانتشروا في البلاد ، وخالطهم الناس ، وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه ، وكان عثمان أحب إلى الرعية من عمر .

قال أبو جعفر : وكان أول منكر ظهر بالمدينة في خلافة عثمان حين فاضت الدنيا على العرب والمسلمين طيران الحمام والمسابقة بها ، والرمي عن الجلاهاقات - وهي قسي البندق - فاستعمل عثمان عليها رجلا من بني ليث في سنة ثمان من خلافته ، فقص الطيور وكسر الجلاهاقات .

وروى أبو جعفر ، قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن محمد بن أبي حذيفة : مادعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان ينما في حجر عثمان ، وكان والى أيتام أهل بيته ومحتمل كلمهم ، فسأل عثمان العمل ، فقال : ^(١) يا بني لو كنت رضا لا استعملتك ، قال : فأذن لي فأخرج فأطلب الرزق ^(٢) ، قال : اذهب حيث شئت ، وجهزه من عنده ، وحمله وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه ؛ لأنه منعه الإمارة . فقليل له : فعمّار بن ياسر ؟ قال :

(١ - ١) عبارة الطبري . يابى ، لو كنت رضا ، ثم سألتني العمل لاستعملتك ، ولست لست هناك ، قال : فأذن لي ، فلا أخرج فلا أطلب ما يقوتني .

كان بينه وبين العباس بن عُقبة بن أبي لهب كلام فضر بهما عمان ، فأورث ذلك تماذيا بين عَمَّار وعثمان . وقد كان تَقَاذُفا قَبْلَ ذلك ^(١) .

قال أبو جعفر : وسئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر : مادعاه إلى ركوب عمان ؟ فقال : لزمه حَقٌّ ، فأخذ عثمان من ظهره ، فغضب ، وغرَّه أقوام فطَمِعُوا ؛ لأنه كان من الإسلام بمكان ، وكانت له دالة ، فصار مذمَّما بعد أن كان محمَّداً ، وكان كعب ابن ذى الحِسكة النهدي يلعب بالنَّيرنجات ^(٢) بالكوفة ، فكتب عثمان إلى الوليد أن يوجهه ضرباً ، فضر به وسيَّره إلى دُنباوند ^(٣) .

وكان ممن خرج إليه وسار إليه ، وحُبِس ضابئ بن الحارث البرُججي ، لأنه هجا قوما فتسبهم إلى أن كَتَبَهُمْ يَأْتِي أَمَّهُمْ ، فقال لهم :

فَأَمَّكُمْ لَا تَتَرُكُوها وَكَلَبَكُمْ فَإِنَّ عُقُوقَ الْوَالِدِينَ كَبِيرٌ ^(٤)

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٩٩ .

(٢) النيرنجات : أخذ تشبه السجر ، وليست بحقيقة .

(٣) دنباوند : جبل بنواحي الري ، ويقال له : دباوند .

(٤) ذكر الطبري ٤ : ٤٠٢ أن ضابئ بن الحارث البرججي استعار في زمان الوليد بن عقبة سلباً من قوم من الأنصار ، يدعى قرحان ، لصيد الظباء ؛ لحبسه عنهم ، فنافره الأنصاريون ، واستغاثوا عليه بقومه ، فكاثروه فانتزعوه منه ، وردوه على الأنصار ، فهجَّاهم وقال في ذلك :

تَجَسَّم دُونِي وَفَدُّ قَرَحَانَ خُطَّةً تَضِلُّ لَهَا الْوَجَنَاءُ وَهِيَ حَسِيرُ
فَبَاتُوا شِبَاعاً نَاعِينَ كَانُوا حَبَاهُمْ بَيْتِ الْمَرْزُبَانِ أَمِيرُ
فَكَتَبَكُمْ لَا تَتَرُكُوا فُهو أَمَّكُمْ فَإِنَّ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ كَبِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان ، فأرسل إليه ، ففره وحبسه ، كما كان يصنع بالمسلمين ، فاستنقل ذلك ، فسا زال في الحبس حتى مات فيه ، وقال في الفتنك يعتذر إلى أصحابه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي فَعَمَلْتُ وَوَلَّيْتُ الْبُكَاءَ حِلَالَةً
وَقَاتِلَةً قَدْ مَاتَ فِي السَّجْنِ ضَابِي لَا أَلَا مَنْ لِيخْصَمَ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُجَادِلُهُ !
وَقَاتِلَةً لَا يُبْعِدُ اللَّهُ ضَابِئاً فَنِعَمَ الْفَتَى تَخْلُو بِهِ وَتُحَاوِلُهُ

— ١٦١ —

فاستعدوا عليه عثمان ، فحبسه فمات في السجن ، فإِذْ لَكَ حَقُّ ابْنِهِ عُثْمَيْرٍ عَلَيْهِ وَكُسر
أضْلَاعُهُ بَعْدَ قَتْلِهِ .

قال أبو جعفر : وكان لعثمان كَلَى طَلْحَةَ بنُ عُبيد الله خمسون ألفاً ، فقال طلحة له يوماً :
قد تهياً مالُكَ فأقبِضْهُ ، فقال : هو لك معونة على مروءتك ، فلما حُصِرَ عثمان ، قال علىّ عليه
السلام لطلحة : أنشدك الله إلا كففتَ عن عثمان ! فقال : لا والله حتى تُعْطِيََ بنو أمية الحقَّ
من أنفسها . فكان علىّ عليه السلام يقول : لحا الله ابن الصَّعْبَةِ ! أعطاه عثمان ما أعطاه
وفعل به ما فعل !

(٣١)

ومن كلام له عليه السلام لما أنقذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئته إلى طاعته ^(١) :

الأفضل :

لَا تَلْقَيْنَ طَلْحَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقَّاهُ تَجِدُهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصًا قَرْنَهُ ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ : هُوَ الذُّلُولُ ؛ وَلَكِنْ أَلْقِ الزُّبَيْرَ ، فَإِنَّهُ أَلَيْنُ عَرِيكَةً ، فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ ، وَأَنْسَكْرْتَنِي بِالْعِرَاقِ ؛ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا !
قال الرضى ^(٢) رحمه الله :

وهو عليه السلام أول من سُمِعَتْ منه هذه الكلمة - أعنى : « فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا » .

الشَّيْخُ :

ليستفيئته إلى طاعته ، أى يسترجعه ؛ فاء ، أى رجع ، ومنه سُمِّيَ النِّفْيُ لِلظِّلِّ بَعْدَ الزَّوَالِ . وجاء فى رواية : « فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقَّاهُ تَلْفَهُ » أى تجده ، أَلْفَيْتُهُ عَلَى كَذَا ، أى وجدته . وعاقصاً قَرْنَهُ ، أى قد عَطَفَهُ ؛ تَيْسٌ أَعْقَصَ ، أى قد التوى قرنائه على أذنيه ، والفعل فيه عَقَصَ الثَّوْرُ قَرْنَهُ ، بالفتح . وقال القطب الراوندى : عَقِصَ ؛ بالكسر ؛ وليس بصحيح ، وإنما يقال : عَقِصَ الرَّجُلُ ، بالكسر ، إذا شَحَّ وساء خلقه ، فهو عَقِصٌ . وقوله : « يَرْكَبُ الصَّعْبَ » ، أى يستهين بالمستصعب من الأمور ، يصفه بشراسة

(١) أ ، ج بعد هذه الكلمة : « قال عليه السلام » .

(٢) مخطوطة النهج : « السيد » .

الخلق والبأو^(١)، وكذلك كان طلحة، وقد وصفه عمر بذلك. ويقال: إن طلحة أحدث يوم أحدٍ عنده كبراً شديداً لم يكن، وذلك لأنه أغنى^(٢) في ذلك اليوم، وأبلى بلاءاً حسناً.

والعريكة هاهنا: الطبيعة، يقال: فلان كآين العريكة، إذا كان سلساً. وقال الراوندى: العريكة: بقية السنام؛ ولقد صدق، ولكن ليس هذا موضع ذلك. وقوله عليه السلام لابن عباس: «قل له يقول لك ابن خالك» لطيف جداً، وهو من باب الاستمالة والإذكار بالنسب والرحم، ألا ترى أن له في القلب من الموقع الداعى إلى الانقياد ما ليس لقوله: «يقول لك أمير المؤمنين»! ومن هذا الباب قوله تعالى في ذكر موسى وهارون: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾^(٣)، لما رأى هارون غضب موسى واحتداه، شرع معه في الاستمالة والملاطفة، فقال له: ﴿ابْنَ أُمِّ﴾، وأذكره حق الأخوة، وذلك أدعى إلى عطفه عليه من أن يقول له: «يا موسى»، أو «يا أيها النبي».

فأما قوله: «فما عدا بما بدا»، فعدا بمعنى صرّف؛ قال الشاعر:
وإني عداً أن أزورك مُحْكَمٌ مَتَى مَا أَحْرَكْ فِيهِ سَاقِيَّ يَصْخَبُ
و «من» هاهنا بمعنى «عن»؛ وقد جاءت في كثير من كلامهم كذلك، قال ابن قتيبة في «أدب السكاتب»: «قالوا: حدثني فلان من فلان، أي عن فلان، ولهيت من كذا، أي عنه»^(٤)؛ ويصير ترتيب الكلام وتقديره: فما صرّفك عما بدا منك أي

(١) البأو: الفخر والادعاء.

(٢) أغنى، أي صرف الأعداء وكفهم.

(٣) سورة الأعراف ١٥٠.

(٤) أدب السكاتب ص ٥٥٥ مع اختلاف في العبارة.

ظَهَرَ ، والمعنى : ما الذى صدّك عن طاعتي بعد إظهارك لها ! وَحَذَفُ الضمير المفعول المنصوب
كثير جدا ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾^(١) ، أى أرسلناه ،
ولا بدّ من تقديره ؛ كى لا يبقى الموصول بلا عائد .

وقال القطب الراوندى : قوله : « فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ » له معنيان ؛ أحدهما : ما الذى منعك
مما كان قد بدأ منك من التبيعة قبل هذه الحالة ؟ والثانى : ما الذى عاقت ؟ ويكون المفعول
الثانى لـ « عدا » محذوفا ، يدلّ عليه الكلام ، أى ما عداك ! يريد ما شغلك وما منعك
مما كان بدأ لك مِنْ نُصْرَتِي ! من البَدْء الذى يبدو للإنسان . ولقائل أن يقول : ليس
فى الوجه الثانى زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة ؛ أما إنه ليس فيه زيادة ، فلأنّه فسّر
فى الوجه الأول « عدا » بمعنى منع ، ثم فسّره فى الوجه الثانى بمعنى عاق ، وفسر عاق بمنع
وشغل ، فصار « عدا » فى الوجه الثانى مِثْلَ « عدا » فى الوجه الأول .

وقوله : « مِمَّا كَانَ بَدَأَ مِنْكَ » ، فسّره فى الأول والثانى بتفسير واحد ، فلم يبق بين
الوجهين تفاوت . وأما الزيادة الفاسدة فظنّه أنّ « عدا » يتعدى إلى مفعولين ، وأنّه قد حذف
الثانى ، وهذا غير صحيح ، لأنّ « عدا » ليس من الأفعال التى تتعدى إلى مفعولين بإجماع
النحاة ، ومن العجَب تفسيره المفعول الثانى المحذوف على زعمه بقوله : أى ما عداك ، وهذا
المفعول المحذوف هاهنا هو مفعول « عدا » الذى لا مفعول لها غيره ، فلا يجوز أن يقال إنه
أول ولا ثان .

ثم حكى القطب الراوندى حكاية معناها أنّ صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبيدا ،
^(٢) ثم ماتت ، ثم مات العبيد ولم يخلفوا وارثا إلا مواليتهم ، وطلب على عليه السلام ميراث
العبيد بحق التصيب ، وطلبه الزبير بحق الإرث من أمه . وتحاكما إلى عُمر ، فقضى عمر
بالميراث للزبير .

(١) سورة الزخرف ٤٥ .

(٢) (٢ - ٢) ساقط من ب .

قال القطب الراوندى رحمه الله تعالى ، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هذا خلاف الشرع ، لأنّ ولّاء مَعْتَقِ المرأة - إذا كانت مَيْتَةً - يكونُ لِعَصَبَتِهَا، وهم العاقلة ، لا لأولادها .

قلت : هذه المسألة ~~مختلفة~~ فيها بين الإمامية ، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمُفيد^(١)، يقول : إنّ الولاء لولدها، ولا يُصحّح هذا الخبر ، ويطعن في راويه؛ وغيره من فقهاء الإمامية كأبي جعفر الطوسي^(٢) ومن قال بقوله يذهبون إلى أنّ الولاء لعصبتها لا لولدها ، ويصحّحون الخبر، ويزعمون أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سكت ولم ينافع، على قاعدته في التقيّة ، واستعمال المجاملة مع القوم .

فأمّا مذاهبُ الفقهاء غير الإمامية فإنّها متفقة على أنّ الولاء للولد لا للعصبة ، كما هو قولُ المفيد رحمه الله تعالى .

وروى جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه عن جدّه، عليهم السلام ، قال : سألت ابنَ عباس رضى الله عنه عن ذلك، فقال : إنّى قد أتيت الزبيرَ ، فقلت له، فقال : قل له : إني أريد ماتريد - كأنه يقول : الملك - لم يزدنى على ذلك . فرجعت إلى عليّ عليه السلام فأخبرته .

وروى محمد بن إسحاق والكلبيّ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قلت الكلمة للزبير فلم يزدنى على أن قال : قلّ له :

* إنّنا مع الخوفِ الشديد لنطمعُ *

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن العمان بن عبد السلام البغدادي المعروف بالمفيد ؛ أحد أعيان الشيعة وعلمائهم ؛ انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته . وله قريب من مائتي مصنف ؛ وفيها حفظت أقوال الشيعة وآراؤهم وشرحهم وتفصيل مذاهبهم ؛ وعنه تلقى الشريف المرتضى الفقه والتفسير وعلم الكلام ، وتوفى سنة ٤١٣ . روضات الجنات ٥٣٦ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن علي بن محمد الطوسي المشهدي ؛ أحد تلاميذ الشيخ المفيد ، ثم الشريف المرتضى من بعده . وكان إماماً واعظاً ؛ ألف الوسيلة والواسطة والفتاوى على مذهب الشيعة ، وغيرها . توفى سنة ٤٠٦ . روضات الجنات ٥٦٧ .

قال : وسئل ابن عباس عما يَعمَى بقوله هذا ، فقال : يقول : إنا على الخوف لنطمع أن نَلِيَّ من الأمر ما وليتم .
وقد فسرهُ قوم تفسيراً^(١) آخر ، وقالوا : أراد : إنا مع الخوف من الله لنطمع أن يُغفر لنا هذا الذنب .

قلت : وعلى كلا التفسيرين لم يحصل جواب المسألة .

[من أخبار الزبير وابنه عبد الله]

كان عبدُ الله بن الزبير هو الذى يصلى بالناس فى أيام الجمل ، لأن طلحة والزبير تدافعا الصلاة ، فأمرت عائشة عبدَ الله أن يصلى قطعاً لمنازعتهما ، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة ، تستخلف مَنْ شاءت .

وكان عبدُ الله بن الزبير يدعى أنه أحق بالخلافة من أبيه ومن طلحة ، ويزعم أن عثمان يوم الدار أوصى بها إليه .

واختلفت الرواية فى كيفية السَّلام على الزبير وطلحة، فرُوى أنه كان يسلم على الزبير وحده بالإمرة ، فيقال : السَّلام عليك أيها الأمير ؛ لأن عائشة ولَّته أمرَ الحرب . ورُوى أنه كان يسلم على كلِّ واحدٍ منهما بذلك .

لما نزل على عليه السَّلام بالبصرة ووقف جيشه بإزاء جيش عائشة قال الزبير : والله ما كان أمرٌ قط إلا عرفتُ أين أضعُ قدمي فيه إلا هذا الأمرَ ، فإني لا أدرى : أمقبِلُ أنا فيه أم مُدْبِرُ افقال له ابنه عبدُ الله : كلاًّ ولَكِنَّكَ فَرَّقْتَ^(٢) سيوفَ ابن أبي طالب ، وعرفتُ أنَّ الموتَ الناقع تحت راياته . فقال الزبير : مالك أخزأك الله من ولد ! ما أشأملك !

(١) كذا فى أ ، ج . وفى ب : « بتفسير » . (٢) فرقت : خفت .

كان أمير المؤمنين عليه السلام ، يقول : ما زال الزبير منا أهل البيت ، حتى شب ابنه عبدالله .

برز على عليه السلام بين الصفين حاسرا ، وقال : ليبرز إلى الزبير ، فبرز إليه مدججا ؛ فقيل لعائشة : قد برز الزبير إلى علي عليه السلام ، فصاحت : وازيراه ! فقيل لها : لا بأس عليه منه ، إنه حاسر والزبير دارع^(١) . فقال له : ما حملك يا أبا عبدالله على ما صنعت ؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قال : أنت وطلحة وليثما ، وإتما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته ، ثم قال : نشدتك الله ! أتذكر يوم مررت بي ورسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا على يدك ، وهو جاء من بني عمرو بن عوف ، فسلم عليّ وضجيت في وجهي ، فضحكت إليه ، لم أزدُه على ذلك ، فقلت : لا يترك ابن أبي طالب يارسول الله زهوه ! فقال لك : « مه ! إنه ليس بذى زهو ، أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم » ! فاسترجع الزبير وقال : لقد كان ذلك ؛ ولكن الدهر أنسانيه ، ولأنصر فن عنك ، فخرج ، فأعتق عبده سر جس تحللا^(٢) من عيين لزمته في القتال ، ثم أتى عائشة ، فقال لها : إني ما وقفت موقفا قط ، ولا شهدت حربا إلا ولي فيه رأي وبصيرة إلا هذه الحرب ، وإني أعلني شك من أمري ، وما أكاد أبصر موضع قدمي . فقالت له : يا أبا عبدالله ، أظنك فرقت سيوف ابن أبي طالب ؛ إننا والله سيوف حداد ، معدة للجلاد ، تحملها فئة أنجاد ؛ ولئن فرقتها لقد فرقتها الرجال قبلك ، قال : كلا ، ولكن ما قلت لك . ثم انصرف .

وروى قروة بن الحارث التميمي ، قال : كنت فيمن اعتزل عن الحرب بوادي السباع^(٣) مع الأحنف بن قيس ، وخرج ابن عمي لي يقال له الجون ، مع عسكر البصرة ، فنهبطه ،

(١) الحاسر : من لادرع له ولا جنة ، والدارع : لابس الدرع .

(٢) كذا في ١ ، ج ، وفي ب : « تحللا » .

(٣) وادي السباع : موضع بين البصرة ومكة .

فقال : لأرغبُ بنفسِي عن نُصْرَةِ أمِّ المؤمنين وجواري رسول الله . فخرج معهم ، وإلَى
 لجلس مع الأحنف ، يستنبي الأخبار ، إذا بالجون بن قتادة ، ابن عَمِيٍّ مُقْبِلًا ، فقامتُ إليه
 واعتنقته ، وسألتُه عن الخبر ، فقال : أخبرك العَجَب ، خرجت وأنا لا أريد أن أبرح
 الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين ، فبينما أنا واقف مع الزبير ، إذ جاءه رجل فقال :
 أبشِرْ أيُّها الأمير ، فإنَّ عليًّا كما رأى ما أعدَّ الله له من هذا الجمع ، نكصَ على
 عَقِبَيْهِ ، وتفرَّق منه أصحابه . وأتاه آخر ، فقال له مثل ذلك ، فقال الزبير : ويحكمُ !
 أبو حسن يرجع ! والله لو لم يجد إلا العرفج لدبَّ إلينا فيه . ثم أقبل رجل آخر ،
 فقال : أيُّها الأمير ، إنَّ نفرًا من أصحاب عليٍّ فارقه ليدخلوا معنا ، منهم عمار بن ياسر ،
 فقال الزبير : كلا وربِّ الكعبة ؛ إنَّ عمارًا لا يفارقه أبداً ، فقال الرجل : بلى والله ، مرارا .
 فلما رأى الزبير أنَّ الرجل ليس براجع عن قوله ، بعث معه رجلا آخر ، وقال : اذهبَا
 فانظرا ، فعادا وقالَا : إنَّ عمارًا قد أتاك رسولا من عند صاحبه ، قال جون : فسمعتُ
 والله الزبير يقول : وألقطاع ظهراه ! واجدع أنفاه ! واسواد وجهاه أو يكرّر ذلك مرارا ،
 ثم أخذته رعدة شديدة ، فقلت : والله إنَّ الزبير ليس بجبان ، وإنَّه لَمِنْ فُرْسان قريش
 المذكورين ، وإنَّ لهذا الكلام لشأنا ، ولا أريد أن أشهدا مشهد يقول أميرُه هذه
 المقالة ، فرجعتُ إليكم ؛ فلم يكن إلا قليلٌ حتى مرَّ الزبير بنا متاركًا للقوم ، فأتبعه عمير
 ابن جُرْموز فقتله .

أكثرُ الروايات على أنَّ ابن جُرْموز قُتِلَ مع أصحاب النهر ، وجاء في بعضها أنه
 عاش إلى أيام ولاية مُصْعَب بن الزبير العراق ، وأنه لما قدم مصعب البصرة خافه ابن جُرْموز
 فهرب ، فقال مصعب : لِيُظْهِرَ سالما ، وليأخذ عطاءه موفورا ، أيظن أني أقتله بأبي عبد الله
 وأجعله فداء له ! فكان هذا من الكبر المستحسن .

كان ابن جُرْمُوز يدعو لذنياه، فقيل له: هلا دعوتَ لآخرتك! فقال: أيسنتُ من الجنة .
الزبير أولُ مَنْ شَهَرَ سِيفَهُ في سبيل الله ، قيل له في أول الدعوة : قد قُتِلَ
رسول الله ، نخرج وهو غلام يسمى بسيفه مشهوراً .

وروى الزبير بن بكار في ” الموققيات ^(١) “، قال : لما سارَ على عليه السلام إلى
البصرة ، بعث ابن عباس فقال : انت الزبير ، فاقرأ عليه السلام ، وقل له : يا أبا عبد الله ،
كيف عرفتنا بالمدينة وأنكرتنا بالبصرة ! فقال ابن عباس : أفلا آتَى طلحة ؟ قال : لا ؛
إذا تجده عاقصاً قرنه في حزن ، يقول : هذا سهل .

قال : فأنبتُ الزبير ، فوجدته في بيت يتروّح في يوم حارّ وعبد الله ابنه عنده ،
فقال : مرحباً بك يا ابن لُبابة ! أجيئت زائراً أم سفيراً ؟ قلت : كلاً ، إنّ ابن خالك يقرأ
عليك السلام ، ويقول لك : يا أبا عبد الله ، كيف عرفتنا بالمدينة ، وأنكرتنا بالبصرة ! فقال :
عَلَيْهِمْ أَنِي خُلِقْتُ عُصْبَةً قَتَادَةَ تَعْلَقْتُ بِنُشْبَةٍ ^(٢)

لن أدعهم حتى أولف بينهم ! قال : فأردت منه جواباً غير ذلك ، فقال لي ابنه
عبد الله : قل له : بيننا وبينك دُمٌ خليفة ووصية خليفة ، واجتماع اثنين ، وانفراد واحد ،
وأمّ مبرورة ، ومشاورة العشيرة . قال : فعلتُ أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب ؛
فرجعت إلى عليّ عليه السلام فأخبرته .

(١) كتاب الموققيات في الأخبار ؛ ألفه الزبير بن بكار للموفى بالله ؛ وكان الزبير بن بكار علامة أنساب
أخبارياً ؛ وكتبه في الأنساب عليها الاعتماد . توفي سنة ٢٥٦ . معجم الأدباء ١١ : ١٦١ .
(٢) في اللسان : « وفي حديث الزبير بن العوام لما أقبل نحو البصرة وسئل عن وجهه فقال :

عَلَيْهِمْ أَنِي خُلِقْتُ عُصْبَةً قَتَادَةَ مَلَوِيَّةً بِنُشْبَةٍ

قال شمر : وبلغني أن بعض العرب قال :

غَلَبَتْهُمْ إِنِّي خُلِقْتُ عُصْبَةً قَتَادَةَ مَلَوِيَّةً بِنُشْبَةٍ

قال : والعصبة نبات يلتوي على الشجر ؛ وهو اللابل ، والنشبة من الرجال : الذي إذا علق بشيء لم
يكذب يفارقه . ويقال للرجل الشديد المراس : قتادة لويت بعصبة ، والمعنى : خلفت عصبة لحصومي ، فوضع
العصبة موضع العلفة ، ثم شبه نفسه في فرط تعلقه وأنشبه بهم بالقتادة إذا استظهرت في تعلقها واستمسكت
بنشبة ، أي شديد الشوب .

قال الزبير بن بكار : هذا الحديث كان يرويه عتي مصعب ، ثم تركه ، وقال :
إني رأيت جدّي أبا عبد الله الزبير بن العوّام في المنام ، وهو يعتذر من يوم الجمل ،
فقلت له : كيف تعتذر منه ، وأنت القاتل :

عَلَيْقْتَهُمْ أَنِي خُلِقْتُ عَصَبِي قِتَادَةً تَعَلَّقْتُ بِنُشْبِيهِ

لن أدعهم حتى أؤلف بينهم ! فقال : لم أقله .

[استطراد بلاغيّ في الكلام على الاستدراج]

واعلم أن في علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج ، يناسب ما يذكره فيه
علماء البيان قول أمير المؤمنين عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك : عرفتنى بالحجاز
وأنكرتنى بالعراق » !

قالوا : ومن ذلك قولُ الله تعالى حكايةً عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ
مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ
الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (١) ، فإنه أخذ معهم في
الاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : هذا الرجل إما أن يكون كاذباً فكذبُهُ يعودُ عليه ولا
يتعداه ، وإما أن يكون صادقاً فيصيبكم بعض ما يعدُّكم به ، ولم يقل : « كل ما يعدُّكم
به » مخادعةً لهم وتلطفاً ؛ واستماله لقلوبهم كي لا ينفروا منه لو أغلظ في القول ، وأظهر
لهم أنه يهضمه بعض حقه .

وكذلك تقديمُ قِسْمِ الكذب على قسم الصدق ، كأنه رشّاهم ذلك ، وجعله برّطيلاً (٢)

لهم ، ليطمئنوا إلى نصحه .

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) البرطيل هنا : الرشوة .

ومن ذلك قول إبراهيم على ما حكاه تعالى عنه في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾^(١) ، فطلب منه في مبدأ الأمر السبب في عبادته الصنم والعلّة لذلك ، ونبهه على أن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً قبيحة ، ثم لم يقل له : إِنِّي قد تبجّرت في العلوم ، بل قال له : قد حصل عندي نوع من العلم لم يحصل عندك . وهذا من باب الأدب في الخطاب ، ثم نبّهه على أن الشيطان عاصي لله ، فلا يجوز اتباعه ، ثم خوّفه من عذاب الله إن اتبع الشيطان ، وخطّبه في جميع ذلك بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ ؛ استعطافاً واستدراجاً ، كقول علي عليه السلام : « يقول لك ابن خالك » ، فلم يجبه أبوه إلى ما أراد ، ولا قال له : « يا بني » بل قال : ﴿ أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فخطّبه بالاسم ، وأناه بهمة الاستفهام المتضمنة للإنكار ، ثم توعدّه فقال : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَقِرْ لِأَرْضِ جَهَنَّمَ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ .

قالوا : ومن هذا الباب ما روى أن الحسين بن عليّ عليهما السلام كلّم معاوية في أمر ابنه يزيد ، ونهّاه عن أن يعهد إليه ، فأبى عليه معاوية حتى أغضب كل واحد منهما صاحبه ، فقال الحسين عليه السلام في غضون كلامه : أبى خير من أبيه وأتى خير من أمّه ، فقال معاوية : يا بن أخي ؛ أمّا أمك فخير من أمّه ، وكيف تُقاس امرأة من كلب بابنة رسول الله^(٢) صلى الله عليه ! وأمّا أبوه فحاكم أباك إلى الله تعالى ، فحكّم لأبيه على أبيك .

(١) سورة مريم ٤٢ - ٤٥ .

(٢) في المثل السائر : « وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب » .

قالوا : وهذا من باب الاستدراج اللطيف ، لأن معاويةَ عَلمَ أَنَّهُ إِن أَجابهُ بِجواب يتضمن الدعوى لكونه خيراً من عليّ عليه السلام لم يلتفتْ أحدٌ إليه ، ولم يكن له كلام يتعلق به ، لأن آثارَ عليّ عليه السلام في الإسلام ، وشرفه وفضيلته تجلّ أن يُقاس بها أحدٌ ، فعدّل عن ذكر ذلك إلى التعلّق بما تعلّق به ، فكان الفأج له .
ذكر هذا الخبر نصرُ الله بن الأثير في كتابة المسمى بـ ، ، المثل السائر ، في باب الاستدراج^(١) .

وعندى أن هذا خارج عن باب الاستدراج ، وأنه من باب الجوابات الإقناعية التي تسميها الحكماء الجدليات والخطايبات ، وهي أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق ، وكانت ببدائى النظر مُسَكِّتَةً لِلْخَصْم ، صالحة لمصادمته في مقام المجادلة .

ومثل ذلك قول معاوية لأهل الشام حيث التحق به عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : يَا أَهْلَ الشَّامِ ، مَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ لَمْ يَصْلَحْ لِأَخِيهِ !

وقوله لأهل الشام : إِنَّ أَبَا هُبَيْرٍ الْمَذْمُومَ فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِهِ عَمَّ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ .
فارتاع أهل الشام لذلك ، وشتَمُوا عَلِيًّا وَلَعَنُوهُ .

ومن ذلك قول عمر يوم السَّقِيفَةِ : أَيُّكُمْ يَطِيبُ نَفْسًا أَنْ يَتَقَدَّمَ قَدَمَيْنِ قَدَمَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِلصَّلَاةِ !

ومن ذلك قول عليّ عليه السلام مجيباً لمن سأله : كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ فقال : دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ .

(١) المثل السائر ٢ : ٦٨ - ٧١ .

وجوابه أيضاً لمن قال له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال : مسيرة يوم للشمس .
ومن ذلك قول أبي بكر - وقد قال له عمر : أقد خالداً بمالك بن نويرة - : سيف الله
فلا أعده .

وكقوله - وقد أشير عليه أيضاً بأن يُقيد من بعض أمرائه - : أنا أقيد من وزعة^(١) الله !
ذكر ذلك صاحب " الصحاح " ، في باب « وزع »^(٢) .

والجوابات الإقناعية كثيرة ، ولعلها جمهور ما يتداوله الناس ، ويسكتُ به
بعضهم بعضاً .

(١) الوزعة : جم وازع ، وهو الذى يتقدم الصف فيصلحه ، ويتقدم ويؤخر .
(٢) الصحاح ١٢٩٧ .

(٣٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأضل :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ ، وَزَمَنٍ شَدِيدٍ ^(١) ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئًا ، وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا ، لَا تَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا . وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ :

مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةً نَفْسِهِ وَكَرَالَةً حَدِّهِ ، وَلَنْصِيضُ وَفَرِهِ .

وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ بِسَيْفِهِ ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ ؛ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ ؛ لِحُطَامِ يَدْنِهِ ، أَوْ مِقْنَبِ يَقُودِهِ ، أَوْ مِنْبَرِ يَفْرَعُهُ ، وَلَيْدَسِ الْمُتَجَبَّرِ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضًا !

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا ، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ ، وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ ، وَزَخَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولُهُ نَفْسِهِ ، وَأَنْقِطَاعُ سَبَبِهِ ، فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاجٍ وَلَا مَغْدَى .

(١) ج : د كنود ، .

وَبَقِيَ رِجَالُ غَضٍّ أَبْصَارُهُمْ ذِكْرُ الْعَرْجِ جِيعٍ ، وَأَرَاقَ دُمُوعِهِمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ ؛
فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍ ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ ، وَسَاكِتٍ مَكْمُومٍ ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ ،
وَتُكْلَانٍ مُوجِعٍ ، قَدْ أَخَمَلَتْهُمْ التَّقِيَّةُ ، وَشَمَلَتْهُمْ الدَّلَّةُ ، فَهُمْ فِي بَحْرِ أَجَاجٍ ،
أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِيحَةٌ ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا ، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا ، وَقَتَلُوا
حَتَّى قَلُّوا .

فَلَمَّا كُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْفَرَ مِنْ حُمَالَةِ الْقَرِظِ ، وَقَرَّاضَةِ الْجَلَمِ . وَأَتَمَّعُوا
بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَعَظَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً ، فَإِنَّهَا
قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْنَفَ يَهَا مِنْكُمْ .

قال الرضى رحمه الله :

وهذه الخطبة رُبَّمَا نسبها من لا عِلْمَ له إلى معاوية ؛ وَهِيَ من كلام أمير المؤمنين
عليه السلام الَّذِي لَا يُشْكُ فِيهِ . وَأَيْنَ الذَّهَبُ مِنَ الرَّغَامِ أَوْ أَيْنَ الْعَذْبُ مِنَ الْأَجَاجِ أَوْ قَدْ
دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الدَّلِيلُ الْخُرَّتِيتُ ، وَنَقْدُهُ الْبَائِقُ الدُّبَّاصِيُّ ، عَمَرُو بَنَ بَحْرِ الْجَاحِظِ ، فَإِنَّهُ
ذَكَرَ هَذِهِ الْخُطْبَةَ فِي كِتَابِ " الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ " ، ^(١) وَذَكَرَ مَنْ نَسَبَهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ . ثُمَّ
تَكَلَّمَ مِنْ بَعْدِهَا بِكَلَامٍ فِي مَعْنَاهَا ، جَمَلْتُهُ أَنَّهُ قَالَ : وَهَذَا الْكَلَامُ بِكَلَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(١) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٢ : ٥٩ - ٦١ ؛ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ صَفْوَانَ ؛ وَقَالَ : « وَزَادَ فِيهَا الْبَقَطَرِيُّ وَغَيْرُهُ » ،
وَقَالَ : « لَمَّا حَضَرَتْ مُعَاوِيَةُ الْوَفَاةَ قَالَ لِمَوْلَى لَهُ : مَنْ بِالْبَابِ ؟ قَالَ : نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَتْبَاشِرُونَ بِمَوْتِكَ ،
فَقَالَ : وَيْحَكَ أَوْ لَمْ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ؛ قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا لَهُمْ بَعْدِي إِلَّا الَّذِي يَسُوءُهُمْ ؛ وَأَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا » .
ثُمَّ أُرِيدَ الْخُطْبَةَ بِرِوَايَتِهِ ؛ وَقَالَ فِي آخِرِهَا : « وَفِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ : - أَبْقَاكَ اللَّهُ - ضُرُوبٌ مِنَ الْعِجَبِ ؛ مِنْهَا أَنْ
الْكَلَامَ لَا يَشْبَهُ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِمْ دَعَاهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمِنْهَا أَنْ هَذَا الْمَذْهَبُ فِي تَصْنِيفِ النَّاسِ ، وَفِي
الْإِخْبَارِ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَهْرِ وَالْإِذْلَالِ ، وَمِنْ التَّقِيَّةِ وَالْخَوْفِ أَشْبَهَ بِكَلَامِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَعَانِيهِ وَحَالِهِ
مِنْهُ بِحَالِ مُعَاوِيَةَ ، وَمِنْهَا أَنَا لَمْ نَجِدْ مُعَاوِيَةَ فِي حَالٍ مِنَ الْحَالَاتِ يَسْلُكُ فِي كَلَامِهِ مَسْلَكَ الزَّهَادِ ، وَلَا يَذْهَبُ
مِذَاهِبَ الْعِبَادِ ؛ وَلِنَّمَا نَكْتُبُ لَكُمْ وَنُخَبِّرُ بِمَا سَمِعْنَاهُ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَصْحَابِ الْأَخْبَارِ ، وَبَكَثِيرٍ مِنْهُمْ » .

أشبهه وبمذهبه في تصنيف الناس وفي الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقيّة والخوف أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد!

السنخ:

دهر عنود: جائر، عند عن الطريق؛ يعند بالضم، أى عدل وجار. ويمكن أن يكون من عند يعند بالكسر، أى خالف ورد الحق وهو يعرفه؛ إلا أن اسم الفاعل المشهور في ذلك عاند وعنيد؛ وأما عنود فهو اسم فاعل؛ من عند يعند بالضم. قوله: «وزمن شديد»، أى بخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾^(١)، أى وإنه لبخيل لأجل حب الخير، والخير: المال. وقد روى: «وزمن كنود» وهو الكفور، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(٢).

والقارعة: الخطب الذى يقرع، أى يصيب.

قوله: «ونضيض وفره»، أى قلة ماله، وكان الأصل «ونضاضة وفره» ليكون المصدر في مقابلة المصدر الأول، وهو «كلالة حده»؛ لكنه أخرجه على باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولهم: عليه سحوق عمامة، وجرد قطيفة، وأخلاق ثياب.

قوله: «والجلب بخيله ورجله»، الجلب: اسم فاعل من أجلب عليهم، أى أعان عليهم.

والرجل: جمع راجل، كالركب جمع راكب، والشرب جمع شارب؛ وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾^(٣).

(١) سورة العاديات ٨.

(٢) سورة العاديات ٦.

(٣) سورة الإمراء ٦٤ وقراءة حفص بكسر الجيم في «رجلك»، وباقي القراءات بسكون الجيم. تحاف فضلاء البشر ٢٨٠.

وأشْرط نفسه ؛ أى هَيَّأها وأَعَدَّها للفساد فى الأرض .
 وأَوْبَق دينه : أَهْلَكَه . والحطام : المال ؛ وأَصْلُه مَا تَسْكَنُ مِنَ الْيَبِيسِ .
 يَنْهَزُه : يَخْتَلِسُه .
 والمَقْتَب : خَيْل مَابَيْنِ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ .
 وَيَقْرَعُه : يَمْلُوه . وطَامَنَ مِنْ شَخْصِه ، أى خَفَضَ . وقَارَبَ مِنْ خَطْوِه : لَمْ يَسْرِعْ
 وَمَشَى رَوِيدًا .
 وشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِه : قَصَّره . وزَخَرَفَ مِنْ نَفْسِه : حَسَّنَ وَنَمَّقَ وَزَيْنَ ، وَالزَّخْرَفُ :
 الذَّهَبُ فِي الْأَصْلِ .
 وَضُمُولَةُ نَفْسِه : حَقَارَتُهَا . والنَادَى : الْمُنْفَرِدُ . والمُسْكُومُ ، مَنْ كَعَمَتِ الْبَعِيرُ ، إِذَا
 شَدَّتْ فِيهِ . والأَجَاجُ : الْمَلْحُ .
 وَأَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ ، بِالزَّائِ ؛ أى سَاكِنَةٌ ، قَالَ بَشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ :
 لَقَدْ ضَمَرْتُ بِجِرَّتِهَا سُلَيْمٌ مَخَافَتَنَا كَمَا ضَمَرَ الْحِمَارُ ^(١)
 وَالْقَرْظُ : وَرَقُ السَّلَمِ ، يُدْبَغُ بِهِ ، وَحُثَالَتُهُ : مَا يَسْقُطُ مِنْهُ .
 وَالْجَلَمُ : الْمَقْصُ نُجُزٌّ بِهِ أَوْ بَارُ الْإِبِلِ . وَقَرَضَتْهُ : مَا يَمُوتُ مِنْ قَرْضِهِ وَقَطْعِهِ .
 فَإِنْ قِيلَ : بَيَّنُّوا لَنَا تَفْصِيلَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ .
 قِيلَ : الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مَنْ يَقْعُدُ بِهِ عَنْ طَلَبِ الْإِمْرَةِ قَلَّةٌ مَالُهُ وَحَقَارَتُهُ فِي نَفْسِهِ .
 وَالْقِسْمُ الثَّانِي : مَنْ يُشَمَّرُ وَيَطْلُبُ الْإِمَارَةَ وَيُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَكْشِفُ .
 وَالْقِسْمُ الثَّلَاثُ : مَنْ يُظْهِرُ نَامُوسَ الدِّينِ وَيَطْلُبُ بِهِ الدُّنْيَا .
 وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ : مَنْ لَا مَالَ لَهُ أَصْلًا ، وَلَا يَكْشِفُ ، وَيَطْلُبُ الْمُلْكَ وَلَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا
 (١) دِيَوَانُهُ ٧٠ ، وَاللَّسَانُ (٧ : ٢٣٢) ، وَنَسَبَهُ إِلَى ابْنِ مَقْبِلٍ ؛ وَقَالَ فِي شَرْحِهِ : « مَعْنَاهُ قَدْ
 خَضَعَتْ وَذَلَّتْ كَمَا ضَمَرَ الْحِمَارُ ؛ لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا يُجْتَرُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ : ضَمَرْتُ بِجِرَّتِهَا عَلَى جِهَةِ الْمَثَلِ ، أَيْ سَكَتُوا
 فَمَا يَنْتَعِرُونَ وَلَا يَنْطَقُونَ » .
 (١٢ - نَهْج - ٢)

بالرياء والناموس ، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة ، ويتحلى بحلمية الزهادة في اللذات الدنيوية ، لا طلبا للدنيا بل عجزاً عن الحركة فيها ، وليس بزاهد على الحقيقة .
فإن قيل : فهنا قسم خامس ، قد ذكره عليه السلام ؛ وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوفاً الآخرة .

قيل : إنه عليه السلام إنما قال : « إن الناس على أربعة أصناف » ، وعنى بهم من عدا المتقين ؛ ولهذا قال لما انقضى التقسيم : « وبقي رجال غضّ أبصارهم ذكرُ المرجع » ، فأبان بذلك عن أن هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة .

[فصل في ذكر الآيات والأخبار الواردة في ذم الرياء والشهرة]

واعلم أن هذه الخطبة تتضمن الذم لكثير من يدعى الآخرة من أهل زماننا ، وهم أهل الرياء والتفاق ، ولا بسو الصوف والثياب المرقوعة لغير وجه الله .
وقد ورد في ذم الرياء شيء كثير ، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم .

ومن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى : ﴿ بُرَاءُونَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (١) 》 .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِمِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝ (٢) 》 .

(١) سورة النساء ١٤٢ .

(٢) سورة الكهف ١١٠ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ ^(١) .

.. ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ^(٢) .

ومن الأخبار النبوية قوله صلى الله عليه وآله ، وقد سأله رجل : يا رسول الله ، فيم النجاة ؟ فقال : « ألا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وفي الحديث : « مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهِ بِهِ ، وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ » .

وفي الحديث : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنْ هَذَا الْعَمَلُ لَمْ يَرْضَ صَاحِبُهُ بِهِ وَجِبْهِي ، فَاجْعَلُوهُ فِي سَجِينٍ » ^(٣) .

وقال صلى الله عليه وآله : « إِنْ أَخَوفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْفَرُ » ، قالوا : وما الشرك الأصفر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء ، يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم في الدنيا ، فاطلبوا جزاءكم منهم » .

وفي حديث شداد بن أوس : رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْكِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا يَبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : « إِنِّي تَخَوَّضْتُ عَلَى أُمَّتِي الشَّرْكَ ، أَمَّا إِيَّاهُمْ لَا يَعْبُدُونَ صِنًا وَلَا شِمْسًا وَلَا قَمَرًا ، وَلَكِنَّهُمْ يَرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ » .

ورأى عمرُ رجلاً يتخشع ، وَيُطَاطِئُ رَقَبَتَهُ فِي مِشْيَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا صَاحِبَ الرِّقَبَةِ ، اِرْفَعْ رَقَبَتَكَ ، لَيْسَ الْخُشُوعُ فِي الرِّقَابِ .

ورأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ أَنْتَ لَوْ كَانَ هَذَا

فِي يَدَيْكَ !

(١) سورة الإنسان ٩ .

(٢) سورة الماعون ٥ - ٧ .

(٣) سجين : واد في جهنم .

وقال علىّ عليه السلام : المرأى أربع علامات : يكسلُ إذا كان وحده ، وينشط إذا كان في الناس ، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه ، وينقص منه إذا لم يُثنَ عليه .
وقال رجل لعبادة بن الصّامت : أقاتل بسمي في سبيل الله أريد به وجهه ومحمّدة الناس ، قال : لا شيء لك ، فسأله ثلاث مرات ، كلّ ذلك يقول : لا شيء لك ثمّ قال في الثالثة : يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك . . . الحديث .
وضرب عمر رجلاً بالدّرة ، ثم ظهر له أنّه لم يأت جُرماً ، فقال له : اقتص مني ، فقال : بل أدعها لله ولك ، قال : ما صنعت شيئاً ؛ إما أن تدعها لي فأعرف ذلك لك ، أو تدعها لله وحده .

وقال الحسن : لقد صحبتُ أقوماً ، إن كان أحدهم لتمرّضُ له الكلمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه ، ما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة ، وإن كان أحدهم ليرّ فيرى الأذى على الطريق فما يمنعه أن ينحّيه إلا مخافة الشهرة .

وقال الفضيل : كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون .
وقال عكرمة : إن الله تعالى يُعطى العبد على نيّته مالا يُعطيه على عمله ؛ لأنّ النية لا رياء فيها .

وقال الحسن : المرأى يريد أن يغلبَ قدرَ الله تعالى ، هو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس : هذا صالح ؛ وكيف يقولون وقد حلّ من ربه محلّ الأردّاء^(١) ، فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه .

وقال قتادة : إذا رآى العبدُ ، قال الله تعالى للملائكته : انظروا إلى عبدي يستهزئ بي .

وقال الفضيل : من أراد أن ينظر مُرائياً فليُنظر إلى .

(١) أردّاء : جمع ردىء .

وقال محمد بن المبارك الصوري: أَظْهَرَ السَّمْتِ^(١) بالليل ، فإنه أشرفُ من سَمْتِكَ بالنهار؛
فإن سَمَتَ النهار للمخلوقين ، وسَمَتَ الليل لرب العالمين .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما صدق الله من أحب أن يشتهر .

ومن السكلام المعزوق إلى عيسى بن مريم عايه السلام : إذا كان يومُ صوم أحدكم
فليَذْهَبْ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ ، وَلْيَسْحُ شَفْتَيْهِ ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه ،
فليُخَفِ عن شماله ، وإذا صلى فليُرَخِ سِتْرَ بَابِهِ ، فإن الله يَقْسِمُ الثَّناءَ كما يَقْسِمُ الرِّزْقَ .
ومن كلام بعض الصالحين : آخرُ ما يخرج من رؤوس الصديقين حبُّ الرياسة .
وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « بحسب المرء من الشرِّ -
إلا من عصمه الله من سوء - أن يُشِيرَ الناسُ إليه بالأصابع في دينه ودينه ؛ إن الله لا ينظر
إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وقال علي عليه السلام : تَبَدَّلْ لَانْتِشَهَرُ ، ولا تَرْفَعْ شَخْصَكَ لَتَذْكَرَ بِعِلْمٍ ، واسْكُتْ
واصمت تسلم ، تسر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وكان خالد بن معدان إذا كثرت حَلَقَتُهُ قام مخافة الشهرة ..

ورأى طلحة بن مصرف قوما يمشون معه نحو عشرة ، فقبال : فرأش نار ،
وذبان طمع .

وقال سليمان بن حنظلة : بينما نحن حوالى أبي بن كعب نمشي ، إذ رآه عمر فعلاه
بالدرة ، وقال له : انظر من حولك ! إن الذي أنت فيه ذلة للتابع ، فتنه للمتبع .

وخرج عبدالله بن مسعود من منزله ، فاتبعه قوم ، فالتفت إليهم وقال : علام تتبعونني ؟
فوالله لو تعلمون مني ما أغلق عليه بابي لما تبعني منكم اثنان .

وقال الحسن : خَفَقُ النعال حول الرجال مما يُدْبِتُ عليهم قلوبَ الحفَى .

(١) السمت : حسن المذهب في الدين .

وروى أن رجلاً صحب الحسن في طريق ، فلما فارقه قال : أوصني رحمتك الله !
قال : إن استطعت أن تعرف ولا تعرف ، وتمشي ولا يمشي إليك ، وتسال
ولا تسأل ، فافعل .

وخرج أيوب السخيتاني في سفر ، فشيعه قوم ، فقال : لولا أنني أعلم أن الله يعلم من
قلبي أنني لهذا كاره ، لخشيت الموت من الله .
وعوتب أيوب على تطويل قميصه ، فقال : إن الشهرة كانت فيما مضى في طوله ، وهي
اليوم في قصره .

وقال بعضهم : كنت مع أبي قلابة ، إذ دخل رجل عليه كساء ، فقال : إياكم وهذا
الحمار الناهق - يشير به إلى طالب شهرة .

وقال رجل لبشر بن الحارث : أوصني ، فقال : أنجل ذكرك ، وطيب مطعمك .
وكان حوشب يبكي ويقول : بلغ اسمي المسجد الجامع .
وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح .
وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس .
فهذه الآثار قليل مما ورد عن الصالحين رحمهم الله في ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة .

[فصل في مدح الخمول والجنوح إلى العزلة]

وقد صرح أمير المؤمنين عليه السلام في مدح الأبرار - وهم القسم الخامس - بمدح
الخمول ، فقال : « قد أختلهم التقية » - يعني الخوف .

وقد ورد في الأخبار والآثار شيء كثير في مدح الخمول .
قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له ،

لو أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَّ قَسَمَهُ . وفى رواية ابن مسعود : « رَبِّ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيَهُ لَهُ ، ولو سأل الجنة لأعطيها » .

وفى الحديث أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ ، لو أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَّه ؛ أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ جَوَّازٍ » ^(١) .
وعنه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ الشَّعْثُ الْغُبَرُ ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ لَمْ يُوْذَنْ لَهُمْ ، وَإِذَا خَطَبُوا لَمْ يُنْكَحُوا ، وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصِتْ لَهُمْ ؛ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَلَجَّجُ فِي صَدْرِهِ ، لو قُسِمَ نورهمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوْسَعَهُمْ » .

وروى أن عمر دخل المسجد ، فإذا بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَا يَبْكِيكَ ؟ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ لَشِرُّكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْأَنْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا ، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهَدَى ، يَنْفَجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءٍ مُظْلِمَةٍ » .
وقال ابن مسعود : كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ ، مَصَابِيحَ الْهُدَى ، أَحْلَاسَ الْبُيُوتِ . سُرُجَ اللَّيْلِ ، جُدُدَ الْقُلُوبِ ، خُلَفَاءَ السَّمَاءِ ، تُعْرَفُونَ عِنْدَ أَهْلِ السَّمَاءِ ، وَتُخْفَوْنَ عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ .

وفى حديث أبي أمامة ، يرفعه : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَاءِي أَعْبُدُ مُؤْمِنٌ ، خَفِيفُ الْحَازِ » ^(٢) ، ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ ، وَقَدْ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ ، لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ » .
وفى الحديث : « السَّعِيدُ مَنْ حَمَلَ صَبِيئَتَهُ ، وَقَلَّ تَرَاتُّبُهُ ، وَسَهَّلَتْ مَنِيَّتُهُ ، وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ » .

(١) الجواز : المجموع النوع .

(٢) الحاذ : الحال واحد ، وأصل الحاذ طريقة المتن ، وهو ما يقع عليه اللبس من ظهر الفرس ؛ أى خفيف الظهر من العيال . نهاية ابن الأثير .

وقال الفضيل : روى لى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمنّ به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أخجل ذكرك !

وكان الخليل بن أحمد يقول فى دعائه : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلائك ، واجعلنى عند نفسى من أوضع خلائك ، واجعلنى عند الناس من أوسط خلائك .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما قرّرت عيني ليلة قطّ فى الدنيا إلا مرّة ، بتّ ليلة فى بعض مساجد قرى الشام ، وكان بى علة البطن ، فجزّنى المؤذن برجلى حتى أخرجنى من المسجد .

وقال الفضيل : إن قدّرت على ألا تعرف ، فافعل ، وما عليك ألا تعرف ! وما عليك ألا يُدنى عليك ! وما عليك أن تكون مذموما عند الناس ؛ إذا كنت محموداً عند الله تعالى !

فإن قيل : فما قولك فى شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وأكابر الفقهاء المجتهدين ؟ قيل : إنّ المذموم طلب الشهرة ؛ فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم ؛ بل لا بدّ من وجود إنسان يشتهر أمره ؛ فإنّ بطريقه ينصلح العالم ؛ ومثال ذلك الفرق الذين بينهم غريق ضعيف ، الأولى به ألا يعرفه أحد منهم ، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلكوا معه ؛ فإن كان بينهم صاحب قوى مشهور بالقوّة ، فالأولى ألا يكون مجهولاً ، بل ينبغى أن يعرف ليتعلّقوا به ، فينجّو هو ويتخلّصوا من الفرق بطريقه .

(٣٣)

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة :

الأفضل :

قال عبد الله بن العباس : دخلت على أمير المؤمنين بذى قار وهو يَخْصِفُ لعله ، فقال لي : ما قيمة هذا الفعل ؟ فقلت : لا قيمة لها ، فقال : والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ ؛ إِلَّا أَنْ أَقِيمَ حَقًّا ، أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا ، ثُمَّ خَرَجَ نَخْطِبُ النَّاسَ فَقَالَ :
إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةً ؛ فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، فَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَأُطْمَأْنِنَتْ صَفَاتُهُمْ .

أما والله إن كنتُ أُنْفِي سَاقِيهَا ، حَتَّى وَلَّيْتُ بِحَذَائِفِيرَهَا ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبَنْتُ ، وَإِنْ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا ؛ فَلَا تُقْبَلُ الْبَاطِلَ حَتَّى يُخْرُجَ الْخَلْقُ مِنْ جَنْبِهِ .

مَا لِي وَلِقَرَيْشٍ ! وَاللَّهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ ، وَلَاقَاتِلَتُهُمْ مَفْتُونِينَ ؛ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ . وَاللَّهِ مَا تَنْقِمُ مِنِّي قُرَيْشٌ إِلَّا أَنْ اللَّهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ ، فَأَدْخَلَنَاهُمْ فِي حَيْزِنَا ، فَسَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

أَدَمْتَ لَعْمَرِي شَرِّكَ الْأَمْحَضَ صَاحِبًا وَأَكَلْتَ بِالزُّبْدِ الْقَشِيرَةَ الْبُجْرَا^(١)
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْأَمَاءَ وَلَمْ تَسْكُنْ عَلِيًّا ، وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرَدَ وَالْأَسْمَرَ

(١) المحض : اللبن الحامض بلا رغوة .

البُشْرُجُ :

ذو قَارَ : موضع قريبٌ من البَصْرَةِ ، وهو المكان الذى كانت فيه الحربُ بين العرب والفرس ، ونُصِرَت العرب على الفرس قبل الإسلام .
ويُخَصِّفُ نعله ، أى يَخْرُزُها .

وبوَأَمَّ مَحَلَّتَهُمْ : أسكنهم مَنَزَلَهُمْ ، أى ضرب الدَّاس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه ، ومثله « وبلغنهم منجاتهم » إلا أن فى هذه الفاصلة ذَكَرَ الدَّجَاهَ مصرِّحاً به .

فاستقامتُ قَنَاتُهُمْ : استقاموا على الإسلام ، أى كانت قناتهم معوجة فاستقامت .
واطمأنت صَفَاتُهُمْ ؛ كانت متقلقلة متزلزلة ، فاطمأنت واستقرت .
وهذه كلها استعارات .

ثم أقسم أنه كان فى ساقها حتى تولتُ بحذافيرها ؛ الأصل فى « ساقها » أن يكون جمع سائق كحائض وحاضة ، وحائك وحاقة ، ثم استعملت لفظة « الساقة » للأخير ، لأن السائق إنما يكون فى آخر الركب أو الجيش .

وشبهه عليه السلام أمرَ الجاهلية ؛ إِمَّا بِمِجَاجَةِ نَائِرَةِ ، أو بِكَيْتِيَةِ مُقْبِلَةِ لَلْحَرْبِ ، فقال : إِنِّى طَرَدْتُهَا فَوَلَّتْ بَيْنَ يَدَى ، ولم أزل فى ساقها أنا أطردُها وهى تنطرد أُمَامى ؛ حتى تولتُ بِأَسْرِهَا ولم يبق منها شيء ، ما عجزت عنها ، ولا جَبُنْتُ منها .

ثم قال : وإن مسيرى هذا لِمِثْلِهَا ، فَلَا تُقْبِنِ الْبَاطِلَ ؛ كأنه جعل الباطل كشيء قد اشتمل على الحق ، واحتوى عليه ، وصار الحق فى طَيِّبِهِ ، كالشيء السكمن المستتر فيه ، فأقسم ليقبِنَ ذلك الباطل إلى أن يخرج الحق من جنبه .

وهذا من باب الاستعارة أيضاً .

ثم قال : « لقد قاتلتُ قريشا كافرين ، ولأقاتلهم مفتونين » ؛ لأنَّ الباغيَ على الإمام مفتون فاسق .

وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا : إنَّ أصحابِ صِفِّينَ والجل ليسوا بكفار ؛ خلافاً للإمامية ، فإنهم يزعمون أنهم كفار .

[خبر يوم ذى قار]

روى أبو مخنف عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن زيد بن عليّ ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلنا مع عليّ عليه السلام ذا قار ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، ما أقلّ من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ ! فقال : والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ؛ لا يزيدون ولا ينقصون .

قال ابن عباس : فدخلني والله من ذلك شكٌّ شديد في قوله ، وقلت في نفسي : والله إن قدّموا لأعدّتهم .

قال أبو مخنف : فحدث ابن إسحاق ، عن عمه عبد الرحمن بن يسار ، قال : نفر إلى عليّ عليه السلام إلى ذى قار من الكوفة في البحر والبرّ ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ؛ أقام عليّ بذى قار خمسة عشر يوماً ، حتى سمع صهيل الخيل وشجيج البغال حوله . قال : فلما سار بهم مقلّة^(١) ، قال ابن عباس : والله لأعدّتهم ، فإن كانوا كما قال ، وإلا أتمّتهم من غيرهم ؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله . قال : فمرضتهم فو الله ما وجدتهم يزيدون رجلاً ، ولا ينقصون رجلاً ، فقلت : الله أكبر ! صدق الله ورسوله ! ثم سرنا . قال أبو مخنف : ولما بلغ حذيفة بن اليمان أنّ علياً قد قدّم ذا قار ، واستنفر الناس ، دعا

(١) المقلّة : مرحلة السفر .

أصحابه فوعظهم وذكرهم الله وزهدهم في الدنيا ، ورغبهم في الآخرة ، وقال لهم : الحقوا
بأمر المؤمنين ووصي سيد المرسلين ، فإن من الحق أن تنصروه ؛ وهذا الحسن ابنه وعمار
قد قدما الكوفة يستنفران الناس ، فانفروا .

قال : فنفر أصحاب حذيفة إلى أمير المؤمنين ، ومكث حذيفة بعد ذلك خمس عشرة
ليلة ، وتوفي رحمه الله تعالى .

قال أبو مخنف : وقال هاشم بن عتبة الميرفالي ، يذكر نفورهم إلى علي عليه السلام :

وَسِرْنَا إِلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا عَلَى عِلْمِنَا أَنَّا إِلَى اللَّهِ نَرْجِعُ
نُوقِرُهُ فِي فَضْلِهِ وَنُجِلُهُ وَفِي اللَّهِ مَا نَرْجُو وَمَا نَتَوَقَّعُ
وَنُخَصِّصُ أَخْفَافَ الْمِطْيِ عَلَى الْوَجَا وَفِي اللَّهِ مَا نُرْجِي وَفِي اللَّهِ نُوضِعُ
دَلَفْنَا بِجَمْعِ آثَرُوا الْحَقَّ وَالْهُدَى إِلَى ذِي تُقَى فِي نَصْرِهِ نَتَسَرَّعُ
نَكْفِاحُ عَنْهُ وَالسُّيُوفُ شَهِيرَةٌ تَصَافِحُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ فَتَقْطَعُ

قال أبو مخنف : فلما قدم أهل الكوفة على علي عليه السلام ، سألوا عليه ، وقالوا :
الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي اختصنا بموازرتك ، وأكرمنا بنصرتك ؛ قد أجبناك
طائعين غير مكرهين ، فرأنا بأمرك .

قال : فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

مرحباً بأهل الكوفة ، بيوتات العرب ووجوها ، وأهل الفضل وفرسانها ، وأشدَّ
العرب مودة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته ؛ ولذلك بعثت إليكم واستنصرختكم
عند نقض طلحة والزبير بيعتي ، عن غير جورٍ مني ولا حدٍّ ؛ ولعمري لو لم تنصروني
يأهل الكوفة ؛ لرجوت أن يكفيني الله غوغاء الناس ، وطغام أهل البصرة ، مع أن عامة
من بها ووجوها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها ، ورغبوا عنها .

فقام رءوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر ، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة .

(٣٤)

ومن خطبة له عليه السلام في استنفار الناس إلى أهل الشام :

الأضل :

أَفِي لَكُمْ ! لَقَدْ سَيِّئْتُ عِقَابَكُمْ . أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عَوَضًا ،
وَبِالدَّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلْفًا ! إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوَّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ؛ كَأَنَّكُمْ
مِنَ الْمَوْتِ فِي سَكْرَةٍ ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ .

يُرْتَجِعُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعَمَّهُونَ ؛ فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ .
مَا أَنْتُمْ لِي بِشَقِيحٍ سَجِيسٍ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَلَا زَوَافِرٍ عِزٍّ
يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَالْبِلِّ ضَلَّ رُعَاتُهَا ؛ فَكَلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ أَنْذَرَتْ مِنْ آخَرٍ .

لَيْسَ لَعَمْرُ اللَّهِ سَعَرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! تُسَكِّدُونَ وَلَا تَسْكِيدُونَ ، وَتُلْتَقِصُّ أَطْرَافَكُمْ
فَلَا تَمْتَمِعُضُونَ ؛ لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ . غُلِبَ وَاللَّهِ الْمُتَخَاذِلُونَ !

وَأَيْمُ اللَّهِ ؛ إِنِّي لَا أَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَسَّ الْوَعْيُ ، وَأُسْتَحَرَّ الْمَوْتُ ؛ قَدِ انْفَرَجَتْ عَنْ
أَبْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْفِرَاجِ الرَّأْسِ .

وَاللَّهِ إِنْ أَمْرًا يُمَسْكِنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ؛ يَمُرُّقُ لَحْمَهُ ، وَيَهْتَشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ،
لِعَظِيمِ مُجْرُؤِهِ ، ضَعِيفُ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ .

أَنْتَ فَسَكُنْ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمُشْرِفِيَّةِ
تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بِمَعَدِّ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالْنَّصِيحَةُ

لَكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْئَتِكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا تَجْهَلُوا ، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا .
وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَأَلْفَوْا بِلَبِيعَةِ ، وَالنَّصِيحَةِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةِ حِينَ
أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةَ حِينَ آمُرُكُمْ .

الشيخ :

أفِّ لكم : كلمة استقذار ومهانة ؛ وفيها لغات . ويرتج : يفتق . والحوار : المحاورة
والخطابة . وتعمهون ؛ من العمه وهو التحير والتردد ، الماضي عمه بالكسر .

وقوله : « دارت أعينكم » من قوله تعالى : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ
الْمَوْتِ ﴾ ^(١) ، ومن قوله : ﴿ تَدْوُرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ ^(٢) .

وقلو بكم مألوسة ، من الألس ، بسكون اللام ، وهو الجنون واختلاط العقل .

قوله : « مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي » كلمة تقال للأبد ، تقول : لا أفعله سَجِيسَ
اللَّيَالِي ، وسَجِيسَ مُجْبِيسَ ، وسَجِيسَ الْأَوْجَسِ ، معنى ذلك كله الدهر ، والزمان ، وأبدا .
قوله : « مَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ » ، أى لستم بركن يُسْتَنْدُ عَلَيْكُمْ ، ويُمال على العدو
بعزكم وقوتكم .

قوله : « وَلَا زَوَافِرَ عَزَّ » ، جمع زافرة ، وزافرة الرجل : أنصاره وعشيرته ؛ ويجوز أن يكون
زَوَافِرَ عَزَّ ، أى حوامل عَزَّ ، زفرتُ الجملَ أزره زفرا ، أى حملته .

قوله : « سَعَرُ نَارِ الْحَرْبِ » جمع ساعر ، كقولك : قوم كُطِّمٌ لِلْفَيْظِ ، جمع كاظم ،

(١) سورة محمد ٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب ١٩ .

وتمتمضون : تأنفون وتغضبون . وحس الوغى ؛ اشتد ، وأصل الوغى الصوت والجلبة ، ثم سُميت الحرب نفسها وغى ، لما فيها من الأصوات والجلبة . واستحز الموت ، أى اشتد .

وقوله : « انفرجتم انفراج الرأس » ، أى كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يَمَنَةً ونصفه شَامة . والمشرقية : السيوف المنسوبة إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، ولا يقال : مشارف ، كما لا يقال : جعافرى ، لمن ينسب إلى جعافر .

وفراش الهام : العظام الخفيفة تلى القحف .

وقال الراوندى فى تفسير قوله « انفراج الرأس » أراد به انفرجت عنى رأساً ، أى قطعاً ، وعرفه بالألف واللام ، وهذا غير صحيح لأن « رأساً » لا يعرف . قال : وله تفسير آخر ؛ أن يكون المعنى انفراج رأس من أذن رأسه إلى غيره ، ثم حرف رأسه عنه .

وهذا أيضاً غير صحيح ، لأنه لا خصوصية للرأس فى ذلك ، فإن اليد والرجل إذا أدنيتهما من شخص ، ثم حرقتهما عنه فقد انفرج ما بين ذلك العضو وبينه ، فأى معنى لتخصيص الرأس بالذكور !

فأما قوله : « أنت فكن ذاك » فإنه إما مخاطب من يمكن عدوه من نفسه كأننا من كان ؛ غير معين ولا مخصص ؛ ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس ، فإنه روى أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم : هَلَّا فَعَلْتَ فِعْلَ ابْنِ عَفَانَ ! فقال له : « إن فعل ابن عفان لخزاة على من لا دين له ، ولا وثيقة معه ، إن أمراً أمكن عدوه من نفسه بهشم عظمه ، ويفرى جلده ، لضيف رأيه مأفون عقله . أنت فكن ذاك إن أحببت ، فأما أنا فدون أن أعطى ذاك ضرباً بالمشرقية . . . » الفصل .

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة ، والخطاب عام لكل من أمكن من نفسه ، فلا منافاة بينهما .

وقد نظمت أنا هذه الألفاظ في أبيات كتبتها إلى صاحب لي في ضمن مكتوب اقتضاها ، وهي :

إِنَّ أَمْرًا أَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ عَدُوَّهُ يَجْدَعُ آرَابَهُ^(١)
لَا يَدْفَعُ الضَّيِّمَ وَلَا يَنْكُرُ الدَّ لَ وَلَا يُخَصِّنُ جِلْبَابَهُ
كَفَائِلُ الرَّأْيِ ضَعِيفُ الْقُوَى قَدْ صَرَمَ الْخِذْلَانُ أَسْبَابَهُ
أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ فَإِنِّي أَسْرُو لَا يَرْهَبُ الْخَطْبُ إِذَا نَابَهُ
إِنْ قَالَ دَهْرٌ لَمْ يُطِيعْ أَوْ شَحَا لَهُ فَمَنْ أَدْرَدَ أَنْيَابَهُ^(٢)
أَوْ سَامَهُ الْخُسْفَى أَبَى وَانْتَضَى دُونَ مَرَامِ الْخُسْفَى قِرْضَابَهُ^(٣)
أَخْزَرُ غَضَبَانُ شَدِيدِ السَّطَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْتَرِكَ مَارَابَهُ

خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهذه الخطبة ، بعد قراءته من أمر الخوارج ، وقد كان قام بالنهر وان ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

أما بعد ، فإن الله قد أحسن نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام .

فقاموا إليه ، فقالوا : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، نَفِدَتْ نِبَالُنَا ، وَكَلَّتْ سِيوفُنَا ، وَانْصَلَّتْ^(٤) أَسِنَّةُ رِمَاحِنَا ، وَعَادَا كَثَرُهَا قِصْدًا^(٥) . ارجع بنا إلى مِصْرُنَا ، نَسْتَعِدَّ بِأَحْسَنِ عُدَّتِنَا ؛ وَلَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ فِي عَدَدِنَا مِثْلَ مَنْ هَلَكَ مِنَّا ، فَإِنَّهُ أَقْوَى لَنَا عَلَى عَدُونَا .

(١) آرابه : جمع لرب ؛ وهو العضو .

(٢) شحافه : فتحة . والدرد : سقوط الأسنان .

(٣) القرضاب : السيف .

(٤) انصلت : انجردت .

(٥) قصد : جمع قصدة ؛ وهي القطعة من القناة أو الرمح .

فكان جوابه عليه السلام : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ^(١) .
فتلككثروا عليه ، وقالوا إن البرد شديد .

فقال : إنهم يجدون البرد كما تجدون . فتلككثروا أبوا ، فقال : أف لى لكم المنهاسنة جرت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُكُمَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ ^(٢) .

فقام منهم ناس فقالوا : يا أمير المؤمنين ، الجراح ^(٣) فاشية في الناس — وكان أهل النهر وان قد أكثروا الجراح في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام — فارجع إلى الكوفة ، فأقم بها أياما ثم اخرج ، خار الله لك !
فرجع إلى الكوفة عن غير رضا .

[أمر الناس بعد وقعة النهروان]

وروى نصر بن مزاحم ، عن عمر بن سعد ، عن أنس بن مالك ، عن أبي وداك ، قال : لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان ، أقبل بهم أمير المؤمنين ، فأنزلهم النخيلة ، وأمر الناس أن يلزموا معسكرهم ، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يقلوا زيارة النساء وأنفسهم ؛ حتى يسير بهم إلى عدوهم ؛ وكان ذلك هو الرأي لوفعلوه ؛ لكنهم لم يفعلوا ، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة . فتركوه عليه السلام ومعه من الناس إلا رجال من وجوههم قليل ، وبقي المعسكر خاليا ، فلا من دخل الكوفة خرج إليه ، ولا من أقام معه صبر . فلما رأى ذلك دخل الكوفة .

(٢) سورة المائدة ٢٢ .

(١) سورة المائدة ٢١ .

(٣) الجراح : جمع جراحة .

قال نصر بن مزاحم : يخطب الناس بالكوفة ، وهى أول خطبة خطبها بعد قدومه من حرب الخوارج ، فقال :

أيها الناس ؛ استعدوا لقتال عدو في جهادهم القربة إلى الله عز وجل ، ودرك الوسيلة عنده ؛ قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه ، موزعين^(١) بالجور والظلم لا يمدلون به ، جفافة عن الكتاب ، نكبت عن الدين ، يعمهون في الطغيان ، ويتسكعون في غمرة الضلال ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا .

قال : فلم ينفروا ولم ينشروا^(٢) ، فتركهم أياما ، ثم خطبهم ، فقال : أف لكم القدر سئمت عقابكم . أرضيت بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا ... الفصل الذى شرحناه آنفا إلى آخره . وزاد فيه : « أنتم أسود الشرى فى الدعة ، وثعالب روََاغة حين البأس . إن أخوا الحرب اليقظان ؛ ألا إن المغلوب مهزور ومسلوب » .

وروى الأعمش عن الحكم بن عتيبة ، عن قيس بن أبى حازم ، قال : سمعت عليا عليه السلام على منبر الكوفة ، وهو يقول :

يا أبناء المهاجرين ؛ انفروا إلى أئمة الكفر ، وبقية الأحزاب ، وأولياء الشيطان . انفروا إلى من يقاتل على دم حمال الخطايا ، فوالله الذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ؛ إنه ليحجل خطايهم إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئا .

قلت : هذا قيس بن أبى حازم ؛ وهو الذى روى حديث : « إنكم لترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون القمر ليلة البدر لأنصامون فى رؤيته » . وقد طعن مشايخنا المتكلمون فيه ، وقالوا : إنه فاسق ، ولا تقبل روايته ؛ لأنه قال : إني سمعت عليا يخطب على منبر الكوفة ،

(١) يقال : أوزعه بالشيء ؛ إذا أغراه به .

(٢) لم ينشروا : أى لم ينفروا .

ويقول : انفروا إلى بقية الأحزاب ؛ فأبغضته ، ودخل بغضه في قلبي ، ومن يبغض عليا عليه السلام لا تُقبل روايته .

فإن قيل : فما يقول مشايحكم في قوله عليه السلام : « انفروا إلى مَنْ يُقاتل على دِمِّ حَمَل الخطايا » ؟ أليس هذا طعننا منه عليه السلام في عثمان !

قيل : الأشهرُ الأكثرُ في الرواية صَدْرُ الحديث ، وأما عَجَزُ الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة ، وإن صحَّ حملناه على أنه أراد به معاوية ؛ وسُمي ناصريه مقاتلين على دمه ، لأنهم يُحامون عن دمه ، ومن حامي عن دِمِّ إنسان فقد قاتل عليه .

وروى أبو نُعَيْمُ الحافظ ، قال : حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ الثَّقَفِيُّ ، قال . جاءت امرأة من بني عَبَسَ إلى عليّ عليه السلام ، وهو يخطب بهذه الخطبة على مِنْبَرِ الكوفة ، فقالت : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ثَلَاثُ بَلْبَلَنٍ الْقُلُوبَ عَلَيْكَ ، قال : وما هُنَّ ويحك ! قالت : رِضَاكَ بِالْقَضِيَّةِ ، وَأَخْذُكَ بِالِدَنِيَّةِ ، وَجَزَعُكَ عِنْدَ الْبَلِيَّةِ . فقال : إِنَّمَا أَنْتِ امْرَأَةٌ ، فَادْهَبِي فَاجْلِسِي عَلَى ذَلِكَ ، فقالت : لا والله مامن جلوس إلا تحت ظلال السيوف .

وروى عمرو بن شمر الجُمَيْيُّ ، عن جابر ، عن رُفَيْعِ بْنِ فَرْقَدٍ الْبَجَلِيِّ ، قال : سمعتُ عليا عليه السلام ، يقول :

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، لَقَدْ ضَرَبْتُكُمْ بِالْدَّرَّةِ الَّتِي أُعْطِيَ بِهَا السُّفَهَاءُ فَمَا أَرَأَيْتُمْ تَنْتَهُنَ أَوْ لَقَدْ ضَرَبْتُكُمْ بِالسَّيَاطِلِ الَّتِي أُقِيمُ بِهَا الْحُدُودُ ، فَمَا أَرَأَيْتُمْ تَرْعَوْنَ ! فَمَا يَبْقَى إِلَّا أَنْ أَضْرِبَكُمْ بِسَيْفِي ؛ وَإِنِّي لِأَعْلَمُ مَا يَقُومُكُمْ ؛ وَلَكِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ أَلِيَّ ذَلِكَ مِنْكُمْ . وَاعْبَجَا لَكُمْ وَلَأَهْلَ الشَّامِ ! أَمِيرُهُمْ بَعْضِي اللَّهُ وَهُمْ يَطِيعُونَهُ ، وَأَمِيرُكُمْ يَطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ ! وَاللَّهِ لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبَغِّضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ؛ وَلَوْ سَقَتُ الدُّنْيَا مِثْلَافِهَا إِلَى الْكَافِرِ لَمَا أَحْبَبَنِي ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَضَى مَا قَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ أَنَّهُ لَا يُبَغِّضُنِي

مؤمن ، ولا يُحِبُّني كافر ؛ وقد خاب مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . والله لَتَصْبِرُنَّ بأهل الكوفة على قتال عدوِّكم أو لَيَسَاطُنَ الله عليكم قوماً أتم أولى بالحق منهم فليعضدُنَّسكم ! أفمن قُتِلَ بالسيف تحيدون إلى مَوْتَةٍ على الفراش ! والله لَمَوْتَةٌ على الفراش أشدُّ من ضَرْبَةٍ أَلْفِ سيف .

قلت : ما أحسن قول أبي العيناء ، وقد قال له المتوكل : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم ؟ فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وهذا أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو سيِّدُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، يمدح الكوفة وأهلها عقيب الانتصار على أصحاب الجبل ، بما قد ذكرنا بعضه وسنذكر باقيه ، مدحاً ليس باليسير ولا بالمستصغر ، ويقول للكوفة عند نظره إليها : أهلاً بك وبأهلك ! ما أَرَادَكَ جَبَّارٌ بكَيْدٍ إِلَّا قَصَمَهُ الله . وَيُذِنِي عليها وعلى أهلها حَسَبَ ذِمَّةِ اللَّبْصَةِ وعيبه لها ودعايته عليها وعلى أهلها ، فلما خذله أهل الكوفة يوم التحكيم ، وتقاعدوا عن نصرته على أهل الشام ، وخرج منهم الخوارج ، ومَرَقَ منهم المُرَّاق ، ثم استنفرهم بعدُ فلم ينفروا ، واستنصرهم فلم يُصرخوا^(١) ، ورأى منهم دلائل الوهن وأمارات الفشل ، انقلب ذلك المدح ذمًّا ؛ وذلك الثناء استزادة وتقريعا وتهجيًا .

وهذا أمرٌ مركزوز في طبيعة البشر ، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، والقرآن العزيز أيضاً كذلك ، أثنى على الأنصار لما نهضوا ، وذمهم لما قعدوا في غزاة تبوك ، فقال : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾^(٢) الآيات ، إلى أن رضى الله عنهم ، فقال : ﴿ وَكَلَى

(١) لم يصرخوا : لم يغيثوا .

(٢) سورة التوبة ٨١ .

الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا ﴿١﴾ أى عن رسول الله ﷺ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ . . . ﴿٢﴾ الآية .

[مناقب على وذكر طُرْف من أخباره فى عدله وزهده]

روى على بن محمد بن أبى سيف^(١) المدائنى عن فضيل بن الجعد ، قال : آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال ، فإنه لم يكن يُفَضَّلُ شريفاً على مشروف ، ولا عربياً على عجمي ، ولا يُصانَعُ الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه . وكان معاوية بخلاف ذلك ، فترك الناس عليا والتحقوا بمعاوية ؛ فشكا على عليه السلام إلى الأشتر تخاذل أصحابه ، وفرار بعضهم إلى معاوية ، فقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ؛ إننا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ، ورأى الناس واحد ، وقد اختلفوا بعد ، وتعادوا وضعفت النية ، وقلَّ العدد ، وأنت تأخذهم بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتُنْصِفُ الوضيع من الشريف ؛ فليس للشريف عندك فضلٌ منزله على الوضيع ، فضجَّت طائفة من معك من الحق إذ عُرموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف ، فتناقت أنفُسُ الناس إلى الدنيا ، وقلَّ من ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يَحْتَوِي الحق ويشتري الباطل ، ويؤثر الدنيا ، فإن تبدَّلَ المال يا أمير المؤمنين تَمَلُّ إلىكَ أعناقُ الرجال ، وتَصِفُ نصيحتهم لك ، وتَسْتَخْلِصُ وُدَّهم ، صنع الله لك يا أمير المؤمنين ! وكتب أعداءك ، وفض جمعهم ، وأوهن كيدهم ، وشنت أمورهم ، إنه بما يعملون خبير .

فقال على عليه السلام :

(١) سورة التوبة ١١٨ .
(٢) ب : « يوسف » ؛ والصواب ما أثبتته من فهرس ابن النديم ١٠٠ ، وانظر ص ٢٠٣ من هذا الجزء

أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ؛ فإن الله عز وجل يقول : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(١) ؛ وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف .

وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور ، ولا لجئوا إذ فارقونا إلى عدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها ؛ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَلدُنْيَا أَرَادُوا أَمْ اللَّهُ عَمِلُوا ؟

وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنه لا يسعنا أن نؤتي أمراً من النبی أكثر من حقه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وحده ، فكثرت بعد القلة ، وأعزّ فتنة بعد الدلالة ، وإن يُرد الله أن يوليها هذا الأمر يذل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عز وجل رضا ، وأنت من آمن الناس عندي ، وأنصحهم لي ، وأوثقهم في نفسي إن شاء الله .

وذكر الشعبي ، قال : دخلت الرحبة بالكوفة - وأنا غلام - في غلمان ؛ فإذا أنا بعلي عليه السلام قائماً على صُبرتين^(٣) من ذهب وفضة ، ومعه خففة ، وهو يطرد الناس بخففته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس ؛ حتى لم يبق منه شيء ، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيراً . فرجعت إلى أبي فقلت له : لقد رأيت اليوم خير الناس أو أتحق الناس ، قال : مَنْ هُوَ يَا بُنَيَّ ، قلت : علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، رأيته يصنع كذا ، فقصصت عليه ، فبكى ، وقال : يا بُنَيَّ ، بل رأيت خير الناس .

(٢) سورة البقرة ٢٤٩ .

(١) سورة فصلت ٤٦ .

(٣) الصبرة ، بالضم : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن .

وروى محمد بن فضَّيل عن هارون بن عنترة ، عن زاذان ، قال : انطلقتُ مع قنبر غلام على عليه السلام ، فإذا هو يقول : قم يا أمير المؤمنين ، فقد خَبأت لك خبيثاً ، قال : وما هو ويحك ! قال : قمُ معي ، فانطلق به إلى بيته ، وإذا بغرارة مملوءة من جَامَاتٍ ذهباً وفضة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتك لا تتركُ شيئاً إلا قَسَمْتَهُ ، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال ، فقال على عليه السلام : ويحك يا قنبر ! لقد أحببت أن تدخلَ بيتي ناراً عظيمة . ثم سلَّ سيفه وضربه ضَرَبَاتٍ كثيرة ، فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه ، وآخر ثلثه ، ونحو ذلك ، ثم دعا بالناس ، فقال : اقسّموه بالخصص ، ثم قام إلى بيت المال ، فقَسَم ما وَجَد فيه ، ثم رأى في البيت إبراً ومَسَالً ، فقال : وَلَتَقْسِمُوا هذا ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه - وقد كان على عليه السلام يأخذُ من كلِّ عاملٍ مما يَعْمَل - فضحك ، وقال : لِيُؤْخَذَنَّ شرُّه مع خيره .

وروى عبد الرحمن بن عجلان ، قال : كان على عليه السلام يقسم بين الناس الأبرار والحرف^(١) والكمثون ، وكذا وكذا .

وروى مجمع التميمي ، قال : كان على عليه السلام يكنس بيتَ المال كلَّ بُعْجَةٍ ، وبصلي فيه ركعتين ، ويقول : ليشهد لي يوم القيامة .

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُثَيْب الجُرُمي ، عن أبيه ، قال : شهدتُ علياً عليه السلام وقد جاءه مال من الجبل ، فقام وقمنا معه ، وجاء الناس يزدهنون ، فأخذ حبالاً فوصلها بيده ، وعقد بعضها إلى بعض ، ثم أدارها حول المسال ، وقال : لا أحلُّ لأحدٍ أن يجاوز هذا الحبل ، قال : فقمعد الناس كلُّهم من وراء الحبل ، ودخل هو ، فقال : أين رءوسُ الأُسبَاع ؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعاً - فجعلوا يحملون هذه الجِوَالِق إلى هذه الجِوَالِق ، وهذا إلى هذا ، حتى استوت القِسْمة سبعة أجزاء ، ووجد مع المتاع

(١) الحرف ، بالضم : الخردل .

رغيف ، فقال : اكسروه سَبْعَ كِسْرٍ ، وضعوا على كل جزء كِسْرَةً ، ثم قال :
هَذَا جَفَائِي وَخِيَارُهُ فِيهِ إِذْ كُلَّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ^(١)
ثم أقرع عليها ودفعها إلى رؤوس الأسباع ، فجعل كل رجل منهم يدعو قومه
فيحملون الجواليق .

وروى مُجَمِّع ، عن أَبِي رَجَاء ، قال : أخرج عليّ عليه السلام سيفاً إلى السوق ، فقال :
مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي هَذَا ؟ فوالذي نفسُ عليّ بيده ، لو كان عندي ثمن إزار مابعتُهُ ، فقلت له :
أنا أبيعُكَ إزاراً وأنسُتُكَ ثمنهُ إلى عطائك ، فدفعْتَ إليه إزاراً إلى عطائه ، فلما قبض
عطاه دفع إلى ثمن الإزار .

وروى هارون بن سعيد ، قال : قال عَبْدُ اللَّهِ بن جَعْفَر بن أَبِي طَالِبٍ عليّ عليه
السلام : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لو أَمَرْتُ لِي بِمَعُونَةٍ أَوْ نَفَقَةٍ ! فوالله ما لي نَفَقَةٌ إِلَّا أَنْ أَبِيعَ
دَابَّتِي ، فقال : لَا وَاللَّهِ مَا أَجْدُ لَكَ شَيْئاً إِلَّا أَنْ تَأْمُرَ عَمَّكَ أَنْ يَسْرِقَ فَيُعْطِيكَ .

وروى بكر بن عيسى ، قال : كَانَ عَلِيّ عَلَيْهِ السَّلَام يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، إِذَا
أَنَا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدَكُمْ بِغَيْرِ رَاحِلَتِي وَرَحْلِي وَغَلَامِي فَلَانٌ ؛ فَأَنَا خَائِنٌ فَكَانَتْ نَفَقَتُهُ
تَأْتِيهِ مِنْ غَلَّتِهِ بِالْمَدِينَةِ بَيْنِمْعٍ ، وَكَانَ يُطْعِمُ النَّاسَ مِنْهَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ ، وَيَأْكُلُ هُوَ
الْثَّرِيدَ بِالزَّيْتِ .

وروى أَبُو إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيُّ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ اتَّقَا عَلِيّاً عَلَيْهِ السَّلَام : إِحْدَاهُمَا مِنَ الْعَرَبِ
وَالْأُخْرَى مِنَ الْمَوَالِي ، فَسَأَلَتَاهُ ، فَدَفَعَ إِلَيْهِمَا دِرَاهِمَ وَطَعَاماً بِالسَّوَاءِ ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا :

(١) البيت أنشده عمرو بن عدى حين كان غلاماً ، وكان يخرج مع الخدم يبحثون الملك (جذيمة بن
الأبرش) الكمأة ؛ فكانوا إذا وجدوا كمأة خياراً أكلوها وأتوا بالباقي إلى الملك ، وكان عمرو
لأباً كل منه ، ويأتي به كما هو وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ وحديث علي ورد
مفصلاً في حلية الأولياء ١ : ٨١ .

إتني امرأة من العرب، وهذه من العجم؛ فقال: إني والله لا أجدُ لبني إسماعيل في هذا الفء فضلًا على بني إسحاق .

وروى معاوية بن سَمَّار عن جعفر بن محمد عليهما السلام ، قال : ما اعتلج على علي عليه السلام أسران في ذات الله ، إلا أخذ بأشدهما ، ولقد علمت أنه كان يأكل - يأهل الكوفة - عندكم من ماله بالمدينة ؛ وأن كان ليأخذ السَّويق فيجعله في جراب ، ويختم عليه مخافة أن يزاد عليه من غيره ؛ وَمَنْ كان أزهد في الدنيا من علي عليه السلام !

وروى النَّضر بن منصور ، عن عُقبة بن علقمة ، قال : دخلتُ على علي عليه السلام ، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذنتني حوضته ، وكسرتُ يابسة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتأكلُ مثل هذا ! فقال لي : يا أبا الجَنُوب ، كان رسول الله يأكل أَيْدَسَ من هذا ، ويلبسُ أحسن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن أنا لم آخذ بما آخذ به خفت ألا ألحق به .

وروى عمران بن مسامة ، عن سُوَيْد بن علقمة ، قال : دخلت على علي عليه السلام بالكوفة ، فإذا بين يديه قَعْبُ لبن أجدُّ رِيحُه من شدة حوضته ، وفي يده رغيف ، ترى قُشار الشعير على وجهه وهو يكسره ، ويستعين أحياتا برُكْبته ، وإذا جاريته فِضَّة قائمة على رأسه ، فقلت : يا فضة ، أما تتقون الله في هذا الشيخ ! ألا نخلم دقيقه ؟ فقالت : إننا نكُره أن نُؤَجَّرَ وَيَأْتَمَ ، نحن قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقًا ماصِحِبناه - قال : وعلي عليه السلام لا يسمع ما تقول - فالتفت إليها فقال : ماتقولين ؟ قالت : سَلِه ، فقال لي : ماقلتُ لها ؟ قال : فقلت إني قلت لها : لو نخلم دقيقه ! فبكي ، ثم قال : بأبي وأمي مَنْ لم يشبع ثلاثًا متوالية [من] خبز برّ حتى فارق الدنيا ، ولم ينخل دقيقه ! قال : يعني رسول الله صلى الله عليه وآله .

وروى يوسف بن يعقوب ، عن صالح بَيَّاع الأَكْسِيَّة ، أنَّ جَدَّتَهُ لَقِيَتْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالسَّكُوفَةِ ، وَمَعَهُ تَمْرٌ يَحْمِلُهُ ، فَسَأَمَتْ عَلَيْهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : اعْطِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا التَّمْرَ أَحْمِلُهُ عَنْكَ إِلَى بَيْتِكَ ، فَقَالَ : أَبُو الْعِيَالِ أَحَقُّ بِحَمْلِهِ ، قَالَتْ : ثُمَّ قَالَ لِي : أَلَا تَأْكُلِينَ مِنْهُ ؟ فَقُلْتُ : لَا أُرِيدُ ، قَالَتْ ، فَاَنْطَلِقِي بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ثُمَّ رَجِعِي مُرْتَدِيًا بِتِلْكَ الشَّمْلَةِ ، وَفِيهَا قَشُورُ التَّمْرِ ؛ فَصَلَّيْتُ بِالنَّاسِ فِيهَا الْجُمُعَةَ .

وروى محمد بن فضَّيْل بن غَزْوَانَ ، قَالَ : قِيلَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَمْ تَتَصَدَّقُ ! كَمْ تُخْرِجُ مَالَكَ ! أَلَا تُنْسِكُ ! قَالَ : إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبِلَ مِنِّي فَرَضًا وَاحِدًا لَأَمْسَكْتُ ؛ وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي ؛ أَقْبَلَ مِنِّي سَبْعَانَهُ شَيْئًا أَمْ لَا !

وروى عَنَبَسَةُ الْعَابِد ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ ، قَالَ : أَعْتَقَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَلْفَ مَمْلُوكٍ مِمَّا مَجَلَّتْ^(١) يَدَاهُ ، وَعَرَقَ جَبِينَهُ ؛ وَلَقَدْ وَلَّى الْخِلَافَةَ ، وَأَتَتْهُ الْأَمْوَالُ ، فَمَا كَانَ حَلَّوَاهُ إِلَّا التَّمْرَ ، وَلَا ثِيَابَهُ إِلَّا الْكَرَائِسَ .

وروى الْعَوَامُ بْنُ حَوْشَب ، عَنْ أَبِي صَادِقٍ ، قَالَ : تَزَوَّجَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَلَى بِنْتَ مَسْعُودِ النَّهْشَلِيَّةِ ، فَضَرَبَتْ لَهُ فِي دَارِهِ حَبَلَةً ، لِحَبْلِ فَهَتْكِهَا ، وَقَالَ : حَسْبُ أَهْلِ عَلِيٍّ مَا هُمْ فِيهِ !

وروى حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْمَدَنِيُّ ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : ابْتَاعَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خِلَافَتِهِ قِيصًا سَمَلًا^(٢) بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمٍ ، ثُمَّ دَعَا الْخِيَّاطَ ، فَذَكَّ كُمَ الْقَمِيصِ ، وَأَمَرَهُ بِقَطْعِ مَا جَاوَزَ الْأَصَابِعَ .

وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَالرَّوَايَاتِ - وَإِنْ كَانَتْ خَارِجَةً عَنْ مَقْصِدِ الْفَصْلِ - لِأَنَّ الْحَالَّ اقْتَضَى ذِكْرَهَا ، مِنْ حَيْثُ أَرَدْنَا أَنْ نَبَيِّنَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ

(١) مجلت يده : عملت .

(٢) السمل : الخلق من الثياب .

يذهب في خلافته مذهب الملوك الذين يُصانِعون بالأموال ويصرِفونها في مصالح ما كسبهم
وملاذ أنفسهم ، وأنه لم يكن من أهل الدنيا ، وإنما كان رجلاً مثاليًا صاحب حق ،
لا يريد بالله ورسوله بدلا .

وروى علي بن محمد بن أبي يوسف المدائني أن طائفة من أصحاب علي عليه السلام مشوا
إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب
وقريش على الموالى والعجم ، واستمل من تخاف خلافته من الناس وفراره ، وإنما قالوا له
ذلك لما كان معاوية يصنع في المال ، فقال لهم : أتأمروني أن أطلب النصير بالجور ؟
لا والله لا أفعل ما طلعت شمس ، وما لاح في السماء نجم ، والله لو كان المال لي لواسيت
بينهم ، فكيف وإنما هي أموالهم ! ثم سكت طويلا واجما ، ثم قال : الأمر أسرع
من ذلك ؛ قالها ثلاثا .

(٣٥)

ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم :

الأصل :

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرَّبِ ، تُوْرِثُ الْخُسْرَةَ ، وَتُنْقِبُ النَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمْرُتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَتَحَلَّتْ لَكُمْ تَخْزُونُ رَأْيِي ؛ لَوْ كَانَ بِطَاعِ لِقَاصِرِ أَمْرٍ ۱ فَأَبَيْتُمْ عَلَى إِبَاءِ الْمُخَالَفِينَ الْخُفَاءَ ، وَالْمُنَابِذِينَ الْمُصَاةَ ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّائِدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِبَائَكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمْرُتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرِجِ اللَّوْىِ فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ

الشرح :

الخطب الفادح : الثقيل . وتَحَلَّتْ لَكُمْ ، أى أخلصته ، من تَحَلَّتْ الدقيق بالمُخْل .
وقوله : «الحمد لله وإن أتى الدهر» ، أى أحده على كلِّ حال من السَّراءِ والضراءِ .
وقوله : «لو كان يطاع لقصير أمر» ، فهو قصير صاحب جَذِيمة ، وحديثه مع جَذِيمة ، ومع الزَّباء مشهور ، فضرب المثل لكلِّ ناصح يُعصى بقصير .

وقوله : « حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضمن الزند بقدحه » ، يشير إلى نفسه ؛ يقول : خالفتُموني حتى ظننت أن النصيح الذي نصحتكم به غير نصيح ، لإطباقكم وإجماعكم على خلافي ؛ وهذا حق ؛ لأن ذا الرأي الصواب إذا كثرت مخالفوه يشك في نفسه .

وأما ضمن الزند بقدحه ، فعناه أنه لم يقدم لي بعد ذلك رأي صالح ، لشدة ما لقيت منكم من الإباء والخلاف والمصيان ؛ وهذا أيضاً حق ، لأن المشير الناصح إذا اتهم واستغشّى عي قلبه وفسد رأيه .

وأخوه هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْدُ بن الصَّمَّة ، والأبيات المذكورة في الحماسة ، وأولها :

نَصَحْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ	وَرَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ وَالْقَوْمِ شُهْدَى ^(١)
فَقُلْتُ لَهُمْ ظَنُّوا بِالْأَفْرِ مَدَجَجٍ	سَرَأُسُهُمْ فِي الْفَارَسِيِّ الْمَسْرَدِ ^(٢)
أَمْرُهُمْ أَمْرِي بِمَنْعَرَجِ الْوَلَّى	فَلَمْ يَسْتَمِينُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَحَى الْفَدَى ^(٣)
فَلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى	غَوَايَتَهُمْ وَأَنْتَى غَوَايَتِي مُهْتَدٍ
وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ	غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرْشَدِ ^(٤)

(١) ديوان الحماسة - بشرح المروزقي (٢ : ٨١٣) . وكان من خبر هذا الشعر أن عبد الله - وهواسم آخر لعارض وهو أخو دريد - كان أسود لاخته ، فغزا ببني جشم وبني نصر ابني معاوية بن بكر بن هوازن ؛ وغنم إلا عظيماً بمنعرج الولي ؛ فغناه دريد عن البيت ، وقال : إن غطفان ليست بغافلة عنا ؛ خلف أنه لا يريم حتى يقسم ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . شرح التبريزي (٢ : ٣٠٤) .

(٢) ظنوا : قال المروزقي : يجوز أن يكون معناه : ظنوا كل ظن قبيح بهم إذا غزوكم في أرضكم وعقر دياركم . ويجوز أن يكون معنى ظنوا أيقنوا ؛ لأن الظن يستعمل في اليقين ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ . والمدجج : النمام السلاح ؛ من الدجة ؛ وهي الظلمة .

وسرائهم : خيبرهم ؛ وعني بالفارسي المسرد ، الدروع .

(٣) في الحماسة ذكر هذا البيت بعد تاليه .

(٤) في الحماسة : وهل أنا إلا من غزيرة رهطه .

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عليه السلام بعد خديعة ابن العاص لأبي موسى
وافترقهما ، وقَبِلَ وقعة النِّهْرَوان .

[قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج]

ويَجِبُ أن نذكر في هذا الفصل أمرَ التحكيم ؛ كيف كان ، وما الذى دعا إليه ا
فنبول :

إنّ الذى دعا إليه طلبُ أهل الشام له ، واعتصامُهم به من سيوفِ أهلِ العراق ؛
فقد كانت أماراتُ القهر والغلبة لاحت ، ودلائلُ النصر والظفر وضحت ، فمدلّ أهلُ
الشام عن القراع إلى الخداع ؛ وكان ذلك برأى عمرو بن العاص .
وهذه الحال وقعت عَقِيبَ ليلةِ الحرير^(١) ، وهى الليلةُ العظيمة التى يُضْرَبُ
بها المثل .

ونحن نذكر ما أورده نصر بن مزاحم فى كتاب صِفِّين فى هذا المعنى ، فهو رِثَّةُ
ثُبَّتْ ، صحيحِ النقل ، غير منسوب إلى هوّى ولا إذغال ؛ وهو من رجال أصحاب الحديث .
قال نصر :

حدثنا عمرو بن شير ، قال : حدثنى أبو ضرار ، قال : حدثنى عمار بن ربيعة ، قال :
غَلَسَ على عليه السلام بالناس صلاةُ الفداة يوم الثلاثاء ، عاشرَ شهر ربيع الأول ، سنة
سبع وثلاثين - وقيل : عاشر شهر صفر - ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر العراق ، والناسُ
على راياتهم وأعلامهم ، وزَحَفَ إليهم أهلُ الشام ، وقد كانت الحربُ أَكَلَتِ الفريقين ؛ وَاكْتَنَهَا

(١) من هرب الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع ؛ وهو صوت دون النباح .

في أهل الشام أشدَّ نِكايةً ، وأعظمَ وَقْعاً ، فقد ملأوا الحربَ ، وكرهوا القتالَ ، وتضعضت أركانهم .

قال : فخرج رجلٌ من أهلِ العراقِ ، على فرسٍ كَمَيْتٍ ذَنُوبٍ^(١) ، عليه السِّلَاحُ لا يرى منه إلا عِماه ؛ ويده الرُّمَحُ . فجعل يضرب رموسَ أهلِ العراقِ بالقناة ، ويقول : سوُّوا صفوفَكم رحمكم الله ! حتَّى إذا عدَّلَ الصَّفوفُ والراياتُ ، استقبلهم بوجهه ، وولَّى أهلَ الشامِ ظهره ، ثم حمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، وقال :

الحمدُ لله الذي جعل فينا ابنَ عَمِّ نبيِّه ، أقدمَهم هجرةً ، وأولَهم إسلاماً ، سيفٌ من سيوفِ الله على أعدائه ، فانظروا إذا حمى الوطيسُ^(٢) ، وثار القتامُ^(٣) ، وتكسَّرَ المرانُ^(٤) ، وجالت الخيلُ بالأبطالِ ، فلا أسمعُ إلا غنمةً أو هممةً ؛ فاتبعوني وكونوا في أثرى .

ثم حمل على أهلِ الشامِ فكسَّرَ فيهم رمحه ، ثم رجع فإذا هو الأشتر .

قال : وخرج رجلٌ من أهلِ الشامِ ، فنادى بين الصَّقَّينِ : يا أبا الحسن ، يا عليّ ، ابرُزْ إلىّ . فخرج إليه عليّ عليه السلامُ ، حتَّى اختلفتُ أعناقُ دابتيهما بين الصَّقَّينِ ، فقال : إنَّ لك يا عليّ لَقَدَمًا في الإسلامِ والهجرةِ^(٥) ، فهل لك في أمرٍ أعزَّضه عليك ، يكون فيه حَقٌّ هذه الدماءُ ، وتأخُرُ^(٦) هذه الحروبُ ؛ حتَّى ترى رأيك؟ قال : وما هو؟ قال : ترجع إلى

(١) الذَنُوبُ : الفرس الوافر الذنب .

(٢) الوطيس في الأصل : التنور ، أو حفرة تحترق ويختبئ فيها ويشوى . وقيل : الوطيس : شيء ينتخذ مثل التنور يختبئ فيه ؛ وقيل : هي تنور من حديد وبه شبه حر الحرب . وحى الوطيس ، مثل يضرب للأمر إذا اشتد . اللسان (٨ : ١٤٢) .

(٣) القتام : الغبار .

(٤) المران : جمع مرانة ؛ وهي الرماح الصلبة اللدنة .

(٥) وقمة صفين : « وهجرة » .

(٦) وقمة صفين : « تأخير » .

عِرَاقِكَ ، فنخَلِّيَ بينَكَ وبينَ العراقِ ، ونرجِعْ نَحْنُ إلى شامنا فتُخَلِّيَ بيننا وبين الشام^(١) .
فقال على عليه السلام : ^(٢) قد عرفتُ ما عرضتُ ، إن هذه لنصيحةٌ وشفقةٌ^(٣) ، ولقد
أَهَمَّنِي هذا الأمرُ وأسهرني ، وضربتُ أنفَه وعينه فلم أجِدْ إلا القتالَ أو الكفرَ بما أنزلَ الله
على محمد . إن الله تعالى ذِكرُهُ لم يَرْضَ من أوليائه أن يُعَصَى في الأرض وهم سكوت
مُذعنون ؛ لا يأمرُون بِمعروف ، ولا ينهَوْنَ عن منكر ؛ فوجدتُ القتالَ أهونَ عليّ من
معالجة في الأغلال في جهنم .

قال : فرجع الرَّجُلُ^(٣) وهو يسترجع ، وزحف الناس بعضهم إلى بعض فارتَمَوْا
بالنَّبَلِ والحجارة حتى قَنِيَتْ ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسَّرت واندقت . ثم مشى القومُ
بعضُهم إلى بعض بالسيوف وعُمد الحديد ، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على
بعض ؛ أهُو أشدُّ هولاً في صدور الرجال من الصَّوَاعِقِ ، ومن جبال تِهَامَةٍ يدك بعضها
بعضاً ، وانكسفت الشمس بالنَّقْعِ ، وثار القَتَامُ والقَسْطَلُ^(٤) ، وضلَّتْ الألوية والرايات ، وأخذ
الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، فيأمر كلَّ قبيلة أو كتيبة من القراء بالإفدام على التي
تليها^(٥) ؛ فاجتَلَدُوا بالسيوف وعُمد الحديد ؛ من صلاة الغداة من اليوم المذكور إلى نصف
الليل ، لم يصلوا لله صلاة . فلم يزل الأشتر يفعلُ ذلك حتى أصبح والمركة خَلْفَ ظهره ،
وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم ، وتلك الليلة وهي ليلة الهزير المشهورة . وكان
الأشترُ في ميمنة الناس وابنُ عباس في الميسرة ، وعلى عليه السلام في القلب ،
والناس يقتتلون .

ثم استمرَّ القتالُ من نصف الليل الثاني إلى ارتفاع الضُّحَى ، والأشتر يقول لأصحابه :

(١) صفين : « شامنا » .

(٢ - ٣) صفين : « لقد عرفت ، إنما عرضت هذه النصيحة شفقة » .

(٣) صفين « الشامى » .

(٤) القسطل : الغبار . (٥) كذا في ج ، و ف ب : « بينها » .

وهو يزحفُ بهم نحو أهل الشام: ازحفُوا قِيدَ رَحَى هذا ، ويُلقَى رَحَهُ ، فإذا فعلوا ذلك ، قال : ازحفوا قَابَ هذا القوس^(١) ، فإذا فعلوا ذلك^(٢) سألهم مثل ذلك^(٣) ، حتى ملَّ أكثرُ الناس من الإقدام ، فلَمَّا رأى ذلك قال : أعيذكم بالله أن تَرْضَعُوا الغنم سائر اليوم . ثم دعا بفرسه ، وركز رايته . وكانت مع حيَّان بن هُوذة النَّخَعِيّ - وسار بين الكتائب ، وهو يقول : أَلَا مَنْ يَشْتَرِي نفسه لله ويقاتل مع الأشتر ؛ حتى يظهر أو يَكُنْهَقَ بالله ! فلا يزالُ الرجلُ من الناس يخرج إليه فيقاتل معه^(٤) .

قال نصر : وحدثني عمرو قال : حدثني أبو ضرار ، قال : حدثني عمار بن ربيعة ، قال : مرَّ بي الأشتر ، فأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذي كان به ، فقام في أصحابه ، فقال : شُدُّوا - فبدأ لكم عَمَى وخالى - شِدَّةُ تَرْضُون بها الله ، وتَعَزَّوْنَ بها الدين .^(٥) إذا أنا حملت فاحملوا^(٦) ثم نزل ، وضربَ وَجْهَ دَابَّتِهِ ، وقال لصاحب رايته : أقدم فتقدم^(٧) بها ، ثم شدَّ على القوم ، وشدَّ معه أصحابه ، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم ، فقاتلوا عند المعسكر قتالاً شديداً ، وقُتِلَ صاحبُ رايته ، وأخذ على عليه السلام - لما رأى الظفر قد جاء من قِبَلِهِ - يمدُّه بالرجال^(٨) .

ورَوَى نصر عن رجاله ، قال : لَمَّا بلغ القومُ إلى ما بلغوا إليه ، قام على عليه السلام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

(١) القاب : ما بين القبض والسية ، والقوس : يذكر ويؤنث .

(٢ - ٢) ساقط من ب ، وأثبتته من ا ، ج .

(٣) وقعة صفين ٥٤٠ - ٥٤٤ .

(٤ - ٤) وقعة صفين : « فإذا شدت فشدوا » .

(٥) صفين : « فأقدم بها » .

(٦) وقعة صفين ٥٤٤ .

أيها الناس ، قد بلغ بكم الأمر وبعثواكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت إعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غادر عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله .

قال : فبلغ ذلك معاوية ، فدعا عمرو بن العاص ، وقال : يا عمرو ؛ إنما هي الليلة ، حتى يفتدوا على علينا بالقيص (١) ؛ فما ترى ؟

قال : إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليك إن ظفرت بهم ؛ ولكن ألق إلى القوم أمرا إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ، ادعهم إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم ؛ فإنك بالغ به حاجتك في القوم ؛ وإن لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه .

فعرف معاوية ذلك وقال له : صدقت (٢) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمير عن جابر بن عمير (٣) الأنصاري ، قال : قال : والله لكانني أسمع عليك يوم الهمير ، وذلك بعد ما طعنت رجا مذحج ، فيما بينها وبين عك ونخم وجذام والأشعريين بأمر عظيم تشيب منه النواصي ، حتى (٤) استقلت الشمس ، وقام قائم الظهر (٥) ، وعلى عليه السلام يقول لأصحابه : حتى متى نخلي بين هذين الحيين ! قد فنيا وأنتم وقوف تنظرون ! أما تخافون مقت الله ! ثم انفتل (٥) إلى القبلة ، ورفع

(١) ب : « بالفصل » ، وما أثبتته من أ ، ج .

(٢) وقعة صفين ٤٥٥ هـ .

(٣) في الأصول : « شمير » ، وصوابه من كتاب صفين .

(٤-٤) صفين : « من حين استقلت الشمس حتى قام قائم الطهيرة » واستقلت الشمس : ارتفعت .

(٥) ب : « استقبل » ، والصواب ما أثبتته من أ ، ج .

بديه إلى الله عزّ وجل، ونادى : يا الله ، يا رَحْمَن، يا رَحِيم ، يا واحد ، يا أحد ، يا صمد ! يا الله،
يا إله محمد ؛ اللهم إِلَيْكَ نُقِلَتِ الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورُفِعَتِ الأيدي ، ومُدَّتِ
الأعناق، وشَخَصَتِ الأبصار، وطُلِبَتِ الحوائج ! اللهم إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غِيبة نَبِيِّنا، وكثرةَ
عَدُوِّنا ، وتشقّت أهوائنا ، ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْفَاتِحِينَ ﴾ ^(١) سيروا على بركة الله .

ثم نادى : لا إله إلا الله والله أكبر ، كلمة التقوى .

قال : فلا والذي بعث محمدًا بالحقّ نبيًّا ، ماسمعنا رئيس قوم منذ خلق الله السموات
والأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب ؛ إنه قَتَلَ - فيما ذكر العادّون - زيادة
على خمسمائة من أعلام العرب ؛ يخرج بسيفه مُنَحْنِيًا ، فيقول : معذرة إلى الله وإليكم
من هذا . لقد هممت أن أفلقه ^(٢) ؛ ولكن يحجزني عنه أني سمعت رسول الله صلى الله
عليه وآله ، يقول : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي » . وأنا أقاتل به دونه
صلى الله عليه .

قال : فكنا نأخذه فنفقّوه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصّف ، فلا
والله مَالِيْتُ بأشدّ نكابة منه في عدوّه ، عليه السلام ^(٣) .

قال نصر : فحدثنا عمرو بن شمير ، عن جابر، قال : سمعت تميم بن حُذَيْم ، يقول : لما
أصبحنا من ليلة الحرير ، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات ، أمام أهل الشام في وسط الفَيْلَقِ ،

(١) سورة الأعراف ٨٩

(٢) صفين : « أصقله »

(٣) كتاب صفين ٥٤٥ - ٥٤٦

حيال موقف على ومعاوية ، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد رُبِطت في أطراف الرِّماح ، وهي عظام مصاحف العسكر ، وقد شدُّوا ثلاثة أرماع جميعا ، وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم ، يمسكه عشرة رهط .

قال نصر : وقال أبو جعفر وأبو الطفيل : استقبلوا عليا بمائة مصحف ، ووضعوا في كل مجتبة^(١) مائتي مصحف ، فكان جميعها خمسمائة مصحف .

قال أبو جعفر : ثم قام الطفيل بن أدهم حيال على عليه السلام ، وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة ، وقام ورقاء بن المعمّر حيال الميسرة ، ثم نادوا : يامعشر العرب ، الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنيتم الله الله في دينكم ! هذا كتاب الله يديننا وينفكم .

فقال على عليه السلام : اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكم الحق المبين .

فاختلف أصحاب على عليه السلام في الرأي ؛ فطائفة قالت القتال ، وطائفة قالت المحاكاة إلى الكتاب ، ولا يحل لنا الحرب ، وقد دُعينا إلى حكم الكتاب ؛ فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها^(٢) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ، قال : حدثنا أبو جعفر محمد بن علي ابن الحسين ، قال : لما كان اليوم الأعظم ، قال أصحاب معاوية : والله لا نبرح اليوم العرصة حتى نموت أو يفتح لنا ، وقال أصحاب على عليه السلام : لا نبرح اليوم العرصة حتى نموت أو يفتح لنا ، فبادروا القتال غدوة في يوم من أيام الشّعرى^(٣) طويل ، شديد

(١) الحنيفة ، بكسر النون الشديدة : ميمنة الجيش وميسرته .

(٢) وقعة صفين ٥٤٦ - ٥٤٧ هـ .

(٣) الشمرى : كوكب نير يقال له الرزم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر . (اللسان) .

الحرّ فتراموا حتى فَنِيَتِ النَّبَالُ ، وتطاعنوا حتى تَقْصَفَتِ الرِّمَاحُ ، ثم نزل القومُ عن خيولهم ، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوفِ حتى كُسِّرَتْ جفونُها ، وقام الفُرسَانُ في الرُّكْبِ ، ثم اضطربوا بالسيوفِ وبعمدِ الحديدِ ، فلم يَسْمَعْ السامعونُ إلا تَغْمُغُ القومِ ، وصليلَ الحديدِ في الهامِ ، وتَكَادُمَ الأَفْوَاهِ وَكُسِفَتِ الشَّمْسُ ، وثارَ القتَّامُ ، وَضَلَّتِ الألوِيَّةُ والرَّايَاتُ ، ومرتْ مواقيتُ أربعِ صلواتٍ ، ما يُسْجِدُ فِيهِنَّ اللهُ إِلَّا تَكْبِيرًا ، وناذتِ المَشِيخَةُ في تلكَ الغَمَرَاتِ : يامعشرَ العربِ ! اللهُ اللهُ في الحُرُمَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والبناتِ !

قال جابر : فبكى أبو جعفر وهو يحدثنا بهذا الحديث .

قال نصر : وأقبل الأَشْتَرُ عَلَى فَرَسٍ كُمَيْتٍ مَحْدُوفٍ ، وقد وَضَعَ مِغْفَرَهُ عَلَى قَرَبُوسِ السَّرَجِ ، وهو ينادى : اصبروا يامعشرَ المؤمنين ، فقد حَمَى الوطيسُ ، وَرَجَعَتِ الشَّمْسُ من الكسوفِ ، واشتدَّ القتالُ ، وأخذتِ السباعُ بعضها بعضًا ، فهم كما قال الشاعر^(١) :
مَضَتْ وَاسْتَأْخَرَ الْقُرْعَاءُ عَنْهَا وَخَلَّى بَيْنَهُمْ إِلَّا الْوَرِيعُ^(٢)

قال : يقول واحدٌ لصاحبه في تلكَ الحال : أى رجل هذا لو كانت له نية أفيقول له صاحبه : وأى نية أعظم من هذه تُكَلِّتُكَ أمك وهيلتك ! إن رجلاً كما تَرَى قد سَبَّحَ في الدَّمِ ، وما أضجرتُه الحربُ ، وقد غَلَّتْ هَامُ الكُيَاةِ مِنَ الحرِّ ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، وهو كما تراه جزعاً يقول هذه المقالة ! اللهم لا تُبَيِّقْنَا بعد هذا !
قلت : لله أم قامت عن الأَشْتَرِ ! لو أن إنساناً يُقَسِّمُ أن الله تعالى ما خلق في العرب

(١) هو عمرو بن معدى كرب ، من الأصمعية التي مطلعها :

أَمِنْ رِنْجَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

وهي في الأصمعيات ١٩٨ - ٢٠٢ وخزانة الأدب ٣ : ٤٦٢ - ٤٦٣ .

(٢) القرعاء : جمع قريم ، وهو المغلوب المهزوم . وفي الخزانة والأصمعيات : « ألُوغال » جمع وغل وهو الضعيف . والوريع : الضعيف الذي لا عناء عنده .

ولافى العجم أشجع منه إلا أستاذة عليه السلام لما خشيته عليه الإثم ! والله در القائل ،
وقد سُئل عن الأشر : ما أقول فى رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزمت موته
أهل العراق !

وبحق ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : كان الأشر لى كما كنت لرسول الله
صلى الله عليه (١) .

قال نصر : وروى الشعبى عن صفصعة ، قال : وقد كان الأشعث بن قيس بدر منه
قول ليلة الحرير ، نقله الناقلون إلى معاوية ، فاغتمه وبنى عليه تدبيره ؛ وذلك أن الأشعث
خطب أصحابه من كفدة تلك الليلة ، فقال : الحمد لله ، أحمدوه وأستعينه ، وأومن به
وأتوكل عليه ، وأستنصره واستغفره ، وأستجيرهُ وأستهديه ، وأستشيرهُ وأستشهد به ؛ فإن
من هداه (٢) الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه .

ثم قال : قد رأيتم يامعشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فى فيه
من العرب ؛ فوالله لقد بكفت من السن ما شاء الله أن أبلغ ، فما رأيتم مثل هذا اليوم
قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب ؛ إنا نحن إن تواقفنا غداً ، إنه لفناء العرب وضيعه
الحرُمات (٣) ! أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب ، ولكنى رجل مسن
أخاف على النساء والذرارى غداً إذا فنيينا ، اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل
دينى فلم آل ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأى يُخطئ ويصيب ،

(١) وقعة صفين ٥٤٧ هـ - ٥٤٩ هـ .

(٢) صفين : « من يهد الله » .

(٣) فى ب : « لفنيته العرب وضيعت الحرمات » وما أثبتته عن كتاب صفين .

إذا قَضَى اللهُ أَمْرًا أَمْضَاهُ كُلِّى مَا أَحَبَّ الْعِبَادُ أَوْ كَرَهُوا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ
عَظِيمَ لِي وَلِكُمْ !

قال الشعبي : قال صَعَصَعَةُ : فَانْطَلَقْتُ عِيونُ مُعَاوِيَةَ إِلَيْهِ بِخُطْبَةٍ الْأَشْعَثُ ، فَقَالَ :
صَابَ وَرَبَّ السَّكْبَةِ ! لَكُنْ نَحْنُ التَّقِيْنَا غَدًا لَتَمِيلَنَّ عَلَى ذَرَارِيْ أَهْلِ الشَّامِ وَنَسَائِهِمْ ،
لَتَمِيلَنَّ فَارِسُ كُلِّ ذَرَارِيْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَنَسَائِهِمْ ! إِنَّمَا يَبْصُرُ هَذَا ذَوُو الْأَحْلَامِ وَالْهَيْ ؛
نَحْمُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : اِرْبِطُوا الْمَصَاحِفَ كُلَّيْ أَطْرَافَ الْقَنَاءِ .

فَنَارَ أَهْلَ الشَّامِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ يَنَادُونَ عَنْ قَوْلِ مُعَاوِيَةَ وَأَمْرِهِ : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، مَنْ
لِذَرَارِيْنَا إِنْ قَتَلْتُمُونَا ! وَمَنْ لِذَرَارِيْكُمْ إِذَا قَتَلْنَاكُمْ ! اللهُ اللهُ فِي الْبَقِيَّةِ ! وَأَصْبَحُوا وَقَدَرَفَعُوا
الْمَصَاحِفَ عَلَى رُءُوسِ الرَّمَاكِحِ ، وَقَدَّ قَلْدُوهَا الْخَلِيلَ [وَالنَّاسُ عَلَى الرِّيَاثِ قَدْ اِشْتَهَوْا
مَادُّعُوا إِلَيْهِ]^(١) ، وَمَصْحَفُ دِمَشْقِ الْأَعْظَمِ يَحْمِلُهُ عَشْرَةُ رِجَالٍ كُلُّ رِجُلٍ رِجْلُ الرَّمَاكِحِ ،
وَهُمْ يَنَادُونَ : كِتَابَ اللهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .

وَأَقْبَلَ أَبُو الْأَعْوَرِ السَّامِيُّ عَلَى بَرْدَوْنٍ أَيْبُضَ ، وَقَدْ وَضَعَ الْمَصْحَفَ كُلَّيْ رَأْسِهِ ،
يَنَادِي : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، كِتَابَ اللهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .

قال : فُجَاءَ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمِ الطَّائِيَّ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ لَمْ يُصَبِّ مِنَّا عُضْبَةٌ
إِلَّا وَقَدْ أُصِيبَ مِنْهُمْ مِثْلُهَا^(٢) ، وَكُلُّ مَقْرُوحٍ ؛ وَلَكِنَّا أَمْثَلُ بَقِيَّةٍ مِنْهُمْ ، وَقَدْ جَزَعَ
الْقَوْمُ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْجَزَعِ إِلَّا مَانَحَبٌ ، فَنَاجِزُهُمْ^(٣) .

وَقَامَ الْأَشْتَرُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ مُعَاوِيَةَ لَا خَلْفَ لَهُ مِنْ رِجَالِهِ ؛ وَلَكِنْ

(١) مِنْ كِتَابِ صَفِينِ .

(٢) كِتَابِ صَفِينِ : « إِنْ كَانَ أَهْلُ الْبَاطِلِ لَا يَقُومُونَ بِأَهْلِ الْحَقِّ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُصَبِّ ... » .

(٣) فِي كِتَابِ صَفِينِ : « فَنَاجِزُ الْقَوْمِ » ، وَالْمَنَاجِزَةُ فِي الْقِتَالِ : الْمُبَارِزَةُ وَالْمَقَاتِلَةُ ؛ وَهُوَ أَنْ يَنْبَارِزَ
الْفَارِسَانِ فَيُتَارِسَا حَتَّى يَقْتُلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، أَوْ يَقْتُلَ أَحَدُهُمَا .

بحمدِ الله لك الخلف ، ولو كان له مثلُ رجالك لم يكن له مثلُ صَبْرِكَ ولا نصرك ، فاقْرَعِ الحديدَ بالحديد ، واستعينَ بالله الحميد .

ثم قام عمرو بن الحمق ، فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَجَبْنَاكَ وَلَا نَصْرْنَاكَ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَلَا أَجَبْنَا إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا طَلَبْنَا إِلَّا الْحَقَّ ، وَلَوْ دَعَانَا غَيْرُكَ إِلَى مَا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ لَاسْتَشَرْنَا^(١) فِيهِ الْأَجَاجَ ، وَطَالَتْ فِيهِ النَّجْوَى ، وَقَدْ بَلَغَ الْحَقُّ مَقْطَعَهُ ، وَلَيْسَ لَنَا مَمْلَكٌ رَأَى .

فقام الأشعث بن قيس مُغْضَبًا ، فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّا لَكِ الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَمْسَ ، وَلَيْسَ آخِرُ أَمْرِنَا كَأَوَّلِهِ ، وَمَا مِنْ الْقَوْمِ أَحَدٌ أُخِنَى عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ وَلَا أَوْتَرَ لِأَهْلِ الشَّامِ مِنِّي ! فَأَرْجِبِ الْقَوْمَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّكَ أَحَقُّ بِهِمْ ، وَقَدْ أَحَبَّ النَّاسُ الْبَقَاءَ ، وَكَرَهُوا الْقِتَالَ .

فقال على عليه السلام : هَذَا أَمْرٌ يُنْظَرُ فِيهِ .

فَتَنَادَى النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ : الْمَوَادَعَةُ .

فقال على عليه السلام : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي أَحَقُّ مَنْ أَجَابَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ مُعَاوِيَةُ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَابْنُ أَبِي سَرْجٍ وَابْنُ مَسْلَمَةَ لَيْسُوا بِأَصْحَابِ دِينٍ وَلَا قُرْآنٍ ، إِنِّي أَعْرِفُ بِهِمْ مِنْكُمْ ، صَحْبُهُمْ صَغَارًا وَرَجَالًا ، فَكَانُوا شَرَّ صِفَارٍ ، وَشَرَّ رَجَالٍ . وَيَحْكُمُ إِنَّهَا كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ! إِنَّهُمْ مَارَفَعُوها؛ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا وَيَعْمَلُونَ بِهَا ، وَلَكِنَّهَا الْخُدَيْمَةُ وَالْوَهْنُ وَالْمَسْكِيْدَةُ ! أَعْيِرُونِي سِوَا عَدْلِكُمْ وَجَهْلِكُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، فَقَدْ بَلَغَ الْحَقُّ مَقْطَعَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُقَطَّعَ دَابِرُ الَّذِينَ ظَلَمُوا .

فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفًا مُقَنَّعِينَ فِي الْحَدِيدِ ، شَاكِيَ السِّلَاحِ ، سَيُوفُهُمْ عَلَى

(١) استشعري : اشتد .

عواقبهم ، وقد اسودّت جباههم من السجود ، يتقدمهم مسعر بن فدكيّ وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا يأمّرة المؤمنين : يا عليّ ، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دُعيت إليه ، وإلا فقلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنّها إن لم تُجِبهم !

فقال لهم : وَيَحْكُم ! أنا أولُ مَنْ دعا إلى كتاب الله ، وأولُ مَنْ أجاب إليه ؛ وليس يحلّ لي ، ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إني إنما قاتلتهم ليدِينوا بحكم القرآن ؛ فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكنني قد أعلمتكم أنهم قد كادوك ؛ وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون . قالوا : فابعث إلى الأشتر ليأتينك ، وقد كان الأشتر صبيحة ليلة الهريز أشرف على عسكر معاوية ليدخله .

قال نصر : فحدثني فضيل بن خديج [عن رجل من النخع]^(١) قال : سألت مصعب^(٢) إبراهيم بن الأشتر^(٣) عن الحال كيف كانت ؟ فقال : كنت عند عليّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيه ، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه عليّ عليه السلام يزيد بن هاني : أن اتقني ، فأتاه فأبلغه^(٤) ، فقال الأشتر : أئتمه فقل له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي ؛

(١) من كتاب صفين .

(٢) - (٢٠) ب : « سألت مصعب بن إبراهيم » ، وصوابه من أ ، ج .

(٣) كتاب صفين : « فبلغه » .

إِنِّي قد رجوت^(١) الفتح فلا تُعْجِلْنِي . فرجع يزيد بن هانيء إلى علي عليه السلام فأخبره ؛ فها هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرَّهَج ، وعلت الأصوات من قِبَل الأَشْتَر ، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخِذلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم لعلي : والله ما نراك أمرته إلا بالقتال ! قال : أرايتموني ساررت^(٢) رسولي إليه ! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعث إليه فليأتك ؛ وإلا فوالله اعتزلناك ! فقال : ويحك يا يزيد ! قل له : أقبل إلى ، فإن الفتنة قد وقعت . فأتاه فأخبره ، فقال الأَشْتَر : أرفع^(٣) هذه المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع خلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن النابغة^(٤) ! ثم قال ليزيد بن هانيء : ويحك ! ألا ترى إلى الفتح ! ألا ترى إلى ما يلقون ! ألا ترى إلى الذي يصنعُ الله لنا ؟ أينبغي أن ندع هذا ونصرف عنه ! فقال له يزيد : أنحب أنك ظفرتَ ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يُفرجُ عنه ، ويُسلم إلى عدوه ! قال : سُبْحَانَ اللَّهِ ! لا والله لا أحبُّ ذلك ، قال : فإنهم قد قالوا له ، وحلفوا عليه ، لَنُرْسِلَنَّ إلى الأَشْتَر فليأتينك ، أو لَنَقْتُلَنَّكَ بأسيا فسا كما قتلنا عثمان ، أو لَنُسَلِمَنَّكَ إلى عدوك .

فأقبل الأَشْتَر حتى انتهى إليهم ، فصاح : يَا أَهْلَ الذِّلِّ وَالْوَهْنِ ، أَجِينَ عَلَوْتُمُ الْقَوْمَ ، وَظَنُّوا أَنْكُمْ لَهُمْ قَاهِرُونَ رَفَعُوا^(٥) المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سُنَّةَ مَنْ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ ، فلا تجيبوهم ! أمهلوني فَوَاقًا^(٦) فإني

(١) كتاب صفين : « إني قد رجوت الله أن يفتح لي » .

(٢) ب : « شاورت » ، وصوابه من أ ، ج ، وكتاب صفين .

(٣) كتاب صفين : « أرفع » .

(٤) كتاب صفين : « يعني عمرو بن العاص » .

(٥) كذا في الأصول وتاريخ الطبري ٦ : ٢٧ ، وفي كتاب صفين : « ورفضوا » .

(٦) الفواق : ما بين الحلبتين ؛ يقال : انتظرتك فواق ناقة .

قد أحسستُ بالفتح ، قالوا : لا نمهلك ، قال : فأمهلوني عدوةَ الفرس ؛ فإنى قد طمعتُ في النصر ، قالوا : إذنْ ندخلُ معك في خطيئتك .

قال : لخذثوني عنكم ، وقد قُتِلَ أمائلكم ، وبقىَ أراذلُكم ؛ متى كنتم مُحَقِّقِينَ !
أحين كنتم تقتلُون أهلَ الشامِ ! فأنتم الآن حين أمسكنم عن قتالهم مبطلون ! أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محققون ! فقتلًا لكم إذن الذين لا تُنكرون فضلهم ، وإنهم خيرٌ منكم في النار ، قالوا : دَعْنَا منك يا أشتر ، قاتلناهم في الله ونَدَعُ قتالهم في الله ؛ إننا لسنا نطيعُك فاجتنبنا ، فقال : خُدِ عَمِ والله فاجتدِ عَمِ ، ودُعِيتُ إلى وضع الحرب فأجبتُ ؛ يا أصحاب الجباه السود ، كنّا نظنّ صلاتكم زهادةً في الدنيا وشوقًا إلى لقاء الله ! فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ؛ ألا فقبحًا يا أشباه النيب^(١) الجلالة ، ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبدا ، فابعدُوا كما بعدَ القومُ الظالمون .

فسبّوه وسبّهم ، وضربوا بسياطهم وجهَ دابّته ، وضرب بسوطه وجوه دوابّهم ، وصاح بهم على عليه السلام ، فكفّوا . وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ، احمل الصفّ على الصفّ تصرّع القوم . فتصايحوا : إن أمير المؤمنين قد قبِلَ الحكومة ، ورَضِيَ بحكم القرآن . فقال الأشتر : إن كان أمير المؤمنين قد قبِلَ ورَضِيَ ، فقد رضيت بما رضى به أمير المؤمنين ، فأقبل الناسُ يقولون : قد رَضِيَ أميرُ المؤمنين ، قد قبِلَ أميرُ المؤمنين ، وهو ساكت لا يَبِضُّ^(٢) بكلمة ، مُطَرِّقٌ إلى الأرض .

ثم قام فسكت الناس كلهم ، فقال : أيّها الناس ، إن أمرى لم يزلْ معكم على ما أحبّ إلى أن أخذت منكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوّكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنسكى وأنهلك ، ألا إنى كنتُ أمسِرَ أميرَ المؤمنين فأصبحت اليوم

(١) النيب . جمع ناب ؛ وهى الناقة المسنة .

(٢) لا يَبِضُّ بكلمة : لا يتكلم .

مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهيّاً، وقد أحببتهم البقاء، وليس لي أن أحكمكم على ما تشكروهن .
ثم قعد .

قال نصر : ثم تكلم رؤساء القبائل ، فكلّ قال ما يراه ويهواه ، إمّا من الحرب
أو من السلم ، فقام كردوس بن هانيّ البكريّ فقال : أيّها الناس ؛ إنّنا والله ماتولّيناً معاوية
منذ تبرّأنا منه ، ولا تبرّأنا من عليّ منذ تولّيناه ، وإنّ قتلنا لشهداء ، وإنّ أحياءنا لأبرار ؛
وإنّ علياً لعلّى بيعة من ربه ، وما أحدث إلا الإنصاف ، فمن سلّم له نجاً ، ومن خالفه هلك .
ثم قام شقيق بن ثور البكريّ ، فقال : أيّها الناس ، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب
الله ، فردوه علينا ، فقاتلناهم عليه ؛ وإنهم قد دعونا اليوم إليه ^(١) ؛ فإن ردّدناه عليهم
حلّ لهم ممّا ماحلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله ، ألا إنّ عليّاً ليس
بالراجع الناكس ، ولا الشاكّ الواقف ؛ وهو اليوم على ما كان عليه أمس ؛ وقد أكلتُنا
هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلّا في المودة ^(٢) .

قال نصر : ثم إنّ أهل الشام لما أبطأ عنهم عِلْمُ حالِ أهل العراق : هل أجابوا إلى
المودة أم لا ؟ جرّعوا فقالوا : يا معاوية ، ما نرى أهل العراق أجابوا إلى مادعوناهم إليه ،
فأعدها جذعة ^(٣) ، فإنك قد عمّرت بدعائك القوم ، وأطمعتهم فيك .

فدعا معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص ، فأمره أن يسكّم أهل العراق ، ويستعلم
له ما عندهم ، فأقبل حتى إذا كان بين الصّفتين نادى : يا أهل العراق ، أنا عبدُ الله بن

(١) كتاب وقعة صفين : « إلى كتاب الله » .

(٢) كتاب صفين ٥٦١ - ٥٦٤ ، ثم ٥٥٣ - ٥٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٥٧ بسنده عن عبد
الرحمن بن جندب عن أبيه .

(٣) أعدها جذعة ؛ أي أبدأ بهامزة أخرى . وفي اللسان : « وإذا طغشت حرب بين قوم فقال بعضهم :
« إن شتم أعدناها جذعة ، أي أول ما يبتدأ منها » . وفي الأصول « خدعه » والصواب ما أثبتته من
كتاب صفين .

مرو بن العاص ؛ إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين أو الدنيا^(١) فإن تسكن للدين قد والله أعذرنا وأعذرتم ، وإن تسكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم ؛ وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله . فاعتنوا هذه الفرصة ، عسى أن يعيش فيها المحترف^(٢) ويُنسى فيها القتل ؛ فإن بقاء المهلك بعد الهالك قليل .

فأجابه سعد بن قيس الممداني ، فقال : أمّا بعدُ يا أهل الشام ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا ، وسميتموها غدرًا وسرفًا ، وقد دعوتمونا اليوم إلى ما قاتلناكم عليه أمس ، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، وأهل الشام إلى شامهم ، بأمر أجل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه ؛ [فالأمر في أيدينا دونكم ؛ وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم]^(٣) .

فقام الناس إلى على عليه السلام ، فقالوا له : ^(٤) « أجِبِ القوم إلى الحاكمة ، قال : ونادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل بشعر سمعه الناس ، وهو » :

رُؤُوسَ الْعِرَاقِ أَجِيبُوا الدُّعَاءَ	فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الشَّدَّةِ
وَقَدْ أَوْدَتْ الْحَرْبُ بِالْعَامِينَ	وَأَهْلُ الْحَفَائِظِ وَالنَّجْدَةِ
فَلَسْنَا وَلَسْتُمْ مِنَ الْمُسْرِكِينَ	وَلَا الْمُجْمُوعِينَ عَلَى الرَّدَّةِ
وَلَكِنْ أَنَاسٌ لَقُوا مِثْلَهُمْ	لَنَا عِدَّةٌ وَلَكُمْ عِدَّةٌ ^(٥)

(١) كتاب وقعة صفين : « للدين والدنيا » .

(٢) في ج : « المحترف » وفي حواشيها : « الحزق ، محرقة : الدهش من الخوف » .

(٣) تسكلة من كتاب صفين .

(٤-٥) في كتاب صفين : « أجِبِ القوم إلى ما دعوناك إليه ؛ فإننا قد قبلنا ، ونادى إنسان من أهل

الشام في سواد الليل بشعر سمعه الناس ، وهو » .

(٥) كتاب وقعة صفين : « ولهم عده » .

[فَقَاتَلَ كُلُّ عَلَى وَجْهِهِ - يُقَحِّمُهُ الْجِدُّ وَالْجِدَّةُ] (١)
 فَإِنْ تَقَبَّلُوها فَفِيها الْبَقَاءُ وَأَمِنْ الْفَرِيقَيْنِ وَالْبَلَدَةُ
 وَإِنْ تَذَفَعُوها فَفِيها الْفَنَاءُ وَكُلُّ بَلَاءٍ إِلَى مُدَّةٍ
 فَحَتَّى مَتَى نَخْضُ هَذَا السَّعَاءُ وَلَا بُدَّ أَنْ تَخْرُجَ الزُّبْدَةُ
 ثَلَاثَةُ رَهْطٍ هُمْ أَهْلُهَا وَإِنْ يَسْكُتُوا تَحْمَدُ الْوَقْدَةُ
 سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ وَكَبْشُ الْعِرَاقِ وَذَلِكَ الْمُسَوَّدُ مِنْ كِنْدَةَ

قال : فأما المسوّد من كِنْدَةَ ، وهو الأشعث ؛ فإنه لم يرضَ بالسكوت ، بل كان من أعظم الناس قولاً في إطفاء الحرب والركون إلى المودعة . وأما كبش العراق ، وهو الأشر ، فلم يكن يرى إلا الحرب ، ولكنه سكت على مضض . وأما سعيد بن قيس ، فكان تارة هكذا وتارة هكذا (٢) .

وذكر ابن ديزيل (٣) الهمداني في كتاب " صفين " قال :

خرج عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية ، فارتجز فخرج إليه جارية بن قدامة السعدي ، فارتجز أيضاً مجيباً له ثم أطعنا (٤) فلم يصنع شيئاً ، وانصرف كل واحد منهما عن صاحبه ، فقال عمرو بن العاص لعبد الرحمن : اقتحم يا بن سيف الله ، فتقدم عبد الرحمن بلوائه ، وتقدم أصحابه ، فأقبل على عليه السلام على الأشر ، فقال له : قد بلغ لواء معاوية حيث

(١) تسكّلة من كتاب صفين .

(٢) كتاب وقعة صفين : ٥٥١ - ٥٥٣ .

(٣) ابن ديزيل ، هو إبراهيم بن الحسين بن علي بن مهران بن ديزيل السكسائي الهمداني ، أحد كبار الحفاظ ومتكلميهم ؛ ذكره ابن حجر في لسان الميزان (١ : ٤٩) ، وقال : « مات في آخر يوم من شعبان سنة لإحدى وثمانين ومائتين » .

(٤) أطعنا : أى طاعنا .

تري ، فدوئك القوم . فأخذ الأشر لواء على عليه السلام ، وقال ^(١) :

إِنِّي أَنَا الْأَشْتَرُ مَعْرُوفُ الشَّتْرِ ^(٢) إِنِّي أَنَا الْأَفْعَى الْعِرَاقِيُّ الذَّكَرُ

لَسْتُ رَبِّيعِيًّا وَلَسْتُ مِنْ مُضَرَ ^(٣) لَسَكِنِّي مِنْ مَذْحِجِ الشَّمِّ الْفُرَزُ

فضارب القوم حتى ردهم ، فانتدب ^(٤) له همام بن قبيصة الطائي - وكان مع معاوية - فشد عليه في مَذْحِج ، فانتصر عدى بن حاتم الطائي للأشتر ، فحمل عليه في طي ، فاشتد القتال جدًّا ، فدعا على ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله فركبها ، ثم تعصب بعامة رسول الله ، ونادى : أيها الناس ، مَنْ يَشْرِي نفسه لله ! إنَّ هذا يومٌ له مابعده ، فانتدب معه مابن عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً ؛ فقدمهم على عليه السلام ، وقال :

دُبُّوا دَيْبَ النَّمْلِ لَا تَفُوتُوا وَأَصْبِحُوا أَمْرَكُمْ أَوْ يَتُّوا ^(٥)

* حَتَّى تَفَالُوا الشَّارَ أَوْ تَمُوتُوا *

وحمل وحمل الناس كلهم حملة واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صفٌ إلا أزالوه ، حتى أفضوا إلى معاوية ، فدعا معاوية بفرسه ليفرَّ عليه .

وكان معاوية بعد ذلك يحدث فيقول : لَمَّا وَضَعْتُ رَجُلِي فِي الرَّكَابِ ، ذَكَرْتُ قَوْلَ عَمْرِو بْنِ الْإِطَنْابَةِ ^(٦) :

أَبَتْ لِي عَفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالْثَنِّ الرَّبِّيعِ

(١) الأبيات ذكرها نصر بن مزاحم في وقعة صفين ٤٥١ ، والسعودي في تاريخه ٢ : ٣٩٠ .

(٢) الشتر : انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه .

(٣) رواية السعدي :

* لَسْتُ مِنْ أُلْحَى رَبِّيعٍ أَوْ مُضَرَ *

(٤) انتدب له : خف له .

(٥) في وقعة صفين ٥٥٩ للمعري : « وَأَصْبَحُوا بِحَرْبِكُمْ » ، وفيما يأتي من شرح التهيج (٢ : ٢٨٦) :

« وَأَصْبَحُوا فِي حَرْبِكُمْ » .

(٦) الخبر والأبيات في السكامل (٨ : ٢١٥) - بشرح المصنف ، وأمالى الغالي (٢٥٨ : ١) ، وعيون

الأخبار (١٢٦ : ١) ، والإطناية : اسم أمه ؛ وهو عمرو بن عامر بن بني الحارث بن الحزرج .

وإِقْدَامِي عَلَى الْمَسْكُورِهِ نَفْسِي وَضَرَبَنِي هَامَّةَ الْبَطَلِ الْمَشِيحِ^(١)
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشَتْ : مَسَكَانِكَ تُمَحِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي^(٢)
فَأُخْرِجْتُ رِجْلِي مِنَ الرِّكَابِ وَأَقَمْتُ ، وَنَظَرْتُ إِلَى عَمْرٍو فَقُلْتُ لَهُ : الْيَوْمَ صَبَّرْتُ وَغَدًا
فَيَخِرُ ، فَقَالَ : صَدَقْتُ .

قال إبراهيم بن ديزيل : وروى عبدُ الله بن أبي بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ،
عن معاوية ، قال : أَخَذْتُ بِمَعْرِفَةِ فَرَسِي ، وَوَضَعْتُ رِجْلِي فِي الرِّكَابِ لِلْهَرَبِ ، حَتَّى
ذَكَرْتُ شَعْرَ ابْنِ الْإِطْنَابَةِ ، فَعُدْتُ إِلَى مَقْعَدِي ، فَأَصْبَحْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا ، وَإِنِّي لَرَّاجٍ أَنْ
أُصِيبَ خَيْرَ الْآخِرَةِ .

قال إبراهيم بن ديزيل : فَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْهَرِيرِ ، ثُمَّ رَفَعْتُ الْمَصَاحِفَ بَعْدَهُ .
وروى إبراهيم ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن ربيعة بن لقيط ،
قال : شَهِدْنَا صِفِّينَ ، فَطَرَتِ السَّمَاءُ عَلَيْنَا دَمًا عَيْبُطًا .

وقال : وَفِي حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ أَنْ كَانُوا لَيَاخُذُونَهُ بِالصِّحَافِ وَالْآنِيَةِ . وَفِي
حَدِيثِ ابْنِ لَهْيَعَةَ : حَتَّى إِنْ الصِّحَافَ وَالْآنِيَةَ لَتَمْتَلِئُ وَنُهِرَ يَقْهَأُ .

قال إبراهيم : وَرَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادٍ ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي
حَبِيبٍ ، عَنْ حَدِيثِهِ مَنْ حَضَرَ صِفِّينَ أَنَّهُمْ مَطَرُوا دَمًا عَيْبُطًا ، فَتَلَقَّاهُ النَّاسُ بِالْقَصَاصِ
وَالْآنِيَةِ ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْهَرِيرِ ، وَفَزَعَ أَهْلُ الشَّامِ وَهُمْ أَوْ أَنَّ يَتَفَرَّقُوا ، فَقَامَ عَمْرٍو بْنُ
الْعَاصِ فِيهِمْ فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا هَذِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، فَأَصْلَحْ أَمْرًا مَا بِيَدِهِ وَيَبِينُ
اللَّهُ ، ثُمَّ لَا عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَطِحَ هَذَانِ الْجَبَلَانِ . فَأَخَذُوا فِي الْقِتَالِ .

(١) في الكامل : « وإجشأ على المسكوره نفسي » ، والشيخ : القبل على عدوه ، المانع لما وراء ظهره .
(٢) جشأت وجاشت ، أى ارتفعت من الفزع .

قال إبراهيم : وروى أبو عبد الله المسكني ، قال : حدثنا سُفيان بن عاصم بن كليّب الحارثي عن أبيه ، قال : أخبرني ابنُ عباس قال : لقد حدثني معاوية أنه كان يومئذ قد قرّب إليه فرسًا له أنثى ، بعيدة البطن من الأرض ، ليهرّب عليها ؛ حتى أتاه آتٍ من أهل العراق ، فقال له : إني تركتُ أصحاب عليّ في مثل ليلة الصّدّر^(١) من منى ، فأقمت ، قال : فقلنا له : فأخبرنا مَنْ هو ذلك الرجل ؟ فأبى وقال : لا أخبركم مَنْ هو .

قال نصر وإبراهيم أيضًا : وكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام :
أما بعد ، فإنّ هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكلُّ واحدٍ منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يُعطى واحدٌ منا الطاعة للآخر ، وقد قُتِلَ فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أنخوف أن يكون ما بقي أشدّ مما مضى ؛ وإنا سوف نُسألُ عن ذلك الموطن ، ولا يحاسبُ [به]^(٢) غيري وغيرك ، وقد دعوتُك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعُدْر ، وبراءة وصلاح للأمة ، وحَقُّ الدماء ، وألفةُ المدين ، وذهابُ للضغائن والفتن ، أن نحكم بيني وبينكم حكمين مرضيين ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خيرٌ لي ولك ، وأقطعُ لهذه الفتن ؛ فاتق الله فيما دُعيت إليه ، وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله ، والسلام .
فسكتب إليه عليّ عليه السلام :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإنّ أفضل ما شغل به المرء نفسه اتّباع ما حسن به^(٣) فعله ، واستوجب فضله ، وسلم من عيبه^(٤) ،

(١) الصدر : اليوم الرابع من أيام منى .

(٢) تسكّلة من وقعة صفين المعقري .

(٣-٣) وقعة صفين . « ما يحسن به فعله ، ويستوجب فضله ، ويسلم من عيبه » .

وإنّ البغى والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ، فاحذر الدنيا ، فإنه لا فرح في شيء وصلت إليه منها ؛ ولقد علمت أنّك غير مدرك ما قضى فواته ، وقد رام قومٌ أمراً بغير الحقّ ، وتأولوه ^(١) على الله جلّ وعزّ ، فأكذبهم ومتمهم قليلاً ، ثم اضطرم إلى عذابٍ غليظ ، فاحذر يوماً يفتبّط فيه من حُمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده [ولم يحاذه] ^(٢) ، وغرته الدنيا واطمأن إليها . ثم إنّك قد دعوتني إلى حكم القرآن ، ولقد علمت أنّك لست من أهل القرآن ولا حكمه تريد ؛ والله المستعان ، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه ، ولشدّا إياك أجيبنا ؛ ومن لم يرض بحُكم القرآن فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ^(٣) .

فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام :

أما بعد ؛ عافانا الله وإياك ، فقد آن لك أن تجيب إلى ما فيه صلاحنا وألفة بيننا ، وقد فعلت الذي فعلت وأنا أعرف حقّ ، ولكنني اشتريتُ بالعفو صلاح الأمة ، ولم أكثر فرحاً بشيء جاء ولا ذهب ؛ وإنا أَدْخَلْنِي في هذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغي والمبغى عليه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فدعوت إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك ؛ فإنه لا يجمعنا وإياك إلا هو ، نحى ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن ، والسلام ^(٤) .

قال نصر : فكتب عليّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، يعظه ويُرشده .

(١) وقعة صفين : « فتأولوا على الله » .

(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقرى .

(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٦٥ - ٥٦٦ .

(٤) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ .

أما بعد ؛ فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولن يصيب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حِرْصاً يزيدُه فيها رغبة ، ولن يستغنى صاحبها بما نالَ عما لم يبلغ^(١) ، ومن وراء ذلك فراقُ ما جمَعَ ، والسعيدُ مَنْ وعظَ بغيره ؛ فلا تُحْبِطَ أبا عبد الله أجرك ، ولا تُجَارَ معاوية في باطله ، والسلام .

فكتب إليه عمرو الجواب :

أما بعد أقول ، فالذي^(٢) فيه صلاحنا وألفتنا الإنابةُ إلى الحق ، وقد جعلنا القرآن بيننا حكماً ، وأجبنّا إليه ، فصبرَ الرجلُ مَنّا نفسه على ما حكم عليه القرآن ، وعذره الناسُ بعد الحاجة ، والسلام .

فكتب إليه على عليه السلام :

أما بعد ؛ فإنّ الذي أحجبتك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ، ووثقت به منها لمُنْقَلِبِ عنك ، ومفارقُ لك ؛ فلا تطمئنّ إلى الدنيا فإنّها غرارة ، ولو اعتبرت بما مضى لحفِظْتَ ما بقي ، وانتفعتَ منها بما وعظت به . والسلام .

فأجابه عمرو :

أما بعد ، فقد أنصفَ مَنْ جعل القرآن إماماً ، ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبرِ أبا حسن ، فإنّا غير مُنْزِلِيكَ إلا ما أنالك القرآن ، والسلام^(٣) .

قال نصر : وجاء الأسمث إلى على عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أرى الناس إلا قد رَضُوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى مادَعَوْهم إليه من حكم القرآن ؛

(١) وقعة صفين : « لم يبلغه » .

(٢) وقعة صفين : « فإن ما فيه صلاحنا » .

(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ - ٥٧١ .

فَإِنْ شِئْتَ أَتَيْتُ مُعَاوِيَةَ فَسَأَلْتُهُ مَا يَرِيدُ ، وَنَظَرْتُ مَا الَّذِي يَسْأَلُ ؛ قَالَ : فَأَتِهِ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَتَاهُ ، فَسَأَلَهُ : يَا مُعَاوِيَةُ : لِأَيِّ شَيْءٍ رَفَعْتُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفَ ؟ قَالَ : لِنَرْجِعَ نَحْنُ وَأَنْتُمْ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِيهَا ^(١) ، فَابْعَثُوا رِجَالًا مِنْكُمْ تَرْضَوْنَ بِهِ ، وَنَبْعَثُ مِنْ رِجَالٍ ، وَنَأْخُذُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَفْعَلَا بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا يَعْدُوَانِهِ ، ثُمَّ نَتَّبِعُ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ . فَقَالَ الْأَشْعَثُ : هَذَا هُوَ الْحَقُّ .

وَانصَرَفَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَبَعَثَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُرَاءً مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَبَعَثَ مُعَاوِيَةَ قُرَاءً مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، فَاجْتَمَعُوا بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، وَمَعَهُمُ الْمَصْحَفُ ، فَنَظَرُوا فِيهِ وَتَدَارَسُوا ^(٢) وَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُحْيُوا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ ، وَيُمِيتُوا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ ، وَرَجَعَ كُلُّ فَرِيقٍ إِلَى صَاحِبِهِ ، فَقَالَ أَهْلُ الشَّامِ : إِنَّا قَدْ رَضِينَا وَاخْتَرْنَا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ ، وَقَالَ الْأَشْعَثُ وَالْقُرَاءُ الَّذِينَ صَارُوا خَوَارِجَ فِيمَا بَعْدَ : قَدْ رَضِينَا نَحْنُ وَاخْتَرْنَا أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ ، فَقَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَإِنِّي لَا أَرْضَى بِأَبِي مُوسَى وَلَا أَرَى أَنْ أَوْلِيَهُ ، فَقَالَ الْأَشْعَثُ وَزَيْدُ بْنُ حَصِينٍ وَمِسْعَرُ بْنُ فَدَكٍ كَيْفَ فِي عَصَابَةِ مِنَ الْقُرَاءِ : إِنَّا لَا نَرْضَى إِلَّا بِهِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ حَذَرْنَا مَا وَقَعْنَا فِيهِ . فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَإِنَّهُ لَيْسَ لِي بَرَضًا ، وَقَدْ فَارَقَنِي وَخَذَلَ النَّاسَ عَنِّي ، وَهَرَبَ مِنِّي حَتَّى أَمْنْتُهُ بَعْدَ أَشْهُرٍ ، وَلَسَكُنَ هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ أَوْلِيَهُ ذَلِكَ . قَالُوا : وَاللَّهِ مَا نُبَالِي ، أَكُنْتَ أَنْتَ أَوْ ابْنُ عَبَّاسٍ ! وَلَا نُزِيدُ إِلَّا رِجَالًا هُوَ مِنْكَ وَمِنْ مُعَاوِيَةَ سِوَا ، لَيْسَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنْكُمَا بِأَدْنَى مِنَ الْآخَرِ . قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَإِنِّي أَجْعَلُ الْأَشْثَرَ ، فَقَالَ الْأَشْعَثُ : وَهَلْ سَقَرُ الْأَرْضِ عَلَيْنَا إِلَّا الْأَشْثَرُ ! وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا فِي حُكْمِ الْأَشْثَرِ ! قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَمَا حُكْمُهُ ؟ قَالَ : حُكْمُهُ أَنْ يُضْرَبَ بَعْضُنَا بَعْضًا بِالسَّيْفِ حَتَّى يَكُونَ مَا أَرَدْتَ وَمَا أَرَادَ ^(٣) .

(٢) صفين : « وتدارسوه » .

(١) وقعة صفين : « في كتابه » .

(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٢ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَير ، عن جابر ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ ، قال : لما أرادَ الناسُ عايّاً أن يَضَعَ الحَكَمَينِ ، قال لهم : إنّ معاويةَ لم يكن ليَضَعَ لهذا الأمر أحدًا هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ؛ وإنّه لا يصلح للقرشيّ إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن العباس فارمُوه به ؛ فإن عمرًا لا يَمُقِدُ عُقْدَةً إلا حلّها عبد الله ، ولا يَحُلُّ عُقْدَةً إلا عقدها ، ولا يُبرِمُ أمرًا إلا نقضه ، ولا يَنْقُضُ أمرًا إلا أبرمه ، فقال الأشعث : لا والله ، لا يحكمُ فينا مُضَرِّيَّانَ حتّى تقومَ الساعة ، ولكن اجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جَعَلُوا رجلاً من مُضَرٍّ ، فقال عليّ عليه السلام : إنّى أخافُ أن يُخدَعَ يَمِينُكُمْ ، فإنّ عمرًا ليس من الله في شيء إذا كانَ له في أمرٍ هوى . فقال الأشعث : والله لأنّ يحكما ببعض مانكره ، وأحدُهما من أهل اليمن ، أحبُّ إلينا من أن يكون بعض مانحبّ في حكمهما وهما مُضَرِّيَّان .

قال : وذَكَرَ الشعبيّ أيضاً مثل ذلك ^(١) .

قال نصر : فقال عليّ عليه السلام : قد أبديتم إلّا أبا موسى ! قالوا : نعم ، قال : فاصنعوا ما شئتم ، فبعثوا إلى أبي موسى - وهو بأرضٍ من أرض الشام يقال لها عُرُض ^(٢) قد اعتزل القتال - فأتاه مولى له ، فقال : إنّ الناس قد اصطَلَحُوا ، فقال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال : وقد جعلوك حكماً ، فقال : إنّنا لله وإنا إليه راجعون ! فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر عليّ عليه السلام ، وجاء الأشرع علياً ، فقال : يا أمير المؤمنين أُلزِمَني ^(٣) بعمرو بن العاص ، فوالذي لا إله غيره ، لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنّه .

(١) وقعة صفين للمعقرى ٥٧٣ .

(٢) عرض : بلد بين تدمر ورسافة الشام .

(٣) ألزمه به : ألزمه إياه .

وجاء الأحنفُ بن قيس عليا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رُميت بِحَجَرٍ^(١) الأرض ؛
وَمَنْ حَارَبَ اللهَ ورسولَه أنفَ^(٢) الإسلام ، وإني قد عجمتُ هذا الرجل - يعنى أبا
موسى - وحلبتُ أشطره ، فوجدته كليلَ الشفرة قريب القعر ؛ وإنه لا يصلح لهؤلاء
القوم إلا رجلٌ يدنو منهم حتى يكون في أكنفهم ، ويتباعدُ منهم حتى يكون بمنزلة النجم
منهم^(٣) ، فإن شئت أن تجعلني حَكما فاجعلني ، وإن شئت أن تجعلني ثانياً أو ثالثاً^(٤) ، فإن
عمراً لا يبعدُ عقدة إلا حللتها ، ولا يحلُّ عقدة إلا عقدتُ لك أشدَّ منها .
فعرّض عليّ عليه السلام ذلك على الناس فأبوه ، وقالوا : لا يكون إلا أبا موسى^(٥) .

قال نصر : مال الأحنف إلى علي عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني خيّرْتُك
يومَ الجمل أن آتيك فيمن أطاعني ، أو أكَفَّ عنك بني سعد ، فقلت : كفّ قومك ،
فكفني بكفك نصيرا ، فأقمتُ بأمرك ، وإنَّ عبد الله بن قيس^(٥) رجل قد حلبتُ أشطره ،
فوجدته قريب القعر ، كليل المذبة ، وهو رجلٌ يمانٍ وقومه مع معاوية ، وقد رُميتُ
بِحَجَرٍ الأرض ، وبِمَنْ حارب الله ورسوله ، وإنَّ صاحب القوم مَنْ ينأى حتى يكون مع
النجم ، ويدنو حتى يكون في أكنفهم ، فابعثني ، فوالله لا يحلُّ عنك عقدة إلا عقدتُ لك
أشدَّ منها ، فإن قلت : إنني لست من أصحاب رسول الله ، فابعث رجلاً من أصحاب
رسول الله ، وابعثني معه .

(١) في اللسان ٥ : ٢٣٧ : « ويقال : رى فلان بِحَجَرٍ الأرض ؛ إذا رى بدهية من الرجال ؛ وفي
حديث الأحنف بن قيس : أنه قال لعل حين سمي معاوية أحد الحكيم عمرو بن العاص : إنك قد رُميت
بِحَجَرٍ الأرض . . . » .

(٢) أنف كل شيء : أوله ؛ يقال : سار في أنف النهار ؛ أي أوله .

(٣-٣) وقعة صفين : « فإن تجعلني حَكما فاجعلني ، وإن أبيت أن تجعلني حَكما فاجعلني ثانياً أو ثالثاً » .

(٤) وقعة صفين ٥٧٤ .

(٥) عبد الله بن قيس هو أبو موسى الأشعري .

فقال عليّ عليه السلام : إنّ القومَ أتوني بعبد الله بن قيس مَبْرُئِناً ، فقالوا : ابعث هذا ، رَضِينَا بِهِ وَلِلَّهِ بِالْغِ أَمْرُهُ ^(١) .

قال نصر : وروى أن ابن السكّوء ، قام إلى عليّ عليه السلام ، فقال : هذا عبد الله ابن قيس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى عليه وصاحب مقامه أبي بكر ^(٢) وعامل عمر ، وقد رضى به القوم ، وعرضنا عليهم ابن عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ، خلّتون ^(٣) في أمرك .

فبلغ ذلك أهل الشام ، فبعث أيمن بن خزيم الأسديّ ، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات ، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق :

لَوْ كَانَ لِلْقَوْمِ رَأْيٌ يُعْصَمُونَ بِهِ	من الضلالِ رموكم بائني عباس
لِلَّهِ دَرُّ أَبِيهِ أَيُّمَا رَجُلٍ	مَا مِثْلُهُ لِفَصَالِ الْخَطْبِ فِي النَّاسِ !
لَكِنْ رَمَوْكُمْ بِشَيْخٍ مِنْ ذَوِي يَمَنِ	لَا يَهْتَدِي ضَرْبَ أَخْنَاسٍ لِأَسْدَاسٍ ^(٤)
إِنْ يَخْلُ عَمْرُو بِهِ يَقْذِفُهُ فِي لُجَجٍ	يَهْوِي بِهِ الذَّجْمُ تَيْسًا بَيْنَ أُتْيَاسٍ
أُبْلِخُ لَدَيْكَ عَلِيًّا غَيْرَ عَائِيهِ ^(٥)	قَوْلَ أَمْرِي لَا يَرَى بِالْحَقِّ مِنْ بَاسٍ
مَا الْأَشْعَرِيُّ بِأَمُونٍ أَبَا حَسَنِ	فَاعْلَمْ هُدَيْتَ وَلَيْسَ الْعَجْزُ كَالرَّاسِ
فَاصْدِرْ بِصَاحِبِكَ الْأَدْنَى زَعِيمَهُمْ	إِنَّ ابْنَ عَمِّكَ عَبَّاسٍ هُوَ الْأَسَى

فلما بلغَ الناسَ هذا الشعر ، طارت أهواء قوم من أولياء عليّ عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس ، وأبترَ القراء إلا أبا موسى ^(٦) .

(١) وقعة صفين ٥٧٥ .

(٢) صاحب المقام : الذي يتولى أمر قسمة المغانم ونحوها .

(٣) الظنون : المتهم ، كالظنين .

(٤) وقعة صفين والمسعودي ٢ : ٤١٠ : « لم يدر ما ضرب أخناس » .

(٥) صفين : « عائبه » .

(٦) وقعة صفين : ٥٧٥ - ٥٧٦ .

قال نصر : وكان أيمن بن خُزَيم رجلاً عابداً مجتهداً ، وقد كان معاوية جعل له فلسطين ، على أن يتابعه ويشايعه على قتال عليّ عليه السلام ، فقال أيمن ، وبعت بها إليه :

وَلَسْتُ مُقَاتِلًا رَجُلًا يُصَلِّيَ عَلَى سُلْطَانٍ آخَرَ مِنْ قُرَيْشٍ .
لَهُ سُلْطَانُهُ وَكَلِّيَّ إِنِّي مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفِهِ وَطَيْشٍ .
أَقْتُلُ مُسْلِمًا فِي غَيْرِ جُرْمٍ فَلَيْسَ بِنَافِعِي مَا عَشْتُ عَيْشِي !

قال نصر : فلما رضي أهل الشام بعمره ، وأهل العراق بأبي موسى ، أخذوا في سطر كتاب المواعدة ، وكانت صورته :

« هذا ما تقاضى عليه عليّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان » . فقال معاوية :
بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته ! وقال عمرو : بل نكتب اسمه واسم أبيه ؟ إنما هو أميركم ، فأما أميرنا فلا . فلما أعيد إليه الكتاب أمر بمحوه ، فقال الأحنف : لا تمتح اسم أمير المؤمنين عنك ؛ فإني أخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً ، فلا تمتحها . فقال عليّ عليه السلام : إن هذا اليوم كيوم الحديبية حين كتب الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ بن عمرو ، فقال ﷺ : لو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولم أخالفك ، إني إذا لظالم لك إن منعتك أن تطوف ببيت الله الحرام وأنت رسوله ؛ ولكن اكتب : « من محمد بن عبد الله » ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه : « يا عليّ ، إني لرسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، ولن يحو عني الرسالة كتابي لهم من محمد بن عبد الله ، فاكتبها وامح ما أراد محوه ، أما إن لك مثلها ستعطيهما وأنت مضطهد » .

قال نصر : وقد روى أن عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى عليّ عليه السلام ، فطلب منه أن يحو اسمه من إمرة المؤمنين فقص عليه وعلى من حضر قصة صلح الحديبية ،

قال : إن ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين ، واليوم أكتبه إلى آبائهم ، كما كان رسول الله صلى الله عليه كُتِبَ إلى آبائهم شِبْهاً^(١) ومِثْلاً ، فقال عمرو : سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَتَشَبَّهْنَا^(٢) بالكفار ، ونحن مسلمون ! فقال عليّ عليه السلام : يا بن النابغة ، ومتى لم تكن للكافرين ولياً والمسلمين عدواً ! فقام عمرو ، وقال : والله لا يجمع بيني وبينك مجلسٌ بعد اليوم . فقال عليّ : أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُظْهَرَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَصْحَابِكَ .

وجاءت عصابة قد وضعت سيوفها على عواتقها ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، مَوْنًا بما شئت ، فقال لهم سهل بن حنيف : أيها الناس ، أتهموا رأيكم ، فلقد شهدنا صلح رسول الله صلى الله عليه يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا^(٣) .

وزاد إبراهيم بن ديزيل : لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ - يَعْنِي الْحَدِيبِيَّةَ - وَلَوْ اسْتَطِيعَ أَنْ أَرَدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لَرَدَدْتُهُ ، ثُمَّ لَمْ نَرَ فِي ذَلِكَ الصَّلَاحِ إِلَّا خَيْرًا .

قال نصر : وقد روى أبو إسحاق الشيباني ، قال : قرأت كتاب الصلح عند سعيد ابن أبي بُردة في صحيفة صفراء ، عليها خاتمان : خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها ، على خاتم عليّ عليه السلام : « محمد رسول الله » ، وعلى خاتم معاوية « محمد رسول الله » . وقيل لعليّ عليه السلام ، حين أراد أن يكتب الكتاب بينه وبين معاوية وأهل الشام : أَتُقَرِّرُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ ! فقال عليّ عليه السلام : ما أقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ؛ ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ، ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه ، ويسمّي نفسه بما شاء وأصحابه ، فكتبوا :

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى عليّ بن أبي طالب

(١) وقعة صفين : « سنة ومثلاً » .

(٢) صفين : « شَبَّهْنَا بِالْكَافِرِ وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ » !

(٣) كتاب صفين ٥٨٢ - ٥٨٣ .

على أهل العراق ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، إنَّنا نزل عند حُكم الله تعالى وكتابه ، ولا يجمع بيننا إلا إياه . وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحبي ما أحيا القرآن ، ونميت ما ألمات القرآن ، فإن وجد الحكمان ذلك في كتاب الله اتبعاه ، وإن لم يجدها أخذنا بالسنة العادلة غير المفرقة . والحكمان : عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد أخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين أنهما آمنان على أنفسهما وأموالهما وأهلهم ، والأمة لها أنصار ؛ وعلى الذي يقضيان عاياه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهدُ الله أن يعملوا بما يقضيان عليه ؛ مما وافق الكتاب والسنة ، وإن الأمن والمواذعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين ؛ إلى أن يقع الحكم ، وعلى كل واحد من الحكمين عهدُ الله ، ليحكم بين الأمة بالحق ، لا بالهوى . وأجلُ المواذعة سنة كاملة ؛ فإن أحب الحكمان أن يعجلا الحكم عجلاه ، وإن توفى أحدهما فلا مير شيعته أن يختار مكانه رجلاً ؛ لا يألو الحق والعدل ، وإن توفى أحدُ الأميرين كان نصبُ غيره إلى أصحابه ممن يرضون أمره ، ويحمدون طريقته . اللهم إنا نستنصرُك على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة ، وأراد فيها إلحاداً وظلماً .

قال نصر : هذه رواية محمد بن عليّ بن الحسين والشعبيّ ، وروى جابر عن زيد بن

الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة :

هذا ما تقاضى عليه ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ قضية عليّ على أهل العراق ومَنْ كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ومَنْ كان من شيعته من شاهد أو غائب ؛ إننا رضيّا أن نزل عند حُكم القرآن فيما حكم ، وأن نقفَ عند أمره فيما أمر ؛ فإنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنّا جعلنا كتاب الله سبحانه حكماً بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى

خاتمته ، نحى ما أحيا القرآن ، ونميت ما أماته ؛ على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومُحاكماً ؛ ورَضِيَ معاويةُ وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومُحاكماً ؛ على أنَّهُم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه كَيْتَخِذَانِ السِّكِّتَابِ إماماً فيما بعثا إليه ، لا بعدواناً به إلى غيره ما وجداه فيه مسطوراً ، وما لم يجداه مسمًى في السِّكِّتَابِ ردَّاه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه الجماعة ، لا يتعمدان لها خلافاً ، ولا يتبعان هوى ، ولا يدخلان في شبهة ؛ وقد أخذ عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليٍّ ومعاوية عهدَ الله وميثاقه بالرِّضَا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه ، وليس لهما أن ينقضَا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره ؛ وأنهما آمنان في حُكْمهما على ذمَّهما وأموالهما وأهلها ، ما لم يعدوا الحق ؛ رضى بذلك راضٍ أو أنكره مُنْكَرٌ . وإنَّ الأُمَّة أنصارُهما على ما قَضَيَا به من العدل ، فإن تَوَفَّى أحدُ الحَكَمَيْنِ قبل انقضاء الحكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً ، لا يألون عن أهل المَعْدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحُكْم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مثلُ شرط صاحبه ، وإن مات أحدُ الأميرين قبل القضاء ، فلشيعته أن يوَلُّوا مكانه رجلاً يرضون عدله . وقد وقعت هذه القضية ، ومعها الأمن والتفاوض ، ووضع السلاح والسلام والموادة ، وعلى الحَكَمَيْنِ عهد الله وميثاقه ألا يألوا اجتهداً ، ولا يتعمداً جوراً ، ولا يدخلان في شبهة ، ولا يعدوا حُكْمَ السِّكِّتَابِ ، فإن لم يقبلَا برئت الأُمَّة من حُكْمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة ، وقد وجبت القضية على ما قد سُمِّيَ في هذا الكتاب من مواقع الشروط على الحَكَمَيْنِ والأميرين والفريقين ، والله أقرب شهيديداً ، وأدنى حفيظاً . والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم إلى انقضاء مدَّة الأجل ، والسلاح موضوع ، والشُّبُل مَحَلَّة ، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمن ، وللحَكَمَيْنِ أن ينزلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق والشام ، لا يحضرهما فيه إلا مَنْ أحبَّبا عن ملائمتهم وتراضٍ ،

وإنَّ المسلمين قد أجالوا هذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان ، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وجَّهاله تجَّالها ، وإنَّ أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما ، وإنَّهما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب ، وهُم يَدَّ على مَنْ أراد فيه إلحادا وظُلما ؛ أو حاول له نقضا . وشهد فيه من أصحاب على عشرة ، ومن أصحاب معاوية عشرة ؛ وتاريخ كتابته لليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين^(١) .

قال نصر : وحدثنا عمرو بن سعيد ، قال : حدثني أبو جَناب ، عن ربيعة الجرمي ، قال : لما كتبت الصحيفة دُعِيَ لها الأشتر ، ليشهد مع الشهود عليه ، فقال : لأصحبته يميني ولا نفعني بعدها الشمال إن كُتِب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادة ، أو لستُ على بينة من أمرى ويقين من ضلالة عدوئى ! أو لستُ قد رأيت الظفر إن لم تجتمعوا على الخور ! فقال له رجل [من الناس]^(٢) : والله ما رأيتُ ظفرا ولا خورا ، هلم فأشهد على نفسك ، وأقرِّر بما كُتِب في هذه الصحيفة ، فإنه لا رغبة لك عن الناس . فقال : بلى والله ، إنَّ لي لرغبةً عنك في الدنيا للدنيا ، وفي الآخرة للآخرة ؛ ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت عندى بخير منهم ، ولا أحرَم دما .

قال نصر بن مزاحم : الرجلُ هو الأشعث بن قيس ؛ قال : فكأنما قصَّص^(٣) على أنه الجهم ثم قال : ولستُ قد رضيتُ بما يرضى به أمير المؤمنين ؛ ودخلتُ فيما دخل فيه ، وخرجتُ مما خرج منه ، فإنه لا يدخل إلا بى الهدى والصواب .

(١) وقمة صفين ٥٧٨ - ٥٨٦ .

(٢) من صفين .

(٣) القصص : الدلك والضرب . وى صفين : « اللحم » .

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد عن أبي جناب الكلبي عن إسماعيل بن شفيع^(١) عن سفيان بن سلمة^(٢) ، قال : فلما تم الكتاب وشهدت فيه الشهود ، وتراضى الناس خرج الأشعث ، ومعه ناسٌ بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس ، ويمرّضها عليهم ، فمرّ به على صفوف من أهل الشام ، وهم على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فترضوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق ، وهم على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فترضوا به ، حتى مرّ برايات عَنزة ، وكان مع عليّ عليه السلام من عَنزة بصفين أربعة آلاف مجفف^(٣) ، فلما مرّ بهم الأشعث يقرؤه عليهم ، قال فتَيان منهم : لا حكم إلّا لله ، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهم ، فقاتلا حتى قُتلا على باب رِواق معاوية - فهما أولُ مَنْ حَكَم . واسماهما جَعْد ومَعْدان - ثم مرّ بهما على مُراد ، فقال صالح بن شقيق ، وكان من رؤسهم :

ما لعلّي في الدماء قد حَكَمَ لو قاتل الأحزابَ يوماً ما ظَلَمَ

لا حكم إلّا لله ، ولو كره المشركون . ثم مرّ على رايات بني راسب ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْم إلّا لله ، لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله . ثم مرّ على رايات تميم ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْم إلّا لله ، يقضى بالحق وهو خير الفاصلين . فقال رجل منهم لآخر : أمّا هذا فقد طعن طعنة نافذة . وخرج عروة بن أذينة ، أخو مرداس بن أذينة التيمي ، فقال : اتَّحَكِّمُون الرجال في أمر الله لا حُكْم إلّا لله ! فأين قتلنا يا أشعث ! ثم شدّ بسيفه ليضرب به الأشعث ، فأخطأه ، وضرب عَجَز دابته ضربة خفيفة ؛ فصاح به الناس : أن يملك^(٤) يدك ، فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه ، فمشى الأحنف إليه ومَعْقِل بن قيس ومُسْعَر بن فدّ كَيّ ، ورجال من بني تميم ، فتنصّلوا واعتذروا ، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى عليّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي

(١) كتاب صفين . « سميم » بالتصغير .

(٢) كتاب صفين : « عن شقيق به سلمة » .

(٣) المجفف : لا بس الجفاف ، وأصله ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة .

(٤) صفين : « أن أمسك » .

عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام ، وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : رضينا ، حتى مررتُ بريايات بنى راسب ، ونَبَذُ^(١) من الناس سوام ، فقالوا : لا نرضى ، لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ فَمِلَ^(٢) بأهل العراق وأهل الشام عليهم حتى تقتلهم . فقال على عليه السلام : هل هي غيرُ رايةٍ أو رايَتين ونَبَذُ من الناس ؟ قال : لا ، قال : فدعهم .

قال نصر : فَظَنَّ على عليه السلام أنهم قليلون لا يُعْبَأُ بهم ، فما راعهُ إلا نداء الناس من كلِّ جهةٍ ومن كلِّ ناحية : لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ! الحُكْمَ لِلَّهِ يَا عَلَى ! لا نَرْضَى بِأَنْ يُحْكَمَ الرَّجَالُ فِي دِينِ اللَّهِ . إن الله قد أمضى حُكْمَهُ فِي مَعَاوِيَةِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يَدْخُلُوا تَحْتَ حُكْمِنَا عَلَيْهِمْ^(٣) ، وقد كُنَّا زَلَّلْنَا وَأَخْطَأْنَا حِينَ رَضِينَا بِالْحُكْمَيْنِ ، وقد بَانَ لَنَا زَلَّلْنَا وَخَطَّوْنَا فَرَجَعْنَا إِلَى اللَّهِ وَتُبْنَا ، فارجع أنت يا على كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبتنا ، وإلا بَرَرْنَا مِنْكَ . فقال على عليه السلام : وَيَحْكُمُ ! أبعَدَ الرِّضَا والميثاق والعهد نرجع ! أليس الله تعالى قد قال : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾^(٤) ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾^(٥) ! فإبَى عَلَى أَنْ يَرْجِعَ ، وأبت الخوارجُ إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من على عليه السلام وبرئ على عليه السلام منهم^(٦) .

قال نصر : وقام إلى على عليه السلام محمد بن جريش^(٧) فقال : يا أمير المؤمنين ، أمّا إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ! فوالله إني لأخاف أن يُورثَ ذلًّا ، فقال على عليه

(١) لبذ من الناس ، أى عدد قليل منهم .

(٢) صفين : « فلنجمل » .

(٣) صفين : « أَوْ يَدْخُلُوا فِي حُكْمِنَا عَلَيْهِمْ » .

(٤) سورة المائدة ١ .

(٥) سورة النحل ٩١ .

(٦) وقعة صفين ٥٨٩ - ٥٩٠ .

(٧) كتاب صفين : « محرز بن جريش » ؛ وقال : « وكان محرز يدعى خضخضا ، وذلك أنه أخذ عذرة بصفين ؛ وأخذ معه إداوة من ماء ؛ فإذا وجد رجلا من أصحاب على جريحا سقاها من اللبن ، وإذا وجد رجلا من أصحاب معاوية خضخضه بالعذرة حتى يقتله » .

السلام : أبعد أن كتبناه ننقضه ! إن هذا لا يحل^(١) .

قال نصر : وحدثني عمر بن نخير بن وعله ، عن أبي الوداك ، قال : لما تداعى الناس إلى المصاحف ، وكُتِبَتْ صحيفةُ الصلح والتحكيم ، قال عليّ عليه السلام : إنما فعلتُ ما فعلتُ لِمَا بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب^(٢) ؛ فجاءت إليه همدان كأنها ركن حصير^(٣) فيهم سعيد بن قيس وابنه عبد الرحمن ؛ غلام له ذؤابة فقال سعيد : هأنذا وقومي ، لا نرد أمرك^(٤) ! فقل ما شئت نعمله ؛ فقال : أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة^(٥) لأزلتهم عن عسكرهم ، أو تنفرد سالفتي^(٦) [قبل ذلك]^(٧) ، ولكن انصرفوا راشدين ، فلمعري ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس^(٨) .

قال نصر : وروى الشعبي أن علياً عليه السلام ، قال يوم صفين حين أقرّ الناس بالصلح : إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليُنْذَبُوا إلى الحق ، ولا ليُجَبَّيُوا^(٩) إلى كلمة سواء حتى يُزَمَّوا بالناس^(١٠) . تتبعها العساكر ؛ وحتى يُرْجَمُوا بالسكتائب تَقْفُوها الجلائب^(١١) ،

(١) كتاب صفين ٥٩٦ .

(٢) صفين : « لما بدا فيكم الخور والفشل — هما الضعف » .

(٣) وفي صفين : « نجح سعيد بن قيس قومه ، ثم جاء في رجراة من همدان كأنها ركن حصير يعني جبلا باليمن » .

(٤) صفين . « لا نردك ولا نرد عليك » .

(٥) صفين : « أما لو كان هذا قبل رفع المصاحف » .

(٦) السالفة : صفحة العنق ؛ وفي حديث الحديبية : « لأفأتلهم على أمرى حتى تنفرد سالفتي » ، قال في اللسان : كنى بانفرادها عن الموت ؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت .

(٧) من كتاب صفين .

(٨) كتاب صفين ٥٩٦ ، ٥٩٧ .

(٩) صفين : « ليُفْثُوا » .

(١٠) الناس : جمع منسر ، بكسر الميم ؛ وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

(١١) السكتية : القطعة العظيمة من الجيش .

وحتى يجرّ ببلادهم الخميس^(١)؛ وحتى يدعوا الخيول في نواحي أرضهم ،
وبأبناء مسأريهم ومسارحهم ؛ وحتى تشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ ؛ وحتى يلقاهم قومٌ
صُدُقُ صُبْرٍ ، لا يزيدُهم هلاكُ مَنْ هَلَكَ مِنْ قتالهم وموتاهم في سبيل الله إلا جدّاً
في طاعة الله ، وحرصاً على لقاء الله ؛ ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه ، نقفل آباءنا
وأبناءنا وإخواننا وأخوانا وأعمامنا ، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسلية ، ومُضِيّاً على أمّص
الأم ، وجدّاً على جهاد العدو ، والاستقلال بمبارزة الأقران ، ولقد كان الرَّجُلُ مِنّا والآخِرُ
من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان أنفسهما أيّهما يستقي صاحبه كأس المنون ،
فمرة لنا من عدوّنا ، ومرة لعدوّنا مِنّا ، فلما رأنا الله صُدُقاً صُبْراً أنزل بعدوّنا السكبت ،
 وأنزل علينا النَّصر ؛ ولعمري لو كنّا نأتى مثل الذي أتيتم مقام الدّين ولا عزّ الإسلام^(٢) ،
[وأيّهم الله لتحلّيتها دماً ، فاحفظوا ما أقول لَكُمْ]^(٣) .

وروى نصر عن عمرو بن شمر ، عن فضيل بن خديج ، قال : قيل لعليّ عليه السلام
لمّا كتبت الصحيفة : إنّ الأشر لم يرضَ بما في الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم ؛ فقال
عليّ عليه السلام : بلى إنّ الأشر ليَرْضَى إذا رضيتُ ، وقدرضيتُ ورضيتُم ، ولا يصلحُ
الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار ؛ إلا أنْ يُعَصَى الله أو يتعدّى ما في كتابه .
وأما الذي ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه ، فليس من أوائلك ولا أعرفه^(٤) على ذلك ،
وليت فيكم مثله اثنين ، بل ليت فيكم مثله واحدا ، يرى في عدوّي مثل رأيه ، إذا تَخَفْتُ
مؤنّكم عليّ ، ورجوت أن يستقيم لي بعض أوْدِكُمْ^(٥) .

(١) الخميس : الجيش الجرار ؛ سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق .

(٢) كتاب صفين ٥٩٧ ، ٥٩٨ .

(٣) تكملة من كتاب صفين .

(٤) كتاب صفين : « وليس أتخوفه » .

(٥) كتاب صفين ٥٩٨ .

قال نصر : وروى أبو عبد الله زيد الأودي أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أنس ، قاتل مع علي عليه السلام يوم صفين ، فأسره معاوية في أسرى كثيرة ، فقال له عمرو بن العاص : اقتلهم ، فقال له عمرو بن أنس : لا تقتلني يا معاوية ، فإنك خالي ، فقامت إليه بنو أود^(١) فاستوهبوه ، فقال : دعوه ، فلعمري إن كان صادقاً فيما ادّعاه من خولتي إتياء ليستغنيني عن شفاعتكم ؛ وإلا فشفاعتكم من ورائه ؛ ثم استدناه ، فقال : من أين أنا خالك ؟ فوالله ما بين بني عبد شمس وبين أود من مصاهرة ! قال : فإن أخبرتك فمرفت فهو أمان عندك ؟ قال : نعم ، قال : أليست أم حبيبة^(٢) أختك أم المؤمنين ؟ فأنا ابنها وأنت أخوها ، فأنت إذاً خالي . فقال معاوية : لله أبوه ! أما كان في هؤلاء الأسرى من يفيطن إلى هذا غيره ! ثم خلى سبيله^(٣) .

وروى إبراهيم بن الحسين بن علي الكسائي المعروف بابن ديزيل الهمداني ؛ في «كتاب صفين» ، قال : حدثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدثنا عمرو بن محمد ، قال : دعا معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص ، لبيعته حكماً ، فجاء وهو متحزّم ، عليه ثيابه وسيفه ، وحوله أخوه وناس من قريش ، فقال له معاوية : ياعمرو ؛ إن أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريد ، ونحن بك راضون ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قليل المديّة ، وله بعد حَظ من دين ؛ فإذا قال فدّعه يقل ، ثم قل : فأوجز ، واقطع المفصل ، ولا تلقه بكل رأيك ، واعلم أن حَب^(٤) الرأي زيادة في العقل ، فإن خوفك بأهل العراق نخوفه بأهل الشام ، وإن خوفك بعلي نخوفه بمعاوية ، وإن

(١) أود : بطن في قيس عيلان .

(٢) أم حبيبة : هي رمة بنت أبي سفيان .

(٣) كتاب صفين ٥٩٤ ، ٥٩٥ .

(٤) الحَب : ما خبي وغاب من الشيء ، وفي ج : « خبي » وهما سواء .

خَوَّفَكَ بِمَصْرِ نَخْوَفِهِ بِالْمِثْلِ ، وَإِنْ أَتَاكَ بِالتَّفْصِيلِ فَأُتِيَ بِالْجُلِّ . فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : يَا مُعَاوِيَةَ ، أَنْتَ وَعَلَى رَجُلَا قُرَيْشٍ ، وَلَمْ تَنْلُ فِي حَرْبِكَ مَارْجُوتَ ، وَلَمْ تَأْمَنْ مَا خَفْتَ ، ذَكَرْتَ أَنَّ لِعَبْدِ اللَّهِ دِينَكَ ، وَصَاحِبُ الدِّينِ مَنْصُورٌ ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَا تُفْنِيَنَّ [عَلَيْهِ] ^(١) عِلَّاهُ ، وَلَا تُسْتَخْرِجَنَّ خَبَاءَهُ ^(٢) ، وَلَكِنْ إِذَا جَاءَنِي بِالْإِيْمَانِ وَالْهِجْرَةِ وَمِنَاقِبِ عَلِيٍّ ، مَا عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ ! قَالَ : قُلْ مَا تَرَى ، فَقَالَ عَمْرُو : وَهَلْ تَدَّعُنِي وَمَا أَرَى ! وَخَرَجَ مُغْضَبًا كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُوصَى ثِقَةً بِنَفْسِهِ ؛ وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ حِينَ خَرَجَ : إِنَّمَا أَرَادَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَصْغُرَ أَمْرُ أَبِي مُوسَى ، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنِّي خَادِعُهُ غَدًا ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّ عَمْرًا لَمْ يَخْدَعْ أَرِييَا ، فَقَدْ كَدَّتُهُ بِالْخِلَافِ عَلَيْهِ .

وَقَالَ فِي ذَلِكَ :

بُشِجْنِي مُعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ	كَأْتِي لِلْحَوَادِثِ مُسْتَكِينُ
وَلَمَّا نِيَّ عَنِ مُعَاوِيَةَ غَنِيَّ	بِحَمْدِ اللَّهِ وَاللَّهِ الْمَعِينُ
وَهُوَ أَمْرَ عَبْدِ اللَّهِ عَمْدًا	وَقَالَ لَهُ عَلَى مَا كَانَ دِينُ
فَقُلْتُ لَهُ وَلَمْ أَرْدُدْ عَلَيْهِ	مِقَالَتَهُ وَلِلشَّائِكِيِّ أَرِينُ
تَرَى أَهْلَ الْعِرَاقِ يَذُبُّ عَنْهُمْ	وَعَنْ جَبْرِائِيلَ رَجُلٍ مَهِينُ
فَلَمَّا جَهِلُوا لَمْ يَجْهَلْ عَلِيٌّ	وَعَثَّ الْقَوْلَ بِحِمْلِهِ السَّمِينُ
وَلَكِنْ خُطِبَهُ فِيهِمْ عَظِيمُ	وَفَضْلُ الْمَرْءِ فِيهِمْ مُسْتَدِينُ
فَإِنْ أَظْفَرَ فَلَمْ أَظْفَرَ بِوَعْدِي	وَإِنْ يَظْفَرَ فَقَدْ قُطِعَ الْوَتِينُ

فَلَمَّا بَلَغَ مُعَاوِيَةُ شَعْرَهُ ، غَضِبَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : لَوْلَا مَسِيرُهُ لَكَانَ لِي فِيهِ رَأْيٌ !

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أُمِّ الْحَكَمِ : أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ أَمْثَالَهُ فِي قُرَيْشٍ لَكَثِيرٌ ؛ وَلَكِنَّكَ أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ ، فَأَلْزَمَهَا الْفَنَاءَ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : فَأَجِبْهُ عَنْ شَعْرِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَعْزِيهِ بِفِرَارِهِ مِنْ عَلِيٍّ يَوْمَ صِفِّينَ :

أَلَا يَاعْمُرُو عَمْرُو قَبِيلِ سَهْمٍ أَمِنْ طَبِّ أَصَابِكَ ذَا الْجُنُونِ !
 دَعِ الْبَغْيَ الَّذِي أَصْبَحْتَ فِيهِ فَإِنَّ الْبَغْيَ صَاحِبُهُ كَعِينُ
 أَلَمْ تَهْرُبْ بِنَفْسِكَ مِنْ عَلِيٍّ بِصَفِينٍ وَأَنْتَ بِهَا ضَعِيفُ
 حِذَارًا أَنْ تَلَاقِيكَ الْمَنَائِيا وَكَلَّ فَتَى سَيْدِرِكَ الْمُنُونُ
 وَلَسْنَا عَائِبِينَ عَلَيْكَ إِلَّا لَقَوْلِكَ إِنِّي لَا أَسْتَكِينُ

قال نصر : ثم إن الناس أقبلوا على قتالهم فدفنوه ، قال : وقد كان عمر بن الخطاب دعا في خلافته حابس بن سعد الطائي ، فقال له : إني أريد أن أوليك قضاء شخص ، فكيف أنت صانع ؟ قال : أجتهد رأيي وأستشير جلسائي ، قال : فانطلق إليها . فلم يش^(١) إلا يسيرا حتى رجع ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت رؤيا أحبيت أن أفصها عليك ، قال : هاتها ، قال : رأيت كأن الشمس أقبلت من المشرق ، ومعها جمع عظيم ، وكأن القمر قد أقبل من المغرب ومعها جمع عظيم ، فقال له عمر : مع أيهما كنت ؟ قال : كنت مع القمر ، قال : كنت مع الآية المحوثة ، اذهب فلا والله لا تلي لي عملا ، وردّه . فشهد مع معاوية صفين ، وكانت راية طيئ معه ، فقتل يومئذ ، فرّ به عدى بن حاتم ، ومعها ابنه زيد ، فرآه قتيلا ، فقال له : يا أبت^(٢) هذا والله خالي ، قال : نعم ، لعن الله خالك اقبس والله المنصرع مصرعه ! فوقف زيد وقال : من قتل هذا الرجل ؟ مرارا ، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل ، طوأل ينجذب ، فقال : أنا قتلته ، فقال له : كيف صنعت به ؟ فجعل يخبره ، فطعنه زيد بالرمح فقتله ، وذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها ؛ فحمل عليه عدى أبوه يسبّه ويشتم^(٣) أمّه ، ويقول : يا بن المائقة ، لست على دين محمد إن لم أدفعك إليهم ، فضرب

(٢) صفين : « يا أبت » .

(١) صفين : « فلم يش » .

(٣) صفين : « وبسب أمّه » .

زيد فرسه فاحيق بماوية ، فأكرمه وحمله وأدنى مجلسه ، فرفع عدى^١ يديه فدعا عليه ، وقال : اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالملحدين^(١) ، اللهم فارمه بشهم من سهامك لا يشوي^(٢) - [أو قال لا يخطئ - فإن رمية^(٣) لا تنمى^(٤)] ، والله لا أكلمه من رأسي كلمة أبدا ، ولا يظلمني وإياه سقف أبدا . وقال زيد في قتل البكري^(٥) :

من مبلغ أبناء طي ^(١) بأنني	نارت بحالي ثم لم أتأثم
تركت أخا بكري ينوء بصدريه	بصفين ^(٢) مخضوب الجبين من الدم ^(٣)
وذكرني ثأري غداة رأيت	فأوجرت ^(٤) ه ربحي فخرت على الفم
لقد غادرت أرماح بكر بن وائل	قتيلا عن الأهوال ليس بمخجهم
قتيلا يظل الحى ^(٥) يئنون بعده	عليه بأيدي من نداء وأنعم
لقد فوجئت طي ^(٦) بحلم ونائل	وصاحب غارات ونهب مقسم
لقد كان خالي ليس خال كمثل	دفاعا لضمي واحتمالا لمفرم ^(٧)

قال نصر : وروى الشعبي ، عن زياد بن النضر أن عليا عليه السلام بعث أربعائة ، عليهم شريح بن هاني الحارثي ، ومعه عبدالله بن عباس يصلي بهم ، [وإلي أمورهم]^(٦) ، ومعه أبو موسى الأشعري ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعائة^(٧) ، ثم إنهم

(١) صفين : « الحلين »

(٢) أشوي : رمى فأصاب الشوى - وهي الأطراف - ولم يصب المقتل .

(٣) تكلمة من كتاب صفين . ويقال : أغنى الصيد ، إذا رماه فأصابه ، ثم ذهب عنه فوات

(٤) صفين . « مخضوب الجيوب »

(٥) صفين ٥٩٩ - ٦٠٠ ، والمفرم : الدية .

(٦) من كتاب صفين .

(٧) في كتاب صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فكان إذا كتب على شيء أتاه أهل الكوفة فقالوا : ما الذي كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ فيكتبهم ، فيقولون له : نكتبنا ما كتب به إليك ! إنما كتب في كذا وكذا . ثم يجيء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يدرى في أي شيء جاء ، ولا في أي شيء ذهب ، ولا يسمعون حول صاحبهم لفظا ، فأنبأ ابن عباس أهل الكوفة بذلك وقال : إذا جاء رسول قلم بأى شيء جاء ؟ فإن كتبكم قلم : لم نكتبنا ؟ جاء بكذا وكذا ، فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا ، فليس لكم سر ! » .

خُلُوَّابِينَ الْحَكَمِينَ، فَكَانَ رَأْيُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ [أَبُو مُوسَى (١)] فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ بْنِ
الْخَطَّابِ، وَكَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُ لِأَخِيَيْنِ سَنَةَ عَمْرٍ (٢).

قَالَ نَصْرٌ: وَفِي حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ؛ عَنِ الْجُرْجَانِيِّ قَالَ: لَمَّا أَرَادَ أَبُو مُوسَى الْمَسِيرَ
قَامَ إِلَيْهِ شُرَيْحُ بْنُ هَانِيٍّ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، إِنَّكَ قَدْ نَصَبْتَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ
لَا يُجْبَرُ صَدْعُهُ، وَلَا تُسْتَقَالُ فِتْنَتُهُ (٣)، وَمَهْمَا تَقُلَّ مِنْ شَيْءٍ عَلَيْكَ أَوْ لَكَ، يَثْبُتُ حَقُّهُ
وَتَرُ صِحَّتُهُ وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا، وَإِنَّهُ لَا بَقَاءَ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ إِنْ مَلَكَهُمْ مَعَاوِيَةُ، وَلَا بَأْسَ عَلَى
أَهْلِ الشَّامِ إِنْ مَلَكَهُمْ عَلِيٌّ، وَقَدْ كَانَتْ مِنْكَ تَنْبِيْطَةُ أَيَّامِ الْكُوفَةِ وَالْجَلِّ، فَإِنْ تَشْفَعُهَا
يَمْلِكُهَا يَكُنُ الظَّنُّ بِكَ يَقِينًا، وَالرَّجَاءُ مِنْكَ يَأْسًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ شُرَيْحٌ فِي ذَلِكَ:

أَبَا مُوسَى رُمِيتَ بِشَرٍّ خَضَمِهِ	فَلَا تُضِيعِ الْعِرَاقَ فَدَتِكَ نَفْسِي
وَأَعْطِ الْحَقَّ شَأْمَهُمْ وَخُذْهُ	فَإِنَّ الْيَوْمَ فِي مَهْلٍ كَأَمْسِي
وإِنَّ غَدًا يَجِيءُ بِمَا عَلَيْهِ	كَذَاكَ الدَّهْرُ مِنْ سَعْدٍ وَنَحْسٍ (٤)
وَلَا يَخْدَعُكَ عَمْرٌو إِنْ عَمِرَا	عَدُوَّ اللَّهِ مَطْلَعُ كُلِّ شَمْسٍ
لَهُ خُذَعٌ يَحَارُّ الْعَقْلَ مِنْهَا	مُؤَمَّهَةٌ مُزْخَرَفَةٌ بِلَبْسٍ
فَلَا تَجْمَعُ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ	كَشَيْخٍ فِي الْخَوَادِثِ غَيْرِ نِكَسٍ
هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ فَرَدًّا	سَوَى عِرْسِ النَّبِيِّ، وَأَيِّ عِرْسٍ! (٥)

فَقَالَ أَبُو مُوسَى: مَا يَنْبَغِي لِقَوْمِ اتَّهَمُونِي أَنْ يَرْسُلُونِي لِأَدْفَعُ عَنْهُمْ بَاطِلًا، أَوْ أَجْرَ

إِلَيْهِمْ حَقًّا.

(١) من كتاب صفين.

(٢) كتاب صفين ٦١٤.

(٣) كتاب صفين: «وَلَا يُسْتَقَالُ فِتْنَتُهُ».

(٤) في صفين: «يَدُورُ الْأَمْرُ».

(٥) كتاب صفين: «سَوَى بَنَتِ النَّبِيِّ».

وروى المدائني^(١) في "كتاب صفين" ، قال : لما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى ، وأحضروه للتحكيم على كُرهِه من على عليه السلام ، أتاه عبدُ الله بن العباس ، وعنده وجوه الناس وأشرفهم ، فقال له : يا أبا موسى ، إنَّ الناس لم يرضوا بك ، ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه ، وما أ كثر أشباهك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك ؛ ولسكن أهل العراق أبوا إلا أن يكون الحكم يمانياً ، ورأوا أن^(٢) معظم أهل الشام يمان ، وإيمُ الله ، إني لأظن ذلك شرّاً لك ولنا ؛ فإنه قد ضُمَّ إليك داهية العرب ، وليس في معاوية خلة يستحق بها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه ، وإن بطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك . واعلم يا أبا موسى أن معاوية طليقُ الإسلام ، وأن أباه رأسُ الأحزاب ، وأنه يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيعة ، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق ؛ استعمله عمر وهو الوالي عليه ، بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ، ويؤجره ما يكره ؛ ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أ كثر من استعمل ممن لم يدع الخلافة . واعلم أن لعمر مع كل شيء يسرُّك خبيثاً يسوءك ؛ ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعة القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنهم بيعة هدى ، وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين .

فقال أبو موسى : رحمتك الله ! والله مالي إمامٌ غير على ، وإني لواقف عندما رأي ، وإن حق الله أحبُّ إليّ من رضا معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلا بالله .

وروى البلاذري^(٣) في كتاب "أنساب الأشراف" ، قال : قيل لعبد الله بن عباس :

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني ؛ صاحب التصانيف الكثيرة في السيرة وأخبار القبائل والخلفاء ، والفتوح والمغازي وغيرها ؛ توفي سنة ٢١٥ الفهرست لابن النديم ١٠٠-١٠٤ .
(٢) كذا في ب ، ج ، وفي « الآن » .

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ؛ صاحب كتاب البلدان ، وأنساب الأشراف ، توفي سنة ٢٧٩ . الفهرست ١١٣ ، ومعجم الأدباء ٩ : ٨٥ .

مامنع علياً أن يبعثك مع عمرو يومَ التحكيم ؟ فقال : منعه حاجزُ القدر ، ونحنة الابتلاء ، وقصر المدة ؛ أما والله لو كنت ، لقعدت على مدارج أنفاسه ، ناقضا ما أبرم ، ومبرما ما نقض ، أطير إذا أسف^(١) ، وأسف^(١) إذا طار ؛ ولكن قد سبق قدر ، وبقي أسف ، ومع اليوم غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين .

وذكر البلاذري أيضاً ، قال : قام عمرو بن العاص بالموسم ، فأطرى معاوية وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهدته بصيفين ويوم أبي موسى ، فقام إليه ابن عباس ، فقال : يا عمرو ، إنك بت دينك من معاوية ، فأعطيته مافي يدك ، ومناك مافي يد غيره ؛ فكان الذي أخذه منك فوق الذي أعطاك ، وكان الذي أخذت منه دون ما أعطيته ، وكل راض بما أخذ وأعطى ؛ فلما صارت مصر في يدك ، تدبّعك بالنقض عليك والتعقب لأمرك ، ثم بالعزل لك ؛ حتى لو أن نفسك في يدك لأرسلتها . وذكرت يومك مع أبي موسى ، فلا أراك فخرت إلا بالقدر ، ولا منيت إلا بالفجور والغش . وذكرت مشاهدك بصيفين ؛ فوالله ما ثقلت علينا وطأتك ، ولا نكأت فينا جرأتك ؛ ولقد كنت فيها طويل اللسان ، قصير البنان ، آخر الحرب إذا أقبلت ، وأولها إذا أدبرت . لك يدان : يد لا تقبضها عن شر ، ويد لا تبسطها إلى خير ، ووجه مؤنس ، ووجه موحش ؛ وأعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري حزنه على ما باع واشترى . أما إن لك بياناً ولكن فيك خلل ، وإن لك رأياً ولكن فيك فسل ؛ وإن أصغر عيب فيك لأعظم عيب في غيرك .

قال نصر : وكان النجاشي الشاعر صديقاً لأبي موسى ، فكتب إليه يحذره من عمرو بن العاص :

يؤمل أهل الشام عمراً وإنني لأمل عبد الله عند الحقائق

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض .

وإنَّ أبا موسى سيُسدِّركَ حتَّى نَحْنُ إِذَا مارى عَمْرًا بِأَحَدِي الْيَوَائِقِ (١)
 فَللهُ مَا يُرْمَى الْعِرَاقُ وَأَهْلُهُ بِهِ مِنْهُ إِنْ لَمْ يَرْمِهِ بِالصَّوَاعِقِ (٢)
 فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى : إِنْ لَأَرْجُو أَنْ يَنْجَلِيَ هَذَا الْأَمْرُ ، وَأَنَا فِيهِ عَلَى رِضَا
 اللَّهِ سَبِيحَانَهُ .

قال نصر : ثم (٣) إن شريح بن هانئ جَهَّزَ أبا موسى جهازًا حسنًا ، وعَظَّمَ أَمْرَهُ فِي النَّاسِ
 لِيُشْرَفَ فِي قَوْمِهِ ، فَقَالَ الْأَعْمُورُ الشَّيْثِيُّ فِي ذَلِكَ يَخَاطِبُ شَرِيحًا :

زَفَقْتَ ابْنَ قَيْسٍ زِفَافَ الْعُرُوسِ شَرِيحُ إِلَى دُومَةَ الْجَنْدَلِ
 وَفِي زَفَقِ الْأَشْعَرِيِّ الْبَلَاءِ وَمَا يُقْضَى مِنْ حَادِثٍ يَنْزِلِ
 وَمَا الْأَشْعَرِيُّ بِذِي إِزْبَةِ وَلَا صَاحِبِ الْخَطِّ الْفَيْصَلِ (٤)
 وَلَا آخِذًا حَظَّ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَلَوْ قِيلَ هَا خُذْهُ لَمْ يَفْعَلِ
 يَحَاوِلُ عَمْرًا وَعَمْرُو لَهُ خَدَائِعُ يَأْتِي بِهَا مِنْ عَلِيٍّ (٥)
 فَإِنْ يَحْكُمَا بِالْمُحَدَّى يُتَّبَعَا وَإِنْ يَحْكُمَا بِالْهُوَى الْأَمِيلِ
 يَكُونَا كَتَيْسَيْنِ فِي قَفَرٍ أَكَيْلِي نَقِيفٍ مِنَ الْخَنْظَلِ (٦)
 فقال شريح : وَاللَّهِ لَقَدْ تَعَجَّلْتُ رِجَالُ مَسَاءٍ تَنَا فِي أَبِي مُوسَى ، وَطَعَنُوا عَلَيْهِ بِأَسْوَأِ (٧)
 الطَّعْنِ ، وَظَنُّوا فِيهِ مَا اللَّهُ عَصَمَهُ (٨) مِنْهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) كتاب صفين ٦٨٥ : « الصَّوَاعِقِ » ، وبمده فيه :

وَحَقَّقَهُ حَتَّى يَدْرُ وَرِيدُهُ وَنَحْنُ عَلَى ذَاكُمُ كَأَحْنَقِ حَانِقِ
 عَلَى أَنْ عَمْرًا لَا يُشَقُّ غُبَارُهُ إِذَا مَا جَرَى بِالْجَهْدِ أَهْلُ السَّوَابِقِ

(٢) صفين : « بِالْيَوَائِقِ » . (٣) صفين ٦١٦ .

(٤) صفين : « صَاحِبِ الْخَطِّ » . (٥) من علي ، بياضًا كَنَّةً ، لُغَةً فِي « عَل » .

(٦) الْخَنْظَلُ الْمُنْقُوفُ : الَّذِي يَكْسِرُ لِيَسْتَخْرِجَ حَبَّهُ .

(٧) كتاب صفين : « بِسُوءِ الظَّنِّ »

(٨) صفين : « عَاصَمَهُ » .

قال : وسار مع عمرو بن العاص شُرْحَبِيلُ بْنُ السَّمْطِ فِي خَيْلٍ عَظِيمَةٍ ؛ حَتَّى إِذَا أَمِنَ عَلَيْهِ خَيْلُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَدَّعَاهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا عَمْرُو ؛ إِنَّكَ رَجُلٌ قَرِيشٌ ؛ وَإِنْ مَعَاوِيَةُ لَمْ يَبْعَثْكَ إِلَّا لَعَلَّهُ أَنْكَ لَا تَوَاتِي مِنْ عَجَزٍ وَلَا مَكِيدَةٍ ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَيْ وَطَأْتُ هَذَا الْأَمْرَ لَكَ وَلصاحبك ؛ فَسَكُنْ عِنْدَ ظَنِّي بِكَ . ثُمَّ انْصَرَفَ وَانْصَرَفَ شُرَيْحُ بْنُ هَانِيٍّ حِينَ أَمِنَ خَيْلُ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى أَبِي مُوسَى ، وَوَدَّعَهُ .

وَكَانَ آخِرُ مَنْ وَدَّعَ أَبَا مُوسَى الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، أَخَذَ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا أَبَا مُوسَى ، اعْرِفْ خَطْبَ هَذَا الْأَمْرِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، وَأَنَّكَ إِنْ أَضَعْتَ الْعِرَاقَ فَلَا عِرَاقَ ؛ اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّهَا تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَإِذَا لَقِيتَ غَدَاً عَمْرَأً فَلَا تَبْدَأْهُ بِالسَّلَامِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ سُنَّةً إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَا تَعْطِلْهُ يَدَكَ فَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ يَقْعِدَكَ عَلَى صَدْرِ الْفَرَّاشِ فَإِنَّهَا خُدْعَةٌ ، وَلَا تَلْقَهُ إِلَّا وَحْدَهُ . وَاحْذَرُ أَنْ يَكَلِّمَكَ فِي بَيْتٍ فِيهِ^(١) مَخْدَعٌ تُخْبَأُ لَكَ فِيهِ الرِّجَالُ وَالشُّهُودُ . ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يُثَوِّرَ^(٢) مَا فِي نَفْسِهِ لَعَلِّي ، فَقَالَ لَهُ : فَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ عَمْرُو عَلَى الرِّضَا بَعَلِّي ، فَلْيَخْتَرْ أَهْلُ الْعِرَاقِ مِنْ قَرِيشِ الشَّامِ مَنْ شَاءُوا ، أَوْ فَلْيَخْتَرْ أَهْلُ الشَّامِ مِنْ قَرِيشِ الْعِرَاقِ مَنْ شَاءُوا .

فَقَالَ أَبُو مُوسَى : قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَلَمْ يَنْكَرْ مَا قَالَهُ مِنْ زَوَالِ الْأَمْرِ عَنْ عَلِيٍّ . فَرَجَعَ الْأَحْنَفُ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُ : أَخْرَجَ أَبُو مُوسَى وَاللَّهُ زُبْدَةَ سِقَائِهِ فِي أَوَّلِ نَحْوِهِ ؛ لَا أَرَانَا إِلَّا بِمِثْلِ رَجُلٍ لَا يَنْكَرُ خَلْعَكَ . فَقَالَ عَلِيٌّ : اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ^(٣) .

قال نصر : وشاع وفشا أمرُ الأحنف وأبي موسى في الناس ، فبعث الصَّلَتَانُ العبدَيَّ وهو بالكوفة إلى دومة الجندل بهذه الأبيات :

(١) ا ، ج : « له » .

(٢) يثور : « يختبر » ، و ا ، ب : « يبلو » ، وى صفيين : « يبور » وكله بمعنى .

(٣) كتاب صفيين ٦١٦ ، ٦١٧ .

لَعَمْرُكَ لَا أَلْفِي مَدَى الدَّهْرِ خَالِعًا عَلِيًّا يَقُولُ الْأَشْمَرِيُّ وَلَا عَمْرٍو
فَإِنْ يَحْكُمَا بِالْحَقِّ نَقْبِلُهُ مِنْهُمَا وَإِلَّا أَثَرْنَاهَا كِرَاغِيَةَ الْبَكْرِ^(١)
وَلَسْنَا نَقُولُ الدَّهْرَ ذَاكَ إِلَيْهِمَا وَفِي ذَاكَ لَوْ قَلْنَاهُ قَاصِمَةً الظَّهْرِ
وَلَكِنْ نَقُولُ: الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ كُلُّهُ إِلَيْهِ ، وَفِي كَفَّيْنِهِ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ
وَمَا الْيَوْمُ إِلَّا مِثْلُ أَمْسٍ وَإِنَّا لَفِي وَشَلِّ الضَّخْضَاحِ أَوْ لَجَّةِ الْبَحْرِ^(٢)

قال : فلما سمع الناس قول الصَّلتَانِ شَحَذَهُمَ ذَلِكَ عَلَى أَبِي مُوسَى ، وَاسْتَبْطَأَهُ الْقَوْمُ وَظَنُّوْا بِهِ الظَّنَّ ، وَمَكَثَ الرَّجُلَانِ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ لَا يَقُولَانِ شَيْئًا . وَكَانَ سَعْدُ ابْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَدْ اعْتَزَلَ عَلِيًّا وَمَعَاوِيَةَ ، وَنَزَلَ عَلَى مَاءِ لَبْنَى سَلِيمٍ بِأَرْضِ الْبَادِيَةِ ، يَتَشَوَّفُ^(٣) الْأَخْبَارَ - وَكَانَ رَجُلًا لَهُ بَأْسٌ وَرَأْيٌ وَمَكَانٌ فِي قُرَيْشٍ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ هَوًى فِي عَلِيٍّ وَلَا فِي مَعَاوِيَةَ - فَأَقْبَلَ رَاكِبٌ يُوضِعُ^(٤) مِنْ بَعِيدٍ ، فَإِذَا هُوَ ابْنُهُ عَمْرٌ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهَ : مَهِيْمٌ^(٥) ؟ فَقَالَ : التَّقَى النَّاسَ بِصِفَتَيْنِ ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا مَا قَدْ بَلَغَكَ حَتَّى تَفَانَوْا . ثُمَّ حَكَمُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ وَعَمْرُ بْنُ الْعَاصِ ؛ وَقَدْ حَضَرَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ عِنْدَهُمَا ، وَأَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمِنْ أَهْلِ الشُّوْرَى ، وَمَنْ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ : « اتَّقُوا دَعْوَتَهُ » ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي شَيْءٍ مِمَّا تَسْكُرُهُ الْأُمَّةُ ، فَاحْضَرُ دُومَةَ الْجَنْدَلِ ، فَإِنَّكَ صَاحِبُهَا غَدًا . فَقَالَ : مَهْلًا يَا عَمْرُ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ يَقُولُ : « تَكُونُ بَعْدِي فِتْنَةٌ ، خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا التَّقَى الْخَلْفِيُّ » ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ أَشْهَدْ أَوَّلَهُ ، فَلَا أَشْهَدُ آخِرَهُ ،

(١) الرَاغِيَةُ : الرِّغَاءُ ، وَالْبَكْرُ : وَلَدُ النَّاَقَةِ ، وَفِي ثَمَارِ الْقُلُوبِ فِي الْمِضَافِ وَالْمُنْسُوبِ ص ٣٥٢ : « رَاغِيَةُ الْبَكْرِ ، مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ ، وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو . قَوْلُهُمْ : كَانَتْ عَلَيْهِمْ كِرَاغِيَةُ الْبَكْرِ ؛ أَيْ اسْتَوْصَلُوا اسْتِثْصَالًا ، يَعْنُونَ رِغَاءَ بَكْرِ ثَمُودَ حِينَ عَقَرَ النَّاَقَةُ قَدَارَ » .
(٢) الْوَشَلُ : الْمَقْدَارُ الْبَسِيرُ مِنَ الْمَاءِ .
(٣) يَتَشَوَّفُ الْأَخْبَارَ ، أَيْ يَتَطَلَّعُ لَهَا .
(٤) يُوَضِعُ فِي سَبِيلِهِ : يَسْرِعُ .
(٥) مَهِيْمٌ ، أَيْ مَا وَرَاءَكَ وَمَا حَالُكَ ؟ وَهِيَ كَلِمَةٌ اسْتِفْهَامٌ بِلُغَةِ الْيَمَنِ .

ولو كنتُ غامساً يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي بن أبي طالب ^(١) ؛ وقد رأيتُ أباك كيف وهب حقه من الشورى ، وكره الدخول في الأمر . فارتحل عمر ، وقد استبان له أمرُ أبيه . ^(٢)

قال نصر : وقد كان الأجنادُ ^(٣) أبطأت على معاوية ، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يُعينوه في حربته : إن الحرب قد وضعت أوزارها ، والتقى هذان الرجلان في دومة الجندل ، فاقدّموا عليّ .

فأتاه عبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهم بن حذيفة العدويّ ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزهريّ ، وعبد الله بن صفوان الجحفيّ . وأتاه المغيرة ابن شعبه - وكان مقيماً بالطائف لم يشهد الحرب - فقال له : يا مغيرة ، ماترى ؟ قال : يا معاوية ، لو سَمِعَ أن أنصرك لنصرتك ، ولكن على أن آتيك بأمر الرجلين . فرحل حتى أتى دومة الجندل ، فدخل على أبي موسى كثرأثر له ، فقال : يا أبا موسى ، ماتقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء ؟ قال : أولئك خير ^(٤) الناس ، خفت ظهورهم من دمائهم ، وتخصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى عمرأ ، فقال : يا أبا عبد الله ، ماتقول فيمن اعتزل هذا الأمر ، وكره الدماء ؟ قال : أولئك شرار الناس ؛ لم يعرفوا حقاً ، ولم يُنكروا باطلاً . فرجع المغيرة إلى معاوية ، فقال له : قد ذُقت الرجلين ، أما عبد الله

(١) في كتاب وقعة صفين بعد هذه الكلمة : « تد رأيت القوم جعلوني على حد السيف فاخترته على النار ؛ فأقم عند أبيك ليلتك هذه . فراجعته حتى طمع في الشيخ ، فلما جنة الليل رفع صوته لسمع ابنه ؛ فقال . . . » وذكر أبيانا مطلعها :

دَعَوْتُ أَبَاكَ الْيَوْمَ وَاللَّهِ لِلَّذِي دَعَانِي إِلَيْهِ الْقَوْمُ وَالْأَمْرُ مُقْبِلٌ

(٢) صفين : ٦١٨ - ٦٢٠ .

(٣) وقعة صفين : « الأخبار » .

(٤) وقعة صفين : « خيار » .

ابن قيس نخالع صاحبه ، وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر ، وهواه [في]^(١) عبد الله ابن عمر ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي تعرف ، وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه^(٢) .

قال نصر في حديث عمرو بن شير ، قال : أقبل أبو موسى على عمرو ، فقال : يا عمرو ، هل لك في أمر هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضا ؟ نوّلي هذا الأمر عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ، ولا هذه الفرقة . قال : وكان عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير قريبين يسمعان هذا الكلام ، فقال عمرو : فأين أنت يا أبا موسى عن معاوية ! فأبى عليه أبو موسى ، [قال : وشهدهم عبد الله ابن هشام ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدوي والمغيرة ابن شعبة]^(٣) ، فقال عمرو : ألسن تعلم أن عثمان قُتل مظلوماً ؟ قال : بلى ، قال : اشهدوا^(٤) ، ثم قال : فما يمنعك من معاوية وهو ولي عثمان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا ﴾^(٥) ؟ ثم إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت ، فإن خشيت أن يقول الناس : ولّى معاوية وليست له سابقة ؛ فإن لك حجة ؛ أن تقول : وجدته ولّى عثمان الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه ، الحسن السياسة ، الحسن التدبير ؛ وهو أخو أم حبيبة أم المؤمنين ، وزوج النبي صلى الله عليه ، وقد صحبه ، وهو أحد الصحابة . ثم عرض له بالسلطان ، فقال له : إن هو ولّى الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قطّ مثلها ؛ فقال أبو موسى : اتقي الله يا عمرو ! أما ما ذكرت من شرف معاوية ، فإن هذا

(١) من كتاب صفين .

(٢) وقعة صفين ٦٢٠ ، ٦٢١ .

(٣) ب : « اشهد » .

(٤) سورة الإسراء ٣٣ .

الأمر ليس على الشرف يُؤلاه أهله ؛ لو كان على الشرف كان أحق الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصبح ؛ إنما هو لأهل الدين والفضل ؛ مع أنى لو كنت أعطيه أفضل قریش شرفاً لأعطيته على بن أبي طالب . وأما قولك : إن معاوية وليّ عثمان فوله هذا الأمر ؛ فإنى لم أكن أوليه إياه لنسبته من عثمان ، وأدع المهاجرين الأولين ، وأما تعريضك لى بالإمرة والسلطان ؛ فوالله لو خرج لى من سلطانه ما وليته ، وما كنت أرثى فى الله ، ولكذك إن شئت أحيينا سنة عمر بن الخطاب^(١) .

قال نصر : وحدثنى عمر بن سعد عن أبي جناب أن أبا موسى قال غير مرة : والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب ، قال : فقال عمرو بن العاص : إن كنت إنما تريد أن تباع ابن عمر لديقه ، فما يفعلك من ابني عبد الله ، وأنت تعرف فضله وصلاحه ! فقال : إن ابنك لرجل صدق ، ولكذك قد غسسته فى هذه الفتنة^(٢) .

قال نصر : وحدثننا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، عن نافع ، قال : قال أبو موسى لعمرو : يا عمرو ، إن شئت ولينا هذا الأمر الطيب ابن الطيب ، عبد الله ابن عمر ، فقال له عمرو : يا أبا موسى ، إن هذا الأمر لا يصلح له إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم ، وإن عبد الله ليس هناك .

قال نصر : وقد كان فى أبي موسى غفلة^(٣) ، فقال ابن الزبير لابن عمر : اذهب إلى عمرو ابن العاص فارشه ، فقال ابن عمر : لا والله لأرشو عليها بشىء أبدا ما عشت ، ولكنه قال له : إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف ، وتطاعنت بالزماح ، فلا تردهم فى فتنة ؛ واتق الله^(٤) .

(١) وقعة صفين ٦٢٢ - ٦٢٣ . (٢) وقعة صفين ٦٢٢ .

(٣) وكذا فى صفين ، وفى الطبرى : « ابن عمر » . (٤) وقعة صفين ٦٢٣ .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن أزهر العبسي عن النضر بن صالح ، قال : كنت مع شريح بن هاني في غزوة سيجستان ، فحدثني أن علياً عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص ، وقال له : قلْ لعمرؤ إذا لقيته : إنَّ علياً يقول لك : إنَّ أفضلَ الخلق عند الله مَنْ كان العملُ بالحقِّ أحبَّ إليه وإنْ نقَصه ، وإنَّ أبعد الخلق من الله من كان العملُ بالباطل أحبَّ إليه وإنْ زاده ؛ والله يا عمرو إنَّك لتعلم أين موضعُ الحقِّ ، فلمَ تتجاهل ؟ أباَّنْ أوتيت طمعا يسيرا صرتَ لله ولأليائه عدوًّا ! فكأنَّ والله ما قد أوتيت قد زال عنك ، فلا تسكن للخائنين خصيما ، ولا للظالمين ظهيرا . أما إني أعلم أنَّ يومَك الذي أنت فيه نادم هو يومُ وفاتك ، وسوف تتمي أنك لم تُظهِر لي ^(١) عداوة ، ولم تأخذ على حكم الله رِشوة . قال شريح : فأبلغته ذلك يوم لقيته ، فتمعر وجهه ^(٢) وقال : متى ^(٣) كنتُ قابلا مشورة على أو منييا إلى رأيه ، أو معتدًّا بأمره ^(٤) ! فقلت : وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبلَ من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته ! لقد كان مَنْ هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه : فقال : إنَّ مثلي لا يكلمُ مثلك ، فقلت : بأيَّ أبويك ترغبُ عن كلامي ! بأبيك الوشيظ ^(٥) ! أم بأملك النابغة ! فقام من مكانه وقت (٥) .

قال نصر : وروى أبو جناب السكابي أن عمرا وأبا موسى لمَّا التقيا بدُومة الجندل ، أخذ عمرو يقدمُ أبا موسى في الكلام ، ويقول : إنَّك صحيبتَ رسول الله صلى الله عليه قبلي ، وأنت أكبر مني سِنًا ، فتكلم أنت ، ثم أتكلم أنا ، فجعل ذلك سنَّة وعادة بينهما

(١) صفين : « لمسلم » .

(٢) وقعة صفين : « فتمعر وجه عمرو » . وتمعر : تغير وجهه غيظا .

(٣ - ٣) وقعة صفين : « متى كنت أقبل مشورة على أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ! » .

(٤) الوشيظ : الخسيس والتابع .

(٥) وقعة صفين ٦٢٤

وإنما كان مكرًا وخديعة واغترارًا له أن يقدمه ، فيبدأ بخلع على ثم يرى رأيه .

وقال ابن ديزيل في "كتاب صفين" : أعطاه عمرو صدر المجلس ، وكان لا يتكلم قبله ، وأعطاه التقدم في الصلاة وفي الطعام ، لا يأكل حتى يأكل ، وإذا خاطبه فإتّما يخاطبه بأجلّ الأسماء ، ويقول له : يا صاحب رسول الله ؛ حتى اطمأنّ إليه ، وظنّ أنه لا يشّيه .

قال نصر : فلما انمخضت الزبدة بينهما ، قال له عمرو : أخبرني ما رأيك يا أبا موسى ؟ قال : أرى أن أنخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون من شاءوا ، فقال عمرو : الرأي والله ما رأيت . فأقبل إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلّم أبو موسى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يُصالح الله به شأن هذه الأمة ؛ فقال عمرو : صدق ، ثم قال له : تقدّم يا أبا موسى ؛ فتكلّم ، فقام ليتكلّم ، فدعاه ابن عباس ، فقال له : ويحك ! والله إني لأظنه خدّعتك ؛ إن كدتُما قد اتفقنا على أمرٍ فقدّمه قبلك ليتكلّم به ثم تكلم أنت بعده ؛ فإنه رجل غدار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه ؛ فإذا قت به في الناس خالفك - وكان أبو موسى رجلاً مُعَفِّلاً - فقال : إيهًا عنك إنا قد اتفقنا !

فتقدم أبو موسى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر شيئًا هو أصلحُ لأمرها ولا ألمٌ لشعبها من ألا تتباينَ أمورُها ، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع على ومعاوية ، وأن يُستقبلَ هذا الأمرُ ، فيكونَ شورى بين المسلمين ، يولّون أمورهم من أحبّوا ، ولمن قد خلعتُ عليا ومعاوية ؛ فاستقبلوا

أمورك ، وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . ثم تنحى .
فقام عمرو بن العاص في مقامه : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هذا قد قال
ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة ،
فإنه وليّ عثمان ، والطالب بدميه ، وأحق الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : مالك لا وفقتك الله قد غدرت وفجرت ! إنما مثلك ^(١) كمثل
الكلب إن تحمّل عليه يلث أو تركه يلث ^(٢) . فقال له عمرو : إنما مثلك
كمثل الحمار يحمّل أسفاراً ^(٣) .

وحمل شريح بن هانئ على عمرو فقتله بالسوط ، وحمل ابن عمرو على شريح فقتله
بالسوط ، وقام الناس فحجزوا بينهما ، فكان شريح يقول بعد ذلك : ما ندمت على
شيء ندامتي إلا أن أكون ضربت عمرا بالسيف بدل السوط ، أتى الدهر بما أتى به !

والتمس أصحاب على عليه السلام أبا موسى فركب ناقته ، ولحق بمسكة . وكان ابن
عباس يقول : قبح الله أبا موسى ! لقد حذرتة وهديته إلى الرأي فما عقل . وكان
أبو موسى يقول : لقد حذرتني ابن عباس غدره الفاسق ، ولكنني اطمأنت إليه ،
وظننت أنه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة ^(٤) .

قال نصر : ^(٥) ورجع عمرو إلى منزله من دومة الجندل ، فكتب إلى معاوية :
أَتَتَكَ الْخِلَافَةُ مَرْفُوعَةً هَبْنِيَّاءَ مَرِيئًا تُقَرِّ الْعِيُونَا

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٢) سورة الجمعة •

(٣) كتاب صفين ٦٢٧ - ٦٢٩ مع تصرف .

(٤ - ٤) العبارة كما وردت في كتاب صفين ٦٣٠ : « ولما فعل عمرو ما فعل ، واختلط الناس ،
رجع إلى منزله ، فجهز راكباً إلى معاوية يحبره بالأمر من أوله إلى آخره ، وكتب في كتاب على حده » .

تُرَفُّ إِلَيْكَ زِفَافَ الْعُرُوسِ^(١) بِأَهْوَنَ مِنْ طَعْنِكَ الدَّارِعِينَ
وَمَا الْأَشْعَرِيُّ بِصَلْدِ الزَّنَادِ وَلَا خَامِلِ الذِّكْرِ فِي الْأَشْعَرِيْنَا
وَلَكِنْ أُتِيحَتْ لَهُ حَيَّةٌ يَظَلُّ الشُّجَاعُ لَهَا مُسْتَكِينَا
فَقَالُوا وَقَلْتُ وَكُنْتُ أَمْرًا أَجْهَجُهُ بِأَخْفَصِهِمْ حَتَّى يَلِينَا^(٢)
فَخُذْهَا ابْنُ هِنْدٍ عَلَى بُعْدِهَا^(٣) فَقَدْ دَافَعَ اللَّهُ مَا تَحْدُرُونَا
وَقَدْ صَرَفَ اللَّهُ عَنْ شَامِكُمْ عَدُوًّا مَبِينَا وَحَرْبًا زَبُونَا^(٤)

قال نصر : فقام سعد بن قيس الهمداني ، وقال : والله لو اجتمعنا على الهدى ما زدتمانا على ما نحن الآن عليه ، وما ضللكما بلازم لنا ، وما رجعتا إلّا بما بدأتما به ، ولما اليوم لعلّ ما كفا عليه أمس .

وقام كردوس بن هاني مغضباً ، فقال^(٥) :

أَلَا لَيْتَ مَنْ يَرْضَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ بَعْمِرُو وَعَبْدُ اللَّهِ فِي ثَلَاثَةِ الْبَحْرِ
رَضِينَا بِحُكْمِ اللَّهِ لِأَحْكَمِ غَيْرُهُ وَبِاللَّهِ رَبًّا وَالنَّبِيَّ وَبِالذِّكْرِ
وَبِالْأَضْلَعِ الْمَادِي عَلَى إِمَامِنَا رَضِينَا بِذَلِكَ الشَّيْخِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ
رَضِينَا بِهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَإِنَّهُ إِمَامٌ هُدًى فِي الْحُكْمِ وَالنَّهْيِ وَالْأَمْرِ
فَمَنْ قَالَ لَا قُلْنَا بَلَى إِنْ أَمَرَهُ لِأَفْضَلُ مَا نُعْطَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ
وَمَا لَابْنِ هِنْدٍ بَيْعَةٌ فِي رِقَابِنَا وَمَا يَبْنِيْنَا غَيْرُ الْمُتَّقَةِ السُّمْرِ

(١) كتاب صفين « كزف العروس » .

(٢) أجهجه : قال الجوهري : « جهجهت بالسبع ، صحت به ليسكف » .

(٣) كتاب صفين : « على بأسها »

(٤) كتاب صفين : « عدوا شنيا » . وحرب زبون : تزين الناس ، أي تصدمهم وتدفعهم .

(٥) كتاب صفين ٦٣٠ والمبارة هناك : « وتكلم الناس غير الأشعث بن قيس ، وتكلم كردوس بن هاني » ، فقال : أما والله لئن لأظنك أول راض بهذا الأمر بأخا ربعة ، فغضب كردوس فقال « .

(١٧ - نهج - ٢)

وَضَرْبُ يُزْبِلُ الْهَامَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الرِّضَا آخِرَ الدَّهْرِ !
أَبَتْ لِي أَشْيَاخُ الْأَرَاقِمِ سُبَّةً أَسْبُ بِهَا حَتَّى أُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ (١)
وتسكلم يزيد بن أسد القسري - وهو من قواد معاوية - فقال : يا أهل العراق ،
اتقوا الله ؛ فإن أهونَ مارتدنا وإياكم إليه الحرب ما كنا عليه بالأمس ؛ وهو الفناء ؛
وقد شخّصتِ الأبصارُ إلى الصّلاح ، وأشرفتِ الأنفسُ على الفناء ، وأصبح كلُّ امرئٍ
يسكى على قتيل ؛ مالكم رضيتُم بأوّلِ أمرٍ صاحبكم وكرهتم آخره ! إنّه ليس لحكم
وحدكم الرضا .

قال : وقال بعض الأشعريين لأبي موسى (٢) :

أَبَا مُوسَى خَدِغْتَ وَكُنْتَ شَيْخًا قَرِيبَ الْقَعْرِ مَذْهُوشَ الْجَنَانِ
رَمَى عَمْرُو صَفَا تَكَ يَابْنَ قَيْسَ بِأَمْرِ لَا تَنْوُ بِهِ الْيَدَانِ
وَقَدْ كُنَّا نُبْجِمُ عَنْ ظُنُونِ فَصَرَّحَتِ الظُّنُونُ عَنِ الْعِيَانِ
فَعَضَّ الْكَفَّ مِنْ نَدَمٍ وَمَاذَا يَرِدُ عَلَيْكَ عَصُكَ بِالْبَنَانِ !
قال : وَشِمَتِ أَهْلُ الشَّامِ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ . وقال كَعْبُ بْنُ جَعْفَلٍ شَاعِرُ مُعَاوِيَةَ :
كَأَنَّ أَبَا مُوسَى عَشِيَّةً أَذْرَحَ يَطُوفُ بِلَقْمَانِ الْحَكِيمِ يُوَارِيهِ (٣)
وَلَمَّا تَلَا قَوْا فِي تَرَاثِ مُحَمَّدٍ نَمَتَ بَابُنْ هِنْدٍ فِي قُرَيْشٍ مَنَاسِيهِ (٤)
سَعَى بَابُنْ عَفَّانٍ لِيُـدْرِكَ ثَأْرَهُ وَأَوَّلَى عِبَادِ اللَّهِ بِالثَّأْرِ طَالِبُهُ

(١) الأرقام : أحياء في تغلب ، والسبّة : العار .

(٢) في كتاب صفين : « فتشأم عمرو وأبو موسى من ليلته ، فإذا ابن عم أبي موسى يقول » .

(٣) كتاب صفين ٦٣٠ ومعجم البلدان ١ - ١٦٢ ؛ وأذرح : بلد في أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز ؛ وكان فيها أمر الحكيمين في أحد القولين ، وثانيهما في دومة الجندل . ويعني بلقمان الحكيم عمرو بن العاص .

(٤) كتاب صفين وياقوت : « مضاربه » .

وَقَدْ غَشِيَتْكَ فِي الزَّيْرِ غَضَاصَةٌ وَطَلَحَتْهُ إِذْ قَامَتْ عَلَيْهِ نَوَادِبُهُ
فَرَدَّ ابْنُ هِنْدٍ مُلْكَهُ فِي نِصَابِهِ وَمَنْ غَابَ الْأَقْدَارَ فَاللَّهُ غَالِبُهُ
وَمَا لَابَنِ هِنْدٍ مِنْ لُؤْيٍ بَنِ غَالِبٍ نَظِيرٌ وَإِنْ جَاشَتْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهُ
فَهَذَاكَ مُلْكُ الشَّامِ وَافٍ سَقَامُهُ وَهَذَاكَ مُلْكُ الْقَوْمِ قَدْ جُبَّ غَارِبُهُ
يُحَاوِلُ عَبْدُ اللَّهِ عَمْرًا وَإِنَّهُ لَيَضْرِبُ فِي بَحْرِ عَرِيضٍ مَذَاهِبُهُ
دَحَا دَحْوَةً فِي صَدْرِهِ فَهَوَتْ بِهِ إِلَى أَسْفَلِ الْجَبِّ الظُّنُونِ كَوَازِبُهُ^(١)

قال نصر : وكان على عليه السلام لما خدع عمرو أبا موسى بالسكوفة ، كان قد دَحَلَهَا
منتظراً ما يحكمكم به الحكماء ؛ فلما تمّ على أبي موسى ما تمّ من الحيلة ، غمّ ذلك عليّاً
وساءه ، ووَجَمَ له ، وخطب الناس ، فقال :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل... » الخطبة التي ذكرها
الرضي رحمه الله تعالى ؛ وهي التي نحن في شرحها ، وزاد في آخرها بعد الاستشهاد ببيت
دريد : « ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموها قد نبذا حكم الكتاب ، وأحياً
مألمات ، واتبع كل واحد منهما هواه ، وحكم بغير حجة ولا بيّنة ولا سنة ماضية ، واختلفا
فيما حكما ، فكلأهما لم يرشد الله . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا في
معسكركم يوم كذا » .

(١) الظنون : البئر لا يدري أفيها ماء أم لا ، وفي كتاب صفين :

* إلى أسفل المهوى ظنون كواذبه *

فرد عليه رجل من أصحاب علي فقال :

غَدَرْتُمْ وَكَانَ الْغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً فَمَا ضَرَرْنَا غَدْرُ اللَّئِيمِ وَصَاحِبِهِ
وَسَمِيَتْهُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ مُؤْمِنًا كَذَبْتُمْ فَشَرُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ كَاذِبُهُ

قال نصر : فكان على عليه السلام بعد الحَكُومة إذا صلى الغَدَاة والمغرب ، وفرغ من الصَّلَاة وسلم ، قال : اللهم العن معاوية ، وعمرأ ، وأبا موسى ، وحبيب بن مسلمة ، وعبد الرحمن بن خالد، والضحاك بن قيس، والوليد بن عُقبة ؛ فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا صلى لمن علياً ، وحسناً ، وحسيناً ، وابن عباس ، وقيس بن سعد بن عباد ، والأشتر . وزاد ابن ديزيل في أصحاب معاوية أبا الأعور الشَّلمى .

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا موسى كتب من مكة إلى علي عليه السلام : أما بعد ، فإني قد بلغني أنك تلعنني في الصَّلَاة ويؤمِّن خلفك الجاهلون ، وإني أقول كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

وروى ابن ديزيل ، عن وَكِيع ، عن فضل بن مرزوق ، عن عطية ، عن عبد الرحمن ابن حبيب ، عن علي عليه السلام ، أنه قال : « يؤتى بي وبمعاوية يوم القيامة ، فنجىء ونختصم عند ذى العرش ، فأبنا فلج فلج أصحابه (٢) » .

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القارى ، عن أبيه ، قال : سئل علي عليه السلام عن قتلى صفين ، فقال : إنما الحساب على وعلى معاوية .

وروى أيضاً عن الأعمش ، عن موسى بن طريف ، عن عباية (٣) ، قال : سمعت علياً عليه السلام ، وهو يقول : أنا قسيم النار ، هذا لي وهذا لك .

وروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان ، دَعُوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مَرَقَتْ منهم مارقة ؛ يقتلهم أولى الطائفتين بالحق » .

(٢) فلج ، أى غلب .

(١) سورة القصص ١٧

(٣) عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج الأنصارى .

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدثنا سعيد بن كثير، عن عُقَيْر، قال: حدثنا ابن لهيعة، عن ابن هُبَيْرَةَ، عن حَنْشِ الصَّنَعَانِي، قال: جئت إلى أبي سعيد الخُدْرِي، وقد نَعِمَ، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتوننا فتخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالسكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحبا بك يا حنش المصري، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: « يخرج ناس يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئا، فينظر في قذذه^(١) فلا يرى شيئا؛ سبق الفرت والدم، يصلى بقتالهم أولى الطائفتين بالله »، فقال حنش: فإن عليا صلي بقتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع عليا أن يكون أولى الطائفتين بالله!

وذكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد: حضرت الحَكُومَةَ، فلما كان يوم الفصل جاء عبد الله بن عباس، فقدم إلى جانب أبي موسى وقد نشر أذنيه؛ حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمت أن الأمر لا يتم لنا مادام هناك؛ وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في السكلام، فكلمت ابن عباس كلمة استطعمته جوابها فلم يجب، فكلمته أخرى فلم يجب، فكلمته ثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حوارك الآن، فجهته، وقلت: يا بني هاشم، لا تتركوا بأوكم^(٢) وكبركم أبدا! أما والله لولا مكان النبوة لكان لي ولك شأن. قال: خيمى وغضب، واضطرب فكره ورأيه، وأسمنى كلاما يسوء سماعة، فأعرضت عنه، وقت فقدمت إلى جانب عمرو بن العاص، فقلت: قد كفيتمك التقوال^(٣)، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحكم أنت أمرك. قال:

(١) القذذ جمع قذة، وهي: ريش السهم. (٢) البأو: التفاخر.

(٣) التقوال: الكثير القول.

فَذُهِلَ وَاللَّهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ الْكَلَامِ الدَّائِرِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، حَتَّى قَامَ أَبُو مُوسَى، فَخَلَعَ عَلَيْهِ.

وَرَوَى الزَّيْبِرُ بْنُ بَكَارٍ فِي "الْمَوْفَقِيَّاتِ"، وَرَوَاهُ جَمِيعُ النَّاسِ مِنْ عُنَى بَنْقَلِ الْأَثَارِ وَالسَّيَرِ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ [قَالَ]: أَرْبَعُ خِصَالٍ كُنْتُ فِي مَعَاوِيَةَ لَوْلَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ لَسَكُنْتُ مُوَبَّقَةً: انْتِزَاؤُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالسَّفَهَاءِ حَتَّى ابْتَزَّهَا أَمْرَهَا بِغَيْرِ مَشُورَةٍ مِنْهُمْ وَفِيهِمْ بَقَايَا الصَّحَابَةِ وَذَوُو الْفَضِيلَةِ، وَاسْتِخْلَافُهُ بَعْدَهُ ابْنَهُ يَزِيدٌ؛ سَكْبٌ أَجْزَلٌ؛ يَلْبَسُ الْحَرِيرَ وَيَضْرِبُ بِالطَّنَائِيرِ، وَادْعَاؤُهُ زِيَادًا؛ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحُجْر» ، وَقَتْلُهُ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ؛ فَيَاوِيْلُهُ مِنْ حُجْرٍ وَأَصْحَابِ حُجْرٍ!

وَرَوَى فِي "الْمَوْفَقِيَّاتِ"، أَيْضًا الْخَبَرَ الَّذِي رَوَاهُ الْمَدَائِنِيُّ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ آنَفًا مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ لِأَبِي مُوسَى، وَقَوْلُهُ: إِنْ النَّاسُ لَمْ يَرْضَوْكَ لِفَضْلٍ عِنْدَكَ لَمْ تَشَارَكَ فِيهِ... وَذَكَرَ فِي آخِرِهِ: فَقَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ قُرَيْشٍ:

وَاللَّهِ مَا كَلَّمَ الْأَقْوَامَ مِنْ بَشَرٍ بَعْدَ الْوَصِيِّ عَلَى كَابِنِ عَبَّاسٍ
أَوْصَى ابْنَ قَيْسٍ بِأَمْرِ فِيهِ عَصْمَتُهُ لَوْ كَانَ فِيهَا أَبُو مُوسَى مِنَ النَّاسِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ مَكْرَ صَاحِبِهِ أَرْجُو رَجَاءَ تَخَوُّفِ شَيْبٍ بَالْيَاسِ

وَذَكَرَ الزَّيْبِرُ أَيْضًا فِي "الْمَوْفَقِيَّاتِ"، أَنَّ يَزِيدَ بْنَ حُجْبَةَ التَّمِيمِيَّ، شَهِدَ الْجَمْلَ وَصِفَّيْنِ وَنَهَزَ رِوَانَ مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ وَلَّاهُ الرَّيَّ وَدَسَّتَبِي (١)، فَسَرَقَ مِنْ أَمْوَالِهِمَا، وَلَحِقَ بِمَعَاوِيَةَ، وَهَجَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابَهُ، وَمَدَحَ مَعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَرَفَعَ أَصْحَابُهُ أَيْدِيَهُمْ فَأَمَّنُوا، وَكَتَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّهِ كِتَابًا يَقْبَحُ إِلَيْهِ (١) دَسَّتَبِي، بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ وَفَتْحِ ثَالِثِهِ وَالْبَاءُ الْمَقْصُورَةُ: كُورَةٌ كَبِيرَةٌ كَانَتْ مَقْسُومَةً بَيْنَ الرِّى وَهَمْدَانَ. يَأْقُوت.

ما صنع ، وكان الكتاب شعرا ، فكتب يزيد بن حُجَّية إليه : لو كنت أقول شعرا لأجبتك ، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث ؛ لاترون معن شيئا مما تحبون ؛ أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ؛ حتى إذا دخلتم بلادهم ، وطعنتموهم بالرماح ، وأذقتموهم ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فسخرُوا منكم ، وردّوكم عنهم ؛ فوالله ووالله لادخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبدا . والثانية أن القوم بعثوا حَكَمًا ، وبعثتم حكما ؛ فأما حكمهم فأثبتهم ، وأما حكمكم فخلعكم ، ورجع صاحبهم يُدعى أمير المؤمنين ، ورجعتم متضاغنين . والثالثة أن قراءكم وقهّاءكم وفُرسانكم خالفوكم ، فعدوتم عليهم ، فقتلتموهم . ثم كتب في آخر الكتاب بيتين لعفان بن شُرَحْبِيل التيمي :

أحببتُ أهلَ الشامِ مِنْ بَيْنِ الْمَلَأِ وبكيتُ مِنْ أَسْفِى عَلَى عُثْمَانَ
أَرْضاً مُقَدَّسَةً وَقَوْمًا مِنْهُمْ أَهْلُ الْيَقِينِ وَتَابِعُوا الْفُرْقَانَ

وذكر أبو أحمد العسكري^(١) في كتاب "الأمالي" ، أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية عام الجماعة ، فلم يسلم عليه بإمرّ المؤمنين ، فقال له معاوية : لو شئت أن تقول في سلامك غير هذا لقلت ، فقال سعد : نحن المؤمنون ولم نوّمرك ، كأنك قد بهجت^(٢) بما أنت فيه يا معاوية ! والله ما يسرّنى ما أنت فيه وأنّى هَرَقْتَ المِحْجَمَةَ^(٣) دم . قال : ولكنى وابن عمك عليا يا أبا إسحاق قد هَرَقْنَا أكثر من محجمة ومحجمتين ، هلمّ فاجلس معى على السرير ، فجلس معه ، فذكر له معاوية اعتزاله الحرب ، يعاتبه ، فقال سعد : إنما كان مثلى ومثلى الناس كقوم أصابتهم ظُلمة ، فقال واحد منهم لبعيره إنخ ، فأناخ حتى أضاء له الطريق

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري أبو أحمد ؛ أحد أعلام اللغة والأدب ، أخذ عن ابن دريد وطبقته ؛ وصاحب كتاب التصحيف توفى سنة ٣٨٠ : (إنباه الرواة ١ : ٣١٠) .
(٢) بهج بالشيء : فرح به . (٣) المحجمة : فارورة الحجام .

فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق^(١)، ما في كتاب الله «إِنْ» وإنما فيه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَنبَغِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٢)؛ فوالله ما قاتلت الباغية ولا المبغية عليها. فأخبره.

وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في "كتاب صفين"، قال: فقال سمعة: أتأمرني أن أقاتل رجلاً قال له رسول الله صلى الله عليه: «أنت متي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»! فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك؟ قال: فلان وفلان وأمّ سلمة، فقال معاوية: لو كنت سمعتُ هذا لما قاتلته.

(١) أبو إسحاق كنية سمع بن أبي وقاص . (٢) سورة المجرات ٩

(٣٦)

ومن خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النهروان :

الأفضل :

فَأَنَا نَذِيرُ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرَخِي بِأُتْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْفَاطِطِ ،
عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ ، قَدْ طَوَّحْتُ بِكُمْ الدَّارُ ،
وَاحْتَبَلْتُكُمْ الْمَقْدَارُ .

وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ ،
حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخَفَاءِ الْهَائِمِ ؛ سَفْهَاءِ الْأَخْلَامِ ؛ وَلَمْ آتِ
- لَا أَبَا لَكُمْ - بُجْرًا ، وَلَا أَرَدْتُ بِكُمْ ضَرًّا .

الشرح :

الأهضام : جمع هَضَمَ ؛ وهو المطمئن من الوادى . والفاطط : ماسقل من الأرض .
واحتبلكم المقدار : أوقعكم فى الحباله .

والبُجْر : الداهية والأمر العظيم . ويروى : « هُجْرًا » ، وهو المستعجب من القول . ويروى
« عُرًّا » ، والعُرّ : قروح فى مشافر الإبل ، ويستعار للداهية .

[أخبار الخوارج]

قد تظافرت الأخبار حتى بلغت حدّ التواتر بما وعد الله تعالى قاتلي الخوارج من
الثواب ، على لسان رسوله صلى الله عليه وآله . وفى الصّحاح المتفق عليها أن

أقوال أهل البرية، صلاتهم أكثر من صلاتكم، وقراءتهم أكثر من قراءتكم، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم - أو قال: حناجرهم - يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية، فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة » .

وفي "كتاب صفين"، أيضا للدائني عن مسروق، أن عائشة قالت للمعارف أن عليا عليه السلام قتل ذا الثدية: لعن الله عمرو بن العاص! فإنه كتب إلي يخبرني أنه قتلته بالإسكندرية، ألا إنه ليس بمنعني مافي نفسي أن أقول ماسمعه من رسول الله صلى الله عليه، يقول: « يقتله خير أمتي من بعدى » .

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في "التاريخ"، أن عليا عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثير من الخوارج، وتخلف منهم بالثخيلة وغيرها خلق كثير لم يدخلوها، فدخل حرقوص بن زهير السعدي، وزرعة بن البرج الطائي - وهما من رؤس الخوارج - على علي عليه السلام، فقال له حرقوص: تب من خطيئتك، واخرج بنا إلى معاوية نجاهده، فقال له علي عليه السلام: إني كنت نهيتكم عن الحكومة فأيتتم، ثم الآن تجعلونها ذنبا! أما إنها ليست بمصيبة، ولكنها عجز من الرأي، وضعف في التدبير، وقد نهيتكم عنه، فقال زرعة: أما والله لئن لم تنب من تحكيمك الرجال لأقتلنك (١) أطلب بذلك وجه الله ورضوانه، فقال علي عليه السلام: بؤسا لك ما أشقاك! كأتى بك قتيلًا تسفي عليك الرياح! قال زرعة: وددت أنه كان ذلك (٢) .

قال: وخرج علي عليه السلام يخطب الناس فصاحوا به من جوانب المسجد:

(١) الطبري: « قاتلنك » .

(٣) تاريخ الطبري • ٧٢ .

لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، وصاح به رَجُلٌ [منهم واضع إصبعه في أذنيه ، فقال] ^(١) : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٢) ، فقال له على عليه السلام : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ اللَّهُ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ^(٣) .

وروى ابن ديزيل في كتاب "صفين" ، قال : كانت الخوارج في أول ما انصرفت عن رايات على عليه السلام تهدد الناس قتلا ، قال : فأنت طائفة منهم على النهر إلى جانب قرية ، فخرج منها رجل مذعورا أخذاً بشيابه ، فأدركوه فقالوا له : رعبناك ؟ قال : أجل ؛ فقالوا له : قد عرفناك ، أنت عبد الله بن خباب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه ، قال : نعم ، قالوا : فما سمعت من أبيك يحدث عن رسول الله صلى الله عليه ؟

قال ابن ديزيل : فحدثهم أن رسول الله صلى الله عليه قال : «إن فتنة جائية ، القاعد فيها خير من القائم . . . » الحديث .

وقال غيره : بل حدثهم : «إن طائفة تمرق من الذين كما يمرق السهم من الرمية ، يقرءون القرآن ، صلاتهم أكثر من صلاتكم . . . » الحديث . فضربوا رأسه ، فسال دمه في النهر ، ما امذقر ، (أى ما اختلط بالماء) ، كأنه شرابك ، ثم دعوا بجارية له حبلى فبقرها عما في بطنها .

وروى ابن ديزيل ، قال : عزّم على عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحرورية ^(٤) ، وكان في أصحابه منجّم فقال له : يا أمير المؤمنين ، لا تسر في هذه الساعة ،

(١) تسكّلة من تاريخ الطبرى .

(٢) سورة الزمر ٦٥

(٣) سورة الروم ٦٠ والخبر في الطبرى ٥ : ٧٣

(٤) الحرورية : نسبة إلى حروراء : قرية على ميلين من الكوفة ؛ كان اجتماع الخوارج فيها . فانسبوا إليها .

وسِرَّ على ثلاث ساعات مضين من النهار ؛ فَإِنَّكَ إِن سَرْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ أَصَابَكَ وَأَصْحَابَكَ أَذَى وَضُرٌّ شَدِيدٌ ، وَإِن سَرْتَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرْتُكَ بِهَا ظَفِرْتَ وَظَهَرْتَ ، وَأَصْبَتْ مَا طَلَبْتَ . فَقَالَ لَهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَتَدْرِي مَا فِي بَطْنِ فَرْسِي هَذِهِ ؛ أَذْكَرُ هُوَ أَمْ أَنْتَى ؟ قَالَ : إِن حَسَبْتُ عِلِمْتُ ، فَقَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ... ﴾ (١) الْآيَةُ ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

إِن مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ يَدْعَى عِلْمَ مَا ادَّعَيْتَ عِلْمَهُ ؛ أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي يَصِيبُ النِّفْعَ مَنْ سَارَ فِيهَا ، وَتَصْرِفُ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي يَحِيقُ السُّوءُ بِمَنْ سَارَ فِيهَا ؛ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهَذَا فَقَدْ اسْتَفْتَى عَنِ الاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ فِي صَرْفِ الْمُسْكِرِ عَنْهُ . وَيَنْبَغِي لِلْمُوقِنِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُوَلِّيكَ الْحَمْدَ دُونَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ، لِأَنَّكَ بِزَعْمِكَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي يُصِيبُ النِّفْعَ مَنْ سَارَ فِيهَا ، وَصَرَفْتَهُ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي يَحِيقُ السُّوءُ بِمَنْ سَارَ فِيهَا ؛ فَمَنْ آمَنَ بِكَ فِي هَذَا لَمْ يَأْمَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ كَمَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونَ اللَّهِ ضِدًّا وَنِدًّا . اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ ، وَلَا ضُرَّ إِلَّا ضُرُّكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ . ثُمَّ قَالَ : نُخَالِفُ وَنُسِيرُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي نَهَيْتُنَا عَنْهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِبَاكُمُ وَالتَّعَلُّمُ لِلنَّجْمِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، إِنَّمَا الْمُنْجِمُ كَالْكَاهِنِ ، وَالْكَاهِنُ كَالْكَافِرِ ، وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ . أَمَا وَاللَّهِ لَنْ بَلَغْنِي أَنَّكَ تَعْمَلُ بِالنَّجْمِ لِأَخْلَدَنَّكَ السَّجَنَ أَبَدًا مَا بَقِيتُ ، وَلَأَحْرِمَنَّكَ الْعِطَاءَ مَا كَانَ لِي مِنْ سُلْطَانٍ .

ثُمَّ سَارَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي نَهَا عَنْهَا الْمُنْجِمُ ، فَظَفِرَ بِأَهْلِ النَّهْرِ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : لَوْ سَرْنَا فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا الْمُنْجِمُ لَقَالَ النَّاسُ : سَارَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الْمُنْجِمُ فَظَفِرَ وَظَهَرَ ، أَمَا إِنَّهُ مَا كَانَ لِحَمْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْجِمٌ ، وَلَا لَنَا مِنْ بَعْدِهِ ؛ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِلَادَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ . أَيُّهَا النَّاسُ ، تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ وَتَّقُوا بِهِ ، فَإِنَّهُ يَكْفِي تَمَّ سِوَاهُ .

(١) سُورَةُ الْقَمَانِ ٣٤ .

قال : فروى مُسلم الضَّبِّي عن حَبَّة العُرَينِيّ ، قال : لما انتهينا إليهم رمّونا ، فقلنا لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين قد رمّونا ، فقال لنا : كَفُّوا ، ثم رمّونا ، فقال لنا عليه السلام : كَفُّوا ، ثم الثالثة ، فقال : الآن طابَ القتالُ ، احمِلوا عليهم .
وروى أيضا عن قَيْس بن سعد بن عبادة أن عليا عليه السلام لما انتهى إليهم ، قال لهم : أفيدوننا بدم عبد الله بن حَبّاب ، فقالوا : كُلُّنا قتله ، فقال : احمِلوا عليهم .

وذكر أبو هلال العسكري في كتاب "الأوائل" ، أن أول من قال : « لا حُكَم إلا لله » ، عُرْوَة بن حُدَيْر ، قالها بصيغتين ؛ وقيل : زيد بن عاصم الحارثي . قال : وكان أميرهم أول ما اعتزلوا ابنَ السَّكَّوَاء ، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبي - وكان أحد الخطباء - فقال لهم عند بيعتهم إياه : إياكم والرأي الفطير^(١) ، والسكلام القضيبي^(٢) ، دعوا لرأي يَغِب^(٣) ، فإن غُيِّبَ به يكشف للمرء عن قُضَتِهِ^(٤) ، وازدحام الجواب مَضِلَّة للصواب ، وليس الرأي بالارتجال ، ولا الحزم بالاعتصاب ، فلا تدعوتكم السلامة من خطأ مُوبِق ، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والنمّاس الربح من جهته . إنَّ الرأي ليس بنَهْـنْهَى^(٥) ، ولا هو ما أعطتك البديهة ، وإنَّ خَيْرَ الرأي خَيْرٌ من فطيره ؛ ورب شيء غابُه خير من طَرِيئته ، وتأخيرُه خير من تقديمه .

وذكر المدائني في كتاب "الخوارج" ، قال : لما خرج عليّ عليه السلام إلى أهل النهر أقبلَ رجل من أصحابه من كان على مقدّمته يركُض ؛ حتى انتهى إلى عليّ عليه السلام ،

(١) الرأي الفطير : الذي يبدو بديها من غير تروية ، خلاف الخير .

(٢) السكلام القضيبي : المرتجل .

(٣) يَغِب ، أي يعضى عليه وقت .

(٤) القضة : العيب .

(٥) النههى : نسبة إلى التهنه ، وهو الثوب الرقيق النسيج .

فقال : البشرى يا أمير المؤمنين ! قال : ما بُشراك ؟ قال : إن القوم عَبَرُوا النهرَ لَمَّا بلغَهم وصولُك ، فأبشِر ؛ فقد منحك الله أكتافَهم ؛ فقال له : الله أنت رأيتهم قد عَبَرُوا ! قال : نعم ، فأحلفه ثلاث مرات ، فى كُلِّها يقول : نعم ، فقال علىّ عليه السلام : والله ما عَبَرُوهُ ولن يَعْبُرُوهُ ؛ وإن مصارعهم أدون النطفة ؛ والذي فَلَاقَ الحَبَّةَ ، وبرأ النسمة ، لن يبلغوا الأثلاث ولا قصر بَوَازِنَ ، حتى يقتلَهم الله ، وقد خاب من افترى . قال : ثم أقبل فارس آخر يركض ، فقال كقول الأول ، فلم يكثر علىّ عليه السلام بقوله ، وجاءت الفرسان تركض ، كُلُّها تقول مثلَ ذلك ؛ فقام علىّ عليه السلام فجاء فى متن فرسه . قال : فيقول شاب من الناس : والله لأكونن قريباً منه ، فإن كانوا عَبَرُوا النهرَ لأجعلن سِنانَ هذا الرمح فى عينه ؛ أيدعى علم الغيب ! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كسروا جفون سيوفهم ، وعرقبوا خيلهم ، وجثوا على رُكبتهم ، وحكموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زجل فنزل ذلك الشاب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إني كنت شككتك فيك آنفاً ، وإني تائب إلى الله وإليك ، فاغفر لى ، فقال علىّ عليه السلام : إن الله هو الذى يغفر الذنوب ، فاستغفره .

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى ” الكامل “ ، قال : لما واقفهم علىّ عليه السلام بالهروان ، قال : لا تبدهوهم بقتال حتى يبدؤكم ، فحمل منهم رجل على صفت علىّ عليه السلام ، فقتل منهم ثلاثة ؛ ثم قال :

أَفْتُلُّهُمْ وَلَا أَرَى عَلِيًّا ولو بدا أوجرته الخطيئة^(١)

فخرج إليه علىّ عليه السلام فضربه ، فقتله ، فلما خالطه سيفه ، قال : يا حَبَّذَا الرُّوحَةِ إلى الجنة ! فقال عبد الله بن وهب : والله ما أدرى إلى الجنة أم إلى النار ! فقال رجل منهم :
(١) أوجرته الخطي : طاعته بالرمح .

من بنى سعد : إنما حضرتُ اغترارا بهذا الرجل - يعنى عبد الله - وأراه قد شكّ واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس ، ومال ألف منهم إلى جهة أبي أيوب الأنصارى ؛ وكان على ميمنة على عليه السلام ، فقال على عليه السلام لأصحابه : احمِلوا عليهم ؛ فوالله لا يقتل منكم عشرة ، ولا يسلم منهم عشرة^(١) . لحمل عليهم فطحنهم طحنا ، قُتِلَ من أصحابه عليه السلام تسعة ، وأُفِلت من الخوارج ثمانية^(٢) .

وذكر أبو العباس - وذكر غيره أيضا - أن أمير المؤمنين عليه السلام لما وجه إليهم عبد الله بن عباس ليُناظرهم قال لهم : ما الذى نَقَمْتُمْ على أمير المؤمنين ؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حَكَمَ فى دين الله خَرَجَ من الإيمان ؛ فليَتَّبِعْ بعد إقراره بالكفر نَعْدَ إليه^(٣) ؛ قال ابن عباس : ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك أن يُقِرَّ على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه حَكَمَ ، قال : إن الله أمر بالتحكيم فى قتل صَيِّدٍ ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾^(٤) ، فكيف فى إمامة قد أشككت على المسلمين ! فقالوا : إنه حَكَمَ عليه فلم يَرْضَ ، فقال : إنَّ الحكومة كالإمامة ، ومتى فَسَقَ الإمام وَجَبَتْ معصيته ؛ وكذلك الحكمان لما خالفا بُذِتْ أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : اجعلوا احتجاج قريش حُجَّةَ عليهم ؛ فإن هذا من الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾^(٥) ، وقال جل ثناؤه : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾^(٦) .

قال أبو العباس : ويقال : إن أول مَنْ حَكَمَ عروة بن أدية - وأدية جدّه له جاهلية - وهو عروة بن حُدَيْرٍ ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة . وقال قوم : أول من حَكَمَ رجل من بنى

(١) فى السكامل : « ولا يفلت » .

(٢) السكامل ٣ : ١٨٧ .

(٣) ب : « نعد له » .

(٤) سورة المائدة ٩٥ .

(٥) سورة الزخرف ٥٨ .

(٦) سورة مريم ٩٧ ، والخبر فى السكامل ٣ : ١٦٥ .

محارب بن خَصَفَةَ بن قَيْس بن عَيْلان ، يقال له سعيد . ولم يختلفوا في اجتماعهم ^(١) على عبد الله بن وهب الراسبي ، وأنه امتنع عليهم ، وأومأ إلى غيره فلم يفتنعوا إلا به ، فكان إمام القوم ، وكان يُوصف برأى . فأما أولُ سيف سُلّ من سيوف الخوارج فسيف عُرْوَة بن أَدْبَة ، وذلك أنه أقبل على الأشعث ، فقال له : ماهذه الدنية يا أشعث ؟ وما هذا التحكيم ؟ أشرطاً أوثق من شرط الله عزّ وجلّ ! ثم شَهر عليه السيف ، والأشعثُ مولٍ ؛ فضرب به عَجَزَ بقلته .

قال أبو العباس : وعروة بن حُدَيْر هذا من النفر الذين نَجَوْا من حرب المَهْرَوَان ، فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية ، ثم أتى به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبي بكر وعمر فقال : خيراً ، فقال له : فما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان وفي أبي تراب ؟ فتولّى عثمان ست سفين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر ، وفعل في أمر عليّ عليه السلام مثل ذلك إلى أن حكم ثم شهد عليه بالكفر ، ثم سأله عن معاوية فسبّه سبّاً قبيحاً ، ثم سأله عن نفسه ؛ فقال له : أولئك لَزِنية ^(٢) وإِخْرَكِ الدَّعْوَة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك . فأمر به ففُضِرَتْ عنقه ، ثم دعا موله فقال له : صف لي أمورَه ، قال : أأطِيب أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال : ما أتيتُه بطعامٍ بنهار قطّ ، ولا فرشت له فراشا بليل قطّ ^(٣) !

قال أبو العباس : وسبب تسميتهم الخروية أن علياً عليه السلام لما ناظرهم بعد مفاظرة ابن عباس إياهم ، كان فيما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم : إن هذه مكيدةٌ ووَهْنٌ ^(٤) ، وأنهم لو قصدوا إلى حُكْمِ المصاحف لأنفوني ، وسألوني ^(٥) التحكيم ! أفتعلمون أن أحداً كان أكرهَ للتحكيم مني ؟ قالوا : صدقت ، قال : فهل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشتطت أن حُكْمَهما نافذٌ ماحكماً

(١) السكامل : « لإجماعهم » .

(٢) لزنية ، يشير إلى ما كان من أبي سفيان في جاهليته من غشيانه أمه سمية .

(٣) السكامل ٣ : ١٧٩ - ١٨١

(٤) ب : « مكيدة وهن » .

(٥) السكامل : « ثم سألوني » .

بحكم الله ، فمتى خالفاه ، فأنا وأنتم من ذلك برآء ، وأنتم تعلمون أن حُكْمَ الله لا يعدُونى ؟
 قالوا : اللهم نعم ، قال : وكان معهم فى ذلك الوقت ابن الكَوَّاء^(١) ، قال : وهذا من قبْلِ
 أن يذبحوا عَبْدَ اللَّهِ بن حَبَّاب ، وإنما ذبحوه فى الفُرْقَة الثانية بِكُسْكِر^(٢) ، فقالوا له :
 حَكَّمْت فى دين الله برأينا ونحن مقرون بأننا كنّا كَفَرْنَا ، ولكننا الآن تائبون
 فأقرَّ بمثل ما أقررنا به ، وتُبَّ نهضَ معك إلى الشام ، فقال : أما تعلمون أن الله تعالى قد أمر
 بالتحكيم فى شقاق بين الرجل وامرأته ، فقال سبحانه : ﴿ فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ
 وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب كَارِنب يساوى نصف درهم ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ
 ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ! فقالوا له : فإنَّ عَمْرًا لما أبى عليك أن تقول فى كتابك : « هذا
 ما كتبه عبد الله على أمير المؤمنين » محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت : « على بن أبى
 طالب » ، فقد خلعت نفسك ، فقال : لى فى رسول الله صلى الله عليه أسوةٌ حين
 أبى عليه سُهَيْل بن عمرو أن يكتب : « هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وسُهَيْل بن عمرو » ، وقال له : لو أقررتُ بأنك رسولُ الله ما خالفتُك ، ولكنى أقدمك
 لفضلك ! فاكتب « محمد بن عبد الله » ، فقال لى : يا على ، امحُ « رسول الله » ، فقلت : يا رسول
 الله ، لا تشجّعنى نفسى^(٣) على محو اسمك من النبوة ، قال : ففضى عليه ، فمحا بيده ، ثم قال :
 « اكتب محمد بن عبد الله » ، ثم تبسم إلى وقال : يا على ، أما إنك ستسام مثلها فتعطى ،
 فرجع معه منهم ألفان من حروراء وقد كانوا تجتمعوا بها ، فقال لهم على : مانسميكم ؟ ثم
 قال : أنتم الحرورية ، لاجتماعكم بحروراء^(٤) .

وروى جميعُ أهل السَّير كافةً أنَّ عليا عليه السلام لما طحن القوم طلب ذا الشُّدَّة طلباً

(١) ابن الكَوَّاء ، هو عبد الله بن الكَوَّاء ؛ من بنى يشكر بن بكر بن وائل .

(٢) كُسْكِر : كورة بين الكوفة والبصرة .

(٣) السكامل : « لا تسخو نفسى » . (٤) السكامل ٣ : ١٨١ ، ١٨٢ .

شديداً ، وقلب القتلى ظهراً لبطن ، فلم يقدر عليه ، فساءه ذلك ، وجعل يقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، اطلبوا الرجل ، وإنه لفي القوم ؛ فلم يزل يتطلبه حتى وجده ، وهو رجل مُخْدَجُ اليد ^(١) ، كأنها ثدى في صدره .

وروى إبراهيم بن ديزيل في كتاب " صفين " عن الأعشى ، عن زيد بن وهب ، قال : لما شجرهم على عليه السلام بالرماح ، قال : اطلبوا ذا الثدية ، فطلبوه طلباً شديداً ، حتى وجدوه في وَهْدَةٍ من الأرض تحت ناسٍ من القتلى ، فأتي به ، وإذا رجلٌ على ثديه مثل سبلات ^(٢) السنور ، فكبر على عليه السلام ، وكبر الناس معه سرورا بذلك .

وروى أيضاً عن مسلم الضبي عن حبة العرني ، قال : كان رجلاً أسود مُنْتِنَ الریح ، له ثدى كثندي المرأة ، إذا مدت كانت بطول اليد الأخرى ، وإذا تركت اجتمعت وتقلصت ، وصارت كثندي المرأة ، عليها شعرات مثل شوارب الهرّة ، فلما وجدوه قطعوا يده ، ونصبوها على رُمح . ثم جعل على عليه السلام يُنادي : صدق الله وبلغ رسوله ؛ لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غربت الشمس أو كادت .

وروى ابن ديزيل أيضاً ، قال : لما عيل ^(٣) صبر على عليه السلام في طلب الخدج ، قال : ائتموني ببغلة رسول الله صلى الله عليه ، فركبها واتبعه الناس ، فرأى القتلى ، ويقول : اقبلوا ، فيقبلون قتيلاً عن قتيل ، حتى استخرجوه ، فسجد على عليه السلام .
وروى كثير من الناس أنه لما دعا بالبغلة ليركبها ، قال : ائتموني بها فإنها هادية ، فوقف به على الخدج ، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين .

وروى العوام بن حوشب عن أبيه ، عن جدّه يزيد بن رويم ، قال : قال على عليه

(٢) السبلّة : ماعلى الشارب من الشعر ، وجمعه سبلات .

(١) مخدج اليد ، أى ناقص اليد .

(٣) عيل صره : أعوزه الصبر .

السلام : يُقْتَلُ اليوم أربعة آلاف من الخوارج، أحدهم ذو الثُدَيَّة ، فلما طُحِنَ القومُ ورام استخراج ذِي الثُدَيَّة فأتبعه، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قَصَبَة، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه ، وقال : اطرح على كل قَتِيلٍ منهم قَصَبَة ، فلم أزل كذلك وأنا بين يديه ، وهو راكب خلفي، والناس يتبعونه حتى بَقِيت في يدي واحدة ، فنظرت إليه وإذا وجهه أُرْبَدَ ، وإذا هو يقول : والله ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ ، فإذا خَرِيرُ ماء عند موضع دالية ، فقال : فَمَتَّشْ هذا ففتشته ، فإذا قَتِيلٌ قد صار في الماء ، وإذا رجله في يدي ، فحذبتها ، وقلت : هذه رِجْلُ إنسان ، فنزل عن البغلة مسرعا ، فحذب الرِّجْلَ الأخرى ، وجردناه حتى صار عَلَى التراب، فإذا هو الخَدَج ، فكَبَّرَ عَلَى عليه السلام بأعلى صوته ، ثم سجد ، فكَبَّرَ الناس كلهم .

وقد روى كثير من المحدثين أن النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوما : « إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يقاتل عَلَى تَأْوِيلِ القرآن ، كما قاتلت عَلَى تنزيله » ، فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ؟ فقال : « لا » ، فقال عمر : أنا يا رسول الله ؟ فقال : « لا » ، بل خاصف الفعل » ، وأشار إلى عَلَى عليه السلام .

وقال أبو العباس في "الكامل" : يقال : إِنْ أَوَّلَ مَنْ لَفَظَ بالحُكُومَة ولم يُشَدَّ^(١) بها رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرَّة ، من بني صَرِيم ، يقال له الحجاج بن عبد الله ، ويعرف بالبُرْك ؛ وهو الذي ضرب آخر معاوية عَلَى أَلْيَتِهِ ، يقال : إِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بِذِكْرِ الحُكَمَاءِ ، قال : أَيْحَكِّمُ أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ ! لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، فسمعه سامع ، فقال : طَمَنَ وَاللَّهِ فَأَنْفَذَ .

قال أبو العباس : وأول من حَكَّم بين الصَّغِيرِينَ رَجُلٌ من بني يَشْكُرَ بن بكر

(١) لم يشد ، من أشتد به ، إذا رفع صوته .

ابن وائل ، كان من أصحاب عليّ عليه السلام ، فحمل كلّ رجل منهم فقتله غيلة ، ثم مرق بين الصّفين يُحكّم ، وحمل كلّ أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع إلى ناحية عليّ عليه السلام ، فخرج إليه رجل من همدان فقتله ، فقال شاعر همدان :

وَمَا كَانَ أَغْنَى الدِّشْكُرَى عَنْ النَّبِيِّ تَصَلَّى بِهِمْ جَمْعاً مِنَ النَّارِ حَامِيَا
غُدَاةَ يَنَادِي وَالرَّمَا حُ تَنُوشُهُ خَلَعْتُ عَلِيّاً بَادِئاً وَمَعْنَاوَا (١)

قال أبو العباس : وقد روى المحدثون (٢) أن رجلاً تلا بحضرة عليّ عليه السلام : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٣) ، فقال عليّ عليه السلام : أهل حُرُوراء منهم .

قال أبو العباس : ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا اختلاف فيه أنه قاله :
« وَكَانَ يَرُدُّهُمْ أَنَّهُمْ لَمَّا سَامَوْهُ أَنَّهُ يُقَرَّرُ بِالْكَفْرِ ، وَيَتُوبُ حَتَّى يَسِيرُوا مَعَهُ إِلَى الشَّامِ ، فَقَالَ :
أَبْعَدَ صَحْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ أَرْجَعَ كَافِرًا ! ثُمَّ قَالَ :
يَا شَاهِدَ اللَّهِ عَلَيَّ فَأَشْهَدَ أَنِّي عَلَى دِينِ النَّبِيِّ أَحْمَدِ

* مَن شَكَّ فِي اللَّهِ فَإِنَّهُ مُتَّهَدٌ * (٤)

وذكر أبو العباس أيضاً في " السكامل " ، أن عليّاً عليه السلام في أول خُروج القوم عليه ، دعا صعصعة بن صُوحان العبدى - وقد كان وجهه إليهم - وزياد بن النضر الحارثى ، مع عبدالله بن عباس ، فقال لصعصعة : بأى القوم رأيتمهم أشدّ إطفافاً (٥) ؟ قال : يزيد بن قيس الأرحبى ، فركب عليّ عليه السلام إلى حُرُوراء ، فجعل يتخلّاهم حتى صار إلى مَضْرِبِ يزيد بن قيس ، فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتسكأ على قوسه ، وأقبل

(١) تنوشه : تناوله .

(٢) في السكامل : « وجاء في الحديث » .

(٣) سورة السكف ١٠٤ .

(٤) السكامل ٣ : ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٥) إطفاف ، مصدر أطفأ بالشيء ؛ إذا أحاط به .

عَلَى نَاسٍ ، فَقَالَ : هَذَا مَقَامٌ مَنْ فَلَجَ ^(١) فِيهِ فَلَجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ثُمَّ كَلَّمَهُمْ وَنَاشَدَهُمْ ، فَقَالُوا : إِنَّا أَذْنَبْنَا ذُنُوبًا عَظِيمًا بِالتَّحْكِيمِ ، وَقَدْ تُبْنَا ، فَتُبْ إِلَى اللَّهِ كَمَا تُبُنَا نَعُدُّ لَكَ . فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ، فَرَجِعُوا مَعَهُ وَهُمْ سِتَّةُ آلَافٍ ، فَلَمَّا اسْتَفْتَوْا بِالْكَوْفَةِ أَشَاعُوا أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجَعَ عَنِ التَّحْكِيمِ ، وَرَأَاهُ ضَلَالًا ، وَقَالُوا : إِنَّمَا نَنْتَظِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْمَنَ السُّكْرَاعَ ^(٢) وَتُجَنَّبِيَ الْأَمْوَالُ ، ثُمَّ يَنْهَضُ بِهَا إِلَى الشَّامِ . فَأَتَى الْأَشْعَثُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَحَدَّثُوا أَنَّكَ رَأَيْتَ الْحَكُومَةَ ضَلَالًا وَالْإِقَامَةَ عَلَيْهَا كُفْرًا ، فَقَامَ عَلِيٌّ ^(٣) عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْطُبُ ، فَقَالَ : مَنْ زَعَمَ أَنِّي رَجَعْتُ عَنِ الْحَكُومَةِ فَقَدْ كَذَبَ ، وَمَنْ رَأَاهَا ضَلَالًا فَقَدْ ضَلَّ ؛ فَنُفِجَتْ حِينَئِذٍ الْخَوَارِجُ مِنَ الْمَسْجِدِ فَخَسَمَتْ ^(٤) .

قُلْتُ : كُلُّ فَسَادٍ كَانَ فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُلُّ اضْطِرَابٍ حَدَّثَ فَأَصْدَلُهُ الْأَمْرُ ، وَلَوْلَا مُحَاقَّتُهُ ^(٥) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى الْحَكُومَةِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ لَمْ تَسْكُنْ حَرَبُ النَّهْرَوَانِ ، وَلَسَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْهَضُ بِهِمْ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَيَمْلِكُ النَّاسَ ؛ فَإِنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَاقُولُ أَنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ التَّعْرِيفِ وَالْمَوَارِبَةِ ؛ وَفِي الْمَثَلِ الذِّمِّيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى قَائِلِهِ : « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ : تَبَّ إِلَى اللَّهِ

(١-١) عبارة السكامل : « مَنْ فَلَجَ فِيهِ فَلَجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ أُنْشِدَكُمْ اللَّهُ ، أَعْلَمْتُمْ أَحَدًا مِنْكُمْ كَانَ أَكْرَهُ لِلَّهِ مِمَّنْ قَالُوا : اللَّهُمَّ لَا ، قَالَ : أَعْلَمْتُمْ أَنْكُمْ أَكْرَهْتُمُونِي حَتَّى قَبِلْتُمَا قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، قَالَ : فَمَنْ خَالَفْتُمُونِي وَنَابَذْتُمُونِي ؟ قَالُوا : إِنَّا أَتَيْنَا ذُنُوبًا عَظِيمًا ، فَتُبْ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ ، وَاسْتَغْفِرْهُ نَعُدُّ لَكَ ، فَقَالَ عَلِيٌّ . . . » ، وَالْفَلَجُ : الظُّفْرُ وَالْإِنْتِصَارُ .

(٢) السُّكْرَاعُ : اسْمٌ لِلخَيْلِ

(٣) السكامل : « فُخِطَ عَلَى النَّاسِ » .

(٤) السكامل ٣ : ٢١٠ - ٢١٢ .

(٥) المحاققة : أَنْ يَقُولَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّرَفَيْنِ : « أَنَا أَحَقُّ » ؛ هَذَا أَصْلُهَا ، وَالْمُرَادُ الْحَاجَةُ وَالْمُجَادَلَةُ .

مما فعلت ، كما تبنا نهض معك إلى حرب أهل الشام ، فقال لهم كلمة مجملّة مُرسّلة يقولها الأنبياء والمعصومون ، وهى قوله : « أستغفر الله من كل ذنب » ، فرضّوا بها وعدّوها إجابة لهم إلى سؤالهم ، وصفت له عليه السلام نيّاتهم ، واستخلص بها ضمائرهم ، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافا بكفر أو ذنب ، فلم يتركه الأشعث ، وجاء إليه مستفسرا وكاشفا عن الحال ، وهاتكا ستر التورية والكناية ، ومُخرجا لها من ظلمة^(١) الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسد التدبير ، ويؤثر الصدور ، ويعيد الفتنة ؛ ولم يستفسره عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدية على دَخَن^(٢) ، ولا ترقيقا عن صَبُوح^(٣) ، وألجأه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما فى نفسه ، ولا يترك الكلمة كلّى احتمالها ، ولا يطويها على غرّها^(٤) ، فخطب بما صدّع به عن صورة ما عنده مجاهرة ، فانتقض ما دبّره ، وعادت الخوارج إلى شبهتها الأولى ، وراجعوا التحكيم والمُروق ؛ وهكذا الدول التى تظهر فيها أمارات الانقضاء والزوال ، يُتاح لها أمثال الأشعث من أولى الفساد فى الأرض ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾^(٥) .

قال أبو العباس : ثم مضى القوم إلى السهوان ، وقد كانوا أرادوا المضى إلى المدائن ، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا فى طريقهم مسلما نصرانيا ، فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر ؛ إذ كان على خلاف معتقدهم ، واستوصوا بالنصراني ، وقالوا : احفظوا دمة نبيكم^(٦)

(١) ب : « مظلمة » ، تصحيف ، صوابه من ا ، ج .

(٢) هدية على دخن مثل ، والهدنة فى الأصل : اللين والسكون ، ويطلق على المصالحة . والدخن : تغير الطعام . وانظر الميدانى ٢ : ٣٨٢ .

(٣) أصل المثل : « عن صبوح ترقق » ، والصبوح : ما يشرب صباحا ، وترقيق الكلام تزيينه ، يضرب لمن كفى عن شئ ويريد غيره . وانظر الميدانى ٢ : ٢١ .

(٤) أصل المثل : « طويت الثوب على غره » أى كسره .

(٥) سورة الأحزاب ٦٢ . (٦) الكامل : ٣٠ : ٢١٢ .

قال أبو العباس : ونحو ذلك أن واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل في رُفْقَةٍ فأحسوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُفْقَةِ : إنَّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا ودَعُونِي وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطَب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ فقال : قومٌ مشركون مستجبرون بكم ، ليسمعوا كلامَ الله ، ويفهموا حدوده ، قالوا : قد أجبرناكم ، قال : فعلمونا ، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم ، ويقول واصل : قد قبلت أنا ومن معي ، قالوا : فامضوا مصاحبين ، فقد صرتم ^(١) إخواننا ، فقال : بل تبْلغُوننا مأمِنًا ، لأنَّ الله تعالى يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ ^(٢) ، قال : فينظر ^(٣) بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن ^(٤) .

قال أبو العباس : ولقيهم عبد الله بن خَبَّاب في عنقه مصحف ، على حِجَار ، ومعه امرأته وهي حامل ، فقالوا له : إنَّ هذا الذي في عُنُقِكَ ليأمرنا بقتلك ، فقال لهم : ما أحياء القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجل منهم على رُحْطَةٍ سقطت من نَحْلَةٍ فوضعها في فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورُّعًا . وعرض لرجل منهم خِنْزِيرٌ فضر به فقتله ، فقالوا : هذا فساد في الأرض ، وأنكروا قتل الخِنْزِير ، ثم قالوا لابن خَبَّاب : حدِّثنا عن أبيك ، فقال : إني سمعتُ أبي يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « ستكون بعدى فتنة

(١) السكامل : « فإنكم إخواننا » .

(٢) سورة التوبة ٦ :

(٣) السكامل : « فنظر بعضهم إلى بعض » .

(٤) السكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بدنه ، يمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، فكن عبد الله المقتول ، ولا تسكن القاتل » ، قالوا : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقول في عليّ قبل التحكيم ، وفي عثمان في السنين الست الأخيرة ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقول في عليّ بعد التحكيم والحكومة ؟ قال : إن عليا أعلم بالله وأشدُّ توفيقاً على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائهم ، ثم قرأه إلى شاطئ النهر ، فأضجعوه فذبحوه ^(١) .

قال أبو العباس : وسأومؤوا رجلا نصرانياً بنخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنا لناخذها إلا بضمن ، فقال : واعجباه ! أقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلون جَمًا نخلة إلا بضمن ^(١) !

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنى ، قال : طعن واحدٌ من الخوارج يوم النهروان ، فشى في الرمح ، وهو شاهر سيفه ، إلى أن وصل إلى طاعنه فضر به فقتله ، وهو يقرأ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ ^(٢) .

وروى أبو عبيدة أيضا ، قال : استنطقهم عليّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خباب ، فأقرّوا به ، فقال : انفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة ، فسكتبوا كتائب ، وأقرّت كل كتيبة بمثل ما أقرّت به الأخرى ؛ من قتل ابن خباب ، وقالوا : ولقد قتلناك كما قتلناه ؛ فقال عليّ : والله لو أقرّ أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم ؛ ثم التفت إلى أصحابه ، فقال لهم : شدّوا عليهم ؛ فأنا أول من يشدّ عليهم . وحمل

(١) الكامل ٣ : ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) سورة طه ٨٤ .

بذى الفقار حملةً منكراً ثلاث مرات ، كل حملة يضرب به حتى يعوجّ مثنه ، ثم يخرج فيسوّيه بركبتيه ، ثم يحمل به حتى أفناهم .

وروى محمد بن حبيب ، قال : خطب على عليه السلام الخوارج يوم النهر ، فقال لهم : نحن أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وعنصر الرحمة ، ومعدن العلم والحكمة ، نحن أفق الحجاز ، بنا يلحق البطيء ، وإلينا يرجع التائب ؛ أيها القوم ، إني نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأهضام هذا الوادي ... إلى آخر الفصل .

(٣٧)

ومن كلام له عليه السلام يجرى مجرى الخطبة :

الأُسنل :

فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشَلُوا ، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا ، وَنَطَقْتُ حِينَ تَمَسَّعُوا ،
وَمَضَيْتُ بِبُيُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضُهُمْ صَوْتًا ، وَأَعْلَاهُمْ قُوَّةً ، فَطَرْتُ
بِمَعَانِيهَا ، وَأَسْتَبْدَذْتُ بِرِهَانِهَا .

كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ ؛ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ
مَهْمَزٌ ، وَلَا لِأَقْبَالٍ فِيَّ مَغْمَزٌ ؛ الدَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ لَهُ ، وَالْقَوَى
عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ مِنْهُ .

رَضِينَا عَنْ اللَّهِ قَضَاءَهُ ، وَسَلَمْنَاهُ لِلَّهِ أَمْرَهُ . أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ اللَّهُ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ ، فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .
فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي ؛ فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي ؛ وَإِذَا الْإِيمَانُ فِي مُعْنَتِي
لِغَيْرِي .

السنخ :

هذه فصول أربعة ، لا يمتزج بعضها ببعض ، وكل كلام منها ينحوبه أمير المؤمنين عليه
السلام نحواً غير ما ينحوبه بالآخر ؛ وإنما الرضى - رحمه الله تعالى - التقطها من كلام أمير المؤمنين
عليه السلام طویل منتشر ، قاله بعد وقعة النهروان ، ذكر فيه حاله منذ توفى رسول الله صلى الله

عليه وآله ، وإلى آخر وقت ؛ فجعل الرضى رحمه الله تعالى ما التقطه منه سرّداً ، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصداً واحداً .

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله : « واستبددت برهانها » ؛ يذكّر فيه مقاماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيام أحداث عثمان ، وكون المهاجرين كلهم لم يسكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه ؛ فهذا هو معنى قوله : « ففقت بالأمر حين فشلوا » ، أى قتت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله عنه . والفشل : الخور والجزين .

قال : « ونطقت حين تمتعوا » ، يقال : تمتع فلان ؛ إذا تردد في كلامه من عى أو حصر^(١) . قوله : « وتطلعت حين تقبّعوا » ، امرأة طلمعة قبعة ، تطلع ثم تقبّع رأسها ، أى تدخله كما يقبّع القنفذ ، يدخل برأسه في جلده ، وقد تقبّع الرجل ، أى اختبأ ، وضده تطلع . قوله : « وكنت أخفضصهم صوتاً ، وأعلامهم فوّتا » يقول : علوهم وفوّتهم وشأوهم سبقنا ، وأنا مع ذلك خافض الصوت ، يشير إلى التواضع ونفى التكبر .

وقوله : « فطرت بعنانها ، واستبددت برهانها » يقول : سبقتهم ، وهذا الكلام استعارة من مسابقة خيل الحلبة . واستبددت بالرهان ، أى انفردت بالخطر^(٢) الذى وقع التراهن عليه .

الفصل الثانى فيه ذكر حاله عليه السلام في الخلافة بعد عثمان ، يقول : كنت لما وليت الأمر كالجبل لا تحركه القواصف ، يعنى الرياح الشديدة ، ومثله العواصف . والمهمز : موضع الهمز ؛ وهو العيب ، وكذلك المعمر .

(١) ج : « من عى وحصر » .

(٢) الخطر : السبق الذى يترامى عليه فى الرهان .

ثم قال : « الدليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه » ؛ وهذا آخر الفصل الثانى ، يقول : الدليل المظلوم أقوم بإعزازة ونصره ، وأقوى يده إلى أن آخذ الحق له ، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التى كان عليها قبل أن أقوم بإعزازة ونصره ، والقوى الظالم أستضعفه وأقهره وأذله إلى أن آخذ الحق منه ، ثم يعود إلى الحالة التى كان عليها قبل أن أهتممه ، لاستيفاء الحق .

الفصل الثالث من قوله : « رضينا عن الله قضاءه » ، إلى قوله : « فلا أكون أول من كذب عليه » ؛ هذا كلام قاله عليه السلام لما تفرس في قوم من عسكره أنهم يتهمونه فيما يخبرهم به عن النبى صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحم والغائبات ، وقد كان شك منهم جماعة في أقواله ؛ ومنهم من واجهه بالشك والتهمة (١) .

[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام على بالأمور الغيبية]

روى ابن هلال النقى في كتاب " الغارات " ، عن زكريا بن يحيى العطار ، عن فضيل ، عن محمد بن على ، قال : لما قال على عليه السلام : سلوني قبل أن تفقدوني ، فوالله لا تسألوننى عن فئة تضل مائة ، وتهدى مائة إلا أنباتكم بناعتها وسائقها ، قام إليه رجل فقال : أخبرنى بما فى رأسى ولحييتى من طاقة شعر ، فقال له على عليه السلام : والله لقد حدثنى خليلى أن على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك ، وأن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يُغويك ؛ وأن فى بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان ابنه قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلاً يحبو - وهو سنان بن أنس النخعى .

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالى ، عن سويد بن غفلة أن علياً عليه السلام ، خطب ذات يوم ، فقام رجل من تحت منبره ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إني مررت بوادى

(١) انظر الكلام عن الفصل الرابع س ٢٩٥ .

الْقُرَى ، فوجدتُ خالد بن عُرْفُطَةَ قد مات ، فاستغفر له ، فقال عليه السلام : والله مامات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حمار . فقام رجل آخر من تحت المنبر ، فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا حبيب بن حمار ، وَإِنِّي لَكَ شِيعَةٌ وَمُحِبٌّ ، فقال : أَنْتَ حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَبِيبُ بْنُ حِمَارٍ ؟ فقال : إِي وَاللَّهِ ! قال : أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَحَامِلُهَا وَلِتَحْمِلَنَّهَا ، وَلِتَدْخُلَنَّ بِهَا مِنْ هَذَا الْبَابِ - وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة .

قال ثابت : فوالله مامت حتى رأيتُ ابنَ زياد ، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين ابن عليٍّ عليه السلام ، وجعل خالد بن عُرْفُطَةَ على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحب رايته ، فدخل بها من باب الفيل .

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البجليّ ، قال : أخبرنا عمرو بن موسى الوجهيّ ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : قال علي عليه السلام على المنبر : مَا أَحَدٌ جَرَّتْ عَلَيْهِ الْمَوَاسِي إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ قُرْآنًا ؛ فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له : فما أنزل الله تعالى فيك ؟ فقام الناس إليه يضربونه ؛ فقال : دعوه ، أُنْقِرْ سورة هود ؟ قال : نعم ، قال : فقرأ عليه السلام : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(١) ثم قال : الذي كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه ، والشاهد الذي يتلوه أنا .

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن بكير ، عن حكيم بن جُبَيْر ، قال : خطب علي عليه السلام فقال في أثناء خطبته : « أَنَا عَبْدُ اللَّهِ ، وَأَخُو رَسُولِهِ ، لَا يَقُولُهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا بَعْدِي إِلَّا كَذِبٌ ؛ وَرِثْتُ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ ، وَنَسَكَّحْتُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَنَا خَاتَمُ الْوَصِيِّينَ » .

(١) سورة هود ١٧ .

قَالَ رَجُلٌ مِنْ عَبَسَ : [وَ] مَنْ لَا يَحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا ! فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى أَهْلِهِ حَتَّى جُنَّ وَصُرِعَ ، فَسَأَلُوهُمَ : هَلْ رَأَيْتُمْ بِهِ عَرَضًا قَبْلَ هَذَا ؟ قَالُوا : مَا رَأَيْنَا بِهِ قَبْلَ هَذَا عَرَضًا . وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ جَبَلَةَ الْخِطَّاطُ ، عَنْ عِكْرَمَةَ ، عَنْ يَزِيدِ الْأَحْمَسِيِّ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ جَالِسًا فِي مَسْجِدِ السَّكُوفَةِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ قَوْمٌ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ ؛ إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ مَخْتَمِرَةٌ لَا تَعْرِفُ ، فَوَقَفَتْ فَقَالَتْ لِعَلِّيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا مَنْ قَتَلَ الرِّجَالَ ، وَسَفَكَ الدَّمَاءَ وَأَيَّمُ الصَّبِيَّانِ ، وَأَرْمَلَ النِّسَاءِ ! فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَإِنَّهَا لَهِيَ هَذِهِ السَّلَاقَةُ الْجَلِيلَةُ الْمَجِيعَةُ ، وَإِنَّهَا لَهِيَ هَذِهِ شَبِيهَةُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ؛ الَّتِي مَارَأْتُ دَمًا قَطُّ ؛ قَالَ : فَوَلَّتْ هَارِبَةً مِنْكَسَّةَ رَأْسِهَا ، فَتَبِعَهَا عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ ، فَلَمَّا صَارَتْ بِالرَّحْبَةِ ، قَالَ لَهَا : وَاللَّهِ لَقَدْ سَرَرْتُ بِمَا كَانَ مِنْكَ الْيَوْمَ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ ، فَادْخُلِي مَنْزِلِي حَتَّى أَهْبَ لَكَ وَأَكْسُوكَ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ مَنْزِلَهُ أَمَرَ جَوَارِيَهُ بِتَغْيِيشِهَا وَكَشْفِهَا وَنَزَعَ ثِيَابَهَا لِيَنْظُرَ صَدَقَهُ فِيمَا قَالَهُ عَنْهَا ، فَبَكَتْ وَسَأَلَتْهُ أَلَا يَكْشِفُهَا ؛ وَقَالَتْ : أَنَا وَاللَّهِ كَمَا قَالَ ، لِي رَكَبُ النِّسَاءِ ، وَأَنْثِيَانِ كَأَنْثَى الرِّجَالِ ؛ وَمَا رَأَيْتُ دَمًا قَطُّ . فَفَرَكَهَا وَأَخْرَجَهَا . ثُمَّ جَاءَ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : إِنَّ خَلِيلِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ أَخْبَرَنِي بِالْمُتَمَرِّدِينَ عَلَى مِنَ الرِّجَالِ وَالْمُتَمَرِّدَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ .

قُلْتُ : السَّلَاقَةُ : السَّلَاطَةُ ، وَأَصْلُهُ مِنَ السَّلَاقِ وَهُوَ الذَّنْبُ ، وَالسَّلَاقَةُ : الذَّنْبُ . وَالْجَلِيلَةُ الْمَجِيعَةُ : الْبَذِيئَةُ اللِّسَانِ . وَالرَّكَبُ : مَنِيَّتُ الْعَانَةِ .

وَرَوَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ ، عَنْ شَرِيكَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : لَمَّا بَلَغَ عَلِيٌّ عَالِيَهُ السَّلَامِ أَنَّ النَّاسَ يَتَهَمُونَهُ فِيمَا يَذْكُرُهُ مِنْ تَقْدِيمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَفْضِيلِهِ [إِيَّاهُ] عَلَى النَّاسِ ، قَالَ : أَنْشَدُ اللَّهَ مَنْ بَقِيَ تَحْتِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاسْمُ مَقَالِهِ فِي يَوْمِ غَدِيرِ خُمٍ ^(١) إِلَّا قَامَ

(١) خُم : وَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ عِنْدَ الْجُحْفَةِ ، بِهِ غَدِيرٌ عُرِفَ بِهِ .

فشهد بما سمع ، فقام ستة من عن يمينه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وستة من على شماله من الصحابة أيضاً ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم ، وهو رافع يدي على عليه السلام : « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فهُذَا عَلَى مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَاد مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ ، وَأَحِبْ مَنْ أَحَبَّهُ ، وَأَبْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ » (١) .

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التميمي ، عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، قال : قام أعشى همدان (٢) - وهو غلام يومئذٍ حَدَّثَ - إلى على عليه السلام ، وهو يخطب ويذكر الملاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة ا فقال على عليه السلام : إن كنت آتماً فيما قلت يا غلام ، فرماك الله بغلام ثقيف ؛ ثم سكت ، فقام رجال فقالوا : وَمَنْ غلامٌ ثقيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك الله حرمة إلا انتهكها ، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه ، فقالوا : كم يملك يا أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين إن بلغها ، قالوا : فيقتل قتلاً أم يموت موتاً ؟ قال : بل يموت حتف أنفه بداء البطن ، يثقب سريره لسكرة ما يخرج من جوفه .

قال إسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رأيت بعيني أعشى باهلة ، وقد أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدي الحجاج ، فقررعه ووثقه ، واستنشدته شعره الذي يحرّض فيه عبد الرحمن على الحرب ، ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس .

وروى محمد بن علي الصواف ، عن الحسين بن سفيان ، عن أبيه ، عن شبيب بن سدير الأزدي ، قال : قال على عليه السلام لعمر بن الحقيق الخزاعي : أين نزلت يا عمرو ؟ قال :

(١) نقله الحب الطبري في الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) ، وتحدث عن طارقه هناك .

(٢) أعشى همدان ، أسره الحجاج ثم قتله ؛ وانظر الأغاني ٦ : ٥٨ - ٦٢ .

(١٩ - نهج - ٢)

في قومي، قال: لا تنزلن فيهم، قال: فأنزل في بني كنانة جيراننا؟ قال: لا، قال: فأنزل في ثقيف؟ قال: فما تصنع بالمعرة والحجرة؟ قال: وماها؟ قال: عُنُقَان من نار، يخرجان من ظهر الكوفة، يأتي أحدهما على تميم وبكر بن وائل؛ فقلما يُفِلَّت منه أحدٌ، ويأتي العنق الآخر، فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة، فقل من يصيبُ منهم، إنما يدخل الدارَ فيحرق البيتَ والبيتين. قال: فأين أنزل؟ قال: أنزل في بني عمرو بن عامر، من الأزد. قال: فقال قوم حضروا هذا الكلام: ما نراه إلا كاهنا يتحدث بحديث الكهنة. فقال: يا عمرو، إنك المقتول بعدى؛ وإن رأسك لمقتول؛ وهو أولُ رأسٍ ينقل في الإسلام؛ والويل لقاتلك! أما إنك لا تنزل قوم إلا أسلموك برمتك^(١)؛ إلا هذا الحى من بني عمرو بن عامر من الأزد، فإنهم لن يُسلموك ولن يخذلوك؛ قال: فوالله مامضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحقيق في خلافة معاوية في بعض أحياء العرب، خائفاً بذهورنا، حتى نزل في قومه من بني خزاعة، فأسلموه، فقتل وحل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام؛ وهو أولُ رأسٍ حل في الإسلام من بلد إلى بلد.

وروى إبراهيم بن ميمون الأزدي عن حبة العرنى، قال: كان جويرية بن مسهر العبدى صالحاً، وكان لعل بن أبي طالب صديقاً، وكان على يخبئه، ونظر يوماً إليه وهو يسير، فناده: يا جويرية، الحق بي، فإني إذا رأيتك هويتك؛ قال إسماعيل بن أبان: فحدثني الصباح، عن مسلم عن حبة العرنى، قال: سرنا مع علي عليه السلام يوماً فالتفت فإذا جويرية خلفه بعيداً، فناده: يا جويرية، الحق بي لأبالك! ألا تعلم أنني أهواك وأحبك أقال: فرغض نحوه، فقال له: إني محدثك بأمر فاحفظها، ثم اشتركا في الحديث سرّاً، فقال له جويرية: يا أمير المؤمنين، إني رجل نسي^(٢)، فقال له: إني أعيدُ عليك

(١) أسلموك برمتك، أي أسلموك بجميع ما معك.

(٢) النسي: النسيان.

الحديث لتحفظه ، ثم قال له في آخر ما حدثته إياه : يا جوريرة ، أحبب حبيبنا ما أحبنا ، فإذا أبغضنا فأبغضه ، وأبغض بغيضنا ما أبغضنا ، فإذا أحبنا فأحبّه .

قال : فكان ناسٌ ممن يشكّ في أمر علي عليه السلام يقولون : أنراه جعل جوريرة وصيه كما يدعى هو من وصية رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : يقولون ذلك لشدة اختصاصه له ، حتى دخل على عليّ عليه السلام يوماً ، وهو مضطجع ، وعنده قوم من أصحابه ، فناداه جوريرة : أيها النائم ، استيقظ ، فلتضربنّ على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك ، قال : فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام ؛ قال : وأحدثك يا جوريرة بأمرٍ ؛ أما والذي نفسي بيده لتعمتن^(١) إلى العُتلّ الزنيم ، فليقطعنّ يدك ورجلك وليصلبنك تحت جذع كافر ، قال : فوالله مامضت إلا أيام على ذلك حتى أخذ زياد جوريرة ، فقطع يده ورجله وصلبه إلى جانب جذع ابن مكربر ، وكان جذعاً طويلاً ؛ فصلبه على جذع قصير إلى جانبه .

وروى إبراهيم في كتاب ” الغارات ” ، عن أحمد بن الحسن الميثمي ، قال : كان ميثم التمار مولى عليّ بن أبي طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بني أسد ، فاشتراه عليّ عليه السلام منها وأعتقه ، وقال له : ما اسمك ؟ فقال : سالم ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه أخبرني أن اسمك الذي سماك به أبوك في العجم » ميثم « ، فقال : صدق الله ورسوله ، وصدقت يا أمير المؤمنين ، فهو والله اسمي ، قال : فارجع إلى اسمك ، ودع سالماً ، فنحن نكفيك به ؛ فكانه أبا سالم . قال : وقد كان قد أطلعه عليّ عليه السلام على علم كثير ، وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدث ببعض ذلك ، فيشكّ فيه قوم من أهل الكوفة ، وينسبون عليه السلام في ذلك إلى الخرقه^(٢) والإيهام والتدليس ؛ حتى قال له يوماً بمحضّر من خلق كثير من أصحابه ، وفيهم الشاكّ والحليص : يا ميثم ،

(١) يقال : عتله عتلاً ؛ إذا أخذه بمجامعه وجره جراً عنيفاً .

(٢) الخرقه : اختلاق الكذب .

إنك تُؤخِّذُ بعدى وتُصلِّبُ ، فإذا كان اليومُ الثانى ابتدر مُنْخَرَاكُ وفكٌ دماً ، حتى تُخَضَّبَ لحيَتُكَ ، فإذا كان اليومُ الثالث طعنْتَ بحربة يُقضى عليك ، فانتظر ذلك . والموضع الذى تُصلِّبُ فيه على باب دار عمرو بن حريث ؛ إنَّكَ كعاشِر عشرة أنت أقصرُهم خشبةً ، وأقربهم من المطهرة - معنى الأرض - ولأربنتك الدخلة التى تُصلِّبُ على جذعها ، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين ، وكان ميثم يأتها ، فيصلِّى عندها ، ويقول : بوزكت من نخلة لك خُلِّقتُ ، ولي نبتٌ ، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل على عليه السلام ، حتى قُطِعت ، فكان يرصد جذعها ، ويتعاهده ويتردّد إليه ، ويبصره ، وكان يلقى عمرو بن حريث ، فيقول له : إنَّ مجاورك فأحسن جوارى ، فلا يعلم عمرو ما يريد ، فيقول له : أتريد أن تشترى دار ابن مسعود ، أم دار ابن حكيم !

قال : وحجّ فى السنّة التى قتل فيها ، فدخل على أمّ سلمة رضى الله عنها ، فقالت له : من أنت ! قال : عراقى ، فاستنسبته ، فذكر لها أنه مولى على بن أبى طالب ، فقالت : أنت هيثم ، قال : بل أنا ميثم^(١) ، فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يوصى بك عليّاً فى جوف الليل ، فسألها عن الحسين بن على ، فقالت : هو فى حائط^(٢) له ، قال : أخبريه أتنى قد أحببتُ السلام عليه ، ونحن ملتقون عند ربّ العالمين ، إن شاء الله ، ولا أقدر اليوم على لقائه ، وأريد الرجوع ، فدعت بطيب فطيّبت لحيته ، فقال لها : أما إنها ستخضب بدم ، فقالت : من أنبأك هذا ؟ قال : أنبأنى سيدي ، فبكّت أمّ سلمة ، وقالت له : إنه ايس بسيدك وحدك ؛ هو سيدي وسيد المسلمين ، ثم ودّعه .

(١) ميثم ، ضبطه صاحب القاموس بكسر الميم .

(٢) الحائط : البستان .

فقدم الكوفة ، فأخذ وأدخل على عبيد الله بن زياد . وقيل له : هذا كان من أثرِ
الناس عند أبي تراب ، قال : ونحكم ! هذا الأعمى ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله :
أين ربك ؟ قال : بالمرصاد ، قال : قد بلغني اختصاصُ أبي تراب لك ، قال : قد كان
بعضُ ذلك ، فما تريد ؟ قال : وإنه ليقال إنه قد أخبرك بما سيَلُفك ، قال : نعم ؛ إنه
أخبرني ، ^(١) قال : ما الذي أخبرك أنى صانع بك ؟ قال : أخبرني أنك تصلبني عاشر عشرة
وأنا أقصرهم خشبة ، وأقربهم من المطهرة ، قال : لأخالفه ، قال : ويحك ! كيف تخالفه ؛
إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر رسول الله عن جبرائيل ، وأخبر جبرائيل
عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفتُ الموضع الذي أصلب فيه أين هو
من الكوفة ؟ وإني لأوّل خلق الله الجيم في الإسلام بلجأيم كما يلجأ الخليل . فحبسه .
وحبس معه المختار بن أبي عبيدة الثقفي ، فقال ميسم للمختار - وهما في حبس ابن زياد : إنك
تُفليت وتخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام ، فتقتل هذا الجبار الذي نحن في سجنه ^(٢) ،
وتطأ بقدمك هذه على جبهته وخدّيه . فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقترله طلع البريد
بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد ، يأمره بتخليّة سبيله ؛ وذلك أن أخته كانت
تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألت بعلها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع ، فأمضى
شفاعته ، وكتب بتخليّة سبيل المختار على البريد ، فوافى البريد ، وقد أخرج ليضرب عنقه ،
فأطلق . وأما ميسم فأخرج بعده ليصلب ؛ وقال عبيد الله : لأمضين حكم أبي تراب فيه ،
فألقى رجل ، فقال له : ما كان أغفأك عن هذا ياميسم ؟ فتبسم ، وقال : لها خلقت ،
ولى غُذيت ؛ فلما رُفِع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث ، فقال
عمرو : لقد كان يقول لى : إني مجاورك ، فكان يأمر جاريته كلَّ عشية أن تسكن تحت
خشبته وترشه ، وتجمّر بالجمر تحته ، فجعل ميسم يحدث بفضائل بني هاشم ، ونخازي

(١) - (١) سائط من ا

(٢) كذا في ا : ج ، وفي ب : « حبسه » .

بنى أمية ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحك هذا العبد ، فقال :
أجوه ، فألجم ، فكان أول خلق الله ألجم في الإسلام . فلما كان في اليوم الثاني فاضت
مُنخراه وفمه دما ، فلما كان في اليوم الثالث طعن بحربة فمات .

وكان قتلُ ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام .

قال إبراهيم : وحدثني إبراهيم بن العباس النهدي ، حدثني مبارك البجلي ، عن
أبي بكر بن عياش ، قال : حدثني المجالد ، عن الشعبي ، عن زياد بن النضر الحارثي ، قال :
كنتُ عند زياد ، وقد أتى برشيد الهجري - وكان من خواص أصحاب علي عليه السلام -
فقال له زياد : ما قال خيلك لك إننا فاعلون بك ؟ قال : تقطعون يدي ورجلي ، وتصلبونني ،
فقال زياد : أما والله لا كذب حديثه ؛ خلوا سبيله ، فلما أراد أن يخرج قال : ردوه ، لا نجد
شيئا أصح مما قال لك صاحبك ؛ إنك لا تزال تنهى لنا سوءا إن بقيت ؛ اقطعوا يديه
ورجلينه ؛ فقطعوا يديه ورجليه ، وهو يتكلم ، فقال : اصلبوه خنقا في عنقه ، فقال رشيد :
قد بقي لي عندي شيء ما أراكم فعلتموه ، فقال زياد : اقطعوا لسانه ، فلما أخرجوا لسانه
ليقطع قال : نفسوا عني أتكلم كلمة واحدة ، فنفسوا عنه ، فقال : هذا والله تصديق خبر
أمير المؤمنين ، أخبرني بقطع لساني . فقطعوا لسانه وصلبوه .

وروى أبو داود الطيالسي ، عن سليمان بن رزيق ، عن عبد العزيز بن صهيب ، قال :
حدثني أبو العالية ، قال : حدثني مزرع^(١) صاحب علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال :
ليقبلن جيش حتى إذا كانوا بالبيداء ، خسف بهم . قال أبو العالية : فقلت له : إنك
لتحدثني بالغيب ! فقال : احفظ ما أقوله لك ، فإنما حدثني به الثقة علي بن أبي طالب .
وحدثني أيضا شيئا آخر : ليؤخذ رجل فليقتل وليصلم بين شرفتين من شرف المسجد ؛
فقلت له : إنك لتحدثني بالغيب ! فقال : احفظ ما أقول لك ؛ قال أبو العالية : فوالله ما أتت

(١) مزرع ، ذكره صاحب تنقيح المقال ٢ : ٢١٠ ، ولم يزد على ما نقله من خبره هنا .

علينا جُمعة حتى أخذ مزرع ، فقتل وصُلب بين شرفتين من شرف المسجد .
قلت : حديث الخُسف بالجيش قد خرّجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يَعُوذُ قَوْمٌ بِالْبَيْتِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ ^(١) خُسِفَ بِهِمْ » ، فقلت : يا رسول الله ، لعلّ فيهم المكره أو السكره ، فقال : « يُخْسَفُ بِهِمْ ، وَلَيْكِن يَحْشَرُونَ » - أو قال : « يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ ^(٢) يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

قال : فسئِل أبو جعفر محمد بن على : أهى بيداء من الأرض ؟ فقال : كَلَّا والله إنها بيداء المدينة . أخرج البخارى بعضه وأخرج مسلم الباقي ^(٣) .
وروى محمد بن موسى العَنَزِيّ ، قال : كان مالك بن ضَمْرَةَ الرُّؤَاسِيّ من أصحاب على عليه السلام ، ومن استبطن من جهته علما كثيرا ، وكان أيضا قد صَحِبَ أَبَا ذَرٍّ ، فأخذ من علمه ، وكان يقول فى أيام بنى أمية : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى الثَّلَاثَةِ ، فيقال له : وما الثلاثة ؟ فيقول : رجلٌ يرمى من فوق طَآرٍ ^(٤) ، ورجلٌ تُقَطَّعُ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَلِسَانُهُ وَيُصَلَّبُ ، ورجلٌ يموت على فراشه . فسكان من الناس من يهزأ به ، ويقول : هذا من أكاذيب أبى تراب . قال : وكان الذى رُمِيَ به من طَآرٍ هَانِيءٌ بنُ عُرْوَةَ ^(٥) ، والذى قُطِعَ وصلب رشيد الهجرى ، ومات مالك على فراشه .

الفصل الرابع وهو من قوله : « فنظرت فى أمرى . . » إلى آخر الكلام ، هذه كلمات

(١) البیداء : كل أرض ملساء لا شئ فيها . (٢) لفظ مسلم : « ولسكنه يبعث يوم القيامة على نيته » .
(٣) صحيح مسلم ٤ : ٢٢٠٩ .
(٤) طمار ، كقطام : المكان المرتفع .
(٥) كذا فى الأصول ، وفى معجم البلدان ٦ : ٥٨ أن الذى رمى به من طمار مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، أمر بإلقائه عبيد الله بن زياد ، وأنشد :

فإن كنت ماتدبرين المالموت فانظري إلى هانيء فى الشوق وابن عَقِيل
إلى بطلٍ قد عقر السيف وجهه وآخر يَهْوَى مِنْ طَآرٍ قَتِيل .

مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه كان معهودا إليه ألا ينازع في الأمر ، ولا يثير فتنة ، بل يطلبه بالرفق ؛ فإن حصل له وإلا أمسك .
هكذا كان بقول عليه السلام ، وقوله الحق ، وتأويل هذه الكلمات : فنظرت فإذا طاعتي لرسول الله صلى الله عليه ، أى وجوب طاعتي ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

قد سبقت بيعتي للقوم ؛ أى وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه ، ووجوب امتثال أمره سابق على بيعتي للقوم ، فلا سبيل لى إلى الامتناع من البيعة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله أمرنى بها .

وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى ؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ على الميثاق بترك الشقاق والمنازعة ، فلم يحل لى أن أعدى أمره ، أو أخالف نهيه .
فإن قيل : فهذا تصريح بمذهب الإمامية .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين ؛ لأنهم يزعمون أنه الأنضل والأحق بالإمامة ، وأنه لولا ما علمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلفين من تقديم المفضول عليه ، لكان من تقدم عليه هالكا ، فرسول الله صلى الله عليه وآله أخبره أن الإمامة حقه ، وأنه أولى بها من الناس أجمعين ، وأعلمه أن فى تقديم غيره وصبره على التأخر عنها مصلحة للدين راجعة إلى المكلفين ، وأنه يجب عليه أن يمسك عن طلبها ، ويُفصى عنها لمن هو دون مرتبته ، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يخرججه تقدم من تقدم عايه من كونه الأفضل والأولى والأحق .
وقد صرح شيخنا أبو القاسم البلخى رحمه الله تعالى بهذا ، وصرح به تلامذته ، وقالوا : لو نازع عقيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه لحكمنا بهلاك كل

من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك مَنْ نازعه حين أظهر نفسه ، ولسكنه مالك الأمر ،
 وصاحب الخلافة ؛ إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق مَنْ ينازعه فيها ، وإذا أمسك
 عنها وجب علينا القولُ بعدالة مَنْ أغضى له عليها ، وحكمه في ذلك حكم رسول الله صلى
 الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت عنه في الأخبار الصحيحة أنه قال : « علىّ مع الحق ، والحق
 مع عليّ يدور حيثما دار » ، وقال له غير مرة : « حربُك حربِي وسِيّمتُك سِيّمتِي » .
 وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندي ، وبه أقول .

(٣٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأفضل :

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا
الْيَقِينُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى . وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ فِيهَا ^(١) الضَّلَالُ ،
وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى .

فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحْبَبَهُ .

البشرح :

هذان فصلان ، أحدهما غير ملقَّب مع الآخر ، بل مبتور عنه ؛ وإنما الرضى رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطا ، ومراده أن يأتي بفصيح كلامه عليه السلام ، وما يجرى مجرى الخطابة والكتابة ، فلهذا يقع في الفصل الواحد الكلام الذى لا يناسب بعضه بعضا ؛ وقد قال الرضى ذلك في خطبة الكتاب ^(٢) .

أما الفصل الأول فهو الكلام فى الشُّبْهَةِ ، ولماذا سُمِّيَتِ شُبْهَةً ، قال عليه السلام : « لَأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ » ؛ وهذا هو محض ما يقوله المتكلمون ؛ ولهذا يسمون ما يحتج به أهل الحق دليلًا ، ويسمون ما يحتج به أهل الباطل شُبْهَةً .

قال : « فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِي حَلِّ الشُّبْهَةِ الْيَقِينُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى » ؛ وهذا حق لأن من اعتبر مقدّمات الشُّبْهَةِ ، وراعى الأمور اليقينية ، وطلب المقدّمات المعلومة قطعًا ، انحلت الشُّبْهَةُ ، وظهر له فسادها من أين هو ؟ ثم قال : « وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ

(٢) الجزء الأول ص ٥٣ .

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

الضلال ، ودليلهم العمى ، وهذا حق ؛ لأن المبطل ينظر في الشبهة ، لا نظر من راعى الأمور اليقينية ، ويحتمل المقدمات إلى القضايا المعلومة ؛ بل يغلب عليه حب المذهب ، وعصبية أسلافه ، وإيثار نصره من قد ألزم بنصرته ، فذاك هو العمى والضلال ، اللذان أشار أمير المؤمنين إليهما ، فلا تنحل الشبهة له ، وتزداد عقيدته فسادا ، وقد ذكرنا في كتبنا الكلامية الكلام في توليد النظر للعلم ؛ وأنه لا يولد الجهل .

الفصل الثانى ، قوله : « فما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه » ؛ هذا كلام أجنبي عما تقدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَهَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٣) .

(١) سورة آل عمران ١٥٤

(٢) سورة النساء ٧٨ .

(٣) سورة الأعراف ٣٤ .

(٣٩)

ومن خطبة له عليه السلام

الأصل :

مُنِيتُ رِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ ، وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ ، لَا أَبَا لَكُمْ !
مَا تَلْقَظُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبِّكُمْ ! أَمَّا دِينَ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حِمَّةَ تَحْمِشُكُمْ ! أَقُومُ فِيكُمْ
مُسْتَصْرِخًا ، وَأُنَادِيكُمْ مُتَفَوِّئًا ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا ، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْرًا ، حَتَّى
تَكْشِفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ ، فَمَا يُدْرِكُ بِكُمْ نَارٌ ، وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ .
دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرَّ جَرُّهُمْ جَرَّ جَرَّةِ الْجَمَلِ الْأَمْرِ ، وَتَنَاقَلْتُمْ
تَنَاقُلَ النَّضْوِ الْأَذْبَرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَارِبٌ ضَعِيفٌ ؛ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ
إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السلام : « مُتَذَارِبٌ » أى مُضْطَرِبٌ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ : تَذَاءَبَتِ الرَّيْحُ ، أَيْ
اضْطَرَبَ هُبُوبُهَا ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الذَّنْبُ ذَنْبًا لِاضْطِرَابِ مِشْيَتِهِ .

الْبَيْخُ :

مُنِيتُ ، أَيْ بُلِيتُ . وَتَحْمِشُكُمْ : تُفْضِيْكُمْ ، أَحْمَشُهُ أَيْ أَغْضِبُهُ . وَالْمُسْتَصْرِخُ :
الْمُسْتَنْصِرُ . وَالتَّفَوُّثُ : الْقَاتِلُ ؛ وَاغْوَاهُ !

وَبَجَرَة : صوت يردده البعير في حَنَجَرَتِهِ ؛ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ الْإِغْيَاءِ
وَالثَّب . وَالْجَلَّ الْأَسْرَ : الَّذِي بِكَرِّ كَرَّتِهِ دَبَرَةٌ^(١) . وَالنَّضْوُ : الْبَعِيرُ الْمَهْزُولُ وَالْأَذْبَرُ :
الَّذِي بِهِ دَبَرٌ ؛ وَهُوَ الْمَعْقُورُ مِنَ الْقَتَبِ وَغَيْرِهِ .

هَذَا الْكَلَامُ خَطَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي غَارَةِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ
عَلَى بَيْنِ التَّمَرِ^(٢) .

[أَمْرُ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ مَعَ عَلِيٍّ وَمَالِكِ بْنِ كَعْبٍ الْأَرْحَجِيِّ]

ذَكَرَ صَاحِبُ الْغَارَاتِ أَنَّ النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ قَدِيمٌ هُوَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ عَلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
مِنْ نَدِ مَعَاوِيَةَ ، بَعْدَ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ ، يُسَالُّانِهِ أَنْ يَدْفَعَ قَتْلَةَ عُثْمَانَ إِلَى مَعَاوِيَةَ لِيُقَيِّدَهُمْ
بَعْمًا ؛ لَعَلَّ الْحَرْبَ أَنْ تُطْفَأَ ؛ وَيَصْطَلِحَ النَّاسُ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ مَعَاوِيَةَ أَنْ يَرْجِعَ مِثْلُ
النَّعْمِ ، وَأَبَى هُرَيْرَةَ مِنْ عِنْدِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّاسِ ، وَهُمْ لِمَعَاوِيَةَ عَاذِرُونَ وَلَعَلَّ
لَا تُؤْمَنُ ؛ وَقَدْ عَلِمَ مَعَاوِيَةَ أَنَّ عَلِيًّا لَا يَدْفَعُ قَتْلَةَ عُثْمَانَ إِلَيْهِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ هَذَا
يُشْمُ أَنْ لَهُ عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ بِذَلِكَ ، وَأَنْ يَظْهَرَ عِزُّهُ ، فَقَالَ لَهَا : ائْتِيَا عَلِيًّا فَانْشُدَاهُ اللَّهَ ،
وَسَاءَ هَ اللَّهُ لِمَا دَفَعَ إِلَيْنَا قَتْلَةَ عُثْمَانَ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ آوَاهُمْ وَمَنْعَهُمْ ؛ ثُمَّ لَا حَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ،
فَإِنْ بِي فَكَوْنُوا شُهَدَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَأَقْبَلَا عَلَى النَّاسِ فَأَعْلَاهُم ذَلِكَ ، فَاتِيَا إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَدَخَلَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ
أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا أَبَا حَسَنَ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لَكَ فِي الْإِسْلَامِ فَضْلًا وَشَرَفًا ؛ أَنْتَ ابْنُ عِمْرَانَ مُحَمَّد
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ ابْنَ عَمَّتِكَ مَعَاوِيَةَ ، يُسَالُّكَ أَمْرًا تَسْكُنُ بِهِ هَذِهِ

(١) الْكَرْكِرَةُ ، بِالْكَسْرِ : زُورُ الْبَعِيرِ . وَالْدَبَرَةُ : قَرْحَةُ الدَّابَّةِ .

(٢) عَيْنُ التَّمَرِ : بَلَدَةٌ فِي طَرَفِ الْبَادِيَةِ ؛ عَلَى غَرْبِ الْفَرَاتِ .

الحرب ، ويُصلح الله تعالى ذاتَ البين ؛ أن تدفع إليه قتلةَ عثمان ابن عمه ، فيقتلهم به ،
ويجمع الله تعالى أمرك وأمره ، ويصلح بينكم ، وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة . ثم
تكلم النعمانُ بنحوٍ من ذلك ^(١) .

فقال لهما : دَعَا الكلام في هذا ؛ حدَّثني عنك يانعمان ، أنت أهدي قومك سبيلا ؟
يعني الأنصار ، قال : لا ، قال : فكلَّ قومك قد اتَّبَعني إلَّا شُذَّاذًا ؛ منهم ثلاثة
أو أربعة ؛ أفتكون أنت من الشُّذَّاذِ ! فقال النعمان : أصَلَحَكَ اللهُ ، إمَّا جئتُ لِأَكُونَ
معك وَأَزِمَكَ ؛ وقد كان معاويةُ سألني أن أؤدِّيَ هذا الكلام ، ورجوتُ أن يكونَ لي
موقفٌ أَجْتَمِعُ فيه معك ، وطمعتُ أن يُجْزِيَ اللهُ تعالى بينكما صلحا ؛ فإذا كان غير
ذلك رأيك ، فأنا مُلَازِمك وكائن معك .

فأما أبو هريرةَ فلحق بالشام ، وأقام النعمانُ عند عليٍّ عليه السلام ، فأخبر أبو هريرة
معاويةَ بالخبر ، فأمره أن يُعَلِّمَ الناس ، ففعل ، وأقام النعمانُ بعده شهرا ، ثم خرج فارًّا من عليٍّ
عليه السلام ، حتى إذا مرَّ بعين التَّمْرِ أخذَه مالك بن كعب الأرحبي - وكان عاملَ عليٍّ
عليه السلام عليها - فأرادَ حبسه ، وقال له : مامرَّ بك بيننا ^(٢) ! قال : إمَّا أنا رسولُ بَلَّغْتُ
رسالةَ صاحبي ، ثم انصرفت ، فحبسه وقال : كما أنت ؛ حتى أكتبَ إلى عليٍّ فيك .
فناشده ، وعظَّم عليه أن يكتبَ إلى عليٍّ فيه ، فأرسل النعمانُ إلى قرظة بن كعب
الأنصاري - وهو كاتب عَيْن التَّمْرِ يجيئ خِزَاجَها لعلِّي عليه السلام - فجاءه مسرِّعا ، فقال
لمالك بن كعب : خلَّ سبيلَ ابن عمي ؛ يرحمك اللهُ ! فقال : يا قرظة ؛ اتَّقِ اللهُ ولا تتكلم
في هذا ، فإنه لو كان من عُبَاد الأنصار ونُساكهم لم يهرُب من أمير المؤمنين إلى
أمير المنافقين .

فلم يزلْ به يقسم عليه حتى خلى سبيلَه ، وقال له : يا هذا ، لك الأمان اليوم . والليـلة .

(١) ب : « هذا » .

(٢) ب : « هاهنا » .

وغدا ، والله إن أدركتك بعدها لأضربن عنقك ، فخرج مسرعا لا يلوي على شيء ،
 وذهبت به راحلته ، فلم يدري أين يتسكع من الأرض ثلاثة أيام ، لا يعلم أين هو ! فكان
 النعمان يحدث بعد ذلك ، يقول : والله ما علمت أين أنا ، حتى سمعت قول قاتلة تقول
 وهي تطحن :

شَرِبْتُ مع الجوزاء كأساً رَوِيَّةً ^(١) وَأُخْرَى مع الشعري إذا ما اسْتَقَلَّتْ
 مُعْتَمَّةً كانت قَرِيشٌ تَصُونُهَا فَلَمَّا اسْتَحَلُّوا قَتَلَ عُمَانَ حَلَّتْ
 فعلمتُ أني عند حيٍّ من أصحاب معاوية ، وإذا الماء لبني القَيْنِ ، فعلمتُ أني قد انتهيتُ
 إلى الماء ^(٢) .

ثم قدم على معاوية فخبره بما لقي ، ولم يزل معه مصاحباً ؛ لم يجاهد عليا ، ويتبع قتلة
 عثمان ؛ حتى غزا الضحاك بن قيس أرض العراق ؛ ثم انصرف إلى معاوية ؛ وقد كان معاوية
 قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة : أما من رجل أبعث به ^(٣) بجريدة خيل ؛ حتى يُغيرَ على
 شاطئ الفرات ، فإن الله يُرعبُ بها أهلَ العراق ! فقال له النعمان : فأبعثني ؛ فإن لي في
 قتالهم نيةٌ وهوى . وكان النعمان عثمانياً . قال : فانتدب على اسم الله ، فانتدبَ وندبَ معه
 ألفي رجل ، وأوصاه أن يتجنب المدن والجماعات ، وألا يُغيرَ إلا على مسلحة ، وأن
 يعجل الرجوع .

فأقبل النعمان بن بشير ؛ حتى دنا من عين التمر ، وبها مالك بن كعب الأرحبي
 الذي جرى له معه ماجرى ^(٤) ، ومع مالك ألف رجل ؛ وقد أذن لهم ، فرجعوا إلى الكوفة ،
 فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها ، فكتب مالك إلى علي عليه السلام : أما بعد ؛ فإن النعمان
 ابن بشير ، قد نزل بي في جمع كثيف ، قر رأيك ، سدّدك الله تعالى وثبتك . والسلام .
 فوصل الكتاب إلى علي عليه السلام ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) ب : « ردية » ، وصوابه من ج . (٢) كذا في الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها « الأمان » .
 (٣) ب : « معه » .
 (٤) ب : « ما ذكرناه » .

اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإن النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام ؛ ليس بالكثير ؛ فانهضوا إلى إخوانكم ، لعل الله يقطعُ بكم من الكافرين طرفاً . ثم نزل .

فلم يخرجوا ، فأرسل إلى وجوههم وكبرائهم ، فأمرهم أن ينهضوا ويحتوا الناس على المسير ، فلم يصنعوا شيئاً ، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أو دونها ، فقام عليه السلام ، فقال : ألا إني مُنيت بمن لا يطيع . . . الفصل الذي شرحناه إلى آخره ، ثم نزل .

فدخل منزله ، فقام عدى بن حاتم ، فقال : هذا والله الخذلان ؛ على هذا بايعنا أمير المؤمنين ! ثم دخل إليه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن معي من طيئ ألف رجل لا يعصونني ؛ فإن شئت أن أسير بهم سرت . قال : ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس ولكن اخرج إلى النخيلة فعسكر بهم . وفرض على عليه السلام لكل رجل سبعمائة ؛ فاجتمع إليه ألف فارس ، عدا طيئنا أصحاب عدى بن حاتم . وورد على عليه السلام الخبرُ بهزيمة النعمان بن بشير وأنصرة مالك بن كعب ؛ فقرأ الكتاب على أهل الكوفة ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم نظر إليهم وقال : هذا بحمد الله وذنم أكرهكم .

فأما خبرُ مالك بن كعب مع النعمان بن بشير ؛ قال عبد الله بن حوزة الأزدي : قال : كنتُ مع مالك بن كعب حين نزل بنا النعمان بن بشير ، وهو في ألفين ؛ وما نحن إلا مائة فقال لنا : قاتلوهم في القرية ، واجعلوا الجُدُر في ظهوركم ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ؛ واعلموا أن الله تعالى ينصر العشرة على المائة ، والمائة على الألف ، والقليل على الكثير . ثم قال : إن أقربَ من هاهنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قرظة بن كعب

وَمُخَنَّفُ بْنُ سُلَيْمٍ؛ فَارْكُضُ إِلَيْهِمَا، فَأَعْلَمَهُمَا حَالَنَا، وَقُلْ لَهَا: فَلْيَنْصُرْنَا مَا اسْتَطَاعَا^(١)، فَأَقْبَلْتُ أَرْكُضُ؛ وَقَدْ تَرَكْتُهُ وَأَصْحَابَهُ يَرْمُونَ أَصْحَابَ ابْنِ بَشِيرٍ بِالنَّبِيلِ، فَفَرَرْتُ بِقَرْظَةٍ فَاسْتَصْرَخْتُهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا صَاحِبُ خَرَّاجٍ؛ وَلَيْسَ عِنْدِي مِنْ أَعْيُنِهِ بِهِ. فَضَيْتُ إِلَى مُخَنَّفِ بْنِ سُلَيْمٍ، فَأَخْبَرْتَهُ الْخَبْرَ، فَسَرَّحَ مَعِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُخَنَّفٍ فِي خَمْسِينَ رَجُلًا، وَوَقَاتِلَ مَالِكُ بْنُ كَعْبٍ النُّعْمَانَ وَأَصْحَابَهُ إِلَى الْعَصْرِ، فَأَتَيْنَاهُ وَقَدْ كَسَّرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ جَفُونَ سَيُوفِهِمْ، وَاسْتَقْبَلُوا الْمَوْتَ^(٢)، فَلَوْ أَبْطَأْنَا عَنْهُمْ هَلَكُوا، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَى أَهْلُ الشَّامِ، وَقَدْ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِمْ؛ فَأَخَذُوا يَنْكُصُونَ عَنْهُمْ وَيَرْتَفِعُونَ، وَرَأَى مَالِكُ وَأَصْحَابُهُ، فَشَدُّوا عَلَيْهِمْ حَتَّى دَفَعُوهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ، فَاسْتَعْرَضْنَاهُمْ، فَصَرَعْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا ثَلَاثَةَ، وَارْتَفَعَ الْقَوْمُ عَنَّا، وَظَنُّوا أَنْ وِرَاءَنَا مَدَدًا؛ وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُنَا لَأَقْبَلُوا عَلَيْنَا وَلَأَهْلَكُونَا، وَحَالَ اللَّيْلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَانْصَرَفُوا إِلَى أَرْضِهِمْ. وَكَتَبَ مَالِكُ بْنُ كَعْبٍ إِلَى عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بَنُو النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ فِي جَمْعٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، كَالظَّاهِرِ عَلَيْنَا، وَكَانَ عَظَمُ^(٣) أَصْحَابِي مُتَفَرِّقِينَ، وَكُنَّا الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ آمِنِينَ؛ فَخَرَجْنَا إِلَيْهِمْ رَجَالًا مُصَلِّتِينَ^(٤)، فَخَفَاتِلْنَاهُمْ حَتَّى الْمَسَاءِ، وَاسْتَصْرَخْنَا مُخَنَّفُ بْنُ سُلَيْمٍ، فَبَعَثَ إِلَيْنَا رَجَالًا مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَدَهُ؛ فَنَعَمْ الْفَتَى وَنَعَمْ الْأَنْصَارُ كَانُوا؛ فَخَمَلْنَا عَلَى عَدُوِّنَا وَشَدَدْنَا عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا نَصْرَهُ، وَهَزَمَ عَدُوَّهُ، وَأَعَزَّ جَنْدَهُ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالسَّلَامُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ.

(١) كَذَا فِي أ، ح، وَفِي ب: «بِمَا اسْتَطَاعَا».

(٢) ب: «وَاسْتَقْبَلُوا لِلْمَوْتِ».

(٣) عَظَمُ الشَّيْءُ؛ أَيُّ مَعْظَمِهِ.

(٤) يُقَالُ: أَصْلَحَ الرَّجُلُ السَّيْفَ؛ إِذَا جَرَدَهُ مِنْ غِمْدِهِ.

وروى محمد بن فرات الجرمي ، عن زيد بن علي عليه السلام ، قال : قال علي عليه السلام في هذه الخطبة : أيها الناس ، إني دعوتكم إلى الحق فتوليتُم عني ، وضربتكم بالدِّرّة فأعيتُموني ؛ أما إنه سَيلَكم بعدى ولائاً لا يرضون عنكم بذلك حتى يعذبوكم بالسياط والحديد ، فأما أنا فلا أعذبكم بهما ؛ إنه من عذب الناس في الدّنيا عذبه الله في الآخرة ؛ وآية ذلك أن يأتِيَكُم صاحبُ اليمين ، حتى يحلّ بين أظهركم ؛ فيأخذ العمال والعمال^(١) ؛ رجل يقال له يوسف بن عمرو ؛ ويقوم عند ذلك رجل من أهل البيت ، فانصروه فإنه داع إلى الحق .

قال : وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام .

(١) ساقطة من ب .

(٤٠)

ومن كلام له عليه السلام للخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » قال :

الأصل :

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ؛ نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ، وَلَسَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ :
لَا إِمْرَةَ ^(١) . وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ ،
وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ ، وَيُبْلَغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ ، وَيُقَاتَلُ بِهِ
الْعَدُوُّ ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ ، وَيُؤْخَذُ بِهِ الضَّعِيفُ مِنَ الْقَوَى ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ،
وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ .

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال :
حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ .

وقال :

أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا ^(٢) الشَّقِيُّ ؛
إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مَدَّتُهُ ، وَتُذْرِكَ مَنِيَّتُهُ .

[اختلاف الرأي في القول بوجوب الإمامة]

البيان :

هذا نص صريح منه عليه السلام ؛ بأن الإمامة واجبة ؛ وقد اختلف الناس في هذه

(١) ب : « لا إمرة إلا لله » وما أنبته عن ١ ، ج وخطوطه النهج .

(٢) ١ : « بها » .

المسألة فقال المتكلمون كافة : الإمامة واجبة ؛ إلا ما يحكى عن أبى بكر الأصم من قدماء أصحابنا أنها غير واجبة ؛ إذا تناصفت الأمة ؛ ولم تنظالم .

وقال المتأخرون من أصحابنا : إن هذا القول منه غير مخالف لما عليه الأمة ؛ لأنه إذا كان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم ؛ فقد قال بوجوب الرياسة على كل حال ؛ اللهم إلا أن يقول : إنه يجوز أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس ؛ وهذا بعيد أن يقوله ؛ فأما طريق وجوب الإمامة ماهى ؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون : طريق وجوبها الشرع ، وليس في العقل ما يدل على وجوبها .

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى : إن العقل يدل على وجوب الرياسة ؛ وهو قول الإمامية ، إلا أن الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذى توجب الإمامية منه الرياسة ، وذلك أن أصحابنا يوجبون الرياسة على المكلفين ، من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية ، ودفع مضار دنيوية . والإمامية يوجبون الرياسة على الله تعالى ، من حيث كانت في الرياسة لطف وبعد للمكلفين عن مواجهة القباح العقلية .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابق ما يقوله أصحابنا ، ألا تراه كيف علل قوله : « لا بد للناس من أمير » ، فقال في تعليقه : « يُجْمَع به الفىء ، ويقا تل به العدو وتؤمن به الشبل ، ويؤخذ للضعيف من القوى » ! وهذه كلها من مصالح الدنيا .

فإن قيل : ذكرتم أن الناس كافة قالوا بوجوب الإمام ، فكيف يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنهم يقولون : « لا إمرة » !

قيل : إنهم كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك ، ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام ، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي .

فإن قيل : فسروا لنا أفعال المؤمنين عليه السلام .
 قيل : إن الألفاظ كلها ترجع إلى إمارة الفاجر .
 قال : يعمل فيها المؤمن ، أى ليست بمعاملة للمؤمن من العمل ، لأنه يمكنه أن يصلى
 ويصوم ويتصدق ؛ وإن كان الأمير فاجراً فى نفسه .

ثم قال : « ويستمتع فيها الكافر » أى يتمتع ببدته ، كما قال سبحانه للكافرين :
 ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (١) .

ويبلغ الله فيها الأجل ، لأن إمارة الفاجر إمارة البر ، فى أن المدة المضروبة فيها تنتهى
 إلى الأجل المؤقت للإنسان .

ثم قال : « ويُجمع به الفى » ، ويُقاتل به العدو ، وتأمين به السبل ، ويُؤخذ به للضعيف
 من القوى ، وهذا كله يمكن حصوله فى إمارة الفاجر القوى فى نفسه ، وقد قال رسول
 الله صلى الله عليه وآله : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ، وقد اتفقت المعتزلة
 على أن أمراء بنى أمية كانوا فُجَّاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد .
 وكان الفى يُجمع بهم ، والبلاد تُفتح فى أيامهم ، والثغور الإسلامية محصنة مُحَوطة ،
 والسبيل آمنة ، والضعيف منصور على القوى الظالم ؛ وما ضرَّ فجورهم شيئاً فى هذه الأمور .
 ثم قال عليه السلام : فتسكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريح برِّ بموته ، أو يُستراح من
 فاجر بموته أو عزله .

فأما الرواية الثانية ، فإنه قد جعل التقى يعمل فيها للإمرة البرّة خاصة (٢) .

وباقى الكلام غنى عن الشرح .

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

(٢) كذا فى ج ، وهو الوجه ، وفى به : « يعمل فيها التقى للإمرة خاصة » .

[من أخبار الخوارج أيضاً]

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدث في كتاب "صيقين" ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن خالد بن حميد المصري ، عن عمر مولى غفرة ، قال : لما رجع على عليه السلام من صيقين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى جئوا^(١) ، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حروراء ، فنادوا : لا حكم إلا لله ولو كره المشركون ؛ إلا إن علينا معاوية أشركا في حكم الله .

فأرسل على عليه السلام إليهم عبد الله بن عباس ، فنظر في أمرهم وكلمهم ، ثم رجع إلى على عليه السلام ، فقال له : مارأيت ؟ فقال ابن عباس : والله ما أدري ما هم ! فقال له على عليه السلام : رأيتهم منافقين ؟ قال : والله ما سباهم بسيا منافقين ؛ إن بين أعينهم لأثر السجود ، وهم يتأولون^(٢) القرآن . فقال على عليه السلام : دعوهم ما لم يفسدوا دما ، أو يفصبوا مالا ، وأرسل إليهم : ما هذا الذي أحدثتم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نخرج نحن وأنت ومن كان معنا بصيقين ثلاث ليال ، وتوب إلى الله من أمر الحكمين ، ثم نسير إلى معاوية ، فنقاتله حتى يحكم الله بيننا وبينه . فقال على عليه السلام : فهلا قلتم هذا حين^(٣) بعثنا الحكمين ، وأخذنا منهم العهد ، وأعطيناهموه ! ألا قلتم هذا حينئذ ! قالوا : كنا قد طال الحرب علينا ، واشتد البأس ، وكثر الجراح ، وخلا الكراع وال سلاح ، فقال لهم : ألحين اشتد البأس عليكم ، عاهدتم ، فلما وجدتم الجاهل قاتم : ننقض العهد ! إن رسول الله كان يفي للمشركين ، أفأمرؤنني بنقضه ! فكتبوا مكانهم لا يزال الواحد منهم يرجع إلى على عليه السلام ، ولا يزال الآخر

(١) الجاهل ، بالفتح : الراحة .

(٢) ١ : د ويتأولون .

(٣) كنا في أ ، ج ، وفي ب : د حيث .

نرج من عند عليّ عليه السلام ، فدخل واحد منهم كلّي عليّ عليه السلام بالمسجد ،
الناس حوله ، فصاح : لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، فتلفت الناس ، فنادى :
« حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُتَلَفِّتُونَ » ، فرفع^(١) عليّ عليه السلام رأسه إليه ، فقال :
« حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَوْ كَرِهَ أَبُو حَسَنٍ . فقال عليّ عليه السلام : « إِنْ أَبَا الْحَسَنِ^(٢) لَا يَكْرَهُ
نَ يَكُونُ الْحُكْمَ لِلَّهِ^(٣) » ، ثم قال : حُكْمَ اللَّهُ أَنْتَظِرَ فِيكُمْ ، فقال له الناس : هَلَا مِلْتَ
إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَؤُلَاءِ فَأَنْفَيْتَهُمْ ! فقال : إِنْهُمْ لَا يَفْنَوْنَ ، إِنْهُمْ لَفِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ
وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

ورى أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ الْمَدَنِيُّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَوْمًا يَوْمُ النَّاسِ ، وَهُوَ يَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ ،
فَجْهَرُ ابْنِ الْكُؤَاءِ مِنْ خَلْفِهِ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكْتَ آيَحْيَبْنَ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٤) ، فلما جهر ابن الكؤاء
وهو خلفه بها سكّت عليّ ، فلما أنهاها ابن الكؤاء عاد عليّ عليه السلام ، فأنتم قراءته ،
فلما شرع عليّ عليه السلام في القراءة أعاد ابن الكؤاء الجهر بتلك الآية ، فسكّت عليّ ،
فلم يزل كذلك يسكّت هذا ، ويقرأ ذاك مرارا ، حتى قرأ عليّ عليه السلام : ﴿ فَأَصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾^(٥) ، فسكّت ابن الكؤاء ، وعاد
عليه السلام إلى قراءته .

(١) ب : « فرجع » ، وما أثبتته عن أ ، ج .
(٢ - ٣) ب : « لا يكره أن يكون الحكم إلا لله » .
(٣) سورة الزمر ٦٥ .
(٤) سورة الروم ٦٠ .

(٤١)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأفضل :

إِنَّ^(١) الْوَفَاءَ تَوْءَمُ الصَّدَقِ ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْفَى مِنْهُ ، وَمَا^(٢) يَغْدِرُ مَنْ عِلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ .

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدْ أَتَدَّ أَكْثَرُ أَهْلِ الْقَدَرِ كَيْسًا ، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ .

مَا لَهُمْ فَاتَلَهُمُ اللَّهُ ! قَدْ يَرَى الْخَوَلُ الْقُلُوبُ وَجَهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَا نَبِعَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ ، فَيَدْعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَذْتَهِرُ فِرَاصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيحَةَ لَهُ فِي اللَّهِ بْنِ .

الْبَيِّنُ :

يقال : هذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، وهما توءمان ؛ وإنما جُعِلَ الوفاء توءم الصدق ؛ لأنَّ الوفاء صدقٌ في الحقيقة ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ عَاهَدَ عَلَى أَمْرٍ وَصَدَقَ فِيهِ وَلَمْ يُخْلِفْ ؛ وَكَأَنَّهُمَا أَعَمَّ وَأَخَصَّ ، وَكُلُّ وَفَاءٍ صَدَقَ وَلَيْسَ كُلُّ صَدَقٍ وَفَاءً ، فَإِنْ امْتَنَعَ مِنْ حَيْثُ الاصْطِلَاحُ تَسْمِيَةُ الْوَفَاءِ صَدَقًا فَلَا أَمْرَ آخَرَ ؛ وَهُوَ أَنَّ الْوَفَاءَ قَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ دُونَ الْقَوْلِ ، وَلَا يَكُونُ الصَّدَقُ إِلَّا فِي الْقَوْلِ ؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَبَرِ ، وَالْخَبَرُ قَوْلٌ .

(١) قبلها في مخطوطة النهج : « أيها الناس » .

(٢) ب « ولا » .

ثم قال : « ولا أعلم جنة » أى درعا . أوفى منه ، أى أشد وقاية وحفظا ، لأن الوفاء محفوظ من الله ، مشكور بين الناس .

ثم قال : « وما يغدر من علم كيف المرجع » ، أى من علم الآخرة وطوى عليها عقيدته ، منعه ذلك أن يغدر ؛ لأن الغدر يُحيط بالإيمان .

ثم ذكر أن الناس فى هذا الزمان ينسبون أصحاب الغدر إلى الكينس ، وهو الفطنة والدكاء ، فيقولون لمن يخدع ويغدر ، ولأرباب الجريرة والمكر : هؤلاء أذكىاء أكياس ؛ كما كانوا يقولون فى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وينسبون أرباب ذلك إلى حسن الحيلة وصحة التدبير .

ثم قال : « ما لهم قاتلهم الله ! دعاء عليهم .

ثم قال : قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ، ويمنعه عنها نهى الله تعالى عنها ، وتحريمه بعد أن قدر عليها ، وأمكنه . والحول القلب : الذى قد تحول وتقلب فى الأمور وجرب ، وحنكته الخطوب والحوادث .

ثم قال : « ويتمهن فرصتها » ، أى يبادر إلى افتراضها ويفتنمها . من لا حريجة له فى الدين ، أى ليس بذى حرج ، والتخرج : التأثم . والحريجة : التقوى ؛ وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته ، ملك أهل الشام الماء عليه ، والشرية بصقين ، وأرادوا قتله وقتل أهل العراق عطشا ؛ فضاربهم على الشريعة حتى ملكها عليهم ، وطردهم عنها ، فقال له أهل العراق : اقتلهم بسيوف العطش ، وامنعهم الماء ، وخذهم قبضا بالأيدي ؛ فقال : إن فى حد السيف لغنى عن ذلك ، وإنى لأستحل منعمهم الماء . فأفرج لهم عن الماء فورده ، ثم قاسمهم الشريعة شطرين بينهما وبينه . وكان الأشتر يستأذنه أن يبيت^(١) معاوية ، فيقول :

(١) يقال : بيت العدو ، أى قصده فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، وهو البيت .

إنّ رسول الله صلى الله عليه نهى أن يُدبَّت المشركون ، وتوارث بنوه عليه السلام هذا الخلق الأبى .

أراد المضاء أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فنفعه إبراهيم بن عبد الله^(١) .

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد وُلِّيَ لأبى جعفر المنصور بعض أعمال بفارس ، فقال له : هل عندك مال ! قال : لا ، قال : آله ؟ قال : آله . قال : خلّوا سبيله ، فخرج ابن قحطبة ، وهو يقول بالفارسة : ليس هذا من رجال أبى جعفر . وقال لعبد الحميد بن لاحق : بلغنى أن عندك مالا للظلمة ، يعنى آل أبى أيوب المورىانى كاتب المنصور ، فقال : ما لهم عندى مال ، قال : تُقسِم بالله ا قال : نعم ، فقال : إن ظهر لهم عندك مال لأعدّ نك كذابا^(٢) .

وأرسل إلى طلحة الغدرى - وكان المنصور عنده مال - : بلغنا ؛ أنّ عندك مالا فأنتنا به ، فقال : أجل ، إنّ عندى مالا ، فإن أخذته منى أغرمنيه أبو جعفر ، فأضرب عنه . وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبى طالب من هذا النوع أخبار كثيرة ، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسبيل ، وإنما يطلبونها ليقموا عمود الدين بالإمرة فيها ، فلم يستقم لهم ، والدنيا إلى أهلها أميل .

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ دخل البصرة على عهد أبى جعفر المنصور ودعا الناس إلى أخيه محمد بن عبد الله فبايحه كثيرون من أهلها ، ثم استولى على الأهواز وواسط ، ولم يزل يهاجى أناه نعى أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام ، فأرسل إليه أبو جعفر قائده عيسى بن موسى ، فخرج إبراهيم للقاءه ؛ والتقىا عند باخرى وكانت العاقبة لعيسى ، وقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥ ، والمضاء أحد رجاله . مقاتل الطالبين ٣١٥ وما بعدها ، وتاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٤٥) .

(٢) مقاتل الطالبين ٣٣٣ .

[الأخبار والأحاديث والآيات الواردة في مدح الوفاء وذم الغدر]

ومن الأخبار النبوية المرفوعة في ذم الغدر : « ذمة المسلمين واحدة ، فإن جارت عليهم أمة منهم ، فلا تخفروا جوارها ، فإن لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » (١) .
وروى أبو هريرة ، قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يبيع طعاما فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأمر أبا هريرة أن يدخل فيه يده ، فأدخلها فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ليس منا من غش » .

قال بعضُ الملوك لرسولٍ وردَ إليه من ملكٍ آخر : أطلعني على سيرِ صاحبك ، فقال : أيها الملك ، إننا لا نستحسن الغدر ، وإنه لو حوّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قُبْحه ، ولما كان سماجة اسمه وبشاعة ذكره ناهيين عنه .

مالك بن دينار ؛ كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة .
وقع جعفر بن يحيى على ظهر كتاب كتبه على بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد ، يسعى (٢) فيه بالبرامكة ، فدفعه الرشيد إلى جعفر ، يمن به عليه ، وقال : أحبه عنه ، فكتب في ظاهره : حَبَّبَ الله إليك الوفاء يا أخى فقد أبفضته ، وبغض إليك الغدر فقد أحببته ، إنى نظرت إلى الأشياء حتى أجده لك فيها مشبها فلم أجده ، فرجعت إليك ، فشبّهت بك ؛ ولقد بلغ من حسن ظنك بالأيام أن أملت السلامة مع البغى ، وليس هذا من عادتها . والسلام .

كان العهد في عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كتبه السقّاح ، فلما طالت أيام المنصور ، سامه أن يتخلع نفسه من العهد ، ويقدم محمداً المهدي عليه ، فكتب إليه عيسى :
بَدَتْ لِي أَمَارَاتُ مِنَ الْغَدْرِ شَتْمُهَا أَرَى مَا بَدَا مِنْهَا سَيِّمُ طَرِكُكُمْ دَمًا

(١) نقله السيوطي في الجامع الصغير ٢ : ٣٠ عن الحاكم ، مع اختلاف في الرواية .

(٢) السعى هنا : الوشاية .

وَمَا يَعْلَمُ الْعَالِي مَتَى هَبْطَاتُهُ وَإِنْ سَارَ فِي رِيحِ الْغُرُورِ مُسَلِّمًا
أَبُو هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَبُئْسَ الضَّجِيعُ ، وَأَعُوذُ بِكَ
مِنَ الْخِيَانَةِ فَبُئْسَتِ الْبَطَانَةُ ! » .

وعنه مرفوعاً : « الْمُسْكِرُ وَالْخَدِيعَةُ وَالْخِيَانَةُ فِي النَّارِ » .

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب ، عند زوال أمره : أرى أن تصير إلى هؤلاء ،
فلعلك أن تنفعني في مخلفي ، فقال : وكيف لي بعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك ! إنهم
ليقولون كلهم : إني غدرتُ بك ، ثم أنشد :

وَعَذْرِي ظَاهِرٌ لَأَشْكُ فِيهِ لِمَبْصَرِهِ وَعَذْرِي بِالْغَيْبِ

فلما ظفر به عبد الله بن عليّ ، قطع يديه ورجليه ، ثم ضرب عنقه .

كان يقال : لا يغدر غادر إلا لصغر همته عن الوفاء ، واتضاع قدره عن احتمال المكاره
في جنب نيل المكارم .

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : الوفاء لأهل الغدر غدر ، والغدرُ بأهل الغدر وفاء
عند الله تعالى .

قلت : هذا إنما يريد به إذا كان بينهما عهد ومُشارطة ، فغدر أحد الفريقين ، وخاس
بشرطه ، فإن لا آخر أن يغدر بشرطه أيضاً ولا يفي به .

ومن شعر الحماسة ، واسم الشاعر العارق الطائي^(١) :

(١) واسمه أيضاً قيس بن جررة الطائي ؛ والأبيات في ديوان الحماسة بشرح الرزوقي ٣ : ١٤٦٦ ،
١٤٦٧ . قال الشارح : « كان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق ورجع منفصلاً ، فر بطيء — وكانوا في
ذمته — بكتاب عقد اكتبته لهم ، وعهد أحكمه معهم ، فقال زرارَةُ بن عدس له : أبيت اللعن ! أصب من
هذا الحى شيئاً . قال : ويلك ! إن لهم عقداً لا يجوز لنا تخطيه . فأخذ زرارَةُ يهون أمر المهدي عليه ،
ويحسن الإيقاع بهم ، فلم يزل يقتل له في الذروة والغارب معه شيء كان في نفسه على طيء ، حتى أصاب
أذواداً ونساء ، فهجا عارق عمرو بن هند بأبيات يعصب بها رأسه فيها بالغدر الذي كان منه ، ف وقعت
بها لأبيات إلى عمرو بن هند ، فتوعد عارقاً وحلف أنه يقتله ، فاتصلت مقالته بعارق ، فقال هذه الأبيات » .

مَنْ مَبْلَغُ عَمَرُو بْنِ هِنْدٍ رِسَالَةً إِذَا اسْتَحَقَّ بِهَا الْعَيْسُ جَاءَتْ مِنَ الْبُعْدِ^(١)
أَيُّوعِدُنِي وَالرَّمْلُ يَبْنِي وَيَنْسَهُ تَبَيَّنَ رُوَيْدَا مَا أَمَامَهُ مِنْ هِنْدٍ^(٢)
وَمِنْ أَجَا حَوْلِي رِعَانٌ كَأَنَّهَا قَنَايِلُ خَيْلٍ مِنْ كَمَيْتٍ وَمِنْ وَرْدٍ^(٣)
غَدَرَتْ بِأَمْرِ كَفْتٍ أَنْتَ اجْتَرَرْتَنَا إِلَيْهِ وَبُسَ الشِّيمَةُ الْغَدَرُ بِالْعَهْدِ^(٤)
قال أبو بكر الصديق : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ : الْبَغْيُ وَالنَّكَثُ وَالْمَكْرُ ؛
قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾^(٥) ، وقال : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ
فَإِنَّمَا يَنْكَثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾^(٦) ، وقال : ﴿ وَلَا يَحْقِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾^(٧)

-
- (١) استحققتها : حملتها في الحقائق .
(٢) أيُّوعِدُنِي ، الاستفهام على طريق التقريع واستعظام الأمر .
(٣) أجَا : أحد جبلي طيء ، وثانيهما سلمى . والرعان : جمع رعن ؛ وهو أنف يتقدم من الجبيل .
والقنايل جماعات الحيل ، قال التبريزي : « جعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .
(٤) في حساسة المرزوقي « اجتذبتنا » . وفي التبريزي : « دعوتنا » .
(٥) سورة يونس ٢٣ .
(٦) سورة الفتح ١٠ .
(٧) سورة فاطر ٤٣ .

(٤٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأفضل :

أيها الناس ، إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ : اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ؛
فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ .
أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَاءً ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ ، أَصْطَبَهَا
صَابِئًا . أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ ؛ وَلِكُلِّ مِنْهُمَا بَنُونَ ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ
وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَإِنْ كُلٌّ وَلَدَ سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّ الْيَوْمَ
عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٍ .

قال الرضى رحمه الله :

أقول : الحَذَاءُ : السَّريعة ، ومن النَّاسِ من يَرُوهُ : « جَذَاء » بالجيم والذَّال ،
أى انْقَطَعَ دَرُّهَا وَخَيْرُهَا .

الْمُنْخَرَجُ :

الصُّبَابَةُ : بقية الماء في الإناء . واصطبتها صابئًا ، مثل قولك : أبقاها مُبْقِيًا أو تركها
تاركها ؛ ونحو ذلك ، يقول : أَخَوْفَ مَا أَخَافُهُ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ، أما اتِّبَاعُ
الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ؛ وهذا صحيح لا ريب فيه ، لأنَّ الْهَوَى يُعْمَى البصيرة ، وقد قيل :

- بك الشيء يُعْمَى وَيُصَمِّمُ ، ولهذا قال بعض الصالحين : رَحِمَ اللهُ امرأً أَهْدَى إلى عِيوبِي ؛
وَالِكُ لَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَحِبُّ نَفْسَهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا عَمِيَ عَنْ عِيوبِهِ ، فَلَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ
بِحَ عَيْبِ نَفْسِهِ ، وَقَدْ قِيلَ :

أَرَى كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ وَيَعْمَى عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ
فلهذا استعان الصالحون عَلَى معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم ، علماً منهم أَنَّ هَوَى النَّفْسِ
أَنَّهُا يُعْمِيهَا عَنْ أَنْ تُدْرِكَ عَيْبَهَا ، وَمَا زَالَ الْهَوَى مُرْدِيًا قَتَلًا ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ :
وَنَسَى الْنَفْسَ عَنِ الْهَوَى ^(١) ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ :
سُخٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » ^(٢) .

وَأَنْتِ إِذَا تَأَمَّلْتَ هَلَاكَ مَنْ هَلَكَ مِنَ التَّكَلِّمِينَ كَالْجَبْرِ وَالْمَرْجَةِ ، مَعَ ذِكْرِهِمْ وَفِطْنَتِهِمْ
اشْتَغَلْتُمْ بِالْعُلُومِ ، عَرَفْتِ أَنَّهُ لَا سَبَبَ لِهَلَاكِهِمْ إِلَّا هَوَى الْأَنْفُسِ ، وَحُبُّهُمْ الْإِنْتِصَارَ لِلْمَذْهَبِ
الَّذِي قَدْ أَلْفَوْهُ ، وَقَدْ رَأَسُوا بِطَرِيقِهِ ، وَصَارَتْ لَهُمُ الْإِتْبَاعُ وَالتَّلَامُذَةُ ، وَأَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ ،
يَعْدُوهُمْ السُّلَاطِينُ عُلَمَاءُ وَرُؤَسَاءُ ، فَيَكْرَهُونَ نَقْضَ ذَلِكَ كُلِّهِ وَإِبْطَالَهُ ، وَيَحْبُونَ الْإِنْتِصَارَ
تِلْكَ الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ الَّتِي نَشَتْهَا عَلَيْهِمْ ، وَعَرَفُوا بِهَا ، وَوَصَلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ بِطَرِيقِهَا ،
وَيَخَافُونَ عَارَ الْإِنْتِقَالِ عَنِ الْمَذْهَبِ ، وَأَنْ يَشْتَقِيَ بِهِمُ الْخُصُومُ وَيَقْرَعَهُمُ الْأَعْدَاءُ ؛ وَمَنْ
أَنْصَفَ عِلْمَ أَنَّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ حَقٌّ . وَأَمَّا طَوْلُ الْأَمَلِ فَيَنْبَغِي الْآخِرَةُ ؛ وَهَذَا حَقٌّ ، لِأَنَّ الذِّهْنَ
إِذَا انْصَرَفَ إِلَى الْأَمَلِ ، وَمَدَّ الْإِنْسَانُ فِي مَدَاهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُ الْآخِرَةَ ، بَلْ يَصِيرُ مُسْتَفْرِقَ
الْوَقْتِ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا ، وَمَا يَرْجُو حَصُولَهُ مِنْهَا فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ .

(١) سورة النازعات ٤٠ .
(٢) كَذَا أورد الحديث مختصراً ، ونقله السيوطي في الجامع الصغير (١ : ٢٣٦) بهذه الرواية :
« ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ ، وَثَلَاثٌ كِفَارَاتٌ ؛ وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ ؛ فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ فَسُخٌّ مُطَاعٌ ،
وَهَوَى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ . . . » إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ .

ومن كلام مسعر بن كدام : كم من مُستَقْبِلِ يومٍ ليس يستَكْمِلُهُ ، ومُنْتَظِرٍ غدا
ليس من أَجَلِهِ ! ولو رأيتُم الأجلَ ومسيرَه أبغضتم الأملَ وغروره .
وكان يقال : تسويف الأملِ غرار ، وتسويل الحالِ ضرار .
ومن الشعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام :

غَرَّ جَهُولًا أَمَلُهُ يموتُ مَنْ جَا أَجَلُهُ
وَمَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيلُهُ
وَمَا بَقَاءُ آخِرٍ قَدْ غَابَ عَنْهُ أَوَّلُهُ
ولم يرَ لا يَصْحَبُهُ في القَبْرِ إِلَّا عَمَلُهُ

وقال أبو العتاهية :

لا تَأْمَنِ المَوْتَ في لَحْظٍ وَلَا نَفْسٍ ولو تَمَنَعْتَ بِالْحِجَابِ وَالْحَرَسِ^(١)
وَأَعْلَمَ أَنَّ سِهَامَ المَوْتِ قَاصِدَةٌ لِكُلِّ مَدْرَعٍ مِمَّا وَمُتَرِّسٍ
مَابَالُ دِينِكَ تَرْضَى أَنْ تُدْتَسَّهَ وَثَوْبُ لُبْسِكَ مَغْسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ !
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَارِكَهَا إِنَّ السَّيْفِينَةَ لَا تَجْزِي عَلَى الْيَدَسِ

ومن الحديث المرفوع : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْأَعْمَالَ تُطَوَّى ، والأَعْمَارُ تُفْنَى ، والأَبْدَانُ
تُبْلَى في الثَّرَى ، وإنَّ الليلَ والنَّهارَ يَتَرَا كَضَانَ تَرَا كُضَّ الفِرْقَدِينَ ، يَقْرَبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ ،
وَيُخْلِقَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ؛ وفي ذلك مَا أَلْهَى عَنِ الْأَمَلِ ، وَأَذْكَرَكَ بِمَحُلُولِ الْأَجَلِ » .

وقال بعض الصالحين : بقاؤك إلى فناء ، وفناؤك إلى بقاء ، نخذ من فنائك الذي
لا يَبْقَى ، لبقائك الذي لا يَفْنَى .

وقال بعضهم : اغتَنِمْ نَفْسَ الْأَجَلِ ، وإمكان العمل ، واقطع ذِكْرَ المَعَاذِيرِ والعَلَلِ ؛
ودع تسويفَ الْأَمَانِيِّ والأَمَلِ ؛ فَإِنَّكَ في نَفْسٍ مَعْدُودٍ ، وَعُمُرٍ مَحْدُودٍ ، ليس بمَمْدُودٍ .
وقال بعضهم : اعملْ عملَ المُرْتَحِلِ ، فَإِنَّ حَادِيَ المَوْتِ يَحْدُوكَ اليَوْمَ لا يَعْدُوكَ .

ثم قال عليه السلام : «ألا إن الدنيا قد أدبرت حذاء» بالحاء والذال المعجمة ؛ وهي لسريعة ، وقطاة حذاء : خفّ ريشُ ذَنبِها ، وَرَجُلٌ أَحَدٌ ، أى خفيف اليد ، وقد رُوى ، « قد أدبرت حذاء » بالجيم ؛ أى قد انقطع خَيْرُها ودَرَّها .
ثم قال : إن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة ، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا .
ثم قال : «اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » ، وهذا من باب المقابلة نى علم البيان ^(١) .



(١) هنا آخر الجزء الثانى فى نسخة ١ ، وفيها بعد هذه الكلمة : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة »
(٢١ - نهج - ٢)

(٤٣)

ومن كلام له عليه السلام ، وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام ، بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجلي :

الأصل :

إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقُ لِلشَّامِ ، وَصَرَفٌ لِأَهْلِهِ
عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتْ لِحَرْبِي وَقْتًا لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعًا أَوْ عَاصِيًا ،
وَأَرَأَيْتُمْ مَعَ الْأَنَانَةِ فَأَرْوِدُوا ، وَلَا أَكْرَهُ لَكُمْ الْإِعْدَادَ .
وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ ^(١)
إِلَّا الْقِتَالَ أَوْ الْكُفْرَ ^(٢) بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ^(٣) .
إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالِا أَحَدٌ أَحَدَانَا ، وَأَوْجَدَ النَّاسَ ^(٤) مَقَالًا فَقَالُوا ، ثُمَّ
نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

الْبَيِّنُ :

أَرْوِدُوا ، أَيِ ارْتَفَعُوا ، أَرْوَدَ فِي السَّبِيلِ إِرْوَادًا ، أَيِ سَارَ بِرَفْقٍ ، وَالْأَنَانَةُ : التَّثَبُّتُ وَالنَّاتِي .
ونهيهم لهم عن الاستعداد ، وقوله بعد : « وَلَا أَكْرَهُ لَكُمْ الْإِعْدَادَ » غيرُ متناقض ، لأنه
كره منهم إظهار الاستعداد والجله به ، ولم يكره الإعداد في السر ، وعلى وجه الخفاء

(١) كذا في ب ، وفي ا : « فلم أر إلا القتال » ، وفي ج : « فلم أرل إلا القتال »

(٢ - ٢) كذا في ب ، وهو ساقط من ا ، ج .

(٣) غلطوة النهج . « للناس » .

والكتمان ؛ ويمكن أن يقال إنه كره استعداد نفسه ، ولم يكره إعداد أصحابه ؛ وهذا متغايران . وهذا الوجه اختاره القطب الراوندى .

ولقائل أن يقول : التعليل الذى علل به عليه السلام يقتضى كراهية الأمرين معا ، وهو أن يتصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السلم إلى الحرب ؛ بل ينبغي أن تكون كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولهم وآلات حربهم أولى ؛ لأن شياع ذلك أعظم من شياع استعداد وحده ، لأنه وحده يمكن أن يكتم استعداد ، وأما استعداد العساكر العظيمة ، فلا يمكن أن يكتم ، فيكون اتصاله وانتقاله إلى أهل الشام أسرع ، فيكون إغلاق الشام عن باب خير إن أرادوه أقرب ؛ والوجه فى الجمع بين اللفظتين ما قدمناه .

وأما قوله عليه السلام : « ضربت أنف هذا الأمر وعينه » ، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء فى البحث والتأمل والفكر ؛ وإنما خص الأنف والعين ، لأنهما صورة الوجه ، والذى يتأمل من الإنسان إنما هو وجهه .

وأما قوله : « ليس إلا القتال أو الكفر » فلأن النهى عن المنكر واجب على الإمام ، ولا يجوز له الإقرار عليه ، فإن تركه فسق ، ووجب عزله عن الإمامة . وقوله : « أو الكفر » من باب المبالغة ؛ وإنما هو القتال أو الفسق ، فسمى الفسق كفرا تغليظا وتشديداً فى الزجر عنه .

وقوله عليه السلام : « أوجد الناس مقالا » ، أى جعلهم ولجدين له ^(١) .

وقال الراوندى : أوجد ها هنا بمعنى « أغضب » . وهذا غير صحيح ، لأنه لا شىء ينصب به « مقالا » إذا كان بمعنى « أغضب » . والوالى المشار إليه عثمان .

(١) عبارة ابن ميثم : « أى جعل لهم بتلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا » .

[ذكر ما أورده القاضي عبد الجبار من دفع ما تعلق به الناس

على عثمان من الأحداث]

يجب أن نذكر ها هنا أحداثه ، وما يقوله أصحابنا في تأويلاتها ، وما تسكّم به المرتضى في كتاب " الشافي " ، في هذا المعنى ، فنقول :

إن قاضي^(١) القضاة رحمه الله تعالى ، قال في " المغني " قبل الكلام في تفصيل هذه الأحداث كلاما مجملا ، معناه أن كل مَنْ تثبت عدالته ووجب تولّيه إمّا على القطع وإمّا على الظاهر فغير جائز أن يُعدّل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمرٍ متيقّن يقتضي العدول عنها ، يبيّن ذلك أن مَنْ شاهدناه على ما يوجب الظاهر تولّيه وتعظيمه يجب أن يبقّى فيه على هذه الطريقة ، وإن غاب عَنّا . وقد عرفنا أنّه مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرّا على حاله ، ويجوز أن يكون منتقلا ، ولم يقدح هذا التجويز في وجوب ما ذكرناه .

ثم قال : فالحدث الذي يُوجب الانتقال عن التعظيم والتولّي إذا كان من باب محتمل لم يحز الانتقال لأجله . والأحوال المتقرّرة في النفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن نتولّاه أقوى في باب الإمارة من الأمور المتجدّدة ؛ فإنّ مثلَ فرقة السَّبَخِي^(٢) ، ومالك ابن دينار^(٣) لو شوهدا في دارٍ فيها منكر أقوى في الظنّ حضورهما للتغيير والإنكار ؛

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني ، صاحب كتاب « المغني » في الجدل ؛ وإمام أهل المعتزلة في زمانه ، توفي سنة ٤١٥ . طبقات الشافعية ٣ : ٢١٩ .

(٢) السبخي ، بفتح السين والباء الموحدة ، وفي آخرها خاء معجمة : منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، وهو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي ، من زهاد البصرة ، ومات سنة ١٣١ معجم البلدان ٥ : ٢٧ .

(٣) هو أبو يحيى مالك بن دينار ، ؛ وكان من كبار الزهاد والوعاظ ؛ روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين ، توفي سنة ١٣٠ . صفة الصفوة ٣ : ١٩٧ .

أو على وجه الإكراه أو الغلط ؛ ولو كان الحاضر هناك مَنْ عُلِمَ من حاله الاختلاط
بالمسكر لجوّز حضوره للفساد ؛ بل كان ذلك هو الظاهر من حاله .
ثم قال : واعلم أن الكلام فيما يدّعى من الحدث والتغير فيمن ثبت توليه ؛ قد
يكون من وجهين :

أحدُهما : هل علم بذلك أم لا ؟

والثاني : أنه مع يقين حصوله : هل هو حَدَثٌ يُوَثِّرُ في العدالة أم لا ؟
ولا فرق بين تجويز ألا يكون حدث أصلا ، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألا
يكون حدثا .

ثم قال : كلّ محتمل لو أخبر الفاعل أنه فعله على أحد الوجهين ، وكان يغلبُ على
الظنّ صدقه لوجب تصديقه ، فإذا عرف من حاله المتقررة في النفوس ما يطابق ذلك جرى
مجرى الإقرار ؛ بل ربما كان أقوى ؛ ومتى لم نسلك هذه الطريقة في الأمور المشبهة لم
يصحّ في أكثر من تتولاه ونعظمه أن تسلم حاله عندنا ، فإننا لو رأينا من يُظنّ به الخير
يكلم امرأة حسناء في الطريق لكان ذلك من باب المحتمل ؛ فإذا كان لو أخبر أنها أخته
أو امرأته لوجب ألا نحول عن توليه ، فكذلك إذا كان قد تقدّم في النفوس ستره
وصلاحه ؛ فالواجب أن نحمله على هذا الوجه .

ثم قال : وقول الإمام له مزيّة في هذا الباب ؛ لأنه أكد من غيره ، وأما ما ينقل
عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه وإن لم يكن مقطوعا به يُوَثِّرُ في هذا الباب ،
ويكون أقوى مما تقدّم .

ثم قال : وقد طعن الطاعنون فيه بأمر متنوعة مختلفة ؛ ونحن نقدّم على تلك المطاعن
كلّاماً مُجْمَلاً ؛ يبين بطلانها على الجملة ، ثم نتكلم عن تفصيلها .

قال : وذلك أن شيخنا أبا علي^(١) رحمه الله تعالى قد قال : لو كانت هذه الأحداث مما تُوجب طعنا على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذي ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلا يُنصب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك عن عثمان كوته ؛ فإنه لا خلاف أنه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعَه ، أن الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه ، فلما علمنا أن طلبهم لإقامة إمام إنما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبلُ والتمسك قائم ، علمنا بطلان ما أُضيف إليه من الأحداث .

قال : وليس لأحد أن يقول : إنهم لم يتمكنوا من ذلك ؛ لأنّ المتعالم من حالهم أنهم حصروه ومنعوه من التمسك من نفسه ، ومن التصرف في سلطانه ؛ خصوصا والخصوم يدعون أن الجميع كانوا على قول واحد في خلعَه والبراءة منه .

قال : ومعلوم من حال هذه الأحداث أنها لم تحصل أجمع في الأيام التي حوَصر فيها وقتل ، بل كانت تحصل من قبلُ حالا بعد حال ، فلو كان ذلك يُوجب الخلع والبراءة لما تأخر من المسلمين الإنكارُ عليه ؛ ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أولى بذلك من الواردين من البلاد ؛ لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم .

قال : فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصل البراءة والخلعُ من أول الوقت الذي حصل منه ما أوجب ذلك ، وألا ينتظر حصول غيره من الأحداث ، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حدٍّ إلا وينتظر غيره .

ثم ذكر أن إمساكهم عن ذلك إذا تيقنوا الأحداث منه يُوجب نسبة الجميع إلى الخطأ والضلال . ولا يمكنهم أن يقولوا : إن علمهم بذلك إنما حصل في الوقت الذي حُصر ومُنِع ؛ لأن من جملة الأحداث التي يذكرونها ما تقدم عن هذه الحال ؛ بل كلها أو جلّها تقدم هذا الوقت ؛ وإنما يمكنهم أن يتعلّقوا فيما حدث في هذا الوقت بما يذكرونه من

(١) هو محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، شيخ المعتزلة . توفى سنة ٣٠٣ . شذرات الذهب ٢ : ٢٤١ .

حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سرح بالقتل ، وما أوجب كون ذلك حدثاً يوجب كون غيره حدثاً ، فكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل ؛ واحتمال التقدم للتأويل كاحتمال التأخر .

ثم قال : وبعد ؛ فليس يحلّو من أن يدعوا أن طلب الخلع وقع من كل الأمة أو من بعضهم ؛ فإن ادّعوا ذلك في بعض الأمة ، فقد علمنا أن الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجوز إبطالها بلا خلاف ، لأن الخطأ جائز على بعض الأمة ، وإن ادّعوا في ذلك الإجماع لم يصح ؛ لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومن كان ينصره ، ولا يمكن إخراجهم من الإجماع ، بأن يقال : إنه كان على باطل ؛ لأن بالإجماع يتوصل إلى ذلك ، ولم يثبت .

ثم قال : عليّ أن الظاهر من حال الصحابة أنها كانت بين فريقين ؛ أما من نصره ، فقد روى عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار : ائذن لنا بنصرك . وروى مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة ، والباقيون ممنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ إلا إنه لو ضيق عليهم الأمر في الدفع ماقدّموا ، بل المتعالم من حالهم ذلك .

ثم ذكر ما روى من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه ، وأنه لما قُتِلَ لأمهما عليه السلام على وصول القوم إليه ، ظننا منه أنهما قصرا . وذكر أن أصحاب الحديث يروون عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « ستكون فتنة واختلاف ، وإن عثمان وأصحابه يومئذ على الهدى » . وما روى عن عائشة من قولها : « قُتِلَ والله مظلوما » .

قال : ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث في ذلك ؛ لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه ؛ نحو دعواهم أن جميع الصحابة كانوا عليه ؛ لأن ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد ؛ وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ما ثبت من أحواله السليمة ، ووجوب توليه .

قال : ولا يجوز أن يعدل عن تعظيمه وصحة إمامته بأمر محتملة ؛ فلا شيء مما ذكره إلا ويحتمل الوجه الصحيح .
ثم ذكر أن الإمام أن يجتهد برأيه في الأمور المنوطة به ، ويعمل فيها على غالب ظنه ؛ وقد يكون مصيبا ، وإن أفضت إلى عاقبة مذمومة .
فهذه جملة ما ذكره قاضي القضاة رحمه الله تعالى في ” المغنى ” من الكلام إجمالا في دفع ما يتعاق به على عثمان من الأحداث ^(١) .

[رد المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبار من الدفاع عن عثمان]

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في ” الشافى ^(٢) ” ، فقال :
أما قوله : « مَنْ ثَبَتَ عِدَالَتَهُ وَوَجِبَ تَوَلِيهِ إِمَامًا قَطْعًا أَوْ عَلَى الظَّاهِرِ ؛ فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُعَدَّلَ فِيهِ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِلَّا بِأَمْرِ مُتَقَيِّنٍ » ؛ فَغَيْرُ مُسَلِّمٍ لِأَنَّ مَنْ تَوَلَّاهُ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَثَبَّتَ عِدَالَتَهُ عِنْدَنَا مِنْ جِهَةِ غَالِبِ الظَّنِّ ، يَجِبُ أَنْ نَرْجِعَ عَنْ وَلايَتِهِ بِمَا يَقْتَضِي غَالِبَ الظَّنِّ دُونَ الْيَقِينِ ؛ وَلِهَذَا يُوَثِّرُ فِي جَرِّحِ الشُّهُودِ وَسُقُوطِ عِدَالَتِهِمْ أَقْوَالُ الْجَارِحِينَ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَظْنُونَةٌ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ . وَمَا يَظْهَرُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَهَا ظَاهِرٌ يُظَنَّ مَعَهُ الْقَبِيحَ بِهِمْ حَتَّى نَرْجِعَ عَمَّا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ بِعِدَالَتِهِمْ ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ ذَلِكَ مُتَقَيِّنًا ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ مَا ذَكَرَهُ فَيَمُنُّ ثَبَّتَتْ عِدَالَتُهُ عَلَى الْقَطْعِ وَوَجِبَ تَوَلِيهِ عَلَى الْبَاطِنِ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوَثِّرَ فِي حَالِهِ مَا يَقْتَضِي الظَّنَّ ، لِأَنَّ الظَّنَّ لَا يَقَابِلُ الْعِلْمَ ، وَالِدَّلَالَةُ لَا تَقَابِلُ الْأَمَارَةَ .
فَإِنْ قَالَ : لَمْ أَرِدْ بِقَوْلِي إِلَّا بِأَمْرِ مُتَقَيِّنٍ أَنْ كُونَهُ حَدَّثًا مُتَقَيِّنًا ؛ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ تَيَقُّنَ وَقَوَعَ الْفِعْلَ نَفْسِهِ .

قلنا : الأمران سواء في تأثير غلبة الظن فيهما ، ولهذا يُوَثِّرُ في عدالة مَنْ تقدمتْ

(١) نقله المرتضى في الشافى ٢٦٣ ، ٢٦٤ مع تصرف في العبارة .

(٢) كتاب الشافى في الإمامة والرد على كتاب المغنى . طبع في العجم سنة ١٣٠١ .

عدالته عندنا على سبيل الظن أقوال من يخبرنا عنه بارتكاب القباح^(١) إذا كانوا عدولا، وإن كانت أقوالهم لا تقتضى اليقين، بل يحصل عندها غالب الظن. وكيف لانرجع عن ولاية من توليناه على الظاهر بوقوع أفعال منه يقتضى ظاهرها خلاف الولاية، ونحن إنما قلنا بمدالته في الأصل على سبيل الظاهر ! ومع التجويز لأن يكون ماوقع منه في الباطن قبيحا لا يستحق به التولى والتعظيم، ألا ترى أن من شاهدناه يلزم مجالس العلم، ويكثر تلاوة القرآن، ويدمن الصلاة والصيام والحج، يجب أن نتولاه ونعظمه على الظاهر ! وإن جوزنا أن يكون جميع ماوقع منه مع خبث باطنه، وأن غرضه في فعله القبيح فلم نتولاه إلا على الظاهر. ومع التجويز، فكيف لانرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطريقة ! فأما من غاب عنا وتقدمت له أحوال تقتضى الولاية، فيجب أن نستمر على ولايته؛ وإن جوزنا على الغيبة أن يكون منتقلا عن الأحوال الجميلة التي عهدناها منه؛ إلا أن هذا تجويز يخص لظاهر معه يقابل ماتقدم من الظاهر الجميل، وهو بخلاف ما ذكرناه من مقابلة الظاهر للظاهر، وإن كان في كل واحد من الأمرين تجويز.

قال : وقد أصاب في قوله : « إن ما يحتمل لا ينتقل^(٢) له عن التعظيم والتولى » إن أراد بالاحتمال مالا ظاهرا له، وأما ماله ظاهر ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره؛ فإنه لا يسمى محتملا. وقد يكون مؤثرا فيما ثبت من التولى على الظاهر على ما ذكرناه. قال : فأما قوله : « إن الأحوال المتقررة في النفوس بالعادات فيمن نتولاه تؤثر مالا يؤثر غيرها، وتقتضى حمل أفعاله على الصحة والتأول له » ؛ فلا شك أن ما ذكره مؤثر وطريق قوي إلى غلبة الظن، إلا أنه ليس يقتضى ما يقرر في نفوسنا لبعض من نتولاه على الظاهر أن نتأول كل ما يشاهد منه من الأفعال التي لها ظاهر قبيح، ونحمل الجميع على

(١) الشافى : « قبيح » .

(٢) الشافى : « لا يجوز أن ينتقل له » .

أجل الوجوه ، وإن كان بخلاف الظاهر ، بل ربما تبين الأمرُ فيما يقع^(١) منه من الأفعال التي ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثر في أحواله المقررة ، ونرجع بها عن ولايته ؛ ولهذا نجد كثيرا من أهلِ العدالة المقررة لهم في النفوس ، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لا تثبت له في وقت من الأوقات عدالة ، وإنما يكون ذلك بما يتوالى منهم ويتكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة .

قال : فأما ما استشهد به من أن مثل مالك بن دينار لو شاهدناه في دارٍ فيها منكر لقوى في الظن حضوره لأجل التغيير والإنكار^(٢) ، أو على وجه الإكراه والغلط وأن غيره يخالفه في هذا الباب ؛ فصحيح لا يخالف ما ذكرناه ؛ لأن مثل مالك بن دينار تمن تناصرت أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالا بعد حال ، لا يجوز أن يقدح فيه فعل له ظاهر قبيح ، بل يجب لما تقدم من حاله أن نتأول فعله ، ونخرجه عن ظاهره إلى أجل وجوهه . وإنما وجب ذلك لأن الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة ، فنجعلها قاضية على الفعل والفعلين ، ولهذا متى توالى منه الأفعال القبيحة الظاهرة وتكررت ، قدحت في حاله ، وأثرت في ولايته ، كيف لا يكون كذلك وطريق ولايته في الأصل هو الظن والظاهر ، ولا بد من قدح الظاهر في الظاهر ، وتأثير الظن في الظن على بعض الوجوه .

قال : فأما قوله : « فإن كلَّ محتمل لو أخبرنا عنه وهو مما يغلب على الظن صدقه أنه فعله على أحد الوجهين ، وجب تصديقُه ، فمتى عرف من حاله المقررة في النفوس ما يطابق ذلك ، جرى مجرى الإخبار^(٣) » ؛ فأول ما فيه أن « المحتمل » هو ما لا يظهر له من الأفعال ، والذي يكون جواز كونه قبيحا كجواز كونه حسنا ، ومثل هذا الفعل لا يقتضى ولاية

(١) الشافى : « فيما يرجع منه » .

(٢) الشافى : « التنكير » .

(٣) الشافى : « الإقرار » .

ولا عداوة ، وإنما يقتضى الولاية ماله من الأفعال ظاهر جميل ، ويقتضى العداوة ماله ظاهر قبيح .

فإن قال : أردتُ بالاحتمال ماله ظاهر ، لكنه يجوز أن يكون الأمر بخلاف ظاهره .

قيل له : ما ذكرته لا يسمى محتملاً ؛ فإن كنت عنيته فقد وضعت العبارة في غير موضعها ، ولا شك في أنه إذا كان ممن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقه، وحمل الفعل على خلاف ظاهره ؛ فإن الواجب لما تقرر له في النفوس أن يتأول له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل ، إلا أنه متى توالى منه الأفعال التي لها ظواهر قبيحة، فلا بد أن تكون مؤثرة في تصديقه، متى أخبرنا بأن غرضه في الفعل خلاف ظاهره ، كما تكون مانعة من الابتداء بالتأول .

وضربه المثل بأن من نراه يكلم امرأة حسناء في الطريق إذا أخبر أنها أخته أو امرأته في أن تصديقه واجب، ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامه لها على أجل الوجوه ؛ لما تقدم له في النفوس - صحيح، إلا أنه لا بد من مراعاة ما تقدم ذكره، من أنه قد يقوى الأمر لقوة الأمارات والظواهر إلى حد لا يجوز معه تصديقه ولا التأول له، ولولا أن الأمر قد ينتهي إلى ذلك لما صح أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة ، ولامن العدالة إلى خلافها؛ لأنه لا شيء مما يفعله الفساق المتهتكون إلا ويجوز أن يكون له باطن بخلاف الظاهر، ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز ؛ يبين صحة ما ذكرناه أننا لو رأينا من يُظن به الخير يكلم امرأة حسناء في الطريق ويداعبها ويصاحبها لظننا به الجميل مرة ومرات ، ثم ينتهي الأمر إلى ألا نظهريه . وكذلك لو شاهدناه وبحضرته المنكر ، لحملنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غير ذلك من الوجوه الجميلة. ثم لا بد من انتهاء الأمر إلى أن نظن به القبيح ولا نصدق في كلامه .

قال : ثم نقول ^(١) له : أخبرنا نعم شاهدناه من بُعد وهو مفترش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرّم ، وأنّ لها في الحال زوجاً غيره ، وهو ممن تقررت له في النفوس عدالة متقدمة ، ماذا يجب أن نظنّ به ؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته ، أم نحمله على أنه غلط ومتوهم أنّ المرأة زوجته ، أو على أنه مكره على الفعل ، أو غير ذلك من الوجوه الجميلة ! فإن قال : نرجع عن الولاية ، اعترف بخلاف ما قصده في الكلام ، وقيل له : أيّ فرق بين هذا الفعل وبين جميع ما عدناه من الأفعال وأدعيت أنّ الواجب أن نعدل عن ظاهرها ؟ وما جواز الجليل في ذلك إلا كجواز الجليل في هذا الفعل .

وإن قال : لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته ^(٢) ، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة . قيل له : أرايت لو تكرّر هذا الفعل وتوالى هو وأمثاله حتى نشاهد حاضراً في دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها ، وكلّ هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرهاً وفي أنه القبيح بعينه غلطاً ، أكان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها ؟ فإن قال : نستمرّ ونتأول ، ارتكب مالا شبهة في فسادِهِ ، وألزم ما قد قدّمنا ذكره من أنّه لا طريق إلى الرجوع عن ولاية أحد ، ولو شاهدنا منه أعظم المناكير . ووقف أيضاً على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظنّ دون القطع ، فكيف لا نرجع عنها لمثل هذا الطريق ، فلا بدّ إذن من الرجوع إلى ما بيناه وفصلناه في هذا الباب .

قال : فأما قوله : « إن قول الإمام له مزية ؛ لأنه أكد من غيره » فلا معنى له ؛ لأن قول الإمام على مذهبه يجب أن يكون له مزية ، من حيث كان معصوماً مأموناً ^(٣) الباطن ، وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين ؛ فأى مزية له في هذا الباب !

(١) ب « ثم يقال » .

(٢) الشافى : « الولاية » .

(٣) الشافى : « معصوماً مأموناً باطنه » .

— ٣٣٣ —

وقوله : « ^(١) إن ما ينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعاً عليه يؤثر في هذا الباب ، ويكون أقوى مما تقدم » غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن تأثير ما ينقل إذا كان يقتضي غلبة الظن لا شبهة فيه ؛ فأما تقويته على غيره فلا وجه له ؛ وقد كان يجب أن يبين من أى الوجوه يكون أقوى .

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأول من كلام قاضى القضاة رحمه الله تعالى .

تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة ^(٢)

(١) الشافى ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٢) هذا نهاية نسخة ب ، ج ، و آخر نسخة ج : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة ، بحمد الله ومنه وصلى الله على محمد وآله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

- ٢٦ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها العرب بما كانوا عليه قبل
البعثة ، وشكوا من انفراده بعدها ، وذمه لمن بايع بشرط
٦٠ ، ٢٠ ، ١٩
- ٢٧ - من خطبة له في الحث على الجهاد وذم المتقاعدين
٧٥ ، ٧٤
- ٢٨ - من خطبة له في إدبار الدنيا وإقبال الآخرة والحث على التزود لها
٩١
- ٢٩ - من خطبة له في ذم المتخاذلين
١١١
- ٣٠ - من خطبة له في معنى قتل عثمان رضى الله عنه
١٢٦
- ٣١ - من كلام له لما أنفذ عبد الله بن العباس إلى الزبير
قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيه إلى طاعته
١٦٢
- ٣٢ - من خطبة له في ذم الدهر وحال الناس فيه
١٧٥ ، ١٧٤
- ٣٣ - من خطبة له عند مسيره لقتال أهل البصرة
١٨٥
- ٣٤ - من خطبة له في استنفار الناس إلى أهل الشام
١٩٠ ، ١٨٩
- ٣٥ - من خطبة له بعد التحكيم
٢٠٤
- ٣٦ - من خطبة له في تخويف أهل النهروان
٢٦٥
- ٣٧ - من كلام له يجرى مجرى الخطبة ، بذكر ثباته في الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر
٢٨٤
- ٣٨ - من خطبة له في معنى الشبهة
٢٩٨
- ٣٩ - من خطبة له في ذم المتقاعدين عن القتال
٣٠٠
- ٤٠ - من كلام له للخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » .
٣٠٧
- ٤١ - من خطبة له في مدح الوفاء وذم العدر
٣١٢
- ٤٢ - من خطبة له يحذر الناس فيها من اتباع الهوى وطول الأمل
٣١٨
- ٤٣ - من خطبة له وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام
بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجلي
٣٢٢

* وهى الخطب التى وردت فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

صفحة	
٣ - ١٨	بعث معاوية بسر بن أرطاة إلى الحجاز واليمن
٢١ - ٦١	حديث السقيفة
٦١ - ٧٣	أمر عمرو بن العاص
٨٠	استطراد بذكر كلام لابن نباتة في الجهاد
٨٥ - ٩٠	غارة سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار
٩٣ - ١٠٣	نبذ من أقوال الصالحين والحكماء
١٠٣ - ١١٠	استطراد بلاغى في الكلام على المقابلة
١١٣ - ١٢٥	غارة الضحاك بن قيس وتنف من أخباره
١٢٩ - ١٦١	اضطراب الأمر على عثمان ثم أخبار مقتله
١٦٦ - ١٧٠	من أخبار الزبير وابنه عبد الله
١٧٠ - ١٧٣	استطراد بلاغى في الكلام على الاستدراج
	فصل في ذكر الآيات والأخبار الواردة في ذم
١٧٨ - ١٨٢	الرياء والشهرة
١٨٢ - ١٨٤	فصل في مدح الخول والجنوح إلى العزلة
١٨٧ - ١٨٨	من أخبار يوم ذي قار
١٩٣ - ١٩٧	أمر الناس بعد وقعة النهروان
١٩٧ - ٢٠٣	مناقب على وذكر طرف من أخباره في عدله وزهده
٢٠٦ - ٢٦٠	قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج
٢٦٥ - ٢٨٣	أخبار الخوارج
٢٨٦ - ٢٩٥	الأخبار الواردة عن معرفة الإمام على بالأمور الغيبية

* وهى الموضوعات التى وردت أثناء الفرح .

صفحة	
٣٠٥ - ٣٠١	أمر النعمان بن بشير مع علي ومالك بن كعب الأرحبي
٣٠٩ - ٣٠٧	اختلاف الرأي في القول بوجوب الإمامة
٣١٢ - ٣١٠	من أخبار الخوارج أيضا
٣١٧ - ٣١٤	الأخبار والأحاديث الواردة في مدح الوفاء وذم الغدر
	ذكر ما أورده القاضي عبد الجبار من دفع ما تعلق به الناس على عثمان
٣٢٨ - ٣٢٤	من الأحداث
٣٣٣ - ٣٢٨	رد المرتضى على ما أورده القاضي عبد الجبار من الدفاع عن عثمان .

